دراسات إسلامية معاصرة

« ١ »

الكتاب والقرآن

الدكتور

محمد شحرور



الكتاب والقرآن

قـراءة مُعـاصرة

* الكتاب والقرآن
* تأليف: الدكتور محمد شحرور

* **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٦٦٢٤٤٤٧

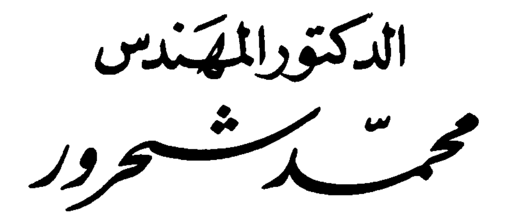
فاكس: ٦٦٦٧٥٤٩ - بريد الكتروني: odat-h@scs-net.org

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
* **الأهالي للتوزيع**

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ - فاكس: ٦٦٦٧٥٤٩

الكتاب والقرآن

قراءة معاصرة



وبآخره كتاب «**أسرار اللسان العربي**» للدكتور **جعفر دك الباب**

إهداء

إلى الإنسان الّذي علّمني الفكر النّقدي منذ نعومة أظفاري...

إلى الإنسان الذي علّمني أن أقول كلمة الحقّ بدون خوف.

إلى الإنسان الذي علّمني أنّ حريّة التّعبير عن الرأي وحريّة الاختيار هما أغلى ما يملكه الإنسان وهما هبة الله إلى الناس كهبة الحياة نفسها.

إلى والدي العزيز

ديب شحرور



بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

هود ٨٨

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ

الفهرس

الكتاب = النبوة + الرسالة

الكتاب = آيات متشابهات + آيات لا محكمات ولا متشابهات + آيات محكمات

الكتاب = القرآن العظيم + السبع المثاني + تفصيل الكتاب + أم الكتاب (الذي بين يديه)

الحديث (الحق) الآيات البينات

أحسن الحديث

الآيات الشارحة لمحتويات الكتاب

١ - الحدود بما فيها العبادات
٢ - الفرقان العام والخاص (الوصايا)
٣ - أحكام مرحلية
٤ - أحكام ظرفية (آيات مبينات)
٥ - تعليمات عامة وليست تشريعات
٦ - تعليمات خاصة وليست تشريعات

لوح محفوظ (قرآن مجيد) القوانين العامة الناظمة للوجود

إمام مبين

الكتاب المبين أحسن القصص قوانين التاريخ

كتاب مبين قوانين جزئيات الطبيعة (تصريف أحداث الطبيعة)

الذكر: هو الصيغة اللغوية الصوتية التعبدية للكتاب كله بغض النظر عن فهم المحتوى وهي الصيغة المُحْدَثة.

الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط أي الرسالة

تقديم
المنهج اللغوي في الكتاب

بقلم: الدكتور جعفر دك الباب

يسعدني ان أقدم للقارىء الكريم كتاب الصديق الدكتور المهندس محمد شحرور وعنوانه «الكتاب والقرآن». لن أركز في تقديمي على الموضوعات الهامة التي بحثها المؤلف في الكتاب، لأنه سيعرضها بنفسه في المقدمة. ولن أطنب في ذكر الجوانب الإيجابية، في بنية الكتاب، التي مكنت المؤلف من الأخذ تدريجياً، بيد القارىء للسير معه خطوة خطوة، من أجل الوصول إلى الأمور الجديدة، التي ينطبق عليها بحق وصف «قراءة معاصرة». ولن أعمد إلى الإشادة بحرص المؤلف الشديد على الدقة المتناهية في صياغة أفكاره، بالشكل الذي يمكن من إيصالها إلى القارىء كما أراد هو، لا كما قد يحاول كَثيرون، لمآرب شتى، تسليط الضوء على جوانب منها فقط، والتعتيم على جوانب أخرى، وذلك بغية استغلالها في خدمة مقاصد يسعون إلى تحقيقها. ولكني أنوه بأن الصديق الدكتور المهندس محمد شحرور مؤمن إيماناً راسخاً بأن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه خاتم الأنبياء والرسل. لذا فإن المؤلف يتمسك بيقين لا يتزعزع بمسلمة ان «القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان إلى يوم الدين»، ويرى ان الدليل على كون القرآن معجزاً، لأنه من عند الله، هو دليل علمي يجب أن تتضافر جهود أكابر العلماء، في شتى فروع المعرفة الإنسانية، من أجل تقديمه.

لقد توصل الدكتور شحرور في قراءته المعاصرة إلى نتائج جديدة مغايرة لما هو سائد الآن في التراث العربي الإسلامي. ولبيان كيف توصل الباحث

إلى هذه النتائج، لا بد في البدء من عرض المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف، ثم الإشارة إلى أهم النتائج التي توصل اليها بفضل ذلك المنهج.

المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف.

تبنى الدكتور شحرور المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، الذي طرحته لدى دراستي الخصائص البنوية للعربية، في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة. لقد استنبطت أسس ذلك المنهج من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. فما هي الملامح العامة لهذا الاتجاه؟

الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية:

بلور ابن جني في «الخصائص» والإمام الجرجاني في «دلائل الإعجاز» اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في نظريتين متتامتين.

بعض جوانب نظرية ابن جني التي بلورها في «الخصائص».

آ ـ انطلق ابن جني من منطلق وصف البنية اللغوية، لأن بحثه في «الخصائص» كان يدور بشكل رئيسي في نطاق بنية الكلمة المفردة. فعمد إلى دراسة الأصوات التي تتألف الكلمات منها، وسعى إلى اكتشاف القوانين التي تنظم العلاقة بين الأصوات في الكلمة. فبحث في الاشتقاق وأنواعه، ودرس التقليبات الممكنة للكلمة الواحدة. وبيّن أن الأمر المشترك الذي يجمع التقليبات هو وحدة المعنى. وأفضى ذلك به إلى القول بوجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول. ويعني هذا ان ابن جني لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن.

ب ـ اهتم ابن جني باكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي. لذا لم يتبنَّ ـ لدى البحث في نشأة اللغات ـ نظرية التوقيف أو الاصطلاح، بل جوزهما على حد سواء لأن ذلك لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية. ولكن ابن جني أكد بشكل حازم على أمرين:

١ ـ لم تنشأ اللغة في وقت واحد، بل نشأت في أوقات متلاحقة.

٢ ـ كانت اللغة باستمرار تحافظ على اتساق نظامها.

جـ ـ بحث ابن جني في القوانين الصوتية العامة التي ترجع إلى الخصائص الفيزيولوجية للإنسان (وعبر عنها بحس المتكلم). كما وازن بين لغة العرب ولغة العجم.

بعض جوانب نظرية الإمام الجرجاني التي بلورها في «دلائل الإعجاز».

آ ـ انطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصف البنية اللغوية وبيان وظيفتها الإبلاغية لأنه بحث في نظم الكلم. فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة الإبلاغية التي تؤديها في الكلام، انطلاقاً من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض. وكان يرى ان اللغة نظام لربط الكلمات. ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام، لم يكن الجرجاني بحاجة إلى وصفه وصفاً تطورياً، بل عمد إلى وصفه وصفاً تزامنياً. وأدى ذلك به إلى القول باعتباطية الإشارة اللغوية.

ب ـ انصب اهتمام الجرجاني على اكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي وأكد ارتباط اللغة بالتفكير. ولدى البحث في نشأة اللغات، بَيَّن دور التفكير في نشأة اللغة. وجوّز الجرجاني ـ كما فعل ابن جني ـ القول بأن اللغة تواضع أو إلهام. ولكنه أكد ان مهمة الكلمات المفردة لم تقتصر منذ بداية وضعها على (التسمية) فقط، بل كانت مهمتها مرتبطة أيضاً بـ «الإبلاغ».

جـ ـ بحث الجرجاني في القوانين اللسانية العامة. وقرر ما يلي:

١ ـ لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى، سواء أكان ذلك في لغة واحدة أم في لغات مختلفة.

٢ ـ الخبر معنى بين شيئين، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل.

انني أرى ان نظريتي ابن جني والجرجاني متتامتان، بل يصح القول أنهما تؤلفان جانبين لنظرية لسانية واحدة تعبر ـ برأيي ـ عن اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. ويظهر التتام بين النظريتين جلياً في الأمرين التاليين:

آ ـ ضرورة الربط بين الدراسة التزامنية للنظام اللغوي (التي تقدمها نظرية

الجرجاني) والدراسة التطورية له (التي تقدمها نظرية ابن جني).

ب ـ ضرورة الربط بين القول بأن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة (الذي اعتمدته نظرية ابن جني) والقول بارتباط نشأة اللغة بالتفكير (الذي اعتمدته نظرية الجرجاني) ويعني ذلك أن اللغة قد نشأت وتطور نظامها واكتمل، بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني وتطور نظامه واكتماله.

وأرى ان الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية يمكن تحديدها في المبادىء التالية:

١ ـ الانطلاق من ان اللغة نظام.

٢ ـ اللغة ظاهرة اجتماعية، وترتبط البنية اللغوية بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة.

٣ ـ تلازم اللغة والتفكير.

وبما أن النظام اللغوي في حركة مستمرة، لذا يجب ان يستخدم في دراسته منهج تاريخي علمي. ويقوم المنهج التاريخي العلمي ـ الذي استنبطناه من التتام بين نظريتي ابن جني وعبد القاهر الجرجاني ـ على المبادىء التالية:

١ ـ التلازم بين النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني. وادراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه كان البداية الأولى في تكون التفكير الإنساني. وقد نطق الإنسان الأصوات بشكل واع ليستخدمها وسيلة لنقل أغراضه للآخرين.

٢ ـ لم ينشأ التفكير الإنساني مكتملاً طفرة واحدة، وانطلق خط السير العام لتطوره من إدراك المشخص المحسوس واكتمل بالانتقال إلى المجرد. كما ان النظام اللغوي لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، بل نشأ واكتمل تدريجياً بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني واكتماله. ويتجلى اكتمال النظام اللغوي في اكتمال أصوات اللغة وتعبير مفرداتها عن المجردات واكتمال نظامها القواعدي «الصرفي والنحوي» أي صيغ تغير «تصرف» كلماتها المفردة وأنماط علاقاتها التركيبية. أما مرحلة ما قبل اكتمال النظام اللغوي فتتجلى في عدم اكتمال أصوات اللغة، وفي تعبير مفرداتها عن المحسوسات فقط، وفي عدم اكتمال صيغ تصرف الكلمات المفردة فيها، وأنماط علاقاتها التركيبية.

٣ ـ انكار الترادف الذي قد يظنه بعضهم سبباً لتميز لغة ما بثراء مفرداتها وسعة التعبير فيها. والنظر إلى ما يعد من الترادف في لغة ما على أنه يعكس مرحلة تاريخية قديمة كانت فيها ألفاظ تلك اللغة تعبر عن التفكير القائم على إدراك المشخص ولم تكن فيها التسميات الحسية قد استكملت بعد تركيزها في تجريدات.

٤ ـ يؤلف النظام اللغوي كلاً واحداً، توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه، في علاقة تأثير متبادل فيما بينها. ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى. ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات الأعلى، في حين ان العكس ممكن.

٥ ـ يجب علينا ـ لدى دراسة النظام اللغوي ـ أن نهتم بما هو عام ومطرد، دون أن نهمل الاستثناءات، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد. وبذا نتمكن من دراسة النظام اللغوي في وضعه الراهن (المتزامن) وفي تطوره في آن واحد. وخير دليل علمي، وأفضل الشواهد التاريخية، هو المادة اللغوية نفسها للغة حقيقية معروفة. وعليه فمن أجل دراسة تاريخ اللغات، يجب الاستناد إلى مادة لغوية تثبت الشواهد التاريخية أنها كانت موجودة فعلاً وليست مفترضة الوجود فقط.

وبالاستناد إلى المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية نفهم الوظائف العامة للغات الإنسانية وخصائصها البنوية، فنقرر ما يلي:

كانت اللغة الإنسانية منذ نشأتها الأولى أصواتاً نطقها الإنسان بشكل واع لاستخدامها وسيلة لإبلاغ الآخرين أغراضه وفهم أغراضهم، في عيشه المشترك معهم من ناحية، ولاستخدامها من ناحية أخرى وسيلة يصوغ بواسطتها أفكاره، ويعبر عن مشاعره. والصفات العامة للغات الإنسانية تحددها الأمور المشتركة بين الناس جميعاً والمتمثلة فيما يلي:

١ ـ البنية التشريحية الواحدة لجهاز النطق الإنساني.

٢ ـ الطرائق العامة الواحدة للتفكير الإنساني.

٣ ـ النزوع الإنساني الواعي للحياة الاجتماعية.

وتتلخص هذه الأمور المشتركة في العبارة القديمة التي عرفت الإنسان بأنه كائن ناطق مفكر اجتماعي.

وبما أن اللسانيات العامة تبحث في القوانين العامة المشتركة بين جميع اللغات الإنسانية فإنها تدرس الأصوات اللغوية وتبين كيف تستخدم تلك الأصوات أوعية للمعاني (أي للأفكار الإنسانية) ووسيلة للإبلاغ (أي للاتصال) في المجتمع الإنساني.

وعلى الرغم من وجود صفات عامة، تشترك فيها جميع اللغات الإنسانية، فانه توجد صفات أخرى غير مشتركة، تتجلى في وجود بعض خصائص بنوية تتمتع بها لغة أو مجموعة من اللغات. ويرجع ذلك برأينا إلى بداية العلاقة بين البنية اللغوية والتفكير الإنساني.

إننا نرى أنه كان هناك تلازم بين اللغة والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، إضافة إلى أن اللغة الإنسانية كانت في نشأتها الأولى منطوقة. وعليه فإن الصيغة الأولى كانت لفظة تعبر عن فكرة وتؤدي غرضاً إبلاغياً.

ومن استعراض التاريخ الحضاري للإنسانية يظهر ان التفكير الإنساني لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، وأن خط السير العام لتطور التفكير الإنساني انطلق من إدراك المشخص المحدد «بحاستي السمع والبصر». واكتمل بالإنتقال إلى المجرد العام، كما يظهر أن البنية اللغوية لم تنشأ مكتملة دفعة واحدة. وقد تطورت البنية اللغوية واكتملت تدريجياً بشكل مواز لتطور التفكير الإنساني واكتماله. ونرى ان اختلاف طرائق تطور البنى اللغوية واكتمالها قد أدى إلى اختلافات بنوية بين اللغات، وترتب عنه تمتع لغة أو مجموعة من اللغات بخصائص بنوية متميزة.

وبما أن الدكتور شحرور تبنى المنهج التاريخي العلمي، فقد ركز على التلازم بين اللغة والتفكير ووظيفة الاتصال منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، وانطلق من أن اللغة الإنسانية كانت منطوقة في نشأتها الأولى، وأنكر ظاهرة الترادف في العربية. لذا اختار الباحث (معجم مقاييس اللغة) لابن فارس واعتمده مرجعاً هاماً يستند إليه في تحديد فروق معاني الألفاظ التي بحث فيها، لأن ابن فارس تلميذ ثعلب وقد أخذ برأي أستاذه حول التباين بين اسم الذات واسم الصفة، وعبارة ثعلب مشهورة «ما يظن في الدراسة اللغوية من المترادفات هو من المتباينات».

أهم النتائج التي توصل المؤلف إليها بفضل المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية.

يعتبر الباب الأول «الذكر» الأرضية النظرية الجديدة التي استند الباحث فيها إلى انكار ظاهرة الترادف في العربية، متابعاً في ذلك عدداً من كبار علماء العربية، «ومنهم ثعلب وابن فارس وأبو علي الفارسي». لذا رفض الباحث المقولة السائدة التي ترى أن لفظتي «الكتاب» و«القرآن» مترادفتان، وأكّد تباينهما وعدم ترادفهما. قال المؤلف هذا انطلاقاً من فهمه أسرار اللسان العربي، حيث ان القرآن عربي وأنزل بلسان عربي مبين. لقد وصل الباحث إلى ذلك انطلاقاً من فهم جديد قدمه لمعنى «ترتيل القرآن».

ان المعنى السائد للترتيل هو التأنق في تلاوته«١». وأشار الزمخشري في «أساس البلاغة» في مادة «ر ت ل» أن من المجاز: ﴿ وَرتّـلِ القُرآنَ تَرْتيلاً ﴾ إذا ترسل في تلاوته وأحسن تأليف حروفه، وهو يسترسل في كلامه ويترتل. ولكن الباحث استند إلى الأصل اللغوي في المادة «ر ت ل» رتل الشيء: نسقه ونظمه. وقال لا يمكن أن يكون المقصود في عبارة ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ الواردة في سورة المزمل ﴿ يا أَيُّها المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ورَتِّلِ القُرْآنَ تَرتِيلاً * إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *﴾ (الآيات ١ ـ ٥) تأنق في تلاوته، لأن ما جاء في الآية التالية ﴿إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ لا يرتبط من قريب أو بعيد بالتأنق في التلاوة، حيث أن «وصف القول بالثقيل» لا يقصد به الثقل في التلفظ والنطق، بل وعورة فهم معنى ما يشتمل عليه القرآن من علم. وإذا كان ذلك كذلك اتضح أن معنى ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ هو رتب أو نظم الموضوعات الواحدة الواردة في آيات مختلفة من القرآن، في نسق واحد كي يسهل فهمها.

وانطلاقاً من هذا الفهم الجديد لترتيل القرآن، قام الباحث بجمع «ترتيل» جميع الآيات التي وردت فيها لفظة «القرآن» وجميع الآيات التي وردت فيها لفظة

١ ـ كما ورد في «المعجم الوسيط» الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة ـ إصدار المكتبة العلمية ـ طهران.

«الكتاب»، واستنطقها، فظهر حينئذ بجلاء الفرق بينهما.

قد يصاب القارىء بصدمة عند وصوله إلى النتيجة المعروضة في باب «الذكر» والتي تقول بعدم ترادف القرآن والكتاب، ووجود فرق بينهما، لأن هذه النتيجة تهدم التصور السائد في فهم الإسلام القائم على ترادف القرآن والكتاب.

وبعد قبول النتيجة قد يصاب القارىء بحيرة، لأن قبول هذه النتيجة يستوجب بالضرورة تقديم تصور جديد في فهم الإسلام قائم على تباين القرآن والكتاب.

وقد أدرك الدكتور شحرور ذلك، فلم يترك القارىء في حيرته بعد الصدمة، بل قدم له التصور الجديد الذي يقترحه في فهم الإسلام، بالاستناد إلى نتائج استخدام المنهج التاريخي العلمي في دراسة آيات الذكر الذي تعهد الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩). ومعروف أن الذكر هو الصيغة الصوتية المنطوقة لما يشتمل عليه المصحف بين دفتيه.

في الباب الثاني «جدل الكون والإنسان» عمد الباحث إلى جمع «ترتيل» الآيات التي اشتملت على موضوعات خلق الكون، وخلق الإنسان، ونشأة الألسن، واستنطقها. فأكدت هذه الآيات أن القرآن يشتمل على قانون الجدل العام ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص ٨٨) من ناحية، ويشتمل من ناحية أخرى، على قانون الجدل الخاص بالإنسان، الذي أبانه الله عن الحيوان بنفخة الروح، التي مكنته من الارتقاء عن عالم الحيوان بالعقل، ليصبح خليفة الله في الأرض بواسطة العلم. كما أكدت تلك الآيات ارتباط اللغة والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، وأن اللغة الإنسانية الأولى كانت منطوقة في نشأتها الأولى، وأن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم الخارجي المادي الذي يتعرف الإنسان عليه بواسطة القلم أي بمنهج تقليم «تمييز» سماته المختلفة.

وفي الباب الثالث «أم الكتاب والسنة والفقه» وصل المؤلف في الفصل الأول «أم الكتاب أو الرسالة» إلى فهم جديد للحدود الواردة في آيات الذكر الحكيم، وقدم رؤية جديدة للصراط المستقيم وللمعروف والمنكر. وفي الفصل الثاني «السنة» طرح المؤلف فهماً جديداً للسنة النبوية. وفي الفصل الثالث «الفقه الاسلامي» دعا الباحث إلى فقه جديد، ينطلق من مبدأ التلازم بين الاستقامة والحنيفية، وقدّم المؤلف هنا نموذجاً للفقه الجديد في دراسة موضوع المرأة في الإسلام.

وفي الباب الرابع «الشهوات الانسانية والقصص في القرآن» قدم المؤلف في الفصل الثاني القصص القرآني نموذجاً للترتيل والتأويل في القصص القرآني.

وفي ختام هذا التقديم للمنهج اللغوي، في كتاب الدكتور المهندس محمد شحرور، الموسوم «الكتاب والقرآن» أرجو أن أكون قد وفقت في تعريف قارىء الكتاب بأسس المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف، وآمل أنْ أكون قد نجحت في بيان أهم النتائج التي توصل المؤلف إليها، بفضل ذلك المنهج اللغوي وأسهمت بالتالي في تهيئة القارىء لفهم الأمور الجديدة التي طرحها الدكتور محمد شحرور في دراسته المعاصرة للكتاب والقرآن.

دمشق في ١٥ رجب ١٤١٠ هـ، ١٠ شباط ١٩٩٠م.

الدكتور جعفر دك الباب

المقدمة

لو رسم انسانٌ ما صورةً لوجه انسان، ورسم له عيناً واحدة فقط، فإن أول امرىء ينظر الى هذه الصورة سيلاحظ بسرعةٍ، الخطأ في الرسم، ولن يتريث قبل أن يقول: تنقصها عين. ولكنه لو رسم صورة لوجه من مرآة (أي رسم الوجه معكوساً) وقدمها إلى الناس فإنه قد يراها ملايين الناس لمدة طويلة من السنين دون أن يلاحظوا أنها معكوسة. ومثل هذا حصل لأهل الأرض عبر مئات السنين عندما كانوا يعتقدون أن الشمس تدور حول الأرض، ولكنهم كانوا عاجزين عن تفسير بعض الظواهر انطلاقاً من مسلمتهم هذه، حتى جاء شخص واحد، بشر منهم ومثلهم، وقال: ان العكس هو الصحيح وان الارض هي التي تدور حول الشمس.

من هذه الحقيقة التاريخية التي حصلت فعلاً تبيّن لي بعد ربع قرن من البحث الدؤوب والتفكّر الطويل والتأمّل الواعي أننا نحن المسلمين مأسورون لِمُسلَّمات قد يكون بعضها معكوساً تماماً، وسأمثّل لها في الصفحات القريبة الآتية.

بيد أني استميح القارىء الكريم عُذراً لأني سأطلب إليه التريّث في الحكم عليَّ قبل أن يمضي معي في رحلة هذا الكتاب، وألّا يَتَسَرَّع - بحكم بعض مسلماته الموروثة، التي سأثبت له بالبرهان أنها معكوسة - إلى نبذ كتابي قبل الصبر على صحبته، لأنه سيجد فيه احتراماً شديداً وإكباراً عظيماً لِفِكْرِهِ وعقله وإن فَقَدَ في كتابنا هذا الاحترام والإكبار نفسيهما لعواطفه. ومن ها هنا نستعين بالله تعالى ونقول:

لقد دخل العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري والعقد الأخير من

القرن العشرين الميلادي، والأدبيات الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين تطرح الإسلام عقيدة وسلوكاً دون أن تدخل في العمق الفلسفي للعقيدة الإسلامية. ولقد انطلقت من أطروحات، عَدَّتها من مسلمات العقيدة الإسلامية وهي لا تدري أن هذه المسلمات بحاجة إلى اعادة نظر، فدارت هذه الأدبيات في حلقة مفرغة، ولم تصل إلى حل المعضلات الأساسية للفكر الإسلامي (التقليدي)، مثل أطروحة القضاء والقدر والحرية، ومشكلة المعرفة، ونظرية الدولة، والمجتمع والاقتصاد والديموقراطية، وتفسير التاريخ، بحيث ينتج عن ذلك فكر إسلامي معاصر يحمل كلَّ مقومات المعاصرة شكلاً ومضموناً دون الخروج عن المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية في أبسط أشكالها وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

إنَّ الفكر العربي المعاصر ومن ضمنه الفكر الإسلامي يعاني من المشاكل الأساسية التالية:

١ ـ عدم التقيد بمنهج البحث العلمي الموضوعي في كثير من الأحيان، وعدم تطبيق الكتّاب المسلمين لهذا المنهج على النص القدسي الديني المتمثل بآيات الكتاب الموحى إلى محمد ﷺ. حيث إن أول شرط من شروط البحث العلمي الموضوعي هو دراسة النص بلا عواطف جياشة، من شأنها أن توقع الدارس في الوهم، وخصوصاً إذا كان موضوع الدراسة نصاً دينياً أو نحو ذلك.

٢ ـ اصدار حكم مسبق على مشكلة ما قبل البحث في هذه المشكلة، وخير مثال على ذلك «المرأة في الإسلام» اذ نرى الباحث الإسلامي مقتنعاً مسبقاً وقبل البحث أن وضع المرأة في الإسلام وضع سليم وأن الإسلام أنصفها، فيكتب كتاباً في ذلك ويقول إنه بَحْثٌ علمي. وكل ما فعله أنه أوجد التبريرات لوجهة نظره المسبقة، ونرى الباحث المعادي للإسلام مقتنعاً مسبقاً أن الإسلام ظلم المرأة، ويُقدم بحثاً عن ذلك ويقول إنه بحث علمي. وكلاهما وقع في الخطأ نفسه، إذ إن أي مشكلة تتطلب بحثاً علمياً موضوعياً، تعني ان الباحث نفسه غير متأكد من النتائج، أو لا يعرف النتائج أصلاً وبالتالي أجرى بحثاً علمياً ليتأكد أو ليعرف النتائج، وهذا ما قمنا به فعلاً في هذا الكتاب، ومن ضمنه بحث الإسلام والمرأة، فعندما بدأنا بهذا البحث قلنا إننا لا نعرف شيئاً إطلاقاً عن موقف الإسلام من المرأة. فجمعنا آيات الكتاب المتعلقة بالمرأة، ودرسناها لنعرف ما هو وضع المرأة في

الإسلام، وخلصنا إلى نتائج لم نجدها في كتب التفسير، ولا في كتب الفقه، وتبين لنا أن المرأة لها وضعان: وضع في الكتاب، أي في النص المقدس، ووضع في الفقه الإسلامي الذي يحمل صفة التطور التاريخي (النسبية الزمانية والمكانية).

٣ ـ عدم الاستفادة من الفلسفات الإنسانية، وعدم التفاعل الأصيل المبدع معها، حيث لا يمكن ان نضع كل ما أنتجه الفكر الانساني، منذ اليونان إلى يومنا هذا، في هامش الخطأ أو الباطل، فإذا قلنا: إن كل ما طرحه الفكر الإنساني شيء والإسلام شيء آخر، أي كل ما خطر في بالك فالإسلام غير ذلك، ينتج لدينا سؤال لا يمكن الإجابة عليه وهو (ما هو الإسلام)؟ فضمن هذا المنطق لم يتم تعريف الإسلام إلى اليوم. أما إذا قلنا: إن ما طرحه الفكر الإنساني فيه غث وفيه ثمين، وفيه حق وفيه باطل، وفيه خطأ وفيه صواب، فهذا يعني اننا نحن المسلمين قادرون على أن نتفاعل إيجابياً مع الفكر الإنساني كله، دون خوف، أو وجل، ولكن حتى يتم هذا التفاعل الإيجابي يجب علينا نحن العرب والمسلمين أن نمتلك ميزاناً مرناً، نستطيع أن نتفاعل به مع الآخرين، دون خوف، وهذا الميزان غير موجود عندنا في الوقت الحاضر، وهذا يقودنا إلى النقطة الرابعة.

٤ ـ عدم وجود نظرية إسلامية في المعرفة الإنسانية، مصاغة صياغة حديثة معاصرة، ومستنبطة حصراً، من القرآن الكريم، لتعطينا ما يسمى (إسلامية المعرفة) بحيث تعطي هذه النظرية منهجاً في التفكير العلمي لكل مسلم، وتمنحه ثقة بالنفس وجرأة على التعامل والتفاعل مع أي نتاج فكري أنتجه الإنسان، بغض النظر عن عقيدته. إن غياب هذه النظرية، المصاغة صياغة معاصرة، أدى بالمسلمين إلى التفكك الفكري، والتعصب المذهبي، واللجوء إلى مواقف فكرية أو سياسية تراثية، مضى عليها مئات السنين، تقوم على كيل الاتهامات بالكفر والإلحاد والزندقة والهرطقة والمعتزلية والجبرية والقدرية لهؤلاء وهؤلاء، كل هذا بهدف الخروج من مأزق فكري، يقع فيه المسلم في مواجهة الفكر المعاصر، علماً بأنه ليس كل فكر أنتجه الإنسان هو عدو للإسلام بالضرورة. ولكن غياب المنهج المعرفي، الذي يمكن ان يواجه كل غث، ويحتوي على كل ثمين، هو الذي يؤدي بالضرورة إلى مواقف التشنج والسذاجة وضيق الأفق. لذا فإننا في كتابنا هذا أفردنا بحثاً خاصاً لمشكلة المعرفة الإنسانية «جدل الإنسان»، لأن مشكلة الفلسفة الكبرى

هي تحديد العلاقة بين الوجود في الأعيان، وصور الموجودات في الأذهان. ولدى الخوض في هذه المشكلة وجب علينا بالضرورة أن نقف على الأرضية العلمية للقرن العشرين، لذا فإنه ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبة.

٥ ـ إن المسلمين في العصر الحاضر يعيشون أزمة فقهية حادة، وهناك صيحات صادقة تقول: إننا بحاجة إلى فقه جديد معاصر، وبحاجة إلى فهم معاصر للسنة النبوية، وقد تم تشخيص هذه المشكلة، ولكن دون وضع حل لها. فإذا أردنا أن نخترق الفقه الإسلامي الموروث «الفقهاء الخمسة» وجب علينا إعطاء البديل، وهذا ما فعلناه في هذا الكتاب حيث طرحنا منهجاً جديداً في الفقه الاسلامي، وطبقناه على أحكام المرأة فنتجت لدينا أحكامٌ لم تكن عند الفقهاء كلهم.

ولكننا لم نستطع القيام بهذا العمل إلا بعد صياغة نظرية أصيلة في المعرفة الإنسانية «جدل الإنسان»، منطلقة من القرآن الكريم، إذ إن المنطلق الفلسفي ينتج عنه بالضرورة الحل الفقهي.

هنا قد يسأل سائل: ماذا نفعل بكتب التراث من فقه وتفاسير، والتي يطبع منها كل عام آلاف النسخ، وتدرس على أنها الإسلام؟ الجواب على هذا السؤال الصعب جداً هو أنني لم أستطع أن أقدم هذا الكتاب، وأصل إلى النتائج المطروحة للقارىء، إلا بعد أن تم حل هذه المعضلة مع التأكد أنني عربي مؤمن مسلم.

التراث والمعاصرة والأصالة.

علينا أن نميز بين المصطلحات الثلاثة الواردة أعلاه، وذلك بوضع تعريف لكل منها:

التراث: هو النتاج المادي والفكري الذي تركه السلف للخلف، والذي يؤدي دوراً أساسياً في تكوين شخصية الخلف، في عقله الباطن (نمط التفكير) وسلوكه الظاهر. وهكذا يفهم التراث على أنه من صنع الإنسان ونتاج النشاط الانساني الواعي، في مراحل تاريخية متعاقبة.

المعاصرة: هي تفاعل الإنسان مع النتاج المادي والفكري المعاصر، والذي هو أيضاً من نتاج الإنسان، ففي هذا المعنى يكون التراث والمعاصرة مفهومين

متـداخلين، تفصـل بينهمـا لحظة الآن المتحركة باستمرار، وعليه إذا صدر مقال في صحيفة، منذ عشر سنوات، فإنه قد يدخل في مفهوم التراث. وليس للناس خيار في الانتماء إلى تراثهم، ولكن لهم الخيار في انتقاء معاصرتهم من التراث ومن منجزات عصـرهم، لأن الحـدث الانسـاني الـواعي يدخـل في عالم الممكنـات قبـل وقوعه (بحيث يمكن حدوثه أو عدم حدوثه)، وبعد وقوعه يصبح حقيقة لا رجعة فيها. فنحن العرب المسلمين لا خيار لنا في تراثنا، أي إننا لا نستطيع أن نصنع تراثاً غير التراث الـذي حصـل فعـلاً، وورثنـاه، ولكننـا نستطيـع أن نختار بأنفسنا منه ما يلزم حاضرنا ومستقبلنـا، ونحن أيضـاً بهذا الاختيار نصنع تراثاً لأجيالنا المقبلة. إن القرآن الكريم قد نهانا عن أن نقف من التراث موقف الانصياع الأعمى والتقديس **﴿ما سَمِعْنا بِهٰذا في آبَـائِنـا الأوَّلِينَ﴾** (المؤمنـون ٢٤) **﴿بَـلْ قَالُـوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا عَلى أُمَّةٍ وإنَّا عَلى آثَـارِهِم مُهْتَـدُونَ﴾** (الـزخـرف ٢٢) هذا المـوقف يدعـو إلى أن نحتـرم تراثنـا لا أن نقـدسـه. إن الـذين صنعوا التراث العربي الإسلامي هم من الناس ونحن من الناس أيضـاً، ومعـروفٌ قول أبي حنيفـة النعمـان «هم رجـالٌ ونحن رجـالٌ»، وقد آن لنا أن نصنع تراثاً لأجيالنا القادمة بملء إرادتنا وبدون حرج، وهذه هي عين المعاصرة.

الأصـالـة: للأصالة عنصران متتامان، يفهم كل واحد منهما حسب الموضوع المطـروح تحت عنـوان الأصـالـة. فإذا قلنـا: إن اللسان العربي لسان أصيل، فهذا يعني أنـه لسـان له جذور غارقـة في القـدم، وهـذا هو العنصر الأول، وأنه ما زال حياً مثمـراً إلى يومنـا هذا، وهـذا هو العنصـر الثاني. وهذا المعنى أخذناه من قوله تعالى **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَـلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَجَـرةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْلُهَـا ثابِتٌ وَفَـرْعُهـا في السَّمَـاء * تُؤْتِي أُكُلَهـا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهـا﴾** (إبـراهيم ٢٤ ـ ٢٥)، فجـذر الشجـرة وأغصـانهـا همـا العنصـران المتتـامان: الجذور تضرب في الأرض والأغصان تعطي الثمار. وفي هذا المجال نقول: لقد قام العالم مندليف ببحث أصيل في الكيمياء، حيث وضع جدول العناصر في الطبيعة، وقولنا (بحث أصيل) هنا بمعنى أنه بحث فيه إبداع وابتكار لم يسبقه إليه أحد. ولكن هذا البحث لم يأت من فراغ، بل اعتمد على تراكمات سابقة في المعرفة الكيميائية (الجذور).

فإذا أردنـا أن نكـون أصيلين في المعـرفـة فعلينـا أن نستفيـد من كل تراكمات المعـرفـة التي أنتجهـا الانسان، ومن ضمنها التراث في كل العلوم، (الجذور) وهي

العنصر الأول للأصالة بحيث نحقق قفزة نوعية (الثمار) وهي العنصر الثاني للأصالة.
وهذا ما نسميه بالحضارة الحية، فالحضارة الحية كالشجرة الحية، لها جذور وتعطي ثماراً ينتفع بها الناس، وليس في موسم واحد فقط بل في مواسم متتابعة.

إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكن لا يوجد ثمار لأنها جفت ونضبت. فنحن الآن مستهلكون للسلع والأفكار، حتى إن أفكار التراث استهلكت ونضبت، ووصلنا في طرحنا لأفكار التراث إلى حد السذاجة في بعض الأحيان. وفي هذا المقام يجب علينا أن نميز بين مصطلحين يقع الالتباس بينهما وهما الأصالة والسلفية، فالأصالة لها مفهوم إيجابي، أما السلفية فهي عكس ذلك تماماً، السلفية كما نفهمها هي دعوة إلى اتباع خطى السلف بغض النظر عن مفهوم الزمان والمكان، أي أن هناك فترة تاريخية مزدهرة مرت على العرب استطاعوا فيها حل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، واستطاعوا أن يبنوا دولة قوية منيعة، استطاعت تحقيق العدالة بمفهومها النسبي التاريخي، وبالتالي فإن هؤلاء السلف هم النموذج، ويجب علينا أن نتبع خطاهم ونقلدهم ولانخرج عن نمطهم. فالسلفي هو إنسان مقلد، إضافةً الى أنه قد أهمل الزمان والمكان واغتال التاريخ وأسقط العقل. ويعيش السلفي في القرن العشرين مقلداً القرن السابع، والتقليد مستحيل لأن ظروف القرن السابع تختلف عن ظروف القرن العشرين، فمهما حاولنا الرجوع إلى القرن السابع لا يمكننا أن نفهمه كما فهمه أهله الذين عاشوه فعلاً، لأننا نرجع إليه من خلال نص تاريخي فقط. ولهذا السبب وقع السلفي في فراغ فكري وصل إلى حد السذاجة، فقد ترك القرن العشرين عمداً ليعجز في الوقت نفسه عن أن يعيش القرن السابع كما عاشه أهله، فوقع في شرك الغراب الذي أراد أن يقلد صوت البلبل فلم يستطع، ثم أراد أن يرجع غراباً فنسي، فبقي في حالة عدم التعيين، فلا هو غراب ولا هو بلبل. وهذا هو حال السلفيين، إن السلفية هروب مقنع من مواجهة تحديات القرن العشرين، وهزيمة نكراء أمام هذه التحديات، وهي البحث عن الذات في فراغ وليس في أرض الواقع. هذا فيما يتعلق بالسلفية الإسلامية، ولكن هناك نوعاً آخر من السلفية نراه عند تيارات أخرى تطرح حلولاً نظرية تعمل في فراغ وفق نموذج متحجر طرح في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واعتبرته مقدساً فلا خروج منه، إنها

تيارات سلفية أخرى لا تعيش زمانها ولا تتفاعل معه، وقد أثبتت الأحداث فشل هذا النموذج، وبالتالي لم يكتب لها النجاح ولم تستطع تقديم حلول لمشاكل مجتمعها المعاصرة والملحة.

من هذا المنطلق نصل الى نقطة مهمة في البحث وهي: هل الكتاب الذي أوحي الى محمد ﷺ والذي يحتوي على رسالته ونبوته هو من التراث أم لا يدخل في التراث؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد أن نفترض أحد الفرضين التاليين وهما:

١ ـ أن ما يسمى بالكتاب والموجود بين دفتي المصحف هو من تأليف محمد ﷺ.

٢ ـ أن ما يسمى بالكتاب والموجود بين دفتي المصحف موحى من الله سبحانه وتعالى بالنص والمحتوى، وأن الفصول فيه تسمى سوراً، وأن السور مؤلفة من مقاطع كل واحد منها يسمى آية.

فإذا أخذنا الاحتمال الأول، فهذا يعني أن الكتاب هو من التراث لأن محمداً ﷺ هو من الناس، والناس هم الذين يصنعون التراث، ففي هذه الحالة يمكن أن يصنف محمد ﷺ مع العظماء العباقرة لا مع الأنبياء والرسل، وهذا ما فعله بالضبط أحد الكتاب الأمريكيين (مايكل هارت) إذ صنف محمداً ﷺ أولَ عظيمٍ في التاريخ، وانطلت هذه الخدعة على كثير من المسلمين أنفسهم. فإذا كان الكتاب هو من تأليف محمد ﷺ فيجب أن يحتوي على الخاصة التالية:

إن أي إنسان عظيم هو من نتاج عصره لا يخرج عن ذلك أبداً، فإذا كان الكتاب من صنع محمد ﷺ فهو بالتالي غير صالح لكل زمان ومكان، وإنما هو وليد الظروف الموضوعية، حقق قفزة نوعية، فصلح للقرن السابع في شبه جزيرة العرب، ولعدة قرون تلته، ولكنه غير صالح للقرن العشرين لأن الإنسان مهما بلغ من العبقرية فإنه يحمل طابع النسبية الزماني والمكاني. وهذا ما يقوله أعداء الإسلام عن الكتاب، وقد ساعدهم على هذا القول لسان حال المسلمين السلفيين أنفسهم، إذ حجروا الإسلام وفق نمط واحد في قولهم إن الإسلام هو وفق نمط القرن الأول الهجري «صدر الإسلام» وهم يقولون في الوقت نفسه إنّ الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ومن هاهنا وقعوا في معضلة غير قابلة للحل.

وإن كان هذا الكتـاب موحى من الله سبحـانه وتعالى إلى محمد ﷺ، وهو في الـوقت نفسـه خاتمَ الكتب، وإنَّ محمـداً ﷺ خاتمَ النبيين والرسل فيجب أن يحتوي هذا الكتاب على الخواص التالية:

آ - إن الله سبحـانـه وتعـالى مطلق وكـامـل المعـرفـة ولا يتصف بطابع النسبية وبالتالي فإن كتابه يحمل الطابع المطلق في المحتوى.

ب - بما ان الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدي نفسه وإنما جاء هذا الكتاب هداية للناس وآخر الكتب فوجب أيضاً أن يحمل طابع النسبية في الفهم الإنساني له.

ج - بما أن نمط التفكير الإنساني لا يمكن ان يتم بدون لغة، فيجب ان يصاغ الكتـاب بلغـة إنسـانيـة أولاً، وثـانيـاً أن تكون هذه الصياغة لها طابع خاص وهو أنها تحتوي المطلق الإلهي في المحتوى والنسبية الإنسانية في فهم هذا المحتوى، وهذا ما نعبر عنه بثبات الصيغة اللغوية «النص» وحركة المحتوى، ففي هذه الحالة يمكن أن نقول: إن هذا من الله سبحانه وتعالى لأن الإنسان عاجز عن تحقيق هذه الشروط.

فإذا كان هذا الكتاب يحتوي على هذه الخاصية، فعند ذلك تعطى آياته طابع القـدسيـة أو النص المقـدس الـذي لا يمس ولا يحرف، وانما يجري تأويله على مر العصور والدهور، وفي هذه الحالة فقط لا يعتبر الكتاب تراثاً، وانما التراث هو الفهم النسبي للنـاس له في عصـر من العصـور، حتى ولـو جاء هذا الفهم من عهـد صدر الإسـلام. أي أن ما حدث في القـرن السـابع في شبه جزيرة العرب هو تفاعل الناس في ذاك الـزمـان والمكـان مع الكتاب، وهذا التفاعل هو الاحتمال الأول للإسلام (الثمرة الأولى)، وليس الـوحيد وليس الأخير، وقد كان هذا التفاعل إنسانياً في محتواه (إسلامياً) قومياً في مظهـره. وفي هذه الحـالـة يدخـل هذا التفـاعـل ضمن التـراث ما عدا العبادات والأخلاق والحدود «الصراط المستقيم» حيث إنها ليست تفاعلاً مع العصر، وقد عبر عن الأخلاق والحدود بمظاهر العصر. أما اللباس والطعام والشراب وأساليب الحكم ونمـط الحيـاة فهي تفـاعـل مع الشروط الموضوعية، وقد قام النبي ﷺ بهذا التفاعل الأول، وكان لنا الأسوة الحسنة.

لقد أجرينا مسحاً شاملاً للكتاب الموحى، فتبين لنا أنه يحوي على الخاصية المـذكـورة أعـلاه، والتي لا يستطيـع إنسـان أن يقوم بها، ووجدنا هذه الخاصية في

الآيـات المتشـابهـات، وبالتالي وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من الآيات في الكتاب.
ولـم نستطـع أن نقـوم بهـذا التصنيف إلا بعد أن تم تحديد الفرق بين النبوة والرسالة.
فالنبوة هي مجموعة من المعلومات أوحيت إلى النبي ﷺ وبها سمي نبياً، أي أن كل الأخبـار والمعلومـات التي جاءت في الكتـاب هي النبـوة. والـرسـالـة هي مجمـوعة التشريعات التي جاءت إلى النبي بالإضافة إلى المعلومات فأصبح بها رسولا، **فالنبوة علوم والرسالة أحكام**. أي ان نظرية الوجود الكوني والإنساني وتفسير التاريخ هي من النبوة، وهي من الآيات المتشابهات، أمّا التشريع من إرث وعبادات، ومعها الفرقان العـام «الأخـلاق» والمعـامـلات والأحـوال الشخصيـة والمحـرمات فهي الرسالة أي الآيـات المحكمـات. وهنـاك نوع ثالث من الآيـات وهـو الآيـات الشارحة لمحتوى الكتــاب، فهي لا محكمــة ولا متشــابهــة، ولكنهـا من النبـوة حيث تحتـوي على معلومات، لذا فإن الكتاب من حيث الآيات ينقسم إلى ثلاثة اقسام:

١ ـ الآيـات المحكمـات وهي التي تمثـل رسـالة النبي ﷺ وقد أطلق الكتاب عليهــا مصطلح «أم الكتــاب»، وهي قابلة للاجتهـاد حسب الظـروف الاجتمـاعيـة والاقتصادية ما عدا العبادات والأخلاق والحدود.

٢ ـ الآيـات المتشـابهـات وقـد أطلق عليهـا الكتاب مصطلح «القرآن والسبع المثاني» وهي القابلة للتأويل وتخضع للمعرفة النسبية وهي آيات العقيدة.

٣ ـ آيــات لا محكمـات ولا متشـابهـات وقـد أطلق عليهـا الكتـاب مصطلح «تفصيل الكتاب».

ونحن نرى أن التحــدّي للنــاس جميعــاً بالإعجــاز إنمــا وقـع في الآيـات المتشابهات «القرآن والسبع المثاني»، وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات «تفصيل الكتاب» حيث أن هذين البندين يشكلان نبوة محمد ﷺ.

لقد تبين لنا أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر. فالقرآن والسبــع المثـاني همـا الآيـات المتشـابهـات ويخضعـان للتأويـل على مر العصـور والـدهـور، لأن التشـابه هو ثبات النص وحركة المحتوى. وقد تمّ إنزال القرآن بشكل متشـابـه عن قصـد، وقـد كان النبي ﷺ ممتنعاً عن التأويل عن قصد، أي أن القرآن يُؤَوَّل ولا يفسر، وأن كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلي النسبي.

فإذا سأل سائــل: هل آيـة الإرث من القـرآن؟ فالجـواب: لا، هي ليست من

القرآن «النبوة» ولكنها من أم الكتاب «الرسالة» وهي من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود. فهل هذا يعني أنها ليست من عند الله؟! لقد جاء الجواب عن المحكم «أم الكتاب» وعن المتشابه «القرآن والسبع المثاني» وعن اللامحكم واللا متشابه «تفصيل الكتاب» بقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ (آل عمران ٧) فما الفرق بينها إذاً، مادام كلٌّ من عند الله؟

الفرق هو أن القرآن فرق بين الحق والباطل، أي أعطى قوانين الوجود، لذا قال عنه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة ١٨٥). وأم الكتاب عبارة عن تشريع، والتشريع يمكن تحويره، لذا قال عن الكتاب ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). فحتّى نُصدِّق أن أم الكتاب من عند الله جاء القرآن مصدقاً لها، لذا عندما وضع محتويات الكتاب قال ﴿وَمَا كَانَ هذا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ ولَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧) أي أن محتويات الكتاب هي القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، والذي بين يديه «أم الكتاب». فهذه الآية لا محكمة ولا متشابهة لأنها شرحت محتوى الكتاب لذا فهي ضمن آيات تفصيل الكتاب.

لقد أجرينا مسحاً شاملاً للكتاب، وحددنا فيه مفهوم المصطلحات الأساسية وهي: الكتاب وأم الكتاب والقران والسبع المثاني والذكر والفرقان وتفصيل الكتاب والحديث وأحسن الحديث والعرش والكرسي والألوهية والربوبية والنبوة والرسالة، وهذه المصطلحات شرحت في الباب الأول من هذا الكتاب.

أما آيات أم الكتاب فقد قال عنها ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ (الرعد ٣٩). إنها آيات التشريع والعبادات والأخلاق والمحرمات، وتحمل طابع الخصوص في جزء منها، وطابع العموم في جزء آخر، وقد طبقها النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب، حيث أن التشريع قابل للتطور، وقابل للإلغاء والاستبدال، ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾. لذا فإن أم الكتاب هي مناط الاجتهاد والفقه وأوّل من اجتهد فيها هو النبي ﷺ وقد ألغى عمر بن الخطاب تطبيق الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ... الآية﴾ (الأنفال ٤١).

يبقى السؤال الهام وهو موقفنا من النبي ﷺ أو من السنة.

هنـا يجب علينـا وضع النقاط على الحروف بالنسبة للنبي ﷺ ، فهناك موقفان أســاسيـان متمـايـزان منـه؛ المـوقف الأول منـه نبيّـاً مع ما نكن له من عظيم الحب والاحترام والتقدير. والموقف الثاني منه مشرّعاً.

أمـا المـوقف الأول فإني لا أتصـور إنسـانـاً مسلماً وعربياً يمكن أن يقف موقفاً سلبياً من النبي ﷺ لأن مثل هذا الموقف خيانة للدين من قبل المسلم وخيانة للقومية من قبـل العـربي. ولا أتصـور إنسـاناً عربياً بغض النظر عن دينه يقف موقفاً سلبياً من النبي ﷺ ويقول عن نفسه: إنه وطني أو عربي.

أمّا موقفنا من النبي ﷺ مشرِّعاً فهو موقف دقيق جداً. إذ كيف يمكن أن نقول: إن ما فعله النبي ﷺ هو الاحتمال الأول لتطبيق الإسلام في القرن السابع، وفي شبه جزيرة العرب، وبالوقت نفسه نقرأ الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب ٢١). لقد بحثنا في السنة فوجدنا أن تعريف السنة بأنها «كُلُّ قولٍ أو فعلٍ أو إقرارٍ أو نَهْيٍ قام بِهِ النبيُّ ﷺ» إنّما جاء من قبل الفقهاء وليس من قبل النبي نفسه، حيث كان النبي ﷺ يصرّ على تدوين الكتاب وكان في الوقت نفسه يأمر الناس بعدم تدوين أقـوالـه الشخصيـة، فمن هذا خلصنـا إلى مفهوم معاصر للسنة النبوية، حيث كان دور النبي ﷺ هو تحويل المطلق إلى نسبي والحركةَ ضمن حدود الله، في القرن السـابـع، في شبـه جزيرة العرب، وقد نجح في هذا نجاحاً باهراً، وفي هذا المفهوم يكـون أوَّل عظيـم في التـاريـخ، وهـذه هي سنته على مر العصور والتي وجب علينا التقيـد بهـا، وهي تحـويـل المطلق إلى نسبي، أي أن باب الاجتهاد في الأحكام لا يقفـل، وبـاب التأويـل في القـرآن لا يقفل، وكل اجتهاد من قبل الناس في الأحكام «الحـركـة ضمن الحـدود والوقوف عليها أحياناً» أو تأويل في القرآن يدخل في التراث على مر الـزمن، لذا فقـد خصصنـا فصـلاً خاصـاً في الكتاب للسنة، وأوجدنا تعريفاً معاصراً أصيلاً لها.

بعـد أن أجـرينـا مسحـاً للمصطلحات الأساسية لكتابنا في الباب الأول كانت النتيجة المباشرة لهذا المسح هي إعجاز القرآن.

لذا فإن هذا الكتـاب بعـد البـاب الأول، والـذي جاء تحت عنـوان «الذكر»، والمتضمن مصطلحـات الكتـاب التي شرحت معـانيهـا المستعملة في الكتـاب «المصحف» يحتوي على الأبواب التالية:

الباب الثاني تحت عنوان «جدل الكون والإنسان».

يحتوى هذا الباب على المواضيع الرئيسة للنبوة «القرآن» وهي الوجود الكوني ومشكلة المعرفة الإنسانية:

آ - الفصل الأول وقد حوى قوانين الوجود الكوني، وهي قوانين الجدل المادي، حيث تبين أن قوانين الجدل المادي وتغير الصيرورة «التطور» هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن «النبوة»، وقد تم بحث المتناقضات والأزواج والأضداد في الوجود، فخلصنا إلى قانون تسبيح الأشياء لله. وقد تم في هذا الفصل شرح مفهوم البعث والساعة ونفخة الصور واليوم الآخر والجنة والنار.

ب - الفصل الثاني يبحث في مشكلة المعرفة الإنسانية وهي من المشاكل القرآنية «النبوة»، وقد شرحت تحت عنوان جدل الإنسان، وقد تم شرح مفهوم البشر والإنسان والحق والباطل والغيب والشهادة والقلم والعلق، ومفهوم الفؤاد والقلب والفكر والعقل والمشخص والمجرد.

وقد تبين في بحثنا أن الروح ليست سرَّ الحياة، وإنَّما هي سِرُّ الأَنْسَنَةِ، أي هي التي حولت البشر إلى إنسان.

الباب الثالث تحت عنوان «أم الكتاب والسنة والفقه»

وقد حوى ثلاثة فصول: هي أم الكتاب (الرسالة)، السنة، الفقه الاسلامي.

يشتمل الفصل الأول على (تمهيد في أم الكتاب) تم فيه شرح الصراط المستقيم، وبحث الاستقامة والحنيفية، وعلى ثلاثة فروع:

الفرع الأول: خصص لنظرية الحدود، حيث أن عالمية الرسالة للنبي ﷺ وصلاحيتها ورحمتها ومرونتها تكمن في نظرية الحدود، حيث أعطى الله للرسل قبل محمد ﷺ تشريعات عينية حدية، وختم الرسالات كلها بتشريع حدودي لا حدي، لذا كان محمد ﷺ بداية الإنسان الحديث والمعاصر، وقد بينا في هذا الفصل أن العبادات تدخل ضمن الحدود ولكنها شخصية وفيها التقوى الفردية.

الفرع الثاني: الفرقان العام «الوصايا العشر» والفرقان الخاص وقد تم فيه تحديد

مفهوم الأخلاق والعادات والتقاليد، حيث بينا أن الأخلاق عالمية، والعادات محلية.

وقد بيّنا ان هناك فرقانين: الفرقان العام وهو الذي جاء إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهو ملزم لكل الناس، وفيه التقوى الاجتماعية، وهو القاسم المشترك لكل الأديان، وهناك فرقان خاص جاء إلى محمد ﷺ، وهو غير ملزم لكل الناس وانما جاء للناس الراغبين بأن يصبحوا أئمة المتقين.

الفرع الثالث: تم فيه بحث المعروف والمنكر وبحث التعليمات الخاصة والمرحلية التي جاءت للنبي ﷺ، وبحثنا في خاصية الآيات التي تبدأ بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ علماً بأن الطاعة جاءت للرسالة لا للنبوة ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران ١٣٢) وليس في الكتاب آية واحدة فيها (وأطيعوا النبي).

في الفصل الثاني (السنة): تم بحث مفهوم السنة التقليدي. وباستخدام المنهج الجديد المقترح في فهم القرآن والكتاب ونظرية الحدود، تم تحديد مفهوم أصيل ومعاصر للسنة النبوية وتم شرح قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب ٢١).

الفصل الثالث: اشتمل على ثلاثة فروع. هي:

الفرع الأول: أزمة الفقه الإسلامي؛ لقد تم على ضوء الفهم الجديد للرسالة والسنة تحديد أزمة الفقه الإسلامي المستعصية، وتم وضع أسس جديدة للفقه الإسلامي تجعل منه فقهاً متطوراً مرناً، منسجماً مع فطرة الناس، وصالحاً لكل زمان ومكان، ونظرية الحدود هي التي هدتنا إلى هذا الطرح الجديد لأسس الفقه الإسلامي.

والفرع الثاني: فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات.

والفرع الثالث: الإسلام والمرأة. تم في هذا الفرع تطبيق الأسس الجديدة للفقه الإسلامي المقترح، والمبني على نظرية الحدود، وعلى المفهوم المعاصر للسنة، فنتجت لدينا أحكامٌ جديدة عن المرأة لم تكن في كتب الفقه السابقة.

الباب الرابع: وقد جاء تحت عنوان «في القرآن».

تم انتقاء موضوعين يعتبران من مواضيع القرآن، وهما الشهوات الإنسانية والقصص القرآني. ويحتوي هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: (الشهوات الإنسانية). وقد تم في هذا الفصل تحديد الشهوات الإنسانية وتمييزها عن الغرائز البشرية وقد تم استنتاج أسس النظام الاقتصادي الإسلامي العالمي والصالح لكل زمان ومكان، كما تم استنتاج نظرية الجمال في الإسلام، وتطور مفاهيم الجمال عند الإنسان حتى وقتنا الحاضر، وحددنا موقف الإسلام من سائر الفنون.

الفصل الثاني: «نموذج للترتيل في القصص القرآني». لقد تم في هذا الفصل ترتيل الآيات المتعلقة بنوح وهود وتم استنتاج المراحل التاريخية للنبوات والرسالات، كما تم وضع شجرة الأنبياء والرسل فتبين أنه ورد في الكتاب «٢٤» نبياً منهم «١٣» رسولاً فقط.

وفي الخاتمة تم شرح الإسلام، وتعريف الدين الإسلامي تعريفاً عاماً شاملاً إنسانياً.

ماهو المنهج المتبع في هذا الكتاب:

من حق القارىء أن يسأل ما هو المنهج المتبع في هذا الكتاب، وكيف تم التوصل إلى هذه النتائج التي لا توجد في كتب السلف؟

ان المنهج المتبع هو ما يلي:

١ ـ العلاقة بين الوعي والوجود المادي هي المسألة الأساسية في الفلسفة، وقد انطلقنا في تحديد تلك العلاقة من ان مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية، ويعني ذلك ان المعرفة الحقيقية «غير الوهمية» ليست مجرد صور ذهنية، بل تقابلها أشياء في الواقع، لأن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها، لذا فإننا نرفض قول الفلاسفة المثاليين: إن المعرفة الإنسانية ما هي إلا استعادة أفكار موجودة مسبقاً. وقد أكد القرآن الكريم هذا المنطلق بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ٧٨).

٢ ـ انطلاقاً من هذه الآية التي تقول: إن المعرفة تأتي من خارج الذات الإنسانية فاننا ندعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة، تعتمد المعرفة العقلية التي تنطلق

من المحسوسات عن طريق الحواس وعلى رأسها (السمع والبصر)، لتبلغ المعرفة النظرية المجردة، في ضوء المنجزات العلمية التي بلغتها الإنسانية في بداية القرن الخامس عشر الهجري، وندعو إلى رفض الاعتراف بالمعرفة الإشراقية الإلهامية الخاصة بأهل العرفان وحدهم أو من يسمون «بأهل الكشف» أو «أهل الله».

٣ - الكون مادي والعقل الإنساني قادر على إدراكه ومعرفته، ولا توجد حدود يتوقف العقل عندها. وتتصف المعرفة الإنسانية بالتواصل، وترتبط بدرجة التطور التي بلغتها العلوم في عصر من العصور. وكل ما في الكون مادي. وما ندعوه الآن (فراغاً كونياً) هو فراغ مادي، أي أن الفراغ شكل من أشكال المادة. ولا يعترف العلم بوجود عالم غير مادي يعجز العقل عن إدراكه.

٤ - بدأت المعرفة الإنسانية بالتفكير المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر، وارتقت ببلوغها التفكير المجرد العام. لذا كان عالم الشهادة يعني في البداية العالم المادي الذي تعرف عليه الإنسان بحواسه، ثم توسع ليشمل ما أدركه بعقله لا بحواسه، وعليه فإن عالم الشهادة وعالم الغيب ماديان. وتاريخ تقدم المعارف الإنسانية والعلوم هو توسع مستمر لما يدخل في عالم الشهادة، وتقلص مستمر لما يدخل في عالم الغيب، وبهذا المعنى يظهر أن «عالم الغيب» هو عالم مادي ولكنه غاب عن إدراكنا حتى الآن لأن درجة تطور العلوم لم تبلغ مرحلة تمكن من معرفته.

٥ - لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم، وتنحصر بفئة الراسخين في العلم مهمة تأويل القرآن طبقاً لما أدى اليه البرهان العلمي، وذلك وفق قانون التأويل في اللسان العربي الذي شرحناه بشكل مستفيض في الباب الأول من هذا الكتاب، وفي ضوء أحدث المنجزات العلمية

٦ - إننا نتبنى النظرية العلمية القائلة: إن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل، أدى إلى تغير طبيعة المادة. ونرى أن انفجاراً هائلاً آخر، مماثلاً للإنفجار الأول في حجمه، سيؤدي حتماً إلى هلاك هذا الكون وتغيير طبيعة المادة فيه ليحل محله كون (عالم) مادي آخر. ويعني ذلك أن الكون لم ينشأ من عدم (مع التأكيد أنه لا قديم إلا الله)، بل من مادة ذات طبيعة أخرى. وأن هذا الكون سيزول ليحل محله كون آخر من مادة ذات طبيعة مغايرة. وهذا ما ندعوه «بالحياة الآخرة».

وانطلاقاً «مما سلف» قمنا بقراءة جديدة للذكر الذي تعهد الله بحفظه **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** (الحجر ٩) **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مانُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (النحل ٤٤) معتمدين على الأسس التالية :

١ ـ مسح عام لخصائص اللسان العربي معتمدين على المنهج اللغوي لأبي علي الفارسي والمتمثل بالامامين ابن جني وعبد القاهر الجرجاني ، ومستندين إلى الشعر الجاهلي .

٢ ـ الاطلاع على آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج وعلى رأسها أن كل الألسن الإنسانية لا تحوي خاصية الترادف ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أن الكلمة الواحدة ضمن التطور التاريخي إما أن تهلك أو تحمل معنى جديداً بالاضافة إلى المعنى الأول وقد وجدنا هذه الخاصية واضحة كل الوضوح في اللسان العربي .

لقد استعرضنا معاجم اللغة العربية فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس «تلميذ ثعلب» الذي ينفي وجود الترادف في اللغة ، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال بقية المعاجم .

٣ ـ إذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان ، فيجب الانطلاق من فرضية أن الكتاب تَنَزَّلَ علينا ، وأنه جاء لجيلنا في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكأن النبي ﷺ توفي حديثاً وَبلغنا هذا الكتاب . لذا فإن القارىء يلاحظ بشكل واضح أننا في فهمنا للكتاب نقف على أرضية القرن العشرين دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب «التفاسير والمذاهب الفقهية» ، حيث كانت نظرتنا لهذه الأدبيات على أنها تفاعل تاريخي مع الكتاب ، ولذا فإنها تدخل ضمن التراث العربي الإسلامي . فالفقه الإسلامي الموروث يعكس المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مرحلة تاريخية معينة ، والتفاسير تعكس الأرضية المعرفية للمرحلة التاريخية التي كتب فيها التفسير ، واعتبرنا أنها لا تحمل طابع القدسية .

واذا كان هناك تناقض في كتب التفسير فإننا لم نحاول تأويل أقوال المفسر لكي نخرج المفسر بأنه على صواب دائماً ، وهذا ما نفهمه من مصطلح القدسية ، حيث أن القدسية هي لنص الكتاب فقط .

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة أن يهدي نفسه أو يعلم نفسه ولذا فقد

أرسل للناس هدى وليس لنفسه، لذا فإن كل ماجاء في الكتاب قابل للفهم بالضرورة، ويفهم على نحو يقتضيه العقل، وقد جاء بصيغة قابلة للفهم الإنساني وهذه الصيغة هي باللسان العربي المبين. وبما أنه لا يوجد انفصام بين اللغة والفكر الإنساني، فاننا نرفض القول بأنه توجد آيات في الكتاب غير قابلة للفهم، ونرى أن هذا الفهم تاريخي نسبي مرحلي.

٥ ـ إن الله سبحانه وتعالى رفع من مكانه العقل الإنساني في معرض خطابه له، لذا فاننا ننطلق مما يلي:

آ ـ لا يوجد تناقض بين الوحي والعقل.

ب ـ لا يوجد تناقض بين الوحي والحقيقة «صدق الخبر ومعقولية التشريع».

٦ ـ بما أن الله سبحانه وتعالى رفع من مكانة العقل الإنساني فالأجدر بنا أن نرفع من هذه المكانة ونحترمها، وعليه فإننا حاولنا جاهدين في كتابنا احترام عقل القارىء اكثر من احترامنا لعواطفه كما ذكرنا في أول هذه المقدمة.

الهدف من هذا الكتاب ولمن هو موجه.

١ ـ يجب أن يُفْهَم هذا الكتاب على أنه قراءةٌ معاصرةٌ للذكر، وليس تفسيراً أو كتاباً في الفقه. ويجب أن يفهم على أن الهدف منه ليس البرهانَ على وجودِ الله أو عدم وجوده، حيث نترك هذا الاستنتاج لعقل القارىء نفسه، ونعتبر أن قضيةَ الإيمان بالله أو الإلحاد هي مسلمة يختارها كل إنسان بنفسه نتيجة معاناة فكرية أو قناعة وراثية معتمدين على قوله تعالى **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ.. الآية﴾** (الكهف ٢٩).

٢ ـ من خلال القراءة الجديدة للذكر تبين لنا أن الفكر الإسلامي يحمل الطابع العالمي الإنساني، ومن هنا كان هذا الكتاب موجَّهاً إلى كل إنسان عِربي أو غير عربي، مؤمن أو ملحد، وإلى كافة الاتجاهات العقائدية حيث نعتقد بأن كل إنسان سيجد شيئاً ما في هذا الكتاب يدخل ضمن قناعاته الخاصة، وقد يجد فيه شيئاً ما كان يبحث عنه.

٣ ـ يلاحظ القارىء أننا قد تجاوزنا في كتابنا هذا كل أنواع التعصب المذهبي

والطائفي، وكان رائدنا هو البحث عن الحقيقة بشكل موضوعي، وقد حاولنا جاهدين تجنب التأثر بالأدبيات التي كتبت عن الإسلام سلباً أو ايجاباً.

المراحل التي مر بها تأليف هذا الكتاب.

إن الأخلاق الإسلامية تلزم الإنسان بأن يتحلى بالأمانة العلمية، لذا فإني أرى لزاماً علي تعريف القارىء بالمراحل التي مر بها تأليف هذا الكتاب حتى ظهر إلى حيز الوجود.

لقد مر هذا الكتاب بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: من عام ١٩٧٠ - ١٩٨٠.

بدأت هذه المرحلة عندما كنت في الجامعة القومية الايرلندية في دبلن موفداً من قبل جامعة دمشق لتحضير شهادة الماجستير والدكتوراه في الهندسة المدنية، وكانت مرحلة مراجعات، ووضع أسس أولية لمنهج فهم الذكر، وفهم الرسالة والنبوة والمصطلحات الأساسية للذكر. وكانت مرحلة غير مثمرة، حيث تم فيها بحث منطلقات غير مترابطة وعاجزة عن فهم الذكر. وقد كان السبب الأساسي في ذلك هو التأثر بالمدارس التقليدية الموروثة والموجودة في الأدبيات الإسلامية القديمة والمعاصرة، والتأثر بالمنطلقات الموروثة اجتماعياً والتي اعتبرتها من المسلمات. وقد تبين لي بعد عشر سنوات أن هناك شيئاً ما في المسلمات التي نعتبرها من أساسيات الإسلام ليست كذلك، حيث أننا لم نستطع تقديم نظرة إسلامية أصيلة إلى القرن العشرين ومشاكله، انطلاقاً من هذه المسلمات إلّا عن طريق المكابرة واللف والدوران والوقوع في الوهم، وقد تبين لي بعد هذه السنوات من البحث أنني أسير في وهم وفي طريق مسدود وذلك للسبب التالي:

إنني نظرت إلى الإسلام كعقيدة من خلال مدرسة موروثة معتزلية أو أشعرية، وإلى الفقه من خلال مدرسة مذهبية موروثة «الفقهاء الخمسة». وانتهيت إلى هذه النقطة الخطيرة والقاتلة للباحث العلمي الجاد، وهي أنه لا يمكن لإنسان أن يقفز قفزة أساسية نوعية في المعرفة والبحث إلا اذا اخترق المدارس الموروثة وخرج عنها، وحرر نفسه من إطارات هذه المدارس، حيث أن المدرسية هي نقطة قاتلة في البحث

العلمي. وأُعيد إلى الذّهن ها هنا ما ذكرته في أول هذه المقدمة من مثال الرسام الذي رسم الوجه المعكوس من المرآة وقصة الشمس التي تدور حول الأرض وأمثلّ هاهنا لبعض المسلمات الإسلامية الموروثة المُشْكِلَة والتي بحثها كثيرٌ من المفكرين دون الوصول إلى نتيجة منها؛ ثبات الأعمال والأعمار والأرزاق، سيأتي الكلام عليها مفصلاً في حينه، وإنّما يلزم القول هنا: إنّ الذي حال بين المفكرين عبر مئات السنين وبين حَلٍّ إشكالية هذه المسائل أنهم كانوا ينطلقون من مسلمات معكوسة.

المرحلة الثانية: ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.

في عام ١٩٨٠ التقيت بزميلي وصديقي الدكتور جعفر دك الباب. حيث كنا زملاء في الاتحاد السوفياتي في الفترة الواقعة بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤ وكان يدرس اللسانيات، وكنت أدرس الهندسة المدنية. وبعد التخرج افترقنا، وكانت لقاءاتنا عابرة، وفي المناسبات. ولكنه في عام ١٩٨٠ لاحظ من خلال أحاديثه معي أنني مهتم بأمور اللغة والفلسفة وفهم القرآن، فأطلعني على منطلق أطروحته للدكتوراه في اللسانيات التي قدمها في جامعة موسكو عام ١٩٧٣ وكان موضوعها حول نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية وموقعها في اللسانيات العامة، وقد قال لي إنه منذ ذلك الوقت وهو يبحث في أصالة اللسان العربي، وأن اللسان العربي أصل قائم بذاته ولا ينتمي إلى أسرة اللغات السامية. وقد تعرفت عن طريق الدكتور جعفر على آراء الفرَّاء وآراء أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جِنِّي، وآراء عبد القاهر الجُرجاني. فعند ذلك الوقت أدركت أن الألفاظ خدم المعاني، وأن اللسان العربي لسان لايوجد فيه ترادف، وأن المترادفات ليست أكثر من خدعة، وأن البنية النحوية يرتبط بها خبر بلاغي بالضرورة، وأن النحو والبلاغة علمان متتامان لا ينفصلان عن بعضهما، وأن الفصل بينهما كالفصل بين علم التشريح وعلم الفيزيولوجيا «الوظائف» في الطب، وأدركت من جراء ذلك أن هناك أزمةً حقيقيةً في تدريس مادة اللغة العربية في المدارس والجامعات.

وانطلاقاً من هذا المنطلق اللغوي، بدأت بمراجعة آيات الذكر بشكل جدي، وانتهيت إلى المصطلحات الأساسية «الكتاب، القرآن، الفرقان، الذكر، أم الكتاب، اللوح المحفوظ، الإمام المبين، الحديث، أحسن الحديث». وأخذت معنى «رتل» في اللسان العربي، فتبين لي أنه التنسيق والصف على نسق، فأخذت

الآيـاتِ التي فيهـا لفظـة القـرآن، والآيات التي فيها لفظة الكتاب، ورَتّلْتُها (صففتها على نسق) واستنطقتها، فتبين لي الفرق بينهما. وقد توصلت إلى هذه النتيجة الهامة في أيار ١٩٨٢. وبعد ذلك اهتديت إلى الفرق بين الإنزال والتنزيل والجعل.

ومن عام ١٩٨٤ بدأت أكتب رؤوس أقلام، وأفكاراً رئيسيةً استنتجتها من آيات المصحف، وكنت أجتمـع مع الـدكتـور جعفر كل عام في دمشق في شهري الصيف ونناقش معاً الأفكار والآراء الجديدة التي اكتشفتها. وقد استمرت هذه الفترة حتى عام ١٩٨٦. وكانت حصيلتها أفكاراً منفصلة متبلورة ولكنها بحاجة إلى صياغة وربط.

المرحلة الثالثة: ١٩٨٦ - ١٩٩٠.

بدأت هذه المـرحلة بالصيـاغـة الجـدية لهذا الكتاب وربط المواضيع بعضها ببعض. فمن صيف ١٩٨٦ وحتى نهـايـة عام ١٩٨٧ تمت الصيـاغـة الأولى للبـاب الأول من هذا الكتـاب والتي كانت أهم مشكلة فيـه، وبعـد ذلك تمت صياغة قوانين الجدل العام وجدل الإنسان «نظرية المعرفة». وقد قمت بصياغة الجدل العام صياغة أولية حتى صيف ١٩٨٨، وبعد ذلك صغنا معاً أنا والدكتور جعفر قوانين الجدل العام الـواردة في بدايـة الفصـل الأول من البـاب الثـاني من هذا الكتـاب، وذلـك للدقـة المتنـاهيـة المطلوبـة في صيـاغتها. وقد طلبت من الدكتور جعفر دك الباب أن يقدم للقـارىء المنهـج اللغـوي في كتابي هذا، ورجوته أن يكتب كتاباً مختصراً يعرف فيه أسرار اللسان العربي لنشره مع كتابي في مجلد واحد.

ولا يسعني في آخر هذه المقدمة إلا أن أقدم جزيل الشكر والاعتراف بالجميل للدكتـور جعفـر دك البـاب الـذي أعتبره بحق أستاذي في اللغة العربية الذي علمني أسرار اللسـان العربي وحاورني في كل ما يتصل بموضوعات اللغة العربية واستجاب مشكوراً لطلبي بتأليف كتاب «أسرار اللسان العربي» وقدم المنهج اللغوي لكتابي.

دمشق في كانون ثاني ١٩٩٠

الدكتور المهندس محمد شحرور

الباب الأول
الذكـر

تمهيد في المصطلحات

١ ـ الكتاب والقرآن
٢ ـ الذكر
٣ ـ الفرقان

قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩).

تصادفنا في المصحف إلى جانب لفظة «الذكر» الألفاظ التالية: «الكتاب» و «القرآن» و «الفرقان».

فهل هذه الألفاظ كلها تشير إلى معنى واحد لأنها مترادفات؟ أم أنها تشير إلى معان مختلفة؟

واذا كانت تلك الألفاظ تشير إلى معان متغايرة، فما معنى كل لفظة؟

نبدأ أولاً بتحديد مصطلحي «الكتاب» و «القرآن» ونحدد ثانياً مصطلح «الذكر ثم نبحث ثالثاً في مصطلح «الفرقان».

أولاً ـ الكتاب والقرآن

الكتاب من «كتب»، والكتاب في اللسان العربي تعني جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد، أو لإخراج موضوع ذي معنى متكامل، وعكس كتب من الناحية الصوتية «بتك» ويمكن قلبها بحيث تصبح «بكت» وجاء فعل «بتك» في قوله تعالى ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ (النساء ١١٩). فالكتاب في المعنى عكس البتك أو البكت. ونقول مكتب هندسي أي هومكان تتجمع فيه عناصر إخراج مشروع هندسي

من مهنـدس ورسـام وخطـاط وآلـة سحب، وهي العنـاصـر اللازمة لإخراج مخططات هنـدسيـة. ونقـول كذلـك مكتب محامـاة. ونقول كُتَّاب وهو مكان يجتمع فيه التلاميذ للتعلم. ثم نقـول كَتِيبَـة في الجيش، كأن نقـول كتيبـة دبـابـات أو كتيبة فرسان، وهي تجميـع الجنـود والضبـاط والدبابات أو الخيل بعضها إلى بعض في نسق معين. وعندما نجمـع أحـاديث الـرسـول ﷺ حسب المـواضيـع، كأن نجمع ما قاله النبي ﷺ حول الصـلاة، نسميـه كتـابـاً حيث نقول كتاب الصلاة، وإذا جمعنا ما قاله النبي ﷺ حول الصـوم نقـول كتـاب الصوم. وعندما نسمي فلاناً كاتباً نقصد المواضيع وتأليف الجمل ووضـع بعضهـا مع بعض، وربـط أحـداث بعضها إلى بعض. وعندما نقول ذلك لا نقصـد الخـط بتاتاً، وإنما نقصد صياغة الجمل وربطها لإخراج موضوع ما. فإذا أخذنا أربـع كلمات وهي «جـاء» و«الـرجـل» و«الى» و«البيت» وضمنناها لنخرج منها معنى مفيداً، تصبح الجملة «جاء الرجل إلى البيت» حيث تأخذ معنى مفيداً يمكن الوقوف عليـه. وعنـدمـا نقـول أصـدر رئيس الوزراء كتاباً نقصد به المعنى «الموضوع» لا الخط حيث يجب علينا متابعة القول والإخبار بموضوع الكتاب، وإلا يصبح المعنى ناقصاً، كأن نقول: أصدر رئيس الوزراء كتاباً بشأن كذا وكذا. وإذا قلنا كلمة كتاب ولم نعطها إضـافـة لتـوضيح الموضوع يصبح المعنى ناقصاً، وعلينا أن نقول كتاب الفيزياء للصف العـاشـر مثـلاً. أي هذا الكتاب يجمع مواضيع فيزيائية بعضها إلى بعض وهي صالحة لطلاب الصف العاشر. وهكذا فعندما نقول الصلاة كتاب فهذا يعني أن الصلاة هي من المـواضيـع التعبـديـة التي وجب على المسلم القيـام بها **﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾** (النساء ١٠٣). وبما أنه أُوحِيَ إلى محمد ﷺ عدةُ مواضيعَ مختلفةٍ، كلُّ موضوع منها كتابٌ، قال: **﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾** (البينـة ٢ ـ ٣) فمن هذه الكتب القيمة «كتاب الخلق، كتاب الساعة، كتاب الصـلاة، كتـاب الصـوم، كتاب الحج، كتاب المعاملات... الخ» كل هذه المواضيع هي كتب. وعنـدمـا نقـول كتـاب البصـر فهـذا يعني أننا ندرس العناصر التي إذا ضُمَّ بعضهـا إلى بعض وفق تتـالٍ معـين ينتج عن ذلك عملية الإبصار. وهذه العناصر هي الأهـداب والجفن والعـين والعصب البصـري ومركز الإبصار في الدماغ. وإذا أردنا أن ندرس كتاب العين فهذا يعني أننا ندرس البؤبؤ والشبكية وكل عناصر العين. وعندما ندرس كتـاب الهضم فهـذا يعني أننا ندرس الفم والأسنان، البلعوم، المري، المعدة،

الأمعاء الدقيقة، الأمعاء الغليظة، القولون، هذه العناصر التي تدخل في عملية هضم الطعام. وعندما جمع الزمخشري قاموسه «أساس البلاغة» جمع الأصول التي تبدأ بحرف الألف وسماها «كتاب الألف» وجمع الأصول التي تبدأ بحرف الباء وسماها «كتاب الباء».. وهكذا دواليك.

فأعمال الإنسان كلها كتب: ككتاب المشي، وكتاب النوم، وكتاب الزواج، وعباداته كتب: ككتاب الصلاة والحج والزكاة والصوم، وظواهر الطبيعة كلها كتب ككتاب خلق الكون وكتاب خلق الانسان، وكتاب الموت وكتاب الحياة، وكتاب النصر، وكتاب الهزيمة، وكتاب الزراعة، وكتاب الأنعام... هذه الكتب لا تعد ولا تحصى.

فكتاب الموت هو مجموعة العناصر التي اذا اجتمعت أدت إلى الموت لامحالة، وكتاب النصر هو مجموعة العناصر التي اذا اجتمعت حصل النصر، وكتاب خلق الكون هو مجموعة العناصر التي تركب منها خلق الكون. فلا يوجد شيء في أعمال الإنسان وفي ظواهر الطبيعة إلا من خلال الكتب، ولذا قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ (النبأ ٢٩). والإنسانية في نشاطها العلمي تبحث عن هذه الكتب. فعلى الإنسانية أن تدرس أي كتاب لكي تتصرف من خلال عناصر هذا الكتاب. فإذا أردنا أن تطول الأعمار فعلينا أن ندرس كتاب الموت وكتاب الحياة، وهذا ما يفعله علم الطب حين يدرس الظواهر التي تؤدي إلى الموت «كتاب الموت» والظواهر التي تؤدي إلى نشاط الأعضاء في الإنسان «كتاب الحياة». وعندما نقول كتاباً ونقف يبقى المعنى ناقصاً حتى نقول كتاب ماذا؟ وعندما قال تعالى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود ١) فهذا لا يعني كل آيات المصحف وإنما يعني «مجموعة الآيات المحكمات» وعندما قال ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ (الزمر ٢٣) فإنه لا يعني كل المصحف وإنّما يعني «مجموعة آيات متشابهات»، وعندما قال: ﴿وَمَاكَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾(آل عمران ١٤٥) فإنه عنى كتاب الموت، أي مجموعة العناصر التي تؤدي إلى الموت في حال توفرها واجتماعها «الشروط الموضوعية للموت». وعليه، فمن الخطأ الفاحش أن نظن عندما ترد كلمة كتاب في المصحف أنها تعني كل المصحف. لأنّ الآياتِ الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى اخر سورة الناس تحتوي على عدة كتب «مواضيع»، وكل كتاب من هذه الكتب يحتوي على عدة كتب: فمثلاً كتاب العبادات

يحتوي على كتاب الصلاة وكتاب الصوم وكتاب الزكاة وكتاب الحج. وكتاب الصلاة يحتوي على كتاب الوضوء وكتاب الركوع وكتاب السجود.

أما عندما تأتي كلمة كتاب معرفة بـ أل التعريف «الكتاب» فأصبح معرفاً عندما قال ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ في ثاني آية في سورة البقرة بعد ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ قالها معرفة ولم يقل: كتاب لا ريب فيه، لأنه لو قالها لوجب تعريف هذا الكتاب. فمجموعة المواضيع التي أُوحِيَتْ إلى محمد ﷺ هي مجموعة الكتب التي سميت «الكتاب»، ويؤيد ذلك أن سورة الفاتحة تُسَمَّى فاتحةَ الكتابِ.

هذا الكتاب هو مجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد ﷺ من الله في النص والمحتوى، والتي تؤلف في مجموعها كل آيات المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية هي:

١ - ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة ٣) (كتاب الغيب).

٢ - ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة ٣) (كتاب العبادات والسلوك) (سلوك).

أي أن هناك نوعين من الكتب: النوع الأول هو الذي يتعلق بسلوك الإنسان، ككتاب الصلاة الذي يتألف من الوضوء والقيام والركوع والسجود، وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتماً، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها أو عدم التقيد بها. ويعني ذلك أن الإنسان هو الذي يقضي «يختار» موقفه منها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القضاء». والنوع الثاني قوانين الكون وحياة الإنسان، ككتاب الموت وكتاب خلق الكون والتطور والساعة والبعث، وهذه الكتب مفروضة على الإنسان حتماً، وليست له القدرة على عدم الخضوع لها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القدر». ويتوجب على الإنسان أن يكتشف هذه القوانين ويتعلمها ليستفيد من معرفته لها.

وبما أن محمداً ﷺ هو رسول الله، وهو نبيٌّ، فهذا الكتاب يحتوي على رسالته ونبوته. فالرسالة هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيدُ بها «عبادات، معاملات، أخلاق» «الحلال والحرام» وهي مناط التكليف.

والنبوة من «نبأ» هي مجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية «الحق والباطل».

وعليه فالكتاب يحوي كتابين رئيسيين :

ـ الكتاب الأول : كتاب النبوة : ويشتمل على بيانِ حقيقةِ الوجود الموضوعيَ ، ويفرّق بين الحق والباطل أي الحقيقة والوهم .

ـ الكتاب الثاني : كتاب الرسالة : ويشتمل على قواعد السلوك الإنساني الواعي ، ويفرق بين الحلال والحرام .

وقد أوضح في سورة آل عمران أن الكتاب ينقسم إلى موضوعين رئيسيين «كتابين» ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ٧) .

١ ـ الكتاب المحكم أي مجموعة الآيات المحكمات ، وقد أعطاها تعريفاً خاصّاً بها هو أم الكتاب . ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وبما أن أم الكتاب هو مصطلح فقد عُرِّفَ بمجموعة الآيات المحكمات ، حيث أن هذا المصطلح جديد على العرب ، فالعرب تعرف أُمَّ الرأس : «ضربه على أمِّ رأسِهِ» ولكنها لا تعرف أم الكتاب ، لذا فقد عرفه لهم ، ولمصطلح «أم الكتاب» معنى واحد أينما ورد في الكتاب ، أي لا يمكن أن يكون لهذا المصطلح معنى حقيقي وآخر مجازي ، بل معناه الوحيد هو ما عُرِّفَ به ، وهو مجموعة الآيات المحكمات . والآيات المحكمات هن مجموعة الأحكام التي جاءت إلى النبي ﷺ ، والتي تحتوي على قواعد السلوك الإنساني «الحلال والحرام» أي العبادات والمعاملات والأخلاق والتي تشكل رسالته .

٢ ـ وإذا فرزنا مجموعة الآيات المحكمات على حدة ، فما تبقى من آيات الكتاب بعد ذلك هو كتابان أيضاً ، وهما : الكتاب المتشابه ، وكتاب آخر لا محكمٌ ولا متشابهٌ . وهذا الكتاب الآخر يستنتج من قوله تعالى ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ حيث لم يقل «والأخر متشابهات» فهذا يعني أن الآياتِ غيرَ المحكماتِ فيها متشابهاتٌ وفيها آياتٌ من نوع ثالث لا محكمٍ ولا متشابهٍ ، وقد أعطى لهذه الآيات مصطلحاً خاصاً بها في سورة يونس ، وهو «تفصيل الكتاب» وذلك في قوله : ﴿وَمَاكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧) . فهذه الآية تدلنا على وجود ثلاثة مواضيع هي :

١ ـ القرآن

٢ ـ الذي بين يديه .

٣ ـ تفصيل الكتاب .

وقد أكّد أن تفصيل الكتاب موحىً أيضاً من الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فالكتاب المتشابه هو كل آيات الكتاب ما عدا آيات الأحكام «الرسالة» وما عدا آيات تفصيل الكتاب. وهذا الكتاب المتشابه هو مجموعة الحقائق التي أعطاها الله إلى النبي ﷺ، والتي كانت في معظمها غيبياتٍ أي غائبة عن الوعي الإنساني عند نزول الكتاب والتي تشكل نبوة محمد ﷺ، والتي فرّقت بين «الحق والباطل».

فإذا أخذنا الكتاب المتشابه «أي آيات المصحف ما عدا الأحكام وتفصيل الكتاب» نرى أنها تتألّف من كتابين رئيسيين وردا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٧):

ـ الكتاب الأول: سبعاً من المثاني .

ـ الكتاب الثاني: القرآن العظيم .

وميزة هذه الآيات أنها إخبارية ولا يوجد فيها أوامرُ ونواهٍ، ولكن كلها آيات خبرية «أنباء». فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح في سورة هود قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا فَاصْبِرْ إِنَّ العاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩) لاحظ قوله «أنباء» وقوله «غيب». ولاحظ حين سرد قصة آدم قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص ٦٧ ـ ٦٨) وقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص ٨٨).

أمّا مصطلح «الذي بين يديه» فيقصد به الرسالة وسنشرح ذلك فيما يلي:

بيّنا أنَّ الآياتِ المتشابهات هن آيات المصحف ما عدا آيات أم الكتاب «الرسالة» وآيات تفصيل الكتاب. ويعني ذلك أنه تبقى مجموعة الآيات المتشابهات، فما اسم هذه الآيات؟

١ ـ لنرجع إلى قوله تعالى في أول سورة الحجر ﴿الٓرٰ تِلْكَ آياتُ الكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر ١).

٢ ـ ولنرجع إلى قوله تعالى في أول سورة الرعد ﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد ١).

٣ ـ ولنرجع إلى قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢).

٤ ـ ولنرجع إلى قوله تعالى في سورة البقرة ١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾

هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على الكتاب، وفي اللسان العربي لا تعطف إلاّ المتغايرات، أو الخاص على العام. فهنا لدينا احتمالان:

آ ـ أنّ القرآنَ شيء والكتاب شيء آخر، وعطفهما للتغاير كأن نقول جاء أحمدُ وسعيدٌ. حيث أن سعيداً شخص وأحمد شخص آخر. وعطفهما للتغاير. فإذا كان القرآن شيئاً والكتاب شيئاً آخر فتجانسهما أنهما من عند الله. ولكن لماذا عطف القرآن على الكتاب في أول سورة الحجر؟ السبب في ذلك هو الآية ٨٧ في هذه السورة حيث ذكر فيها السبع المثاني في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقرآنَ الْعَظِيمَ﴾ فها هنا واضح تماماً أنَّ القرآنَ شيء والسَّبْعَ من المثاني شيء آخر، وهي ليست من القرآن ولكنها من الكتاب.

ب ـ أن يكون القرآنُ جزءاً من الكتاب، وعطفهما من باب عطف الخاص على العام. وفي هذه الحالة يكفي عطف الخاص على العام للتأكيد وللفت انتباه السامع إلى أهمية الخاص.

فأي الاحتمالين هو المقصود؟!

ـ نلاحظ أنه عندما ذكر الكتاب قال: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنَّ في الكتابِ أحكامَ العباداتِ والمعاملاتِ والأخلاق، أي فيه التقوى بالإضافة إلى القرآن.

وعندما ذكر القرآنَ قال: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ﴾ ولفظة الناس تشمل المتقين وغير المتقين، فالمتقون من الناس ولكن ليس كل الناس من المتقين.

وهذا وحده يوجب أن نميز بين الكتاب والقرآن.

ـ ونلاحظ أنه في سورة الرعد عطف الحق على الكتاب، فهذا يعني أن الحقَّ شيء والكتابَ شيء آخرُ. أو أن الحق هو جزء من الكتاب وليس كل الكتاب.

ـ والجواب القاطع على هذا السؤال أعطي في سورة فاطر ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ الله بِعَبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر

٣١). هنا أعطى الجواب القاطع بأن الحق هو جزء من الكتاب وليس كلَ الكتاب، وأن الحق جاء معرفاً أي أنَّ الحقيقةَ الموضوعيةَ بأكملها غيرَ منقوصةٍ «الحقيقة المطلقة» موجودةٌ في الكتاب ولكن ليست كلَ الكتاب، حيث أنه في الكتاب توجد الآيات المحكمات «آيات الرسالة» وهي ليست حقاً. والآيات المتشابهات «آيات النبوة» وآيات تفصيل الكتاب.

ثم أعطى للحق وظيفة ثانية، وهي تصديق الذي بين يديه. فلماذا جاء القرآن كله متشابهاً؟ وما معنى تصديق الذي بين يديه؟؟

هذا السؤال هو من أخطر الأسئلة التي لا يمكن بدون فهمها فهم نبوة محمد ﷺ، ولا يمكن فهم الإعجاز مطلقاً، ولا يمكن فهم كثير من الأحاديث النبوية إن صحت.

إن الله مطلقٌ ومعلوماتهُ مطلقةٌ، وعند الله توجد الحقيقة الموضوعية بشكل مطلق، والله سبحانهُ وتعالى ليس بحاجة إلى أن يعلِّم نفسه أو يهدي نفسه. وبما أن الناس في فهمهم للحقيقة يحملون طابع النسبية، أي أنهم لا يفهمون إلا حسب الأرضية المعرفية «مستوى المعرفة» الموجودة عندهم، فقد أخذ الله تعالى ذلك بالحسبان لدى إعطاء الناس ما يشاء من علمه.

لنضرب الآن مثالاً على ذلك: إذا رغب إنسان من كبار علماء الإلكترونيات وعمره خمسون عاماً في أن يعطي المعلومات المتوفرة عنده لابنه الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام، فهناك أمامه طريقتان لا ثالثة لهما للقيام بذلك:

ـ الطريقة الأولى:

أن يعطيه المعلومات بالتدريج حسب السن وحسب الخبرة المكتسبة، فيعطيه جزءاً بحيث يستطيع استيعابه، ثم يعطيه جزءاً آخر . . . وهكذا دواليك حتى يعطيه المعلومات كاملة، ولكن هذه الطريقة تتطلب اتصالاً مباشراً دائماً بين الأب وابنه، أي أن الجسر الذي ينقل المعلومات بين الآب وابنه هو الاتصال المباشر والدائم بحيث تزيد المعلومات مع نمو الطفل.

- الطريقة الثانية:

أن يعطي الأب العالم مجموعة كاملة من المعلومات الموجودة عنده لابنه وهو في عمر ثلاث سنوات دفعة واحدة، وبدون أن يكون هناك أي اتصال بعد ذلك. وهذا يتطلب بالضرورة أن يصوغ المعلومات بطريقة يفهمها ابن ثلاث سنوات حسب أرضيته المعرفية. ثم عندما يكبر وتزيد معلوماته يقرأ هذه الصياغة مرة أخرى فيراها مطابقة لمعلوماته النامية.. وهكذا دواليك، أي مع نمو المعرفة عند هذا الإنسان يقرأ النص الثابت فيرى أنه مطابق لمعلوماته. ولكن هذه الطريقة تتطلب صياغة خاصة يجب أن يتوفر فيها شرطان: الأول ثبات النص والثاني حركة المحتوى وهذا ما يسمى بالتشابه وهو عين التشابه. ولله المثل الأعلى.

فلنر الآن بأي طريقة اتصل الله بالناس لإعطائهم المعلومات: اتصل بالطريقتين: بالاتصال الدائم بالناس وبالاتصال دفعة واحدة.

أما الاتصال الدائم فقد حصل عبر النبوات قبل محمد ﷺ كالتوراة والإنجيل. فبعد نزول التوراة كانت هناك رجعة من الله إلى الناس في الإنجيل. وبعد نزول الإنجيل كان هناك رجعة من الله إلى الناس في القرآن. ولكن بعد نزول الكتاب لم تكن هناك رجعة من الله إلى الناس حيث أنه لا نبي ولا رسول بعد محمد ﷺ. وهكذا نرى أن هناك طريقتين قد استُعْمِلَتا في نقل المعلومات. ففي الطريقة الأولى أي في التوراة والإنجيل تم نقل المعلومات فيهما بشكل يفهمه الناس حسب أرضيتهم المعرفية. أي أنهما كانا يحملان طابع المرحلية بالشرح، ولذا فعندما نقرأ التوراة الآن ونقارنها مع معلوماتنا الحالية نراها لا تنسجم مع أرضيتنا المعرفية، أي أنها كانت تحمل طابع المرحلية، وأنها نزلت بصيغة كانت مطابقة لمعارف الناس وقت نزول التوراة. ولم ينتبه المفسرون المسلمون إلى هذه الناحية الخطيرة، فاعتمدوا قليلاً أو كثيراً على التوراة في تفسير القرآن وهنا كانت الطامة الكبرى! وفي عصر النهضة في أوروبا قال العلماء: إن العلم قضى على التفسير التوراتي لخلق الكون والإنسان وعمر الكون والإنسان، وحسناً فعلوا. ولهذا وَصَفَ التوراةَ والإنجيلَ بأنهما هدىً للناس، ولكن من قبل القرآن ﴿**وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ**﴾ (آل عمران ٣ - ٤).

وينطبق الحال كذلك على الإنجيل. إذ أن التوراة والإنجيل لا يحملان صفة التشابه في الصيغة. وهكذا نرى التوراةَ والإنجيلَ اليوم كتابين يُدَرَّسانِ فقط في الكنائس للعبادةِ دون أن يكون لهما علاقة بالحياة. وهذا ما أراد «مشايخنا» أن يفعلوه بالقرآن وذلك بتحويله إلى كتاب في اللاهوت.

أما الطريقة الثانية، وهي طريقة الاتصال دفعة واحدة لا رجعة بعدها فهي الطريقة الإسلامية وهذه لا يمكن أن تكون إلاّ بثبات النص وحركة المحتوى وهو التشابه الذي يحتاج إلى التأويل باستمرار، ولهذا فالقرآن لا بُدّ من أن يكون قابلاً للتأويل، وتأويله يجب أن يكون متحركاً وفق الأرضية العلمية لأمةٍ ما في عصر ما، على الرغم من ثبات صيغته.

وفي هذا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعاً دون استثناء. إنَّ إعجاز القرآن ليس فقط بجماله البلاغي كما يقول بعضهم، وليس معجزاً للعرب وحدَهم، وإنَّما للناس جميعاً. وذلك لأن الناس كلًّا بلسانه «الإنكليزي بالانكليزية والصيني بالصينية والعربي بالعربية و. . . » عاجزون أن يعطوا نصاً متشابهاً، كلٌّ في لسانه الخاص بحيث يبقى النص ثابتاً، ويطابق المحتوى الأرضيّاتِ المعرفيّةَ المُتَغَيِّرةَ والمُتَطَوِّرة للناس مع تطور الزمن إلى أن تقوم الساعة.

إنَّ مثلَ هذا لا يمكن أن يفعله إلا من يعلم الحقيقة المطلقة وهذا لا يتوفر للناس لأن معرفتهم وعلمهم نسبيان. لذا لا يمكن تأويل القرآن كاملاً من قبل واحد فقط إلاّ الله. أما الراسخون في العلم فيؤولونه حسب أرضيتهم المعرفية في كل زمان، وكل واحد منهم حسب اختصاصه الضيق.

من هنا نفهم الحقيقة الكبيرة وهي أن النبي ﷺ لم يؤَوِّل القرآن، وأن القرآن كان أمانةً تلقاها وأدّاها للناس دون تأويل، وإنما أعطاهم مفاتيح عامة للفهم.

وأمّا مقولة: «إن النبي ﷺ كان قادراً على أن يُؤَوِّل القرآن» فنقول:

١ ـ إمّا أن يكون تأويله صحيحاً بالنسبة لمعاصريه فقط، أي التأويل الأول فيكون بذلك قد تسبب في تجميد التأويل، وتجميد حركة العلم والمعرفة، وإلزام الناس بكلامه، ثم تتقدم المعرفة الإنسانية مع الزمن وتظهر العلوم فتبدو تأويلاته قاصرة، ويكون بذلك قد قصم ظهر الإسلام بنفسه.

٢ ـ وإمّا أن يكون تأويله صحيحاً بالنسبة لجميع العصور أي أنَّ النبي كان

يستطيع أن يؤول كل آيات القرآن التأويل الصحيح في جميع الأزمان فيكون بهذا قد تسبب بما يلي :

آ ـ لا يوجد أحد من العرب الذين عاصروه قادر على فهم التأويل .

ب ـ لو أن النبي ﷺ كان قادراً على التأويل الكامل لكل القرآن لكان ذلك يعني أن النبي ﷺ كاملُ المعرفة، ومعرفته بالحقيقة معرفة مطلقة فيصبح شريكاً لله في علمه المطلق .

ج ـ يفقد القرآن إعجازه .

وفي ضوء هذا يجب أن نفهم ما يلي :

قالت العربُ في حجة الوداع للنبي ﷺ : «نشهدُ أنَّك قد بَلَّغْتَ وأديْتَ ونَصَحْتَ» «أخرجه مسلم في صحيحه، انظر جامع الأصول ج ٣ ص ٤٦٥» فاما الرسالة فقد بلغها ووضع منهجاً لها في السنة، والرسالة كما بينا أعلاه هي أم الكتاب، وأما الأمانة فقد أداها كما أوحيت اليه وهي النبوة التي تشتمل على القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب . وبذا نفهم لماذا قال النبي ﷺ الحديثين التاليين إن صحا : (ألَا إنّي أُوتيتُ هذا الكِتابَ ومثلَهُ معه) (انظر جامع الأصول في احاديث الرسول ج ١ ص ٢٨١) و(أُوتيتُ القرآنَ ومِثْلَهُ مَعَه)، لقد ظن الكثيرون أن هذين الحديثين بمعنى واحد، ولهذا في نظرنا تفسير آخر: فعندما قال عن الكتاب : ومثله معه قد عنى السنة وعندما قال: القرآن ومثله معه فإنه عنى شيئاً آخر متجانساً مع القرآن أي مثله وهو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية لذا جاء القرآن معطوفاً عليها وهي «سبع من المثاني» حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالْقُرآنَ العَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٧) .

ثانياً ـ الذكر

ما هو الذكر؟

لنرجع إلى قوله تعالى :

﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ (الحجر ٩) .

﴿وَقَالُوا يَا أيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر ٦) .

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص ١).

فإذا أخذنا لفظة الذكر في الآيتين ٦ - ٩ في سورة الحجر لوجدنا أنها جاءت معرفة بـ «ال التعريف» وإذا نظرنا إلى لفظة الذكر في الآية رقم ١ في سورة ص لوجدناها أيضاً معرفة بال التعريف. وإذا نظرنا أيضاً إلى الربط بين القرآن والذكر في سورة ص لوجدناهما مربوطين بأداة «ذي» وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء، لا على الشيء نفسه كقوله تعالى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (الفجر ١٠) وقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف ٨٣) ففرعون شيء والأوتاد شيء آخر، والآية تعني أن فرعون صاحب الأوتاد، وكقوله ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (القلم ١٤) أي صاحب مال. فالقرآن هنا هو الموصوف والذكر هو الصفة ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي القرآن صاحب الذكر. فما هي هذه الصفة الخاصة بالقرآن والتي تسمى «الذكر»؟

إن القرآن مجموعة القوانين الموضوعية الناظمة للوجود ولظواهر الطبيعة والأحداث الإنسانية، وأساسه غير لغوي ثم جعل لغوياً لقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (الزخرف ٣). وانتقال القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي تم بصيغة منطوقة لذا فهو يتلى بصيغة صوتية منطوقة مسموعة أو غير مسموعة. وهذه هي الصيغة التي أُشْهِرَ بها القرآن وبها يذكر بين الناس كما جاء في قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الانشراح ٤) وقوله ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (يوسف ٤٢).

فالذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغويةٍ إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يذكر بها القرآن. وبما أن هذه الصيغة عربية فقد قال للعرب: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء ١٠) أي صيغته اللغوية الصوتية في اللسان العربي المبين لذا قال: (فِيهِ ذِكْرُكُم) وهنا جاء أكبر عز للعروبة والقومية العربية. أمَّا بَقِيَّةُ الكِتابِ فقد تلازم الإِنْزالُ والتَّنْزِيلُ فيها بدون «جعل» وكان الإِنْزالُ عربياً مباشراً. وبما أن الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن الجنس فهو ليس عربياً ولا تركياً ولا.. ولكن قد جاء النصّ من الله سبحانه وتعالى أن الإنزال عربي. فهذه الصيغة للكتاب التي بين أيدينا وهي صيغة عربية هي صيغة محدثة بلسان إنساني وغير قديمة وذلك ليذكر بها القرآن من الناس لذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنبياء ٢) لاحظ هنا دقة التعبير في الكتاب عندما قال عن الذّكر إنّه محدث ولم يقل القرآن، ولا ننسى أن الذكر ليس القرآنَ نفسَهُ، بل هو أحد

صفات القرآن ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص ١). وهذا الفهم يحلُّ المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم حول خلق القرآن. فإذا عرفنا الآن أن الذكرَ ليس القرآنَ نفسَهُ، وإنما هو أحد خواصه وهو صيغته اللسانية حصراً يزول الالتباس. لذا فقد وضع الكِتابُ شرطاً لفهم آياته بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء ٧) هنا يجب أن نفهم أنّ أهلَ الذكر هم أهلُ اللسان العربي.

هذه الصيغة المحدثة هي التي أخذت الصيغة التعبدية، فعندما يتلو الإنسان الكتاب «بصيغته اللسانية الصوتية»، بغض النظر عن فهم المضمون، تكون تلاوته عبادةً تَساوى الناسُ فيها جميعاً عرباً أو غير عرب. فإذا وقف في الصلاة مسلمان «عربي وغير عربي» وكلاهما تلا الذكر بغض النظر عن فهم المضمون فصلاتهما مقبولة، لذا قال ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه ١٤) وعندما قال الفقهاء: إن الصلاة لا تجوز إلا باللسان العربي فهذا صحيح لأن المطلوب في أثناء الصلاة هو التلاوةُ الصوتيةُ للكتاب لا فهمُ الكتاب. لذا قيل عن القرآن: إنه المتعبد بتلاوته، فالقرآن يتلى ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ (النمل ٩٢).

ومنه يظهر أن التحويل للقرآن «الجعل» إلى صيغة صوتية لغوية عربية قد أخذ الطابع التعبدي، لذا قال عنه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر ١٧).

إذاً فصيغةُ القرآن اللغويةُ هي الصيغةُ التعبديةُ. وكذلك قال عن صيغة أم الكتاب ﴿إِنَّ الذينَ يَتْلُونَ كِتابَ الله وأَقامُوا الصَّلاةَ. . الآية﴾ (فاطر ٢٩) فيصبح الذكر بذلك هو الصيغة اللغوية الصوتية للكتابِ كله وهي الصيغة التعبدية ويغدو من الصحيح أن نقول عندما تتلى آيات الكتاب «تتلى آيات الذكر الحكيم». وبما أن النبي ﷺ عربيٌّ والذكر هو الصيغة اللغوية للكتاب كله فقد قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤) في هذه الآية يوجد إنزالٌ للذكر وتنزيلٌ له. والإنزال هو بيان التنزيل وهذا البيان «الإنزال هو الصيغة اللغوية بلسان عربي مبين». وعليه فإن انزال الذكر هو إنزال الكتاب كله «الحكم والقرآن» بصيغة لغوية عربية ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ (الرعد ٣٧) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ (يوسف ٢) مجتمعين مع آيات تفصيل الكتاب والتي هي بالضرورة عربية لأنها تشرح مفردات

الكتاب من قرآن وأم الكتاب وتشرح الإنزال والتنزيل. «انظر فصل الإنزال والتنزيل».

وفي سورة يس الآية ٦٩ قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَايَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على لفظ «ذكر» أي ذكر = عبادة، قرآن = علم «استقراء ومقارنة». وقد استعمل التنزيل للذكر في قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩) وذلك لتبيان أن الذكر جاء وحياً مادياًمن خارج إدراك محمد ﷺ أي أنه صيغ خارج وعي محمد ﷺ، وأنَّ التنزيل عملية مادية حصلت خارج إدراك محمد ﷺ ودخلت إدراكَهُ بالإنزال.

وعلينا أن ننوه أنَّ فعل «ذكر» له معان أخرى منها التذكر ضد النسيان كقوله تعالى ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ (الكهف ٦٣) ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة.

ثالثاً ـ الفرقان

قال تعالى:

﴿وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ٥٣).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ... الآية﴾ (البقرة ١٨٥).

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران ٣ - ٤).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء ٤٨).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان ١).

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال ٤١).

جاء لفظ الفرقان في ستة مواضع في الكتاب، وفي هذه المواضع الستة جاء معرفاً بأل التعريف، إضافة إلى مرة وحيدة جاء فيها منوّناً، وذلك في الآية ٢٩ من سورة الأنفال، فأول ما جاء لفظ «الفرقان» لموسى عليه السلام وجاء معه الكتاب، أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة وجاء الكتاب على حده، ففرقا عن بعضهما. وهذا الفرقان قال عنه في سورة آل عمران: إن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ ثم إن الفرقان الذي أنزل على موسى هو نفسه الذي أنزل على

النبي ﷺ في رمضان ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنَ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُـدَى وَالْفُـرْقانِ﴾ (البقرة ١٨٥) وبما أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن يستنتج أن الفرقانَ غيرُ القرآنِ، وهو جزء من أم الكتاب «الرسالة» وأُنْزِلَ وَنُزِّلَ في رمضان. وهذا الجزء أول ما أنزل إلى موسى عليهِ السلام. فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حده مفروقاً عن الكتاب؟

لو تأَمَّلْنا الآيات (١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣) من سورة الأنعام وهي:

﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُكُم عَلَيكُم

١ - أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

٢ - وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسانَاً.

٣ - وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

٤ - وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَابَطَنَ.

٥ - وَلاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ١٥١).

٦ - وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

٧ - وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

٨ - وإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى.

٩ - وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا.

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٢).

١٠ - وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥٣).

أقول: لوتَـأَمَّلْنـا هذه الآيات لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنَّها هي الوصايا العشر. ولنلاحظ الآية التي تلت هذه الآيات الثلاث وهي الآية ١٥٤ الأنعام:

﴿ثُمَّ آتَيْنـا مُوسَى الْكِتَـابَ تَمَـاماً عَلَى الَّذي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَـةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَـاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. هنا نلاحظ بشكل جلي كيف أنَّ هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولةً عن الكتابِ، وأنَّ الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقـط، وليس التـوراةَ والإنجيـل، وذلـك واضـح تمـامـاً في قولـه تعالى عن عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجيلَ﴾ (آل عمران ٤٨).

لنقارن هذه الوصايا العشر والتي أتى بعدها ﴿ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (الأنعام ١٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ (البقرة ٥٣) بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران ٤). أي أنّها أُنزلَتْ قبل محمدٍ ﷺ، وبقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ... الآية﴾ (الفرقان ١) أي أنَّها أنزلت على محمدٍ ﷺ أيضاً... نستنتج أنَّ الفرقانَ هو الوصايا العشرُ التي جاءت إلى موسى وثبتت إلى عيسى عليهما السلام ثم جاءت إلى محمد ﷺ. وهي رأس الأديان السماوية الثلاثة وسنامها، لأنها القاسمُ المشتركُ بين الأديان الثلاثة. وفيها التقوى الاجتماعية وهي ما يسمى بالأخلاق، وليست العبادات، وهي تحمل الطابع الإنساني العام.

ولقد أنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ في رمضان، وبما أنها من أم الكتاب فإنها أُنْزِلَتْ وَنُزِّلتَ معاً، ولذا قال ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ (الفرقان ١). ونحن نعلم أن معركة بدر حصلت في رمضان، وأن آيات الفرقان في سورة الأنعام ليست مكيةً، فهنا أخبرنا أنّ الفرقان أنزل على رسول الله ﷺ في معركة بدر «في رمضان» لذا سمي بيوم الفرقان بقوله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال ٤١).

لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب الآية ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة ٤) وحدد هذا الصراط في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فَمَن هؤلاء الذين أنعم عليهم وجاءهم الصراطُ المستقيمُ لأول مرة؟

إن الناس الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة هم بنو إسرائيل الذين عاصروا موسى. وقد فضلهم الله على العالمين به وذلك في قوله: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ٤٧) هنا يذكّر بني إسرائيل بنعمته التي أنعم عليهم بها والتي فَضّلهم على العالمين بها، وهذه النعمة وهذا التفضيل هما الصراط المستقيم الذي أنزل لأول مرة في تاريخ الرسالات إلى موسى عليه السلام وذلك في قوله ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *﴾ (الصافات ١١٤ ـ ١١٨). وقد سُمِّيَت الوصايا الصراطَ المستقيمَ لأنها لا تتغير أبداً،

حيث أن الأخـلاق مبـادىء إنسـانيـةٌ عامةٌ وهي من ثوابت الدين الإسلامي ولا تحمل طابع التغيُّر مع الزمن والتطور والمرونة «الحنيفية» مثلها في ذلك مثل العبادات. وفي الـدين الإسـلامي الـوصـايـا والحـدود والعبـادات هي الصراط المستقيم أي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في العبادات.

لنلاحظ التسلسل التالي:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ٥٣). بعد الوصايا العشر في سورة الأنعـام قال: ﴿ثُمَّ آتَيْنـا مُوسَى الْكِتـابَ﴾ وأن الـوصيـة العـاشـرة هي اتباع الصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ.. الآية﴾ (الأنعام ١٥٢).

- صِرَاطَ الَّـذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ----← يَابَنِي إِسْـرَائِيـلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

- وَلَقَـدْ مَنَنَّـا عَلَى مُوسَى وَهَـارُونَ ----← وآتَيْنَـاهُمَـا الْكِتَـابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.
﴿وَلَـقَـدْ آتَـيْنَـا مُوسَى وَهَـارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ (الأنبياء ٤٨).

وهكـذا نرى أن الـوصـايا العشرَ هي الفرقانُ وهي الصراطُ المستقيمُ. وكل من اتبع هذا الصراطَ إلى يوم الدين هو من الذين أنعم الله عليهم وهو من المهتدين. وكل من تركـه فقـد ضل، وكـل من عاداه فقـد باء بغضب من الله كائناً من كان، لذا أتبعها بقـولـه ﴿غَيْـرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. وقد سمى الوصايا الحكمةَ بالنسبة لعيسى عليـه السـلام حيث قال ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران ٤٨). فالكتاب هو الرسالة، والحكمة هي والوصايا، والتوراة هو نبوة موسى، والإنجيل هو نبوة عيسى، ومجموعهم هو الكتاب المقدس. وللدلالة على أن الوصايا هي الحكمة ذكر تسعاً من هذه الوصايا في سورة الإسراء من الآية ٢٣ الى الآية ٣٩ والتي تقـول ﴿ذٰلِـكَ مِمَّـا أَوْحَى إِلَيْـكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ... الآية﴾ فالوصايا العشر بالنسبـة لعيسى وللنبي محمـد ﷺ هي جزء من الحكمـة حيث ذكـر وصـايا غيرها في سورة الإسراء، كقوله: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ (الإسراء ٣٧) ودمجها تحت

عنوان الحكمة وكذلك في سورة لقمان بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ . . . الآية﴾ (لقمان ١٢) وبما أن لقمان ليس نبياً ولا رسولاً فقد ذكر أن الحكمة «الأخلاق» يمكن أن تأتي لأي شخص في كل زمان ومكان وذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة ٢٦٩) أما بالنسبة لموسى فقد جاءته الوصايا العشر «الفرقان» وسميت باسمها ولم يقل عن موسى إنه أوتي الحكمة. أما عن عيسى ومحمد فكلاهما أوتي الحكمة التي تعتبر الوصايا العشر الجزء الأساسيَ منها وهي من الصراط المستقيم الذي يجب على كل إنسان ومجتمع إنساني أن يتبعها.

وبما أن الوصية الأولى في الفرقان هي التوحيدُ وقد بعث الله الرسلَ والأنبياء من أجل التوحيد فعندما ذكر الأنبياء والرسل في سورة الأنعام قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ . . . الآية﴾ (الأنعام ٨٩) وقوله ﴿وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام ٨٧) وهنا ذَكَرَ عبارة «صراط مستقيم» غيرَ مُعرَّفَةٍ لأَنَّ الصراط لم يأت بكامله إليهم جميعاً بل أتى جزء منه إليهم كلهم وهو التوحيد على الأقل أي ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (الأنعام ١٥١) وإلى شعيب جاء التوحيد «الوصية الأولى» والوفاء بالكيل والميزانِ «الوصية السابعة».

وللفرقان نوعان، الأول: الفرقان العام وهو الذي جاء إلى موسى وعيسى ومحمدٍ ﷺ. والثاني: الفرقان الخاص الذي جاء إلى محمد ﷺ وحده، وهو الذي ذكر في سورة الفرقان «انظر فصل الفرقان».

الفصل الأول
القرآن والسبع المثاني

١ ـ كلمات الله.
٢ ـ محتويات القرآن.
٣ ـ القرآن هو الآيات البينات وهو تصديق الذي بين يديه «تصديق الرسالة».
٤ ـ القرآن هو الكتاب المبارك.
٥ ـ أسباب النزول هي للأحكام ولتفصيل الكتاب، وليس للقرآن أسباب نزول.
٦ ـ مصطلح «الحديث» للقرآن فقط.
٧ ـ القصص من القرآن وهي الكتاب المبين.
٨ ـ السبع المثاني.



١ ـ كلمات الله

ترتبط الكلمة في الأصل بالجانب الصوتي للسان، كقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

والكلام في اللغة اسم جنس يقع على القليل والكثير، وقد عَرَّفَه بعضهم «بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المميزة» (الزمخشري الكشاف ج ١ ص ٥).

وعندما نقيم حفلاً خطابياً نقول: إن الكلمة لفلان، فهذا يعني أنه حاضر ليلقيها بنفسه. أما إذا كان غائباً فنقول يلقيها بالنيابة عنه فلان. وكل الألسن الإنسانية أصوات تتألف منها الكلمات والجمل. فإذا تكلم الصيني فإننا نحن العرب نسمع أصواتاً ولكن لا نفهم ما هو مدلول تلك الأصوات «المعنى». وعندما يأخذ الكلام مدلولاً في الذهن يصبح قولاً.

الكلام يخرج من الفم وفيه تكمن الفصاحة. لذا قال موسى عن أخيه هارون ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسانًا﴾ (القصص ٣٤). وعندما أرسل الله موسى إلى فرعون نصحه بقوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ (طه ٤٤). فالقول هو الكلام الذي له دلالات في الذهن، لذا نقول «البلاغة في القول» و«الفصاحة في اللسان». أما البلاغة فنراها في قوله تعالى ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء ٦٣) وهنا نفهم قول النبي ﷺ إن صح (أُعْطِيتُ جوامعَ الكَلِمِ، واخْتُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً) حديث عن عمر «رض» ذكره أبو يعلي في مسنده وقوله (أُعطِيتُ فواتحَ الكلامِ، وجوامعَهُ وخواتِمَهُ) ذكره أبو يعلي في مسنده عن أبي موسى. أي الأصوات الإنسانية المجموعة في فواتح السور ولا تعني البلاغة لا من قريب ولا من بعيد. ونرى الكلام والقول في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ (الكهف ٥) أي هذه الكلمة التي تخرج من الأفواه لها مدلول الكفر عندما نفهمها في الذهن لذا قال: (إِنْ يَقُولُونَ) ولم يقل: إن يتكلمون.

هنا يجب أن نفهم أن الألسن الإنسانية ذات شقين: الشق الأول هو الأصوات التي لها وجود مادي «موضوعي». والشق الثاني هو دلالات هذه الأصوات في الذهن. وهذه خاصية تميز بها الإنسان، وهي أن الألسن الإنسانية تتألف من دال ومدلول.

وبمـا أن الألسن تؤدي وظيفتين همـا أن تستخدم أداة للاتصال وأداة للتفكير. ففي أداة الاتصـال يظهـر بشكـل جلي ارتباط الدالّ بالمدلول. وفي أداة التفكير يظهر المـدلـول ولكن التـدقيق يبين أن التفكيـر الإنسـاني لا يتم إلاّ ضمن إطار لساني غير ملفوظ. هذا كله متعلّقٌ بالإنسان. فهل ينطبق ذلك على كلمات الله؟

لو كان النص القـرآني المتلو أو المكتـوب المـوجود بين أيدينا هو عين كلام الله فهـذا يعني أن الله له جنس وجنسـه عربي، وأن كلام الله ككـلام الإنسـان يقوم على علاقــة دالٍّ ومــدلــول. ولكن بمـا أن الله أحـادي في الكيف ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخـلاص ١)، وواحـد في الكم ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الأنعام ١٩) وأن الله ليس عربيـاً ولا انكليـزياً، لزم أن يكون كلامه هو المدلولات نفسها، فكلمة الشمس عنـد الله تعـالى هي عين الشمس، وكلمـة القمـر هي عين القمر، وكلمة الأنف هي عين الأنف، أي أن الـوجـود المـادي «الموضوعي» ونواميسه العامة هي عين كلمات الله. وكلمات الله هي عين الوجود ونواميسه العامة. ولهذا نقول: إن الله هو الحق وإنَّ كلمـاتـه حق ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ (الأنعام ٧٣) ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (يونس ٨٢) ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج ٦٢) فالوجود المـوضـوعي خارج الـوعي هو الوجود الإلٰهي ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ (الحج ٦٢) والـوجـود الكوني الذي هو كلمات الله وهو حق أيضاً ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأحقاف ٣). فالله حق والوجود كلماته وهو حق أيضاً، لذا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس ٨٢) ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمـران ٤٧ ـ مريـم ٣٥). ونـحـن نعـلم أنّ سمـة «المُتَكلم» ليست من أسمـاء الله الحسنى، وإنمـا كلمـاته اشتقت من اسمه الحق.

ومن أجـل تعليم الإنسـان صاغ الله الحقيقـة المطلقـة وهي الـوجـودَ ونواميسَه العامةَ وأسماءه الحسنى صياغةً لسانية إنسانية. وبما أن فهم الإنسان للحقيقة هو فهم نسبي دائمـاً له علاقـة بتطور المعارف والأرضية المعرفية للإنسان فقد لزم أن تصاغ الحقيقة بلغـة إنسـانيـة مطـواعـة لهـذا الفهم النسبي عن طريق التشـابـه في الصيغة الثابتة. واللسان العربي في بنيته ومفرداته يحمل هذه الخاصية «التشابه» بوضوح، وهذا أحد وجـوه أصـالـة هذا اللسـان، ولهـذا كان اللسـان العربي هو الوعاء الذي حمل مطلقَ الحقيقـةِ ونسبيـة الفهـمِ الإنسـاني. ففي الصيـاغـة القرآنية العربية تظهر قمة الجدل

الداخلي بين الحقيقة المطلقة للوجود والفهم النسبي الإنساني لهذا الوجود في مرحلة ما، وفي هذا المعنى تكمن قمة إعجاز القرآن للناس جميعاً، على اختلاف عصورهم واختلاف مداركهم تبعاً لاختلاف أرضياتهم المعرفيّة.

وبما أن القرآن حوى الحقيقة الموضوعية لذا أطلق عليه تسمية «الحق». ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٧).

٢ ـ محتويات القرآن

قلنا إنَّ الكتابَ المتشابهَ هو السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ. فالتشابه في السبع المثاني جاء في قوله تعالى ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابَاً مُتَشَابِهَاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَٰلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر ٢٣).

نلاحظ هنا كيف جاءت كلمة «كتاب» منكرة ولذلك فهي لا تعني كل محتويات المصحف، وانما وصف هذا الكتاب بصفتين هما التشابه والمثاني. ويعني ذلك أنَّ مجموعةَ السبعِ المثاني هي كتابٌ متشابهٌ ومثانٍ معاً.

أما بالنسبة للقرآن فيجب أن نميز بين القرآن معرفاً كقوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة ١٨٥) وقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٧) وقوله ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج ٢١ ـ ٢٢) وقوله ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾ (يس ١ ـ ٢) ولم يقل يس * وقرآن حكيم.

فعندما يأتي القرآن معرّفاً فإنه يأخذ المعنى نفسَهُ، أما إذا جاء منكراً فيمكن أن يعني جزءاً منه. فالقرآنُ الحكيم هو القرآنُ العظيمُ نفسُه وهو الذي أنزل في رمضان. وليست عبارةُ (قرآن مجيد) هي بالضرورة (القرآنَ العظيمَ). ولكنّها من جنسه وتعني جزءاً منه، لا كُلَّه. وقد جاء الدليل على أنّ القرآنَ كلّه مُتشابهَ وأنه هو الحقُّ في سورة يونس في قوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس ـ ٣٦) ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ الله وَلَٰكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس - ٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مَنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس - ٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس - ٣٩).

وها هنا نلاحظ أن سياق الآيات يتكلم عن القرآن وأنه احتوى على معلومات لم يحيطوا بها وأنّه لم يأت تأويلُه بعدُ. ونلاحظ أيضاً ما جاء في الآية ٧ آل عمران أن التأويل هو للمتشابه فقط.

أما اذا نظرنا إلى محتويات القرآن فنرى أنه يتألف من موضوعين رئيسيين وهما:

١ - الجزء الثابت: ﴿قُرآنٌ مجيدٌ * في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج ٢١ - ٢٢) وهذا الجزء هو القوانين العامة الناظمة للوجود كله ابتداء من خلق الكون (الإنفجار الكوني الأول، وفيه قوانين التطور «الموت حق» وتغير الصيرورة «التسبيح» حتى الساعة ونفخة الصور والبعث والجنة والنار. وهذا الجزء لا يتغير من أجل أحد وهو ليس مناط الدعاء الإنساني، وإن دعا كلُّ أهل الأرض والأنبياء لتغييره فلا يتغير، وهذا الجزء العام هو الذي تنطبق عليه عبارة ﴿لامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الكهف ٢٧).

فكلمات الله هي عين الموجودات أي الأشياء ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ (الأنعام ٧٣). وفي اللوح المحفوظ يوجد القانون العام الصارم لهذا الوجود، ولا تبديل لهذا القانون من أجل أحد. أما التشابه في هذا الجزء فهو منسوب إلى الفلسفة وهي أم العلوم، أي معرفة الإنسان بالقوانين العامة الناظمة للوجود.

٢ - الجزء المتغير من القرآن: وهذاالجزء عبر عنه بأنه مأخوذ من امام مبين في قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس ١٢).

فالإمام المبين يحتوي على شقين:

آ - **أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية**: مثل تصريف الرياح واختلاف الألوان وهبة الذكور والإناث والزلازل والطوفان وهي قابلة للتصريف، وغير مكتوبة سلفا على أي إنسان وغير قديمة. فمثلاً القانون العام في اللوح المحفوظ يقول: إن «الموت حق»، ولكن الأحداث الجزئية في الطبيعة يمكن أن تسمح بوجود ظواهر تطيل

الأعمار وظواهر تقصرها. فالتصريف هو بطول العمر وقصره، ولكن ليس بإلغاء الموت. فأحداث الطبيعة الجزئية أطلق عليها مصطلح آيات الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم ٢٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾ (الجاثية ٦). فآيات الله تختص بظواهر الطبيعة وقد جاءت في الكتاب في مصطلح «كِتاب مُبين» في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مافِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام ٥٩) وهذه الأحداث ليست مبرمجة سلفاً وليست قديمة.

وعندما عطف عبارة (كتاب مبين) على القرآن في أول سورة النمل عطف خاصاً على عام. لنرجع إلى الآية رقم ٧٥ تقول: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾. فعندما يورد لفظ «كتاب مبين» في القرآن يتكلم فيه عن جزئيات ظواهر الطبيعة، كالحركة الكيميائية ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ﴾ والموقع ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ﴾ والحركة الميكانيكية ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُهَا﴾.

هذا الجزء والذي سماه بعبارة «كتاب مبين» فيه التصريف والتغيير وهو مناط التدخل الإلٰهي وفقاً للنواميس الكونيّة التي ارتضاها وقرّرها، فتارة يعمل لصالح زيد وأخرى لصالح عمرو، وهو مناط الدعاء. فنحن ندعو الله أن يرسل لنا مطراً، لأن المطر يأتي من تصريف الرياح أو أن يهب لنا ذكوراً أو إناثاً. لأن كل هذه الأشياء ليس لها علاقة باللوح المحفوظ وإنما هي أحداث جزئية في ظواهر الطبيعة وإلاّ فلا معنى لقوله عليه السلام: الدعاء مُخّ العبادة وقوله أيضاً: لا يردّ القضاء إلّا الدعاء. وهي أيضاً مناط العلوم كلها الطب والفلك والفيزياء والكيمياء.. الخ ما عدا الفلسفة والتاريخ. وإن التشابه في آيات الكتاب المبين «آيات الله» يقوم على نسبة تقدم المعارف الإنسانية بأحداث الطبيعة وظواهرها وهو الذي ينطبق عليه ﴿إذا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة ١١٧ ـ آل عمران ٤٧ ـ مريم ٣٥).

ب ـ أفعال الإنسان الواعية: وهو مانسميه القصص. لقد أكدَّ في الكتاب أن القصص من القرآن في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (يوسف ٣). فقد أشار إلى أن تتبع

أفعال الإنسان المسجلة عليه بعد وقوعها يتم في ﴿إمام مُبينٍ﴾ ليميزه عن ﴿لَوْحٍ مَحْفوظٍ﴾ ﴿إنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثارَهُمْ وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إمامٍ مُبينٍ﴾ (يس ١٢) وقد أورد منه أحداثاً متكاملة لتتبع تطور التاريخ الإنساني، وتطور المعارف في النبوات والتشريع في الرسالات، أي كيف تفاعلَ الإنسان مع القانون العام للوجود والقوانين الجزئية من جهة، وكيف تفاعلَ مع الرسالات من جهةٍ أخرى. وبما أنه أعطى هذا الخط في القصص فقد سماه «أحسن القصص».

أما أن القصص جزء من القرآن فقد ورد في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (يوسف ٣) فلو كان النبي ﷺ يجهل القصص والقرآن معاً، وكان القصصُ ليس جزءاً من القرآن لجاءت الصيغة بصورة المثنى أي: وان كنت من قبلهما، وهذه الصيغة «من قبله» تصح في حالة أن القرآن شيء والقصص شيء آخر في حالة واحدة وهي أن النبي ﷺ كان يجهل القرآن ولا يجهل القصص، ولكن النبي ﷺ كان يجهل القصص أيضاً لقوله في سورة هود بعد قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩). من هنا نستنتج النتيجة الوحيدة وهي أن القصص جزء من القرآن. وهناك دليل آخر في قوله تعالى في أول سورة النمل: ﴿طٰسٓ تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ فإذا تصفحنا سورة النمل وجدنا أنّ فيها قصصاً.

أما العنوان العام الذي أعطاه الكتاب للقصص وهو عبارة «الكتاب المبين» فقد جاء في ثلاث سور فيها قصص وهي سورة يوسف (الٓر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾، وسورة الشعراء ﴿طٰسٓمٓ * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾، وسورة القصص ﴿طٰسٓمٓ * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.

ولنشرح الآن لماذا سمى القصصَ الكتابَ المبينَ وسمى ظواهر الطبيعة كتاباً مبيناً.

السبب أولاً أن كليهما أُوحي من الإمام المبين وليس من اللوح المحفوظ. وثانيهما أن القصص أعطت مواضيع متكاملة منتقاةٍ لتتبع تطور التاريخ الإنساني، لذا سميت «أحسنَ القصص»، وعُرفت بالكتاب المبين. أما أحداث الطبيعة وظواهرها فقد أورد فيها آيات متفرقة لذا سماها «كتاباً مبيناً».

ونشير إلى أنَّ التشابه في القصص منسوبٌ إلى تطور المعارف الإنسانية حول

تطور التاريخ الإنساني، فكلما زادت هذه المعارف تمكنا من تأويل آيات القصص.

ومن هنا نستنتج أن القرآن العظيم وهو كتاب متشابه يتألف من مصدرين رئيسيين:

آ ـ القانون العام ﴿قُرْآنٌ مَجِيدٌ * في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ وهو كلمات الله القديمة لا تبديل لها وسمي مجيداً لأن السيطرة الكاملة له ولا يمكن الخروج عنه وهو مطلق.

ب ـ القانون الخاص الجزئي في أحداث الطبيعة الجزئية وظواهرها وأفعال الإنسان بعد وقوعها، وسماه إماماً مبيناً، وهو مناط التصرف والدعاء والمعرفة، ولكنه لا يلغي القانون العام بل يعمل ضمنه وهو كلام الله المحدث وينطبق عليه قوله ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وفيه إرادةُ الله الظرفية. حيث أن هذين الجزأين يحملان طابع الوجود الموضوعي. وسمي قرآنا لأنه قرن القانون العام للوجود مع القانون الخاص ومع خط تطور سير التاريخ الإنساني.

وهكذا نفهم أن القرآن هو الجانب الموضوعي في الكتاب «الحق» ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا ماهٰذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىً وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هٰذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سبأ ٤٣). وفي قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٧).

هنا نرى أنَّ الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب إذ أن أم الكتاب ذاتية، وهكذا لا يمكن أن نرى في أي آية من آيات الأحكام مصطلحَ (قالَ الله)، هذا مستحيل.. إنما نرى أن آيات الأحكام جاءت ضمن الصيغ التالية:

- صيغة أمر: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانَ وَإِيتَاء ذي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي﴾ (النحل ٩٠).
- صيغة نهي: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (الإسراء ٣٢) ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٢٣).
- صيغة فريضة وكتاب: ﴿قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾ (التحريم ٢). ﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيامُ﴾ (البقرة ١٨٣).

﴿والمُحْصَنَاتُ من النِّساء إلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ الله عَلَيْكُمْ﴾ (النساء ٢٤).

- صيغة وصايا: ﴿يُوصِيكُمُ الله في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾

(النساء ١١).

أي أنه لا يمكن أن نرى آية واحدة من آيات الرسالة «الأحكام» فيها عبارة (قال الله)، لأنه لو جاءت بهذه الصيغة (قال الله صلوا) أو (قال الله صوموا)، مع الأخذ بالحسبان أن قول الله هو الحق ﴿قوله الحق﴾ (الأنعام ٧٣) ـ فهذا يعني أن الصلاة والصوم حقيقة موضوعية موجودة خارج الوعي. ولأصبحت الصلاة والصوم ناموساً لا يمكن مخالفته. ولرأينا أن الناس جميعاً دون استثناء صاموا وصلوا من دون أن يكون لهم أي خيار في ذلك، ولأصبحت الصلاة والصوم كعملية هضم الطعام ونبض القلب يلتزم بأدائهما الناس آلياً.

من هنا وللدقة وجب علينا أن لا نطلق عبارة (قال الله) على الأحكام ولكن نقول: أمرنا الله بالصلاة ونقول: أمرنا الله بالصوم، ونقول: أمرنا الله تعالى بصلاة الجمعة في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ. . .﴾ (الجمعة ٩). ولا نقول: قال الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ. . .﴾. فإذا قلنا: قال الله صلوا، وكان هناك أناسٌ لا يصلون، فهذا يعني أن قوله غير نافذ وهذا يناقض قانون (قوله الحق). هذا إذا أردنا أن نتقيد بالمصطلح القرآني البحت. أما قولنا عن كل آية وردت في الكتاب: (قال تعالى) فهذا مصطلح مجازي بحت يقصد به الصياغة اللغوية للكتاب كله الذي أنزل من عند الله وهو من صياغة رب العالمين.

من هنا يجب أن نفهم أن كلمات الله نافذة لا مجال لتبديلها ولا خيار لنا في تنفيذها أو عدم تنفيذها لأن كلماتِهِ عينُ الوجود ونواميسُهُ العامةُ وأحداثُه الجزئيّةُ حينَ وقوعِها. لذا قال عن القرآن: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (الكهف ٢٧) هنا قال عن كلمات الله: إنها غير قابلة للتبديل وإن الإنسان لا يستطيع أن يحيد عنها ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾، فلو كانت الآية ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء ١١) هي من كلمات الله، ورأينا أناساً لا يلتزمون بها ويبدلونها، لكان ذلك يعني كذب ما جاء في الآية ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.

وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف ١٠٩). بما أن كلمات الله هي عينُ الموجودات ونواميسُها العامةُ والخاصةُ حين وقوعها، ونعلم الآن مدى كبر

هذا الكون حسب معلوماتنا، فلو أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف لنا الموجودات من خلال كلام الإنسان، للزم أن يكون البحر مداداً لهذه الكلمات ولا يكفي.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة ٥٨) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة ٥٩).

هنا الآية ٥٨ في سورة البقرة تبدأ بقوله ﴿وإذ قلنا﴾ والقائل هو الله، فقوله نافذ ولكنه ينطبق فقط على الفقرات ﴿ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ أي أنهم دخلوا القرية وأكلوا ودخلوا الباب سجداً. ولكن جملة ﴿قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هي جملة أمر (ضد النهي) وليست قولاً، ولكي يبين أن هذه جملة أمر قابلة للعصيان والطاعة وليست كلمة فقد أتبعها بالآية ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وليست كلمةً نافذةً لا محالةَ.

ولو كانت جملة ﴿قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ كلمةً من كلمات الله وليست أمراً لتناقضت مع قوله تعالى ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ اذ كيف يقول ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ويقول أيضاً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لذا فقد أفرد آية خاصة هي الآية ٥٩ من سورة البقرة لكي يؤكد عدم التناقض.

وقد أكد هذه الناحية أيضاً في الآيتين ١٦١ - ١٦٢ في سورة الاعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف ١٦١).

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف ١٦٢).

أما لماذا تكرر الموضوع نفسه مرتين في البقرة والأعراف فهو بحاجة إلى بحث خاص.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ لاتَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل ٥١).

لنقارن هذه الآية مع الآية ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ

الْبَاطِلُ﴾ (الحج ٦٢) أي أن وحدانية الله هي حقيقة موضوعية خارج الوعي الإنساني وأن التعددية غير ممكنة موضوعياً حيث أن أي تعددية هي باطل ووهم. فالأصنام هي حجارة خارج الوعي الإنساني وليست آلهة. لذا بدأت الآية بقوله: ﴿قال الله﴾.

لنناقش الآن الصيغة التالية:

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١) هذه الصيغة هي صيغة أمر، فلو حذفنا منها فعل (قل) لأصبحت الصيغة (هو الله أحد) وهي صيغة خبر. وصيغة (قل هو الله أحد) ليست قرآنية، ولو حذفنا قل لأصبحت الصيغة قرآنية لأنها خبر عن أكبر حقيقة موضوعية في الوجود وهي وحدانية الله. لذا فإنَّ وضعَ صيغة قل أو عدم وضعها له أهمية كبيرة في الكتاب حيث أنه يُعَدُّ أحدَ المؤشرات لتحديد نوع الآية.

إنَّ آيات القرآن والسبع المثاني كلَّها من الآيات المتشابهات وهي تمثل النبوة مع آيات تفصيل الكتاب. فما هي مواضيع القرآن؟

لقد قلنا: إن القرآن جاء من (قرن) وهو من جَمْعِ الجزء الثابت من قوانين الكون الموجود في (اللوح المحفوظ) مع الجزء المتغير الموجود في (الإمام المبين). لذا فان القرآن يحتوي على موضوعين هما:

١ ـ الجزء الثابت وفيه القانون العام للوجود المادي الثنائي والذي يتمثل في جدل هلاك شكل الشيء باستمرار وجدل تلاؤم الزوجين. ويعتبر التطورُ وتغيرُ الصيرورة العمودَ الفقريَ لهذا الجزء، ويتمثل بالانفجار الكوني الأول وقوانين التطور حتى الساعة ونفخة الصور الأولى والثانية والبعث والحساب والجنة والنار أي خط الوجود المادي كله مع خط تطوره الحتمي. هذا الجزء الذي له السيطرة التامة والمجد والذي قال عنه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج ٢١ ـ ٢٢). هذا الجزء ليس مناط الدعاء من قِبَلِ الإنسان ولا يمكن أن يتغير من أجل أحد وهو الذي يُطلق عليه: (كلام الله القديم) والذي هو جوهرُ الوجودِ المادي وعينُه والذي قال عنه: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ وهذا الجزء هو مناط الفلسفة وهي أم العلوم.

٢ ـ الجزء المتغير وهو الذي أُوحِيَ من إمامٍ مبينٍ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس ١٢). ويشتمل على:

آ ـ الجزء المتعلق بأحداث الطبيعة وظواهرها ويسمى آيات الله وقال عنه: (كتاب مبين). وهذا الجزء هو مناط المعرفة الإنسانية بالطبيعة وهو مناط التصريف من الله والإنسان وهو مناط الدعاء لأنه غير ثابت ولكنه لايخرج عن القانون العام وهو الجزء الذي قال عنه: ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم ٣٥) ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس ٨٢) مثل هبة الذكور والإناث وتصريف الرياح والمطر والصحة والمرض والرزق وهو كلام الله المحدث (إرادة الله الظرفية).

ب ـ أحداث التاريخ الإنساني بعد وقوعها وهو الجزء الذي سمي (أحسن القصص) «الكتاب المبين» وفيه خط تطور التاريخ الإنساني بالنبوات والرسالات. فالتاريخ الإنساني الواعي هو معرفةٌ وتشريعٌ، وما نتج عن ذلك من نتاج مادي وعلاقات حضارية إنسانية. وبما أن الإنسان يحتاج إلى تراكم معرفي حتى تحصل قفزة تشريعية، فإننا نرى أن عدد الأنبياء يزيد عن عدد الرسل، فكل رسول هو بالضرورة نبي، ولكن ليس كل نبي هو بالضرورة رسولاً. وأضرب المثال التالي لكي نفهم هذه النقطة:

عندما دخلت أول سيارة إلى دمشق لم يواكب دخولها إصدار قانون للسير، أي أن قانون السير في دمشق لم يصدر مع دخول أول سيارة إلى دمشق، ولكن صدر القانون بعد أن تراكم عدد السيارات ومَسَّت الحاجة إلى تشريع جديد منظم للسير. فيجب أن نفهم النبواتِ والرسالاتِ على هذا الوجه، فالنبوات قفزات معرفية، وعندما تتراكم هذه المعارف تحصل الحاجة إلى قفزات في التشريع «الرسالات»، ولهذا نرى أن عدد الأنبياء هو بالضرورة أكثر من عدد الرسل.

٣ ـ القرآن هو الآيات البينات
وهو تصديق الذي بين يديه (تصديق الرسالة)

ما هي البَيِّنَةُ؟

البينة هي دليل مادي قابل للإبصار والمشاهدة، فإذا اتهمنا إنساناً بالسرقة

فعلينا أن نقيم الحجة عليه بالبينة أي بالدليل المادي. فما هي حجة الله على الناس؟

حجة الله أنه بلغ الناس رسالة «الأحكام» ودعم هذه الرسالة بالبينات التي هي دلائل مادية.

بالنسبة لموسى أعطاه الله التوراة نُبُوّةً له، وأعطى عيسى الإنجيلَ كذلك. ودعم التوراة ببينات من خارجه، ودعم الإنجيل ببينات من خارجه. وأمّا موسى فأعطاه الله تسع آيات بينات ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ (الإسراء ١٠١) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤلاء إِلا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يافِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ (الإسراء ١٠٢).

لم يقل الله عن التوراة إنها آيات بينات إلا لأنها جاءت بصياغة تتناسب مع الأرضية المعرفية لذلك الوقت أي تتناسب مع مراحل الوعي الإنساني منذ ثلاثة آلاف سنة. كما أن الله أعطى موسى بالإضافة إلى التوراة الكتاب والفرقان ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ٥٣). فالتوراة والفرقان والكتاب بحاجة إلى بَيِّناتٍ، وهذه البيناتُ ماديةٌ، سماها أولاً آياتٍ وثانياً بَيِّناتٍ، وعددها تسع وكانت دليلَ موسى لتصديقه بأنه مرسل من الله. فهذه الآيات هي: العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والطوفان والضفادع والدم وشق البحر والرجز. هذه الآيات كانت بينات مادية شوهدت بالعين وبالحواس ولهذا قال عنها بصائر.

وأما عيسى بن مريم فقد أعطاه الله بينات خارج الإنجيل، لذا قال ﴿وآتَيْنَا عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة ٨٧). فبينات عيسى بن مريم كانت مادية أيضاً وكانت قابلة للإبصار وهي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله وأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ٤٩).

لقد سمى الله سبحانه وتعالى آيات القرآن فقط بالآيات البينات دون أي شك وذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي

أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس ١٥).

ونحن نعلم أنَّ مجموعة هذه الآيات البينات هي الحقيقة (الحق) **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** (الأحقاف ٧).

نستنتج أنّ القرآنَ هو مجموع الآيات البينات (يونس ١٥) وأنَّ الآياتِ البيناتِ هي الحقّ (الأحقاف ٧) ونلاحظ كيف عطف الحق على الكتاب حيث قال تعالى **﴿الٓمٓرٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ... الآية﴾** (الرعد ١) وكيف أن الحق ليس كل الكتاب في سورة فاطر **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾** (فاطر ٣١).

وعندما جاءت الآيات البينات للرسل قبل محمد ﷺ قال عنها أعداؤ ها: إنها سحر في قوله **﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُوراً﴾** (الإسراء ١٠١) ونرى أيضاً أن الآيات البيِّنات التي هي القرآن قال عنها الذين كفروا: إنها سحر أيضاً في قوله **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** (الأحقاف ٧).

ونَتَساءل هنا: لماذا يقولون عن الآيات البينات إنّها سِحْرٌ؟

يجيب بعضهم أنّها سَحَرَتْهُمْ بجمالها وأنها سحر لأنها جميلة لا تُقَلَّد.

لقد فهموا الإعجازَ جمالاً..!

وليس لهذا علاقة بالجمال لا من قريب ولا من بعيد.

لقد قالوا عن آيات موسى إنها سحر لأنهم شاهدوها مشاهدة فؤادية (بالحواس) ولكن لم يفهموا كيف حصلت، فعندما شق موسى البحر بعصاه، شاهد هذه العمليةَ الناسُ الذين معه دون أن يستوعبوا ماهي القوانين التي تمت حتى شق البحر. فالسحر هو مشاهدة الظاهرة بالحواس دون فهم القوانين التي تحكم هذه الظاهرة. فإذا أحضرت ماء فيه بعض المواد الكيميائية ووضعت فيه ورقة بيضاء فتلونت وصارت حمراء، فإنَّ الذي يجهل علوم الكيمياء يقول عن هذا إنه سحر. وهذا فعلاً ما قاله العرب عندما سمعوا القرآن. أي أنهم سمعوا كلاماً عربياً دون فهم المحتويات والقوانين المبطنة في هذا الكلام. لذا قال النبي ﷺ: (أُنزلَ القرآنُ على سبعةِ أحرفٍ لكلِ حرفٍ منها ظَهْرٌ وبطنٌ) (الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٧). أما

الأحكام (أم الكتاب) فلها ظاهر وليس لها أي باطن وهي قابلة للفهم، أي أن العرب لم يقولوا أبداً عن آية الإرث وآية الصلاة وآية الوضوء وآية الصوم وآية المحرمات من النساء إنها سحر علماً بأنها ذات صياغة فنية رائعة. هذه الآيات وكل آيات أم الكتاب ليس فيها أي سحر ولا يوجد فيها بطن وظهر. ولكن الآيات التي قالوا عنها إنها سحر هي كالآيات ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (التكوير ١ -٢ - ٣ - ٤) أو ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن ١٩ - ٢٠) أي عن آيات القرآن.

لقد علمنا أنّ موسى قد أوتي تسع آيات بينات. فما عدد الآيات البينات التي أعطيت لمحمد ﷺ؟ لقد أُعطِي محمدٌ ﷺ آياتٍ بيناتٍ كثيرةً، لأن كل آيات القرآن آيات بينات. وهنا تم دمج الآيات البينات مع النبوة، أي أن نبوة محمد ﷺ هي القرآن، والآيات البينات هي القرآن أيضاً، في حين أنّ هذا لم يحصل مع الأنبياء من قبله فنبوة موسى هي التوراة. والآيات البينات التي جاءت إلى موسى هي تسع آيات خارج التوراة. وكذلك عيسى بن مريم جاءته الآياتُ البيناتُ مفصولةً عن الإنجيل الذي هو نبوة عيسى. وهكذا يتبين لنا الفرق الكبير بين نبوة محمد ﷺ وبين نبوة موسى وعيسى، ويتبين لنا عظمة النبوة عند محمد ﷺ. ولعظم هذه النبوة جاء المقام الرفيع للنبي محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب ٥٦). هنا قال (يصلون على النبي) ولم يقل (يصلون على الرسول) وذلك للعلو العظيم لمقام نبوته. ونرى بهذا الصدد أن العرب منذ أن بُعِثَ محمدٌ ﷺ إلى يومنا هذا قد اهتموا برسالته وهجروا نبوته. ولكن اهتم بنبوة محمد ﷺ كل معاهد الأبحاث العلمية والجامعات في العالم، لأن نبوته هي قوانين الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية (بالإضافة إلى وحدانية الله) وهذا ما تهتم به المعاهد والجامعات وما بحث فيه كل فلاسفة العالم قاطبة ابتداء من أرسطو وأفلاطون، مروراً بكانت وانجلز وهيجيل وديكارت.

سُمِّيَت (الآياتُ البيناتُ) بيناتٍ لأنها موجودة أو حصلت خارج الوعي الإنساني لذا فهي قابلة للإبصار أو لأن تعقل. فعندما عرض موسى الآياتِ البيناتِ التسعَ على فرعون قال عنها: بصائر. فهل الآيات القرآنية هي بصائر أيضاً كآيات موسى التسع؟ أي قابلة للإبصار؟ أي أن تأويل الآية النهائي هو إبصارها. والإبصار

هو التأويل الحقيقي النهائي بعينه أي تحويل الآية من علم إخباري إلى علم نظري يدعمه العلم الحسي فيما بعد أو تحويل الآية مباشرة إلى علم حسي. هذه هي الناحية التي أغفلها المسلمون عند وضعهم لقواعد التأويل. فتأويل الآية هو مطابقتها مع الحقيقة الموضوعية (إبصارها) أي مطابقتها مع العقل واستنتاج قانون مجرد قابل للإبصار فيما بعد. لقد أدى إغفال هذه الناحية إلى دخول الفلسفة الصوفية في تأويل القرآن، فحولت العقيدة الإسلامية إلى التفكير الخرافي الوهمي. وما زلنا نعيش هذه المأساة إلى يومنا هذا، حيث ورثنا مسلمات عقائدية نظن أنها قرآنية وهي لا تمت إلى القرآن بصلة وليست أكثر من مجرد أوهام. لذا علينا إعادة النظر بالمسلمات التي نظن أنها إسلامية وهي ليست كذلك. هذه المسلمات التي توجهنا ضمن عقلنا الباطن والتي صيغت عليها عقلياتنا الظاهرة. ولا يمكن أن تحل هذه المشكلة إلا إذا أعدنا النظر في الأطر العقائدية التي ورثناها. ويجب أن تتم إعادة النظر هذه قبل إعادة النظر في الأطر الفقهية التشريعية، لأن حل المشكلة العقائدية يؤدي بشكل آلي إلى حل الأزمة الفقهية. أي علينا إعادة النظر في أمور مهمة مثل مقولات ثبات الأعمار، ثبات الأرزاق، هل الأعمال مكتوبة أو غير مكتوبة؟ الحرية الإنسانية (القضاء والقدر)، نظرية المعرفة الإنسانية، والمعرفة الإلهية. إذ لا أمل لنا في الخروج من أزمة تخلفنا دون حل هذا الإشكال.

لقد قلنا: إن الآيات البينات التي جاءت لموسى هي بصائر. فهل آيات القرآن التي هي آيات بينات هي بصائر أيضاً؟

نعم هذا ما قاله تعالى بالضبط **﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾** (الأنعام ١٠٤) **﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** (الأعراف ٢٠٣) ونرى أنه بعد أن أنهى هذه الآية في سورة الأعراف أتبعها بقوله **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** (الأعراف ٢٠٤) لاحظ هنا قوله: (إذا قُرِىء) ولم يقل (اذا تلي) أي ذكر القراءة ولم يذكر التلاوة وشتان في المعنى بين القراءة والتلاوة.

وكذلك ورد هذا البرهان في الآية رقم ١ في سورة النور وهي **﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** فقوله هنا: **﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ**

بيِّنَـاتٍ) تعني أن سورة النـور ليست كلّها آياتٍ بَيِّناتٍ وإنما جزء منها آيات بينات، أما باقي الآيات فهي آيات من نوع آخر من الآيات المحكمات أو تفصيل الكتاب.

لنتصفح الآن سورة النور، نرى فيها أحكاماً وبياناً لأحكام حتى نصل إلى الآية رقم ٣٥ التي تبـدأ بقـولـه تعـالى: ﴿الله نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . الآية﴾ فنرى أن هذه الآيـة يختلف موضـوعهـا عن الآيـات السابقة وتستمر الآيات حتى الآية رقم ٤٥ التي تقول: ﴿وَالله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْـلَيْـنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَـعٍ يَخْلُقُ الله مَايَشَـاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ﴾. ثم نرى أنّ الآيـات التي تلي هذه الآيـة إلى آخـر سورة النـور هي مواعـظُ وأحكـامٌ ما عدا الآيـة الأخيـرة. لذا يجب علينا أن ننتبه دائماً إلى الآيات في بدايات السور لأنه قد يكمن فيها إشارة إلى محتويات السورة ومواضيعها كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيـاتُ الْكِتـابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعـراء ٢) فإذا سألت علمـاءنـا: ما هو الكتـاب المبين؟ يقـولـون لك مباشرة هو القرآن، إذاً فلماذا عطف ﴿كتاب مبين﴾ على القرآن في أول سورة النمل ﴿طَسَ تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل ١)؟ إن الانتباه إلى هذه الآيات يعتبر من المفاتيح الأساسية في فهم محتويات الكتاب.

وهكـذا توصلنـا إلى أن القـرآن هو الآيـات البينـات، وهو في الوقت نفسه نبوة محمـد ﷺ لأنـه كلّه (أنباء عن حقائق) وهو بصائر، وهو الحق، وهو الذي قالوا عنه: إنـه سحـر مبين، وهـو الـذي يشكـل جزءاً كبيـراً من آيـات الكتـاب، وكـل آياته من المتشـابهـات، مضـافـاً إليـه السبـعُ المثاني التي تحمل مطلق الحقيقة في صياغتها ونسبيـة الفهم من النـاس، (أي المطلق في المحتـوى والنسبيـة في الفهم). وهـذه النسبية إما فلسفية أو علمية أو تاريخية أو مجردة.

بقي أن نفهم أنـه سبحـانـه وتعـالى قال عن القـرآن: إنـه ﴿تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ﴾ (يـونس ٣٧ - يوسـف ١١١). وذكـر مصطـلح: ﴿تَـفْصِيـلَ الْكِتَـابِ﴾ (يونس ٣٧). فما هو الذي بين يديه وما هو التفصيل؟

لنرجع الآن إلى الآيات التي ورد فيها تصديق الذي بين يديه:

﴿وَالَّـذِي أَوْحَيْنـا إِلَيْـكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ الله بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر ٣١). ﴿وَمَاكَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ الله وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧).

في هذه الآيـة من سورة يونس يقـول عن القـرآن إنه تصديق الذي بين يديه ثم يقـول في الآيـة رقم ٣٩ ﴿بَـلْ كَذَّبُـوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّـذِيـنَ مِنْ قَبْلِهِـمْ فَانْظُـرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الظَّـالِمِـينَ﴾ لاحـظ قولـه: ﴿وَلَمَّـا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ علمـاً أن الحـديث في الآيتين السابقتين عن القرآن، حيث أن القرآن كله متشابه وكله قابل للتأويل، لا للتفسير. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ مَا كَانَ حَدِيثـاً يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف ١١١). لاحظ قوله: ﴿وَمَاكَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (يـونس ٣٧) ﴿مَـاكَـانَ حَدِيثـاً يُفْتَرَى﴾ (يوسف ١١١) وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّـا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ ٣١) ولاحـظ قولـه: ﴿وَلَٰكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يـونس ٣٧) ﴿وَلَٰكِنْ تَصْـدِيقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ﴾ (يـوسف ١١١) ولاحـظ قولـه: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧).

لقـد قلنـا: إنَّ نبـوةَ موسى هي التـوراةُ، ورسـالتـه الكتاب والفرقان ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـابَ وَالْفُـرْقَـانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ﴾ (البقـرة ٥٣). ونبـوةُ عيسى الإنجيـلُ، ورسالته الكتاب والحكمة، وهي تعديل لكتاب موسى.

وكـانت نبـوة موسى ورسـالتـه ونبـوة عيسى ورسالته بحاجة إلى تصديق، وجاء التصـديق خارجـاً عن النبـوة وعن الـرسالة وذلك بما سماه الآيات البينات. وبالنسبة لمحمد ﷺ كانت نبوته القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، ورسالته أم الكتاب «الأحكـام». فلو كان الأمـر على غرار موسى وعيسى لأتتـه الآيـات البينات من خارج النبـوة والـرسـالة وهذا ما طلبه العرب من محمد ﷺ تماماً: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَـلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (الإسراء ٨٩). ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُـرَ لَنَـا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ (الإسراء ٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيـلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّـرَ الْأَنْهـارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً﴾ (٩١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَـا كِسَفـاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَـلَائِكَـةِ قَبِيلاً﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَـاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّـكَ حَتَّى تُنَـزِّلَ عَلَيْنَـا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَـراً رَسُـولاً﴾ (٩٣). لاحـظ في هذه الآيات أنّ الحديث عن القرآن، وأن

القرآن لم يفهمه العرب على أنه آيات بينات بل طلبوا الآيات البينات المادية المباشرة من خارج القرآن. أو عوضاً عن القرآن.

إنّ مصطلح «الذي بين يديه» في اللسان العربي تعني دائماً الحاضر ولا تعني الماضي. فالقرآن هو الآيات البينات، وهو تصديق الذي بين يديه. والهاء في «بين يديـه» إمّـا أن تعـود على القـرآن او تعود على الله سبحانه وتعالى. فما الذي كان بين يدي الله أو بين يدي القـرآن حين نزولـه وبحـاجة إلى بينة؟ الشيء الوحيد الذي كان يوجد حين نزول القرآن هو الأحكام «الرسالة». فالقرآن جاء مصدقاً لأم الكتاب وهي التي سماها الله «كتاب الله». لأن الأحكام ليست بينات في ذاتها وهي قابلة للتقليد، وإنّما بحاجة إلى بينات من خارجها. والبينات موضوعية مبصرة.

إني لأعجب تمام العجب كيف ظن الفقهاء والمفسرون أن الذي بين يديه هما التـوراة والإنـجيـل فبـذلـك قصمـوا ظهر نبوة محمد ﷺ حين أكدوا أنها ما جاءت إلا لتخبـر النـاس أن التـوراة والإنـجيل الموجودين في بداية القرن السابع الميلادي حين نزول القـرآن همـا صحيحـان لا أكثـر من ذلـك ولا أقـل من ذلـك! وإذا كان هذا هو الهـدف من نبـوة محمـد ﷺ فقـط، فأعتقـد أن أشد اليهود والنصارى تزمتاً وتعصباً سيؤيدون ذلك لأن كلا من التوراة والإنجيل الحاليين هما نفس التوراة والإنجيل في القـرن السـابـع. والأجدر بنا حينئذ نحن المسلمين أن نعتنق اليهودية أو النصرانية!! لأن الهـدف من نبـوة محمـد ﷺ هو تصديق العهد القديم والعهد الجديد المعروفين في القرن السابع؟.

إن «بين يديه» تعني الحاضر ولا تعني الماضي، وقد قالها صراحة في سورة آل عمـران ﴿نَـزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ. الآية﴾ (آل عمران ٣ ـ ٤). فكيف يمكن ان يكون التوراة والإنجيل هما اللذان بين يديه، مع أنه قال عنهما: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؟ وكيف يكون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ و﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ دَالَّين لمدلولٍ واحد؟. اذا كان الأمر كذلك، فليس لهاتين الآيتين معنى! وحاشى لله.

إنَّ حجـة المفسـرين على أن «بين يديـه» تعني التـوراة والإنجيـل هي الفهم الخـاطىء للآيـات التـاليـة عن عيسى بن مريم ﴿وَمُصَـدِّقـاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾

(آل عمران ٥٠).

ويتّضح الخطأ في الفهم بمايلي: إن نبوة عيسى عليه السلام في الإنجيل هي استمرارية لنبوة موسى في التوراة، وليست ناسخةً لها كما أن شريعة عيسى هي نفس شريعة موسى مع بعض التعديلات ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد فهمها أهل الكتاب هكذا. ولهذا فإننا نرى اليوم أن الكتاب المقدس عند النصارى يحتوي على أربعة مواضيع وهي ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران ٤٨)، (شريعة موسى معدلةً+ الوصايا + التوراة + الإنجيل) لذا فإن هذه المواضيع الأربعة مع بعض تسمى (الكتاب المقدس).

ولو كان القرآن مُصَدِّقاً لما قبله بهذا المفهوم للزم بالضرورة أن يحتوي الكتاب عند المسلمين ما يلي:

كتاب موسى (الشريعة) + التوراة + الإنجيل + القرآن + شريعة محمد (أم الكتاب) + الوصايا (الفرقان). وليس الأمر كذلك، بل جاء الكتاب إلى محمد ﷺ ناسخاً لما قبله لا مُصَدِّقاً بالمفهوم السابق، أي أنّ كلَّ ما جاء قَبْلَ محمد ﷺ من نبوات داخلٌ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ لا الآنَ، وكُلُّ ما جاء في الرسالات هو حالات خاصة من أمّ الكتاب.

ولنوضّح الآنَ الصورةَ بشكلها النهائي فنقول:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغ رسالته للناس (الأحكام) ليبين لهم فيها الفرق بين الحرام والحلال، ويبين لهم فيها العبادات والأخلاق وقواعد السلوك الإنساني. هذه الأحكام بمجموعها تسمى «كتاب الله»، وهي بحاجة إلى توقيع ممن أرسلها أي أن تكون مصدقة منه «التوقيع والختم» ليعلم الناس أنها من عنده. فوقع سبحانه وتعالى على هذه الرسالة بتوقيعه وكان توقيعه «القرآن والسبع المثاني» حيث جعل حقيقة الوجود تصديقاً لقواعد السلوك. فالرسالة هي كتاب الله «الأحكام»، والنبوة «القرآن» وفيه كلام الله «قوله الحق» الذي هو القوانين المطلقة للوجود. فصدق القرآن كتابه الذي هو قواعد السلوك الإنساني. ولله المثل الأعلى.

* * *

يشتمل كتاب الله «الرسالة» على:

١ ـ الحدود.

٢ ـ العبادات.

٣ ـ الأخلاق (الفرقان).

٤ ـ تعليمات عامة وخاصة.

وجاءت المصادقة على صحة الرسالة بواسطة «النبوة» التي تتألف من:

١ ـ القرآن العظيم.

٢ ـ وسبع من المثاني.

فرسالة محمد ﷺ فرقت بين الحلال والحرام في السلوك الإنساني. ونبوته فرقت بين الحق والباطل «الحقيقة والوهم» في الوجود الموضوعي. وشتان بين الاثنين! إن الخطيئة القاتلة التي يرتكبها المسلمون اليوم أنهم لا يفرقون بين قواعد السلوك وحقيقة الوجود، أي ما بين الذاتي والموضوعي. فالرسالة فيها الذاتي، والقرآن فيه الموضوعي. أي أننا يجب أن نفرق بشكل واضح لا لبس فيه بين القانون الموضوعي والقيمة الأخلاقية، فلا نضع القيمة الأخلاقية بديل القانون الموضوعي. إن كل الأخلاق الفاضلة في الدنيا لا تستطيع أن تصمد مقابل الحقيقة الموضوعية، وإن الحقيقة المادية لا تواجه بالتقوى والأخلاق. وما خيبات الأمل المتتالية التي نصاب بها، وما التشويش الفكري وضيق الأفق إلا نتيجة مباشرة لآفة عدم التفريق بين القانون الموضوعي والقيمة الأخلاقية.

٤ ـ القرآن هو الكتاب المبارك

البركة في اللسان العربي تعني التكاثر والتوالد، وتعني الثبات كأن نقول مَبْرَك الناقة وبِرْكَة الماء «الماء الراكد». ووصف الكتاب بأنه «مُبَارَكٌ» يعني «ثابت النص». وبمعنى الثبات جاء قوله: ﴿تَبَارَكَ الله﴾ (الأعراف ٥٤) أي ثبت ولم يتغير. وبما أن القرآن حقيقة مطلقة تفهم فهماً نسبياً، لذا فان حركة المحتوى فيه دائمة «التبديل والتغيير»، فالعلماء يستنبطون من القرآن نظريات علمية على مر الزمن، والصحابة فهموه حسب

أرضيتهم العلمية، وبما أن معلومات الإنسان صاعدة إلى الأعلى بشكل دائم فإنه على مر السنين سترى الأجيال معلوماتٍ جديدةً في القرآن لم تكن الأجيال السابقة تعرفها. وهكذا فحسب نمو المعرفة الإنسانية تتولد المعلومات الجديدة والنظريات الجديدة، والنص القرآني يستوعبها كلها، ولهذا سمى القرآن كتاباً مباركاً. أما الأحكام فتحمل صفة الثبات في النص والمحتوى والحركة ضمن حدودها لأن آية الوضوء فهمها الصحابة كما نفهمها نحن على حد سواء. ومنذ أن نزلت آية الوضوء إلى أن تقوم الساعة فإن الوضوء هو الوضوء ولا يمكن أن يتغير فهم هذه الآية، وكذلك آيات الإرث فقد فهمها الصحابة وطبقوها وقوفاً عليها كما نطبقها نحن الآن علما بأنها آيات حدودية ويمكن التحرك ضمنها دون تجاوزها. وهكذا الحال بالنسبة للأجيال التي بعدنا. لذا قال عن القرآن ﴿وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام ١٥٥).

التقوى اتباع الحلال وترك الحرام، فهي في أم الكتاب لأنها سلوك إنساني وليست معرفة الوجود، وبما أن القرآن فرّق بين الحق والباطل والرسالة فرّقت بين الحلال والحرام، فإن القرآن ليس له علاقة بالتقوى. لذا قال كلمة ﴿وَاتَّقُوا﴾ بعد كلمة ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾.

هنا أريد أن أؤكد على نقطة في غاية الأهمية وهي أن القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي، لذا فانه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى ولا اللياقة ولا اللباقة، ولا تنطبق عليه عبارة «هكذا أجمع الفقهاء» و«هكذا قال الجمهور». إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيدين بأي شيء قاله السلف، إننا مقيدون فقط بقواعد البحث العلمي والتفكير الموضوعي وبالأرضية العلمية في عصرنا، لأن القرآن حقيقة موضوعية خارج الوعي فهمناها أولم نفهمها، قبلنا بها أولم نقبل. والشيطان حين محاولة فهم القرآن يدخل فينا من خلال الأخلاق واللياقة واللباقة. فالقرآن حقيقة موضوعية مادية وتاريخية لا تخضع لإجماع الأكثرية حتى ولو كانوا كلُّهم تقاةً، ويخضع لقواعد البحث العلمي حتى ولو كان الناس كلهم غير تقاة. وعلينا أن نكسر هذا الحاجز الوهمي المبني على عبارة «هذا ما قاله الجمهور» أو «هذا ما أجمع عليه الجمهور ـ جمهور الفقهاء». لذا قال عن الكتاب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢) وعن القرآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة ١٨٥).

٥ ـ أسباب النزول هي للأحكام ولتفصيل الكتاب، وليس للقرآن أسباب نزول

بما أن القرآن علم بالحقيقة الموضوعية «الموجودة خارج الوعي الإنساني» وفيه قوانين الوجود وقوانين التاريخ، نستنتج بالضرورة أن له وجوداً مسبقاً عن التنزيل. لذا قال تعالى عن القرآن: ﴿قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج ٢١ ـ ٢٢) وهو القوانين العامة الناظمة للوجود منذ الانفجار الكوني الأول وحتى البعث والجنة والنار والحساب، وأنه في إمامٍ مبينٍ وذلك بالنسبة لأحداث الطبيعة الجزئية «ظواهر الطبيعة» المتغيرة وأحداث التاريخ بعد وقوعها. ولم يقل ذلك أبداً عن أم الكتاب ولا عن الذكر ولا عن الفرقان. وهذا يجرنا إلى الموضوع التالي: ما هو «اللوح المحفوظ» و «الكتاب المكنون» و «الإمام المبين»؟

ـ **اللوح المحفوظ**: هو لوحة التحكم في الكون الذي نشأ فعلاً، وقد برمج القرآن المجيد في داخلها. ويمثل اللوح المحفوظ:

(INFORMATION IN ACTION)

ـ **الكتاب المكنون**: هو البرنامج الذي بموجبه تعمل قوانين الكون العامة كمعلومات (INFORMATION)

ـ **الإمام المبين**: فيه قوانين الطبيعة الجزئية (ظواهر الطبيعة المتغيرة) آيات الله. وفيه أرشفة الأحداث التاريخية بعد وقوعها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس ١٢). من هذا الإمام المبين جاءت قصص القرآن، لذا سماها «الكتاب المبين» ففي أول سورة يوسف الآية (١) جاءت ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وفي أول سورة القصص الآية (١ ـ ٢) ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وفي أول سورة الشعراء الآية (١ ـ ٢) ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ فإذا أخذنا محتويات هذه السور الثلاث نراها كلها قصص أحداث تاريخية.

أما إذا أخذنا سورة النمل فنراها تبدأ ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فإذا نظرنا إلى محتويات السورة نرى أنّ فيها آيات كونية وقصصاً معا وجاء فيها ذكر

«كتاب مبين» الآية رقم ٧٥ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. لذا نجد هنا عطف «كتاب مبين» على «القرآن» من قبيل عطف الخاص على العام.

ولهذا فإن القرآن ليس له أسباب نزول وقد قال عنه إنه أنزل دفعة واحدة عربياً وفي رمضان ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ.. الآية﴾ (البقرة ١٨٥)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١).

٦ - مصطلح (الحديث) للقرآن فقط:

عرفنا أن القرآن هو النبوة وأنه «الحقيقة». ولكن لماذا قال تعالى عنه: إنه «الحديث»؟: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يوسف ١١١) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (القلم ٤٤) ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (الواقعة ٨١) ﴿فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء ٧٨) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (المرسلات ٥٠) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (النازعات ١٥) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (البروج ١٧).

الحديث مشتق من فعل «حدث». والحدث هو واقعة ذات شقين: إمّا واقعة إنسانية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أو واقعة كونية: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٥)، أي حدث إنساني أو حدث كوني. والقرآن قرن الأحداث الكونية الكلية والجزئية مع الأحداث الإنسانية «القصص القرآني، أحسن القصص» لذا سمي حديثاً وسمي قرآناً.

سمي حديثاً لأن فيه أحداث الكون والإنسان «التاريخ» والقوانين الناظمة للمادة والقوانين الناظمة للتاريخ الإنساني وربطهما بعضهما ببعض في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ... الآية﴾ (يوسف ٣).

وسمي قرآناً لأن القرآن جاء من «قرأ» وعلى قول بعضهم من «قرن» وكلاهما يعني الجمع والمقارنة، كأن تقول قرأت الماء في البئر أي جمعته، أو قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة ٢٢٨) فالقرء هو جمع فترة الطهر

مع فترة الحيض. والأساس في اللسان العربي هو فعل «قرن»، فعند ابن فارس نرى أن فعل «قرأ» اشتق من فعل «قرن»، ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية، لأنها لا تكون إلا بالمقارنة أي مقارنة الأشياء بعضها ببعض، لذلك لا تقول العرب قراءة إلا على العلم كقولهم «قرأت العلم على فلان»، هنا يجب أن نميز بين القراءة والتلاوة، فالمذيع في التلفاز يتلو الأخبار ولا يقرؤها، والأستاذ في الجامعة يقرأ المحاضرة ولا يتلوها. فالتلاوة هي إعادة لفظ نص بحرفيته، دون شرح ولا تعليق وبشكل متتال ومنه جاءت التلاوة، فإذا أراد المذيع في الإذاعة أن يقرأ الأخبار عوضاً عن تلاوتها فهذا يعني أن يشرح الخبر ويعلق عليه ويقارنه بأخبار وأحداث أخرى وذلك بهدف تفهيم السامع. وإذا أراد الأستاذ في الجامعة أن يتلو المحاضرة عوضاً عن قراءتها فهذا يعني أن يفتح الكتاب ويتلو النص بالتتالي كما جاء في الكتاب دون أي تعليق وأي شرح وأي مقارنة. فالتلاوة يقابلها باللغة الإنكليزية (Citation) والقراءة يقابلها (Reading).

هنا يجب أن نفهم قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٢٠٤) أي عندما يأتي شخص ويشرح القرآن فأنصتوا له، هذه الآية من القراءة وليست التلاوة. وكذلك نفهم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل ٩٨) أي إذا أراد الإنسان أن يفهم القرآن فعليه الاستعاذة بالله من الشيطان، لأن الشيطان يدخل في الإنسان حين يريد فهم آيات القرآن «تأويلها».

أما التلاوة فهي لفظ الآيات بالتتالي وتختلف عن القراءة فنقول عن القرآن إنه المتعبد بتلاوته، فالكتاب كله يتلى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... الآية﴾ (فاطر ٢٩) ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ (النمل ٩١ - ٩٢) هنا نلاحظ كيف ذكر التلاوة لكتاب الله وللقرآن وعن الكتاب كله قال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (البقرة ١٢١).

٧ ـ القصص من القرآن وهي الكتاب المبين

قلنـا: ان القـرآن هو الحـديث وانـه جاء من قرن قوانين أحـداث الطبيعـة مع أحـداث التـاريخ بعد وقوعها حيث أنها أخذت صفة الحتمية بعد وقوعها لا قبله. أي قرن بين القوانين الناظمة لأحداث الطبيعة والقوانين الناظمة لأحداث التاريخ.

لنرجع الآن لأول قصة يوسف:

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هٰذَا الْقُـرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَـافِلِينَ *﴾ (يـوسف ١ ـ ٣). في أول السورة اسم إشارةٍ لآيات السورة حيث قال: ﴿تِلْكَ آيـاتُ الْكِتَـابِ الْمُبِينِ﴾ ثم ذكـر القـرآن بعد الكتاب المبين. وربط القصص بوحي القـرآن ﴿بِمـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هٰذَا الْقُـرْآنَ﴾. «بمـا» هنا جاءت بمعنى «بالَّذي» وليؤكد أن القصص من القرآن قال: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فالهاء هنا تعـود على القـرآن. فالنبي ﷺ قبـل الـوحي كان غافلاً عن قوانين الوجود وعن قوانين التاريخ وأحداثه معاً.

ثم نرى في آخـر قصـة يوسف قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يوسف ١١١).

فالحـديث هو القـرآن لأنّـه قرن أحـداث الكـون مع أحـداث التاريخ. وسورة يوسف كلها قصص، والقرآن هو التصديق ﴿مَاكَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يونس ٣٧). لنأخذ الآن الآيات التالية:

- أول سورة يوسف ﴿الَر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.
- أول سورة الشعراء ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.
- أول سورة القصص ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.
- أول سورة النمل ﴿طَس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ففي سور يوسف والشعراء والقصص نرى أن محتويات السور كلها قصص لذا قال ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾. أما في سورة النمل ففيها قصص وكونيات معاً أي

فيها من مواضيع القرآن كاملة قصص وكتاب مبين لذا عطف كتاباً مبيناً على القرآن، أي الخاص على العام.

٨ ـ السبع المثاني

بقي علينا أن نوضّح ما هي السبع المثاني: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** (الحجر ٨٧)

١ ـ لقد عطف القرآن على السبع المثاني فهذا يعني أن القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر، وأن السبع المثاني ليست جزءاً من القرآن وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات.

٢ ـ لا يمكن أن يكون القرآن جزءاً من السبع المثاني، لأن السبع المثاني سبع آيات، والقرآن أكثر من ذلك.

٣ ـ وجب أن يكون هناك تجانس ما بينهما حتى يتم عطف أحدهما على الآخر، فإذا تم عطف القرآن على أم الكتاب، فوجه التجانس بينهما أنهما موحيان من الله... وهكذا نرى عندما عطف **﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾** (التحريم ٥) أن الثيب غير البكر ولكن كلاهما من النساء.

ونقول الآن: بما أن القرآن العظيم هو نبوة محمد ﷺ والنبوة علوم، فهذا يعني أن السبع المثاني هي من النبوة وفيها علوم. وهكذا نفهم قول النبي ﷺ إن صح «ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه» «هذا جزء من حديث أخرجه أبو داوود انظر مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢» ما هو إلا تعليق على هذه الآية. فإذا كانت السبع المثاني هي مثل القرآن فهذا يعني أن المعلومات الواردة فيها لا تقل كمّاً ونوعاً عن المعلومات الواردة في القرآن، ولكن جاءت بطريقة تعبيرية مختلفة عن طريقة القرآن.

٤ ـ لقد ميز السبع المثاني عن القرآن بأن أطلق عليها مصطلح (أحسن الحديث) وذلك في قوله: **﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي**

بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر ٢٣). فقد أطلق على القرآن مصطلح الحديث، وأطلق على السبع المثاني مصطلح أحسن الحديث، حيث أنه تم تمييزها، وهذا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط، وأحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثاني ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾، أمّا القرآن فكتاب متشابه فقط. فما هي المثاني؟

جاء في مقاييس اللغة ما يلي: «الثاء والنون والياء أصلٌ واحدٌ، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين». وجاء فيه: «المِثْناةُ: طرف الزِّمام في الخِشاش». وإنما يثنى الشيء من أطرافه فالمثاني هي الأطراف.. ومن هنا كان لكل سورة مثناة أي طرف فالمثاني إذاً أطراف السور وهي إذاً فواتحها.

يبدو لنا أنه من خلاف الأَوْلى أن نسمي الفاتحة بالسبع المثاني، لأن الفاتحة هي سبع آيات في فاتحة واحدة هي فاتحة الكتاب. ولكن السبع المثاني هي سبع آيات، كل منها فاتحة. أي هي سبع آيات وهي في الوقت نفسه سبع فواتح. فيبقى احتمال واحد. بما أن الكتاب واحد، وبما أنه مؤلف من ١١٤ سورة، فيلزم أن تكون السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، كل منها آية منفصلة في ذاتها. فإذا نظرنا إلى فواتح السور نرى فيها السبع المثاني وهي:

١ ـ الٓمٓ، ٢ ـ الٓمٓصٓ، ٣ ـ كٓهيٰعٓصٓ، ٤ ـ يسٓ، ٥ ـ طهٰ، ٦ ـ طسٓمٓ، ٧ ـ حمٓ.

فإذا سأل سائل: ما هي إذاً: الٓر، الٓمٓر، طسٓ، ن، ق، ص؟

أقول: هذه حروف كل منها جزء من آية، وليس آية منفصلة تامة في ذاتها. فالآية الأولى في سورة نون هي ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. أما الآية الأولى في سورة البقرة فهي ﴿الٓمٓ﴾، وأما ﴿عسٓقٓ﴾ فهي ليست فاتحة لسورة، لأنها الآيةُ الثانية في سورة الشورى، والآية الأولى هي ﴿حمٓ﴾ فإذا نظرنا إلى عدد الحروف «الأصوات» الموجودة في الآيات السبع المذكورة أعلاه نراها تتألف من «١١» أحد عشر حرفاً «صوتاً» هي:

١ ـ الألف، ٢ ـ اللام، ٣ ـ الميم، ٤ ـ الصاد، ٥ ـ الكاف، ٦ ـ الهاء، ٧ ـ الياء، ٨ ـ العين، ٩ ـ السين، ١٠ ـ الطاء، ١١ ـ الحاء.

وإذا أخذنا بقية الحروف «الأصوات» الموجودة في الٓر، الٓمٓر، طسٓ، عسٓقٓ،

ن، ق، ص، والتي لا تشكل آيات منفصلة في ذاتها كبداية وفيها آية واحدة ليست كبداية هي عسق، فنرى أنّ فيها ثلاثة حروف «أصوات» غير موجودة في آيات السبعة الفواتح وهي:

١ ـ القاف، ٢ ـ الراء، ٣ ـ النون.

فمن هذه الأصول تتألف كلمة «القرآن» لأنّ كلمة القرآن مشتقة من «قرأ» ومعنى «ق ر أ» الجمع كما في المقاييس، وكذا معنى «ق ر ن»، وعليه فالقراءة والقرن جمعٌ وفيها استقراء ومقارنة. وإذا أضفنا الحروف «الأصوات» الثلاثة الإضافية إلى السبعة الفواتح التي تشتمل على أحد عشر حرفاً، يصبح المجموع أربعة عشر حرفاً «صوتاً» مختلفاً أي «٧ × ٢» وهذه هي أيضاً سبع مثان

فما هي إذن «جوامع الكلم» التي قال عنها النبي ﷺ في قوله، إن صح «أعطيت جوامع الكلم» و «اختصر لي الكلام اختصاراً»؟ لقد طغى على الأذهان أن هذين التعبيرين يراد بهما البلاغة النبوية، ونقول:

إن الكلام في اللسان العربي يعني الأصوات، وإن كل كلام الناس قاطبة هو أصوات، وإن نشأة الألسن هي نشأة صوتية. وإن السبع المثاني ما هي إلا حروف أي أصوات هي جوامع الكلم وهي «اختصار الكلام». إذ لو عنت «جوامع الكلم» البلاغة النبوية كما يقول بعضهم، فإنّا نستنتج بالضرورة أن القرآن من تأليف محمد ﷺ لأنه إلى الآن لم يقلده أحد، فيصبح القرآن هو بلاغة محمد ﷺ وعلينا أن نعلم أن النبي ﷺ كان على بلاغته بشراً، وبلاغته فيهم بلاغة متميّزة مع أنها مألوفة، وحين ندّعي انه يفوق ببلاغته البشر، نفسح الطريق لمتّهمٍ يظنّ أنّ القرآن من صنعه، ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾/ (الكهف ١١٠).

إنّ الذي أوقعنا في هذا الإشكال هو أننا لم نفرق بين الكلام والقول. فالبلاغة في القول لا في الكلام. فالكلام أصوات يصدرها الإنسان، والقول معنى هذه الأصوات في الذهن.

فأول ما نستنتجه من حروف «أصوات» السبع المثاني ما يلي:

١ ـ أنها أعطت مقاطع صوتية يتألف منها أصل الكلام الإنساني وليس اللغة العربية فقط.

٢ ـ أن عدد الأصوات الأحد عشر في الآيات السبع الفواتح تشكل الحد

الأدنى لأي كلام إنساني، أي أنه لا يمكن أن توجد لغة إنسانية يقال عنها لغة، **إلا اذا** كانت أصواتها الأصلية من أحد عشر صوتاً على الأقل. ويؤيّد هذا ما توصل اليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات من أنّ العدد (١١) يشكل الحدّ الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم ويمثلون لها بلغة البروتوكاس Protokas وهي لغة أهل سيشل.

٣ ـ أن الأصوات تحمل الصيغة الكونية، فلو كانت هناك مخلوقات عاقلة في الكون فطريقة التواصل معها هي طريقة صوتية بالضرورة.

٤ ـ لقد أكد الكتاب أنه توجد مخلوقات حية «فيها العاقل وغير العاقل» في هذا الكون، وليس في الأرض فقط، وأن العاقل منها سيجتمع بعضه مع بعض في المستقبل، وذلك في قوله تعالى **﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَابَثَّ فِيهِما مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ﴾** (الشورى ٢٩). فقد وضع الدابة في السموات والأرض وهي من دَبّ، يَدِبّ على الأرض وهو أيُّ كائن حي بما في ذلك الإنسان أو أيُّ كائن عاقل، ووضع قانون التطور أنه أصل الخلق في الوجود كله في قوله **﴿وَمَابَثَّ فِيهِما مِنْ دَابَّةٍ﴾** ووضع الاجتماع للعاقل فقط من الدواب في قوله: **﴿عَلَى جَمْعِهِمْ﴾** «الميم جمع للعاقل فقط»، وهذا الاجتماع ممكن في المستقبل، **﴿إِذَا يَشَاء﴾**.

ويحقّ لي الآن أن أُخَمِّنَ دون أن أقطع، أنّه إذا ما تَيَسَّر لنا لقاء بعقلاء في كوكب آخر غير الأرض ثُمَّ أردنا أن نتفاهم معهم أو نَبُثَّ إليهم فعلينا أن نستعمل هذه الأصوات الأحد عشر لأنني أعتقد أنها القاسم المشترك للأصوات التي يمكن أن تصدر عن العقلاء، والله أعلم.

الفصل الثاني
النبوة والرسالة

١ ـ القرآن «النبوة» هو الموضوعي وأم الكتاب «الرسالة» هي الذاتي.
٢ ـ تفصيل الكتاب.
٤ ـ أم الكتـاب «الـرسـالة» كتاب الألوهية والقرآن والسبع المثاني «النبوة» كتاب الربوبية.
٥ ـ العرب اهتموا بفهم أم الكتاب «الرسالة».
٦ ـ القدر في القرآن والقضاء في أم الكتاب.
٧ ـ الكتاب عند موسى وعيسى.
٨ ـ النبي محمد ﷺ كان أمياً وكان يقرأ ويكتب.



١ ـ القرآن (النبوة) هو الموضوعي (Obgective) وأم الكتاب (الرسالة» هي الذاتي (Subjctive)

لقد قلنا: إن القرآن فرّق بين الحق والباطل «الحقيقة الموضوعية والوهم»، وأم الكتاب فرّقت بين الحلال والحرام «السلوك الإنساني»:

إن الوجود الموضوعي وقوانينه موجودة خارج الوعي الإنساني، فالشمس موجودة عرفنا ذلك أم لم نعرف، قبلنا ذلك أم لم نقبل. ومن هنا نقول: إنّ وجود الشمس «حق» ونقول إن الموت حق ولا نقول إن الموت حلال، لأن ظاهرة الموت موجودة عرفنا أن هناك موتاً أم لم نعرف، قبلنا بالموت أم لم نقبل. وكذلك قانون الجاذبية والساعة والبعث، فإذا عرف الناس أن هناك بعثاً بعد الموت فانهم سيبعثون، وهم سيبعثون ايضاً إذا لم يعرفوا وهم سيبعثون إذا قبلوا بالبعث وإذا لم يقبلوا، لأن البعث حقيقة موضوعية توجد خارج الوعي الإنساني. ولهذا نقول: إن البعث «حق» ولا نقول: إن البعث «حلال».

والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني. وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا وفيزياء وكيمياء وأصل الأنواع أصل الكون والبيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية. أما «الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية» فليس لها علاقة بالقرآن لا من قريب ولا من بعيد، لذا يجب أن نفهم قول النبي ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك» «صحيح مسلم ج ١ ص ٢٠٣» لأن من آمن بالبعث ـ والبعث من مواضيع القرآن ـ يرى التأويل النهائي لآيات البعث حين يبعث لأنه يبصرها حقيقة مادية موضوعية. وعندما يبعث الناس يكون القرآن حجة لمن آمن بالبعث وحجة على من لم يؤمن بالبعث لأن كل آيات الساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار هي من القرآن، وتأويلها النهائي هو إبصارها.

- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قال أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام ٣٠).
- ﴿وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي

هَدَانا لِهـذَا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانا الله لَقَدْ جاءتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف ٤٣).

- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لَنا. . . الآية﴾ (الأعراف ٥٣).

وبما أن القرآن هو نبوة محمد ﷺ، وهو الآيات البينات، وهو الحق الموجود خارج الوعي الإنساني، فقد قال عنه النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» «أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داوود وأحمد» و«إن معاشر الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما وَرَّثوا العلم» «انظر كشف الخفاء ج ٢ ص ٨٣» و«من قال بالقرآنِ بغير علمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده في النار» «الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٦٧».

إن ورثة الأنبياء ليسوا علماء الشريعة والفقه وحدهم إن هذا غير صحيح. إن الفلاسفة وعلماء الطبيعة وفلسفة التاريخ وأصل الأنواع والكونيات والإلكترونيات هم ورثة الأنبياء. لذا قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ٧) وقال: ﴿بَلْ هو آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت ٤٩) وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر ٢٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر ٢٨).

نحن نعلم في اللسان العربي أن كلمة «كذلك» أداة وصل بين خبرين. فالخبر الأول هو الآية ٢٧ وأول الآية ٢٨ والخبر الثاني هو ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَماء﴾ فجاءت الأداة «كذلك» لتربط بين الخبرين. ونلاحظ في الخبر الأول علوم الأنواء والجيولوجيا وعلوم الأجناس والأنواع الحيّة، ثم علق عليها ﴿إِنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾. كذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (الشعراء ١٩٧). «علماء بني اسرائيل» هنا ليسوا الحاخامية والأحبار فقط، ويجب أن نعلم أن النبوة مربوطة بالعلوم الموضوعية والتاريخية. والرسالة مربوطة بالعلوم الاجتماعية والشرعية.

أمّا الرسالة فهي ذاتية. فما معنى الذاتي (Subjective)؟

لنأخذ مثلاً إحدى وصايا ربِّ العالمين: ﴿وَوَصَّيْنا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾

(العنكبوت ٨، لقمان ١٤، الأحقاف ١٥). فإذا أخذنا بر الوالدين لا نرى أن له وجوداً خارج الوعي الإنساني. فإذا علم الإنسان بوصية الله ببر الوالدين يمكن أن يبرهما أو لا يبرهما، وإذا لم يُرِد الإنسان أن يبر والديه فيمكن أن لا يبرهما. وكذلك الصلاة، فإذا شاء الإنسان صلى وإن لم يشأ لم يصلِّ. أي أن كل أحكام أم الكتاب مرتبطة بالإنسان. فلو افترضنا أنه قامت حرب ذرية وفني الجنس البشري فإن هذا لا يؤثر على الشمس والمريخ.. ولا يؤثر على نواميس الكون والوجود لأن الانفجار الذري هو من نواميس الوجود المادي. ولكن في الوقت نفسه إذا فني الإنسان ولم يبق هناك جنس إنساني فتذهب معه الصلاة والصوم والحج والزكاة وبر الوالدين واجتناب شرب الخمر والميسر وتحريم الربا والعدل والظلم وكل القيم الإنسانية الفردية والاجتماعية. هنا نفهم ما معنى الذاتي. ولهذا لم يطلق لفظة الحق على أم الكتاب لأنها قواعد سلوك إنساني وليست قوانين وجود موضوعي، بل أطلق عليها مصطلح الرسالة، وبها أصبح محمد ﷺ رسولاً وبلغها للناس واجتهد في تطبيق أحكامها في زمانه، وهي ليست كلمات الله ولا من نواميس الوجود، لأن كلمات الله حق «قوله الحق». ولا نرى في أحكام أم الكتاب مصطلح «قال الله» وهي قابلة للأخذ بها أو تركها، لذا فهي مناط التكليف وفيها القضاء «أي الاختيار» الإنساني. أي أن الإنسان يقضي فيها بنعم أو لا، وله ملء الخيار فيها ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة ٢٥٦). أما القرآن فليس مناط التكليف ولا يوجد فيه أي أحكام وأوامر تكليفية فهو حق حتمي ساحق ماحق، لذا فهو مناط القدر في قانونه العام، ومناط المعرفة الإنسانية في القوانين الجزئية، ومناط المعرفة الإنسانية بالتاريخ. وموقف الإنسان من القرآن الإيمان به أو عدمه، ولذا قال ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ... الآية**﴾ (الكهف ٢٩). أما ان يغير في قوانينه أو يهرب منها فلا سبيل له إلى ذلك: ﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً**﴾ (الكهف ٢٧) وللإنسان حرية التصرف في القوانين الجزئية للطبيعة دون الخروج عن القانون العام، وهي مناط المعرفة الإنسانية والتصرف الإنساني. ونرى أن التقدم العلمي الهائل أعطى الإنسان حرية التصرف واستعمال هذه القوانين للدمار أو للرفاهية.

ولو قيل: إذا كانت أم الكتاب ليست حقاً وليست كلماتِ الله، فالسؤال الذي

يطـرح نفسـه هو التـالي: هل أم الكتاب باطل «أي وهـم»؟! نجيب فنقول: إنّ الحق «القرآن» هو الموضوعي جاء لتصديق أم الكتاب «الذاتي». حيث أن أم الكتاب ليس لها وجود قائم في ذاته ومنفصل عن الإنسان. فما هو المصطلح الذي أطلق عليها في الكتاب؟

إن الظن بأن الروح هي سر الحياة هو الذي أبعد الناس عن المفهوم الحقيقي للروح والذي جاء في آيات الكتاب، فإذا كانت الروح هي سر الحياة فهذا يعني أن البقـر والأفـاعي والسمـك وكـل الكـائنات الحية من إنسـان وحيوان ونبات لها روح! وهذا غير صحيح لأن الله سبحانه وتعالى نفخ الروح في آدم ولم يقل: إنه نفخ الروح في بقيـة المخلوقـات. إن أزمة سوء فهم معنى الروح هي التي أوقعت المسلمين في شَرَك عدم البحث عن أصـل الحيـاة وأصـل الإنسان والأنواع على الأرض، ظناً منهم أن الروح سر الحياة، وهي من اختصاص رب العالمين. لذا لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصـل الحيـاة، وذلـك ناتـج عن خطأ في فهم الآيـة: ﴿وَيَسْـأَلُـونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء ٨٥). علماً بأن آيـات خلق آدم كلهـا قرآن فهي من الآيـات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل، وخيـر من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين. فهل عرف داروين القــرآن؟ أقــول: إنـه ليس من الضـروري أن يعـرف، فقـد كان داروين يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان. والقرآن أورد حقيقة أصل الإنسان، فيجب أن يتطابقا إن كان داروين على حق. وأعتقـد أن نظـريته في أصل البشر في هيكلها العام صحيحة لأنها تنطبق على تأويل آيات الخلق.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيلاً﴾؟؟

لقد ظن الكثير أن الإجابة هي أن الروح أمر لا يخصهم ولا علاقة لهم به لأن معلوماتهم قليلة، فاستنتج السلف أنّه لا بحث في شأن الروح وأنها سر الحياة. هكذا كانت الأرضيـة المعـرفية السائدة، وقد كان موقفهم هذا مقنعاً لهم ولمعاصريهم. أما الأمر بالنسبة لنا فهو غير ذلك.

لننتـه الآن من أن الـروح ليست سر الحيـاة وأن المـوت والحياة هما من قوانين الـوجـود المـادي المـوضـوعي خارج الـوعي الإنسـاني وكلاهما من قوانين الخلق:

﴿الَّـذِي خَلَقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . الآية﴾ (الملك ٢).
﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّـكَ الأَعْلَى * الَّـذِي خَلَقَ فَسَـوَّى﴾ (الأعلى ١ ـ ٢)، ﴿كُـلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص ٨٨). لنأخذ الآن آيات الموت والوفاة التي وردت في الكتاب:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً . . . الآية﴾ (آل عمران ١٤٥).
- ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها . . الآية﴾ (الزمر ٤٢).
- ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر ٢٧ ـ ٢٨).
- ﴿وَلَـوْ تَرَى إِذِ الظَّـالِمُـونَ فِي غَمَـرَاتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (الأنعام ٩٣).
- ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (النحل ٢٨).
- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (النحل ٨٩).
- ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء ١٢٨).

فلنأخذ الآن قول النبي ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ».

ولنأخذ قول مصعب بن عمير عندما هددته والدته بأن تقتل نفسها إذا لم يرجع عن دين محمد فقال: «والله لو أن لك مئةَ نفسٍ فخرجت نفساً نفساً».

إنَّ مقـولـةَ المتـرادفـات في اللسان العربي جعلتنا نخلط بين النفس والروح، فالنفس هي ما يقـابـل بالإنكليـزيـة (SOUL) والـروح تقـابل (SPIRIT). ومن الخطأ القـول: الفـاتحـة إلى روح النبي، وروح المُتَـوَفَّى. والصحيـح: الفاتحة إلى نفس النبي ﷺ ونفس المتوفى.

إنّ الله سبحـانـه وتعـالى لم يذكـر الروح في مجال الحياة والموت بتاتاً، ولكن التشـابـه في آيـات خلق آدم، والأرضية المعرفية للسلف جعلتهم يقولون: إن الروح هي سر الحيـاة، وكـان هذا ينسجم مع أرضيتهم المعـرفيـة، وفي هذا يكمن إعجـاز القـرآن الأكبـر وهـو الجـدل بين النسبي والمطلق «أو الجـدل بين المحتوى المتحرك والنص الثابت». فالنفس هي التي تحيا وتموت ولا علاقة للروح في ذلك. ولا يمكن شرح مقولة الروح إلاَّ بعد شرح نظرية المعرفة الإنسانية في القرآن، وسنفصل القول

فيها في فصل جدل الإنسان.

ولكن لإعطاء فكرة للقارىء عن الروح التي حولت البشر إلى إنسان، أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع، نقول: لإعطاء هذه الفكرة لا بدّ من الإشارة إلى أننا نرى أنّ نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان. كما نرى أنّ آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أنه يبدأ التاريخ الإنساني الواعي بآدمَ. أمّا قبل آدم فكان ثمّةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر. ثم اصطفى الله آدم وزوجه من ذلك الصنف ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ. . .﴾ (آل عمران ٣٣). فآدم إذاً لا يدخل في النبوات ولا في الرسالات. ثم إن هناك معنى خاصاً للفظة آدم، فهي تحمل صفة التشابه (وسنفصل القول في ذلك لدى البحث في نشأة الكلام الإنساني). لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطور وتقدم، ولم ينفخ الروح في القرود فبقيت كما هي.

أي لدينا الآن المعادلة: بشر + روح = إنسان.

إنّ كلية الطب تسمى كلية الطب البشري لأنها تدرس الإنسان من حيث كونه بشراً، شعر وجلد وعيون وجهاز هضمي وعصبي وقلب ودورة دم، أي تدرسه كائناً حَيّاً فقط، وفي هذا يتشابه الإنسان وبقية المخلوقات كالقرود والبقر والإبل، فكلها كائنات حية ولها جلد وجهاز هضمي وعصبي. . إلخ، ولا تعيش دون رطوبة وأوكسجين، وكذلك الإنسان البشر.

وهناك علوم تسمى العلوم الإنسانية وهي القانون والشريعة والسياسة والأخلاق والفنون والآداب والفلسفة والتاريخ، ثم هناك العلوم الطبيعية وهي الفيزياء والكيمياء. . وهكذا دواليك.

إن العلوم الإنسانية هي العلوم التي تنتفي بغياب الإنسان. فبدون الإنسان توجد الطبيعة والمجرات والشمس والبحار والتفاعلات الكيميائية، وبدونه لا يوجد أصلاً فقه ولا قانون ولا فنون ولا علوم بالطبيعة.

الرُّوحُ إذاً هي التي حوّلت البشر إلى إنسانٍ ولنا هنا أن نتساءل: ما الذي يميّز الإنسان من الحيوان؟؟

يتميز الإنسان من الحيوان بأمرين فقط وهما: النتاج المباشر للروح: المعرفة

والتشريع (الأمر والنهي). فالحرية كانت نتيجة مباشرة للمعرفة، والتشريع جاء رديفاً للمعرفة. وبنفخة الروح أصبح الإنسان خليفة لله في الأرض. ومن جراء نفخة الروح هذه أصبح للإنسان تاريخ واعٍ، وأصبح يلبس لباساً ويسكن بيوتاً، وصار عنده حرام وحلال ومسموح وممنوع، وبنفخة الروح طيّر الطائرات وأُطْلَقَ الصواريخ وصنع السيارات والغواصات وأشاد المصانع، كما أقام دُوَلاً، ووضع تشريعات وقوانين وأنشأ مؤسسات علمية واجتماعية. كل هذا حصل من هذه النفخة التي قال عنها: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر ٢٩، ص ٧٢). فنفخة الروح هي النقلة النوعية التي أدت إلى انتقال البشر إلى إنسان.

لنستعرض الآن آياتِ «الروح من أمر ربي»:

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء ٨٥).
- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيْمَانُ.. الآية﴾ (الشورى ٥٢).
- ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ (غافر ٦٥).
- ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ.. لآية﴾ (النحل ٢).
- ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر ٤).

فعندما سئل النبي ﷺ عن الروح جاءت الإجابة التالية: هي من أوامر رب العالمين، فقد أمرنا رب العالمين بالصلاة والصوم والحج والزكاة وبر الوالدين والصدق وترك شهادة الزور وأوصانا بالارث وبعدم قتل النفس إلى نهاية أحكام أم الكتاب. هذه الأحكام لا توجد قائمة في ذاتها وإنما مرتبطة بشكل مباشر بالإنسان. فإذا ذهب الإنسان ذهبت معه، والأحكام مرتبطة بالإنسان العاقل، وقد قال السادة الفقهاء «إنَّ العقَلَ مناطُ التكليف» و«إذا أخذ ماأوهب أسقط ماأوجب». فالله أعطانا الروح من ذاته وليس من المادة الكونية المكونة للإنسان. ولذلك سمى الأحكام روحاً لأنها ليست حقيقة مجسمة وإنما هي سلوك واعٍ.

لنضرب الآن مثالاً على ذلك: نقول: إن تعيين زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق هو من أمر السيد رئيس الجمهورية، أي لا بد ليصبح زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق من مرسوم تعيين يصدره السيد رئيس الجمهورية. فإذا صَدَر المرسوم

فهل يُرَى بالعين أو يُلْمَس باليد؟ أي هل هو من المجسمات؟ قد يقول قائل: نعم هو من المجسمات لأن المرسوم يطبع على ورق ويوزع على دوائر الدولة ويرى بالعين. إن الذي يرى بالعين ويلمس باليد هو الورق والحبر، ولو كان الورق والحبر هو عين المرسوم، لأمكن إصدار المراسيم إلى الإنسان والبهائم معاً. ولكن مرسوم التعيين هو المعنى المتضمن في الكتابة والذي يفهمه الإنسان فقط على أنه مرسوم بتعيين زيد رئيساً للجامعة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما يطلع إنسان ما على نص المرسوم فإنه يعرف أن فلانا أصبح رئيساً لجامعة دمشق، وهذا يعني أن معلوماته زادت معلومة، أي أنه كان لا يعرف أن فلاناً أصبح رئيساً لجامعة دمشق، فأصبح يعرف، فهل هذه الزيادة في المعرفة هي زيادة مجسمة؟

إنّ الروح هنا لها جانبان «الأمر + المعرفة». وكلاهما لا يُعَدّ من المشخصات والمجسمات. وبما أن الأوامر والنواهي يجب أن يستوعبها الإنسان، فيجب عليه أن يمتلك أرضية معرفية معينة حتى يستطيع أن يستوعب الأمر. ولا يمكن أن تتم المعرفة الإنسانية دون قالب لغوي. فعندما عبّر الله سبحانه وتعالى عن نفخة الروح في آدم قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا. الآية﴾ (البقرة ٣١) إنّ في هذه الآية مفتاح فهم الروح، وتأويلها مُهِمٌّ جِدّاً في تحول البشر إلى إنسان.

عندما ورد السؤال عن الروح جاء الجوابُ:

- ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء ٨٥). «أوامر».
- ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء ٨٥) «معلومات».

لاحظ الربط بين الأوامر والمعلومات «الحقائق العلمية».

وكذلك جاءت بقيّة الآيات بالمعنى نفسه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر ١٥) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (النحل ٢). ونلاحظ أن هذه الآية هي رقم ٢ في سورة النحل. فإذا نظرنا إلى الآية رقم ١ نرى أنها تقول: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وسمى جبريل روحاً لأنه كان يقوم بمهمتين هما (نقل الأوامر والنواهي «أم الكتاب» ونقل الحقائق العلمية «القرآن»)، علماً أن الآية ٨٦ في سورة الإسراء شرحت تماماً معنى الآية ٨٥ فقد أتبع

قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الأسراء ٨٥) أتبعها بقوله : ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً﴾ (الإسراء ٨٦). إن الآية ٨٦ شرحت بشكل لا لبس فيه أن الروح المذكورة في الآية ٨٥ هي مجموع ما أوحي إلى محمد ﷺ وهل أوحي إليه غير التشريع والعلم؟! لقد فهمنا سؤال اليهود للنبي ﷺ فهما خاطئاً، فظننا أنهم يسألونه عن سر الحياة، علما بأنهم كانوا يسألونه عن الناموس الذي جاء إلى موسى وعيسى، حيث أن مفهوم الروح عندهم لا يعني سر الحياة . ولهذا اكتفى السائل بهذا الجواب .

هنا يكمن مفتاح القضية في فهم خلق الإنسان ويتجلى ذلك في أن الروح ليست سر الحياة العضوية . وهكذا نرى أنه عندما سئل عن الروح أجاب إجابة شافية وافية، ولم يقل للناس إن الروح سر لا تعرفونه فاسكتوا ولا تسألوا، «هكذا فهمها مفسرونا»، وعلينا تجاوزهم، لأنه دون هذا التجاوز يستحيل تأويل آيات خلق الإنسان، وأي تأويل لآيات خلق الإنسان ينطلق من أن الروح هي سر الحياة هو تأويل خاطىء لا يمكن أن يتطابق مع الحقيقة الموضوعية (objective reality) وأصول البحث العلمي الموضوعي . ومن جراء هذا الفهم الخاطىء ابتعد العرب المسلمون مئاتِ السنين عن البحث العلمي في خلق الإنسان وأصل الأنواع وتركوه لغيرهم .

ويجب أخيراً أن نعلم أن الروح هي القاسم المشترك بين الله والإنسان وأنّها سر التقدم الإنساني والرقي وأن الإنسان فقط له روح، فعندما نفخ الله الروح في آدم وهي من ذاته أسجد الله له الملائكة لأنه في هذه النفخة أعطاه الخلافة «حرية التصرف» .

فالله يقضي والإنسان يقضي، والله يعلم والإنسان متعلم .

٢ ـ أم الكتاب

أم الكتاب هي رسالة محمد ﷺ
وهي كتاب الله، وقد جاء القرآن تصديقاً لها

تحتوي رسالة محمد ﷺ على عدة فروع وهي:

١ ـ الحدود بما فيها العبادات.

٢ ـ الفرقان العام والخاص (الوصايا).

٣ ـ أحكام مرحلية.

٤ ـ أحكام ظرفية.

٥ ـ تعليمات عامة لا تدخل في الأحكام الشرعية جاءت تحت بند «يا أيها النبي» كلباس المرأة في سورة الأحزاب.

٦ ـ تعليمات خاصة بالنبي ﷺ «زوجات النبي».

٧ ـ ممنوعات كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وهي تخضع للاجتهاد ما عدا الحدود والعبادات وأول من اجتهد بها النبي ﷺ وطبقها حسب الظروف الموضوعية في شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي.

لا أريد هنا أن أخوض في تفصيلات أم الكتاب لأننا أفردنا لها فصلاً خاصاً بها في الباب الثالث ولكن أقول أن هذه هي الرسالة وبها أصبح محمد ﷺ رسولاً. ولها الطاعة المنفصلة أو المتصلة لذا قال **﴿قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ. . الآية﴾** (آل عمران ٣٢). «طاعة متصلة» وقال **﴿وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ. . الآية﴾** (المائدة ٩٢). «طاعة منفصلة»، ولم يقل أبداً وأطيعوا النبي، لأن الرسالة أحكام والنبوة علوم. هذه هي الرسالة التي طبقها محمد ﷺ بسنته لذا قال ﷺ ان صح «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به» من خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع (انظر جامع الأصول جـ٣ ص ٤٦٥). وقال «أوتيت الكتاب ومثله معه».

لقد كان تطبيق محمد ﷺ لأم الكتاب في شبه جزيرة العرب في القرن السابع هو الاحتمال الأول لتطبيق الرسالة وفقاً للشروط الموضوعية زماناً ومكاناً وسنفصل

الحديث على ذلك عند الكلام على السنة في بحث أم الكتاب.

ولكن أريد أن أبين نقطة وهي أن الآيات من أم الكتاب والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ليست أحكاماً شرعية، بل هي تعليمات او حالات خاصة للنبي ﷺ أو هي تعليمات عامة وليست تشريعات أي أنها «ولله المثل الأعلى» تعليمات إجرائية وليست مراسيم تشريعية.

لقد جاءت لفظة الآيات البينات للقرآن. وقد شرحنا مفهوم البينات بأنها بينة في ذاتها. أما الآيات المُبَيِّنَات فهي مُبَيِّنَةٌ لغيرها وهي من أم الكتاب. وجاءت الآيات المُبَيِّنَاتُ في أمور تتعلق بأحكام ظرفية في أم الكتاب مثل الزنا. وقد وردت لفظ «مُبَيِّنَة» مفرداً مع الفاحشة فقط في قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ (النساء ١٩). و﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ (الأحزاب ٣٠). وقوله ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ (الطلاق ١). هنا نلاحظ أن الفاحشة بحاجة إلى ظروف وملابسات تبينها. وبما أن الزنا مرتبط بأمور ظرفية، فقد بين هذه الأمور الظرفية والشروط اللازمة لاقامة الحد في سورة النور في الآيات (٤ - ٩) إذ بَيَّنَ رَمْيَ المحصنات والشهادة والملاعنة ثم أتبع ذلك بقوله في الآية ٣٤: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾. وعندما ذكر الفاحشة المبينة في الآية رقم ١ في سورة الطلاق ذكر بعدها آيات تتعلق بالعدة والعلاقات الأسرية ٢، ٤، ٦، ٧. وهذه الآيات تتعلق بالرسالة ولذا ذكر في آخر سورة الطلاق ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ.. الآية﴾ (الطلاق ١١).

٣ - تفصيل الكتاب

- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧).
- ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف ١١١).
- ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود ١).

- ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (الأنعام ١١٤).

هذه الآيات تتحدث عن التفصيل، ولكن يجب أن نميز بين نوعين من التفصيل.

اشتُقَّ التفصيل من الفعل «فَصَل» وهو أصل صحيح يدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه «ابن فارس م ٤ ص ٥٠٥». وعلى هذا المعنى فالتفصيل يحمل وجهين:

١ ـ الوجه الأول: التفصيل بمعنى الشرح: وقد سبق لي أن ذكرتُ الآيات التي تتحدث عن الكتاب بأنَّ فيه مُحْكَماً ومُتَشابِهاً والتي تذكر أنَّ القرآنَ جُعِلَ عربياً وأُنـزِلَ عربياً، وأنَّ أمَّ الكتاب عربية وأنَّ القرآن لا يَمَسُّهُ إِلاّ الْمُطَهَّرُونَ، هذه الآيات تشرح محتويات الكتاب، لذا فهي لا محكمة ولا متشابهة أي ليست أحكاماً وليست قرآناً فهذه الآيات تسمى تفصيلَ الكتاب في قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد جاء التفصيل بمعنى الشرح في قوله تعالى في آخر سورة يوسف ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢ ـ الوجه الثاني: الفصل المادي للأشياء زمانياً أو مكانياً أي أن تأتي أحداث متتالية مفصولة زمنياً بعضها عن بعض كأن نقول: الفصل الدراسي الأول والفصل الدراسي الثاني، فهذا يعني أنَّ هناك فاصلاً زمنياً فصل بينهما وأنهما جاءا بالتتالي وبمعنى الفصل الزمني كأحداث متتالية جاءت الآية ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف ١٣٣) فهنا ذكر خمس آيات من الآيات البينات التسع التي جاءت إلى موسى ولكن ذكر هنا أن هذه الآيات الخمس كانت آيات مفصلات أي مفصولاً بعضُها عن بَعْضٍ، إذ جاء الطوفان أولاً ثم تلاه الجراد وهكذا حتى الدم، وهناك أيضاً الفصل المكاني أي فصل آيات الكتاب بعضها عن بعض ووضعها في أماكن مختلفة في الكتاب (السور). وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (الأنعام ١١٤) أي أن الكتاب مفصل إلى ١١٤ سورة، كأن نقول ولله المثل الأعلى: إن كتاباً ما مؤلف من فصلين أو ثلاثة فصول. هذا

ليبين أن فصل الآيات بعضها عن بعض توقيفي وأن عدد الآيات وترتيبها في كل سورة توقيفي من الله .

أما قوله تعالى ﴿الَـرٰ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود ١) فهذه الآية تتحدث عن الفصل المكاني للكتاب المحكم والذي يمثل مجموع الآيات المحكمات «أم الكتاب» لذا وضع الكتاب في صيغة النكرة في قوله «كتاب» ثم عرفه باضافة ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وهو هنا الكتاب المحكم وليس المصحف. هذا الكتاب المحكم نرى أن الأحكام فيه متوزعة في كل المصحف، فنرى أحكاماً في سورة البقرة ثم نرى أحكاماً أخرى في سورة النساء والمائدة. . الخ وهذا ما لا نراه في الكتب الإنسانية، فعندما نقرأ أحكام الدستور لدولة ما، نرى أن هذه الأحكام تحمل صفة التتالي فنرى المادة الأولى تتلوها المادة الثانية وهكذا. ولكن في الكتاب نرى حكماً ما يتلوه آية كونية ثم قصص ثم حكمٌ آخر وهكذا. هذا الفصل في الآيات المحكمات لبعضها عن بعض إنّما هو من الله، يدلُّك على ذلك أنَّهُ أتبعها بقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

فإذا سأل سائل: ماذا وضع بين آيات الكتاب المحكم؟ لقد جاءت الإجابة على هذا السؤال في سورة فصلت في قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت ٣).

لنرى الآن الربط:

﴿الَـرٰ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فصيغة «قرآنا عربياً» هي حال لفعل فصلت وليست وصفاً لكلمة «كتاب»، أي أَنَّ آيات الكتاب المحكم فُصِلَ بعضُها عن بعضٍ وَوُضِعَ بينها القرآنُ وفاعل الفصل هو الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

إنَّ التيهَ الأكبر في كتب التفاسير هو أن أصحابها لم يربطوا بين الآية ٧ من آل عمران وهي: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلّا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلبَابِ﴾ نوع الآية: «تفصيل الكتاب، لا محكم ولا متشابه».

والآية /١/ من سورة هود وهي: ﴿الَـرٰ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (نوع الآية: تفصيل الكتاب و«الر» من أصوات السبع المثاني).

والآية /٣/ من سورة فصلت وهي: **﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** (نوع الآية: تفصيل الكتاب).

والآية /٢٣/ من سورة الزمر وهي: **﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ... الآية﴾** (نوع الآية: تفصيل الكتاب).

إن الخطأ هو الظن بأن الكتاب المقصود بهذه الآيات المذكورة أعلاه هو نفسه، أي أن الكتاب الموجود ما بين دفتي المصحف هو المقصود بهذه الآيات كلها. وبدون هذا التفريق لا يمكن وضع منهج علمي لفهم الكتاب من أحكام وقرآن وتفصيل الكتاب.

الآن يمكن أن نسأل السؤال التالي: ما هي الغايات التي فصل الكتاب من أجلها على هذا الشكل أي لماذا تداخل المتشابه وتفصيل الكتاب بين المحكم، ثم تفصيل الكتاب إلى هذا العدد والمواقع من السور والآيات؟

إنَّ الهدفَ الأولَ الذي نراه هو أن الآيات المحكمات قابلة للتزوير وليس فيها أي إعجاز، وقد حصل فعلاً هذا عند اليهود، إذ نرى عندهم أحكاماً جاء بها أحبار اليهود. أي أن اجتهادات أحبار اليهود أضيفت إلى الأحكام التي جاءت إلى موسى إضافة وفي هذا قال: **﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.. الآية﴾** (البقرة ٧٩) وقد قلت: إن الكتاب بالنسبة لليهود والنصارى هو الأحكام فقط. أما الشكل الذي وُضِعَ به القرآن بين الأحكام فإنّ أي اجتهاد في الأحكام لا يمكن وضعه داخل هذه الأحكام، لأن عدد الآيات وترتيبها في السورة الواحدة المؤلفة من محكم ومتشابه ولا محكم ولا متشابه مضبوطٌ تماماً وموقع كل آية مضبوطٌ تماماً، وهذا ما أكده الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة **﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ. الآية﴾** (المائدة ٤٨). فالكتاب بالحق هو القرآن وهو النبوة مع تفصيل الكتاب. هذا القرآن هو تصديق لما بين يديه من الكتاب، وأم الكتاب هي من الكتاب حيث تشكل مع القرآن الكتاب. أي أن الوظيفة الثانية للقرآن بعد تصديق أم الكتاب «الذي بين يديه» هي الهيمنة على أم الكتاب. والهيمنة في اللسان العربي تعني الحفظ والرقابة

فنقول: هيمن الطير على فراخه عندما يفرد جناحيه فوقهم ليحفظهم. ومنه جاء اسم الله «المهيمن» وهو الحافظ والرقيب.

والناحية الأخيرة التي نراها في تفصيل الكتاب هذا التداخل في المواضيع في السورة الواحدة فنرى أن قصة موسى في أكثر من موضع وكذلك آيات خلق الإنسان وخلق الكون حيث نراها متداخلة مع غيرها ومتناثرة ضمن نسق لا ندري إلى الآن الآلية الرياضية لهذا النسق، ولكن الذي نقوله هو ما يلي:

إذا نظرنا إلى جسم الإنسان وهو أكمل المخلوقات المعروفة رأينا أن أعضاء جسم الإنسان متداخلٌ بعضها ببعض، فهناك الأجهزة والأعضاء المختلفة لهذه الأجهزة، ثم نرى أيضاً أن الأجهزة المختلفة متداخل بعضها ببعض، فلا نرى الجلد وحده والعظام وحدها والعضلات وحدها وكذلك الأعصاب والأوردة والشرايين، كل هذا متداخل بعضه ببعض، فلا نرى في الإنسان أولاً طبقة كاملة من العظام تليها طبقة كاملة من الأوعية الدموية تليها طبقة كاملة من العضلات.. وهكذا دواليك. ثم نجد هذه الظاهرة في الطبيعة، فالأحوال الجوية هي الحرارة والرطوبة والرياح ولكن هذه العناصر متداخل بعضها ببعض مكاناً وزماناً غير مفصولة. وان الذي صنع الإنسان والطبيعة هو الذي صاغ الإنزال وأمر بالتنزيل وفَصَّل الكتاب، فنرى هذا التشابه العجيب حيث أن الناموس واحد. ثم إن الإنسان منذ ألف عام شاهد الدم وقال عنه إنه سائل أحمر والآن نرى الدم فيه كريات حمر وبيض وصفائح.. الخ، وهكذا عندما نظر الأقدمون إلى القرآن شاهدوه كما شاهد الأقدمون الدم، والآن نحن نشاهده كما نشاهد الآن الدم أكثر وضوحاً مع معرفة الوظائف لكل مركب. والقرآن في صياغته، والكتاب في توزيع آياته وتفصيله معقد كتعقيد تركيب جسم الإنسان، وما زلنا إلى اليوم نكتشف الجديد وأمامنا الكثير الكثير لنبحث عنه وَنَعْلَمَه.

إنَّ النتيجة الأساسية التي نستنتجها من تفصيل الكتاب أنّ هناك سوراً في الكتاب كلها قرآن، وسوراً في الكتاب فيها قرآن وأم الكتاب معاً، وسوراً فيها أم الكتاب فقط، فإذا كان هناك سورة كلها من أم الكتاب أي أن كل آياتها محكمات فتصبح السورة محكمة، وفعلاً هناك سورة واحدة فقط في الكتاب محكمة ليس فيها قرآن، وقد نبهنا الله لهذا في سورة محمد في قوله: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيها الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**

﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد ٢٠). في هذه السورة قال: سورة محكمة، قال عنها محكمة للتعريف أي ليميزها عن بقية السور، ولو كانت كل السور في الكتاب محكمة لما قال سورة محكمة، ثم لاحظ كيف جاء الإنزال والتنزيل للفظة «سورة». فعندما ذكر التنزيل لم يعط أي معلومات في قوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ وعندما ذكر الإنزال للسورة أتبعها بمعلومات للإدراك في قوله: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ... الآية﴾. فإذا تصفحنا الكتاب نرى أن هذه السورة المحكمة هي سورة التوبة التي تبدأ بالآية ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم نرى أن هذه هي السورة الوحيدة في الكتاب التي لا تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» والسبب في ذلك هو عدم وجود أي آية من آيات القرآن فيها وبالتالي لا يمكن أن يكون اسم الرحمن في البسملة لقوله ﴿الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن ـ ١ ـ٢) لذا حذفت البسملة كلها لأن القرآن كلُّهُ رحماني حيث أن آية ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لا تعني أنه علمه للآخرين بمعنى العملية التعليمية، ولكنها تعني أنه وضع اسمه الرحمن علامةً للقرآن لكي يميز. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم واعين لهذه الحالة تماماً حيث وضعوها سورة لوحدها ولم يعتبروها تتمة لسورة الأنفال. فإذا أردنا أن نقارن بين سورتين في الكتاب إحداهما محكمة تماماً والأخرى متشابهة تماماً «قرآن فقط» فما علينا إلا أن ننظر إلى سورة التوبة «كلها محكم» وسورة الصافات «كلها متشابه» فان ما نراه بشكل واضح هو اختلاف المواضيع واختلاف الصياغة، فسورة الصافات هي من أعقد السور في الكتاب. ولو سألني سائل: هل عدد آيات المتشابه «القرآن» أكثر أم عدد آيات المحكم «أم الكتاب»؟ لقلت: إن عدد آيات المتشابه أكثر بكثير من عدد آيات المحكم «أم الكتاب» لأن هناك أكثر من سورة واحدة في الكتاب كلها قرآن.

وبما أن أم الكتاب أنزلت عربية ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ (الرعد ٣٧) وجزء من أم الكتاب له علاقة بالاحداث التي حصلت في أثناء بعثة محمد ﷺ «أسباب النزول». أما القرآن فليس له علاقة بالأحداث التي حصلت في أثناء بعثته ﷺ وأنزل أيضاً عربياً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢). فلو جعل القرآن فقط أعجمياً لأصبح في الكتاب لغتان: القرآن أعجمي وأم الكتاب وتفصيل الكتاب باللسان العربي. أي يصبح الكتاب بلغتين عربية وأعجمية وآيات متداخلة بلسانين، الأحكام وتفصيل الكتاب عربية حيث أن في الأحكام وتفصيل

الكتاب تلازم الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيهما جعل والقرآن أعجمي فوجب فصل بعضهما عن بعض. وفي هذا المجال بالضبط قال في سورة فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ. الآية﴾ (فصلت ٤٤).

لاحظ هنا «فصلت آياته» أي فصل بعضها عن بعض، والهاء في «آياته» تعود على مجمل التنزيل كله حيث ذكره في مجال «الذكر» في الآيات ٤١ و٤٢ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وهل يمكن أن يجعل القرآن أعجمياً؟ الجواب: نعم، لسببين: الأول: هو أن القرآن له وجود مسبق قبل أن يكون عربياً وإنما جعل عربياً دفعة واحدة في الإنزال. وثانياً ان مهمة النبي ﷺ كانت نقل القرآن الى الناس دون تأويل، وفي هذا كان عجب العرب بأن ينزل القرآن على محمد ﷺ في شبه جزيرة العرب، والعرب قوم متخلفون عن غيرهم فكانت تجاورهم فارس والروم. وكان الروم والفرس متقدمين من الناحية العلمية والحضارية على العرب: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف ٣١).

لاحظ أن هذه الآية جاءت حول القرآن فقط، وليس حول أم الكتاب. والقرآن لا علاقة له بأسباب النزول، والقريتان هنا هما الروم والفرس. و«القرية» هنا من المجتمع المستقر من فعل «قرو» ومنها جاء الاستقرار لأن الروم والفرس كانوا مؤهلين أكثر من العرب لاستقبال القرآن لهذا أتبعها بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف ٣٢). ولهذا فإنّه كان كثيراً ما يسبق إلى ظني أن المقصود بالقريتين إنّما هو الفرس والروم، لا مكّة والطائف.

وفعلاً، من الناحية الموضوعية، لو كان القرآن أعجمياً وبقية الكتاب عربياً لرأينا في السورة الواحدة الآيات المتداخلة آية عربية وأخرى اعجمية. ولبرز التساؤل التالي: لماذا لم تفصل الآيات بعضها عن بعض العربية على حدة والأعجمية على حدة ﴿لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾. وإنَّه لمن الوهم الكبير الظن بأن قوله: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هو أن القرآن أعجمي والنبي ﷺ عربي حيث أنها لا تستقيم من الناحية اللغوية، أي كيف يتم عطف القرآن على النبي، ولكن المعنى يستقيم تماماً عندما تعود جملة «أأعجمي وعربي» على الكتاب نفسه أي جزء منه أعجمي وجزء آخر عربي.

قد يسأل سائل: لماذا لم يقل: إن الكتاب كلهُ «أي الذكر الموجود بين دفتي المصحف» أنزل عربياً دون هذه التفاصيل؟ أقول إن هناك سببين لهذه التفاصيل:

١ ـ القرآن تلازم فيه الجعل والإنزال «جعل عربياً وأنزل عربياً» أي له وجود مسبق في لوح محفوظ وإمام مبين، أما أم الكتاب وتفصيل الكتاب فليس لهما وجود مسبق بل تلازم الإنزال والتنزيل فيهما ولا يوجد فيهما جعل.

٢ ـ هناك آيات في الكتاب غير عربية وهي آيات السبع المثاني حيث أنها ليست بلسان عربي وإنما هي أصوات إنسانية أي أن/الم * يس/ ليست عربية ولا تركية ولا إنكليزية.. الخ. بل هي ألفاظ مركبة من أصوات تتألف منها اللغات الإنسانية قاطبة. فمثلاً لفظة «يس» تتألف من صوتي الياء والسين وهما موجودان في كل ألسن أهل الأرض دون استثناء، وكذلك لفظة «الر» المؤلفة من أصوات الهمزة واللام والراء هي أصوات موجودة في كل لغات أهل الأرض فهذه الألفاظ ليست عربية ولا غير عربية، لأن اللفظة في لسان ما تتألف من أصوات «دال» ترتبط بمعنى وهو المدلول «المعنى في الذهن». ولو كانت لفظة «الم» أو لفظة «يس» عربية لما مضى أربعة عشر قرناً على نزولها وما زلنا لا نفهمها. ونكتفي بالقول: الله أعلم بمرادها. وهناك مئات الآلاف بل الملايين أتقنوا اللسان العربي على مدار أربعة عشر قرناً. ولو كانت «الم» لفظة عربية لأدرك الإنسان العربي معناها في الذهن مباشرة لأنها كلمة تدخل ضمن مفردات لسانه، ولكن لا يوجد في اللسان العربي كلمة تلفظ «ألف لام ميم» بل يوجد كلمة تلفظ «ألم» كقوله. ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ (الإنشراح ١). ولكن «ألم» في آية ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ هي مختلفة تماماً عن آية «الف لام ميم». وهكذا يظهر جلياً لماذا لم يقل: إن الكتاب كله أنزل عربياً.

ورد في الآية ٧ في سورة آل عمران قوله ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ.. الآية**﴾ (آل عمران ٧) هذه الآية صنفت الآيات في الكتاب إلى أكثر من نوعين. فلو قلنا: إن الكتاب فيه نوعان من الآيات محكم ومتشابه فقط لوضع الآيات المتشابهات معرفة أي في صيغة «والأخر متشابهات» في هذه الحالة يفهم أن كل الآيات غير المحكمات هي متشابهات ولكن كونه وضع التشابه في حالة غير معرفة يفهم أن غير المحكم فيه متشابه ولكن ليس كله متشابهاً فنستنتج بالضرورة أن هناك آيات في الكتاب لا محكمات ولا متشابهات،

هذه الآيـات هي تفصيـل الكتـاب حيث ورد في الكتاب آيات كثيرة تشرح محتويات الكتــاب وأعتقـد أن هذه المعضلة وقـع فيهـا الكثيـر ممن عملوا في علوم الكتـاب.
وأوضح مثال على ذلك الآية رقم ٧ في سورة آل عمران والتي تقول: إن الكتاب فيه محكم وفيـه متشـابـه في الآيـات غير المحكمة. هذه الآية نفسها كيف تصنف: هل هي محكمة؟ الجواب: لا هي غير محكمة لأنه لا يوجد فيها آية أحكام. إذاً هل هي متشـابهـة؟ والجـواب: لا هي غيـر متشابهة لأنها هي التي أخبرتنا عن وجود المحكم والمتشابه. والاستنتاج المنطقي أنها آية من الكتاب تشرح محتوياته، هذا النوع من الآيات تم تصنيفها في الآية رقم ٣٧ من سورة يونس في قوله: ﴿**وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيـهِ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ**﴾ أي أن الآيات التي تشرح محتويات الكتاب وتصنيفاته هي تفصيل الكتاب وعددها في الكتاب ليس بالعدد القليل.

مثـال آخـر: الآيـة ٣٧ من سورة يونس التي تقول إنّ هناك قرآناً وهناك تصديق الـذي بين يديـه وهناك تفصيل الكتاب هي نفسها لا محكمة ولا متشابهة وتنتمي إلى زمرة الآيات التي تدخل تحت عنوان تفصيل الكتاب وكذلك الآية ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَـانِي وَالْقُـرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ (الحجـر ٨٧) ليست أحكاماً وليست قرآناً وليست من السبع المثاني لأنها تتكلم عن عطف القرآن على السبع المثاني وليست قصصاً فهي شارحـة للمتشـابـه في الكتـاب وهـو القرآن والسبع المثاني فتدخل تحت بند تفصيل الكتاب. وقد أكد أن تفصيل الكتاب موحى من الله أيضاً وليس من النبي ﷺ في قوله ﴿**وَتَفْصِيـلَ الْكِتَـابِ لا رَيْبَ فِيـهِ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ**﴾ (يـونس ٣٧). هنا جاء تفصيل الكتاب بمعنى شرح محتويات الكتاب لا شرح أحكام الكتاب.

أمّـا المعنى الثـاني لتفصيل الكتاب فهو فصل آيات الكتاب بعضها عن بعض فصلاً مادياً. أي أن ترتيب الآيات في كل سورة وعدد هذه الآيات هو أمر توقيفي من الله سبحـانـه وتعـالى، فنـرى أن سورة البقـرة فيها ٢٨٦ آية وآل عمران فيها ٢٠٠ آية وتسلسل الآيات في كل سورة لم يأت حسب نزولها بالضرورة بل تم ترتيبها وحياً وقد جاء هذا المعنى المادي في الفصل لا في الشرح في قوله تعالى ﴿**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾. (هود ١)، وسيأتي شرح هذه الآية في حينه.

يبقى لدينـا سؤال هام هو: هل آيـات تفصيـل الكتاب مثل الآية رقم ٧ في آل عمران والآية رقم ٣٧ في سورة يونس أهي من النبوة أم من الرسالة.

إنَّها قطعاً ليست من الرسالة لأنه ليس فيها أحكام ولا أوامر ولا نواه ولا مواعظ أو وصايا، ويبقى أحد الاحتمالين:

الأول: أنهـا من النبـوة لأن مواضيعهـا كلهـا إخبارية تعليمية، لذا فانها تدخل تحت بند النبوة حيث أنها آيات تعليمية شارحة لمحتويات الكتاب ولكنها غير متشابهة.

الثـاني: أنهـا ليست من النبـوة ولا من الرسالة وأنا أستبعد هذا الاحتمال حيث أن الكتـاب الـذي أوحي إلى محمـد ﷺ حوى النبوة والرسالة معاً. فمحمد ﷺ نبي ورسـول ولـه مقـامـان فقـط: مقام النبوة ومقام الرسالة فلا يوجد أي مقام آخر إضافي نعطيـه للنبي لكي يغطي تفصيـل الكتاب، وبالتالي فآيات تفصيل الكتاب تدخل في النبـوة ولكنهـا ليست متشـابهـة وليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين بل أوحيت مباشرة من الله تعالى.

٤ ـ أم الكتاب «الرسالة» كتاب الألوهية والقرآن والسبع المثاني «النبوة» كتاب الربوبية

ـ تعريف الألوهية والربوبية:

لقـد جاء في الكتـاب أن الله سبحـانـه وتعالى هو إلاه الناس وهو رب العالمين بقـولـه ﴿الْحَمْـدُ لله رَبِّ الْعـالَمِينَ﴾ (الفـاتحة ١). وقوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الله﴾ (محمد ١٩). وقوله ﴿فَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الحج ٣٣) وقوله ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن ١٧). فما معنى مصطلح الرب ومصطلح الإلاه؟

ـ الرب:

جاءت الـرب في اللســان العربي من الملك والسيادة. فنقول إن الأب هو رب الأسـرة والسيـد، فعلاقة الأب بالأسرة هي علاقة سيادة وملكية وسيطرة كقوله تعالى:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ (يوسف ٤١) وقوله ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (يوسف ٤٢)، فإذا كان لزيد ثلاثة أولاد: الأول يطيعه، والثاني لا يطيعه ولا يعصيه، والثالث لا يعترف به أصلاً، فهل مواقف الأولاد الثلاثة تغير من حقيقة أن زيداً هو أبوهم؟ فالربوبية هي حقيقة موضوعية خارج الوعي الإنساني وهي علاقة الله بمخلوقاته كلها وهي علاقة سيطرة وملكية وسيادة وهي علاقات صارمة لا تبديل فيها.

فعندما ندرس قوانين الفيزياء والكيمياء والجاذبية فإننا ندرس قوانين الربوبية حيث أنها قوانين صارمة تعمل خارج الوعي الإنساني، فالله هو رب الناس «مؤمنهم وكافرهم» ورب الشجر ورب السموات والأرض شاؤوا أم أبوا، عرفوا أم لم يعرفوا.

لذا فعندما ادعى فرعون الربوبية قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾ (النازعات ٢٤) وهذا الادعاء كان ادعاء ملكية وسيادة بقوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف ٥١) أي أن فرعون في ادعائه الربوبية، حسب أن مصر بأراضيها وأنهارها وسمائها ومزروعاتها وحيواناتها وسكانها هي ملكه الشخصي يتصرف بها كيف يشاء ومتى يشاء دون أن يعارضه أحد.

وعندما قال الله سبحانه وتعالى للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠) فمن هو خليفة الله في الأرض غير الإنسان؟ فخلافة الإنسان لله في الأرض هي أن أعطاه سلطة من سلطاته، وسلطان الله على المخلوقات هو من مقام الربوبية، فأعطى الله للإنسان من هذا المقام فأصبح الإنسان يملك الأرض والسماء ويتصرف بها وتعلم قوانين الربوبية في الأشياء لكي يصبح هو رباً لها. فعندما عرف الجاذبية وقوانين الدفع صعد إلى القمر ثم مع الزمن سيتصرف في القمر في هذا المجال قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ وَالْفَلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج ٦٥) وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاهُدَىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان ٢٠) وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ١٣).

فالإنسان «مؤمنا أو كافرا» خليفة الله في الأرض في مقام الربوبية فأصبح مالكاً

لهـا مسيطـراً عليهـا متصرفاً بها ثم سيتصرف في السموات . فماذا أعطى الله للإنسان بالضبط لكي يصبح خليفة له؟ «انظر مقالتي حول نفخة الروح من هذا الكتاب» .

أما الألوهية فهي كما يلي :

بما أن الله أعطى الإنسان خلافته في الأرض فأعطاه من الربوبية ، وطلب منه مقـابـل ذلـك طاعـةً لأوامـره ونـواهيه . هذه الطاعة جاءت في الألوهية أي ان يعترف الإنسان أن الله إلاهه ، وهذا الاعتراف يعبر عنه بطاعة أوامر الله .

فالربوبية هي علاقة صارمة بين الله وكل مخلوقاته وأعطيت للناس سواسية ، أما الألـوهيـة فهي اعتراف من العاقل فقط بالله وبتوحيده وبأوامره ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾ (يـوسف ٤٠) . لاحـظ هنا أن الخطـاب موجـه إلى العـاقـل فقط . ولكي يؤكد وحدانية الربوبية وأن الربوبية سيطرة وملكية وقهر قال : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يـوسف ٣٩) هنـا نلاحـظ كيف ذكـر الـوحدانية والقهر مع الربوبية . فالربوبية علاقة سيـادة وملكيـة وهي علاقـة موضـوعية صارمة لا خيار فيها . والألوهية هي علاقة طاعة اختيارية من العاقل فقط .

ونشيـر إلى أمـر هام جداً وهـو أن الربوبية تسبق الألوهية ، فقبل وجود العاقل لا يوجد ألوهية ، وإنما وجدت مع العاقل لذا لا نرى في الكتاب صيغة «إلاه العالمين» أو «إلاه السموات والأرض» بل نرى صيغة «رب العالمين» «رب السموات والأرض» .

وكـان هنـا ادّعـاء فرعون الثاني ، وهو ادّعاء الألوهية الذي سبقه ادعاء الربوبية بقـولـه ﴿وَقَـالَ فِرْعَـوْنُ يَاأَيُّهَـا الْمَـلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي . الآيـة﴾ (القصص ٣٨) هنا الخطاب للعاقل فقط في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ . أما قوله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ (الزخرف ٥١) فهي للعاقل ولغير العاقل . وفي قوله ﴿ماعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي﴾ كان طلبـاً للطـاعـة الكـاملة من العـاقـل ، ولو سألته : لماذا الطاعة الكـاملة؟ لأجـاب من مقـام الـربـوبيـة ﴿مَـا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الـرَّشَـادِ﴾ (غـافـر ٢٩) أي بمـا أنني أنـا ربكم فانكم ستـرون ما أرى ، لأني أعـرف مصالحكم أكثر مما تعرفونها أنتم أنفسكم . وعندما أعدم فرعون السحرة أعدمهم من مقام الربوبية لأنه مالكهم وذلك لأنهم عصوه في مقام الألوهية ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (طه ٧١) عصوه هم في الطاعة فأعدمهم بالملكية . لذا قال تعالى عن فرعون

﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (النازعات ٢٥). فالأولى هنا هي ادعاء الربوبية والأخرة هي ادعاء الألوهية وهنا ذكر الآخرة قبل الأولى وهي الألوهية لأنها جاءت بعد قوله. ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾.

فإذا أخذنا الآن الكتاب نرى أن كل أوامر الله ونواهيه جاءت في أم الكتاب «الرسالة» فطلب منا أن نقول: «لا إله الا الله محمد رسول الله» ونرى كل القوانين الموضوعية الصارمة جاءت في القرآن «النبوة» ففيها كلها قوانين الربوبية، ولو قال: «لا رب إلا الله» لأتبعها بعبارة «محمد نبي الله» لذا فإنّ الله لم يطلب من الناس أن يقولوا لا رب إلا الله، بل طلب منهم أن يقولوا «لا إله إلا الله» لأن الله ربُّهم شاؤ وا أم أبوا إذ أنهم لا يستطيعون أن يتحدوه في ربوبيته لهم. فالله رب الناس «كافرهم ومؤمنهم» حيث قال ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاء وَهٰؤُلاء مِنْ عَطاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء ٢٠) والله من مقام الربوبية يرزق المؤمن والكافر ويعطي المطر والغيث والشمس وكل قوانين الطبيعة للمؤمن والكافر على حد سواء. فإذا سألَ سائل لماذا؟ فالجواب لأنه ربهم.

لاحظ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ (البقرة ١٢٦) فعندما دعا إبراهيمُ الله أن يرزق أهل البيت الحرام فقط من آمن منهم بالله واليوم الآخر، أما غير المؤمن فلا يدخل في دعاء إبراهيم كان رد الله عليه ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ قليلاً هنا تعني في هذه الحياة الدنيا لقوله ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة ٣٨) وقوله ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى... الآية﴾(النساء ٧٧).

ثم نرى أيضاً أن الله لم يطلب من أحد الاعتراف بربوبيته، وكل الرسالات جاءت من أجل الألوهية، لا من أجل الربوبية. جاءت من أجل أن يعترف العاقل بأن الله هو إلاهه. فبدأ بقوله ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ١٨) لاحظ الشهادة من الله والملائكة وأولوا العلم. فإذا تصفحنا كل آيات الكتاب فلن نرى أن هناك آية تقول: إن غير العاقل شهد لله بالألوهية، وخطاب الألوهية يعود للعاقل. ففي خطاب الرسل لأقوامهم كانت الألوهية هي العمود الفقري للخطاب:

- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (البقرة ١٣٣).
- ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة ١٦٣). لاحظ أن الخطاب للعاقل.
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَامِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة ٧٣).
- ﴿قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام ١٩).
- ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (الأنعام ١٠٢).

هنا لاحظ «ربكم» ـــــ خالق كل شيء.

لا إله إلا هو ـــــ فاعبدوه.

فخالق كل شيء تعود على ربكم. واعبدوه تعود على لا إله إلا هو.

- ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ إِلا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس ٩٠).
- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (هود ٥٠).
- ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه ١٤).

لاحظ كيف أتبع العبادة بالألوهية.

- ﴿وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ (النحل ٥١).
- ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء ٢٩).
- ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (المؤمنون ٣٢)
- ﴿أَإِلَـهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل ٦٠).
- ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل ٦١).
- ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـهاً آخَرَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (القصص ٨٨).

نلاحظ أنه عندما يذكر مقام الألوهية يذكره من باب قبول العاقل له، ومن باب أن يتخذ العاقل الله إلاهه.

- ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ (الاسراء ٣٩).
- ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَـهاً﴾ (الكهف ١٤)

لاحظ كيف ذكر الربوبية للسموات والأرض والألوهية لدعاء العاقل فقط.

- ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـهاً آخَرَ﴾ (الفرقان ٦٨).
- ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء ٢٩).
- ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء ٢١٣).

- ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف ١٣٨).

فإذا نصحنا كل آيات الكتاب لا نرى صيغة «ولا تدع مع الله رباً آخر». ولا نجد صيغة «ألا تعبدوا إلا الرب».

وعندما دعا هود قومه قال ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود ٥٦).

لقد قال ﴿الله ربي وربكم﴾ فعلام الخلاف؟ كان الخلاف على الألوهية بقوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (هود ٥٠). قال ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾. ولم يقل ما لكم من رب غيره لأن الأمر مفروغ منه بأن الله هو رب هود ورب قوم هود. ويجب علينا أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى هو رب محمد ﷺ ورب أبو لهب، ولكن الله سبحانه وتعالى هو إلاهُ محمد ﷺ ولكنه ليس بإلاه أبي لهب. إن أبا لهب لم يؤلهه ولم يعترف بألوهيته واتخذ آلهة غيره.

وبما أن مجال أوامر الله سبحانه وتعالى جاءت في أم الكتاب «الرسالة» فمن هنا نستنتج أن أم الكتاب هي كتاب الألوهية، وبما أن قوانين الكون الصارمة وظواهره جاءت في القرآن اعترف بها الناس أم لم يعترفوا فالقرآن هو كتاب الربوبية.

وبما أن أم الكتاب هي كتاب الألوهية وهو كتاب الله قال في سورة فاطر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر ٢٩).

أما عن كتاب الربوبية فقال: ﴿وَاتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (الكهف ٢٧).

إنّ ملاحظة الفرق الكبير بين نهاية الآية الأولى ونهاية الآية الثانية ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ فيها رجاء ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ فيها حتمية.

وعندما ذكر موسى عن الآيات البينات التسع قال: ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (الإسراء ١٠٢). وهنا نلاحظ أيضاً أن الآيات البينات فيها الربوبية.

فهنا جاءت تلاوة كتاب الله الرسالة «أم الكتاب» وتلاوة كتاب الربوبية النبوة «القرآن» «كتاب ربك». ﴿هَـذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأعراف ٢٠٣) والكتابان جمعا

في المصحف مع آيات تفصيل الكتاب، وبما أن الحياة والموت والرزق والأجر هي من مقام الربوبية قال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٩ ـ ١٢٧ ـ ١٤٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠) ﴿الله لا إلـهَ إلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل ٢٦) «رب الأمر والنهي».

- ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هـذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها﴾ (النمل ٩١).

لاحظ رب هذه البلدة.

- ﴿رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما الرَّحْمٰـنِ﴾ (النبأ ٣٧).
- ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هـذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش ٣).
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰـنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه ٩٠).

وعندما جعل الله الإنسان خليفة في الأرض جعله من مقام الربوبية لقوله ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠).

أمّا قوله عن النصارى بأنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ الله﴾ (التوبة ٣١) فهو أن أحبار النصارى ورهبانهم مارسوا أمرين هما من اختصاص الربوبية ولا يوجد فيهم أية طاعة وتشريع:

- الأمر الأول: أنهم في مرحلة من المراحل التاريخية صاروا يوزعون الجنة على الناس بصكوك وهذا من اختصاص الربوبية.
- الأمر الثاني: وهو قائم إلى اليوم في ظاهرة الاعتراف، فإذا اعترف المذنب فإن الراهب يحلله من الذنب وهذا من اختصاص الربوبية.

لذا فإنّه نرى في الكتاب أن دعاء الإنسان إلى الله دائماً يأخذ مقام المملوك إلى المالك فيبدأ بربي، والمناداة دائماً من مقام الربوبية «ربي، ربنا» ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ (نوح ٢٨) ﴿رَبَّنا آتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ (البقرة ٢٠١) ﴿يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة ٨٣). ﴿قَالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ (الأعراف ٢٣) ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ (التحريم ٨). فتكفير السيئة والتحليل من الذنب هي من اختصاص الربوبية، هنا نفهم لماذا قال ﴿أَرْباباً مِنْ دُونِ الله﴾ ولم يقل آلهة من دون الله.

وبما أن مقام الربوبية له وضع خاص لا يستطيع أي انسان أن يفعله فقد قال: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾ (آل عمران ٨٠) أي ان

الملائكة والنبيين لا يغفرون لأحد ولا يوزعون على أحد الجنة أو النار.

إنّ توضيح الفرق بين مفهوم الألوهية والربوبية ينعكس بشكل مباشر على بنية الدولة. فالربوبية سلطة وتملك، والألوهية طاعة من خلال القانون والأحكام. والدولة ينعكس فيها هذان المصطلحان، فالدولة فيها السلطة والتملك وامتلاك مقادير الأمور وفيها الطاعة والولاء عن طريق القانون والأحكام وقد انعكس هذا المفهوم على بنية الدولة من خلال التطور التاريخي للدول، وما القصص القرآني إلاّ تفاعل الإنسان مع قوانين الربوبية في المعرفة «النبوات» ومع احكام الألوهية في الرسالات وهكذا يكتسب القصص هذه الأهمية.

٥ ـ العرب اهتموا بفهم أم الكتاب «الرسالة»

لقد اهتم العرب بفهم الرسالة اهتماماً شديداً وأعطوها كل وقتهم وجهدهم وجاهدوا في نشرها بين الأمم ولكنهم لم يهتموا بفهم القرآن. لأن القرآن بحاجة إلى تفرغ ووضع حضاري معين وبحث علمي، لذا قال تعالى عن القرآن **﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾** (الإسراء ١٠٦) قال: **﴿عَلَى النَّاسِ﴾** ولم يقل على الذين اتقوا. فكلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرغين لهذا البحث وزاد عدد الاختصاصات زاد فهم الناس للقرآن. هذه الشروط لم تكن متوفرة في عهد النبي ﷺ، وهذه الظاهرة وردت في سورة الفرقان بقوله **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾** (الفرقان ٣٠). فقوم الرسول هم العرب، كل العرب، لاحظ قوله **﴿إِنَّ قَوْمِي﴾** إذ لم يقل: «ان الذين كفروا من قومي»، ولو عنى المسلمين لقال «أمتي» لأن العرب قومه والمسلمين أمته. هذه الآية تنطبق على العرب بما فيهم الصحابة والخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب. فإذا سألني سائل: ما دليلك على هذا؟؟ أقول ما يلي:

١ ـ بعد وفاة النبي ﷺ حارب أبو بكر الصديق المرتدين من أجل الزكاة وهي من أم الكتاب «الرسالة» واستشهد في حرب الردة كثير من الصحابة، ومع ذلك كان أبو بكر الصديق واثقاً من قراره. وقد أجاب في الوقت نفسه عندما سئل عن تفسير

حرف من القرآن فقال: «أيُّ سماء تظلني وأيُّ أرضٍ تُقِلُني! وأين أذهب! وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى» (انظر تفسير الطبري ج ١ ص ٧٨). تأمّلْ قوله، تُرى هل كان يقصد الزكاة أو الصلاة أو الارث؟.
وقرأ عمر بن الخطاب «رض» على المنبر قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: «ما الأبُّ؟» ثم قال: إنّ هذا هو التكلف يا عمر فما عليك ألا تدري به. ثم قال: «اتبعوا ما بيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه» (فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٣٧٦) لاحظ أن تعليق عمر بن الخطاب كان على آية من القرآن وليس من الأحكام.

٢ ـ لقد قال الذين كفروا من العرب عن القرآن فقط إنه سحر مبين ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٧). لماذا؟ وكيف فهم العرب مؤمنهم وكافرهم قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن ١٩ ـ ٢٠)؟ أقول لم يستوعبوها، فالكافر قال إنها سحر، والمؤمن آمن بها تسليماً.

٣ ـ كان إيمان المؤمنين من العرب كالتالي ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس ٥٣) وهكذا آمن العرب تسليماً بأنه حق كما جاء في هذه الآية.

٤ ـ روي عن سعيد بن المسيب (أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: «إنّا لانقول في القرآن شيئاً») رواه مالك في الموطأ. تُرى هل كان سعيد بن المسيب يقصد آياتِ الإرث أو المحارم أو آية الوضوء أو آية المداينة والتي كلها من المحكمات القابلة للفهم من كل الناس، لقد كان دقيقاً عندما قال: «إننا لا نقول في القرآن شيئاً.»

هذا الموقف من العرب أيام النبي ﷺ كان موقفاً علمياً من الناحية التاريخية، لأن القرآن كان معظمه ـ ان لم يكن كله ـ غيباً بالنسبة لهم ولم يُؤَوِّل أيَّةُ آيةً في زمانهم ولم تكن أرضيتهم العلمية تسمح لهم بالتأويل لذا قال عن الكافرين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.. الآية﴾ (يونس ٣٩). هذا الموقف التاريخي العلمي قدره الله لهم تقديراً كبيراً بأن سلموا بالقرآن تسليماً وآمنوا به على أنه الحق، علما بأنه كان غيباً بالنسبة لهم. هذا التقدير جاء في سورة الواقعة

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ من الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤) أي عند نزول القرآن آمن به من آمن تسليماً، وهؤلاء هم السابقون، وأعطاهم الله مكانة عالية بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾. أما قوله ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِين * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. فهذا يعكس التطور العلمي والتاريخي لفهم القرآن. فالذين آمنوا بالقرآن تسليماً عند نزوله كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة إن لم يكونوا كلهم لذا قال ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾. ولكن بعد مرور الزمن وتقدم العلم فإن الناس الذين سيؤمنون تسليماً على طريقة الأولين سيكون عددهم أقل لأننا نعرف الآن معنى قوله تعالى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ والناس يؤمنون بها الآن كافر ومؤمن تصديقاً لا تسليماً.

وعلينا أن لا نفهم ﴿وقليل من الآخرين﴾ على أن المؤمنين من الآخرين سيكونون قلائل. هذا غير صحيح لأن الحقيقة الموضوعية تقول غير ذلك ولكن نسبة المؤمنين في الآخرين على طريقة الأولين ستكون قليلة.

٦ - القدر في القرآن والقضاء في أم الكتاب

بما أن آيات القرآن هي آيات قوانين الوجود وظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ التي حصلت فعلاً «أي بعد حدوثها لا قبله» والتي يظهر التطور التاريخي الختمي في اتجاه التقدم من خلالها لأن الحدث التاريخي الإنساني هو قضاء قبل وقوعه، وقدر بعد وقوعه، وهذا الحدث الإنساني قبل وقوعه يدخل في عالم الممكنات وبعد وقوعه ينتقل إلى عالم الحتميات، لذا جاء القصص من القرآن. فقوانين الكون هي قوانين حتمية صارمة وأحداث الإنسان بعد وقوعها تأخذ صفة الحتمية، والقدر هو الوجود الحتمي للأشياء والأحداث خارج الوعي الإنساني، والقضاء هو حركة إنسانية واعية بين النفي والإثبات ضمن هذا الوجود. فإذا تصفحنا كل آيات أم الكتاب نراها مواعظ وأحكاماً ووصايا ونصائح وتعليمات جاءت حصراً للسلوك الإنساني. فالإنسان له الخيار في أن يقوم بها أو لا يقوم، وهي مناط القضاء الإنساني وتدخل ضمن الحرية

الإنسـانيـة. وبما أن أوامر أم الكتاب فيها حركة بين نفي وإثبات، أي نعم و لا، فالله سبحانه وتعالى في أوامره لم يأمرنا إلاّ بالخير ونهانا عن الشر، ولكن لنا ملء الخيار في أحـدهمـا ولا يمكن أن نمـارس الأحكـام الـواردة في أم الكتـاب إلاّ إذا دخلت وعينا وعلمنـا بهـا، فوجب أن تكـون صيـاغتهـا سهلة الفهم لأنه على كل الناس ممارستها خاصتهم وعامتهم، ومن هنا كانت لا تحتوي على خاصية التشابه، فلا يمكن للناس أن يصـومـوا إذا لـم يعلمـوا بالصـوم أولاً، وإذا علمـوا بالصـوم فيمكن ان يقبلوه أو لا يقبلوه. أي ان ام الكتـاب حتى تنفـذ لها شرطان: العلم بها وقبولها، لذا فهي تعاليم إلاهية تدخل ضمن القضاء الإنساني وليست قوانين رحمانية موضوعية.

أمـا القـرآن ففيـه قوانين الـوجـود الموضوعي وقد قال عنه: إنه الحق «فالموت حق» ولا تتأثـر ظاهـرة المـوت بعلم الإنسان لها أو قبوله بها فالأمران سيان، والشمس حق فلا تتأثر بعلم الإنسان بها أو قبوله لها. ولهذا نقول: إن آيات القرآن فيها القدر، فالقدر وجود موضوعي والقضاء سلوك إنساني واعٍ.

من هذا المنطلق نفهم الآيتين التاليتين من سورة النساء:

١ - ﴿أَيْنَمـا تَكُـونُـوا يُدْرِكْكُمُ المَـوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هٰؤُلاء الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء ٧٨).

٢ - ﴿مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيداً﴾ (النساء ٧٩).

تبدأ الآية ٧٨ من سورة النساء بقوله: ﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ والموت حق ولا علاقـة له بالحـلال والحـرام وتنتهي بقـوله: ﴿فَمالِ هٰؤُلاء الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُـونَ حَدِيثـاً﴾ وكمـا قلت إن القـرآن هو الحـديث. ﴿أَفَبِهٰـذا الْحَـدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُـونَ﴾ (الـواقعـة ٨١)، فهذه الآية تتحدث عن الوجود لا عن السلوك، فجبريل وإبليس والحيـاة والمـوت كلاهمـا وجـود من الله لذا قال ﴿قُـلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله﴾ هذه الآيـة تتكلم عن المقـدرات وجـوداً. أمـا الآيـة رقم ٧٩ فإنهـا تتحـدث عن الاختيار الإنسـاني فالله أوجـد جبـريل وإبليس وكلاهما حق ولا يوجد أحقية بالوجود لأحدهما دون الآخر، ولكنّا أُمرنا باتباع جبريل دون اتباع إبليس ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَـا أَصَـابَـكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وبما أن أم الكتاب هي الأوامر والنواهي من رب

العـالمين للسلوك الإنسـاني حصـراً وهي تشكـل رسـالـة محمد ﷺ فقد أتبعها بقوله ﴿وَأَرْسَلْنَـاكَ لِلنَّـاسِ رَسُـولاً﴾ فالآيـة الأولى هي آية قدر «وجود» تتحدث عن القرآن والثانية هي آية قضاء «سلوك» تتحدث عن أم الكتاب «الرسالة».

ـ ماذا يحدث لو اعتبرنا آية من آيات أم الكتاب قرآنا أو العكس (أي آية من آيات القرآن أو تفصيل الكتاب أحكاماً):

لنأخـذ الآن آيـة من آيـات أم الكتـاب وهي من آيات السلوك «قضاء» ونعتبرها قرآناً «حق ـ وجود» فماذا تكون النتيجة؟ لنأخذ الآية التالية:

﴿وَقَضَى رَبُّـكَ أَلاّ تَعْبُـدُوا إِلاَّ إِيَّـاهُ وَبِـالْـوَالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾ (الاسراء ٢٣).

هذه الآيـة هي من آيـات أم الكتـاب «الرسالة» وفيها أمر ونهي للإنسان العاقل «مـوعظـة»، فعبادة الله وحده هي أمر للعاقل وقد عطف عليها بر الوالدين. فإذا كانت هذه الآية هي من القرآن فهي حقيقة موضوعية خارج الوعي ونافذة حكماً بغض النظر عن قبولنا لها أو عدم قبولنا فهي كالموت تماماً. وبذلك يصبح معنى الآية كالتالي:

إنَّ عبـادة الله موضـوعيـاً نافذة بغض النظر عن وعي الإنسان لها أو عدم وعيه أو كيف يمارسها، فالذي يعبد القمر فقد عبد الله، والذي يعبد الشمس فقد عبد الله.. وهكـذا دواليـك. لأنـه من المستحيل أن يعبد غير الله **﴿لاَمُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾** وينتج عن ذلك إسقاط العقوبات والإرادة الإنسانية وإسقاط الحرية وتساوي الجنة والنار ونصل إلى مفهـوم وحـدة وصحـة العبـادات على اختـلاف مشاربها توحيدية أو وثنية وتصبح عبادة الله كعبادة الأصنام لا فرق بينهما، وعبادة الله كعبادة فرعون.

لقـد أخطأ ابن عربي حين علق على الآيـة **﴿وَقَضَى رَبُّـكَ أَلاَّ تَعْبُدوا إِلاّ إِيَّاهُ﴾** هذه الخطيئـة القـاتلة إذ اعتبـر أن هذه الآيـة قرآنٌ نافـذٌ «كلام الله» ووصل إلى مفهوم وحـدة العبـادات وأسقـط الإرادة الإنسانية «إسقاط التدبير» وحَوّل الإسلام إلى مهزأة حيث كان تعليقـه على هذه الآيـة «فمـا عبد غير الله في كل معبود» [الفصوص «فص كلمـة سبـوحيـة في كلمـة نوحيـة»] حيث قضى على الإسـلام عقيدة وأحكاماً قضاء

مبرماً. وما إسقاط التدبير والتواكل والفكر الخرافي الموجود عند العرب والمسلمين حالياً إلا من النتائج المباشرة لهذا الخلط.

لنلاحظ كيف عطف بر الوالدين على عبادة الله حيث قال ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ فإذا حكمنا أن هذه الآية قرآنٌ فهذا يعني أن الذي يضرب والديه أو يجوعهما ويشتمهما، والذي يطيعهما ويتلاطف معهما في الكلام ويبرهما، هما سواء وكلا عمليهما من بر الوالدين لأن الإنسان مهما فعل مع والديه فهو قد بَرَّ بهما لأنه موضوعياً لا يستطيع إلا أن يكون بَرّاً بهما.

والآن إذا أخذنا آية من آيات تفصيل الكتاب واعتبرناها من آيات أم الكتاب مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩) إذا اعتبرنا آية ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحكام فهذا يعني أنها تعني الإنسان العاقل ولا تعني غيره، وفيها مجال الاختيار، فإذا فهمناها هكذا فتعني الحائض والنفساء والجنب، فتصبح حكماً شرعياً وهذا هراء. وهذا الهراء حاصل فعلاً عند كثير من الناس لأنه في هذه الحالة تم تحويل «لا» النافية في ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ الى «لا» الناهية. وتم تحويل ﴿قرآن كريم﴾ إلى المصحف المنسوخ بحبر على ورق أو على جلد غزال أو على شريط كاسيت.

وهكذا نلاحظ ما يترتب على عدم التفريق والخلط بين كلام الله وبين كتاب الله «أوامر الله». ففي حالة فهم آية قرآن أو تفصيل الكتاب على أنها أحكام يصبح السلوك الإسلامي وأحكامه غير مفهومة إطلاقاً، ولا يوجد أي ترابط في السلوك الإسلامي. وفي حال فهم آية من أم الكتاب على أنها قرآن تصبح العقيدة الإسلامية نوعاً من السخرية والمتناقضات التي لها أول وليس لها آخر وهاتان الحالتان حاصلتان فعلاً في حياتنا.

ولنأخذ مثالاً آخر الآيتين التاليتين:

- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠) هذه آية من آيات أم الكتاب فيها موعظة للإنسان.
- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء ١٦) «قرآن».

الآيــة ٩٠ من سورة النحـل هي من أم الكتـاب لذا قال في آخـرهـا ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الآيـة ١٦ من سورة الإسـراء هي من القـرآن لذا قال في آخرها: ﴿فَحَقَّ عَلَيْها الْقَوْلُ﴾ «قوله الحق» أي فيها قانون موضوعي وليس موعظة أو وصية.

لقد حار المفسرون في الربط بين الآيتين، ولكن لا ربط بينهما لأن المواضيع مختلفـة تمـامـاً، ففي آية النحل أعطى أمراً ونهياً للإنسان «موعظة» «قانون أخلاقي» فيمكن للإنسان أن يأخذ بها أو لا يأخذ ولا تحتاج إلى تأويل.

أمـا الآيـة الثـانيـة فهي قانـون موضوعي يعمل خارج الوعي لا علاقة له بقبول الإنسـان به أو عدم قبـولـه وتحتاج إلى تأويل حيث أن الخطأ الفاحش هو الظَّنُّ أن آية الإسراء موعظة أي أن الله يأمر وينهى فيها وهذا عين الخطأ.

٧ ـ الكتاب عند موسى وعيسى

لقـد سَمَّى الكتـاب «المصحف» مجمـوعـة الأحكـام التي جاءت إلى موسى وعيسى بالكتـاب وكتـاب الله وذلك في قوله ﴿وَلَمَّا جاءهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ نَبَـذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ كِتَـابَ الله وَرَاءَ ظُهُـورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٠١).

وعن عيسى قال ﴿قَـالَ إِنِّي عَبْـدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ (مريم ٣٠). فالكتـاب فيـه الـرسـالة وأضاف اليه النبوة. وقوله أيضاً عن موسى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسى الْكِتَـابَ وَالْفُـرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ٥٣) هنا أيضاً الكتاب عبارة عن التشريع وأضيف إليه الفرقان.

وقـولـه: ﴿فَـوَيْـلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُـونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَـرُوا بِهِ ثَمَنـاً قَلِيـلاً فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّـا كَتَبَتْ أَيْـدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّـا يَكْسِبُـونَ﴾ (البقـرة ٧٩) لاحـظ أنـه قال الكتـاب وهو يريد التشريع فقط الذي جاء في الرسالة، ولهـذا حذر من تقليـده لأن التشـريـع يقلد ولا يخضـع للتحدي والإعجاز. وقوله عن المسيـح ﴿وَيُعَلِّمُـهُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران ٤٨). لاحظ

كيف أضاف التوراة والإنجيل إلى الكتاب والحكمة . إنّ مجمل هذه البنود الأربعة تشكل الكتاب المقدس عند النصارى . فالكتاب هو التشريع والحكمة هي الوصايا والتوراة نبوة موسى والإنجيل نبوة عيسى .

أي أن مصطلح الكتاب ذو معنيين :

ـ المعنى الأول للكتاب : بالنسبة لموسى وعيسى هو مجموعة التشريعات التي جاءت لهما . والرسالة والكتاب عند اليهود والنصارى تختلف عن التوراة والإنجيل : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ . ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ (البقرة ٨٧) لاحظ كيف ربط الكتاب والرسالة عند موسى .

ـ المعنى الثاني للكتاب : وقد جاء لمحمد ﷺ وهو مجموعة الآيات الموحاة إلى النبي ﷺ والتي تحتوي على رسالته ونبوته معاً حيث سمى التشريع عند النبي ﷺ «بأم الكتاب» أي أن الكتاب والفرقان عند موسى والكتاب والحكمة عند عيسى ، يقابلهما أم الكتاب عند المسلمين . ويمكن أن نفهم أن النبي ﷺ استعمل مفهوم الكتاب في حديثه بمعنى التشريع فقط في قوله «أوتيت الكتاب ومثله معه» حيث فصل هنا بين الكتاب والقرآن حيث قال في حديث آخر «أوتيت القرآن ومثله معه» .

وطبقاً لما أخبرنا الله فإن الكتاب جاء إلى ثلاثة رسل هم موسى وعيسى ومحمد ﷺ . فلماذا جاء الكتاب لهؤلاء الرسل الثلاثة مع أن هناك رسلاً غيرهم مثل شعيب وصالح وهود ونوح ولا نقول عنهم إنهم جاءهم الكتاب؟

فكما عرفنا أن الكتاب هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى النبي ﷺ من الله وحياً، وتحوي الرسالة والنبوة معاً . وإذا نظرنا إلى الرسالة وجدناها مجموعة كاملة من التشريعات والتعليمات «كود تشريعي وأخلاقي» وإذا نظرنا إلى النبوة وجدنا فيها مجموعة كاملة من العلم والمعلومات، على هذا نفهم معنى الكتاب الذي جاء إلى محمد ﷺ . فقد جاء إلى موسى مجموعة كاملة من التشريعات «الرسالة» وقد سميت الكتاب . كما جاءه مجموعة كاملة من المعلومات في النبوة وسميت «التوراة» وجاء هذا أيضاً إلى عيسى الرسالة في الكتاب والنبوة في الإنجيل وجاءت تشريعات كاملة إلى محمد ﷺ وسميت «أم الكتاب» وبما أن القرآن هو نبوة محمد فقط ، والإنجيل نبوة عيسى فقط والتوراة نبوة موسى ، ففي الكل التجانس في النبوة لذا عطف بعضها

على بعض في قوله ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ (التوبة ١١١).
لاحظ كيف ذكر لفظة «حقاً» قبل ذكر كتب النبوة الثلاثة.

فإذا نظرنا إلى الرسل مثل نوح رأينا أنه لا يوجد عنده كتاب «كود كامل تشريعي وأخلاقي» مع مجموعة كاملة من المعلومات فرسالة نوح كانت التوحيد والاستغفار فقط ونبوته صناعة الفلك والتبشير بالبنيان وكانت رسالة إسماعيل الصلاة والزكاة لأهله فقط. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ (مريم ٥٥). ورسالة شعيب كانت ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف ٨٥) ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾. (الأعراف ٥٦ - ٨٥). ﴿وَلاتَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (البقرة ٦٠). قد يظن البعض أنّ قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾. وقولُه ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تعليماتٌ أخلاقيةٌ وهذا غير صحيح. فالفساد عكسه الإصلاح ونقول: فسد الطعام فهذا يعني أن الطعام غير صالح للأكل، ونقول فسدت السيارة فهي بحاجة إلى إصلاح، فالفساد في الأشياء والوظائف والفسوق في السلوك الإنساني وهو حصراً يعني الخروج عن تعليمات رب العالمين كقوله عن إبليس ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف ٥٠) وعندما كانت امرأة زكريا عاقراً قال ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (الأنبياء ٨٩) فهل كانت زوجه فاجرة فأصبحت تقية؟! أم كانت عاقراً فأصبحت ولوداً؟ وعندما نقول فسد جهاز الشرطة فهذا يعني أنه غير قادر على القيام بوظيفته التي أنشىء من أجلها. كما نقول فسدت المعدة فهي غير قادرة على الهضم. ففي نبوة شعيب جاءتنا معلومات وتعليمات في غاية الأهمية ومازلنا إلى يومنا هذا نعاني من عدم فهمها وهي:

١ - بعد إصلاح الأرض من إقامة جسور وطرق وشوارع ومزارع وأبنية وحدائق علينا أن لا نفسدها. لذا قال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ... الآية﴾ (المائدة ٣٣).

٢ - ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة ٦٠) فالعُثُوُّ هو الإقامة في مكان ما وإفساده من جراء هذه الإقامة ومنه جاءت كلمة العث أو العت وهي الحشرة التي تعيش في الملابس الصوفية وتفسدها من جراء عيشها داخلها.

إن القصص القرآني هو تطور تاريخي في أكثر من ظاهرة علمية من حيث تاريخ

المعـارف الإنسـانيـة عن طريق النبـوات وتـاريخ التشـريـع الإنسـاني عن طريق الـرسـالات، وقـد ظل هذا التطـور ساريـاً حتى جاء الـرسـل الثـلاثة «أهل الكتاب» فجـاءتهم مجمـوعـة كاملة «كـود كامـل» من المعلومات والتشريعات وكان آخرها هو كتـاب الإسـلام لأنـه نسـخ جزءاً من التشـريعـات وثبت جزءاً آخـر فكـل ما جاء في التشـريعـات في قصص القـرآن فهـو ملزم لنـا وجـزء من ديننا لأنه يدخل ضمن حدود التشريع الإسلامي.

مثـل تحـريم اللواط صراحـة في رسـالـة لوط وهو محرم علينا أيضاً عدا ما جاء صراحـة أنـه غيـر ملزم كقوله: ﴿وَعَلى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ..﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ (الأنعام ١٤٦).

أمـا النبـوات فهي تطـور في المعلومـات إذ بدأت النبـوات من قولـه ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ (هـود ٣٨). وقـولـهِ ﴿وَيُمْـدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وبنِينَ﴾ (نوح ١٢) فتطورت هذه النبـوات حتى محمـد ﷺ حيث جاءتـه «الحقيقـة المطلقـة ذات الفهم الإنسـاني النسبي» في القرآن.

فإذا طرحنـا البعـد التـاريخي من أذهاننا من حيث المعرفة والتشريع الإنساني فإن قصص القـرآن غيـر قابـل للفهم. وفي هذا البعـد التـاريخي يكمن التشـابـه في القصص أي نسبية الفهم.

فبـالنسبـة لمـوسى وعيسى فصلت التشريعات عن النبوات، لا كما حدث مع النبي محمـد ﷺ، فنبـوة موسى هي التـوراة وشـريعتـه الكتـاب والفرقان وكذلك نبوة عيسى الإنجيـل وشـريعتـه هي الكتـاب نفس شريعـة موسى مع بعض التعـديـلات ﴿وَلأُحِـلَّ لَكُـمْ بَعْضَ الَّـذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمـران ٤٩). لذا قال عن عيسى ﴿آتَـانِيَ الْكِتَـابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّـاً﴾ (مريم ٣٠) فالكتاب عند موسى وعيسى هو التشريع فقط، أما عند محمد ﷺ فهو النبوة والرسالة معاً حيث أن رسالة محمد هي أم الكتاب عوضـاً عن الكتـاب عنـد موسى وعيسى، ونبوة محمد ﷺ هي القرآن والسبع المثاني وتفصيـل الكتـاب وقـد جاء جميع ذلك في الكتاب. فمفهوم الكتاب عند المسلمين يختلف عن مفهـوم الكتـاب عنـد موسى وعيسى فالكتـاب عند المسلمين هو مجمل التنزيل كله وعند موسى وعيسى هو الأحكام فقط «الشريعة».

٨ ـ النبي محمد ﷺ كان أمياً وكان يقرأ ويكتب

نريد في هذا البحث أن نضع النقاط على الحروف حول معنى لفظة «الأمي».
لقد وردت هذه اللفظة في الكتاب في ستة مواقع وهي:

- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران ٢٠).
- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ٧٥).
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف ١٥٨).
- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ. الآية﴾. (الأعراف ١٥٧).
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة ٢).
- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة ٧٨).

أولاً ـ لنعرف ما معنى كلمة الأمي التي وردت في الآيات السابقة. لقد أطلق اليهود والنصارى على الناس الذين لا يدينون بدينهم أي ليسوا يهوداً ولا نصارى لفظ الأمي (وجاءت من كلمة غوييم العبرية «الأمم»). وهو ما نعبر عنه اليوم بالدهماء أو الغوغاء أو العامة، لأن هؤلاء الناس كانوا جاهلين ولا يعلمون ما هي الأحكام في كتاب اليهود والنصارى، والنبوات التي جاءت لهم. ومن هنا جاء لفظ الأمي التي تعني:

١ ـ غير اليهودي والنصراني .

٢ ـ الجاهل بكتب اليهود والنصارى .

وبما أن التوراة والإنجيل هما نبوتا موسى وعيسى لذا جاء التبشير بنبوة محمد في التوراة والإنجيل وليس في الكتاب لقوله ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف ١٥٧). وهذا واضح في الآية رقم ٢٠ من آل عمران ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ﴾ فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى والباقي من الناس هم الأميون .

وهذا المعنى واضح أيضاً في الآية رقم ٧٥ من آل عمران عندما ذكر أهل الكتاب اليهود والنصارى فمنهم أي اليهود ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ومنهم أي النصارى ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ . فلماذا لا يؤدي اليهود الأمانات لغيرهم؟ لأنهم يعتبرون «الغوييم» الأمم خدماً لهم وأنهم الدهماء، وهؤلاء الأُمِّيُّونَ لا تنطبق عليهم وصايا الرب حيث قال ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ .

وفي سورة الأعراف الآية ١٥٧ . ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ . أمي لأنه ليس منهم لأنه قال: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ .

وكذلك جاءت في الآية ١٥٨ حيث أتبعها بأن محمد ﷺ هو رسول الله الى الناس جميعاً اليهود والنصارى والأميين علماً بأنه لم يكن أصلاً يهودياً ولا نصرانياً بل من الفئة الثالثة وهي الأميون .

وبمعنى الجهل في الكتاب قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة ٧٨) أي الذين لا يعلمون الكتاب ومحتوياته هم أميون بالكتاب ولذا أتبعها ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة ٧٨) .

فإذا قلنا: إن فلاناً أُمِّيٌّ دون التعريف . أُمِّيٌّ بماذا؟ وأراد أن يمحو أميته فيدخل مدرسة محو الأمية تحت اسم محمد بن سعيد ويخرج تحت اسم هارون . أما إذا قلنا فلان أُمِّيٌّ وعرفناه بماذا، فهذا صحيح ونكون قد استعملنا المعنى الوارد في الآية ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ . فكاتب هذا الكتاب هو أمي بعلم البحار مع أنه دكتور مهندس في الهندسة المدنية . أي هو لا يعلم في علم البحار إلا اللمم وعندما يتكلم عن علم البحار فمعلوماته ظنية غير يقينية: ﴿وَإِنْ هُمْ

إلاّ يَظُنُّونَ﴾.

ومن هاهنا نرى أن النبي ﷺ كان أمياً بمعنى أنه غير يهودي وغير نصراني، وكان أمياً أيضاً بكتب اليهود والنصارى وكانت معلوماته عن كتبهم هي بقدر ما أوحي إليه بعد بعثته ﷺ.

أما إسقاط هذا المعنى على أن النبي ﷺ كان أمياً أي لا يقرأ ولا يكتب فهذا خطأ، فكما قلت: إن الكتابة هي تجميع الأشياء بعضها إلى بعض لإخراج معنى مفيد «موضوع» فهل كان النبي ﷺ عاجزاً عن تأليف جملة مفيدة أو كتابة كتاب «تأليف»؟ إنّ الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى كسرى هو كتاب النبي ﷺ لأنه هو الذي أملاه وصاغه. والقراءة تعني العملية التعليمية «تتبع المعلومات» ثم القدرة على استقراء نتائج منها ومقارنتها بعضها ببعض. فالاستقراء والمقارنة جاءا من القراءة، فهل كان النبي ﷺ لا يقرأ؟!

قد يقول البعض ـ وهذه هي الحجة التي يوردها كثير من الناس ـ إنه عندما جاء الوحي إلى محمد ﷺ قال له: اقرأ، فأجاب النبي ﷺ: ما أنا بقارىء، واستنتجوا أنه لا يقرأ. وأقول إنه إذا أمر سعيد زيداً أن يذهب، فقال زيد «ما أنا بذاهب» فهل هذا يعني بالضرورة أن زيداً مشلول أو بلا أقدام. هل هذا يعني أن زيداً لا يستطيع الذهاب أو أنه لا يريد الذهاب. ثم هل يعني أن جبريل قدم للنبي ﷺ مادة مخطوطة لكي يقرأها خطأً. فهنا خلطنا بين إرادة النبي ﷺ للقراءة وبين عدم استطاعته، وظننا أن جبريل قدم له مادة مخطوطة على قرطاس ليقرأها، لأنه عندما قال له في المرة الثالثة: اقرأ فأجاب النبي ﷺ: ما أنا بقارىء. فقال جبريل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق ١). فسكت النبي ﷺ بعد هذه الآيات ولم يقل ما أنا بقارىء.

قد يقول البعض: ألم يكن النبي ﷺ أمياً بمفهومنا الخاطىء للقراءة والكتابة؟ أقول: نعم لقد كان النبي ﷺ من أول حياته إلى وفاته **أمياً بالخط** أي كان لا يخط ولا يقرأ المخطوط وجاء هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت ٤٨). ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاّ الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٩).

لقد وضحت أمية النبي ﷺ في شيئين: أولهما أن النبي ﷺ لم يتكلم في

حياته قبل البعثة عن أي موضوع من مواضيع القرآن، ولو فعل ذلك لقال له العرب: لقد كنت تتحدث إلينا عن هذه المواضيع قبل أن تكون نبياً. أي ان النبي ﷺ كان أمياً في مواضيع القرآن تماماً؛ وقوله ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ منكرة، وتعني القرآن لأنه أتبعها بقوله ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أما مواضيع أم الكتاب فلم يكن النبي ﷺ أمياً بها كلها فمثلاً: الصدق والأمانة والوفاء بالكيل والميزان من مواضيع أم الكتاب، أولم يكن النبي ﷺ صادقاً وأميناً ويوفي الكيل والميزان قبل البعثة؟ والناحية الثانية التي تقولها الآية أن النبي ﷺ كان أمياً بالخط، وأميته بالخط استمرت إلى أن توفى ﷺ.

ان السر الأكبر في أمية النبي ﷺ من ناحية الخط وقراءة المخطوط هي أن اساس الكلام الإنساني هو الأصوات وليس الخطوط، أي أن اللغة بالنسبة للنبي ﷺ كانت لساناً وأذناً «كلام وسمع». لأنَّ أي قوم إذا غيروا أبجديتهم فلا يتأثرون أبداً في كلامهم بين بعضهم وفهمهم للغتهم بل يتأثرون بقراءة المخطوط. علماً بأن الكتاب جاء إلى النبي وحياً، أي جاءه بصيغة صوتية غير مخطوطة وسماه الكتاب.

فإذا سألني سائل: ما معنى قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾. (الأعراف ١٤٥)؟ الألواح هنا قرطاسية أي ما يخط عليه. فأقول: لو قال «وخططنا له في الألواح» فيأتي السؤال: بأي خط؟ أي بأية أبجدية؟ ولكن قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ فالسؤال هنا: ماذا كتب؟ ويأتي الجواب مباشرة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. (الأعراف ١٤٥) فهنا بعد فعل كتبنا ذكر الموضوع مباشرة.

وإذا سأل سائل: ما معنى فعل كتب في آية المداينة في سورة البقرة وهي آية حدودية. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.. الآية﴾ (البقرة ٢٨٢) هنا «فاكتبوه» بمعنى تسجيل العقود حسب الموضوع كأن نقول فريق أول وفريق ثانٍ وموضوع العقد هل هو مال أو بيت أو تنفيذ أعمال.. مع ذكر الأجل... الخ حيث أن بنود العقد تشمل كل صغيرة وكبيرة لذا قال. «فاكتبوه» وهنا ليس بالضرورة أن يكون الكتاب بالعدل خطياً أو العقد خطياً فيمكن أن يكون العقد شفهياً أي أن هذه الآية تشمل العقود الخطية أو الاتفاقات الشفهية. لذا قال عن الشهادة ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (البقرة ٢٨٢). فكيف نفهم هذا الشرط

في حالـة توثيق العقـد في كاتب العـدل كمـا نفعـل الآن لأنه في حالة العقد الخطي بوجـود الكـاتب بالعـدل لا داعي أصـلاً أن تضـل إحـداهمـا لتـذكـرها الأخرى لأن محتويات العقد الخطية الموثقة في كاتب العدل لا تحتاج بعد مدة من الزمن إلى أي مراجعـة، وهـذا الشـرط صحيـح للكتـابـة الشفهية لا لعقد «شروط العقد» لأن أساس التعامل بين الناس والدول هو الاتفاقات الشفهية أولاً ثم تنسخ أو لا تنسخ «توثق أو لا توثق».

ومن ناحيـة أخـرى عندما يتم عقد نكاح بين رجل وامرأة فكتابة عقد النكاح هو اكتمال شروط العقد «الكتاب» بالإيجاب والقبول والشهود وتحديد الصداق.. الخ. فإذا تمت هذه الشـروط قلنـا لقـد تم كتـاب فلان على فلانـة. هذه الشـروط لا تعني الخط مطلقاً. فبعد ذلك يتم تسجيل عقد النكاح. ولكن إذا سجل هذا العقد أم لم يسجـل فشـروطـه صحيحة ويبقى صحيحاً، وإذا لم يكن الأمر كذلك وفهمنا الكتابة على أنهـا التسجيـل، فإذا سجـل العقـد خطيـاً ففي هذه الحالة يصبح جماع الرجل والمـرأة نكـاحـاً شرعياً. واذا لم يسجل خطياً فيصبح زنا؟؟!! وأعتقد بأن كل زيجات النبي ﷺ لم تكن خطيـة ومـع ذلـك فهي شرعية والكتاب فيها أي شروط عقد النكاح مستوفاة. والله أعلم.



الفصل الثالث
الانزال والتنزيل

١ - الفرق بين الإنزال والتنزيل.
٢ - الإنزال والتنزيل للقرآن.
٣ - الإنزال والتنزيل لأم الكتاب وتفصيل الكتاب.
٤ - الإنزال والتنزيل للملائكة.
٥ - الإنزال والتنزيل للمن والسلوى وللماء.
٦ - الإنزال والتنزيل لمائدة من السماء.
٧ - مخطط عملية الإنزال والتنزيل.



١ ـ الفرق بين الإنزال والتنزيل

إن شرح الفرق بين الانزال والتنزيل يعتبر أحد المفاتيح الرئيسية لفهم الكتاب بشقيه: النبوة والرسالة كما له علاقة كبيرة بمبادىء التأويل. فبدون فهم الفرق بين الإنزال والتنزيل لا يمكن فهم قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ (الحديد ٢٥) وقوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ (الأعراف ٢٦). إذ قال إنه تم إنزال الحديد وقال إنه تم انزال اللباس على بني آدم. وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ (يوسف ٢) وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١) فكيف نفهم إنزال الحديد وإنزال القرآن؟ أما عن التنزيل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ (الإنسان ٢٣). وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجاثية ٢) وقال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ (فصلت ٢) وقال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة ٨٠).

ان النبي ﷺ شرح الإنزال بقوله: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة» «رواه ابن عباس، البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ٢٨٨». وبما أن هذا الحديث من الأحاديث التي تتعلق بالغيب فلا ينبغي أن يفهم فهماً سطحياً ساذجاً، بل لا بد من فهمه فهماً عقلانياً منطقياً يتناسب مع العقل وينطبق على الواقع. فإذا فهمناه فهماً سطحياً نقول: إذا كان إنزال القرآن هو النزول إلى السماء الدنيا فماذا عن الحديد واللباس أي ما هو إنزال الحديد وإنزال اللباس؟ وكيف يفهم إنزال القرآن وإنزال الحديد بشكل لا يناقض أحدهما الآخر. أمّا التنزيل فكيف نوفّق بين قوله ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة ٨٠) و ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ (الإنسان ٢٣) وبين قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ (طه ٨٠)؟ وكيف نفهم ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى..﴾ (البقرة ٥٧)؟ أي كيف نفهم الإنزال والتنزيل في المن والسلوى وفي القرآن.

فعن القرآن قال: «نَزَّلْنَا وَأَنْزلنا» وعن المن والسلوى قال أيضاً: «نَزَّلْنَا، وَأَنْزَلْنَا» وعن الماء قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِن السَّمَاءِ ماء طهورا﴾ (الفرقان ٤٨) وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً﴾ (ق ٩) وعن الذكر قال ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . . ﴾ (النحل ٤٤). فما هو الإنزال والتنزيل للقرآن؟ والإنزال والتنزيل للمن والسلوى؟ والإنزال والتنزيل للماء؟ والإنزال والتنزيل للملائكة والذكر حيث قال عن الملائكة ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى . . الآية﴾ (الأنعام ١١١) ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ (الأنعام ٨). كيف نفهم الإنزال والتنزيل في هذه الحالات بشكل ينسجم بعضها مع بعض وينسجم مع قوانين الحقيقة. أي يجب أن يكون بينهما رباط منطقي مع مطابقة موضوعية.

إنّ الهمزة: في اللسان العربي تعطي معنى التعدي. مثال على ذلك: بَلَّغ وَأَبْلَغَ. فلدينا مصطلحان هما البلاغ والإبلاغ. ولنأخذ الآيات التالية:

- ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ (المائدة ٩٩) (بلاغ).
- ﴿يَاأَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة ٦٧) (بلاغ).
- ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (الأعراف ٩٣) (إبلاغ).

فعملية البلاغ هي عملية نقل من شخص إلى آخر دون التأكد من أن الشخص المنقول إليه البلاغ وصله الخبر. فعندما نقول إن هناك بلاغاً من وزارة المالية إلى المواطنين في الإذاعة حول دفع الضرائب، فهذا البلاغ ينتقل إلى الناس ولكن لا يوجد أي تأكد من أن كل المواطنين المعنيين بهذا البلاغ قد وصلهم، فعندما يصل محتوى البلاغ إلى إدراك ووعي كل مواطن مقصود بهذا البلاغ يصبح إبلاغاً.

لذا فعندما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ قال ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولو قال أبلغ ما أنزل إليك من ربك، لوجب على النبي أن يتأكد من أن كل إنسان معني بهذا البلاغ قد أدرك ووعى محتويات البلاغ، وبما أنه رسول الله إلى الناس جميعاً فيجب عليه في حالة الإبلاغ أن يطوف الدنيا ويتأكد من أن كل شخص وصله البلاغ. ولأنّ هذا متعذّر كل التعذر فقد قال في حجّة الوداع: «ألا هَلْ بَلَّغت» ولم يقل ألا هل أبلغت. «اللهم فاشهد». وبما أن هوداً وصالحاً وشعيباً أرسلوا إلى أقوامهم فقط أي إلى عدد قليل من الناس وهم قوم عاد وقوم ثمود وقوم مدين فكانت عمليتهم هي عملية إبلاغ لا بلاغ، وقد تم إهلاك القوم، وإلا فكيف يُهْلَكُ أناسٌ لم يدركوا ما هو المطلوب منهم ولم يعلموا بأي رسالة. في حالة قوم صالح قال لهم

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ (الأعراف ٧٩). وفي حالة قوم شعيب قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (الأعراف ٩٣). وبالنسبة لقوم هود ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ (هود ٥٧). وقوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ (الجن ٢٨). ولم يكن مطلوباً من النبي ﷺ أكثر من البلاغ حيث أتم الآية ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة ٦٧) وقوله ﴿هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾ (ابراهيم ٥٢) وقوله ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل ٣٥) وقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل ٨٢) وقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلَى رَسُولِنا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن ١٢) وقوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ (الشورى ٤٨). فالبلاغ هو مجرد عملية نشر الخبر أو الأمر. والإبلاغ هو عملية التأكد من أن الإنسان المقصود تبليغه قد وصله البلاغ وأصبح ضمن مدركاته. ولا يثبت لمعترض أن يعترض علينا بقوله: إنّ الله سبحانه وتعالى قد قال على لسان هود: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ (الأحقاف ٢٣) وهذا تبليغ وليس إبلاغاً لأن ماضي أُبَلِّغكم: بَلَّغْتُكُمْ لا أَبْلَغْتُكُمْ» فنجيب قائلين: لقد كان هذا في بداية الدعوة لا في نهايتها.

والآن لنأخذ التنزيل والإنزال:

فالتنزيل: هو عملية نقل موضوعي خارج الوعي الإنساني.

والإنزال: هو عملية نقل المادة المنقولة خارج الوعي الإنساني، من غير المدرك إلى المدرك، أي دخلت مجال المعرفة الإنسانية.

هذا في حالة وجود إنزال وتنزيل لشيء واحد مثل القرآن والماء والملائكة والمن والسلوى. أما في حالة وجود إنزال دون تنزيل كما في حالة الحديد واللباس، فإن الإنزال هو عملية الإدراك فقط «أي المعرفة فقط».

لنأخذ الآن أمثلة عادية على الإنزال والتنزيل، وأود أن أنوه بأن المكتشفات العلمية والتكنولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين هي التي سمحت لنا بفهم الإنزال والتنزيل والجعل بهذه الدقة.

ـ المثال الأول:

مباراة حية في كرة القدم بين البرازيل والأرجنتين تجري في المكسيك. فاللاعبون الأساسيون المؤلفون من أناس أحياء من لحم وعظم ودم يلعبون في المكسيك. وهناك في دمشق شخص يريد أن يشهد هذه المباراة حية. فحتى يشهد هذا الشخص في دمشق المباراة الحية في المكسيك وتدخل ضمن إدراكه يجب القيام بعمليات على الشكل التالي:

١ ـ الوجود المادي للمباراة فعلاً قبل التكلم عن أي نقل أو ادراك.
٢ ـ التقاط المباراة صوتاً وصورة أو صوتاً فقط أو صورة فقط.
٣ ـ بث المباراة عن طريق الأمواج بواسطة الأقمار الصناعية إلى كل أنحاء الأرض بما فيها دمشق.
٤ ـ وجود جهاز تلفزيون أو راديو لاقط، يأخذ هذه الأمواج ويحولها مرة ثانية إلى صوت وصورة أو إلى صوت فقط. فعند ذلك يدرك المشاهد في دمشق ما حدث في مباراة المكسيك.

ثم هناك حالة ثانية للنقل إذا لم يكن هناك بث، وذلك بأن تسجل المباراة على شريط فيديو صوتاً وصورة أو على شريط كاسيت صوتاً فقط، وينقلها شخص إلى دمشق. في هذه الحالة يجب أن يكون في دمشق جهاز فيديو وتلفزيون أو جهاز تسجيل لكي يعيد المباراة حتى تصل إلى إدراك المشاهد في دمشق.

الآن لنناقش في هذا المثال أين الإنزال وأين التنزيل:

ـ عملية نقل المباراة الأصلية عن طريق الأمواج من المكسيك إلى دمشق هي التنزيل، لأن هذه العملية تمت خارج وعي المشاهد في دمشق، والنقل حصل مادياً خارج وعي المشاهد بواسطة الأمواج. أما عملية دخول الأمواج إلى جهاز التلفزيون ليحولها إلى صوت وصورة أي إلى حالة قابلة للإدراك من قبل المشاهد فهذا هو الإنزال.

ـ المثال الثاني:

عملية نقل واقع جبل قاسيون إلى إنسان يعيش في القاهرة عن طريق مخططات:

ـ العملية الأولى: عملية رفع جبل قاسيون إلى مخطط طبوغرافي.

ـ العملية الثانية: عملية نقل هذا المخطط إلى القاهرة ليشاهده إنسان ما.

ففي العمليــة الأولى تم النقــل المــادي إلى المخطـط بطـريقـة قابلة لإدراك الإنســان في القــاهرة. هذا المخطط مؤلف من إحداثيات ومن مقياس ١٠٠/١ مثلاً ومن خطوط تسوية «كونتور» لتبيان التضاريس التلال والوديان. فعملية نقل الجبل من الـواقـع إلى مخطـط قابل للإدراك هو الإنزال، وعملية النقل المادي للمخططات من دمشق إلى القاهرة هي التنزيل.

إذاً فهناك حالتان:

ـ الحالة الأولى: أن يتم التنزيل قبل الإنزال كما في المباراة.

ـ الحالة الثانية: أن يتم الإنزال قبل التنزيل كما في المخطط.

ولكن في هاتين الحالتين يجب أن يكون هناك وجود مسبق للشيء قبل عملية الإنزال والتنزيل. فوجود اللاعبين والمباراة في المكسيك فعلاً قد سبق عملية التنزيل والإنزال ووجود الجبل فعلاً قد سبق عملية الإنزال والتنزيل.

ولنناقش الآن حالـة الإنـزال والتنـزيـل في القرآن فقط وليس في أم الكتاب أو تفصيل الكتاب، لأن أم الكتاب وتفصيل الكتاب لهما وضع خاص:

حتى يكـون هنـاك حالة إنزال منفصلة عن التنزيل في القرآن، يجب أن يكون للقـرآن وجـود قبـل الإنـزال والتنـزيل، ومن هذا يفهم بأن أسباب النزول ليس لها أي معنى في القرآن، لأن تنزيل القرآن على النبي ﷺ هو حتمي، سئل عنه أو لم يُسأل، لذا قال عن الأشياء التي تخص مواضيع القرآن مثل الغيبيات ﴿**لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُوءكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِيْنَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**﴾ (المائدة ١٠١) ولم يقل أبداً عن الأشياء التي تخص الأحكام أو تفصيل الكتاب لا تسألوا عنها.

هنا يطرح السؤال الثاني نفسه بالضرورة:

إذا كان القـرآن موجـوداً فعـلاً قبـل الإنـزال والتنزيل، فما هو هذا الوجود وبأي

صورة كان موجودا؟ فإذا كان القرآن موجوداً بالصيغة اللسانية العربية التي نراه عليها الآن والتي نستوعبه من خلالها وهو كلام الله وآيات الله والقصص لكان الاستنتاج المباشر لذلك بأن الله عربي. وبما أن كلام الله هو عين الموجودات ونواميسها العامة. فالله مطلق وكلامه مطلق، لذا لم يقل عن نفسه إنه متكلم. إن النواميس العامة التي تحكم الوجود خزنت بشكل ما في لوح محفوظ وفي كتاب مكنون. ففي كتاب مكنون يوجد البرنامج العام للكون، وفي لوح محفوظ يوجد هذا البرنامج وهو يعمل. وفي إمام مبين توجد قوانين الطبيعة الجزئية التي يتم التصريف من خلالها وأحداث التاريخ بعد وقوعها.

فالقرآن في لوح محفوظ وفي إمام مبين هو من علم الله، وعلم الله هو أعلى أنواع علوم التجريد، وأعلى أنواع علوم التجريد هو الرياضيات لذا قال ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (الجن ٢٨) أي ان علم الله بالموجودات هو علم كمي بحت. فالإحصاء هو التعقل، والعدد هو حال الإحصاء. هذا القرآن موجود في لوح محفوظ وإمام مبين بصيغة غير قابلة للإدراك الإنساني وغير قابلة للتأويل، وبصيغة مطلقة.

فعندما أراد الله أن يعطي القرآن للناس فالمرحلة الأولى كانت تحويله إلى صيغة قابلة للإدراك الإنساني النسبي، أي جرت عملية تغيير في الصيرورة. وهذا التغيير في الصيرورة عُبِّر عنه في اللسان العربي في فعل «جعل». إذ قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف ٣) أي كان له وجود مسبق قبل أن يكون عربياً فجعله عربياً «أي غير في صيرورته» وهذا معنى الجعل.

ولكنه أيضاً قال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢) والإنزال هو نقل غير المدرك إلى المدرك. أي كان القرآن غير مدرك «غير مشهر» فأصبح مدركاً، وهذا ما جاء في الإنزال. أي أن:

- الجعل: هو التغيير في الصيرورة.
- الإنزال: هو النقل من صيغة غير مدركة إلى صيغة مدركة «الإشهار».

والآن لماذا وضع الجعل والإنزال على أنه عربي؟ أقول إن الجعل هو تغيير في الصيرورة فيمكن أن تغير صيرورة القرآن من شكل غير قابل للإدراك إلى شكل آخر غير قابل للإدراك، لذا قال ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ والإنزال هو نقل من غير المدرك إلى المدرك لذا قال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾.

ففي القرآن تلازم الجعل والإنزال أي جُعِلَ وأُنْزِل عربياً. أي أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس عين القرآن الموجود في لوح محفوظ وإمام مبين، وليست صيغته نفس الصيغة الموجودة فيهما. وإنما هو صورة قابلة للإدراك الإنساني «الإنزال» تم التغيير في صيرورتها «الجعل» حتى أصبحت مدركة، ثم وصلت إلى النبي ﷺ، مادياً عن طريق الوحي «التنزيل» والنبي ﷺ نقلها آلياً إلى الناس.

وقد تم جعل القرآن وإنزاله عربياً على دفعة واحدة. وهذا ما حصل في ليلة القدر حين قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١) وهكذا نفهم حديث النبي ﷺ أنه في ليلة القدر نزل القرآن إلى السماء الدنيا. أي اصبح قابلاً لأن يدرك من قبل الناس التي تعيش الحياة الدنيا وَأُشْهِر. وبما أنه في ليلة القدر تم إشهار القرآن، فقد قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهرٍ﴾ (القدر ٣). ولك أن تذهب بكلمة شهر إلى أنّها من الشهرة والإشهار، لا الشهر الزمني كقولك «الشهر العقاري» وهي الدائرة التي يتم فيها الإشهار القانوني الملزم للبيع والشراء. ولا يلزمك أن تفهم «الألف» على أنها عدد، بل جاءت من فعل «ألف» وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض بشكل منسجم، ومنه جاءت الألفة والتأليف. أي أن إشهار القرآن خير من كل الإشهارات الأخرى مؤلفة كلها بعضها مع بعض. وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (الدخان ٣) وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ .. الآية﴾ (البقرة ١٨٥). لاحظ في الآيات الثلاث أن فيها فعل أنزل، والإنزال تم دفعة واحدة وكان عربياً ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢).

- التنزيل: هو نقلة مادية حصلت خارج الوعي الإنساني كالنقل بالأمواج، ولكن حصلت عن طريق جبريل إلى النبي ﷺ. وهو الذي تم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً. ففي القرآن تلازم الجعل والإنزال وحصلا دفعة واحدة، وافترق التنزيل حيث جاء في ثلاثة وعشرين عاماً. لذا بعد الجعل والإنزال قال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس ١٣ - ١٦).

وبما أن القرآن له وجود مسبق وجاهز قبل التنزيل وحصول التنزيل منجماً يبرز السؤال التالي: لماذا لم يتم التنزيل «النقلة الموضوعية بعد الجعل والإنزال» دفعة واحدة؟ وكان الجواب على هذا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

وَاحِـدَةً كَذٰلِـكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـاهُ تَرْتِيـلاً﴾ (الفرقان ٣٢) ولفهم لماذا تم تنزيل القرآن على دفعات اقرأ الفصل حول الفؤاد وحول أنواع الوحي.

قد يقـول الفقهـاء إن للتنزيل في القرآن أسباباً، وأقول إن القرآن ليس له علاقة بأسبـاب النـزول لأنه كان سيأتي سُئِلَ عنه أولم يُسْأَلْ، حيث أن معظم الأسئلة كانت في أم الكتاب أوتفصيل الكتاب. ومجال حديثنا هو القرآن. أما بالنسبة للقصص فقد تم سؤال النبي ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين، ولكنّ السؤال هنا ليس له معنى لأن قصـة أهـل الكهف وذي القـرنين كانت ستأتيه على كل حال سئل أولم يسأل لأن بقية القصص جاءت كلها دون سؤال.

والآن لنطـرح السؤال التـالي: ماذا يصبـح معنى الآيـة لو قال «انـا نزلناه قرآنا عربياً» عوضاً عن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾؟ أقول: لو قال تعالى هذا لأصبح اللسان العربي ذا وجود موضوعي خارج الوعي الإنساني، أي لو ذهب العرب جميعهم لبقي اللسان العربي مادياً دون عرب، ولأصبح وجود اللسان العربي منفصلاً عن الإنسان، ولأصبـح جبـريـل عربياً. ولوجدنا في الطبيعة أن هناك في البث الإذاعي والتلفزيوني يوجد أمواج قومية مثل أمواج تركية وأخرى عربية وثالثة إنكليزية... وهكذا دواليك، ولوجدنا وجود تيار كهربائي عربي وآخر انكليزي.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل كان ممكناً أن يأتي القرآن والكتاب بطريقة أخرى غير الطريقة الصوتية «الذكر»؟ أقول: نعم، كان ممكناً أن يأتي منسوخاً. فكما قلت إن الكتـاب هو المـوضـوع، وهـذا المـوضـوع ممكن أن ينقله الإنسـان شفاهة «صـوتـاً» أو نسخـاً «خطياً». فعندما نريد أن ننسخ كتاباً شفهياً نحتاج إلى أشياء نخط عليها مثل الأحجار وجلد الغزال وورق البردي، ثم الورق العادي ثم شريط التسجيل ثم شريـط الفيـديـو، هذه الأشياء التي يتم تسجيل الكتب عليها ثم نسخها على عدة نسخ لها مصطلح في اللسان العربي وهو «القرطاس» فكما قال المتنبي:

الـخيــل والليــل والبيــداء تعــرفني والسيف والــرمـح والقـرطـاس والقلم

ولكي يبين لنا أن التنزيل حصل بلغة منطوقة لا مخطوطة، أي أن الكتاب جاء إلى النبي ﷺ بطـريقـة منطـوقـة لا مخطـوطـة قال تعـالى ﴿وَلَـوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَـاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْـدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام ٧).

فكل الكتاب جاء منطوقاً لا منسوخاً، ولو جاء منسوخاً لوجب أن ينسخ على القرطاس

فعند ذلك يمكن لمسه باليد، فالكتاب المنطوق لا يلمس باليد، والكتاب المنسوخ «في قرطاس» يلمس باليد. لذا قال ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ولاحظ قوله ﴿نَزَّلْنَا﴾ ولم يقل «أنزلنا».

السؤال الآن: هل جاء إلى أحد غير النبي ﷺ من الأنبياء شيء منسوخ «في قرطاس»؟ الجواب: نعم، لقد جاءت الوصايا العشر إلى موسى منسوخة على ألواح، أي جاءت في قرطاس وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف ١٥٤) لاحظ قوله «الألواح» بمعنى القرطاس وكيف أتبعها بقوله: «وَفِي نُسْخَتِهَا».

٢ ـ الإنزال والتنزيل للقرآن

قلنا إن إنزال القرآن حصل دفعة واحدة «أي صيغ عربياً دفعة واحدة» والذي جاء إلينا هو هذه الصياغة اللسانية بطريقة صوتية «الذكر»، لا بطريقة خطية.

فلنضرب المثال التالي للشرح: ان رئيس الولايات المتحدة هو إنسان واحد، وهو الأساس ولكن معظم أهل الأرض يعرفونه ولكن ليس عن طريق المشاهدة المباشرة، ولكن عن طريق التصوير، وهناك عدة احتمالات للتصوير «واقفاً، جالساً، ضاحكاً. .» وهناك عدة احتمالات لإخراج الصورة «أبيض وأسود، ملون» تمثال نحت من خشب أو من معدن أو صورة على ورق نحاس أو ورق صحف. ومن كل احتمال من هذه الاحتمالات يمكن سحب ملايين النسخ. وهي تصل إلى يد أي إنسان، فأي إنسان يمسك صورته يعلم أن هذا هو الرئيس الأمريكي. ولكن هل يعني أنه مس الأصل نفسه؟! فعندما جاءنا القرآن صوتياً وتلاه علينا النبي ﷺ صوتياً أيضاً، فنحن وضعناه على قرطاس، والقرطاس هو كل ما يخط عليه أو يسجل عليه، ابتداء من ألواح الطين، وورق النخل، وورق البردي وجلد الغزال، ثم ورق وحبر ثم شريط كاسيت ثم شريط فيديو، فعندما نمس الآن نسخة من المصاحف فإننا لا نمس القرآن، وإنما نمس صورة عن القرآن منسوخة بواسطة الحبر على ورق فالذي يمس مادياً هو الحبر والورق، ثم نرى آية ﴿لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ هي آية خبر لا آية أمر

ونهي، حيث «لا» هنا، نافية وليست ناهية، فإذا قلنا «لا يأكل أحمد إلا خبزاً» وشاهدناه يأكل لحماً فيصبح الخبر كاذباً. فإذا كان المطهرون في الآية ﴿لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة ٧٩) تعني أياً من الناس تقياً، أم فاجراً. والهاء في «لايمسه» تعود على نسخ المصاحف التي بين أيدينا. لو كان هذا هو المعنى وحصل غير ذلك، لأصبح الخبر كاذباً. ونرى الآن آلافاً من الناس وهم من جنب وحائض ونفساء يمسون المصاحف. فإذا كان المعنيُّ بالآية هو المصاحف، والمعنيّ بـ «المطهرون» هم غير الحائض والنفساء والجنب يصبح الخبر كاذباً.

أما المعنى الصادق فهو ما يلي:

اذا كان هناك صورة للرئيس الأمريكي وطبعت منها ملايين النسخ في الصحف فان هناك ملايين الناس يمسون صورته منهم من يحبه، ومنهم من يكرهه. ولكن هل من يحبه أو من يكرهه يمكنه أن يصل إلى الرئيس الأصل الذي يعيش في البيت الأبيض؟ إن الذي يصل إلى الرئيس الأصل هم أهله ومستشاروه وموظفو البيت الأبيض ومع ذلك فهناك عدة مليارات من الناس تعرفه بالصورة.

الآن لنأخذ الآيتين قبل هذه الآية، والآية التي بعدها:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠) قال عن القرآن إنه ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾، والمكنون هو المخبأ، ثم بعد ذلك قال ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالآية هنا تعني القرآن الأصل الموجود في الكتاب المكنون والذي أخذت صورة عنه مترجمة إلى العربية «الجعل والإنزال»، ثم جاءت هذه الصورة إلينا عن طريق جبريل «التنزيل» منطوقة لا مخطوطة. فهاهنا يكون «المطهرون» هم الملائكة المعنيين الموكل إليهم حفظ القرآن. فلا يصل إلى القرآن الأصل في الكتاب المكنون أحد من البشر، لا تقي ولا شقي ولا متطهر ولا جنب.

إن الخطأ هو الالتباس بين المطهرين والمتطهرين حيث قال عن الصلاة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة ٦) ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢). إن الذي لا يجوز على الجنب والحائض والنفساء هو الصلاة حصراً. أما مس المصحف وتلاوته خارج الصلاة، فالأمران سيان إن كان

جنباً أو متطهراً، وإن كانت المرأة في فترة الحيض أو خارجها، وإن كان متوضئاً أو غير متوضىء، علماً بأن محتويات المصحف هي القرآن والسبع المثاني وأم الكتاب وتفصيل الكتاب.

٣ ـ الإنزال والتنزيل لأم الكتاب وتفصيل الكتاب

لقد قلنا: إن الإنزال والجعل حصلا دفعة واحدة في القرآن، وافترق التنزيل حيث جاء على ثلاث وعشرين سنة، والمخزن في لوح محفوظ وامام مبين هو القرآن فقط والذي له وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل لذا أضاف فعل «جعل» للقرآن.

أما أم الكتاب التي تحوي على الحدود ومنها العبادات والمواعظ والوصايا والتعليمات وتفصيل الكتاب فليس لهما علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين أي ليست من القرآن وإنما من الكتاب. فلو كان صوم رمضان مخزناً في لوح محفوظ لأصبح من كلام الله. ولو كان مخزناً في إمام مبين لأصبح من ظواهر الطبيعة، وكلام الله نافذ وظواهر الطبيعة حقيقة موضوعية صارمة، ﴿**قوله الحق**﴾، ولصام الناس في رمضان، شاؤوا أم أبوا، وكذلك بقية مواضيع أم الكتاب.

هذا الموضوع يعتبر من أهم النقاط خطورة وتعقيداً في العقيدة الإسلامية إن لم يكن أهمها على الإطلاق. إذ أن سوء فهم هذا الموضوع، وعلى رأسه عدم التفريق بين الرسالة والنبوة وبين الكتاب والقرآن جعل من المسلمين أناساً متحجرين ضيقي الأفق، وضاع العقل نهائياً وضاع مفهوم القضاء والقدر والحرية الإنسانية ومفهوم الثواب والعقاب «المسؤولية». واعتقد أن ما كتب عن الحرية والمسؤولية الإنسانية والقضاء والقدر ونظرية الدولة والمجتمع في الأدبيات الإسلامية مسقطاً هذا الفرق، لم يكن أكثر من عبث ولف ودوران.

فلو كانت الآية ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمى**﴾ (عبس ١ ـ ٢) هي من القرآن وهم يقولون إن القرآن قديم وهو كلام الله، فهي بالتالي حقيقة صارمة مخزنة قبل حدوث الحدث، ولكانت حقيقة خارج الوعي أي ليس لها علاقة بإدراك النبي أو عدم إدراكه، ففي هذه الحالة لم يكن للنبي ﷺ أي خيار من أن يعبس أو لا يعبس.

وليس لعبد الله بن أم مكتوم وهو الأعمى المعنيّ أي خيار في أن يأتي أو لا يأتي . وفي هذه الحال شئنا أم أبينا، وبعبارة مُبَسَّطة تصبح رسالة محمد ﷺ أَشْبَهَ بممثل وتمثيلية أُخْرِجت ووُضِع لها سيناريو مسبق وقدِّمت للناس على أنها هداية لهم، ولأصبحت الحياة الإنسانية عبارة عن كوميديا إلاهية، أي أن الناس مجموعة من الصور المتحركة مبرمجة منذ الأزل في أفعالها وأقوالها، ولأصبحت هذه الحياة لهواً إلاهياً، ولأصبح مفهوم خلافة الإنسان لله في الأرض ليس أكثر من خدعة. علماً أن الله أخبرنا بغير ذلك، فالله سبحانه وتعالى لا يلهو معنا، ونحن بالنسبة لله لسنا صوراً متحركة مبرمجة مسبقاً في اختياراتها وأقوالها لذا قال ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء ١٧) «لاحظ كيف قدم جواب الشرط على الشرط لأهمية الجواب».

إن المسلمين أصبحوا في هذه الحالة من الوهن ليس لأنهم تركوا الصلاة والصوم والحج والزكاة أو لأنهم شربوا الخمر. وإنما بسبب الخلط في مسألة الحرية والقضاء والقدر والجبر والاختيار والتقرير المسبق لعمر الإنسان ورزقه وعمله. وما هو الموجود مسبقاً قبل أن يدخل في المدركات وماهو غير الموجود. ان غموض هذه النقاط بالذات هي التي تسببت لكثير من العرب والمسلمين في أن يبحثوا عن هوية أخرى غير الهوية العربية الإسلامية، ورفض الإسلام جملة وتفصيلاً علما بأن السلف قد بحثوا هذه الأمور ووضعوها ضمن أطر قد تكون مقبولة منذ مئات السنين حسب تأويلاتهم ولكن هذه الأطر غير مقبولة الآن طبقاً لتحديات ومعطيات العصر وهذا هو السبب الأساسي في دخول فلسفات غير إسلامية إلى عقر دار المسلمين.

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا عن أم الكتاب ما يلي:

١ ـ إن أم الكتاب هي مجموعة الآيات المحكمات والتي تتألف من آيات الحدود بما فيها العبادات والأخلاق والمواعظ والتعليمات المختلفة والتي في مجموعها تمثل الرسالة وهي آيات لا تحمل في طياتها التشابه. والتشابه فقط في القرآن والسبع المثاني. أي أنها لا تحمل صيغة المطلق بتاتاً، وغير قابلة للتأويل لأنها آيات لا تبصر وليس لها وجود قائم في ذاته أي وجود مشخص وهي آيات للسلوك الإنساني لا للوجود الموضوعي وهي مناط القضاء الإنساني، ففيها الرفض وفيها الإيجاب. أي أنها فرقت بين الحلال والحرام في السلوك الإنساني الواعي ولم تفرق

بين الحق والباطل «الحقيقة والوهم» في الوجود الموضوعي المطلق خارج الوعي الإنساني. لذا فإنه من الخطأ الفاحش اعتبار أم الكتاب هي فاتحة الكتاب كما يعتقد البعض، لأن هذا يناقض بنية الكتاب فإذا كانت الفاتحة هي أم الكتاب فهذا يعني بالضرورة أن كل السور من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الناس من المتشابهات وتفصيل الكتاب. ففاتحة الكتاب لا يوجد فيها أحكام، فعند ذلك تصبح أحكام الصوم والصلاة والحج والزكاة وبر الوالدين والإرث وكل ما جاء في أم الكتاب من المتشابه القابل للتأويل، علماً بأنه لا يمكن تأويله، ولوقعنا في تناقض مرعب وهو كيف نأمر الأطفال وهم في سن العاشرة بالصلاة، وأي إنسان يفهم آية الإرث وآية الوضوء، وأي إنسان يفهم أحكام الصوم ومع ذلك قال ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ٧) فتصبح أم الكتاب عبارة عن أمور خاضعة للبحث العلمي الموضوعي. فعلينا أن ننشىء معهد أبحاث الصدق، ومعهد أبحاث بر الوالدين، ومعهد أبحاث الوضوء، ومعهد أبحاث الإرث، ومعهد أبحاث الصلاة.. علماً بأن هذه الأمور تخضع للاجتهاد «الفقه».

٢ ـ بما أن محتويات أم الكتاب ليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين وليست مطلقة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً... الآية﴾ (المائدة ٤٨) فانها تخضع للتبديل والاجتهاد «والاختلاف بين أمة وأخرى وزمن وآخر» وتخضع لأسباب النزول، وقد أوحيت مباشرة من الله سبحانه وتعالى، أي ان الآية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ جاءت إلى النبي ﷺ تصحيحاً من الله عز وجل أي أنه لو لم يعبس النبي ﷺ بعبد الله بن أم مكتوم لما نزلت هذه الآية مطلقاً ولما سمعنا بها.

وهذا ما نفهمه من الأحكام المختلفة التي جاءت للرسل. فالله سبحانه وتعالى أرسل تشريعات مختلفة لرسل وأقوام لم يقصها على النبي ﷺ لأن هذه التشريعات كانت مرحلية وألغيت. وهذا ما نراه أيضاً بالنسبة لموسى وعيسى، فالله سبحانه وتعالى عندما حرم على اليهود الحوايا وما اختلط بعظم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام ١٤٦) أي أنهم لو لم يبغوا لما حرم عليهم، ثم جاء عيسى رسولاً إلى بني اسرائيل. لماذا؟! ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران ٥٠).

فمقام الرسالة كان في المسموح والممنوع وهذا هو السر الأكبر في وجود الناسخ والمنسوخ في أم الكتاب ووجود التطور في التشريع. ولذلك نُحذِّرُ من الظَّن أنه يوجد ناسخ ومنسوخ في القرآن أو في تفصيل الكتاب. ففي رسالة محمد ﷺ جاءت تعليمات وألغيت فيما بعد، أي في نفس الرسالة حصل تغيير. فجاء هذا التغيير فيما يتعلق بالسلوك الإنساني. فمثلاً قال: ﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَافِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله. الآية**﴾ (البقرة ٢٨٤). ثم نسختها الآية ﴿**لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ (البقرة ٢٨٦). لذا قال تعالى: ﴿**يَمْحُوا الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد ٣٩).

هنا نلاحظ هذين الأمرين الهامين، أولهما أن أم الكتاب فيها يمحو أو يثبت، أي فيها تغيير. والأمر الثاني أنه ليس لها علاقة بالقرآن لذا قال: ﴿**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ أي أنها من عند الله مباشرة. وعلينا أن نعلم أن هذه الآيات قابلة للتزوير وقابلة للتقليد ولا يوجد فيها أي إعجاز، بل صيغت قمة الصياغة الأدبية العربية، لذا فهي بحاجة إلى حفظ ورقابة وتصديق وكانت هذه إحدى مهمات القرآن. فالقرآن هو تصديق أم الكتاب ﴿**تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ وهو حافظ ورقيب على أم الكتاب من التزوير والإضافات والنقصان لذا جاءت آيات أم الكتاب موزعة بين آيات القرآن.

إنَّهُ من الخطأ أن نقول إن الله يخلق آياتِ أمِّ الكتاب وينزلها لأن خلق الله حق، وآيات أم الكتاب ليس لها علاقة بالحق وإنما هي «سلوك» لذا فكلمة «خَلَقَ» وكلمة «جَعَلَ» وكلمة «سَوَّى» لا تنطبق عليها. ففي أم الكتاب كان يحصل الإنزال والتنزيل دفعة واحدة. أي أن أم الكتاب ليس لها علاقة بليلة القدر ولم تخزن عربية قبل التنزيل. أي أن الإنزال والتنزيل كانا آنيين ومتلازمين.

ثم لننتبه إلى كيفية فرض الصلاة حسب الروايات إن صحت. فالله فرض الصلاة على النبي ﷺ في المعراج فقال خمسون صلاة ثم نزل إلى خمسة، إن صح هذا. فلو كانت الصلاة من القرآن لتغير القرآن، والله لا يغير القرآن من أجل أحد ولا ينسخ شيئا من القرآن من أجل أحد، لا من أجل محمد ولا عيسى ولا موسى. فمثلاً قوانين الموت هي من القرآن «الموت حق» فلو طلب محمد ﷺ من الله أن لا يموت ويخلد في هذه الدنيا لما استجاب الله سبحانه وتعالى له، ولكن يمكن أن يطلب طول العمر «الجزء المتغير» ويمكن أن يطلب المغفرة من الذنب، ويمكن أن يطلب

الشفاعة، ويمكن أن يطلب الجنة. لذا فعندما طلب النبي تخفيض الصلاة «ان صح هذا الحديث» فهذه أمور من أم الكتاب قابلة للمحو والإثبات.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد سهل على عباده وغيّر في أحكامه مع تطور التاريخ وتغيّر الشروط الموضوعية والأرضية المعرفية، وغيّر في أحكامه مع بني إسرائيل لأنهم «بغوا» ولو لم يبغوا لما جزاهم ﴿ذٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام ١٤٦). ثم غير هذا الحكم مع عيسى ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران ٥٠). فلنفهم معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد ٣٩). وهنا يكمن السر الأكبر في تسجيل الآيات المنسوخة من أم الكتاب في المصحف وذلك لننتبه إلى هذه الحقيقة.

والآن لننتقل إلى آيات الإنزال والتنزيل في أم الكتاب:

ـ الإنزال: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ (الرعد ٣٧).

ـ التنزيل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر ١) هنا ذكر التنزيل للكتاب حيث أن أم الكتاب هي جزء منه، وقد تلازم الإنزال والتنزيل في أم الكتاب وتفصيل الكتاب.

لنلخص الآن الجعل والتنزيل والإنزال:

١ ـ الجعل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف ٣) وهو للقرآن فقط.

٢ ـ الإنزال:

آ ـ للقرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢).

ب ـ لأم الكتاب: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ (الرعد ٣٧).

ج ـ للكتاب كله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ (الكهف ١). هنا ذكر الإنزال للكتاب كله لكي يشمل القرآن وأم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني.

٣ ـ التنزيل:

آ ـ القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ (الإنسان ٢٣).

ب ـ أم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني معاً جاؤ وا في تنزيل الكتاب ﴿تَنْـزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنَ اللهِ الْعَـزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر ١) (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر ٢) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجاثية ٢، الأحقاف ٢).

أما بالنسبة للسبع المثاني فقد ذكر الإنزال في الكتاب ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف ١). وذكر التنزيل على حدة في قوله ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ. الآية﴾ (الزمر ٢٣) ففي القرآن تلازم الإنزال والجعل وافترق التنزيل حيث حصل على مدى ثلاث وعشرين سنة.

وفي أم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني تلازم الإنزال والتنزيل دون جعل. أي أن أم الكتاب أُنزِلَتْ ونزلت على مدى ثلاث وعشرين سنة.

فتنزيل الكتاب كله كان على مدى ثلاث وعشرين سنة، لذا لم يخصص آية خاصة لتنزيل أم الكتاب، بل قال: ﴿تَنْـزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنَ اللهِ الْعَـزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر ١) لأن خصوصية فصل الإِنْزَالِ عن التنزيل جاءت للقرآن وحده دون بقية مواضيع الكتاب ولذا خصها وذكرها صراحة لأنها من خصوصياته.

ان ترتيب الكتاب بهذا الشكل وتداخل القرآن مع أم الكتاب واستعمال المصطلحات هو من قرار رب العالمين مباشرة وليس له أي علاقة بتخزين موضوعي مسبق، أي ليس له علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين.

أما السبع المثاني فقد حصل التنزيل فيها في قوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ. الآية﴾ (الزمر ٢٣)، أما الإنزال فقد جاء مقاطع صوتية وأعداداً مجردة، والأعداد المجردة هي علم رب العالمين المباشر ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (الجن ٢٨) لذا فيها مفاتيح الثوابت الرياضية كأعداد مجردة وفيها مفاتيح نشأة الكلام الإنساني كأصوات، وليس لها علاقة بلغة معينة عربية أو غير عربية وقد سماها ﴿أحسن الحديث﴾ وهي أكثر الآيات تشابهاً في الكتاب لذا قال عنها ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾ ولا يوجد فيها أي جعل ولا يفهمها إلا كبار علماء اللغات والرياضيات على مرّ العصور، وإلى اليوم لم يتم تأويلها، وتلازم فيها الإنزال والتنزيل.

وإني لأعجب تمام العجب كيف كانت أم الكتاب عند المفسرين في سورة

آل عمـــران هي مجمـوعـة الآيـات المحكمـات فأصبحت في سورة الـرعـد «اللوح المحفـوظ» علمـا بأن أم الكتـاب هو مصطلح، والمصطلح لا يخضع لظاهرة التشابه لأنه من عادة المصطلح أن يعرف. وقد عرفه الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران ٧).

وإني لأعجب كيف كان الكتـاب عنـد المفسـرين هو المحكم والمتشـابه في سورة آل عمـران ﴿هُـوَ الَّـذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. . . الآية﴾ (آل عمران ٧). ثم أصبح هذا الكتاب الذي جاء معرفاً في سورة فاطر «الكتاب» ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ. . الآية﴾ (فاطر ٣١).

فأصبـح هذا الكتـاب في سورة فاطـر هو اللوح المحفوظ. وأكرر أنه جاء معرفاً في الحالتين. ولو جاء منكراً في الحالتين لقلنا إن هذا كتاب، وهذا كتاب آخر. أو لو جاء معـرفـاً في حالـة ومنكراً في أخرى لقلنا: هذا غير هذا. علماً بأنه أيضاً حين قال الكتـاب معـرفـاً في آل عمـران ثم قال ﴿كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ في سورة هود، وظن المفسرون أن الكتاب المعرف في آل عمران هو نفسه الكتاب المنكر في سورة هود. مع أن معنى الكتـــاب في آل عمـران ﴿هُـوَ الَّـذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَـابِهَاتٌ﴾ هو المحكم + المتشابه + اللا محكم والـلا متشـابـه، أي الـرسـالـة والنبـوة، أم الكتـاب والقـرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتـاب، أمـا ﴿كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيـاتُـهُ﴾ في سورة هود فهـو الرسالة فقط أي الكتاب المحكم فقط. حيث جاء الكتاب منكراً فعرف بإضافة ﴿أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾ فأصبح في هذه الحـالـة الكتـاب المحكم. وإن الآية التي تبين بشكل قاطع أن الإنزال والتنزيل تلازمـا في الآيـات المحكمات هي «الآية ٢٠ في سورة محمد» ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فإذا أُنْـزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَـةٌ. . الآيـة﴾ وكمـا نعلم ان الإنزال حصل دفعـة واحـدة للقـرآن كله، فإذا كان القـرآن هو كل محتويات المصحف فكيف يقول أُنزلت سورة، ولكي يبين أن المعني بهذه الآية هو المحكم قال سورة محكمة، أي أنها سورة ليست من القرآن وذكر الإنزال والتنزيل معاً.

أم الكتاب وتفصيل الكتاب جاءا من العرش
(أي من عند الله)

لنأخذ أولاً معنى العرش: فالعرش في اللسان العربي جاء من «عرش» ولها أصلان صحيحان:

- الأول: عرش الرجل هو قِوَامُ أمره.
- الثاني: العرش هو ما يجلس عليه من يأمر وينهى. «لاحظ أن المعنى الثاني مرتبط بالأول».

فالأساس في العرش هو الأمر: فنقول إن الملك حسيناً تولى عرش الأردن، فهذا يعني أنه أصبح الآمر الناهي في الأردن. وهنا لا يقصد العرش الذي يجلس عليه. فإذا صنعنا عرشاً وكرسياً مثل العرش والكرسي الذي يجلس عليه الملك حسين في أحد بيوت دمشق فهذا لا يعني أن الذي يجلس على هذا العرش والكرسي أصبح آمراً ناهياً في الأردن.

فبالمعنى الأول جاءت لفظة العرش للأمر والنهي في الآيات:

- ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.. الآية**﴾ (هود ٧).
- ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. الآية**﴾ (الأعراف ٥٤).
- ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ (الحاقة ١٧).
- ﴿**الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ (طه ٥).
- ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾ (الإسراء ٤٢).

وفي كل مكان ورد ذكر العرش جاء بمعنى الأمر والنهي أي بالمعنى الأول ما عدا الآيات التالية في سورة يوسف وسورة النمل جاءت بمعنى المكان الذي يجلس عليه من يأمر وينهى وهي: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾ (يوسف ١٠٠)، هنا استعمل العرش لأن يوسف كان آمراً ناهياً في مصر. وقوله:

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ (النمل ٤١) وقوله ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ (النمل ٣٨) وقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ (النمل ٤٢) وقوله ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل ٢٣). هنا ذكر عرش ملكة سبأ لأنها كانت تأمر وتنهي.

ففي الآية الأولى:

بعد الانفجار الكوني الأوّل وقبل تَشَكُّلِ العناصر المادية المختلفة كان الكون كُلُّه مؤلفاً من عنصر واحد هو الهيدروجين (مولد الماء) (ماء Hydro) و(توليد gen). ففي هذه المرحلة لم يكن ثمّة مجرّات ولا كواكب ولا نجوم ولا حياة سوى الهيدروجين (مولّد الماء). وفي هذه المرحلة كان أمر الله على مولّد الماء، فقال ﴿وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء﴾ (هود ٧). وهذا هو العرش الأوّل.

وفي الآية الثانية:

بعد أن تكونت المجرات والسموات والأرض والنجوم والكواكب أصبح عرش الله «أمره» عليها فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف ٥٤) وهذا هو العرش الثاني حيث أنهى الآية بقوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٥٤). لاحظ كيف ذكر النجوم ووجود العناصر غير الهيدروجين.

وفي الآية الثالثة:

بعد أن تقوم الساعة ويتكون كون جديد بقوانين جديدة، وما الساعة إلا بداية تغير بصيرورة مادة هذا الكون لكي يتكون منها كون جديد فيه نُبعث ونُحاسب، فأمر الله «عرشه» على هذا الكون الجديد قال عنه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة ١٧) وهذا هو العرش الثالث. لاحظ قوله «يومئذ».

وفي الآية الرابعة:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ العرش هنا اسم جنس لأمر الله من قبل ومن بعد، لأنه لم يعطه أية صفة إضافية كقوله: ﴿وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ و﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ و﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾. ولا بد من الإشارة إلى أنّه ليس للعرش هنا مفهومٌ مكانيٌّ.

وفي الآية الخامسة:

إذا كان هناك عدة آلهة فلهم من يرأسهم وله الأمر والنهي عليهم لذا قال: ﴿إِذاً

﴿لَابْتَغَوْا إلى ذِيْ الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (الاسراء ٤٢) أي إلى ذي الأمر والنهي، ليكونوا آمرين ناهين مهيمنين مُسَيْطرين.

أمّا مفهوم الاستواء فلا يعني الجلوس، فأحد معاني «استوى» اللغوية هو الاستقرار والسيطرة والاستحكام كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هـذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف ١٢ - ١٣). فعندما يركب الإنسان دابّةً غير مُرَوَّضَةٍ فإنه يستطيع الركوب عليها ولكنه لا يستحكمها بحيث يستقر عليها وتخضع له تماماً يوجهها كيف يشاء، فتأمَّل مفهوم الاستواء حيث لا يقصد به الجلوس وإنما الاستحكام والسيطرة الكاملة لذا وضع أداة «إذا» قبل «استويتم» لأن الفترة الزمنية بين محاولة الإنسان تذليل الأنعام ونجاحه في تذليلها «الاستواء» كانت فترة غير قصيرة.

أما الكرسي فهو يأتي فوق العرش من ناحية المرتبة والأولويات، لا من الناحية المكانية، لأن الذي يأمر وينهي عليه أن يعلم على ماذا يأمر وينهي، فالأمر والنهي لا يتم بدون المعرفة الكاملة على ما يأمر وينهي، وهذا هو الكرسي. والكرسي جاءت في اللسان العربي من «كرس» فنقول: كرست وقتي لهذا العمل، أي أعطيته كل وقتي ومعلوماتي، وقالت العرب: العلماء كراريس، ومنها جاءت الكراسة والكرسي، والكراسة هي ما يدون عليها معلومات ما. لذا قالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة ٢٥٥) لاحظ التشابه الكبير، فالكرسي هنا من الكراسة، لا الكرسي الذي يجلس عليه الإنسان فهنا نفهم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي وسع علمه كل الموجودات وذلك لكي يأمر وينهي، وقد قال قبل هذه الفقرة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيء مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِمَا شَاء﴾ (البقرة ٢٢٥).

٤ ـ الإنزال والتنزيل للملائكة

قلنا إن الإنزال هو ما يدخل في المدركات، وإن التنزيل هو نقل موضوعي خارج الإدراك. فإذا قال الله سبحانه وتعالى «أنزل ملائكته» فهذا يعني أن الملائكة

يمكن مشاهدتها من قبل الناس وتصبح من المدركات. وإذا قال الله سبحانه وتعالى «نزَّل ملائكته» فهذا يعني أن الملائكة تأتي موضوعياً ولكن الناس لا تشاهدها ولا تدركها.

ففي المعنى الأول «الانـزال» جاءت عن قوم نوح. إذ أن نوحـاً كان أول نبي ورسـول من البشـر أوحي إليه، وكان الله يرسل إلى الناس قبل نوح ملائكة لتنذرهم، لأن البشـريـة قبـل نوح كانت قريبـة من المملكـة الحيـوانية ولا تفهم إلا المشخص المجسم «الادراك الفؤادي» ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّـةٍ إِلّا خَلا فِيهـا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ٢٤). وعندما جاء نوح وكـان النـاس قد اعتـادوا أن يُرسِلَ الله ملائكة ولا يرسل بشراً، قال له قومُهُ: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهـذا فِي آبائِنا الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤)، أي أن قوم نوح لم يصدقوا أن الله عزوجل يرسل بشراً في قوله ﴿مَانَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا.. الآيـة﴾ (هـود ٢٧) لذا قال لهم: ﴿وَلا أَقُـولُ إِنِّي مَلَكٌ.. الآيـة﴾ (هود ٣١). إنهم كذبـوا نوحـاً وكـذبـوا الـرسـل من المـلائكة التي أتت قبله لذا قال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُـرْسَلِينَ﴾ (الشعـراء ١٠٥) لاحـظ كيف جاءت «المـرسلين» بالجمع مع أن نوحاً شخص واحد. وفي هذا المقام قال ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٢٣). وقال ﴿كَـذَّبَتْ ثَمُـودُ الْمُـرْسَلِينَ﴾ (الشعـراء ١٤١). هذه الظاهرة بقيت في أذهان الناس حتى بعثة محمد ﷺ لقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود ١٢). وجاء انزال الملائكة أيضاً. ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ (الأنعام ٨) فهنا ﴿أُنْزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ﴾ أي أنهم أرادوا أن يروا الملائكة مع محمد، وتدخل الملائكة ضمن ادراكهم.

أمّـا التنـزيل للملائكة فيعني نقلة مادية موضوعية خارج الوعي الإنساني كنقل الصـوت والصـورة عن طريق الأمـواج، وكـذلـك لظاهرة تُرَى بالعين أوتسمع بالأذن ولكنهـا لا تدخـل ضمن المُدْرَكات «المعقولات الإنسانية كشق موسى للبحر والآيات البينـات الثمـاني الأُخَـر» وفي هذا المعنى قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنـاقُهُمْ لَهـا خاضِعِينَ﴾ (الشعـراء ٤). وهكـذا جاء التنزيل للملائكة كنقلة الأمـواج وهـو أن تُنَـزَّل الملائكة تنزيلاً مادياً ولكن دون أن يراها أحد ﴿تَنَزَّلُ الملائِكَةُ

والرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر ٤) أو أن تُرَى وتُسْمَع ولكن دون أن تدرك أو تعقل كقوله: **﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَاكَانُوا لِيُؤْمِنُوا به إِلاَّ أَنْ يَشَاء الله وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾** (الأنعام ١١١) وكقوله تعالى: **﴿قُلْ لَوْكَانَ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاء مَلَكاً رَسُولاً﴾** (الإسراء ٩٥).

٥ ـ الإنزال والتنزيل للمن والسلوى

لقد جاء الإنزال والتنزيل في المن والسلوى:

فالإنزال:

﴿وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالْسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة ٥٧).

﴿وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالْسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الاعراف ١٦٠).

والتنزيل جاء في قوله تعالى:

﴿يابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ والسَّلْوَى﴾ (طه ٨٠) **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ولا تَطْغَوْا فِيهِ.. الآية﴾** (طه ٨١).

فعندما قال: **﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾** دخل في مدركاتهم أن هذه للطعام لذا أتبعها دون أن يقطع الآية **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**.

وعندما قال **﴿نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾** حصلت نقلة خارج الوعي بأن جاءهم المن والسلوى دون أن يعلموا ماهي ولأي سبب لذا قطع قوله **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مَارَزَقْنَاكُمْ﴾** ووضعها في آية منفصلة وحدها. أي حصلت نقلة موضوعية للمن والسلوى خارج وعي بني إسرائيل «تنزيل» ثم أدرك بنو إسرائيل ما هو المن والسلوى وأنه للأكل ولمساعتهم «إنزال».

الإنزال والتنزيل للماء

عنـدمـا يقـول «أنزل» للماء فإنه يعطي ظاهرة قابلة للإدراك وهي من المدركات فقـولـه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الزمر ٢١) يعني أن ظاهـرة جريـان الميـاه في الأرض «الميـاه الجوفية» هي ظاهرة قابلة للإدراك الإنساني، فادرسوها يا أولي الألباب، هذا ما نسميه اليوم «الهيدرولوجيا».

وقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد ١٧). يخبرنا عن ظاهـرة لكي ندركهـا، أي نقلة من غيـر المـدرك إلى المدرك فإنه يقول لنا: إن المياه التي تنزل من السماء هي نفس المياه التي تسيل في الأودية والتي تتخزن، والمساواة بينهما كمية.

وعـنـدمـا يقـول ﴿وَيُنَـزِّلُ الْغَيْثَ﴾ (لقمـان ٣٤) فإنه يخبرنا عن نقلة موضوعية خارج الوعي الإنساني، أي أن هذه الظاهرة تحصل موضوعياً خارج إدراكنا. أي أن قرار تنـزيـل الغيث وإرسـال الـرحمـة للناس يحصل موضوعياً خارج الوعي الإنساني وكـذلـك قولـه: ﴿وَنَـزَّلْنَـا مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً مُبَـارَكـاً فَأَنْبَتْنَـا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق ٩). أي أن عملية إخراج الحياة النباتية من الماء حصلت موضوعياً قبل أن تدرك من قبل الإنسان.

هذا على قراءة نافـع وعـاصـم وابـن عامـر: ﴿وَيُـنَـزِّلُ الْـغَـيْـثَ﴾ (الشـورى ٢٨) وقـد قرأ أبـو عمـرو وابن كثير وحمزة والكسائي ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ (في المـوضعين) وعلى هذه القـراءة فيكـون الإنزال مُدْرَكاً. وعلى القراءتين فالغيث يُنَزَّل موضوعياً خارج الإدراك وهو من المدرَكات.

- الظواهر التي حصل فيها الإنزال دون التنزيل:

لقد جاء الإنزال دون التنزيل في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وفي قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً. الآية﴾ (الأعراف ٢٦).

وبمـا أنَّ الإنـزال مرتبـط بالوعي الإنساني، فإذا كانت هناك ظاهرة في الطبيعة

موجـودة موضـوعياً ولكن لا يدركها الإنسان وحصل إنزال لها فهذا يعني أنها أصبحت من المـدركـات. وهنـا يكمن التعريف الأساسي لنظرية المعرفة الإنسانية في القرآن حيث أنهـا تتلخص في الإنـزال. أي أنـه بالنسبـة للإنسـان يسبق الـوجـودُ الإدراكَ، والإنزال هو عملية إدراك الموجودات.

فالحديد موجود في الطبيعة ولكنه موجود بشكل فلزات وغير موجود بشكل حر، واستخـراجـه من الأمـور الصعبة بخلاف الذهب والفضة، وأعتقد أنه إلى اليوم هناك سؤال حير علمـاء تاريخ العلوم وهـو: كيف اكتشف الإنسـان الحـديـد بهذا الوقت المبكـر؟ لأن الحـديد من المعادن التي عرفها الإنسان قديماً، وكانت معرفة الإنسان للحـديـد نقلة نوعيـة كبيرة في حياة الإنسانية، فقد يسأل سائل: مادخل الله في حياة النـاس؟ أقـول: لقـد أعطى الله قفـزات معـرفيـة للناس في النبوات وأعطاهم قفزات تشريعية في الرسالات. فعندما قال ﴿وَأَنْزَلْنا الْحَدِيدَ﴾ (الحديد ٢٥). فهذا يعني أن الله عن طريق النبـوات عرف النـاس بالحـديـد ومنـافعـه واستخـراجه. ولم يُكْتَشف استخـراج الحـديـد بالصـدفة لذا أتبع الخواص الموجودة في الحديد في نفس الآية بقـولـه ﴿فِيـهِ بَأْسٌ شَدِيـدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد ٢٥) وهذا هو سر معرفة الإنسان للحـديـد في مرحلة مبكرة، وإني لا أدري لولا قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنا الْحَدِيدَ﴾ هل كنا نركب السيارات ونشيد الأبنية العالية والمصانع في الوقت الحاضر. لاحظوا هنا كيف تدخل الله سبحانه وتعالى وأعطى قفزة معرفية للناس. ولاحظوا أيضاً أنه لم يقل وأنزلنا النحـاس أو أنـزلنـا الـذهب أو أنزلنا النار لأن الإنسان اكتشف النحاس والذهب والنار دون نبوات. ولو قال ونَزَّلْنا الحديد فهذا يعني أن الحديد كان خارج الأرض ونقله الله إلى الأرض، أي أن الحديد انتقل موضوعياً إلى الأرض من مكان ما كقوله ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾.

أما قوله ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ (الأعراف ٢٦) فهذا يعني أن الإنسان عندما كان في المملكة الحيوانية بشراً كان عارياً لا يعرف اللباس، ثم عرف بعد ذلك الغطاء «السرابيل» غيرَ مَخِيطٍ ودون مِخْيَطٍ. فمن علم الإنسان ربط قطعـة جلد بقطعـة أخـرى عن طريق المخيط؟! الجواب: إن الله أعطى قفزة للناس بأن علمهم هذه الظاهرة عن طريق النبوات.

أمـا الـريش فجـاءت من فعـل «ريش» وهي كثرة المال «النقد» ويقابلها باللغة

الانكليزية (RICH) . فهنا نقول: من علم الإنسان ظاهرة التجريد الاقتصادي في تبادل السلع؟ لقد قام الاقتصاد على تبادل السلع على مبدأ المقايضة أولاً، فلكي تنتقل هذه العملية من المشخص إلى المجرد وجب أن يكون هناك وحدة قياس للسلعة وهذا ما يسمى بالنقد. وهي عملية تجريد بحتة لتبادل السلع. فهنا نقول مرة أخرى إن الله سبحانه وتعالى علمهم إياها عن طريق النبوات وأعطى الناس دفعة إلى الأمام.

ـ حالة طلب فيها العرب الإنزال دون التنزيل، وحالة طلبوا فيها التنزيل دون الإنزال:

لقد طلب العرب الإنزال دون التنزيل من النبي ﷺ بقوله تعالى في سورة هود الآية ١٢. ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ فالعرب لم يطلبوا من محمد ﷺ أن ينزل كنز كما ينزل المطر من السماء، ولكن طلبوا أن يوحي الله إلى النبي ﷺ عن مكان كنز مخبأ في الأرض ولا يعرف أحد مكانه فيدلهم عليه.

أما الحالة التي طلبوا فيها التنزيل دون الإنزال، ففي سورة الإسراء الآية ٩٣ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ هنا طلب العرب من النبي ﷺ أن يرقى إلى السماء ويأتيهم بكتاب بشكل مادي يرونه بأعينهم، أي أنهم طلبوا أن يأتي الكتاب من السماء منسوخاً على قرطاس ويلمس باليد مادياً كقوله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام ٧).

٦ ـ الإنزال والتنزيل لمائدة من السماء

لنرى الآيات التالية في سورة المائدة:

ـ ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ

السَّماء قَالَ اتَّقُوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة ١١٢).

- ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيها مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة ١١٣).
- ﴿قَالَ عِيسى بْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. (المائدة ١١٤).
- ﴿قَالَ الله إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ الْعالمِينَ﴾ (المائدة ١١٥).

ولنلاحظ ما يلي:

١ ـ لقد طلب الحواريون من عيسى بن مريم تنزيلَ مائدةٍ من السماء، أي طلبوا مائدة مادية ليأكلوا منها مادياً تنزل عليهم موضوعياً كسقوط التفاحة من الشجرة إلى الأرض أو كسقوط الغيث، وكان هذا طلباً كبيراً، لذا قال: ﴿اتَّقُوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وكان هذا الطلب هو «تنزيلاً».

٢ ـ كان طلب الحواريين لوجود شك عندهم من أقوال المسيح إذ قالوا ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا﴾.

٣ ـ لقد طلب المسيح من الله سبحانه وتعالى إنزالاً بشأن المائدة، أي طلب الوحي بشأن المائدة لأن المسيح كان لا يشك مطلقاً بصدق الله معه، وهو شخصياً ليس بحاجة إلى أي بينة مادية من الله.

٤ ـ لقد استجاب الله لطلب الحواريين فقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ﴾ «تنزيل» فجاءتهم مائدة مادية من السماء دون أي وحي بشأنها لذا قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِيْنَ﴾، هذا على قراءة نافع وابن عامرِ وعاصم ﴿إِنِّي مُنَـزِّلُهـا﴾. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي ﴿إِنِّي مُنْزِلُها﴾ «إنزال» فيكون المعنى على هذه القراءة أنّ الله سبحانه وتعالى استجاب لطلب عيسى عليه السلام فكان الإنزالُ بأن أوحى إليه وحياً بأمرها. غير أنّ تواتر الأخبار يفيد أنها تَنَزَّلَت بصورة ماديّة «العشاء الرباني». وهذا ما يرجّحُ قراءة نافع وابن عامر وعاصم.

ويحسن بي هنا أن أختم هذا الفصل بالوقوف على شرح قوله تعالى: ﴿لَوْ

أَنْـزَلْنَـا هَـٰذَا الْقُـرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِعَـاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر ٢١).

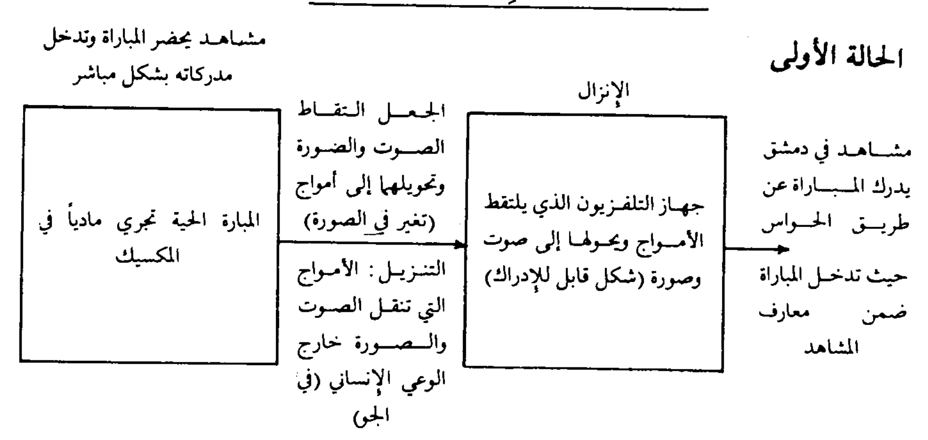
بما أن محتويات القرآن كلّها علوم الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية، فلو أنـزل هذا القـرآن على جبـل «أي دخـل في مدركـات الجبل» لأصبح الجبل عالماً، وبالتالي خاشعاً متصدعاً من خشية الله، والخشية هي الخوف عن إدراك. حيث قال ﴿كَـذٰلِـكَ إِنَّمـا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨) ولو قال لو نزلنا هذا القرآن على جبـل فهـذا يعني أنـه وضع القرآن مادياً على الجبل «كتاباً منسوخاً في قرطاس» وينطبق على الجبـل قولـه تعـالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمَـارِ يَحْمِـلُ أَسْفَـاراً﴾ (الجمعـة ٥)، فعنـدمـا يحمـل الحمـار أسفـاراً «كتباً في قرطاس» فيها معلومات لا يفهمها يبقى حماراً، أمّا إذا فهمها ودخلت ضمن مدركاته فلن يبقى حماراً. وكذلك الجبل إذا جاءه القرآن واستوعبه أصبح عالما «الإنزال» وإذا جاءه ماديـاً ولم يستـوعبـه يبقى جبـلاً كما هو «تنزيل فقط» ولذا قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ (الحشر ٢١).

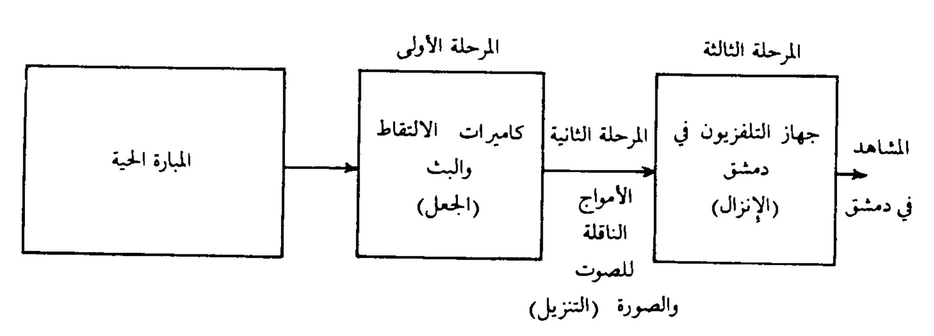
بعـد هذا التفصيـل نتـوقّـع أن يَرِد السؤال التـالي: هل فهم السَّلَفُ الإنـزالَ والتنزيل بهذا الفهم؟ وان لم يكونوا فهموه كذلك فهل ذلك ضائرهم؟

وأجيب: لو فهمـوه هكـذا لكان الأمر عجباً ولكانت النتائج أعجب، لقد غاب عنهم هذا الفهم لأنّ أرضيتهم العلمية لم تكن تعينهم عليه إلاّ أننا لا ننكر أنّ بعضهم حام حولـه دون أن يقـع عليـه، فقـد حكى سيبـويه أنّ أبا عمروٍ كان يفرّق بين أنزلْتُ ونَـزّلْتُ، ولم يذكـر الفـرق «لسـان العرب ن زل» وعلى كل حالٍ فالقرآن صالح لكل زمـان ومكـان ويفهمـه كل قوم وفقـاً لأرضيتهم المعـرفيـة وإنّما أعاننا على هذا الفهم معـارف النصف الثـاني من القرن العشرين، وأمّا هم فلا ضير عليهم بشرط أن نكون مقتنعين فعلاً وقولاً بأنّه معجزٌ.

مخطط عملية الإنزال والتنزيل

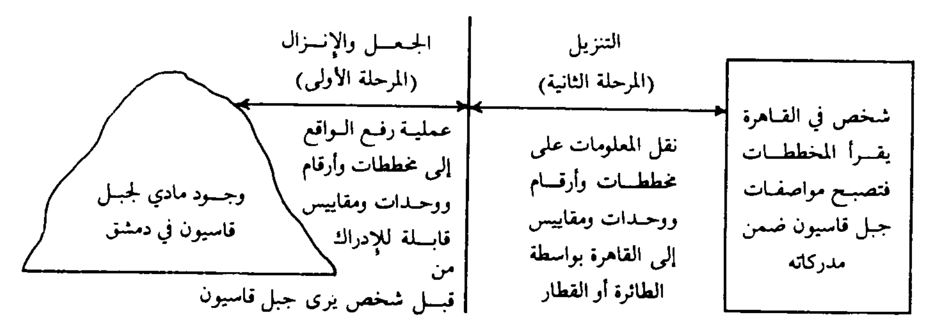
الحالة الأولى



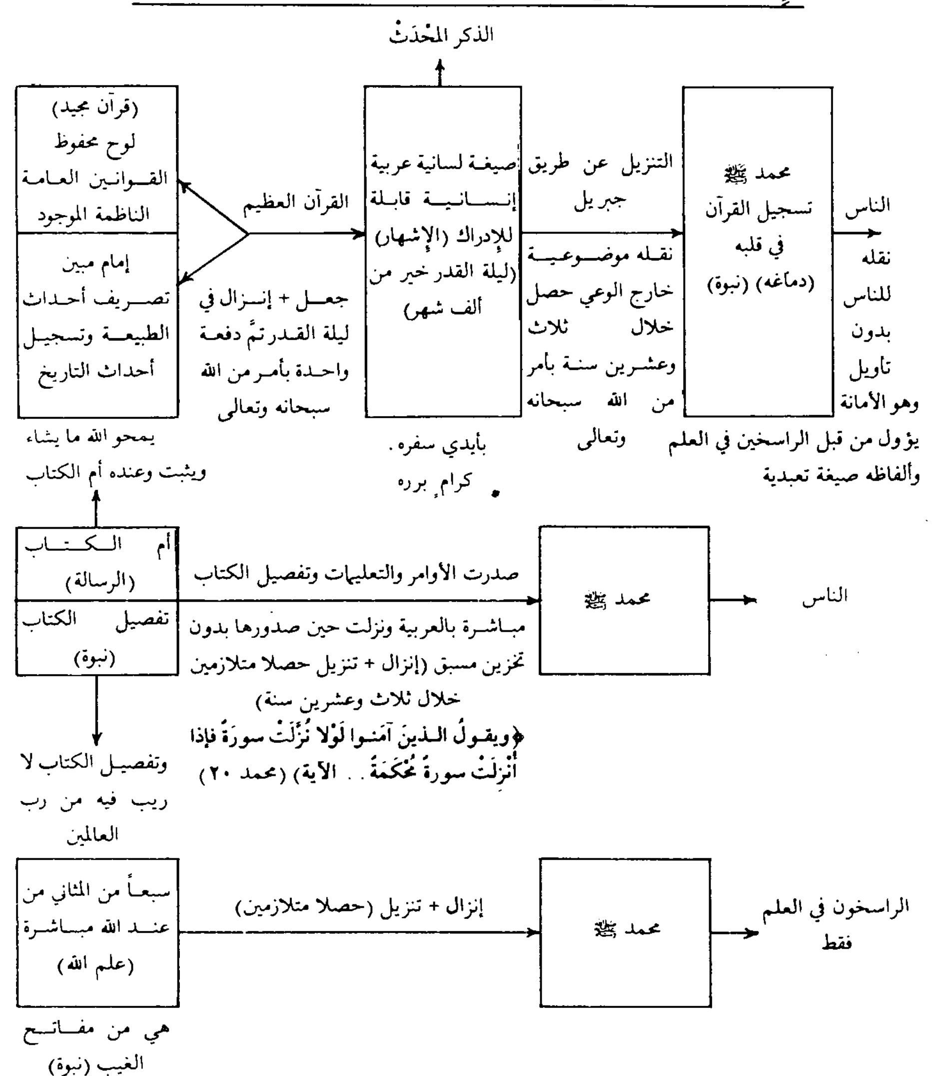


في هذه الحالة لدينا الترتيب التالي وجود مادي للمباراة - جعل - تنزيل - إنزال

الحالة الثانية



الإنزال والتنزيل للكتاب الموحى إلى مُحمَّد ﷺ



وبما أن الذكر هو الصيغة الصوتية للكتاب كله وهي الصيغة التعبدية فقد أجمل الإنزال والتنزيل فيه بقوله ﴿وأنزَلنا إليْكَ الذِكرَ لِتُبيِّنَ لِلناسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ﴾ (النحل ٤٤).

وأجمل التنزيل بقول ﴿إنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحافِظونْ﴾ (الحجر ٩).

وبما أن الكتاب هو مجموعة المواضيع الموجودة بين دفتي المصحف وهي الذكر من حيث اللفظ فقط فقد أجمل الإنزال فيه بقوله ﴿الحَمْدُ لله الذي أنزَل على عَبدِهِ الكتابَ ولم يَجْعل لهُ عوجاً﴾ (الكهف ١).

وأجمل التنزيل فيه بقوله ﴿تنزيل الكتابِ مِنَ الله العزيزُ العَليمْ﴾ (غافر ٢).

مثال على الإنزال دون التنزيل في تفاحة نيوتن



فالمعرفة الإنسانية هي في الإنزال وتتمثل في إدراك الأشياء ونواميسها التي تعمل خارج الوعي وفي إدراك ماهو المطلوب في الأوامر والتشريعات.

الفصل الرابع
إعجاز القرآن وتأويله

١ ـ التحذير من كتابة الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله، والتحدي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.
٢ ـ السحر والمعجزات.
٣ ـ القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ الخالدة.
٤ ـ قواعد التأويل.
٥ ـ نموذج من التأويل ـ تأويل سورة القدر.
٦ ـ استنتاجات في الإعجاز القرآني.



١ ـ التحـذيـر من كتابة الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله، والتحدي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن

إن بداية القول في إعجاز القرآن تأتي من موازنة الآيتين التاليتين وهما:

- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة ٧٩).
- ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء ٨٨).

ففي الآيـة الأولى يحـذر الله النـاس أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولوا هذا من عند الله. وفي الآية الثانية يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

هنا لنناقش الأمور التالية:

١ ـ إذا كان المقصـود بالكتـابـة الخـط، والخط يكون باليد ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، فهذا يعني أن المقصود في هذه الآية هم كتبة الوحي فقد خطوا الكتاب وقالوا هذا من عند الله وبالتالي فالويل كل الويل لكتبة الوحي.

٢ ـ أمّا إذا كان المقصود بالكتابة إضافة أحكام فقط إلى الكتاب.

وحصـل مثـل هذا الأمـر فعلاً عند اليهود حيث أضافوا اجتهادات أحبارهم إلى الكتاب، وقد شرحنا أن الكتاب عند موسى وعيسى هو التشريع فقط «الرسالة» وهذا أمر ممكن الوقوع فيه وغير مستحيل لذا تم التحذير منه فعلاً.

٢ ـإذا كان الكتاب هو القرآن كما يعتقد الناس فكيف يحذرهم مرة ويتحداهم مرة أخـرى؟ «هـذا تنـاقض كبير جداً»، ولكن إذا كان التحذير لشيء والتحدي لشيء آخر توضع الأمور في نصابها، حيث أن التحذير للتشريع «الرسالة» والتحدي للقرآن «النبـوة». فالله سبحـانه وتعالى يحذر الناس من أمر لا يعجزون عنه، ويتحداهم بأمر يعجزون عنه. هكذا فقط يجب أن نفهم التحذير من أمر غير معجز والتحدي لأمر معجز.

لنبحث الآن في التحذير والتحدي، كلٍّ على حده:

آ ـ **التحذير**: لقد جاء التحذير من كتابة الكتاب ونسبة الكتاب إلى الله. **فحتى توضع** الأمور في نصابها نفهم هذا التحذير كالتالي:

١ ـ إن الأحكام من الكتاب وليست من القرآن وهي الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى ولا يوجد فيها أي إعجاز، فلا يجوز للإنسان أن يسن تشريعاً مثل قانون السير أو قانون الجامعات أو قانون الجمارك ثم ينسب هذا التشريع إلى الله وهذا ما يؤكد أنه لا يوجد حق لأحد في أن يصدر أحكاماً ويعطيها صفة الألوهية وإنما هي فقط اجتهاد متطور حسب الظروف الموضوعية التاريخية له الصفة الحنيفية غير الثابتة هدفه اليسر لا العسر. وقد جاء هذا التحذير حيث أن اليهود مارسوا هذا النوع من التزوير في الأحكام «الكتاب» لذا قال ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾.

٢ ـ لا يجوز أن تدمج اجتهادات النبي ﷺ واجتهادات الفقهاء في الكتاب وجعلها جزءاً منه.

٣ ـ لا يجوز تغيير ترتيب آيات الكتاب من حيث الترتيب والعدد التي وردت فيه فمثلاً جاءت الوصايا في سورة الأنعام تحت رقم ١٥١ ـ ١٥٢، ١٥٣، فلا يجوز وضعها في سورة أخرى أو في مكان آخر في نفس السورة.

٤ ـ لا يجوز وضع تأويل الآيات بالنسبة للقرآن والفقه في الأحكام بديلاً للنص بالإلزام حيث أن التأويل دائماً يحمل مفهوم النسبية في المعرفة والفقه يحمل مفهوم الضرورة المرحلية الحنيفية.

لنسأل الآن: هل هناك تحذيرات أخرى حذر رب العالمين الناس من القيام بها وهي ضمن إمكانياتهم؟ الجواب: نعم هناك تحذيران خطيران جداً وهما:

ـ **التحذير الأول**: عندما يؤول القرآن وهو الآيات المتشابهات فيمكن أن يستنتج من هذا التأويل نظريات فلسفية وحقائق علمية موضوعية تفيد الناس جميعهم «كل الناس» وليس المؤمنين فقط. هذه الاستنتاجات يتحقق منها فوائد علمية وعملية للناس وهذا التأويل يحصل من بعد نزول القرآن لا حين نزوله أي أن هذا التأويل سيحصل بعد النبي لا في عهده. فقد حذرنا الله تحذيراً شديداً من كتمان هذه الحقائق والنظريات وما ينتج عنها من فوائد علمية وعملية وقد ورد هذا التحذير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ**

﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ (البقرة ١٥٩) لاحظ قوله «البينات» ويقصد بها الآيات البينات لذا قال «في الكتاب» حيث أنه في الكتاب يوجد آيات أخرى غير الآيات البينات وهي آيات الرسالة. هذه الظاهرة حصلت في تاريخنا عند المتصوفة في مراتب المعرفة في قولهم القطب الفلاني والعالم الرباني قدس الله سره. فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: أية أسرار هذه؟ فهناك احتمالان: الأول أن يكون عندهم فعلاً أسرار وكتموها فبذلك يكونون قد دخلوا تحت بند يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. والاحتمال الثاني وهو الأرجح أنه لا يوجد أي أسرار لديهم وهذه الأسرار ليست أكثر من وهم وخرافة. وبهذه الحالة الوهم والخرافة لا يحملان أي قدسية. ثم إن هؤلاء العلماء الربانيين ماذا قدموا للناس وبأي شيء أفادوا الناس؟ الجواب: لا شيء سوى الوهم. أما العلماء الربانيون الحقيقيون فقد قدموا للناس البنج والمحرك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال والمراكب البحرية والحاسبات الإلكترونية وكل ما تنعم به الإنسانية من نِعَم من نتاج هؤلاء العلماء الربانيين، ولكن هؤلاء العلماء نشروا معارفهم للناس واستفاد كل الناس منها عملياً وعلمياً ولم يكتموها عن أحد لذلك لا ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿يَلْعَنُهُمْ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾. وهؤلاء العلماء الربانيون الحقيقيون هم من الخاصة ولكن لم يقولوا: إن هذه المعلومات هي للخاصة فقط، بل أسسوا الجامعات ونشروها بين الناس، وهي متوفرة لمن أرادها، ويكفي أن يكون عند العامة رغبة في التعلم ليتعلموها لأنها منشورة في الكتب والصحف والجامعات، والحصول عليها يحتاج إلى أن يفتح الإنسان عينيه وعقله لا أن يغمضهما ويقول «الله، الله، الله» لتشرق عليه الأنوار الربانية.

- **التحذير الثاني**: جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ الله مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٧٤). فإذا كان التحذير الأول جاء حول كتمان الآيات البينات من الذين يفهمونها لقوله «ما أنزلنا» والإنزال هو من المدركات فإن التحذير الثاني هو لبقية الآيات التي هي آيات الأحكام والمواعظ والوصايا، أي أن الذين يستنبطون من هذه الآيات أحكاماً يجب عليهم أن يظهروها للناس ولا يكتموها. هذه الآية تبين للمسلمين وجوب وجود منابر فقهية حرة عندهم

وعدم التقيد بفقه مذهب من المذاهب بعينه. والفقه هو ظاهرة متطورة مستمرة، وأول من بدأ بالفقه وبالاجتهاد هو النبي ﷺ وفقهه واجتهاده هو ما نسميه بالسنة النبوية. حيث أن التقيد بمذهب من المذاهب الفقهية ما هو إلا استبدال المذهب بالنص الأصلي حيث أصبح المذهب الفقهي فيما بعد هو الأساس الذي اختفى النص وراءه. وأصبح الفقه في شرح المذهب لا في شرح النص. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت الآية لتحذير الفقهاء من فتاوي التبرير، حيث أنهم يفتون لتبرير سلوك ما لشخص ما، بحيث أنهم يظهرون أن هذا السلوك هو عين الإسلام مع أن الإسلام خلاف ذلك، وهم يعلمون ذلك وما أكثرهم في تاريخنا حيث ان هذا التبرير يكون لشخص يتصف بالغنى أو السلطة أو كليهما، إنّ المهضوم حقه هو الضعيف والفقير فهل هذا من باب الصدفة أو أن النص التشريعي أو القانون هو مع القوي والغني؟؟

ب ـ التحدي: (الإعجاز).

بعد أن أنهينا التحذير نأتي إلى التحدي. ففي القرآن أكثر من آية تتحدث عن التحدي وهذه الآيات هي:

- ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء ٨٨).
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس ٣٨).
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ١٣).
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ٢٣).

٢ ـ السحر والمعجزات

بما أنَّ الإنسان ظهر في هذا الكون بعد وجود الكون والشمس والقمر والكواكب والنجوم وقوانين الطبيعة التي تدخل كلها في عالم المحسوس «عالم الحقيقة» فالحق في القرآن يقسم إلى قسمين: القسم الأول وهو الله ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (لقمان ٣٠). والقسم الثاني هو «الموجودات، العالم المادي الموضوعي» وهو عين كلام الله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاّ بِالْحَقِّ﴾ «الأحقاف ٣». فالله والعالم الموضوعي كلاهما حق وموجود خارج الوعي الإنساني، ووجودهما سابق لوجود الإنسان، والمعرفة الإنسانية هي معرفة الله من خلال كلماته «الموجودات». إن معرفة هذا الوجود الحقيقي لله ومعرفة الموجودات التي تؤدي إلى معرفة وجود الله خارج الوعي الإنساني هي التي أخذت طابع التطور. فكلما تقدمت المعارف الإنسانية زادت معرفة الناس بالموجودات، وبالتالي زادت معرفتهم بالله. والقفزات المعرفية التي جاءت من الله للإنسان في النبوات إنما جاءت لهذا الغرض، وهذا قدر من الله قدره على الإنسان سلفاً، وهو الخروج والابتعاد عن المملكة الحيوانية، فالإنسان عندما وجد على الأرض كان بهيمياً ثم تأنسن، وفي بداية الأنسنة كان بدائياً، فنظر إلى عالم المحسوس الشمس والقمر والأنهار والبرق والرعد وبقية ظواهر الطبيعة التي لها علاقة مباشرة معه ولكنه كان عاجزاً عن أن يعقل هذه الظواهر، بحيث تدخل في عالم المعقول «أي معقولاته»، ولم يستطع أن يضع لها تفسيراً معقولاً، وأثناء هذه المحاولة اختلط عليه الأمر ووقع بالرجس الوثني واتخذها آلهة وبهذا بدأت عبادة مظاهر الطبيعة، وهذا ما عبر عنه في قصة نوح حيث كان قوم نوح يعبدون ظواهر الطبيعة ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ (نوح ١٥ ـ ١٦) انظر الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا الكتاب. وهذا هو السبب الأساسي في ظهور الأسطورة والخرافة عند كل الشعوب قاطبة وهو المحاولة الخاطئة لتطابق المحسوس مع المعقول أو عقلنة المحسوس. ومع تقدم الزمن وتطور المعارف، أدرك الإنسان أن هناك صفات مختلفة في الطبيعة، مثل الحرارة والبرودة والمطر والفيضان والجفاف، وصفات مختلفة عند

الإنسان مثل الخير والشر والبخل والكرم، أي انه عندما ازداد تمييز الإنسان للأشياء بصفاتها المختلفة لم يستطع أن يدرك أن الصانع واحد، ولم يدرك وحدة الناموس الكوني، فأراد أن يعقلها وذلك بأن ردها إلى آلهة مختلفة الصفات «السمات»، فهناك إلاه المطر وإلاه الجفاف وإلاه المحاصيل وإلاه الخير للنفع وإلاه الشر للضرر والسوء، وهذه المرحلة كانت واضحة في قوم هود بقوله تعالى ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ (الأعراف ٧١). والأسماء من السمات وقوله: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ﴾ (هود ٥٤) فقولهم بعض آلهتنا بسوء تعني بالضرورة أنّ هناك إلاهاً للخير وآخر للشر أي ظهر التمييز «الأسماء» (فسبب ظهور الخرافة هو عدم القدرة على مطابقة المحسوس بالمعقول) وعلى هذا الخطأ لم يؤاخذ الله عباده، بل أرسل إليهم رسلاً منذرين لهم لتصحيح هذا الخطأ وذلك بقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (الشعراء ٢٠٨) وقوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء ١٥). وكانت هذه الإنذارات تأتي حسب مدركات ومستويات الإدراك لأهل هذه القرى.

متى يقول إنسان ما عن شيء إنه سحر؟ لنضرب المثال التالي:

إذا أخذ شخص ما صندوقاً خشبياً ووضع بداخله رجلاً ما بحيث يساوي طول الرجل طولَ الصندوق ثم نشر الصندوق نصفين ورأينا أن الرجل داخل الصندوق لم يمسه أي أذى فنقول عن هذا الإنسان إنه ساحر. قلنا عنه إنه ساحر لأننا لم نستطع أن ندرك «نعقل» كيف نجا الرجل داخل الصندوق. ولكن العملية بالنسبة للرجل الذي قام بعملية النشر أو بالنسبة للرجل الذي كان بداخل الصندوق لا تعتبر سحراً لأنهما يعرفان كيف تمت عملية نشر الصندوق دون إلحاق الأذى بالرجل الذي كان بداخل الصندوق.

فكل شيء يمكن أن يراه الإنسان في عالم المحسوسات ولا يدخل ضمن مستوى معقولاته يصفه بأنه سحر. ومن هنا قال العرب عن القرآن إنه سحر لأنهم سمعوه مادياً ولم يستطيعوا أن يعقلوه حسب معارف وقتهم فقالوا هذا سحر ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٧). وفي هذا قال فرعون وقومه عن موسى عندما جاءهم بتسع آيات بينات، وهي العصا واليد وضرب البحر، كل هذه البينات شاهدها الناس حسياً، أي

شاهـدوا العصـا واليـد وشق البحر والجراد والقمل والضفادع والطوفان والدم والرجز، شاهـدوهـا ضمن عالم المحسـوس ولم يدركوا كيف حدثت هذه الآيات، ولم تدخل ضمن معقـولاتهم، لذا قالـوا عن موسى إنـه ساحـر، ولكن سحـرة فرعـون أنفسهم يدركون معنى السحر في ذلك الوقت، ولما رأوا سحر موسى أدركوا أن هذا أعلى من معقولاتهم هم عن السحر فآمنوا وكان إيمانهم واقعياً تماماً بقولهم ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (طه ٧٠).

وهكـذا يمكن لنـا أن نعـرف المعجـزات للأنبيـاء بما يلي: المعجزة عند كل الأنبيـاء قبـل محمـد ﷺ هي تقـدم في عالم المحسـوس «ظـاهـرة طبيعية» عن عالم المعقول السائد وقت المعجزة «كشق البحر» ولكنها ليست بحال من الأحوال خروجاً عن قوانين الطبيعـة أوخرقـاً لهـا لقوله تعالى: ﴿وَمَاكَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ (الـرعـد ٣٨) ودائماً يدخل الاذن ضمن قوانين الطبيعة الصارمة.. أي هي عبارة عن قفزة زمنية إلى الأمام في تطويع قوانين الطبيعة. ولرُبَّ سائل يسأل: ألا يُعدُّ إحياء المسيح للموتى خرقاً لقانون الطبيعة؟ أقول: لا ليس بخرق، لأنه يوم القيامة سيبعث الناس جميعاً وهم في عداد الأموات، فما عملية إحياء المسيح للميت إلا قفزة زمنية ترينـا إمكـانية إحياء الموتى مادياً وهو الذي سيحصل يوم البعث. وكذلك نار إبراهيم عليـه السـلام فهـذا يعني أن النار تحوي صفتين متضادتين في آنٍ واحد وهما الحرق وعدم الحرق، فالصفة الأولى لنا والصفة الثانية جاءت لإبراهيم.

٣ ـ القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ الخالدة

لقـد جاءت كل معجـزات الأنبيـاء قبـل محمـد ﷺ ماديـة بحيث أن عالم المحسوس «الظاهرة الطبيعية للمعجزة» سبق عالم المعقول إمّا بفترة زمنية قصيرة، أو فتـرة زمنيـة طويلة الأمـد. وذلـك لأن الإنسان في مراحل تطوره كان عالم المحسوس المبـاشـر عنـده أهم من عالم المعقـولات أي أن المحسـوسـات سبقت المجـردات المعقـولات. وهـذا هو التطـور الطبيعي التـاريخي للمعـرفـة الإنسـانية لأن المعرفة الإنسـانيـة تبـدأ بالإدراك الفؤادي المشخص بحاستي السمع والبصر، ثم تنتقل إلى

المجردات. أما بالنسبة للنبي ﷺ فقد كانت معجزة نبوته هي القرآن نفسه أي أن القرآن هو التصديق، وهو النبوة معاً، ولم تأته النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض كما كانت بالنسبة لكل الأنبياء النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض.

لقد شكّل القرآن من الكتاب معظمه، وبما أن محمد ﷺ خاتم الأنبياء فيجب أن تبقى معجزته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح، فكانت معجزته معاكسة تماماً لمعجزات بقية الأنبياء، وذلك لأنّ:

١ ـ نبوة محمد ﷺ التي هي القرآن والسبع المثاني سبق فيها الطرح المعقول عن المدرك من المحسوس بصياغة متشابهة. فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر «أي مطابقة المدرك من المحسوس مع النص»: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت ٥٣) ﴿**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنعام ٦٧) ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ. . الآية**﴾ (يونس ٣٩) وهذا هو السبب الثاني في أنه سمي قرآناً من الاستقراء حيث أن السبب الأول هو المقارنة وهو قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ. لقد قال تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (الأنبياء ٣٠) وعرفنا الآن أن في الكون كله لا يمكن أن يوجد مظهر من مظاهر الحياة دون وجود الماء «الرطوبة» وقال: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٣) والفلك في اللسان العربي هو الاستدارة كقولنا «فلك ثديا الفتاة» أي استدارا، فكل شيء في هذا الكون من أصغر الجزيئات الى أكبرها يتحرك ضمن أفلاك أي حركة غير مستقيمة «منحنية». هذا ما عرفناه الآن ووصفه القرآن قبل أربعة عشر قرناً في عالم المعقولات، والآن أصبح في عالم المحسوسات والمعقولات معاً. ثم إنه قال: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الذاريات ٤٩) وقال ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**﴾ (يس ٣٦) لقد قال منذ أربعة عشر قرناً ووضع في عالم المعقولات أن هذا الكون قائم كله على الأزواج «قانون الزوجية» في كل شيء مطلقاً، في الذي نعرفه والذي لا نعرفه، وقد حذرنا من أن ننسى هذه الحقيقة

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ثم إنه وضع لنا في عالم المعقولات قوانين جدل المتناقضات والأزواج والأضداد. ولهذا سميت آيات النبوة قرآنا من الاستقراء، فمن القرآن نستقرىء النظريات العلمية المادية والتاريخية بالإضافة إلى أنه قرن الحقيقة الموضوعية المادية مع الحقيقة التاريخية. والآن أريد أن أوجه سؤالاً: هل هذا الكلام هو من أساطير الأولين أو من أساطير الآخرين؟؟!

قد يقول قائلٌ: إنّ السادة المفسرين وعلماء المسلمين لم يشرحوه هكذا وأقول: هنا يظهر الوجه الثاني من إعجاز القرآن هو:

٢ ـ لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود بحيث تفهم فهماً نسبياً حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يُحاوَل فهم القرآن فيه. فهو قد حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي لهذه الحقيقة بآن واحد، وهذا لا يمكن لإنسان أياً كان أن يفعله. فالمطلق عبر عنه مادياً في الصيغة اللغوية المحدثة «الذكر»، والنسبي جاء في المحتوى المتحرك في التأويل وهذا ما نسميه بخاصية التشابه. فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذي عاش فيه ابن كثير فما علينا إلاّ أن نقرأ تفسيره وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة فما علينا إلا أن نتتبع تفسيراتهم وعلى رأسهم ابن عباس. فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن لا المعرفة المطلقة، وهذا هو سر الإعجاز الأكبر في القرآن وهو «التشابه».

٣ ـ أمّا الوجه الثالث من أوجه الإعجاز فهو أننا نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللغوية هما الصياغة العلمية الموضوعية كصياغة إسحاق نيوتن وآلبرت انشتاين وابن الهيثم لنظرياتهم، وهناك الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وانشتاين وابن سينا وابن الهيثم صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين وشكسبير دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن تكون على حسابها؟ إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة وهذا هو الوجه الثالث من الإعجاز. إن كل ما كتب عن إعجاز القرآن عند السلف إنّما يتعلق بالجزء الأدبي من الوجه الثالث للإعجاز أقول إنه لو كان الإعجاز فقط أدبياً، وافترضنا أنه لا يمكن تقليد صياغة القرآن من الناحية الأدبية الفنية فهذا يعني أن الإعجاز واقع على العرب

فقط دون غيرهم لأن الصياغة القرآنية جاءت بلسان العرب. والقرآن نفسه يقول: إنه لو كان المقصود بالإعجاز الصياغة فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من الناحية الصنعية فقط وهذا ما جاء في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ١٣). في هذه الآية جاء النوع الأول من التحدي وهو أن يكون الموضوع غير قرآني والصياغة قرآنية. وهذا ما سماه بالافتراء، ففي هذه الحالة طلب عشر سور ووضع الإعجاز فيها فيمكن أن نستنتج بالضرورة أن المفتري يمكنه أن يأتي بأقل من عشر سور. فهل هذا الإعجاز واقع على العرب وحدهم أو عليهم وعلى غيرهم؟ الجواب: على العرب وعلى غيرهم من الأقوام لأن المطلوب هو الافتراء من الناس، كلٌ في لغته، العربي بالعربية والفارسي بالفارسية والإنكليزي بالإنكليزية وهكذا دواليك. فالمطلوب بالضبط هو أن يؤخذ موضوع غير قرآني مفترى. مثال على ذلك قصة حب بين رجل وامرأة أو قانون علمي موضوعي كقانون الجاذبية، وتصاغ هذه القصة أو القانون بشكل قرآني أي أنها يجب أن تحتوي على الشروط التالية:

١ ـ أن تحوي على القوانين المطلقة للحب بشكل يفهمها كل قارىء حسب وعيه ومداركه عن الحب أي أن تحتوي على علاقة جدلية بين المطلق والنسبي.

٢ ـ أن تكون فيها المعقولات عن الحب تسبق المحسوسات «أي الإخبار عن الحب سبق معلومات الناس عنه».

٣ ـ أن تصاغ صياغة فنية رفيعة.

هذه الشروط الثلاثة وبشكل خاص الشرطان الأول والثاني هي التي تسمح بالتأويل. هذه الخاصة نراها جزئياً عند عمالقة الأدب في العالم وليس العلم من أمثال دوستويوفسكي وشكسبير والمتنبي حيث أنه على مر الأيام تعاد قراءة هؤلاء الأدباء في ضوء معطيات العصر. وقد يقول قائل:

إنه أمكن لهؤلاء تقليد القرآن بشكل افتراء. أقول: هذا غير صحيح للأسباب التالية:

لقد طلب في حالة الافتراء عشر سور، فإذا فرضنا أن السورة مؤلفة من ثلاث آيات فقط حيث أن أصغر سورة في القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فقط، وحيث أن الآية

قد تحوي وحدة المعنى، فهذا يعني أن المطلوب هو ثلاثون موضوعاً مفترى، وأن تصاغ صياغة قرآنية على شكل آيات تحتوي الشروط المذكورة أعلاه. فمثلاً أحد المواضيع يمكن أن يكون في تاريخ مدينة دمشق، يصاغ بشكل مطلق لمدينة دمشق، بحيث إذا قرأه إنسان يراه مطابقاً لمستوى معلوماته التاريخية عن دمشق، وإذا قرأه إنسان بعد خمسين عاماً يراه مطابقاً لمستوى معلوماته الجديد عن مدينة دمشق، وإذا قرأه إنسان بعد مئة عام يراه مطابقاً وهكذا. «هذا مثال عن القصص والتشابه فيه» هذا ينتج عنه بالضرورة المعقول قبل المحسوس وهو الذي نسميه بالغيبيات. هذا النوع الأول من الإعجاز الذي طلب فيه عشر سور مفتريات تحتوي على نص على شكل آيات. فإذا سألني سائل ماهي مقومات الآية القرآنية؟ أقول: هي ما يلي:

- **تعريف الآية**: قبل أن نبدأ بمقومات الآية لنضع تعريفاً لها:

الآية كما جاءت في الكتاب لها معنيان منفصلان:

- المعنى الأول: الآية هي النص اللغوي الموجود بين مواقع النجوم «الفواصل» فنقول: إن سورة البقرة فيها ٢٨٦ آية. وهذه الآيات تتلى كقوله تعالى **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾** (يونس ١٥) وقوله: **﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾** (النمل ٩٢) وقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾**. (فاطر ٢٩) وقوله: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾**. (يوسف ١). لقد سميت العبارات بين مواقع النجوم آيات في الكتاب كله ولم تسم جملاً، لأن الجملة في العربية هي مجموعة كلمات تعطي معنى مفيداً يمكن الوقوف عليه. أما الآية فتحددها مواقع النجوم أي الفواصل بين الآيات في الكتاب كله، ويجب الانتباه إليها عند التأويل في القرآن أو الاجتهاد في أم الكتاب.

- المعنى الثاني: الآية بمعنى الظاهرة المادية في الطبيعة حيث أن ظواهر الطبيعة تسمى آيات الله وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى **﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾** (الإسراء ١٠١) وقوله تعالى: **﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾** (الأعراف ٧٣) وقوله: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** (يوسف ١٠٥) وقوله: **﴿وَجَعَلْنَاها وَابْنَها آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** (الأنبياء ٩١) وقوله: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾** (الروم ٢٠).

- المعنى الثالث: الاثنان معاً: الآيات التي تتلى والظواهر المادية وذلك في

قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ (الجاثية ٦) حيث كانت قبلها الآيات عن الليل والنهار وتصريف الرياح وخلق الإنسان. لذا فإن مقومات الآية القرآنية المراد تقليدها «الافتراء» هي:

١ ـ ثبات الصيغة اللغوية.

٢ ـ حركة المحتوى بشكل يتناسب مع معقولات القارىء العالم وهذا ما يسمى بالتشابه.

٣ ـ أن يكون الموضوع غير تشريعي. حيث أن القرآن لا يحتوي على مواضيع تشريعية.

هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات. أما فيما يتعلق بالسورة الواحدة فجاء التحدي على شكلين: الشكل الأول في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس ٣٨). المطلوب في هذا التحدي هو سورة واحدة فيها كل الشروط المذكورة أعلاه وبأية لغة كانت، بحيث يكون الموضوع قرآنياً والصياغة قرآنية وموضوع القرآن هو القوانين المطلقة للطبيعة والتاريخ، فالمطلوب بهذا التحدي صياغة قوانين جدل الطبيعة وجدل التاريخ صياغة جدلية بحيث تفهم هذه الصياغة حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي تقرأ فيه.

والشكل الثاني والذي جاء على شكل سورة واحدة هو في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ٢٣) هذا النوع من التحدي يختلف عن النوع الأول حيث قال ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾. أما هنا فقال: ﴿بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾. هنا يبين حقيقة التنزيل بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾. وقد شرحت سابقاً معنى التنزيل بأنه نقلة خارج الوعي، والتنزيل بالنسبة للقرآن جاء بعد الإنزال أي أن الصيغة القرآنية صيغت عربية خارج وعي محمد ﷺ، وهذا هو الإنزال ثم جاء القرآن من خارج وعي محمد ﷺ مصاغاً جاهزاً إلى وعيه عن طريق الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهذا هو التنزيل. فهنا جاءت الآية للذي يشك في التنزيل، وبما أن التنزيل جاء للكتاب ومن ضمنه القرآن وهو أكثر من سورة لذا قال: ﴿سُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾. فالذي يعتقد أن القرآن كان من محمد ﷺ محتوى وصياغة فما عليه إلا أن

يحاول أن يأتي من مثل هذا الذي يشك بأنه وحي مع التقيد بالشروط المذكورة سابقاً. لأن كل شيء من صنع الإنسان يمكن أن يتجاوز. وهنا لم يطلب التجاوز وإنما طلب المماثلة التي هي أقل من التجاوز.

أما التحدي الأكبر فهو اجتماع الإنس والجن قاطبة لغاية واحدة وهي الإتيان بمثل هذا القرآن. أي لو جند الإنس والجن علماءهم وأدباءهم ومعاهد أبحاثهم لهذه الغاية فقط فإنهم مع ذلك لا يستطيعون تحقيقها. إنه من الخطأ القول كما قال بعضهم: إنه تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة، والخطأ في ذلك أن كل آية من آيات التحدي تمثل نوعاً من التحدي مختلفاً عن الآخر. والتحدي في كل أنواعه لم يكن للعرب وحدهم وإنما كان للناس جميعاً كل في لسانه، وليس من الضروري على غير العربي أن يتعلم العربية لكي يشمله الإعجاز.

٤ ـ قواعد التأويل

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ آخر الآية ٧ من سورة آل عمران.

إن أم الكتاب هي الكتاب المحكم وهي رسالة محمد ﷺ، وإن القرآن والسبع المثاني هما المتشابه وهو نبوة محمد ﷺ مع تفصيل الكتاب. وبما أن النبوة فيها قوانين الحق والباطل تنطبق على كل إنسان، شاء أم أبى، وجاءت بصيغة متشابهة «تغير المحتوى وثبات النص ونسبية الفهم». لذا قال: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَتَشَابَهَ مِنْهُ﴾** حيث أن القرآن **﴿هدى للناس﴾** والكتاب **﴿هدى للمتقين﴾**. فمثلاً إذا قلنا لأكبر ملحد في العالم: إن هذا الكون مبني على جدل داخلي يقوم على صراع تناقضي في اتجاه واحد بين عنصرين مكونين لكل شيء مادي (مخلق وغير مخلق) (صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)، وعلى جدل خارجي هو جدل تلاؤم الزوجين **﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (الذاريات ٤٩).

فسيكـون جوابـه بالإيجـاب مبـاشـرة، فإذا قلنـا: هذا القـانـون العام الكوني هو من القـرآن، فسيقـول: لا مانـع، وإذا قلنـا: جاء هذا القانون من الله تصديقاً لأحكام أم الكتـاب من صوم وصـلاة وعبـادات وأحكـام... الـخ والتي جاءت من الله أيضـاً. فعنـدئـذ سيقـول: كلا، أنـا أقبـل بهـذا القـانـون، ولكن لا أقبل بالصوم. وهنا بيت القصيـد في قولـه. ﴿فَـأَمَّـا الَّـذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَاتَشَـابَـهَ مِنْـهُ﴾ فأحـد معـاني الـزيـغ في اللسـان العـربي هو النقصـان، فإذا أعطينـا زيـداً مئـة تفـاحـة وزاغ في العـد فهذا يعني أنه عدها أقل من مائة، وإذا عدها أكثر من مائة فانه طغى في العد، وقد وضع الله سبحانه وتعالى الزيغ والطغيان من المتضادات بقوله: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَاطَغَى﴾ (النجم ١٧).

فبذلك يصبح المعنى: إن الذين يقبلون القرآن ويتبعونه لأنه قوانين موضوعية، ولا يقبلون اتباع أم الكتاب هم ذوو عقول ناقصة لأنهم رفضوا أم الكتاب. لماذا؟ لأن الذي يؤول القرآن ويستنتج منه النظريات والقوانين العلمية والتاريخية ويطبقها لأنها أساس التقدم العلمي والتكنولوجي يفتن الناس، وكلنا يعلم مدى فتنة الناس بالصعود إلى القمـر وبـالكمبيـوتـر والتلفـاز إذ أن الـذين تمكنوا من الصعود إلى القمر واختراع الكمبيوتر وصناعته تمكنوا من فتنة الناس وهذا ما حصل فعلاً.

أما قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. فهو: بما أن القرآن حقيقـة مطلقـة فتأويله الكـامـل لا يكـون إلا من قبل واحد فقط، وهذا الواحد هو الله المطلق. ولهذا قلت: إن النبي ﷺ لا يعلم التأويل الكامل للقرآن بكل تفاصيله لأنه يصبح شريكاً لله في مطلق المعرفة. أما معرفة التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. وهنا يجب أن نفهم أن الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضـاء وكبـار علمـاء التاريخ مجتمعين. ولم نشترط لهذا الاجتماع حضور الفقهاء، لأنهم ليسـوا معنيين ـ في رأينـا ـ بهـذه الآية، لأنهم أهل أم الكتاب. والراسخون في العلم مجتمعين يؤولـون حسب أرضيتهم المعـرفيـة ويستنتجـون النظريات الفلسفية والعلميـة، ويتقـدم التأويـل والعلم في كل عصـر حتى قيـام السـاعة، فعند ذلك يتم تأويـل كل الآيـات التي تتعلق بهـذا الكـون وهـذه الحيـاة «حيث تصبح هذه الآيات

بصائر». لذا فالراسخون في العلم مجتمعين لا فرادى، وكل حسب اختصاصه يؤولون القرآن بالشكل التالي:

- الحالة الأولى: تحويل بعض الآيات إلى بصائر حية «أي مطابقة مباشرة مع الحقيقة الموضوعية» وهذا أقوى أنواع التأويل، أي التأويل الحسي.

- الحالة الثانية: استنتاجٌ واستقراء لنظريات فلسفية وعلمية بالتأويل وذلك حسب أرضيتهم المعرفية المتوفرة.

من هذا المنطلق نفهم الحالة الأولى التي جاءت في قوله تعالى ﴿**لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنعام ٦٧)، والحالة الثانية ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (فصلت ٥٣). فكل نبأ جاء في القرآن «ومن هنا جاءت كلمة النبوة» له زمن سيستقر فيه، أي يصبح تأويله نهائياً «مبصراً». أما قوله «سنريهم» فالرؤيا من اختصاص الفؤاد، وهو الإدراك المشخص بالحواس.

إن هؤلاء الراسخين في العلم هم بالضرورة من المؤمنين لأنهم يقولون: ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا**﴾ (أم الكتاب والقرآن وتفصيل الكتاب).

فمن هم الراسخون في العلم؟ لقد وضع الكتاب تعريفاً لهم بقوله: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ (العنكبوت ٤٩). هنا نلاحظ التشابه الكبير بقوله ﴿**فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ فالصدر هنا ليس جوف الصدر ولا جوف الرأس «الجمجمة»، وإنما هو كما يقول الشاعر:

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فالصدر هنا تعني ما نقوله الآن «الصدارة» كأن نقول إن اسحاق نيوتن يحتل مركز الصدارة بين علماء الرياضيات، وإن أينشتاين يحتل مركز الصدارة بين علماء الفيزياء. فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء من أمثال «البيروني، الحسن بن الهيثم، ابن رشد، إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز داروين، كانت، هيجل».

وهكذا أيضاً نفهم قوله تعالى في سورة الناس: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ بأن الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من

الـوسـواس الخنـاس الـذي يوسـوس في النـاس الـذين يحتلون مكـان الصـدارة في مجتمعهم أو في العالم بأسره.

إن النتيجة المباشرة لما قلنا، هي أن كل التفاسير الموجودة بين أيدينا ليست أكثر من تفـاسيـر تاريخيـة مرحلية للقرآن، أي لها قيمة تاريخية لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون.

قلنـا: إن آيـات القـرآن والسبـع المثـاني متشابهات، وإن خاصية التشابه هي الفهـم النسبي للحقيقة المطلقة والتي عبر عنها بصيغة ثابتة «النص الثابت». فما هي الشروط التي يجب اتباعها لكي يتم التأويل الآن أو في المستقبل؟

فالتأويـل مشتق من «أول» وهـذا الفعـل من أفعال الأضداد في اللسان العربي فنقول أول الأمر وهو عكس آخره، هذا المعنى الأول وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد ٢). أما المعنى المضاد أي بمعنى آخر الأمر فنقول: إن السـرقـة تؤول بصاحبها إلى السجن. هنا جاءت بمعنى تنتهي به. فالتأويل هو ما تنتهي إليه الآية «أي ما تؤول اليه» من قانون عقلي نظري أو حقيقة موضوعية مباشرة. فلدينا الآيات التي جاءت بصيغة نظرية، وعندما نؤولها نستنتج منها قانوناً ينطبق مع العقل والحقيقة أي علينا أن نفهم القاعدتين التاليتين:

آ ـ أن الوحي لا يناقض العقل (Revelation does not contradict with reason)

ب ـ ان الوحي لا يناقض الحقيقة (Revelation does not contradict reality)

ومن هنـا نـنطلق، إن كل ما أوحي إلى محمـد ﷺ هو من عالم الحقيقـة ومن عالم المعقـولات حيث لا يوجـد شيء في الـوجـود المادي غير قابل لأن يعقل ولكنّ هناك عجزاً وقصوراً للعقل، وبالتالي لا يوجد آية من آيات الكتاب غير قابلة أن تعقل الآن أو في المستقبل. فبدلاً من أن نكيل الاتهامات للقرآن بأنه غير قابل أن يعقل من الناس، علينا أن نتهم أنفسنا بالقصور عن فهم آياته.

وفي معنى التأويل جاءت الآيات التالية:

- ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ٧) أي الراسخون في العلم يعلمـون ماهي النظـريـات والحقـائق العلمية التي يمكن استنتاجها من الآيـة القـرآنيـة، كل حسب اختصـاصه وحسب الأرضية المعرفية لعصره. وحيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية مثل

نظرية النشوء والارتقاء لداروين لأنها تُعَدُّ نموذجاً حياً ممتازاً للتأويل.

- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (يونس ٣٩) هنا لاحظ كيف أنهم استعجلوا بتكذيب القرآن ولم يؤول بعد.
- ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾. (يوسف ١٠٠).

هذه الآيــة من سورة يوسـف أعطتنـــا معنيين هامين جداً: المعنى الأول هو معنى التأويل والمعنى الثاني معنى الحق.

ففي المعنى الأول: لقــد رأى يوسف في المنـام ما رآه، ثم تتـالت الأحـداث حتى وصــل أهله إلى مصـر وهـو وزيـر، عنـدها تحول المنام من مجرد رؤ يا في وعي يوسف إلى حقيقة موضوعية مادية خارج وعيه. هذا التحول هو التأويل. وفي المعنى الثاني ﴿جَعَلَها رَبِّي حَقّاً﴾ أي غير صيرورتها من مجرد رؤ يا إلى حقيقة ملموسة خارج وعي يوسف، لذا استعمـــل كلمـة «حقـاً». فيصبـح معنى الآيـة: قال يا أبت هذا ما انتهت إليه «آلت» رؤ ياي التي كانت مجرد أفكار في وعيي إلى حقيقة ملموسة خارج وعيي. وهذا أيضاً ما قاله يوسف لصاحبيه في السجن ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمـا بِتَـأْوِيلِهِ﴾. (يـوسف ٣٧) التأويـل هنا: ما يأتيهم من رؤ يا فيها طعام إلا أخبرهم بما تنتهي به «تؤول» إلى حقيقة موضوعية.

وبمـا أن القـرآن بتأويله الكـامـل الكلي لا يكـون إلا يوم القيـامة لأن كل آياته تصبـح مبصـرة، بمـا فيها آيات الساعة والصور والبعث والحساب والثواب والعقاب. فقد قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ.. الآية﴾ (الأعراف ٥٣).

وفي قصـة موسى مع العبـد الصــالـح في سورة الكهف نبأه العبد الصالح عما تؤول «ما تنتهي» إليه الأحداث التي قام بها، ولم يستطع موسى الصبر عليها لذا قال له: ﴿سَـأُنَبِّئُـكَ بِتَـأْوِيـلِ مَالَمْ تَسْتَطِـعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ (الكهف ٧٨) وبعد الانتهاء من التأويل قال له: ﴿ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَاً﴾ (الكهف ٨٢).

وفي قولــه في سورة الإِســراء: ﴿وَأَوْفُـوا الْكَيْـلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُـوا بِالْقِسْطَـاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِـكَ خَيْـرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (الإسراء ٣٥) فهنا جاء التأويل بمعنى النهاية تماماً. أي أنّ إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس سيؤولان «سينتهيان» بكم إلى الأحسن.

ضوابط التأويل أو قواعده

ـ القاعدة الأولى :

ـ التقيد باللسان العربي على الأسس التالية :

آ ـ إن اللسان العربي لا يحتوي خاصية الترادف، بل بالعكس اللفظة الواحدة يمكن أن يكون لها أكثر من معنى مثل فعل «أمر».

ب ـ إن الألفاظ هي خدم المعاني، وان المعاني هي المالكة سياستها «الجرجاني».

ج ـ إن الأساس عند العرب هي المعاني، فإذا حصنوها تساهلوا في العبارة عنها «ابن جني».

د ـ لا يفهم أي نص لغوي إلاّ على نحو يقتضيه العقل والمطابقة الموضوعية أو العقل فقط «الاستقراء» فيما يتعلق بالأمور التي ما تزال في الغيبيات.

هـ ـ الأخذ بعين الاعتبار أصالة اللسان العربي من حيث أفعال الأضداد في المعاني مثل فعل «عبد» و«خفي». وأفعال الأضداد في المعاني والأصوات مثل «علق ـ قلع» «كتب ـ بتك» «ضاف ـ فاض» أي ضرورة معرفة فقه اللغة.

ـ القاعدة الثانية :

فهم الفرق بين الإنزال والتنزيل حيث أن هذا الفرق يعتبر من أسس نظرية المعرفة الإنسانية، أي العلاقة بين الوجود الموضوعي «التنزيل» والوعي الإنساني لهذا الوجود «الانزال».

ـ القاعدة الثالثة :

ـ الترتيل : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾. (المزمل ٤):

بمـا أن مواضيـع القـرآن متفرقة في السور. فمثلاً موضوع آدم موجود في سورة البقـرة والأعـراف وطـه وسـور أخـرى. وكـذلك قصة نوح موجودة في سورة نوح وهود والأعـراف والمؤ منـون. وكـذلـك قصة موسى موجودة في كثير من السور فكيف نفهم هذا الموضوع إذا لم يتم ترتيله؟

والتـرتيـل هنـا هو أخذ الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد وترتيلها بعضها وراء بعض. والـرتـل في اللسـان العربي هو الصف على نسق معين. ولا يقصد بالترتيل التلاوة ولا التنغيم، كما ذكرنا.

والله سبحانه وتعالى نزل القرآن على النبي ﷺ على أرتال بقوله **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنَ جُمْلَةً وَاحِـدَةً كذٰلِـكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـاهُ تَرْتِيلاً﴾** (الفـرقـان ٣٢) أي جاء القـرآن إلى النبي ﷺ على أرتال ولم يأته دفعة واحدة. ونحن الآن نستعملها فنقول رتلاً أحادياً أو ثنائياً. ونقول رتل دبابات «انظر مثالاً عل الترتيل في ترتيل قصتي نوح وهود».

وهنـاك موضـوع واحـد جاء مرتـلاً في القرآن هو قصة يوسف التي جاءت كلها دفعة واحدة في سورة واحدة.

إن قاعـدة التـرتيـل هي من قواعد البحث العلمي الحديث ومن دونها لا يمكن لأي بحث علمي أن يعطي أي نتـائـج إيجابية. فإذا أخذنا دراسة حول موضوع معين يتعلق بالميـاه الجـوفيـة مثـلاً، فأول شيء نفعله هو جمـع المقـالات المختلفة التي نشرت في هذا الموضوع، حيث أنه في هذا الجمع يتم إخراج موضوع يحتوي على المعلومـات الـواردة في كل المقـالات المختلفـة، وكذلك في مواضيع القرآن يجب علينا إجراء عملية الترتيل. فموضوع خلق الكون أو خلق الإنسان لم يأت في مكان واحد دفعة واحدة كقصة يوسف. فوجب علينا ترتيلها أولاً. إن قاعدة الترتيل لم تتبع إطـلاقـاً في التفـاسيـر التاريخية المتوفرة بين أيدينا. وأهم نتيجة نستنتجها من قاعدة التـرتيـل هي ترجمـة الكتـاب إلى لغات غير عربية حيث أن الترجمة الحرفية للآيات بالتتـالي المـوجـود في الكتـاب يعتبـر ضربـاً من ضروب مضيعـة الـوقت حيث تشوه المعنى. ولكن يمكن ترجمة الكتاب مرتلاً حسب المواضيع الواردة فيه مع شرح هذه المـواضيـع من قبل أخصائيين وكل موضوع على حدة. فمثلاً يمكن أن نترجم نظرية خلق الكون في القرآن أي نورد آيات الخلق كلها مرتلة ثم نشرح نظرية الخلق. هذه

العملية تتطلب جهداً كبيراً جداً من قبل معاهد أبحاث وفريق كبير من العلماء.

إنّ وظيفة الترتيل تنحصر في فهم القرآن فقط، أمّا في فهم أم الكتاب فلا حاجة للترتيل، وإنما تلزم المقارنة فقط مثل مقارنة محارم الزينة مع محارم الزواج. فآية المداينة واحدة وآية الوضوء واحدة وكذلك الصوم جاء متتالياً، وآية الارث وآية المحارم، وآية اجتناب الخمر والميسر وكذلك الوصايا الواردة في سورة الأنعام.

ـ القاعدة الرابعة:

عدم الوقوع في التعضية لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر ٩٠ ـ ٩١)، فالتعضية جاءت من «عضن» وقد شرحها النبي ﷺ بقوله «لا تعضية لوارث» «الزمخشري فعل عضن».

والتعضية هي قسمة ما لا ينقسم. فإذا ورث ذكران من أبيهما سيفاً وحصاناً وسيارة فالتعضية هي قطع السيف إلى قطعتين وكذلك الحصان والسيارة، وفي هذه الحالة يفقد السيف والحصان والسيارة أية قيمة لها.

والتعضية في القرآن تعني أن الآية القرآنية قد تحمل فكرة متكاملة وحدها أوفقرة من موضوع كامل. وبعد الترتيل مثل آيات آدم وخلق الكون، ونظرية المعرفة الإنسانية فان جمع كل مواضيعها مع بعضها يخرج الموضوع الكلي كاملاً.

مثال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس ٨٠).

ـ القاعدة الخامسة:

فهم أسرار مواقع النجوم: لقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧). ان القرآن قوانين لأحداث موضوعية. والموضوع الواحد جاء في عدة آيات «أي قسم إلى عدة آيات» فمثلاً ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ *﴾ (الفجر ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥). لنأخذ الآيات الأربع الأولى:

كان من الممكن أن تصاغ كما يلي أي آيتين عوضاً عن الأربع: والفجر وليال عشر * **والشفع** والوتر والليل إذا يسر *.

فإذا أخذنا قاعدة عدم التعضية وهي أن الآية قد تحمل فكرة متكاملة فكانت الفكرة في آية ﴿**والفجر**﴾ ثم ﴿**وليال** عشر﴾ فتصبح «والفجر وليال عشر» لذا قال بعد ذلك ﴿**هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾ أي أن هذا التقسيم للآيات مهم جداً لكل ذي حجر.

إن الانتباه لمواقع النجوم في الكتاب كله، وهي الفواصل بين الآيات، لا مواقع النجوم في السماء، هي من مفاتيح تأويل القرآن وفهم آيات الكتاب كله، حيث أن مواقع النجوم جاءت بين آيات الكتاب كله وبالتالي فكل آية من آيات الكتاب تحمل فكرة متكاملة. فإذا نظرنا إلى آيات الكتاب والفواصل بينها رأينا أموراً عجيبة، ويزول العجب إذا فهمنا مبدأ الفكرة المتكاملة.

مثال: ﴿**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ (هود ٥٤) ﴿**مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ**﴾ (هود ٥٥). لاحظ الفاصلة جاءت بعد قوله تعالى «مما تشركون» وأتت الآية بعدها بقوله «من دونه» أي لاحظ موقع الفصل «التنجيم» بين الآية ٥٤ والآية ٥٥ «هود».

وفي حالة المن والسلوى قال عند التنزيل في سورة طه: ﴿ **يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ (طه ٨٠) ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ. . الآية**﴾ (طه ٨١).

أما عند الإنزال في نفس موضوع المن والسلوى كما جاء في سورتي الأعراف والبقرة: ﴿**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ**﴾ (الأعراف ١٦٠). لاحظ هنا عندما قال: ﴿**نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ كيف انتهت الآية «تنجيم» وجاءت الآية بعدها ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾. ﴿**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ جاءت ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ**﴾ غير منجمة متصلة دون انقطاع.

مثال آخر قوله تعالى في سورة المؤمنون:

﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾. (المؤمنون ١٨). ﴿**فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا**

﴿**فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ (المؤمنون ١٩). ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاء تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ**﴾. (المؤمنون ٢٠).

ـ الآية ١٨: أصل الماء الموجود في الأرض هو من السماء «أي من خارج الأرض» نزل على الأرض واستقر فيها ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**﴾، وكان يمكن «أن يحصل كما حصل في كواكب أخرى أن يوجد فيها الماء» ثم يذهب إلى الجومرة أخرى لذا قال: ﴿**وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾.

ـ الآية ١٩: إن الماء أساس الحياة على الأرض وفي كل مكان وأينما وجدت الحياة فهذا يعني وجود الماء «الرطوبة» فأنشأ بهذا الماء جنات من نخيل وأعناب وما ذكره في هذه الآية هو ما يصلح للطعام الآدمي لذا قال ﴿**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾.

ـ الآية ٢٠: معطوفة على الآية ١٩ ولكنها مفصولة عنها «منجمة» ذكر في هذه الآية شجرة واحدة فقط، وما هي هذه الشجرة لا ندري، ولكننا نقول إنها مهمة جداً لأنها في آية وحدها، ومن المرجح أيضاً أنها لا تصلح للطعام الآدمي لذا قال: ﴿**وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ**﴾. ولو كانت هذه الشجرة كما يقول بعضهم هي الزيتون لوضعها في الآية ١٩ الزيتون طعام للآدمي.

هنا نرى أهمية مواقع النجوم وعدم التعضية، لذا قال عن تقسيم القرآن إلى آيات مفصول بعضها عن بعض ـ وهذا هو عين التنجيم ـ ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ (الواقعة ٧٥ ـ ٧٦). لاحظ مواقع النجوم في هاتين الآيتين، ففعل «أقسم» في الآية الأولى بمعنى القسم «اليمين». وفي الآية الثانية لفظ «قسم» بمعنى التقسيم. لذا تم الفصل بين الآيتين.

مثال آخر: قوله تعالى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ***﴾ (العلق ١ ـ ٥) هنا نلاحظ أهمية مواقع النجوم لفهم الآيات. كان من الممكن أن يقول: اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق * وأيضاً: الذي علم الإنسان بالقلم. لنأخذ الآيتين لنرى الفرق في المعنى فيما إذا كانتا آيتين أو آية واحدة. ففي قوله ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ***﴾ يكون القلم هو وسيلة التعليم لكل شيء... الملائكة والإنسان والحيوان والجماد. أي كل شيء أراد الله أن يعلمه، فوسيلة التعليم هي القلم. هذا معنى الآية ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾. هنا التعليم

مطلق لأي شيء.

ثم تأتي الآية التي بعدها ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. فإذا سألنا: بماذا علم الله الإنسان؟ فنقول: بالقلم، أي عندما قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّها﴾ (البقرة ٣١) نقول كيف علم الله آدم الأسماء كلها؟ فالجواب بكل تأكيد: بالقلم.

لوجاءت الآيتان بدون تنجيم أي بالشكل: الذي علم الإنسان بالقلم أو: علم الإنسان ما لم يعلم بالقلم. لأصبح المعنى أن القلم هووسيلة التعليم للإنسان فقط وأن بقية المخلوقات تتعلم بوسيلة أخرى غير القلم وهذا غير صحيح. لأن الله يقول إن القلم هووسيلة التعليم المطلقة. فما هو القلم؟؟! هذا ما سنبحثه في فصل «جدل الإنسان».

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾. (الزمر ٦). هذه الآية تحمل فكرة متكاملة. فالفكرة هي تاريخ خلق البشر ومراحل تطوره حتى أصبح بالشكل الذي نراه عليه الآن. وهذا الموضوع لا يمكن فهمه وإخراج نظرية نشوء الإنسان على الأرض إلا من خلال الترتيل أولاً. ثم فهم كل آية على حدة لأنها تحوي «حلقة كاملة في نظرية الخلق».

فلنأخذ هذه الآية على سبيل المثال لنفهم منها حلقة من حلقات وجود البشر على الأرض. تبدأ الآية ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: أي أن أساس الخلق أحادي دون قانون الزوجية، فعندما وجدت الحياة على الأرض وجدت خلية واحدة تكاثرت عن طريق الانقسام الذاتي لا عن طريق التلاقح الزوجي. وبعد ذلك تطورت وحيدة الخلية هذه لتصبح كثيرة الخلايا مع اختلافها بالنوع لذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (الإنسان ٢). وقد مرت الحياة حتى نضج فيها البشر بثلاث مراحل من الخلق «التصميم»: المرحلة الأولى: المرحلة البحرية. المرحلة الثانية: المرحلة البحرية البرية. المرحلة الثالثة: المرحلة البرية. ففي ثلاث مراحل يوجد ظلمة: الظلمة البحرية، الظلمة البحرية البرية، الظلمة البرية «الرحم». فحتى وصل الإنسان إلى الشكل الذي نراه عليه الآن مرت الحياة العضوية على الأرض بهذه المراحل الثلاث، فكان الإنسان وليد المرحلة البرية. وفي هذه المرحلة كان

التكاثر زوجياً. أي عن طريق اللقاح بين الذكر والأنثى. أي كان الفصل موجوداً بين الذكورة والأنوثة لذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ والجعل هو التغير في الصيرورة، و «ثم» هي للتعاقب مع التراخي. لذا فإننا نرى أن الجنين في بطن أمه يمر في هذه المراحل الثلاث.

وبما أن الفواصل الفعلية بين هذه المراحل عبر ملايين من السنين قال: ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي تصميماً من بعد تصميم، ولم يقل خلقاً بعد خلق. والآن يظهر السؤال التالي: متى ظهر البشر حيث ظهر على سلم التطور في المرحلة البرية؟ فيأتي الجواب مباشرة ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ لاحظ قوله «وأنزل» ولم يقل «نزل» أي أن البشر ظهر نوعاً مميزاً بين الأنواع مع ظهور الإبل والبقر والغنم والماعز، فتزامن ظهور البشر مع ظهور الأنعام. فإذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعاً مميزاً على سلم التطور والنشوء، فعلينا أن نبحث في مرحلة ظهور الأنعام على نفس السلم، حيث كانت غذاء له حتى وهو في مرحلته الحيوانية.

إنه من الوهم أن نظن ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾. أن الظلمات الثلاث هي غشاء الخلاص وغشاء الرحم وغشاء البطن، لأن الجنين عندما يكون في بطن أمه تغلفه ثلاثة أغشية وظلمة واحدة. وليس ثلاثة أغشية وثلاث ظلمات، لأن وجود غشاء واحد يؤدي إلى الظلمة، فإذا وجد خارج هذا الغشاء عدد لا متناه من الأغشية فتبقى الظلمة واحدة، فإذا وجد إنسان ما في غرفة محكمة الإغلاق مظلمة تماماً وكانت هذه الغرفة موجودة داخل غرفة أكبر منها أو غير موجودة، فالظلمة واحدة، فالظلمة لا تعد بعدد الأغشية. ثم تنتهي الآية بقوله: ﴿ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هنا جاءت النهاية لتقول لنا: إن هذه الآية من آيات الربوبية بقوله ﴿ذٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ وهي لإثبات الألوهية للعاقل بقوله: ﴿لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

لقد أوردت هذه الأمثلة فقط لشرح المنهج الذي يجب أن يتبع في تأويل القرآن وهو الترتيل والإنزال والتنزيل، والتعضية، ومواقع النجوم. أما الآية فإنها قد تحوي فكرة متكاملة في الكتاب كله لأن كل الكتاب آيات.

ـ القاعدة السادسة :

ـ قاعـدة تقـاطـع المعلومات (Cross Examination) تقتضي هذه القاعدة انتفاء أي تناقض بين آيات الكتاب كله في التعليمات وفي التشريعات. فمن هذه القاعدة تم فهم الإنزال والتنزيل حيث تم مقارنة ومقاطعة المعلومات الواردة في آيات الإنزال والتنزيل، وتم فهم معناهما بحيث انطبق على الآيات كلها، وتم فهم الفرق بينهما. وكـذلـك إذا أردنـا أن نفهم الآيـة **٣١** من سورة النور وهي آية الزينة، فعلينا أن نقاطع المعلومـات الـواردة فيهـا مع المعلومـات الواردة في آيات المحارم في سورة النساء، وعنـد ذلـك نفهم معنى الـزينـة بشكـل ينطبق مع العقـل والواقع، وبشكل لا يناقض بعض الآيات بعضها الآخر.

بعـد أن شرحنـا قواعـد التأويـل، نتساءل كيف يمكن أن نطبقها بشكل عملي ونحن على أبوابِ القرن الحادي والعشرين الميلادي وفي بداية القرن الخامس عشر الهجري؟

نطبق هذه القواعد طبقاً للمنهج التالي :

١ ـ علينا أن نعتبر أن النبي ﷺ توفي حديثاً، وجاءنا الكتاب بالترتيب الذي هو عليـه الآن، حيث أن ترتيب الآيـات في الكتـاب توقيفي. وأن القـرآن جاء لنـا ولمن بعـدنـا. هذا إن كنـا نعتقد حقيقة لا تشدقاً ونفاقاً أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وأن القـرآن حوى الحقيقـة المطلقـة والفهم النسبي بآن واحـد، ونعتقـد أن الـرسـالة صالحة لكل زمان ومكان لسبب آخر غير التشابه.

٢ ـ نستنتـج نظـرية في المعرفة الإنسانية مباشرة وتصاغ. وصياغة هذه النظرية يعتبر من أهم الأمور إلحاحاً بالنسبة للعرب والمسلمين. وصياغة هذه النظرية هي من اختصاص الفلاسفة.

٣ ـ فهم الآيات القرآنية المراد تأويلها من قبل العلماء، وكل حسب اختصاصه بحيث تصبح ضمن المعقـولات أولاً، حيث أن القـرآن كله قابـل لأن يدخـل ضمن المعقولات **﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنَاً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** (الزخرف ٣).

٤ ـ مطـابقـة ما توصل إليه العلم الموضوعي من انجازات علمية، وكل حسب اختصـاصـه، وهـذا ما نسميـه المـدرك من عالم المحسـوسـات مع الفهم العقلاني

للآيـات المـراد تأويلهـا، أي مطـابقة المحسوس بالمعقول مطابقة كاملة مثل كروية الأرض ودورانهـا وحـركـة المـوجودات وقوانين الجدل. وفي حال المطابقة الجزئية، مثـل آيـات خلق البشـر، فقد تم تأويلها في هيكلها العام من قبل العالم الكبير تشارلز داروين. لكن هذه النظـريـة غيـر كاملة لاشتمـالهـا على الحلقة المفقودة. ففي هذه الحالة يتم التأويل بتصحيح النظرية إن كان فيها أخطاء وإتمامها إن كان فيها نواقص.

٥ ـ بالنسبة للآيات ذات المواضيع التي لم تدخل حيز العلم الحسي نهائياً، يمكن تأويلهـا بوضـع نظـرية تبقى في عالم المعقول مرحلياً، بحيث تنتقل مع الزمن إلى عالم المحسوس. مثال على ذلك قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾** (الفرقان ٤٥). **﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾** (الفرقان ٤٦).

اذا أردنا أن نعقل هذه الآيات نستنتج منها النظرية التالية:

آ ـ أن الظل له وجود قائم في ذاته ولا علاقة للنور بإيجاده.

ب ـ أن نور الشمس هو الـذي دلنـا على الظل، أي أن النور لايتسبَّب في إيجاد الظل وإنما يدل عليه دلالة لأن الظل له وجود دون نور.

إنني أعتقـد ـ وأنـا لست من علمـاء الفيـزياء ـ أن علوم الفيزياء حتى يومنا هذا تعتقد أن الظل هو المعلول وأن النور علته، في حين يقول القرآن إن للظل وجوداً ذاتياً مُنْفصل عن النور، ثم جاء النور بعد ذلك ليدلنا عليه فقط. هذه نظرية في الفيزياء، ولا أدري هل علوم الفيزياء الحديثة تقر هذا أو لا تقره؟! فإن كانت لا تقره فيمكن أن يأتي يوم تنقلب فيه بعض الموازين في علم الفيزياء أو كلها، والله أعلم.

٦ ـ تؤول آيات الساعة والصور والبعث واليوم الآخر والجنة والنار بحيث تدخل ضمن عالم المعقـولات ويتم تأويلهـا ضمن نظـريـة كونيـة شاملة بحيث تدخل كلها ضمن المعقـولات، فبـداية الكون يمكن أن تدخل ضمن المعقولات والمحسوسات معاً، أما نهايته فتدخل ضمن نظرية شاملة مع بدايته ضمن المعقولات بحيث تدخل حين قيـام هذه الأحـداث ضمن المحسـوسات. فالتأويل الحسي للساعة هو حدوثها فعـــلاً. ولكن يمكن أن تؤول تأويـــلاً عقليـــاً قبـــل حدوثهـا. وعنـدمـا تدخـل هذه المصطلحات ضمن المحسوسات تتحقق الآية: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** (الأعراف ٥٣).

٧ ـ علينا أن لا ننسى أن التأويلات التي نؤولها في عهدنا قابلة للتطوير أو النقض على مر السنين لأن تأويلات عصرنا تقوم على أساس نسبية معرفتنا للحقيقة. وهذا هو أهم بند علينا أن لا ننساه وعلينا أن نؤكد عليه للأجيال القادمة لكي لا تتحجر ولا تتزمت، ولكي تكون روح المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة هي المهيمنة على أجيالنا المقبلة.

٨ ـ علينا أن نسحب القرآن ـ قبل أن يفوت الأوان ـ من أيدي السادة الوعّاظ المعروفين بالعلماء الأفاضل، أورجال الدين حيث يجب أن يكون موقف هؤلاء «العلماء الأفاضل» من القرآن هو كموقف العامة تماماً: التسليم، لأن معلوماتهم بالنسبة للقرآن لا تزيد عن معلومات العامة بتاتاً. وإن كان لهؤلاء الناس دور فدورهم وعظي بحت.

٥ ـ نموذج من التأويل ـ تأويل سورة القدر

في ضوء ما تقدم سنطرح تأويلاً لسورة القدر:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ *﴾.

لقد قلنا: إن الإنزال هو دخول الشيء في عالم المدركات، وهذا إما أن يكون له وجود مسبق غير مدرك فتغير في صيرورته فأصبح مدركاً، وفي هذه الحالة ينطبق عليه فعل الإنزال والجعل معاً، وهذا ما حصل للقرآن دفعة واحدة في ليلة القدر. حيث غير في صيرورته بشكل أصبح قابلاً للإدراك، وفي هذا نقول: إن الإنزال والجعل تلازما في القرآن حيث أن القرآن مخزن في لوح محفوظ وإمام مبين. وهذه الصيغة القابلة للإدراك الإنساني هي الصيغة اللسانية العربية حيث أنها في لفظها الصوتي هي الذكر وفي محتواها المعرفي هي القرآن ولذا قال عن الذكر إنه «محدث».

الآن لماذا أطلق على الإنزال والجعل قوله ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ويفهم منها أنها

تحمل طابعاً زمنياً معيناً؟ لنأخذ أول مفهوم «القدر» حيث جاءت في اللسان العربي من «قدر» وهي تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، يقال «قدره كذا» أي نهايته «ابن فارس م ٥ ص ٦٢». وبما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء، والقرآن هو خاتم النبوات، وفي عهد النبي ﷺ وصل اللسان العربي إلى مرحلة اللسان العربي المبين فوصل إنزال القرآن إلى مبلغه وغايته.

لنأخذ الآن مفهوم «ليلة» فهل هي من الليل؟ فإذا كانت ليلة القدر تعني الليل، فالسؤال في أي ليل هو؟ هل هو ليل مكة أم ليل لوس أنجلوس وكلاهما على الكرة الأرضية؟ حيث يوجد في الكرة الأرضية بشكل مستمر ليل ونهار معاً وعلى هذا لا يستقيم المعنى. إمّا إذا فهمنا الليل على أنه الظلام كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام ١) وقوله: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فهذا يعني أن اللوح المحفوظ والإمام مبين لا يخضعان لمفهوم الليل والنهار ولكن بما أن الظلام في الوجود سبق النور حيث أنه بعد الانفجار الكوني الأول مرت المادة بعدة مراحل للتطور حتى أصبحت شفافية للضوء وظهر النور. هذا الإنزال حصل في وقت يقابله عندنا في الأرض شهر رمضان ولكن رمضان من أية سنة؟ لا ندري. لذا عندما شرحها النبي ﷺ في قوله ان صح «العشر الأخير من رمضان» حيث حددها ضمن برهة زمنية ولم يحددها في ليلة بعينها، وهذا كلام دقيق من الناحية العلمية حيث ينطبق على كل الكرة الأرضية. فليلة القدر هي مصطلح يعني صدور أمر رب العالمين بإشهار القرآن بلسان عربي مبين، أي تم إنزال القرآن وجعله عربياً، ففي هذا انتقل إلى صيغة قابلة للإدراك الإنساني، أي انه لم يعد سراً بل تم اشهاره. لذا قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وهنا الشهر لا تعني الشهر الزمني كأن نقول ألف شهر أي ٨٣ سنة وثلث، أمّا إذا فهمناها على أنها من الشهرة والإشهار فيتطابق المعنى مع مفهوم الإنزال والجعل وهنا كلمة ألف: إما ان تعني ان اشهار القرآن خير من ألف إشهار آخر حيث قال في سورة الدخان إنه في ليلة القدر تصدر أوامر كثيرة وليس فقط أمر إشهار القرآن وذلك في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾. (الدخان ٣). ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان ٤). ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (الدخان ٥) هنا نلاحظ تسلسل الآيات الثلاث: الإنزال للقرآن وهو النبوة وقد أكد بشكل قاطع أنه في ليلة القدر صدر أمر رب العالمين

بالإشهار بقوله ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ وبما أن الرسالة بحاجة لنبوة، فصدر أمر النبوة من أجل الرسالة. وقد أكد أنه في ليلة القدر تصدر أوامر أخرى كثيرة بقوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهكذا تفهم «الف شهر» أي أمر إشهار القرآن خير من ألف أمر آخر صدر في ليلة القدر أو نفهم ألف شهر؛ «ألف» تعني تأليف الأشياء بعضها مع بعض كأن نقول الأليف والألفة والتأليف. فنفهم «ألف شهر» على أنه إذا جمعت كل الأوامر الأخرى الصادرة من رب العالمين و«تألفت» بعضها مع بعض فان أمر إشهار القرآن خير منها جميعاً، وأنا أميل إلى هذا المعنى. وبما أنه صدرت وتصدر أوامر أخرى في ليلة القدر قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قارن هذه الآية مع قوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. أما فيما يتعلق بالأوامر الأخرى فاستعمل مصطلح التنزيل لا الإنزال. فالإنزال جاء للقرآن وقد حصل مرة واحدة. أما التنزيل فلم ينته حتى يومنا، وبما أن التنزيل نقلة موضوعية خارج المدركات الإنسانيه، فالأوامر الحكيمة التي تصدر تنفذ دون أن يعلم الناس بها ودون أن تشهر، أي لا يحصل فيها إنزال كأن يبلغ الله سبحانه وتعالى زيداً من الناس أنه صدر بحقه أمر كذا وكذا. فوضع الله سبحانه وتعالى ليلة القدر «اشهار القرآن» بمثابة موسم لإصدار الأوامر كالعفو. الخ. لذا يتوجه الناس بالعبادة والتضرع إلى الله في هذه الليلة. وهذه الحالة موجودة عند الناس الآن، ولله المثل الأعلى، كأن نقول يصدر الرئيس مراسم بالعفو عن المجرمين بمناسبة يوم الدستور أو العيد الوطني للدولة. ولكن هذه الأوامر تصدر عن رب العالمين كما قلنا بدون إشهار «إنزال» بل تنزيل فقط لذا قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. أمَّا القول القائل: إنه في ليلة القدر تحصل ظواهر غير طبيعية فيما يتعلق بشروق الشمس أو الأشجار أو مشاهدة ظواهر غريبة فهذا وهمٌ كالخرافة الشائعة التي تقول إن فلاناً شاهد ليلة القدر، أي علينا أن نعلم أن كل الأوامر الصادرة في ليلة القدر بحق أي إنسان هي أوامر غير قابلة للإشهار ولا يتبلغها أحد. ولكن كل ما نعلمه أن ليلة القدر هي موسم من رب العالمين.

والآن نطرح السؤال التالي: هل ليلة القدر حصلت مرة واحدة وهي عندما أشهر القرآن وجعل عربياً، أم أن هذا الموسم مستمر يتجدد كل سنة في شهر رمضان؟ هذا ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. أي أن

هذا الموسم موسم إشهار القرآن سلمه الله لنا وهو سالم يتجدد كل عام ما دام هذا الكون قائماً وسينتهي هذا الموسم بالنفخة الأولى في الصور وقيام الساعة حيث يحصل الانفجار الكوني الثاني ليتشكل على أنقاضه كون جديد فيه البعث والحساب والجنة والنار ولذا قال: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. أما فهم ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ على أنه فجر الشمس «الصبح» فهو فهم ساذج، والله أعلم.

٦ ـ استنتاجات في الإعجاز القرآني

ماهي الاستنتاجات التي يمكن أن نستنتجها من مبحث الإعجاز؟

إن الاستنتاج الأساسي الذي يمكن أن نستنتجه من مبحث إعجاز القرآن هو الجواب على السؤال التالي: هل القرآن الكريم يدخل ضمن التراث العربي الإسلامي أم لا يدخل؟ للجواب على هذا السؤال يترتب علينا تعريف التراث.

التراث: لقد تم تعريف التراث في مقدمة الكتاب على أنه النتاج المادي والفكري الذي ورثته مجموعة من الناس عن سلفها بحيث أن هذا النتاج لعب دوراً أساسياً في تكوين شخصية هذه المجموعة وهويتها أي في تكوين عقلها الباطن وسلوكها الظاهر. وهذا الفهم للتراث يعني أن الجزء الأساسي من السلف الذي كون هذا النتاج هو في عداد الأموات.

من هذا المنطلق ننظر إلى القرآن، فالذي أَنْزَلَ القرآن هو الله، والله سبحانه وتعالى مطلق حي باق والناس نسبيون ميتون. لذا فالقرآن ليس تراثاً وقد صيغ القرآن بصيغة متشابهة لهذا السبب بحيث حوى الحقيقة المطلقة من الله والفهم النسبي لهذه الحقيقة من قبل الناس بآن واحد.

وبما أن القرآن ليس تراثاً وجب علينا أن نفهم أن صياغته متشابهة وأنه جاء من حي إلى أحياء. فالله حي والعرب في القرن السابع الميلادي أحياء فتفاعلوا معه حسب أرضيتهم المعرفية، ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري أحياء والله حي. فما علينا إلا أن نتفاعل معه طبقاً لأرضيتنا لمعرفية، ففي هذه الحالة فقط لا يكون القرآن تراثاً لأننا نفهمه على أساس أنه تنزل علينا.

فإذا كان القرآن ليس تراثاً فما هو التراث العربي الإسلامي؟ الجواب: التراث العربي الإسلامي هو تفاعل الناس مع القرآن ابتداء من النبي ﷺ والصحابة وصدر الإسلام مروراً بكل أنواع التفاسير على مر القرون. هذا النتاج الفكري والحضاري الهائل الناتج من هذا التفاعل هو التراث العربي الإسلامي. فإذا تفاعلنا نحن في القرن الخامس عشر الهجري مع القرآن فما أن يأتي القرن السادس عشر الهجري حتى يصبح تفاعلنا تراثاً بالنسبة للناس بعدنا. هكذا فقط يمكن التعامل مع القرآن إذا أردنا أن ننظر إليه على أنه كتاب حي صادر عن حي إلى أحياء أي من شاهد إلى شاهد وليس من غائب إلى شاهد. وخاصية التشابه تسمح لنا بذلك.

فماذا قدم السادة العلماء للناس؟ لقد تصدر العلماء المجالس والإذاعة والتلفزيون على أنهم علماء المسلمين وجلهم ناقل وليس بمجتهد أي أنهم قدموا لنا ماذا فهم السلف من القرآن على أنه تفسير للقرآن. والواقع أنهم بذلك لم يقدموا ما يؤكد ان القرآن صالح لكل زمان ومكان بل قدموا تفاعل هؤلاء الناس مع القرآن وبالتالي قدموا الأرضية المعرفية التاريخية لهؤلاء الناس إلينا ونحن في القرن العشرين، أي قدموا لنا تراثاً إسلامياً ميتاً. وكل الشواهد التي نراها في القرن العشرين هي أن الإسلام دين خارج الحياة جاء للناس جميعاً وهو عبء عليهم. والمشكلة أنهم نقلوه عن أموات وأهملوا أن صاحبه حي باق. وبعض رجال الدين شاؤوا أم أبوا، بموت النبي ﷺ، والصحابة حولوا القرآن تراثاً ولم يعلموا أن كل ما فعله النبي ﷺ والصحابة هو الاحتمال الأول لتفاعل القرآن مع العرب في القرن السابع الميلادي (الثمرة الأولى). وبذلك أصبح الإسلام دين نقل ومات العقل والنظرة النقدية إلى النصوص، وعند مشايخنا فهم القرآن هو عن.. عن، وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير والزمخشري، علماً بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا ولكن لها قيمة تراثية أكاديمية بحتة. والقيمة الحقيقية هي للنص القرآني الحي المتشابه. وهكذا يمكن لنا أن نقدم التبرير العلمي لإصرار النبي ﷺ على تدوين الوحي وبنفس الوقت إصراره على عدم تدوين أقواله الشخصية لأن الله هو الحي المطلق ومحمد ﷺ نبي ولكنه إنسان. هكذا فقط، يمكن أن نقول بكل جرأة علمية: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.



الفصل الخامس

شجرة الذكر



الآن بعد أن عرفنا الكتاب والقرآن والسبع المثاني والذكر والفرقان والصراط المستقيم لنعطي التعاريف الكاملة لكل منها:

١ ـ الكتاب: هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى محمد ﷺ وحياً، وهو مجموع الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس وفيه النبوة والرسالة وهو الرسالة فقط بالنسبة لموسى وعيسى.

الكتاب = الرسالة + النبوة.

٢ ـ أم الكتاب: هي مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد ﷺ وفيها العبادات والحدود والتعليمات والفرقان «الصراط المستقيم والحكمة» وهي الكتاب المحكم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وهي التي أوحيت من الله مباشرة وليس لها وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل.

٣ ـ النبوة: وفيها القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب. والنبوة تقسم حسب الآيات التالية:

آ ـ الآيات المتشابهات: وهي القرآن والسبع المثاني.

ب ـ آيات لا محكمات ولا متشابهات: تفصيل الكتاب.

آ ـ الآيات المتشابهات:

١ ـ القرآن «الحديث»: وهي مجموعة القوانين المخزنة في اللوح المحفوظ والإمام المبين وهي القوانين العامة الناظمة للوجود المتحكمة فيه من بداية الخلق إلى نهاية الثواب والعقاب في الجنة والنار «اللوح المحفوظ» والقوانين الجزئية لتصرف ظواهر الطبيعة وأحداث الإنسان بعد قوعها «إمام مبين» وهي التي لها وجود مسبق قبل إنزالها وتنزيلها وهي التي جعلت عربية، والتشابه فيها حركة المحتوى مع ثبات النص، ويفهم فهماً نسبياً حيث الأرضية المعرفية للعصر.

٢ ـ السبع المثاني «أحسن الحديث»: وهي سبع آيات فواتح للسور «متشابه مثان» مثل «ألم» واربعة عشر حرفاً «صوتاً» وهي متشابهة وتفهم فهماً نسبياً حسب تطور المعارف للعصر وهي أحسن الحديث.

ب ـ آيات لا محكمات ولا متشابهات: وهي الآيات التي تشرح محتويات الكتاب من قرآن وأم الكتاب والفرقان:

ومنه:
- الكتاب = آيات محكمات + آيات متشابهات + آيات لا محكمات ولا متشابهات.
= أم الكتاب + القرآن + السبع المثاني + تفصيل الكتاب.
= أم الكتاب + «الحديث + أحسن الحديث» + تفصيل الكتاب.

- الذكر: هو الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب كله والذي جاء بلسان عربي مبين وهو الصيغة التعبدية بغض النظر عن فهم المضمون وهو الذي تكفل الله بحفظه وهو محدث كله.

- الفرقان: وهو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى وعيسى ومحمد وهي الآيات (١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣) من سورة الأنعام وهو جزء من أم الكتاب وهو الأخلاق المشتركة بين الديانات السماوية الثلاث وجاء إلى موسى منسوخاً على الألواح مفروقاً عن الكتاب.

لنأخذ الآن الآيات الخمس الأولى من سورة الزخرف:

- الآية الأولى: ﴿حمٓ﴾ من السبع المثاني.
- الآية الثانية: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القصص.
- الآية الثالثة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ القرآن.

ونشير هنا بين معترضتين إلى أن هذه الهاء في «جعلناه» ليست عائدة على الكتاب المبين في الآية السابقة بل هي عين القرآن العربيّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. لاحظ أنها جاءت بعد الفاصل.

- الآية الرابعة: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ القرآن في أم الكتاب عند الله علي حكيم.
- الآية الخامسة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ الذكر هو الصيغة اللغوية العربية التعبدية للكتاب.

لاحظ هذه الآيات الخمس كيف شملت مركبات الكتاب.

لنأخذ الآن الآية الرابعة التي تقول: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ حيث وصف القرآن بأنه عليٌّ حكيمٌ. وأن «علي حكيم» جاءت في مكان واحد آخر في الكتاب كله وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى ٥١).

يتحدث هنا عن كيفية الوحي لكلام الله بقوله ﴿يكلمه الله﴾ ولاتشمل هذه الآية الرسالة لقوله: ﴿قَالَ يا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبكلامي﴾ (الأعراف ١٤٤). وهنا «علي حكيم» تعود على الموحى به وهو القرآن. وإذا سأل سائل: وكيف تم وحي الرسالة وبقية أجزاء الكتاب؟ هل بنفس الطريقة أو بطريقة أخرى؟ فتجيبه الآية التي تليها ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢) أي بنفس الطريقة للوحي التي ذكرت في الآية ٥٠ أوحى إلى محمد ﷺ الرسالة والنبوة، الرسالة في «روح من أمرنا». و«الكتاب» الرسالة والنبوة معاً.

أمثلة على آيات الذكر

آ ـ آيات أم الكتاب «الرسالة»:

آية المداينة «البقرة ٢٨٢» آيات المحارم «النساء ٢٢ ـ ٢٣» آية منع تعدد الزوجات «النساء ٣» آية الزينة «النور ٣١» آيات الإرث «النساء ١١ ـ ١٢ ـ ١٧٦».

ب ـ آيات القرآن:

آية البرهان على البعث بقانون التطور «الحج ٥» آية قانون جدل هلاك شكل الشيء باستمرار في الطبيعة «الأنعام ٩٥» شرح التطور «الأنعام ٩٩». آية الأزواج «الذاريات ٤٩» آية بداية الخلق «الفجر١ ـ٤» آيات الصور، الساعة، البعث، وصف الجنة والنار والحساب، أسماء الله الحسنى «آيات جدل الطبيعة» «آيات الله» والتي تبدأ بقوله «ومن آياته» «سورة يوسف» وكل القصص القرآني.

ج ـ آيات السبع المثاني:

الم. المص. الر. المر.

د ـ آيات تفصيل الكتاب:

«الزخرف ٢ ـ ٥» «آل عمران ٧» «يوسف ٢ ـ ٣» «يونس ٣٧» «الرعد ٣٧ ـ ٣٩» «الإسراء ٨٥».

الباب الثاني

جدل الكون والانسان



تمهيد:

أصل الجدل في اللسان العربي من «جدل» وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام «ابن فارس» - مقاييس اللغة - والاسترسال من «رسل» وتعني الانبعاث والامتداد، جاء القوم أرسالاً أي يتبع بعضهم بعضاً.

ويقوم الجدل على الثنائية. والثنائية على أنواع:

١ - ثنائية تلازمية في الشيء المادي الواحد. تؤدي إلى جدل داخلي يقوم على صراع تناقضي في اتجاه واحد بين عنصرين مكونين لكل شيء مادي. وهذا هو جدل هلاك شكل الشيء باستمرار.

٢ - ثنائية تقابلية بين شيئين ماديين يتواجدان معاً في علاقة ما. تؤدي إلى جدل خارجي بينهما يقوم على صراع غير تناقضي في اتجاهين أي على تأثير وتأثر متبادل بين هذين الشيئين يفضي إلى تلاؤمهما. وهذا هو جدل تلاؤم الزوجين.

٣ - ثنائية تعاقبية بين ظاهرتين لا تلتقيان أبداً، اذ ينفي وجود الواحدة وجود الأخرى بالضرورة. تؤدي إلى جدل الأضداد في ظواهر الطبيعة غير الحية بنتيجة الحركة الميكانيكية للجمادات «ومثال ذلك تعاقب الليل والنهار». كما تؤدي إلى جدل الأضداد في عالم الأحياء بنتيجة الحركة العضوية للكائنات الحية «ومثال ذلك تعاقب بسط اليد وقبضها وتعاقب الشهيق والزفير في التنفس». ويقوم جدل الأضداد على صراع تناقضي على التعاقب. وهذا هو جدل تعاقب الضدين.

٤ ـ ثنائية تلازمية بين نقيضين غير ماديين يتواجدان معاً في الدماغ الإنساني الذي يقوم على صراع بينهما في اتجاهين. وقد ينتهي جدل النقيضين في الدماغ بإصدار حكم في كل صراع على حدة يؤيد أحدهما ويلغي الآخر. ويكون الحكم صادقاً أي حقيقياً إذا كان مطابقاً للواقع المادي الموضوعي خارج الذات الإنسانية، ويكون الحكم كاذباً أي وهمياً إذا كان غير مطابق للواقع الموضوعي. ويتجلى بهذا جدل الفكر الإنساني.

وقد لا ينتهي جدل النقيضين في الدماغ عن طريق إصدار حكم، فيتم حينئذ تغليب عاطفي «غير عقلي» لأحدهما على الآخر «ويظهر ذلك مثلاً في التغلب العاطفي للحب على الكراهية أو بالعكس». ويتجلى بهذا جدل النفس الإنسانية.

وسنبدأ بالحديث عن الجدل المادي الداخلي «جدل هلاك شكل الشيء باستمرار»، ثم عن الجدل المادي الخارجي «جدل تلاؤم الزوجين». وننتقل بعد ذلك إلى عرض رأينا في الصور والحساب والجنة والنار. وفي الختام نتطرق إلى جدل النقيضين في الدماغ الإنساني الذي سنطلق عليه تسمية جدل الإنسان الذي يتجلى في صيغتين: جدل الفكر الإنساني وجدل النفس الإنسانية.

الفصل الأول
قوانين جدل الكون

أولاً ـ الثنائية التلازمية «الجدل الداخلي في الشيء الواحد» «جدل هلاك الشيء».

إن صراع العنصرين المتناقضين داخلياً، الموجودين في كل شيء يؤدي إلى تغير شكل كل شيء باستمرار، ويتجلى في هلاك شكل ذلك الشيء وظهور شكل آخر. وفي هذا الصراع يكمن السر في التطور والتغير المستمرين في هذا الكون ما دام قائماً. هذا هو ما يسمى بالحركة الجدلية الداخلية والتي أطلق عليها في بعض الترجمات مصطلح النفي ونفي النفي. وقد أطلق عليها القرآن مصطلح التسبيح: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء ٤٤). وقوله: ﴿سَبَّحَ لله مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ﴾ (الحديد ١ ـ الحشر ١ ـ الصف ١) وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لله مَافِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ﴾. (الجمعة ١ ـ التغابن ١). والتسبيح جاءت من «سبح» وهو الحركة المستمرة «كالعوم في الماء» كقوله عن حرك كل شيء: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. (الأنبياء ٣٣). هذا الصراع يؤدي إلى التغير في الأشياء، وينتج عنه مقولة أنّ «الموت حق» والله حي باق. وهكذا نفهم معنى الآية: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إِلٰهاً آخَرَ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص ٨٨) وسيبقى هذا القانون سائداً حتى يهلك هذا الكون المادي «عند النفخة الأولى في الصور = الساعة» لينشأ على أنقاضه كون آخر جديد مؤلف من مادة ذات خصائص جديدة «عند النفخة الثانية في الصور التي تؤدي إلى البعث». وفي ضوء ذلك تتضح مقولة «البعث حق».

وقولنا ﴿سبحانَ الله﴾ في صلاتنا هو إقرار العاقل بهذا القانون، حيث ورد التسبيح في القرآن في حالتين: حالة تسبيح الوجود، وحالة تسبيح العاقل «أي حالة الإقرار العاقل بقانون التطور» وقد وردت الحالتان في القصص عن يونس ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِن الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ (الصافات ١٣٩ ـ ١٤٤) هنا وضح بأن قانون تسبيح الوجود عام ينطبق على يونس والحوت كانطباقه على بقيّة الأشياء. ولو لم ينطبق عليه

هذا القانون لانتفت ظاهرة الموت بالنسبة له وبقي إلى يوم يبعثون. وفي تسبيح العاقل عن يونس قال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٧).

وفي كل آيات الكتاب وردت «سبحانك» بهذا المفهوم أي عندما يقارن الله مع غيره من الأشياء كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ (يونس ٦٨) ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ (النحل ٥٧). ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾. (الأنعام ١٠٠). ﴿مَاكَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ (مريم ٣٥) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾. (الإسراء ٤٣). ﴿لَوْ أَرَادَ الله أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ﴾ (الزمر ٤).

أما القول بأن «سبحان الله» هو تنزيه لله عن النقائض والعيوب فهو قول قد مضى زمانه، حيث أن النقائض والعيوب تحمل معنى معرفياً ومعنى اجتماعياً إنسانياً فهي تحمل مفهوم النسبية حيث تتغير هذه المفاهيم من مكان لآخر ومن زمن لآخر. إن التسبيح الحقيقي للأشياء كلها في وجودها لله تعالى يرجع إلى كون الله مصدر الحركة الجدلية الداخلية في الأشياء كلها منذ خلق الله هذا الكون المادي وهو منزه عن هذه الحركة في ذاته لأنه واحد «أحد صمد» «ليس كمثله شيء» حيث أن هذه الحركة تؤدي إلى هلاك الأشياء «الموت».

لقد عبر القرآن بشكل مباشر عن قانون صراع المتناقضات الداخلي في قوله: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ الله فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام ٩٥).

وفعل «فلق» في اللسان العربي أصل صحيح يدل على فرجة وبينونة في الشيء، وعلى تعظيم شيء، والخلق هو الخلق كله كأنه شيء فلق عنه شيء آخر حتى أبرز وأظهر. وفي الآية جاءت «فالق» بمعنى شيء أبرز وأظهر منه شيء آخر.

«ومعنى الفلق قريب من معنى الخلق لأنهما يشتركان في حرفين ويتميزان بحرف واحد». و«الحب» جاءت في اللسان العربي من «حبب» وله ثلاثة أصول صحيحة أحدها اللزوم والثبات، والثاني الحبة في الشيء ذي الحب، والثالث وصف. وهنا المعنى هو الثاني كحبة الشعير والقمح. أما فعل «خرج» فلها في اللسان العربي أصلان: الأول النفاذ عن الشيء والثاني اختلاف لونين، فالإخراج

كأن ينفذ شيء عن شيء آخر وهنا استعمل الشيء والشيء الآخر وهما الحي والميت.

إن هذه العملية تتكرّر كل يوم آلاف المرات. فإذا أخذنا حبة القمح ووضعناها في التربة المناسبة لها فإنها تجتاز تحولاً فتنتش وتكف الحبة في ذاتها عن الوجود فينتفي وجودها أي تهلك، وتظهر في مكانها النبتة التي نشأت عنها، ثم تستمر العملية الحياتية من نمو ونضوج كي تنتج من جديد حبوب القمح. وبمجرد نضوج الحبوب الجديدة تموت النبتة أي تهلك بدورها. . وهكذا نحصل من جديد على حبة القمح الأصلية ولكن نحصل عليها أضعافاً مضاعفة. فإذا سأل سائل: إننا نأخذ حب القمح ونصنع منه خبزاً وبذلك لا يعمل قانون صراع المتناقضات الداخلي. . أقول: هذا صحيح، إننا نناقش هذا القانون من دون تدخل الإنسان. وقد استثنت الآية الكريمة قضاء الإنسان أي تدخله حين وضع إخراج الحي من الميت في صيغة فعل مضارع ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ ووضع إخراج الميت من الحي في صيغة اسم فاعل حيث قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهنا استثنى قضاء الإنسان حيث أن إخراج الحي من الميت هو قانون موضوعي «من الله»، أما اخراج الميت من الحي فالله أخرج الموت إخراجاً، وهنا أعطى مجالاً لتدخل الإنسان، فالإنسان يتدخل بأن يهلك حبة القمح بالطحن أو لا يهلكها، ولولا أن الله أخرج الموت إخراجاً لما كان هناك قضاء «تدخل» إنساني في القتل. ولو أنه قال «ويخرج الميت من الحي» وقتل إنسان إنساناً آخر لقلنا: إنّ الله قتله ولسقطت نظرية العقوبات كاملة. فنقول الله يحيي ويميت، ولا نقول يحيي ويقتل. والإنسان يقضي «يتدخل» بالقتل أو لا يقضي، ولولا الموت لما كان هناك قتل. ولم يذكر الكتاب القتل من قبل الله تعالى إلا مرة واحدة حين مد يد المساعدة المادية المباشرة إلى النبي ﷺ في غزوة بدر في قوله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَى. الآية﴾ (الأنفال ١٧). أما في البعث فقال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾. (الروم ١٩) وذلك لتبيان أن قضاء الإنسان «أي تدخله» سقط نهائياً في البعث واليوم الآخر. أما استعماله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. في سورة يونس وآل عمران فهو خاص بجدل الأضداد في الظواهر وهي ظواهر متكافئة، أي لا تعمل باتجاه

واحـد. وسنفصـل القـول في ذلك فيما بعد. أما قانون صراع المتناقضات الداخلي فيعمـل في اتجـاه واحد وهو من قوانين القدر «أي القوانين الموضوعية» لذا ختم الآية بقوله ﴿ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾. والافك هو الارتداد أي أنه لا يستطيع أي إنسان رد هذا القـانـون ولكن الإنسـان يتـدخـل في إسـراع أو ابطاء عمل هذا القانون ولكنّه لا يلغيـه، فالطب والعنـايـة الصحيـة يطـولان الأعمـار ولا يلغيان الموت، والقتل يقصر الأعمـار لذا قال عن النبي ﷺ ﴿وَمَـا مُحَمَّـدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ... الآية﴾ (آل عمران ١٤٤). فالموت حق ولكن الأعمار تطول وتقصر وسنتوسع في شرح ذلك أدناه.

لقـد عبـر القـرآن عن قانـون صراع المتنـاقضـات الـداخلي في الشيء نفسـه بصيغة: ﴿مُخَلَّق وغير مُخَلَّق﴾ و ﴿صِنْوَان وَغَيْرُ صِنْوان﴾ و ﴿مُتَشَابِه وَغَيْرُ مُتَشابِه﴾ و ﴿مَعْرُوشَات وغَيْر مَعْرُوشَات﴾ في الآيات التالية:

- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّى ثم نُخْـرِجُكُمْ طِفْـلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وِمِنْكُمْ مَنْ يُتَوفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. (الحج ٥).

جاءت هذه الآيـة لتثبت للنـاس البعث وتنـزع الشكـوك بشأن بلوغـه الحتمي فبـدأت بقـولـه: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ فإذا قال قائل: «أنا في ريب من البعث» فما علينا إلا أن نورد له بقية الآية. ولكن ما علاقة بقية الآية بالبعث؟ إذا نظـرنـا إليهـا وجـدنـا أنها تحتوي على قانون أساسي هو قانون التطور «تغير شكل المادة باستمرار» باتجاه واحد، أي بدأ خلق الإنسان من تراب ثم نطفة «خلية» وبعد اللقاح تجتمع الخلية المنوية مع البويضة «علق شيء بشيء آخر» فتنتج العلقة وبعد ذلـك يبـدأ النمـو والتكـاثر الخلوي وتشكل الأعضاء المختلفة وتشعبها في المضغة، وأصـل الممـاضغـة في اللسـان العـربي هو من: «مـاضغت فلانا مماضغة: جاددته القتال والخصومة» «الزمخشري ـ أساس البلاغة» أي بعد العلقة تبدأ المماضغة وهي تجـدد مستمـر للقتـال «الصـراع» والخصومة بين العنصرين المكونين للمضغة نفسها وهما العنصر المُخلَّق والعنصر غير المُخلَّق. وهنا وصف المُخلَّقة وغير المُخلَّقة يعود

على المضغـة نفسهـا أي لو كان مضغـة مخلقـة ومضغة ثانية غير مخلقة لقال «مضغة مخلقـة وأخـرى غيـر مخلقـة» كقـولـه: ﴿**مِنْـهُ آيـاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ**﴾ (آل عمران ٧) ولكن المخلق وغير المخلق يدخل ضمن تركيب المضغة نفسهـا وهـذا يؤدي إلى صراع المتنـاقضـات الداخلي في الشيء نفسه، أي أن هذا الصـراع يؤدي إلى نمـو المضغة وتطورها وتحولها إلى جنين كامل. وهذا القانون هو القانون الأساسي للحركة الجدلية للحياة العضوية للإنسان والكائنات الحية. فهناك في النمو الخلوي صراع بين المُخلَّق وغير المُخلَّق، والمخلق تعني المصمم، حيث أن الخلق يعني التقـديـر لا الإيجـاد كقـولنـا: خلق الخَيَّاط القميص من القماش أي قدره قبل القطع والتفصيل، وعندما تخلق بيتاً تضع له مخططاً تميز فيه الممرات من غرف النوم ومن المطبخ، أي أن الصراع هو بين المصمم المتميز وغير المتميز أي بين التكاثر المقدر «المنتظم» وغير المقدر «الفوضوي». فكلما كانت الخلايا التي يتألف منهـا التصميم متميـزة ضمن نظـام مقـدر فهي مُخلَّقـة، وهــذا ما يسمى Cell) Differntiated) ، وكلما بعدت عن التميز كانت غير مخلَّقة (Cell Undifferentiated) . وهنا يكمن سر النمو العضوي للكائنات الحية في الصراع بين المخلق وغير المخلق في الخليـة الـواحـدة. فعندما ينتصر المخلق تكون الحياة العضوية والنمو سليمين. وكلما بَعدْنا عن المخلق بَعدَ النمو عن أن يكون سليماً. أي أن الحركة الجدلية بين العنصرين المتناقضين داخلياً في الشيء نفسه هي التي أدت إلى التطور الذي تجلى في تغير الشكل باستمرار «هلاك شكل وظهور شكل آخر في الجمادات وفي الكائنات الحيـة»، ومن هنـا نفهم أن الكـائنـات الحيـة قد ظهـر بعضُها من بعض، وخضعت لقـانـون التطـور والارتقـاء. وعليه نفهم أن البعث هو الطفرة النهائية والارتقاء النهائي لهذا الكون، حيث يتوقف حينئذ في الكون الآخر عمل قانون صراع المتناقضات في الشيء نفســه، وينتفي بالتـالي الهـلاك المستمر بشكل المادة، لذا لا موت ولا ولادة في الكون الآخر بل هناك الخلود.

وإنه من الخطأ الفادح أن نظن أن الله خلق الأفاعي وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق القطـط وحـدهـا ونفـخ فيهـا الروح، وخلق الأسماك وحدها ونفخ فيها الروح. ونؤكـد هنـا أننـا نفهم الـروح على أنها ليست سر الحياة، وإنما هي سر الأنسنة التي نقصـد بهـا تحـول البشـر «الـذي هو من الفصيلة الحيـوانية» إلى إنسان، «وسنفصل

القول في ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب». لذا فالحياة العضوية والكائنات الحية في وجودها خضعت لقانون النشوء والارتقاء الذي هو قانون التطور، نتيجة الصراع الداخلي للمتناقضات في الشيء نفسه فبدأت الحياة من نطفة واحدة «خلية» وتطورت بعملية جدلية أدت باستمرار إلى تغير الشكل حتى ظهر البشر غير العاقل، ثم الإنسان العاقل، وهذا ما وضحه في قوله تعالى: ﴿وَمَابَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾. (الشورى ٢٩). وقوله: ﴿وفِي خَلْقِكُمْ وَمَايَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية ٤). و«بث» في اللسان العربي تعني تفريق الشيء وإظهاره، كقولنا: بثّت الدولة العيون أي فرقتها، وقولنا البث الإذاعي والتلفزيوني، أي أن أساس الحياة العضوية النباتية والحيوانية واحد، وتم الانتشار والتغير في الأنواع عن طريق ألبث الذي جاء نتيجة لقانون التطور والارتقاء.

وقد جاء فعل «بث» في صيغة الماضي والحاضر للدلالة على استمرارية هذا القانون وعدم توقفه في هذا الكون، ولا يتوقف هذا القانون عن العمل إلّا بانفجار الكون أي هلاكه. وقد أشار القرآن إلى ذلك بعبارة «النفخة الأولى في الصور» ليحل محله كون آخر «النفخة الثانية في الصور» يتغير فيه جوهر المادة حيث يتوقف فيها قانون صراع المتناقضات الداخلي ليحل محله قانون جديد للمادة يتجلى فيه أن المادة تتألف من عنصرين مترابطين أحدهما بالآخر في علاقة حركية غير متناقضة، مما ينجم عنه ثبات الشكل باستمرار يتجلى في ظاهرة الخلود في العالم الآخر حيث لا ولادة ولا موت ولا تطور، بل حركة مستمرة من نمط اخر.

وهكذا يظهر جلياً أن البعث وقانون التطور مرتبطان ارتباطاً لا انفصام له، لذا فإن فهم القوانين الناظمة للمادة وتطورها في هذا الكون بسبب تناقضاتها الداخلية منذ بداية نشأته هو الدليل العقلي «العلمي» القاطع على حتمية البعث. هكذا يمكن برأينا تأويل هذه الآية الكريمة حيث بدأت ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ ومن أجل تقديم الدليل العلمي كان الجواب إيراد قانون التطور بسبب الهلاك المستمر لشكل المادة.

- ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد ٤).

في هذه الآية يبين إحدى مراحل التطور «البث»، واستعمل أيضاً صيغة المتناقضات الداخلية في الزرع «النخيل» حيث قال: «**صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ**﴾ ولم يقل: «صنوان وآخر غير صنوان» أي أن وصف صنوان وغير صنوان يعود على ذات الشيء الواحد. وصنوان في اللسان العربي جاءت من «صنو» هي تدل على تقارب شيئين قرابة أو مسافة وعليه نفهم أن النخيل حيث ذكره صراحة هو أساس لطفرة نتجت عنه كقوله عن المضغة ﴿**مُخلَّقة وغير مُخلَّقة**﴾ أي هي أساس التكاثر الخلوي المُخلَّقِ وغَيْرِ المُخَلَّقِ. فهناك صراع عنصرين متناقضين داخلياً في النخيل في أن تبقى متقاربة «صنوان» أو أن تتحرك باتجاه التطور كي تتحول إلى غير متقاربة «غير صنوان» وهنا يكمن سر حركة التطور في الطبيعة بسبب حركة العناصر المتناقضة داخلياً.

- ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأنعام ١٤١).

جاءت هذه الآية لتبين أن الحركة الجدلية التي يكمن فيها سر التطور هي القانون الناظم لاختلاف الأنواع في النباتات، ويؤدي ذلك إلى الاختلاف في المأكل، لذا قال: ﴿**وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ**﴾ وحين ذكر الزيتون والرمان بصيغة متناقضة بقوله: ﴿**مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**﴾ بيّن أن الزيتون والرمان تولدا نتيجة لطفرة نباتية، أي أنه كان هناك نبات حصل فيه صراع عنصرين متناقضين داخلياً أدى إلى طفرة نتج عنها الزيتون والرمان، وكل واحد منهما ﴿**مُتَشَابِه وَغَيْر مُتَشَابِه**﴾.

أما قوله تعالى ﴿**جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**﴾ فهنا ذكر إحدى مراحل التطور النباتي بشكل عام. بدأت الحياة النباتية بالنباتات الزاحفة «معروشات»، وتطورت إلى نباتات قائمة «غير معروشات»، فكان تطور النبات من نباتات زاحفة إلى نباتات غير زاحفة «قائمة بذاتها» نتيجة لصراع عنصرين متناقضين داخلياً حيث أن صيغة «هو وغير هو» هي صيغة التناقض.

وهكذا نرى أن المتناقضات الداخلية المذكورة في الآيات السابقة هي السر الكامن وراء التطور في الكائنات الحية النباتية «والحيوانية» منذ بداية الحياة على الأرض. وهكذا أيضاً نفهم قوله تعالى: ﴿**مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ**

أَطْوَاراً ﴾ (نوح ١٣ ـ ١٤).

والآن يمكن أن نلخص القانون الأول للمادة وحركتها في هذا الكون كما يلي:

إن قانون صراع المتناقضات الداخلي «الثنائية في الشيء الواحد» يقوم على علاقة تجاذب وتنابذ «تناقض بين عنصرين مكونين لأي شيء مادي موجودين معاً في ذات الشيء» يؤديان إلى حركة ضمن الشيء نفسه ينجم عنها تغير شكل الشيء باستمرار.

وهذا القانون يعمل في داخل جميع الأشياء المادية بلا استثناء. ويعبر التجاذب والتنابذ عن تناقض مستمر يؤدي إلى حركة ضمن الشيء ينجم عنها تغير مستمر لشكل الشيء «أي هلاك شكل وولادة شكل جديد.. وهكذا دواليك. والصياغة المثلى لهذا القانون وردت في القرآن الكريم: **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾** (القصص ٨٨).

ثانياً ـ الجدل الخارجي بين شيئين
«جدل تلاؤم الزوجين»
«التكيف»

ورد مصطلح «الزوج» في آيات عديدة منها **﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾** (النجم ٤٥). فالزوج هوزوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، والزوج في اللسان العربي أصل يدل على مقارنة شيء لشيء آخر وارتباطه به بعلاقة ما.. فالمرأة هي زوج عندما تكون على عصمة رجل «أي في علاقة مع رجل»، وكانت قبل الزواج عَزَبةً، واذا مات عنها زوجها فهي أرملة، وإذا طلقت فهي مطلقة، ولا يقال عنها زوج إلا إذا كان معها رجل «زوج آخر». «هذا بالمفهوم الاجتماعي». وعندما هاجر النبي ﷺ مع أبي بكر قال تعالى: **﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾** (التوبة ٤٠) هنا قال «اثنين» ولم يقل زوجين، لأنهما من الذكور. وعندما قال في سورة الأنعام: **﴿ثَمَانِيَةَ**

أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأنعام ١٤٣). ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ. الآية﴾ (الأنعام ١٤٤). هنا عندما قال «ثمانية أزواج» تبين أنها تتألف من أربعة ذكور وأربعة إناث، ولو كانت كلها ذكوراً أو كلها إناثاً لما قال «ثمانية أزواج»، والزوج في اللسان العربي لفظة ليس لها مؤنث، فالذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر. أما عملية القران الشرعي بين الذكر والأنثى فقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «النكاح» فنقول عقد نكاح ولا نقول عقد زواج، فالأساس في معنى الزوجية الطبيعي هو أن الذكر زوج الأنثى في الوجود لا في العقود، وأي أنثى هي زوج لأي ذكر بالخلق. وفي هذا قال: ﴿لله مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاء الذُّكُورَ﴾. (الشورى ٤٩) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاء عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى ٥٠).

اشتملت الآيتان المذكورتان على أربع حالات يهب الله فيها أولاداً أو لا يهب وهي:

١ ـ حالة الإناث فقط.

٢ ـ حالة الذكور فقط.

٣ ـ حالة الذكور والإناث.

٤ ـ حالة العقم.

والحالة التي تعنينا هنا هي الحالة الثالثة. فقد استعمل هنا مصطلح «الزوج» بصيغة «يزوجهم» للدلالة على اشتراك الجنسين معاً في الهبة «الذكر» و«الأنثى»، وهما في هذه الحالة أخ وأخت ولكنهما في الطبيعة من حيث الذكورة والأنوثة زوجان.

ثم جاء المعنى الثاني للزوج بالمفهوم الاجتماعي أي حتى تصبح الأنثى زوج الذكر اجتماعياً وجب أن يكون هناك عقد نكاح، لذا ظهر مفهوم الحلال والحرام في نكاح المحرمات الواردة في الآيات «٢٢ ـ ٢٣» في سورة النساء، وفي الزنا حيث أن المفاهيم هذه اجتماعية إنسانية «أخلاق» وليست مفاهيم طبيعية وجودية.

ويتضح من ذلك لماذا لم يسأل أحد من العرب النبي ﷺ عن وضع المرأة في

الجنـة وذلـك حين سمعوا الآيـات التـاليـة: ﴿كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِيْنٍ﴾ (الدخان ٥٣). ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِيْنٍ﴾ (الطور ٢٠). ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة ٢٥). ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. (آل عمران ١٥). ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (النساء ٥٧). ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾. (يس ٥٦). ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف ٧٠). هذه الآيـات الـواردة والتي ذكـر فيها الجنة والأزواج كلها قرآن. وتتحدث الآيات عن الجنـة للذكـور والإنـاث حيث استعملت ميم الجمـاعـة، وهي في اللسـان العـربي تستعمل للشمول «صيغة جمع» وكذلك عندما يكون المراد أن تشمل اللفظة الذكور والإنـاث معـاً تأتي صيغـة عامـة كقـولـه: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾. وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقـولـه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هنا الهبوط للذكور والإناث والمؤمنون للذكور والإناث والذين آمنوا للذكور والإناث.

وعنـدمـا يريـد أن يفـرق بين الذكور والإناث تأتي دائماً صيغة خطاب صريحة ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، فعنـدمـا قال: ﴿كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِيْنٍ﴾. أي أن أهل الجنة من الذكور والإناث معاً لهم أزواج من حور عين أي أن الحور العين هم من الـذكـور والإنـاث، فالـذكر له من الحور العين أنثى، والأنثى لها من الحور العين ذكـر. وقـولـه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، هي أيضـاً للذكـور والإناث معاً، و﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ للذكور والإناث. ومن هنا يتبين أن حال المرأة في الجنة كحال الرجل تماماً، وعندما يذكر الجنة يستعمل دائماً لفظة «أزواج» ولا يستعمل نساء أو امرأة أو لفظة رجل أو رجال.

ان التفريق بين الزوج على أنه الذكر فقط أو الأنثى فقط يحدده سياق كل آية، فمثلاً عندما يذكر الذكر ويذكر معه الزوج فهنا تعني الأنثى كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾. وقـولـه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾. (الأحزاب ٤٩). وقـولـه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾. (التحـريم ١). هنـا المخـاطب هو النبي ﷺ فتأتي الأزواج إناثاً.

وفـي قولـه: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ (النساء ١٢). يقصد بالأزواج الإناث لقوله: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ (النساء ١٢).

فاستعمل نون النسوة في «لهن» ولو كان يقصد الذكور والإناث لقال «إنْ لَمْ يَكَنْ لَهم ولـد». وكـذلـك قولـه ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن ١٤) هنا أزواجكم يقصد بها الذكور والإناث.

ولكي يبين أن قانون الزوجية «وهو مقارنة شيء بشيء آخر وبالتالي ارتباطه معه بعلاقة ما» معمم على الوجود المادي كله قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات ٤٩) وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (يس ٣٦). وهنا استعمل لفظة سبحان لتنزيه الله أن ينطبق عليه قانون الزوجية.

فَقانون الزوجية هو القانون الثاني الأساسي الذي تخضع له جميع الأشياء في الكون المادي. وقد عبر القرآن الكريم عن العلاقة الثنائية بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض ومتقابلين في أمر ما بمصطلح «الأزواج». وهذه العلاقة تشمل كل الموجودات في الكون فهي علاقة خارجية بالنسبة للشيء «الزوج» وللشيء المقابل له «الزوج الآخر». ويؤكد هذا القانون أن الأشياء في الكون المادي لا يمكن أن تكون منعزلة بعضها عن بعض، لذا فهي بالضرورة تكون علاقة تقابلية مع الأشياء الأخرى في مستويات لا حصر لها. وليست الزوجية علاقة بين عنصرين ضمن الشيء نفسه، بل هي علاقة خارجية بين شيئين متقابلين «زوجين» معلومين أو لا يزالان مجهولين. ويمكن أن نصفها بأنها علاقة تأثير وتأثر متبادل بين شيئين «علاقة جدلية بينهما». لذا فإنه لا يصح أن نقول بوجود علاقة خارجية جدلية بين شيئين إلا بعد أن تحدد العلاقة التقابلية «الزوجية» بينهما والمستوى التقابلي لهذه العلاقة.

وتكون العلاقة التقابلية الزوجية على مستويات مختلفة بحيث يكون الشيء في علاقة جدلية تقابلية مع شيء آخر في مستوى ما، ويكون الشيء نفسه في علاقة تقابلية جدلية أخرى مع شيء ثالث في مستوى آخر. وهكذا دواليك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزوجين يوجدان معاً في علاقة ثنائية تقابلية وبذا يتميزان عن الضدين. فالضدان لا يوجدان «لا يلتقيان» معاً بل تقوم بينهما علاقة تعاقبية، ولا يكون ذلك في الأشياء المادية بل في الظواهر فقط.

وهكذا يظهر جلياً أن العلاقة التقابلية بين زوجين هي علاقة خارجية بين شيئين تقوم على التأثير والتأثر المتبادل بينهما. وينبني على هذا القانون قانون التكيف في

الطبيعة.

وبـذا نكـون قد أزلنا اللبس العالق في الأذهان بنتيجة الترجمات الفاسدة التي توهم بأن التناقض يمكن أن يكون بين الزوجين «الشيئين المتقابلين» أوبأن الزوجين هما ضدان.

ونلخص القانون الثاني قانون الأزواج أو قانون الثنائية التقابلية في الأشياء بما يلي:

يقـوم على علاقـة تأثيـر وتأثـر متبـادل «بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض «زوجين» تؤدي إلى التكيف والتلاؤم المستمر بين هذين الشيئين.

والقانون الثاني يعمل في جميع الأشياء من خلال علاقة خارجية ثنائية تقابلية غيـر تنـاقضية بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض عن طريق التأثير والتأثر المتبادل بينهمـا. وتكـون هذه العـلاقـة في مستـويات عديدة. والصياغة المثلى لهذا القانون وردت في القرآن الكريم. ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (الذاريات ٤٩).

ثالثاً ـ أقوال في الصور والحساب والجنة والنار

إننـا نتبنى النظـريـة العلمية القائلة بأن ظهور الكون المادي كان بنتيجة انفجار هائـل أدى إلى تغيـر طبيعة المادة. ونرى أن انفجاراً هائلاً آخر مماثلاً للانفجار الأول في حجمه سيؤدي حتماً إلى تغير طبيعة المادة وهلاك هذا الكون المادي ليحل محله كون «عالم» مادي آخر. ويعني ذلك أن هذا الكون لم ينشأ «يخلق» من عدم بل من مادة ذات طبيعـة أخـرى. كمـا أن هذا الكـون سيزول ليحل محله كون آخر من مادة ذات طبيعة مغايرة.

آ ـ الصور

قلنـا ان قانـون صراع المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه، يؤدي إلى تغير

الصيرورة بشكل مستمر وهلاك شيء وظهور شيء آخر. وهذا القانون حتمي لا رد له، ويسير باتجاه واحد فهو لذلك قدر الموجودات كلها الذي يعبر عنه بالتسبيح.
فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل حيث قال: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ *﴾. (الفجر ١ ـ ٢ ـ ٣) حيث أن الفجر هو الانفجار الكوني الأول، و ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ معناه أن المادة مرت بعشر مراحل للتطور حتى أصبحت شفافة للضوء، لذا أتبعها بقوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ حيث أنَّ أول عنصر تكون في هذا الوجود وهو الهيدروجين وفيه الشفع في النواة والوتر في المدار، وقد أكد هذا في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. (هود ٧) والهيدروجين هو مولد الماء، أي بعد هذه المراحل العشر أصبح الوجود قابلاً للإبصار لذا قال: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام ١).

ويجب أن نميز في خلق الوجود ثلاثة أفعال مختلفة:

- ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. (الأنعام ١).
- ﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة ١١٧).
- ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر ١).

﴿قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد ١٦).

فالخلق هو التصميم ولكن يمكن أن يكون التصميم لشيء له سابقة، أي يمكن لمهندس أن يصمم بيتاً قد سبقه إليه أحد وله سابقة. ولكي يبين أن خلق السموات والأرض ليس له سابق، وأنه لأول مرة قال: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكي يبين سبحانه وتعالى أن تصميم السموات والأرض وابداعهما غير قديمين وأنهما كانتا معاً ثم انفصلتا عن بعضهما قال: ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد أكد أن هذا الفصل حصل بانفجار.

لقد سبق أن ذكرنا أن العرش هو الأمر، ويعني ذلك أن أمر الله كان على أول عنصر تكون في هذا الوجود وهو الهيدروجين «مولد الماء» لذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. (هود ٧) أي كان أمره على العنصر المكون للوجود وهو الهيدروجين.

هذا الوجود منذ الانفجار الكوني بدأ ينطبق عليه قانون التسبيح «صراع

المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه» أي أن الذي لا يسبح من الأشياء لا وجود له. وصارت الأشياء تتغير من كينونة إلى صيرورة «كان فصار»، وستبقى كذلك إلى أن يحدث تغير مفاجىء في صيرورة المادة الكونية. وهكذا نفهم الآية: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (الأنبياء ١٠٤).

فبداية تكون هذا الكون كانت بطفرة «الانفجار الأول» حيث تعتبر التغير الأول في الصيرورة المادية «أي من مادة ذات طبيعة غير معروفة»، هذه التغيرات سارية المفعول حتى تحدث طفرة مفاجئة «تغير مفاجىء في الصيرورة الكونية» طفرة ثانية. وقد أورد القرآن القانون الأول للجدل المادي للبرهان على البعث.

لقد عبر القرآن عن الطفرة المفاجئة بعبارة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ (الزمر ٦٨). و«نفخ» في اللسان العربي أصل صحيح يدل على انتفاخ وعلو، ويقال انتفخ النهار أي علا، ومنه «نفخ في النار» وذلك لكي يسرع في إشعالها وتعلو. ولفظ «الصور» جاءت من «صير» وهو أصل صحيح وتعني المآل والمرجع ومن ذلك صار يصير صيرا وصيرورة، ويقال أنا على صير من أمر أي إشراف على قضائه، وذلك الذي يصار إليه.

فالنفخ في الصور تعني التسارع في تغير الصيرورة «المآل» وهذا ما يسمى بالطفرة. ويوجد نوعان من التسارع في تغير الصيرورة، عبر عنهما بالنفخة الأولى للصور والنفخة الثانية. والنفخة الأولى لها مصطلح خاص هو الساعة. وسميت الساعة لأن هلاك هذا الكون قائم فيها وهي حتمية تقتضيها بنية هذا الكون المادي الثنائي. وقد جاءت الساعة من «سوع» وهو استمرار الشيء «١» ومضيه «٢»، «١ و٢» هما العنصران المتناقضان داخلياً في الوجود المادي الحالي للكون أي أن يستمر على ما هو عليه أو ينتهي، وانتهاؤه يكون عند النفخة الأولى في الصور». فقولنا جاءنا بعد سَوْعٍ من الليل وسُوَاعٍ أي بعد هَدْء منه، وذلك أنه شيء يمضي ويستمر. فالساعة تدل على مضي واستمرار معاً، فالمستمر هو الوجود المادي، والمضي هو انتهاء عمل قوانين المادة السائدة في هذا الكون ليحل محلها عمل قوانين جديدة في كون مادي آخر. وبمعنى الهدوء والمضي جاء قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم ٥٥) ومنه نستنتج أن عذاب القبر بالمفهوم السائد لا وجود له. ففي المعنى الأول للساعة يقول ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾. وهو

الانفجار، المضي بعد الهدوء. والمعنى الثاني الهدوء والاستمرار لفترة زمنية في قوله ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

وهكذا نفهم الآيات:

- ﴿وَنُفِخَ فِي الصورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر ٦٨).
- ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْء عَظِيمٌ﴾ (الحج ١).
- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (غافر ٥٩).
- ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾. (الشورى ١٨).
- ﴿وَيوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الجاثية ٢٧).
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ الله وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٨٧).

ففي آية الأعراف ١٨٧ جاءت ٱلساعة بمعنى المضي يقول: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وجاءت بمعنى أن الساعة موجودة في طبيعة المادة الكونية «العنصران المتناقضان والمتصارعان هما المضي والاستمرار». ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ولبيان أنها تسارع مفاجىء في تغير الصيرورة جاء قوله ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً﴾ ولبيان أن توقيتها لا يعلمه إلا الله جاء قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله﴾ (الأحزاب ٦٣) وقوله ﴿إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان ٣٤) وقوله: ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلّا هُوَ﴾. وقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. (فصلت ٤٧) وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها﴾. (طه ١٥) هنا أخفيها جاءت بمعنى أظهرها لأن فعل «خفي» في اللسان العربي هو من أفعال الأضداد.

ويجب أن نلاحظ أمراً هاماً جداً، وهو أن قيام الساعة لايعني انتهاء حياة الشمس بشكل طبيعي أي انطفاءها حيث أن انطفاءها عبارة عن ظاهرة فلكية طبيعية «ولا تحصل بغتة». فإذا كان الحال كذلك فهذا يعني أن الحياة ستنتهي على الأرض قبل انطفاء الشمس بمدة طويلة، ولكن وصف القرآن للساعة يدل على أنه ستكون هناك حياة على الأرض كقوله ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً﴾. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ (الحج ٢) والإنسان عند قيام الساعة يكون قد وصل إلى

وضـع من التطـور والتقـدم العلمي بحيث يظن نفسـه أنه أصبح ربا متصرفاً في ظواهر الوجود وذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس ٢٤).

هنا نلاحظ مرة أخرى كيف ربط قانون التطور وتغير الصيرورة بقيام الساعة وأن علامة الساعة المباشرة هي وصول الإنسان إلى درجة من التطور يظن نفسه أنه أصبح ربا. وقـد وصف القـرآن السـاعـة وخراب الكون الحالي في أماكن كثيرة كقوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا *﴾ (الزلزلة ١ ـ ٥) وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ *﴾. (النازعات ٦ ـ ٧) وقوله ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ *﴾ (المرسلات ٨ ـ ١٣). والفصل هو فصل قانون صراع المتناقضات عن الوجود المادي.

ب ـ البعث والحساب

ظهـر الإنسـان على الأرض بعـد مليـارات السنين من الانفجـار الكوني الأول وحصلت تغييـرات كثيـرة في الصيـرورة حتى ظهـر البشـر ثم الإنسان، وسيستمر هذا الكـون متغيـر الصيـرورة حتى يهلك الشكـل الحـالي للكـون، هذا الهلاك هو بداية لتشكيـل كون مادي آخـر بقـوانين جديـدة للمـادة، فتحصـل تغييـرات جديـدة في الصيرورة حتى يستقر ويصبح كوناً جديداً بمادة خالية من صراع المتناقضات الداخلية في الشيء الواحد. لذا لا يوجد في الكون الجديد لا ولادة ولا موت، وتختفي ظاهرة التطور وتظهر حركة للمادة من نوع آخر وعلاقات أخرى، ويبقى عمل القانون الثاني للجـدل التأثيـر والتأثـر المتبـادل بين الأشياء «الأزواج». ففي الجنة يوجد أزواج وفي النار يوجد أزواج. أما الجنة والنار فليسا زوجين حيث لا يوجد علاقات متبادلة بينهما بل يوجد أزواج في كل منهما، أي أن هناك قانون تأثير وتأثر متبادل من نوع جديد مع

اختفاء قانون صراع المتناقضات، لذا ففي الجنة والنار حركة من نمط آخر ولكن لا يوجد تسبيح وجود.

لقد عبر القرآن عن الطفرتين بآية واحدة بقوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاّ مَنْ شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر ٦٨) لاحظ في النفخة الأولى قوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ ومن في الأَرْضِ﴾ و«من» للعاقل لذا أتبعها بقوله ﴿إلاّ مَنْ شَاء الله﴾ ومن العاقل المستثنى من هذه الصعقة هو ابليس لقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *﴾ (الحجر ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧). وعبر عن النفخة الثانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾. لاحظ كيف وضع بين الأولى والثانية الأداة «ثم» حيث فيها التعاقب مع التراخي.

الآن لنأخذ الآيات التالية ونرى عن أية طفرة «تغير في الصيرورة» تتكلم:

- ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (الأنعام ٧٣) هنا الصيرورة الأولى والثانية جاءت الصور اسم جنس.
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ (الكهف ٩٩) الصيرورة الثانية.
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ﴾ (المؤمنون ١٠١) الصيرورة الثانية.
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (ق ٢٠) الصيرورة الثانية.
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (الحاقة ١٣) الصيرورة الأولى لأنه أتبعها بقوله ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾. (الحاقة ١٤).
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (الحاقة ١٥). ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة ١٦).
- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ (النبأ ١٨) النفخة الثانية حيث أتبعها بقوله ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ إذ وضع وصفاً جديداً للسماء ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ (النبأ ١٩). ووصف الوضع السابق للجبال ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ (النبأ ٢٠).

لقد وصف الله البعث بالخروج من الموت إلى الحياة بقوله ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف ١١). وقوله

﴿يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَكَـذٰلِـكَ تُخْـرَجُـونَ﴾ (الـروم ١٩). ﴿رِزْقـاً لِلْعِبَـادِ وَأَحْيَيْنـا بِهِ بَلْدَةً مَيْتـاً كَذٰلِـكَ الْخُـرُوجُ﴾. (ق ١١). هنـا في الآيـة ١٩ في سورة الروم وضع الإخراج متكافئاً بين الحي والميت حيث قال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. لأنه يصف يوم الخروج حيث لا قضاء للإنسان في ذلك اليوم لذا قال ﴿لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـوْرِ﴾ للدلالـة على انتهـاء تدخـل الإنسان وقضائه. أي ان البعث هو خروج الناس من الموت إلى الحياة بكينونة مادية جديدة لا تغير في صيرورتها.

قد يسأل سائـل: وهـل بعـد أن يفنى الإنسـان ويصبـح ترابـاً سيعـاد تكـوينه؟ الجـواب: نعم. هنـا يجب أن نميـز بين نوعين من النفس: النفس التي تمـوت وهي النفس البشرية وهي التي تتحول إلى تراب والتي قال عنها ﴿وَمَاكَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلّا بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ (آل عمران ١٤٥) والنفس التي تُتَوفّى والتي قال عنها ﴿الله يَتَـوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهـا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَـامِهـا﴾ (الـزمـر ٤٢). فالنفس التي تموت والتي نقول عنها «الجسد» عبارة عن تحول مادي عضوي بحت، فعند الموت يبدأ التحلل للمواد العضوية المكونة لهذه النفس، حيث أن هذه النفس مجموعة من المواد المركبة بعضها إلى بعض ضمن نسب محددة والتركيب المادي للنفس لا يعتبر عين الـذرات المـركبـة لهـا، ولكن هو مجمـوعـة من النسب المـاديـة مربوط بعضها ببعض. وهـذا واضـح بأننـا نطـرح الفضـلات الغـازيـة والسائلة والصلبة ونحرق في الجسم ما نحـرق ثم نعـوض بالتغـذيـة المـواد المفقـودة بحيث نأخذ ونعطي دائماً. فالمهم هو التركيب النسبي للمواد وليس عين المواد.

ج ـ الجنة والنار لم توجدا بعد واستقرار النقيضين فيهما

الجنة والنار ستظهران على أنقاض هذا الكون:

هنـاك قول شائـع جداً، وبنفس الوقت خاطىء جداً بأن الجنة والنار، أي جنة المتقين ونـار الكـافـرين موجـودتان الآن وأنهما تنتظران يوم البعث. وهذا غير صحيح

طبقاً للنص القرآني حيث أن الجنة والنار ستتشكلان على أنقاض هذا الكون بعد النفخة الأولى. وحتى يحين وقت النفخة الثانية الذي سيحصل فيها البعث، تكون الجنة والنار جاهزتين.

ولكن يجب علينا أن نعلم أن الوجود في الكون الجديد هو وجود مادي سيتشكل على أنقاض هذا الوجود بقوانين جديدة للمادة يختفي فيها القانون الأول، صراع المتناقضات الداخلي في الشيء الواحد «التسبيح»، وينتهي التطور لذا سمى الآخرة دار القرار ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر ٣٩) وذلك بانتهاء قانون «كل شيء هالك» ليحل محله قانون «كل شيء خالد» الذي عبر عنه بمصطلح الخلود. ويبقى قانون الأزواج، التأثير والتأثر المتبادل بين الأشياء، ولكنه يكون من نمط آخر. ففي الجنة أزواج ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ وفي النار أزواج ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (ص ٥٨). وفي الجنة طعام وجماع وأنهار.. وهكذا دواليك ولكنها ذات كيفية أخرى.

أولاً: لنبحث كيف ذكر القرآن أن الجنة والنار لم تظهرا بعد.

قبل أن ندخل في هذا البحث علينا أن نعرِّف الجنة والنار وكيف جاء ذكرهما في القرآن بشكل متشابه.

فلفظة الجنة في اللسان العربي من «جنن» وهذا الفعل يعني التغطية والستر كقوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ (الأنعام ٧٦) أي غطى الظلام الأرض ومنها جاءت كلمة المجنون وهو الإنسان الذي صار على عقله غطاء، ومنها جاء معنى الجن أي مخلوقات مغطاة عن أبصارنا لا نراها. وجاءت هذه اللفظة في القرآن للدلالة على الجنة في الدنيا أو في الآخرة حسب سياق الآية. فالجنة هي أرض مغطاة بأشجار وأغصان وما شابه ذلك ولها معنى إيجابي دائماً. فالبستان المشجر المزروع يقال له جنة، وقد وردت بهذا المعنى في قوله ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ (الكهف ٣٢). وقوله ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ (سبأ ١٦) وقوله ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ (الاسراء ٩١) وقوله ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ (الفرقان ٨) وقوله ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾. (الكهف ٣٥). وقوله ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾. (المؤمنون ١٩) وقوله ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء ٥٧) وقوله ﴿وَهُوَ

الـذي أنشأ جنّـاتٍ مَعْـرُوشَـاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ (الأنعام ١٤١). هنا نلاحظ كيف أطلق لفظ الجنة على حالات دنيوية طبيعية وهكذا يجب أن نفهم جنة آدم حيث أنها تختلف عن جنـة المتقين. ان وصف جنـة المتقين في القـرآن والتي لـم تتكـون بعـد يختلف عن وصف جنة آدم التي ذكرها في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرَى﴾ (طه ١١٨). ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيها وَلا تَضْحَىٰ﴾. (طه ١١٩). لقد أخبرنا القرآن بأن البشـر ظهـر على الأرض وأنـه كان يعيش في منطقة غابات وفي المناطق الحارة حيث أن الآيتين ١١٨ و١١٩ في سورة طه لا تصفان أكثر من غابة «وسنفصل القول في هذا حين الحديث عن آدم ونشأة الكلام الإنساني».

أما جنة المتقين فيصفها وصفاً آخر تماماً حيث فيها الخلود بقوله «خالدين فيها» وتختفي ظاهرة الموت حيث تظهر هذه الجنة في كون آخر هي والنار، حيث لا جدل بينهما ولا توجد بينهما علاقات متبادلة لقوله ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. (الأعراف ٥٠).

ولفظة «النار» جاءت في القرآن للدلالة على النار في الدنيا أو في الآخرة حسب سياق الآية، وأحياناً تأتي معرفة كاسم جنس، وهي دنيوية كقوله ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّـارِ ابْتِغَـاءَ حِلْيَـةٍ أَوْ مَتَـاعٍ﴾ (الـرعد ١٧). جاءت النار هنا معرفة وهي تعني نار الأفـران العـاليـة المستعملة لصهـر المعادن، وأحياناً تأتي نكرة مقصودة: ﴿قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَـلامَـاً عَلَى إِبْـرَاهِيمَ﴾ (الأنبيـاء ٦٩) هنـا نار إبراهيم. وأحياناً تأتي غير معـرفـة كقـولـه ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ (نوح ٢٥) هنا ﴿فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ تعني ناراً في الدنيا وليس في الآخرة. أما نار الآخرة ففيها الخلود للكافرين.

لنـورد الآن الأدلـة على أن الجنـة والنـار لـم توجـدا بعد، وانما ستوجدان على أنقاض هذا الكون بين الطفرة الأولى «تغير الصيرورة عند النفخة الأولى للصور» وبين الطفرة الثانية «النفخة الثانية للصور».

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (ابراهيم ٤٨).
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾. (الزمر ٦٨).

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر ٦٩).

- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ (الكهف ٤٧).
- ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ (الكهف ٩٩).

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ (الكهف ١٠٠).

- ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران ١٣٣).
- ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود ١٠٨).
- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود ١٠٦).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (هود ١٠٧).

- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر ٧٤).

لقد دلت الآيات الواردة أعلاه على أنه سيحصل تبديل في السموات والأرض أي سيكون هناك سموات وأرض جديدة بقوانين مادية جديدة بقوله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ﴾ (ابراهيم ٤٨) وقوله ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ (الكهف ١٠٠). وهنا يجب أن نفهم قوله ﴿عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران ١٣٣). فلفظة (عرضها) جاءت من (عرض) ومنها جاء العرض والمعرض والأعراض فنقول هنا عرض عسكري، فعرض الشيء هو إظهاره بشكل جلي، وهكذا نفهم ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران ١٣٣). أي أن السموات والأرض الجديدة هي المكان الذي ستعرض فيه الجنة أوهي عين عرض

الجنة، وكذلك النار بقوله ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ (الكهف ١٠٠). وهنا يجب أن لا نفهم بأن ﴿عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ﴾ (آل عمران ١٣٣). على أساس أن العرض هو البعد الأصغر والطول هو البعد الأكبر، فتصبح الآية لا معنى لها وغير مترابطة حيث أن أبعاد الوجود ليست الطول والعرض فلا نقول طول الكون وعرض الكون.

أما قوله ﴿سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء والأَرْضِ﴾ (الحديد ٢١). هنا استعمل كاف التشبيه، والسماء بشكل مفرد للدلالة على الجنس لا العدد أي أننا حين ننظر فنرى السماء والأرض كجنس فهنا يشرح طريقة العرض (جنس العرض) أي أن العرض هو عرض مادي كعرض السماء والأرض الحاليين وكذلك قوله ﴿يَقُولُونَ إنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (النازعات ١٠) والحافرة هي عود على بدء وقوله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ *﴾ (النازعات ١٣ ـ ١٤). الساهرة هي مصطلح في اللسان العربي يطلق على كل أرض (ابن فارس).

أما الآية ١٠٨ في سورة هود فقد ذكر أهل الجنة والخلود فيها في آية واحدة للدلالة على أن الدخول إلى الجنة والخلود فيها مرتبطان بعضهما ببعض فلا إقامة مؤقتة في الجنة، أما فيما يتعلق بالنار فقد فصل أصحاب النار عن الخلود فيها (لاحظ أهمية مواقع النجوم) وذلك لكي يبين أن الدخول إلى النار شيء والخلود فيها شيء آخر، فليس كل من يدخل النار سيخلد فيها لذا فصل أصحاب النار عن الخلود فيها، كل في آية على حدة، أصحاب النار في الآية ١٠٦ والخلود فيها في الآية ١٠٧، وهذا يبين لنا فهم أهمية مواقع النجوم بين الآيات.

هنا يكمن الدليل القرآني على أنه ليس كل من يدخل النار سيخلد فيها. وفي نهاية آية الجنة قال ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذ﴾ للدلالة على وضوح وثبات الثواب، وأما بالنسبة للنار قال ﴿إِنَ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ للدلالة على احتمال المغفرة أو ثبات العذاب.

٢ ـ استقرار النقيضين في الجنة والنار:

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الدنيا بأنها ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران ١٨٥ ـ الحديد ٢٠) أي أن متاع الدنيا متاع زائل لأنه هالك أي متغير في الصيرورة باستمرار ينتقل من شكل لآخر والغرور من (غرر) وتعني في اللسان العربي عدم النضج

(النقصان) كأن نقول دورة أغرار، وفلان ما زال غراً، أي ناقص الخبرة ومنها جاء الغرور.

أما الجنة (فأكلها دائم) ومتاعها باق ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَمَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة ٣٢ ـ ٣٣).

المجتمع الدنيوي	اليوم الآخر
١ ـ وجود ظاهرة العمل والراحة	١ ـ اختفاء ظاهرة العمل ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (الحاقة ٢٣) ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ (الإنسان ١٤) ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَمَقْطُوعَةٍ وَلاَمَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة ٣٢ ـ ٣٣) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (الواقعة ١٦) ﴿لاَيَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُمْ مِنْهَا بِمُخْرجِينَ﴾ (الحجر ٤٨) ﴿لاَيَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَيَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر ٣٥).
٢ ـ وجود ظاهرة الصحة والمرض.	٢ ـ اختفاء ظاهرة المرض ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت ٦٤) والحيوان هنا ضد (موتان)، وهي من الحيوية.
٣ ـ وجود ظاهرة الخير والشر في العمل الانساني.	٣ ـ اختفاء ظاهرة الشر ﴿وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍ إِخْوَانَاً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر ٤٧).
٤ ـ وجود ظاهرة الحرب والسلام.	٤ ـ الجنة دار السلام والنار دار الخصام ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص ٦٤).

قد يقول البعض أن مواصفات الجنة يمكن تحقيقها في الحياة الدنيا. أقول هذا مستحيل للسبب التالي:

إن قوانين المادة الحالية في كوننا (التي تخضع لقانون صراع المتناقضات

الـداخلي الـذي يؤدي إلى تغيـر في الصيرورة باستمرار) لا تسمح أبداً بقيام مجتمع كهذا لأن أي مجتمع دنيوي له تناقضاته الخاصة به والتي تؤدي إلى تطوره أي هلاكه وعدم ثبات الصيغة فيه بقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ (الإسراء ٥٨)، ولأن ذلك المجتمـع يحتـاج إلى قاعـدة ماديـة تقوم على قوانين مادية تختلف عن قوانين المادة الحالية في كوننا. فظاهرة العمل والراحة والصحة والمرض والخير والشر لا يمكن أن تختفي ضمن القـوانين الحـاليـة في كوننا، ففي القوانين الحالية تعطي شجرة التفاح موسماً واحداً في السنة أو اثنين أو ثلاثة، أما تفاح الجنة فإنه كلما قطفته فإنه يخلف مباشرة. فشجرة تفاح واحدة من تفاح الجنة تكفي أهل الأرض جميعاً، ولا يمكن أن يحصـل هذا إلا بتغيـر قوانين المـادة، هذا التغييـر في القـوانين المـادية يوضحه قوله تعـالى ﴿لَهُمْ مَايَشَـاؤُونَ فِيهَـا وَلَـدَيْنَـا مَزِيـدٌ﴾ (ق ٣٥). هذا من ناحية، ومن ناحية أخـرى فإن محتـوى التفـاح في الجنـة يتغير عن محتواه في الدنيا، وأهل الجنة يرون التفـاح ويعلمـون أن هذا تفـاح ولكن عنـد المـذاق يختلف عن تفـاح الـدنيا لذا قال سبحانه وتعالى ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ (البقرة ٢٥) والتشابه كما قلت ثبات الشكل وتغير المحتوى، أي كلما أكل واحـد من أهـل الجنـة تفـاحـة يرى طعمهـا مختلفـاً عن أي تفاحة أخرى. . وهكذا دواليك أي أن هناك تفاحاً واحداً ومليارات الإحتمالات من الطعم والنكهة للتفاح.

كما نستنتج أنه في الكون الجديد والقوانين الجديدة للمادة بعد النفخة الثانية في الصـور لا يوجـد تسبيـح للأشيـاء حيث لا ولادة ولا موت ولا تغيـر في الصيرورة. والآيـات الـوحيـدة في التسبيـح في اليوم الآخر هي عن الملائكة فقط في قوله تعالى ﴿وَتَـرَى الْمَـلَائِكَـةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَـرْشِ يُسَبِّحُـونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِم وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر ٧٥) ان نهاية العرض والحساب ودخول النـاس إلى الجنـة والنار وثبات الأشياء ختم بقوله ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبدىء الكتاب بقوله ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة ١ ـ يونس ١٠ ـ الصافات ١٨٢ ـ الزمر ٧٥) وبدىء الخلق بقوله ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الأنعام ١) وهكـذا نرى أن هنـاك حمـداً في الدنيا وحمداً في الآخرة لقوله تعالى ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِـرَةِ﴾ (القصص ٧٠). وورد تسبيـح العـاقـل في الجنـة في قولـه

﴿دَعْـواهُمْ فِيهَـا سُبْحَـانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾ (يـونس ١٠) فالتسبيـح في اليوم الآخر للناس فقط لا للأشياء (أي تسبيح شكر لا تسبيح وجود) وهكذا فإن طبيعة المادة وتركيبها في الكون الجديد تسمح برؤ ية الله سبحانه وتعالى حيث تسبيح العاقل في اليوم الآخر هو تنزيه عاقل لله .

الفصل الثاني
جدل الانسان والمعرفة الانسانية

تمهيد في جدل الانسان (الرحمن والشيطان).

الفرع الأول: عناصر المعرفة الانسانية.

الفرع الثاني: نشأة الانسان واللغة.

تمهيد:

أولاً: آدم وبداية نشأة الكلام الانساني.

ثانياً: نشأة اللغة وارتباطها بالفكر (نفخة الروح).

ثالثاً: كيف عبر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الانساني ونفخة الروح.

رابعاً: مرحلة الانسان القديم من آدم إلى نوح.



تمهيد في جدل الإنسان (الرحمن والشيطان).

لقد ميز القرآن الكريم جدلاً خاصاً بالإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف ٥٤).

فإذا كان هناك جدل للأشياء المادية فإن هذا الجدل ينطبق على الإنسان لكونه كائناً حيّاً مادياً أي بشراً، لذا قال ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. أي أنّ هناك جدلاً خاصاً بالإنسان لا يوجد لغيره من الأشياء وهذا الجدل هو جدل الفكر حيث أن الإنسان يتميز عن بقية الأشياء بأنه كائن عاقل مفكر لذا فإن جدل الإنسان والمعرفة الإنسانية في القرآن يقوم على المبدأ التالي:

إن الحق والباطل «الحقيقة والوهم» في الفكر الإنساني ملتبسان في علاقة جدلية لا تتوقف بحيث يفرز الحق عن الباطل لفترة معينة ثم يعود هذا الإلتباس من جديد بأشكال جديدة، فيحتاج إلى فك جديد وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد مثل الله التباس الحق والباطل بالماء الذي يشوبه التلوث فهو بحاجة إلى فرز وتنقية ليعود صافياً، وبالحديد الذي يوجد في الطبيعة على شكل فلزات فتقوم الأفران العالية الحرارة بفرز الحديد عن الخبث.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد ١٧) «نوع الآية: قرآن».

نلاحظ كيف جعل القرآن أساس المعرفة الإنسانية هو الفصل الدائم بين الحق والباطل المرتبطين ببعضهما بعلاقة تناقضات جدلية. ومهمة المعرفة هي تفريق الحقيقي عن الوهمي لذا قال لبني إسرائيل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٤٢) أي بعد تفريق الحق عن الباطل يجب أن لا نلبسهما معاً مرة أخرى لذا علق في نهاية الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لقد فصل النبي ﷺ الالتباس بين الحق والباطل عند العرب في القرن السابع ومن جراء فك الالتباس هذا حصلت الحرب الأهلية «حيث أن الباطل يُنْسَفُ والخطأ

يصحح» وتأسست الدولة العربية الإسلامية بانطلاقتها الجبارة، حيث فرز النبي ﷺ أوهام الجاهلية والوثنية عن الحقيقة الموضوعية في الفكر العربي المعرفي ثم السياسي في القرن السابع، ثم عاد الالتباس مرة أخرى بأشكال جديدة، وما علينا نحن العرب والمسلمين إلا أن نفك هذا الالتباس من جديد في القرن العشرين حيث نفهم من قول النبي ﷺ (إنَّ الْحَلال بَيِّنٌ وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ) (انظر صحيح مسلم م٣ ص ١٢١٩ ولم يقل أبداً إن «الحق بين والباطل بين» فالزنا يفهمه عمر كما نفهمه نحن، أما الأوهام التي كانت عند عمر في الجاهلية والانتقال إلى الحقيقة يختلف تماماً عن الأوهام التي نعيشها نحن والحقيقة التي نريد أن ننتقل إليها. ولو كان الحق بيناً والباطل بيناً دون التباس بعلاقة جدلية لكفى للإنسانية جمعاء نبي واحد لتبيان الحق والباطل مرة واحدة وإلى أن تقوم الساعة. وهنا تكمن مهمة الفلسفة وبناتها العلوم جميعاً بفك الارتباط الدائم حيث أن مهمة الفلسفة والعلوم لا تنتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هنا تظهر أهمية نظرية المعرفة الإنسانية بالفك المستمر للإلتباس وقد أعطى القرآن أسس نظرية المعرفة الإنسانية أي أسس فك الالتباس بين الحق والباطل حيث أن أسس نظرية المعرفة الإنسانية هي من القرآن «النبوة» وليست من أم الكتاب «الرسالة» «العلماء ورثة الأنبياء».

وبالاستناد إلى نظرية المعرفة في القرآن نجيب على الأسئلة التالية:

١ ـ ماهي نظرية المعرفة الإنسانية؟

هي فك الالتباس بين الحقيقة الموضوعية والوهم «الحق والباطل» وذلك بإدراك العالم الموضوعي الرحماني «الحقيقة» على ما هو عليه حيث أن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها، فالمعرفة الإنسانية تبدأ بالمشخص الجزئي وتنتهي بالمجرد العقلي والذي يسمى بالقوننة «الكلي» وهي التي مكنت الإنسان من تسخير الأشياء لمصلحته فهي عملية انتقال مستمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

٢ ـ ما المقصود بموضوعية المعرفة الإنسانية؟

هو أن الصور الموجودة في الأذهان يجب أن تكون مطابقة للأشياء الموجودة

في الأعيـان «خـارج الـوعي» حيث أنه ليس من الضروري أن تكون الصور الموجودة في الأذهان مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان وهنا يكمن الإلتباس الأساسي بين الـحق والبـاطـل أي بين التصـديق والتصـور. أي يجب أن تكـون التصـورات والتصـديقـات متطـابقة فإذا كان لدينا تصور ما عن الحياة ونظرنا إلى الحياة فوجدناها غيـر ذلـك فمـا علينـا إلا أن نعدل هذه التصورات لكي نجعلها مطابقة للتصديقات. وإن مصـداقيـة هذه المطـابقـة هي في مقدار طواعية هذه الموجودات لإرادة الإنسان وبتعبير آخر هي في مقدار استجابة هذه الموجودات لتكون مسخرة له.

٣ ـ هل العالم الموضوعي خارج الوعي حقيقي أم وهمي؟

لقد وقفت نظرية المعرفة الانعكاسية المادية «التي تقول إن المعرفة الإنسانية تنطلق من الـواقـع المـادي القائم على صراع المتناقضات الداخلي» عاجزة عن بيان عنصـري التنـاقض في الدماغ الإنساني وكيف تمت إزالة هذا التناقض. لذا طرحت نظـريـة المعـرفـة الإنعكـاسيـة المقـولة التالية: إن الدماغ الإنساني تطور معقد جداً للمـادة، ولم تستطـع تفسيـر كيف بلغ الإنسـان مرحلة التجـريـد ومـرحلة التخيـل والابتكـار. أمـا نظرية المعرفة القرآنية التي تلتقي من حيث المنطلق فقط مع النظرية الإنعكاسية المادية، فإنها تقدم التفسير العلمي القادر على الإجابة عن تلك الأسئلة عن طريق طرح **مقـولـة نفخة الروح من الله تعالى** «من خارج الكون المادي الثنائي» التي حملت صفة من صفات الله وهي الأحادية التي تتميز بعدم التناقض.

إنّ هذا الفهم المـادي لنظـريـة المعـرفـة القـرآنيـة يرد على أوهام ذوي الفهم المثـالي للقـرآن الـذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء ويسخرون من نظرية داروين بزعم أنهـا غيـر علميـة، وحجتهم في ذلـك قائمـة على التساؤل التالي: لماذا تطور الإنسـان من القـرد، وبقي القـرد قرداً؟! وجوابنا هو أن الله تعالى نفخ الروح في البشر «وهو فصيلة من المملكة الحيوانية» فأدى ذلك إلى أنسنته وارتقائه عن عالم المملكة الحيـوانيـة. ولـو أنه نفخ الروح في فصائل أخرى لإرتقت أيضاً. **إنَّ نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين حول الأنسنة.**

وقبـل أن ندخـل في بحث جدل الإنسـان يجب علينـا أن نميز بين مصطلحين

قرآنيين هامين جداً وهمـا: مصطلح الـرحمن، ومصطلح الشيطـان وهمـا النقيضـان اللذان يعملان في الدماغ الإنساني «التصديق والتكذيب، الحقيقة والوهم».

الرحمن:

جاءت لفظـة الـرحمن في اللسان العربي من «رحم» وهو أصل يدل على الرقة والعطف والرأفة. والرحم علاقة القرابة.

وأضاف القرآن الكريم لها معنى آخر، فالرحم وظيفته التوليد ومن هنا جاء اسم الـرحمن على وزن فعـلان، لأن النـون في الـرحمن ليست من أصل الكلمة. ووزن فعلان يفهم في اللسان العربي على أنه وزن ثنائية المتناقضين والزوجين والضدين. وقـد كان هذا المعنى جديـداً على العـرب وذلـك في قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ (الفرقان ٦٠).

لنأخذ الأمثلة التالية على وزن فعلان:

كسيان ـــــ عريان.

جوعان ـــــ شبعان.

فرقان ـــــ جمعان ﴿وَمَاأَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾. (الأنفال ٤١).

تعبان ـــــ ريحان. ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾. (الواقعة ٨٧ ـ ٨٨).

أنثان ـــــ ذكران. ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. (الشعراء ١٦٥).

موتان ـــــ حيوان ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. (العنكبوت ٦٤).

ظمآن ـــــ رويان.

فاسم الله الرحمن يمثل قوانين الربوبية «السيطرة والاستحكام والتوليد وبالتالي التطـور في هذا الكـون المادي الثنائي» وهي تعمل بشكلٍ موضوعي، وعيناها أم لم نعيها، أي بإخبار منه عنها أو دونِ ذلك، وهذا واضح في قوله ﴿الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾

(الفرقان ٥٩).

﴿رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ (النبأ ٣٧). ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه ٥). أي أن كل القوانين المادية الموضوعية القائمة على الثنائيات في هذا الكون والذي يليه، هي قوانين رحمانية مادية، فالله يقضي في هذا الكون من خلال القوانين المادية الموضوعية، والتي سنطلق عليها من الآن فصاعداً «**القوانين الرحمانية**» وبما أن القرآن يشرح قوانين هذا الكون والكون الذي يليه فهو رحماني لذا قال: ﴿الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن ١ ـ ٢) والقوانين الرحمانية «قوانين الجدل» الخلق ووحدة وصراع المتناقضات في الشيء الواحد وجدل الأزواج في الأشياء عبارة عن قوانين مخزنة في اللوح المحفوظ الذي يشتمل على القوانين العامة الناظمة لهذا الكون، وجدل الأضداد في ظواهر الطبيعة عبارة عن قوانين جزئية متغيرة (ثابت ومتحول) مخزنة في الإمام المبين الذي يحتوي على قوانين التصرف في ظواهر الطبيعة وكذلك السلوك الإنساني بعد حدوثه مخزنٌ في الإمام المبين. ولكي يبين أن اسم الله هو الأساس قال ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة ٤) فنقول «الله الرحمن» ولا نقول «الرحمن الله» لذا فعندما ترد لفظة «الرحمن» في القرآن فإنها ترد في هذا المفهوم ولا ترد في مفهوم الرحمة أبداً، وبما أن الرحمن هو المولد قال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء ٢٦) وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾ (مريم ٨٨). وكذلك عن الذِّكْر قال إنه من الرحمن ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (الشعراء ٥) وقد قلنا إن الذِّكْر هو الصيغة الصوتية المادية للكتاب، وهو الصيغة التعبدية المحدثة، بغض النظر عن فهم المحتوي لذا أعطاها الصيغة الصوتية المادية.

ففي العالم الرحماني لا يوجد «لا معقولات» وإنما هناك عجز العقل الإنساني عن الإدراك في عصر من العصور «مثال على ذلك الجن والملائكة».

ومن خلال القوانين الرحمانية والتي تعتبر قوانين الجدل «قانون التطور وتغير الصيرورة وقانون الزوجية «التكيف» من أساسياتها ولد هذا الكون وتَشَيَّأ أي أصبح أشياء متميزة بعضها عن بعض، وفي هذا الكون لا يوجد شيء اسمه فراغ بدون مادة

أي أن مانقــول عنــه الآن الفــراغ الكــوني هو فراغ مادي رحمـاني لذا قال ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا﴾ (السجده ٤) أي أن الفراغ هو شكل من أشكال المادة.

هذا الوجود المادي الثنائي أطلق عليه مصطلح كلمات الله «في جوهره» وآيات الله في ظواهره، لذا فإن مفهوم كلام الله في القرآن يعني الوجود المادي ولا يعني أبداً الفكـر «لا مبـدل لكلمـاتـه». ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّـكَ صِدْقـاً وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعـام ١١٥). وإذا أخـذنـا الآيات التي تقول «ومن آياته..» «تلك آيات الله..» «آيات بينات..» «آية بينة...» رأينا أنها تتكلم عن الظواهر الطبيعية في هذا الوجود كقوله:

- ﴿وَانْظُرْ إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾. (البقرة ٢٥٩).
- ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. (آل عمران ٤٩).
- ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ﴾. (آل عمران ٥٠).
- ﴿تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾. (المائدة ١١٤).
- ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها﴾. (الأنعام ٢٥).
- ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾. (الأنعام ٣٥).
- ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾. (الأنعام ٣٧).
- ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ..﴾. (الأنعام ١٢٤).
- ﴿هٰذِهِ نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً﴾. (الأعراف ٧٣).
- ﴿وَيَاقَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله﴾. (هود ٦٤).
- ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء ٩١).
- ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً وَمَاكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (الشعراء ٨).
- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾. (الاسراء ١٢).
- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. (البقرة ٢٥٢).
- ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (آل عمران ١١٨).
- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. (آل عمران ١٠٨).
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. (الإسراء ١٠١).

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ . (الكهف ٥٧) .
- ﴿إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . (الجاثية ٣) .
- ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . (الجاثية ٤) .
- ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (الجاثية ٥) . ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾ (الجاثية ٦) .

هنا نلاحظ في الآيات ٤ - ٥ - ٦ من سورة الجاثية كيف ذكر الآيات في الظواهر الكونية ثم أعقبها في الآية رقم ٦ بقوله : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾ .

وإذا أخذنا الآيات في سورة الإسراء من الآية ٢٣ والتي تبدأ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ . وتنتهي بالآية رقم ٣٨ بقوله : ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ . أعقب هذه الآيات بقوله : ﴿ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ . (الإسراء ٣٩) . وهي كلها من أم الكتاب وقد أطلق عليها مصطلح الحكمة ، لأنها لا تحتوي أحكاماً شرعية أو تعبدية وهي «أخلاق» من الوصايا وهي ليست كلمات الله وليست آيات الله . ولكي يبين ذلك قال في سورة الأحزاب لزوجات الرسول ﷺ : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ . (الأحزاب ٣٣) .

ولا نرى في الكتاب آية من آيات العبادات والأحكام ذكر فيها أنها من آيات الله ، فلم يقل عن الصلاة أو الصوم أو الحج تلك آيات الله أو كلماته .

نستنتج الآن أن الرأي الذي يقول إن كلام الله هو أزلي غير مقبول فالوجود هو عين كلام الله وهو مخلوق وغير قديم ، ولو كان كلامه أزلياً لأصبح الكون والله واحداً ، ولأصبح المسيح ابن الله لأنه كلمة منه ، وقد شرحت في الباب الأول أن القرآن هو كلام الله وآيات الله والقصص وأن أم الكتاب هي كتاب الله فانظره .

لنناقش الآن هل القرآن مخلوق أم أزلي ؟ لقد سبق الفكر المعتزلي أن طرح هذا السؤال والموقف من هذا الطرح بأنه مخلوق أم أزلي له انعكاسات ايديولوجية خطيرة على بنية الدولة والمجتمع والحرية الإنسانية .

أولاً : لقد قال المعتزلة بخلق القرآن ، وأعتقد بأنهم يقصدون القرآن بمفهومه الذي طرحته في كتابي هذا وكانوا لا يقصدون الكتاب كله أي أنهم يقصدون

المتشابه ولا يقصدون محكم التنزيل حيث أن القرآن جُعِلَ عربياً وأُنزلَ عربياً، أمّا أم الكتاب فقد أنزلت عربية فقط دون جعلٍ.

ثانياً: إن كان القصد بالأزلية هو النص القرآني الذي بين أيدينا والذي يتلى تلاوة وهو جزء من الذكر كقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا *..﴾ فهو نص عربي فهذا يعني أن الله عربي ولغته هي العربية وهذا مرفوض وواضح أنه غير صحيح لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والجعل هو تغير في صيرورة أي أنه كان غير عربي في صيغة ما، ثم أصبح عربياً وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ والإنزال هو للإدراك الإنساني وقد تلازم الإنزال والجعل في القرآن.

ثالثاً: إذا كان المقصود بالأزلية هو عين الشمس والقمر والتي هي فعلاً من كلمات الله فأيضاً الشمس والقمر ليستا أزليتين.

رابعاً: إذا كان المقصود بكلام الله الأزلي هو الكلام النفسي «أي أفكار الله» فهذا خطأ لأنه يعني أن لله سبحانه وتعالى كلاماً نفسياً ونقيس الله على الإنسان، علما بأنه بالنسبة لله سبحانه وتعالى القول والوجود متطابقان تماماً ومتلازمان ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أن التصور والتصديق متلازمان متطابقان عند الله، وهذا هو عين كمال المعرفة. فعند الله لا يوجد شيء اسمه طموح أي أن نقول بأن الله سبحانه وتعالى «يطمح إلى أن يفعل كذا وكذا» والتشابه بين الله والإنسان هو في أن الله عليم والإنسان متعلم، والله حر والإنسان متحرر، ولقد سمى الله الوجود كلماته، وهذه التسمية دقيقة جداً حيث أننا إذا أخذنا الكلام الإنساني «الأصوات ـ الكلام» رأيناه صادراً عنه وليس جزءاً منه.

خامساً: بانتصار الفقهاء على المعتزلة تم قصم الفكر الإسلامي العقلاني وأعتقد أنه في هذه النقطة ضاع الفرق بين الكتاب والقرآن وضاع العقل معه وأصبح النقل أساس الإسلام لا العقل، وكانت بداية التدهور الذي وصلنا إليه حتى يومنا هذا حيث أن أزلية الكتاب والذي يحوي ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى...﴾ ولدت المفهوم الجبري المسبق عند العرب والمسلمين وكانت هذه الجبرية المسبقة في الفكر الإسلامي هي النتيجة الإيديولوجية الأولى لانتصار الفقهاء على المعتزلة. هذا لا يعني أن المعتزلة لم يرتكبوا أخطاء في طروحاتهم حيث كانت معظم أفكارهم نتيجة للأرضية المعرفية لعصرهم. أما الفقهاء فلا نقول إنهم أخطأوا، ولكن نقول

إنهم قضوا على دور الفكر الإسلامي الحر العقلاني. وهذه المأساة لانزال نعيشها حتى يومنا هذا حيث منذ ذلك الوقت أصبحت الجبرية هي العقيدة الرسمية لعامة المسلمين.

سادساً: هذا الوجود المادي الثنائي «الرحماني» مرتبط مع الله الأحادي بقانون صارم هو الحركة «التسبيح»، وقد شرحت التسبيح في القانون الأول للجدل المادي، فلا نرى في الكتاب صيغة «سبح للرحمن» أبداً.

سابعاً: في هذا الوجود المادي «الرحماني» ظهرت أسماء الله الحسنى على شكل معان مميزة بعضها عن بعض وعلى شكل ثنائي لذا قال أولاً ﴿وَلله الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف ١٨٠) وبما أن أسماء الله الحسنى لا تفهم إلا من خلال الوجود المادي الرحماني قال ﴿قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ (الإسراء ١١٠).

ثامناً: من خلال القوانين الرحمانية «والإرادة الإلهية» ولدت الحياة على الأرض ضمن قوانين الجدل المادي «البث» وتطورت وظهر البشر ككائن عضوي حي. لذا قال ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾. (الرحمن ١ - ٢ - ٣). أي أن خلق الإنسان تم من خلال القوانين الرحمانية وقوله ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾. لبيان مجمل هذه الحقيقة الرحمانية، أما عندما أعطى المراحل التفصيلية لنشوء الإنسان وارتقائه فقد قال: «البشر».

تاسعاً: عندما نضج البشر كائناً رحمانياً وأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعله خليفة له في الأرض ليخلفه في قوانين الربوبية أولاً، أي في القدرة على التصرف في هذا الوجود المادي، والألوهية ثانياً أي في القدرة على التشريع أعطاه من صفاته الذاتية الأحادية الخالية من التناقض وهي الروح ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. لذا فإن الإنسان فقط مدين لله سبحانه وتعالى في أنسنته وابتعاده عن المملكة الحيوانية ومن هنا جاءت لفظة الدين وهي من دان يدين ومنه جاء الدين والمدينة والمدنية.

الشيطان:

إن لفظة الشيطان في الكتاب هي من المصطلحات المتشابهة، فلهذه الكلمة

معنيـان متبـاينـان تماماً، ويؤخذ أحد هذين المعنيين حسب السياق العام للآية التي ورد فيها مصطلح الشيطان. فعندما تأتي لفظة الشيطان من فعل «شطن» تكون النون من أصل الفعل فهو على وزن «فيعال».

وفعـل شطن يعني البعـد فنقول بئر شطون أي بعيدة القعر، والشطن هو الحبل لأنه بعيد ما بين الطرفين ومنه أيضاً معنى الغرابة. في هذا المعنى مصطلح الشيطان هو مصطلح مادي موضوعي له وجود خارج الوعي الإنساني، ولكي نفرقه عن المعنى الآخـر للشيطـان سنطلق عليه مصطلح «الشيطان الفيعالي» وقد جاء بهذا المعنى في الآيات التالية:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْـزِؤُونَ﴾. (البقـرة ١٤). الشيـاطين هنـا قد تعني أشخـاصـاً «زعمـاء» غيـر ظاهرين للعيان:

- ﴿طَلْعُهـا كَأَنَّـهُ رُؤُوسُ الشَّيَـاطِينِ﴾. (الصـافـات ٦٥). الشياطين هنا تعني شيئاً غريباً بعيداً عمّا ألفه الناس.
- ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء ٨٢).
- ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾. (ص ٣٧).
- ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾. (الصافات ٧).
- ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً﴾. (النساء ١١٧).
- ﴿وَاتَّبَعُـوا مَاتَتْلُوا الشَّيَـاطِـينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْـمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. (البقرة ١٠٢).
- ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾. (الأنعام ٧١).
- ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. (الإسراء ٢٧).
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾. (الحج ٣).
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾. (مريم ٦٨).
- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾. (المؤمنون ٩٧).
- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. (الشعراء ٢١٠، ٢١١)

- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾. (الشعراء ٢٢١). «لاحظ كيف استعمل التنزيل للدلالة على حركة خارج الوعي الإنساني».
- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾. (الملك ٥).
- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. (البقرة ٢٧٥).

أما المعنى الثاني للشيطان فهو من «شاط ـ شيط» هنا النون ليست من أصل الفعل لذا فان الشيطان في هذه الحالة هو على وزن «فعلان» وشاط تعني ذهاب الشيء وبطلانه كقولنا أشاط السلطان دم فلان أي أبطله، وجاء الشيطان بهذا المعنى للدلالة على الباطل «الوهم» في الفكر الإنساني، وسنطلق عليه مصطلح «الشيطان الفعلاني». أي أن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني الذي يحاول معرفة الحقيقة الموضوعية الرحمانية، لذا فوجوده فكري بحت وليس موضوعياً أي أنه يمثل الطرف الوهمي في الفكر الإنساني وهو الطرف النقيض للرحمن الذي هو الطرف الحقيقي وهما العنصران المتناقضان في الفكر الإنساني. وهكذا نلاحظ الخلاف الكبير جداً بين هذين المعنيين للمصطلح الواحد «وهذا هو أحد أشكال التشابه».

لقد ورد الشيطان الفعلاني في الآيات التالية:

- ﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾. (مريم ٤٤).
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾. (طه ١٢٠).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (الحج ٥٢).
- ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾. (الفرقان ٢٩).
- ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾. (النمل ٢٤).
- ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾. (النساء ١١٩).
- ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. (الأنعام ٦٨).
- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. (النحل ٩٨).

- ﴿وكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾. (الإسراء ٢٧).
- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾. (الإسراء ٥٣).
- ﴿وَمَايَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاّ غُرُوراً﴾. (الإسراء ٦٤).
- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾. (مريم ٤٥).
- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾. (فاطر ٦).
- ﴿وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾. (التكوير ٢٥).
- ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾. (الزخرف ٣٦).
- ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾. (البقرة ٣٦).
- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾. (الأعراف ٢٧).

لذا فعلينا أن نفرق وندقق تماماً الشيطان الفيعالي من الشيطان الفعلاني في كل آية ورد فيها ذكر مصطلح الشيطان. وعلى الباحثين المسلمين تدقيق آيات الشيطان مرة أخرى للتفريق بين الشيطانين وبحث ماذا يمثل الشيطان الفيعالي في الحقيقة الموضوعية.

وبما أن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني، فالطرف الآخر في العملية الجدلية هو الرحمن المادي لذا قال: ﴿يَاأَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾. (مريم ٤٤) فالشيطان الفعلاني يمثل الوهم والجانب الوهمي في الفكر الإنساني، والرحمن يمثل الجانب المادي الموضوعي في الفكر الإنساني. وبما أن الشيطان الفعلاني هو اسم جنس ولكل إنسان شيطانه الخاص فلا يأتي في الكتاب إلا على صيغة المفرد وليس الجمع. وبما أن الشيطان الفيعالي هو وجود مادي خارج الوعي الإنساني فيمكن أن يأتي في صيغة المفرد أو في صيغة الجمع كقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ...﴾ وعندما يأتي الشيطان في صيغة الجمع «شياطين» ينصرف معناها إلى الشيطان الفيعالي.

لذا فبالنسبة لما ورد في الكتاب من الأمر بأن نستعيذ بالله من الشيطان عند قراءة القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. (النحل ٩٨). نرى أن المعنى المقصود هنا «الشيطان الفعلاني» لأن مهمة الشيطان الفعلاني تحويل قراءة «فهم» القرآن من قراءة مادية «رحمانية» إلى قراءة مثالية «شيطانية».

بعـد هذا التمهيـد الـذي قدمنـاه لموضوع جدل الإنسان ننتقل الآن إلى شرح عناصر المعرفة الإنسانية :

الفرع الأوَّل

عناصر المعرفة الإنسانية

١ ـ الحق والباطل
٢ ـ الغيب والشهادة
٣ ـ السمع والبصر والفؤاد
٤ ـ القلب
٥ ـ العقل والفكر
٦ ـ البشر والإنسان

١ ـ الحق والباطل :

الحق : لقـد عرفنـا الحق في البـاب الأوَّل (الـذكـر) بأنـه الـوجود الموضوعي المادي خارج الوعي الإنساني . وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله : **﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . الآية﴾** . (يوسف ١٠٠) . لقد عبر القرآن عن الحق بمصطلحين الأول هو «الله» حيث عبـر عن الله بأنـه وجود موضوعي خارج الفكر الإنساني وليس من نتاج الفكر الإنساني بقوله :

- **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَايَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** . (الحج ٦٢) .
- **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** . (الحج ٦) .

لقـد عبر القـرآن عن الـوجـود الإلهي بأنـه وجـود موضـوعي حقيقي خارج الـوعي الإنسـاني ولكن هذا الـوجـود ليس مثـل وجود الأشياء . **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** . (الشورى ١١)

حيث إن الأشياء ينطبق عليها القانون الأول والثاني للجدل فتتغير وتتطور طبقاً للقانون الأول ولها علاقات تأثير وتأثر متبادل طبقا للقانون الثاني، وقد سبحت الأشياء لله تعالى تسبيح وجود «نزهته» عن أن يكون مثلها فيفسد ويهلك. وبما أن قانون الثنائية ينطبق على الأشياء كلِّها، فقد عبر القرآن عن الوجود الإلهي بالصفات التالية:

١ - لا ينطبق عليه قانون ١، ٢ للجدل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ١١).

٢ - بأنه أحادي غير ثنائي في كيفه. ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. (الإخلاص ١).

٣ - بأنه واحد في كمه. ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. (الكهف ١١٠).

٤ - عدم التناقض حيث أن الوجود الموضوعي الأحادي لا يحتوي على التناقضات في ذاته وبالتالي غير قابل للفساد والتغير «الهلاك». ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. (القصص ٨٨).

٥ - لا تنطبق عليه معادلة الزمان حيث أن الزمان والمكان بمفهومه الحالي هو من صفات المادة الثنائية المتغيرة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. (الحديد ٣). حيث وضع واو العطف بين الأول والآخر، وبين الظاهر والباطن وإذا استعرضنا الكتاب فلا نرى أسماء الله الحسنى معطوفة على بعضها إلا في هذه الآية وذلك للدلالة على عدم انطباق معادلة الزمان على الله. لذا فإن الإلحاد من وجهة نظر القرآن هو من نتاج الفكر الإنساني وهو موقف مثالي بحت.

أما المصطلح الثاني للحق: فهو كلمات الله والتي هي عين الموجودات المخلوقة ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. (الأنعام ٧٣). ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. (يونس ٨٢). ولكي يعبر عن أن الوجود المادي الكوني خارج الوعي الإنساني «الأشياء» عبارة عن حقيقة وليست تصورات قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾. (الحجر ٨٥). ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (النحل ٣).

هنا بين بشكل واضح أن السموات والأرض وما بينهما مخلوقات موضوعية لها وجود خارج الوعي وليست تصوراً، لذا استعمل الحق مع حرف الجر «الباء» «بالحق» «أي أنها مخلوقة بكلماته».

لذا فنحن المسلمين نعتقد بوجود حقيقي لله وبوجود حقيقي لكلماته التي هي

عين الموجودات وكلاهما خارج الوعي الإنساني.

أما عندما استعمل كلمة الحق في أم الكتاب كقوله: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾. (الأنعام ١٥١). أو قوله ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾. (الحج ٤٠) هنا استعمل كلمة الحق لارتباطها بمفهومين أساسيين بالحقيقة، وقد عبر عن هذين المفهومين في سورة الأنعام: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾. (الأنعام ١١٥) فالصدق والعدالة لا تكونان إلّا من خلال الموجودات الحقيقية فلا صدق وهمياً ولا عدالة وهمية، فالعدالة لا تتحقق إلا إذا جاءت منسجمة لا متعارضة مع قوانين الوجود، والصدق لا يكون في أوهام بل في موجودات «كلمات». لذا قال بعد فتح مكة ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾. (الإسراء ٨١). ولم يقل قل جاء الصواب وذهب الخطأ.

- **الباطل**: لقد استعمل القرآن مصطلح الباطل للدلالة على الوهم والتصور الوهمي فعبادة العرب للأصنام قبل الإسلام لا تعتبر موقفاً خاطئاً بل موقفاً باطلاً «مثالياً» أي أنهم تصوروا بأن الأصنام تضر وتنفع موضوعياً، ولكنها موضوعياً ليست أكثر من أحجار، وهذا شأن كل موقف فيه شرك فهو موقف باطل «مثالي».

ولكي يؤكد بطرح معاكس بأن السموات والأرض حقيقة لا وهم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**﴾. (ص ٢٧). ﴿**وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ.. الآية**﴾. (الشورى ٢٤). ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾. (آل عمران ١٩١).

وعندما استعمل الباطل بمفهوم الحلال والحرام في السلوك الإنساني استعمله بنفس المفهوم في قوله: ﴿**إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾. (التوبة ٣٤). ﴿**وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾. (النساء ١٦١) هنا استعمل الباطل لأن الأحبار والرهبان يزرعون في أذهان الناس تصورات وهمية كأنهم وسطاء في المغفرة من الله ووسطاء في التقرب من الله ويأخذون أموال الناس انطلاقاً من هذه التصورات لذا قال «بالباطل».

لذا نستنتج مما ذكر أن الوجود الموضوعي المادي خارج الوعي هو وجود حقيقي لا وهمي «تصوري» وهذا الوجود سبق في وجوده وجود الإنسان كائناً حياً عاقلاً

لذا نقول إن التصديق سابق التصور أي أن الموجودات سبقت في وجودها وجود الإنسان وأن المعرفة الإنسانية هي معرفة هذا الوجود على ما هو عليه. فهنا تقسم المعرفة الإنسانية إلى قسمين:

ا ـ معرفة الموجودات «الوجود المادي الثنائي» الأشياء.

ب ـ معرفة الله من خلال كلماته وآياته. فكلما زادت معرفة الإنسان بالموجودات «كلمات الله وآياته ـ العالم الرحماني» زادت معرفته بالله من خلال أسمائه الحسنى «السمات».

٢ ـ الغيب والشهادة:

الغيب في اللسان العربي من «غيب» وهي أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون ثم يقاس عليه.

والشهادة في اللسان العربي من «شهد» وهو أصل يدل على حضور وعلم، والمشهد محضر الناس.

إن مفهوم الغيب والشهادة كما ورد في الكتاب هو مفهوم مادي بحت فالغيب لا يعني في الكتاب كما يقال في المصطلح الفلسفي ما وراء الطبيعة، ففي معنى حصول حدث ما أثناء غياب الشخص المعني قال تعالى حول امرأة العزيز ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. (يوسف ٥٢). وجاءت في المعنى المباشر لغياب شيء محدد ما في قوله. ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾. (النمل ٢٠). وعندما أنهى جزءاً من قصة نوح في سورة هود قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. (هود ٤٩).

لقد كانت أحداث قصة نوح بالنسبة لقومه من الشهادة وليست من الغيب، وعندما أخبر الله بها النبي ﷺ قال عنها إنها من أنباء الغيب لأنها كانت غيباً بالنسبة لمحمد ﷺ ولقومه، وقوله أيضاً عن مريم واصطفائها. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. (آل عمران ٤٤). ولكي يبين أن حدث مريم لم يكن شهادة

للنبي ﷺ فيقول ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. وعندما أخبر الله تعالى النبي ﷺ، بعض أحداث نوح ومريم على أنها غيب دخلت في معلومات النبي ﷺ وفي معلوماتنا نحن وأصبحت من المدركات ولو أنها غابت عنا.

ولكي يبين أن القصص كله غيبٌ بالنسبة للنبي، وشهادةٌ لله مع أنه أحداث مادية وإنسانية قال ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَاكُنَّا غَائِبِينَ﴾. (الأعراف ٧) ولكي يؤكد أن الغيب هو أشياء وأحداث مادية قال: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (النمل ٧٥) و﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. (فاطر ٣٨) و: ﴿قُلْ لَاأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (الأعراف ١٨٨).

ان الدول تحاول تطبيق هذه الآية «أي الآية ١٨٨ من سورة الأعراف» بكل إمكانياتها، فإذا سألنا الدول عن سبب الأقمار الصناعية والتصوير الفضائي وإرسال الجواسيس وصرف مليارات الدولارات على هذه المشاريع لجاءنا الجواب بشقين اثنين:

- الأول: هو معرفة ما تبيته الدول بعضها لبعض واستكشاف الكوارث الطبيعية وذلكم من باب درء الأذى وهذا هو شق الآية. ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾. فعندما يعرف الإنسان ما يبيته له الآخرون فإنه يتخذ الاحتياطات اللازمة لدرء الأذى.

- الثاني: هو استكشاف خيرات الأرض واستثمارها وعقد الصفقات التجارية التي تؤدي إلى ربح وهذا ما يسمى بدراسة الجدوى الاقتصادية وهذا هو شق الآية ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾. فالغيب أشياء وأحداث مادية موجودة، أو حصلت ولكنها غابت عن بعض الناس أو عن كل الناس ولكنها ليست في ما وراء الطبيعة وقابلة للإدراك. فهناك في القرآن آيات الجنة والنار والبعث والحساب والساعة وكلها من الغيبيات ولكنها في عالم المادة وقابلة للإدراك. لذا قال عن بداية الكتاب ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. (البقرة ٢).

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. (البقرة ٣) وبما أن الله كامل المعرفة فلا يوجد بالنسبة له أشياء موجودة أو أحداث حصلت لا يعرفها لذا قال عن نفسه عالم الغيب والشهادة في قوله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾. (الرعد ٩). وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾. (الحشر ٢٢). وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (التغابن ١٨). ولكي يؤكد أن عالَم الغيب هو من عالَم الرحمانيات المادي قال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾. (ق ٣٣). وقال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. (يس ١١) وقال عن الجنة والنار إنها مادية ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾. (مريم ٦١). وقال: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾. (مريم ٧٨).

والآن يمكن لنا أن نعرّف الغيب كالتالي:

ـ الغيب: هو وجود لأشياء مادية أو أحداث طبيعية أو إنسانية غابت عن المعرفة الإنسانية الحضورية أو العقلية غياباً جزئياً أو كلياً، أي أن الغيب إمّا أن يكون جزئياً أو كلياً.

فالغيب الجزئي: هو أشياء أو أحداث مادية أو إنسانية «كالقصص» شهدها «وعرفها» أناسٌ وغابت عن غيرهم شهوداً ومعرفة، وهناك الآن أشياء كثيرة في العالم يعرفها البعض وغابت عن البعض الآخر وهذا النوع من الغيب متحول غير ثابت، وهو غير أبدي، لأن ما عرفه البعض اليوم وهو غيب للآخرين قد يعرفه الآخرون غداً.

الغيب الكلي: هو أشياء أو أحداث مادية لا يعرفها أحد إلّا الله، وهذا الغيب هو غيب نسبي لأن ما تجهله الإنسانية اليوم قد تعرفه غداً. هنا وضعت الإنسانية ككل لأنه إذا عرف شخص واحد شيئاً ما أو حدثاً ما فهذا الشيء وهذا الحدث لا يدخل في الغيب الكلي.

فالغيب الكلي والجزئي متحرك دائماً باتجاه المعرفة وبالتالي باتجاه التقلص، وقد غدا هذا الأمر واضحاً بعد التقدّم الذي حصل في ميدان المعلومات والتقدم الهائل في انتقال المعلومات من مكان إلى مكان آخر.

أما ما اختص به الله سبحانه وتعالى فهو «مفاتيح الغيب» وهي مجموعة من القوانين إذا عرفها الإنسان أصبح مؤهلاً لأن يكون كامل المعرفة والتي لا يطلع عليها إلا من ارتضى من «رسول» حيث قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾. (الجن ٢٦). ثم أتبعها بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾. (الجن ٢٧).

أمـا الشهـادة فمن المعنى اللغـوي الـذي هو الحضـور والعلم يتبين أنهـا إمّـا المعـرفـة الحسيـة المبـاشـرة «الحضورية» الآتية عن طريق الحواس مباشرة، أو عن طريق السمـع فقـط، والتي تسمى «المعـرفـة الخبرية» وإمّا المعرفة الآتية عن طريق الاستنتـاج العقلي والتي هي المعـرفـة النظـريـة. لذا قال عن اليوم الآخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُـوعٌ لَهُ النَّـاسُ وَذَٰلِـكَ يَوْمٌ مَشْهُـودٌ﴾ (هـود ١٠٣). وهنـا ﴿يَـوْمٌ مَشْهُـودٌ﴾ تعني الحضور المباشر للناس في هذا اليوم، لا المعرفة النظرية فقط.

٣ ـ السمع والبصر والفؤاد:

لقد جاءت الألفاظ الثلاثة «السمع والبصر والفؤاد» مجتمعة في عدة أماكن في الكتاب كقوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْـعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِـكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً﴾. (الإسراء ٣٦).
- ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل ٧٨).
- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك ٢٣).
- ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَـخَ فِيـهِ مِنْ رُوحِـهِ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْـعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِـدَةَ قَلِيـلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾. (السجدة ٩).

نلاحظ في هذه الآيات كيف ربط بين السمع والبصر والفؤاد فالسمع هو وظيفة لعضـو هو الأذن، والبصـر وظيفـة لعضـو هو العين، وفي اللسان العربي لا تعطف إلا الصفـات بعضهـا على بعضهـا أو المـوصـوفـات بعضهـا على بعض. ففي عطف الموصوفات قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ *﴾. (البلد ٨، ٩، ١٠).

هنا نلاحظ في الآيات الثلاث من سورة البلد كيف ذكر الأعضاء فبدأ بالعينين ثم تلا ذلك اللسان والشفتين ولم يقل بصراً ولساناً أو بصراً وشفتين، وهنا تأتي النتيجة المباشرة بأن النجدين هما أعضاء وهنا بمعنى الثديين. يدلك على هذا وضع النجوم

بين الآيات الثلاث إذ لم يضعها في آية واحدة لتبيان اختلاف الوظائف لهذه الأعضاء.

وبما أن السمع والبصر هما وظائف لأعضاء، وبما أنه عطف الفؤاد عليهما نستنتج أن الفؤاد وظيفة لعضو وليس عضواً، فالفؤاد هو الإدراك الناتج عن طريق الحواس مباشرة وعلى رأس هذه الحواس السمع والبصر لأن التفكير الإنساني بدأ بهما أي الإدراك المشخص بحاستي السمع والبصر. وهو المقدمات المادية للفكر الإنساني. لذا قال عندما رمت أم موسى ولدها في اليم بيديها ورأت ذلك بأم عينيها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾. (القصص ١٠). أي أن المقدمات الحسية عند أم موسى جعلتها في وضع حيواني انعكاسي غير قادرة على التفكير فعندما يتعدى إنسان على قطط صغار فإن تصرف الأم يأتي مباشرة وتبدي استياءها مباشرة وتبدأ بالدفاع عن أطفالها لذا أتبعها بقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾. وكذلك قوله عن تنزيل القرآن مرتلاً. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. (الفرقان ٣٢). هنا ذكر الفؤاد في مجال التنزيل هو تبليغ القرآن للنبي ﷺ بشكل مباشر عن طريق الوحي حيث أن القرآن لم يأت للنبي ﷺ عن طريق السمع والبصر لكي يتثبت الإنسان ما سمع وما أبصر، ولو جاءه دفعة واحدة لوقع فيه الشك بين الوهم والحقيقة. علماً بأن بداية الوحي كانت بداية فؤادية بحتة حيث جاءه جبريل صوتاً وصورةً وعلمه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. (العلق ١) ولو بدأ الوحي بداية مجردة لما صدق النبي ﷺ ذلك. وهذه ناحية مهمة جداً لنا نحن المسلمين بأن بداية الوحي كانت بداية فؤادية لها علاقة مباشرة بالسمع والبصر حيث جاءه جبريل مشخصاً. وكذلك نفهم شروط الشهادة التي يجب أن يؤديها الإنسان. فحتى لا تكون الشهادة شهادة زور يجب أن تكون شهادة فؤادية أي معلومات معتمدة على السمع والبصر مباشرة. أمّا إذا كانت غير ذلك كالرأي الاستنتاجي أو الاستقرائي فتسمى خبرة وليست شهادة. ومن الآية رقم «٧٨» من سورة النحل نستنتج أن الإنسان يولد خالياً من كل المعلومات، أي أنّ المعلومات المخزنة عنده تساوي الصفر، والحواس وعلى رأسها «السمع والبصر» هي مصدر بداية المعلومات، فالفؤاد «الإدراك المشخص» يعتبر المقدمات المادية للفكر الإنساني المجرد. أي أن الفؤاد يعتبر المرحلة الأولى من مراحل التفكير الإنساني - وهو القاسم المشترك

بين أهـل الأرض جميعـاً عالمهم وجـاهلهم ـ ذكيهم وغبيهم . **«انظـر فرع نشأة الفكرة وارتبـاطـه باللغـة»** . وهكذا نفهم لماذا يعتبر التلفزيون أهم وسيلة للإعلام ظهرت في العـالم . . لأنـه مصـدر معلومـات فؤ ادي يعتمد على السمع والبصر «صوت وصورة» ولأنه جذب معظم أهل الأرض ودخل في حياتهم .

وهنا نفهم قوله تعالى : **﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء . . الآية﴾** . (البقـرة ٢٥٥) . هنـا ربـط المشيئة بحرف الجر «الباء» بقوله «بما شاء» وهذا يعني أن المعلومات التي يحيط بها الإنسان تأتي بالوساطة التي أرادها الله وهي السمع والبصر والفؤ اد . وأيضـاً ربـط الفؤ اد بالسمـع والبصـر لكي يميـز بداية التفكير الإنساني عن البهـائم ، فالبهـائم لهـا سمـع وبصـر وفؤ اد انعكاسي ولكنها دون فؤ اد إنساني . وقد أعطى الكتـاب معنى قيـاسيـاً للفؤ اد حيث هو في اللسان العربي من «فأد» وهو أصل صحيـح يدل على حمّى وشـدة حرارة ومن ذلـك فأدت اللحم أي شويتـه . وقد سمي بذلـك الفؤ اد لأنـه مقـدمـات أو هو المـرحلة الأولية من مراحل الفكر الإنساني ، وقد أعطى القرآن هذا المعنى على أنه معنى محمول على المعنى الأول حيث أن الفؤ اد هو بمثابة الصاعق «المحرض» أو مرحلة الإقلاع للفكر الإنساني .

٤ ـ القلب :

لقـد جاء القلب في اللسـان العـربي من «قلب» والقـاف والـلام والباء أصلان صحيحان : أحدهما يدل على خالصِ شيء وشريفِهِ ، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة ، والأول القلبُ قلب الإنسان وغيره سمي قلباً لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه ، وخالصُ كل شيء وأشرفه قلبه .

لنـر الآن كيف استعمـل الكتابُ هذا المصطلح . فما هو أخلص شيء وأشرفه في الإنسان؟ ويا ترى أي عضو من أعضاء الإنسان أطلق عليه الكتاب مصطلح القلب؟

لقد اطلق الكتاب مصطلح القلب على عضو يعتبر من أنبل الأعضاء في جسم الإنسـان ، هذا العضـو هو المـخ وهـو أنبـل الأعضـاء لدى الإنسان لذا سمي بالقلب وقلب المـخ هو القشـرة الخـارجيـة حيث هي أنبل جزء فيه «مركز الفكر والإرادة» وفي

هذه الحالة يزول التعجب حيث أن الكتاب ذكر من أعضاء الإنسان اليدين والأرجل والجلود والحناجر والأذن والعين واللسان والشفة والأمعاء والقلب فكيف لم يذكر المخ وهو أنبل الأعضاء قاطبة؟.

وإذا استعرضنا آيات الكتاب رأينا أنه ذكر المخ صراحة على أنه القلب وذلك في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (الحج ٤٦). ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. (الأعراف ١٧٩) والإنسان يتميز عن الأنعام بالقشرة الخارجية للمخ.

نلاحظ في الآيتين «٤٦» من سورة الحج و«١٧٩» من سورة الأعراف أن القلب ليس العضلة التي تضخ الدم حيث وضع الصفات والموصوفات التالية:

١ ـ «آذان يسمعون بها»	الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن.
٢ ـ «أعين لا يبصرون بها»	العين عضو والبصر وظيفة العين.
٣ ـ «آذان لا يسمعون بها»	الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن.
٤ ـ «قلوب يعقلون بها»	القلب عضو والعقل وظيفة القلب «وهنا هو المخ الإنساني».
٥ ـ «قلوب لا يفقهون بها»	القلب عضو والفقه وظيفة القلب.

قد يسأل سائل لماذا لم يذكر المخ صراحة؟ فالجواب أنه في سورة الأعراف ذكر الجن والإنس وذكر القلب على أنه عضو التفقه، والقلب هو أنبل وأشرف عضو في المخلوق وهو المخّ عندَ الإنسان وليس من الضروري أنه المخ عند الجن لأن الجن مخلوقات عاقلة من نوع آخر فكان القلب الذي هو أنبل عضو بغض النظر عن اسمه الفيزيولوجي تحديداً هو قاسم مشترك بين الإنس والجن.

وقد ذكر الزمخشري في «الكشاف م ٣ ص ١٦٧» «أن القلوب مراكز العقول».

لقد ذكر الكتاب للقلوب فعلان الأول يعقلون بها والثاني يفقهون بها وهما فعلان متغايران. فالفقه جاء من «فقه» ويدل على إدراك الشيء والعلم به وكل علم

بشيء فهو فقه ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه، وأفقهتك الشيء إذا بينته لك. فيهمنا هنا المعنى الأساسي وهو العلم بالشيء بكامل تفاصيله حيث سمي فيما بعد العلم بالحلال والحرام «الفقه»، علما بأنه يحتوي على تفاصيل دقيقة ظرفية وعينية. أما قوله: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (الحج ٤٦). فهنا الصدور لا تعني صدر الإنسان الذي يحتوي على العضلة القلبية وقد شرحت في الباب الأوَّل مفهوم الصدر كقوله ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾. (الناس ٥). وتعني الناس الذين يشغلون مواقع الصدارة في المجتمع، وقوله ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. (العنكبوت ٤٩) هنا أيضاً الناس الذين يشغلون مراكز الصدارة بين العلماء أي الراسخون في العلم، فالصدر هنا أبرز شيء في الإنسان وهو الرأس الذي يحتل مركز الصدارة بين أجزاء الإنسان.

والصدر في اللسان العربي له أصلان صحيحان «أحدهما يدل على خلاف الورد» والآخر صدر الإنسان وغيره، والصدار ثوب يغطي الرأس والصدر. ففي معنى الرأس قوله تعالى: ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. وفي معنى الصدر جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. (الانشراح ١). وهنا لا تعني المعنى الفيزيولوجي المباشر لشق الصدر «عملية جراحية» ولكن لها معنى محمول وهو التشجيع والراحة في الإقدام على عمل ما كقوله ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. (طه ٢٤).

أما في معنى الصدور عكس الوُرُودِ فقد جاءت في قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾. (الزلزلة ٦) وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾. (القصص ٢٣).

الآن إذا رتلنا آيات الكتاب التي تحوي على القلب فإننا نراها لا تخرج عن هذا المعنى:

١ ـ ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. (آل عمران ١٥٩).

هنا ذكر ناحيتين مهمتين في الإنسان: الناحية الأولى الفظاظة في الطبع وهي سلوكية، وغلاظة القلب وهي التي نقول عنها الآن «بلادة الذهن أو الغباء» STUPID. فالنبي ﷺ كان فطناً حيث أن الفطنة من صفات النبوة.

٢ - ﴿إلاَّ مَنْ أتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (الشعراء ٨٩). ﴿وَإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبْرَاهِيمَ * إذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (الصافات ٨٣، ٨٤). هنا القلب السليم نعني سلامة التفكير ونضجه، وقد ذكر هذا عن إبراهيم في مكان آخر في قوله ﴿وَلَقَدْ آتينا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾. (الأنبياء ٥١).

وقد عبر أيضاً عن القلب السليم في قصة تكسير إبراهيم للأصنام بقوله: ﴿فَاسْألُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾. (الأنبياء ٦٣). وقوله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ﴾. (الشعراء ٧٢). ﴿أوْ يَنْفَعُونَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ﴾. (الشعراء ٧٣). وكذلك إخباره عن سلامة تفكير إبراهيم: ﴿وَإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. (البقرة ٢٦٠) هنا أعطانا رأس المنهج العلمي السليم الذي بدونه لا يمكن أن يتقدم العلم وهو منهج الشك للوصول إلى اليقين. ومنهج التجربة العلمية «الاختبار» لمطابقة الحقيقة الموضوعية مع المقدمات والنتائج النظرية. فالعلماء الآن يضعون النظريات العلمية، ويعلمون أنها مترابطة منطقياً، ومع ذلك فإنّهم يخضعونها للتجربة العملية لمطابقة النظري مع الواقع العلمي وهذا هو أكبر اختبار لأية نظرية، وهذا ما فعله إبراهيم تماماً، إذ أراد أن يخضع نظرية البعث وإحياء الموتى للتجربة العملية مع أنه واثق منها لذا قال ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فكان إبراهيم بهذا إماما للنَّاسِ في قوله: ﴿وَإذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأتَمَّهُنَ قَالَ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. (البقرة ١٢٤).

هنا نلاحظ قوله: ﴿إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً﴾. ولم يقل «إني جاعلك للمتقين إماماً» فإبراهيم هو إمام الناس المؤمن منهم والكافر ولا يمكن أن يكون امامهم إلاّ بالمنهج العلمي السليم لذا قال: ﴿إذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (الصافات ٨٤). وهنا يجب أنْ لا نفهم الإمامية بالتقوى لأن المتقين هم من الناس ولكن ليس كل الناس من المتقين. وقد أكد ذلك بقوله: ﴿وَإذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ وقد قلنا إن الكلمات هي عين الموجودات وقوانينها وليست صلاةً أو صوماً أو أخلاقاً فاضلة.

٣ - ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. (البقرة ٩٧). ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

(الشعراء ١٩٣ - ١٩٤) لقد كان الكتاب يوحى إلى النبي ﷺ وحياً مجرداً بوساطة جبريل وكان يغيب عن الوعي ويصحو، فإذا بالآيات الموحاة منقوشة «مسجلة» في دماغه لذا قال: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (البقرة ٩٧). وقال: ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأْ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾. (الشورى ٢٤). والافتراء هو نشاط فكري بحت ويجري في المخ، لذا علق على الافتراء بقوله: ﴿إِنْ يَشَأِ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾. ففي هذه الحالة يصبح المخ عاجزاً عن التفكير، وكذلك في قوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾. (المنافقون ٣).

٥ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَافِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. (البقرة ٢٠٤).

القول هو من نشاط الفكر وقد قلنا: إن الكلام حين يتحول إلى معنى في الذهن يصبح قولاً، وهذه الآية تصف المنافقين: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. (الفتح ١١). فالإنسان عندما يقول شيئاً ويضمر شيئاً آخر فإنه يضمره في دماغه لا في العضلة التي تضخ الدم.

ثم إنه لو كان يقصد بالقلب العضلة التي تضخ الدم فإن الحيوانات العليا كالقردة لها عضلة قلبية كعضلتنا تماماً ولكن دماغها ليس كدماغنا أي أنها لا تملك نشاطاً فكرياً. وكل شيء قاله القلب في الكتاب يتعلق بالنشاط الفكري الذي يميز الإنسان عن بقية الحيوانات.

٦ - ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. (محمد ٢٤).

إن التدبر صفة إنسانية والقرآن بحاجة إلى تدبر لذا أتبع تدبر القرآن بقوله: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. هذا الإصطلاح الذي نقول عنه الآن مخ مغلق أو مقفل (CLOSED MIND).

٧ - ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾. (الحشر ١٤).

ففي قوله: ﴿وقلوبهم شتى﴾. يذكر الخلافات الفكرية بين اليهود.

٨ - ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ﴾. (الصف ٥).

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ﴾. (آل عمران ٨).

فالزيغ تعني النقص وهو عكس الطغيان «الزيادة» كقوله: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. (النجم ١٧) وهو الانحراف لذا قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾. أي أصبح تفكيرهم منحرفاً.

٩ ـ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. (البقرة ٧٤).

فقوله: ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. عن بني اسرائيل تعني أنهم تحجروا في تفكيرهم من بعد موسى، ولا تعني «قست قلوبكم» أي حصل معهم تصلب في الشرايين.

١٠ ـ ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. (البقرة ٢٢٥).

هنا يذكر الله أن المؤاخذة عن الأيمان والأعمال التي يقوم بها الإنسان عمداً وعن وعي لما يعمل، ولذا قال: ﴿وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

وهذا المعنى جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. (الأحزاب ٥).

هنا أيضاً وضح الأعمال المقصودة عن وعي وإدراك حيث عبر عنها بقوله: ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وقد عبر عن الحالة غير المقصودة بقوله: ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ﴾. والخطأ والعمد ماهما إلّا نشاطان فكريان.

١١ ـ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾. (الأحزاب ٩). ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾. (الأحزاب ١٠).

عندما ينتاب الإنسان الخوف ويظن أن الذي اعتمد عليه قد سحب تأييده، «في هذه الحالة «المعتمد عليه هو الله» لذا قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾. في هذه الحالة ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. تعني مايلي: الحنجرة هي جهاز الصوت «الكلام» والقلب هو جهاز الفكر والعقل. أي يبدأ الإنسان بالتعبير صراحة وجهراً عن شكوكه واستيائه.

لذا عندما قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. أتبعها بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾.

كذلك نفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. (غافر ١٨).

حيث أنه في يوم الحساب ﴿يوم الأزفة﴾. كل شيء موجود في القلب «في المخ» يصبح على اللسان. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾. ولا يوجد أي شيء يمكن أنْ يُخْفيَه الإنسان مع أنه لا يرغب بإبدائه لذا قال: ﴿كَاظِمِينَ﴾ والكاظمون لها أصل واحد وهو «الإمساك والجمع لشيء».

وهذا المصطلح مازال شائعاً حتى يومنا هذا اذ نقول ان زيداً من الناس لا يخفي شيئاً، ما في قلبه على لسانه.

١٢ ـ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة ٦٠).

يحدد هنا مصارف الصدقات، ويذكر أن نوعاً من المستفيدين منها هم مجموعة من الناس سماهم «والمؤلفة قلوبهم»، هؤلاء الناس الذين لهم جاه معين أو من الذين يتصفون بالحكمة ورجاحة العقل والذين يؤدون دوراً في إقناع الناس الآخرين بتأييدهم لفكرة أو قضية ما وعدم الوقوف ضدها.

١٣ ـ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (القصص ١٠).

لقد قلنا في بحث الفؤاد. إنّ الفؤاد هو الإدراك المشخص المرتبط بالحواس مباشرة وعلى رأسها السمع والبصر وهو القاسم المشترك بين أهل الأرض جميعاً الذين يملكون حواساً، لذا عندما ألقت أم موسى ولدها في اليم على مرأى ومسمع منها فرغ إدراكها الفؤادي أي كادت تخضع لرد الفعل الانعكاسي البهيمي أي تسلك سلوكاً بهيمياً كما تسلك البهائم عند فقدان أولادها وذلك بأن تصوت وتصرخ وتجلب الانتباه إليها لذا أتبعها بقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾. ولكن لكي يثبتها ويجعل عقلها يسيطر عليها وتسلك سلوك انسان رابط الجأش صابر قال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. ومركز الإرادة في القلب.

١٤ ـ ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّها مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ﴾. (الحج ٣٢).

هذه الآيـة تتكلم عن شعـائـر الحج، وشعائر الحج طقوس تعبدية لذا ذكر فيها التقـوى، التقـوى جاءت من فعـل «وقى» وهي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله «تَوَقَّهِ»، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية. ومنه جاء الطب الوقائي وهو إجراءات يقوم بها الإنسان ليدفع عن نفسه المرض وكذلك تعظيم شعائر الله هو من إجراءات الوقاية الواعية العاقلة التي يقوم بها الإنسان لذا قال: ﴿مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ﴾.

وهنا أيضاً نذكر قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. (الرعد ٢٨).

فحتى يطمئن تفكيـر الإنسـان بذكـر الله يجب عليه أولاً أن يكون مؤمناً لذا بدأ الآية بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. والاطمئنان بذكر الله هو الاتباع الواعي لأوامر الله الواردة في الكتـاب وعلى رأسهـا الوصايا، هذا الاتباع الواعي هو الذي يولد الاطمئنان، لذا أتبعهـا. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْـرِ الله﴾. وعنـدمـا ذكـر الـوصـايا الخمس الأولى من الفـرقـان قال: ﴿ذلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (الأنعـام ١٥١). والمصطلح الحديث لاطمئنان القلب ما يسمى «براحة البال peace of mind».

١٥ ـ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّـذِينَ كَفَـرُوا الـرُّعْبَ بِمَـا أَشْرَكُوا بِالله مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ﴾. (آل عمران ١٥١).

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّـكَ إِلَى الْمَـلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. (الأنفال ١٢).

إن الـرعب في اللسـان العـربي له ثلاثة أصول «الخوف، والملء، والقطع». فهنـا المعنى الأول وهـو «الخـوف» والثـالث وهـو «القطـع» كقـولنا للشيء المقطع: مرعب، فهنا الرعب هو الخوف واختلاف الرأي وهذه من صفات القلوب.

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾. (الحجر ١٠).

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾. (الحجر ١١).

﴿كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾. (الحجر ١٢).

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ . (الحجر ١٣) .
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ . (الشعراء ١٩٨) .
﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَاكَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ . (الشعراء ١٩٩) .
﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ . (الشعراء ٢٠٠) .
﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ . (الشعراء ٢٠١) .

يذكر القرآن هنا أنَّ المجرمين يصرون على أنه مجموعة الأساطير القديمة لذا تكلم عن شيع الأولين علماً بأن طريقة النبوات والمعجزات للأولين قد خلت، وأن هذه المعجزات جديدة هي للآخرين وليست للأولين .

١٧ ـ ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ . (الأحزاب ٤) .

هنا يتكلم عن جوف الرأس «الجمجمة» الذي يحتوي على دماغ واحد مهما كانت التشوهات الخلقية لأنه لو كان هناك دماغان لجسد واحد لأصبح هذا المخلوق اثنين وليس بواحد . لأن الذي يحدد شخصية الإنسان دماغه وليس العضلة القلبية أو بقية الأعضاء .

نخلص إذاً إلى أنَّ الآيات الواردة في الكتاب والمذكور فيها «القلب» تعني أشرف وأنبل عضو في الإنسان وهو الدماغ وهو عضو التعقل كما أن العين هي عضو البصر والأذن عضو السمع ، وهذا ما نراه في الطب الحديث إذ أن القلب الذي يضخ الدم يمكن أن ينتقل من إنسان إلى آخر دون أن يؤثر على شخصية الآخر . ولكن إذا انتقل دماغ زيد إلى جوف رأس عمرو «جوف الجمجمة» فان عمراً سيصبح زيداً .
ولكي نميز القلب الذي يعقل عن القلب الذي يضخ الدم يجب علينا أن نقول : «القلب» عن الذي يعقل و«العضلة القلبية» عن الذي يضخ الدم . ونحن نعلم الآن أن العضلة القلبية والدماغ هما الأعضاء النبيلة في الإنسان، والدماغ أنبلها حيث أن الموت يتحدد بتوقف الدماغ عن العمل لا بتوقف القلب .

٥ ـ العقل والفكر

العقل في اللسان العربي جاء من «عقل» وهو أصل واحد مطرد منقاس يدلُّ عُظْمُهُ على حُبْسَةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة . من ذلك العقل وهو الحابس عن

ذَمِيمِ القول والفِعْلِ. قال الخليل: العقل: نقيض الجهل يقال: عَقَلَ، يَعْقِلِ عَقْلاً، ومن الباب: المَعْقِلُ وهو الحصن. ويقال: عَقَلت البعير، أعْقِله عَقْلا إذا شددت يده بعقاله، وهو الرباط، وعقيلة كل شيء أكرمه.

والفكر في اللسان العربي جاء من «فكر» وهي تردد القلب في الشيء. وجذرها «فك» وتعني التفتح والانفراج، من ذلك فكاك الرهن وهو فتحه من الانغلاق وجاءت الراء للتكرار والترداد في عملية التفتح وفك الأشياء بعضها عن بعض، ومنه جاء معنى الفكر وهو فك الأشياء بعضها عن بعض وتقليبها.

وهكذا نرى أن الفكر والعقل صفتان متتامتان فالفكر يفكك الأشياء بعضها عن بعض ويقلبها والعقل يشد «يربط» الأشياء بعضها إلى بعض فالفكر يفاضل ويحلل الأشياء بعضها عن بعض والعقل يكامل ويركب عناصر الأشياء بعضها إلى بعض ليصدر حكماً يتعلق بالوجود المادي الموضوعي أو حكماً يتعلق بالسلوك الاجتماعي والأخلاقي.

- الفؤاء والفكر والعقل من سمات الإنسان وهي لنفخة الروح. **هذه الصفات الثلاث ارتبطت بنشأة اللغة.**

٦ - البشر والإنسان:

لقد ورد مصطلح البشر في الكتاب ليعبر عن الوجود الفيزيولوجي لكائن حي له صفة الحياة كبقية المخلوقات الحية وقد شرحت في القانون الأول للجدل كيف نَمَت الحياةُ وتطورت عن طريق البث الذي يحتوي على الطفرات الحياتية التي أدت إلى ظهور البشر وقد تميز البشر في الظهور ككائن حي مستقل في الفترة التي ظهرت فيها الأنعام ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾. (الزمر ٦). ففي هذه الآية نلاحظ أن وجود الإنسان البشري قد تزامن مع ظهور الأنعام وقد شرحت في بحث مفردات الذكر معنى الإنزال والتنزيل. وكيف أن الإنسان في رحم الأم يمر بكل مراحل التطور التي مر بها وهي الظلمات الثلاث وهي المرحلة البحرية والمرحلة الحيوانية البحرية البرية

والمرحلة الحيوانية البرية. وعندما شرح الكتاب إحدى مراحل خلق الإنسان بالمعنى العام وذلك بالمقارنة مع الجان قال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾. (الحجر ٢٦).

وعندما أعطى التفصيل أتبعها بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾. (الحجر ٢٨). ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾. (الحجر ٢٩). وبعد نفخة الروح أمر الله إبليس بالسجود فأجاب: ﴿**قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾. (الحجر ٣٣). وفي سورة «ص» قال: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**﴾. (ص ٧١). ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾. (ص ٧٢). وقد قلنا: إن الخلق هو التقدير قبل التنفيذ. لذا فعندما قال للملائكة: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا**﴾ فهذا يعني أن البشر لم يظهر بعدُ لذا اتبعها بقوله: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**﴾. ثم اتبعها بقوله ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ وبين الخلق والتسوية توجد الأداة «إذا» وهي ظرف لما يستقبل من الزمن. لذا قال ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾. (الأنعام ٢). ثم استعمل أداتين معاً وهما «ثم واذا» في قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾. (الروم ٢٠) وقد استعمل هاتين الأداتين معاً بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب «المواد غير العضوية» وبين البشر هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين. وقد بين أن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح وأن البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة. وأن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان حيث أن الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش «اجتماعي».

وقد أجمل خلق الإنسان في بداية التنزيل في قوله: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾. (العلق ٢). والعلق جاء من «علق» وفي اللسان العربي علق به وعلقه: نشب به، كقول جرير يصف شجاعاً:

إذا علِقتْ مخالِبُهُ بقِرْنٍ ... أصابَ القَلْبَ أو هَتَكَ الحجابا

«الزمخشري أساس البلاغة ص ٣١١»

وفي ابن فارس العين واللام والقاف أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد

وهو أن يناط الشيء بالشيء ثم يتسع الكلام فيه وأحد معاني العَلق «الدم الجامد».

لقد فهم المفسرون العلق على أنه الدم الجامد وهو تأويل لا يتطابق تمام التطابق مع الحقيقة وذلك لجهلهم بوجود الخلية المنوية والبويضة واللقاح الخلوي.

فالعلق هو أن يَعْلَقَ شيء بشيء آخر ومفردها «علقة» لذا قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾. فوضع العلقة بعد النطفة وهي مفرد وتعني دخول الحيوان المنوي إلى البويضة «تعلق شيء بشيء آخر» وهذا ما نسميه اللقاح وهو ما نقول عنه الآن في المصطلح الحديث «علاقة» فالعلق جمع علقة «أي علاقات» وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. أي أن الإنسان مخلوق من مجموعة من العلاقات هذه العلاقات التي نقول عنها في المصطلح الحديث علاقات فيزيائية وكيميائية معدنية وعضوية وبيولوجية الخ. ثم لنلاحظ أن قوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. قد جاءت في بداية الوحي للتنويه بأن الوجود المادي هو مجموعة كبيرة من العلاقات المتداخلة بعضها ببعض، ومن هذه العلاقات لا من خارجها تم خلق الإنسان. وذلك للدلالة على أن الوجود المادي خارج الوعي الإنساني هو مجموعة من العلاقات.

- الآيات التي ذكر فيها البشر تعني الوجود الفيزيولوجي المادي للإنسان وذلك للدلالة على جنسه كبشر وليس ملكاً أو من جنس آخر:

١ - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾. (آل عمران ٤٧).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. (مريم ٢٠).

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّاً﴾. (مريم ١٧).

إنَّ هذه الآيات تبين أنَّ مريم قد رأت روح الله في صورة بَشرٍ بحت لا في صورة ملكٍ أو جن ولذلك قال: «سَوِيّاً».

٢ - ﴿مَاكَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾. (آل عمران ٧٩).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. (الشورى ٥١).

هنا يؤكد طريقة الوحي للجنس البشري لأنه لو كان جنساً آخر لكان من الممكن أن تكون طريقة الوحي غير الذي ذكر فمثلاً في الوحي للنحل، والنحل ليس بشراً كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾. (النحل ٦٨) فهذا يعني أن طريقة وحي

الله للنحل غير طريقة وحي الله للبشر. ولكي يؤكد أن المسيح بشر والبشر إذا أوحي إليه من الله لا يقول للناس كونوا عباداً لي. فإذا حصل أن قال أحد من البشر للناس كونوا عباداً لي فهذا يعني أنه دجال ولم يُوحَ إليه شيء.

٣ - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾. (النحل ١٠٣).

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾. (المدثر ٢٥).

هنا أكد أن الذي يكلم النبي ﷺ ليس من البشر أي ليس من جنس النبي ﷺ وإنما يعلمه الله عن طريق الوحي وهو ليس من البشر. وقول الوليد بن المغيرة إن الذي يوحى إلى محمد هو من قول البشر أي من قول مخلوق من جنسنا.

٤ - ﴿مَاهَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾. (المؤمنون ٣٣).

هنا أكد أن الطعام من صفات البشر وأن الرسل الذين أرسلهم الله كانوا من البشر يأكلون كما تأكل بقية الناس.

٥ - ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاء﴾. (المائدة ١٨). ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْء﴾. (الأنعام ٩١). ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾. (ابراهيم ١٠). ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. (ابراهيم ١١). ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾. (الكهف ١١٠). ﴿مَاهَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَاسَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾. (المؤمنون ٢٤).

- ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. (الشعراء ١٥٤).

- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. (الشعراء ١٨٦).

- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾. (هود ٢٧).

- ﴿وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَاهَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. (يوسف ٣١).

- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾. (الإسراء ٩٤).

- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾. (المؤمنون ٣٤).

- ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾. (القمر ٢٤).

- ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عَابِدُونَ﴾ . (المؤمنون ٤٧) .

هنا نلاحظ في تلك الآيات السابقة ذكر البشر في مجال الجنس الفيزيولوجي المادي أي أنه كبقية الناس لهم أيدٍ ومعده ووجه وباقي الأعضاء ويأكلون كبقية الناس ولكن يتميزون عنهم فقط بالوحي لذا قال ﴿بشر مثلنا﴾ : ﴿لبشرين مثلنا﴾ . وقد قارن البشر كجنس بأنه ليس ملائكة بقوله في مجال المقارنة مع البشر. ﴿وَلَو شَاء الله لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ . (المؤمنون ٢٤) والملائكة ليسوا من جنس البشر وذلك أن الناس تعودوا بأن ينزل الله ملائكة رسلاً قبل أن يبعث الله رسلاً منهم بصفة بشرية ولذا كان هذا الاستغراب الكبير.

٦ - ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَاأَدْرَيكَ مَاسَقَرُ* لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ . (المدثر ٢٦ ، ٣٠) .

هنا بين أن العذاب جسدي فيزيولوجي بحت قال عن سقر بأنها ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَر﴾ ولكي يبين أن إيراد ذكر سقر في الكتاب هو لهذا الجنس الذي هو البشر.

- الآيات التي جاء فيها الإنسان «الناس» تعني الكائن العاقل :

لقد ورد الإنسان والناس في عدة آيات بمعنى الكائن العاقل ولكن يجب أن نميز بين أصل الإنسان وهو من «أنس» وتعني في اللسان العربي ظهور الشيء وكل شيء خالف طَريقة التوحش ومنه الإنس أي أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه ويقال إنسان وإنسانان وأناسي .

فالإنسان هو البشر المستأنس غير المتوحش ، أي له علاقة اجتماعية وصلة مع غيره ، أما الناس فقد جاءت من «نوس» وهو في اللسان العربي أصل يدل على اضطراب وتذبذب فعندما اجتمع الإنسان مع أخيه الإنسان تولد عن هذا الاجتماع اضطراب وتذبذب في الحياة الاجتماعية والإقتصادية والسياسية ، أي لم تسر الحياة بشكل رتيب كما عند بقية المخلوقات كالنحل وأصبحوا ينوسون أي ينتقلون من مكان إلى آخر بشكل واع . وكلما ازداد الإنسان في تقدمه الإنساني كلما زاد النوسان .

فإذا تصفحنا آيات الكتاب التي تحتوي على لفظة الإنسان والناس نراها تدور حول المواضيع التالية :

١ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ . . ﴾ . (البقرة ٨) ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ . . الآية﴾ . (البقرة ١٣) ، ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم . . الآية﴾ .

(البقـرة ٢١)، ﴿وَقُـولُـوا لِلنَّـاسِ . . ﴾ (البقـرة ٨٣)، ﴿أَتَـأْمُـرُونَ النَّـاسَ . . ﴾ . (البقـرة ٤٤)، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ . . ﴾ (البقرة ٩٦)، ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاء مِنَ النَّاسِ . . ﴾ (البقـرة ١٤٢)، ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ . . ﴾ . (البقرة ١٦٤)، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . ﴾ . (الروم ٤١) ، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ . . ﴾ (البقرة ١٨٥)، ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ . . ﴾ . (النسـاء ١٧٤)، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ . . ﴾ (المـائـدة ٤٤)، ﴿وَإِنَّ كَثِيـراً مِنَ النَّـاسِ لَفَـاسِقُـونَ . . . ﴾ . (المـائـدة ٤٩)، ﴿يُـوَسْـوِسُ فِي صُدُورِ النَّـاسِ . . ﴾ . (النـاس ٥)، ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لَايَعْلَمُـونَ . . ﴾ . (سبأ ٢٨)، ﴿لِتَـأْكُلُوا فَرِيقـاً مِنْ أَمْـوَالِ النَّـاسِ . . ﴾ . (البقـرة ١٨٨)، ﴿ذٰلِـكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ . . ﴾ (هود ١٠٣)، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . (يوسف ١٠٣) .

نلاحظ أن هذه الصيغة كلها صيغ للعاقل ودائماً يوجه الخطاب في الكتاب في قوله ﴿يا أيها الناس﴾ . ولم يقل أبداً يا أيها البشر .

٢ ـ ﴿إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَظَلُومٌ كَفَّـارٌ﴾ . (ابـراهيم ٣٤)، ﴿وَيَـدْعُ الْإِنْسَـانُ بِالشَّـرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ﴾ . (الإسراء ١١)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ . (الزخرف ١٥)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَـانَ خُلِقَ هَلُوعـاً﴾ . (المعـارج ١٩)، ﴿يَقُـولُ الْإِنْسَـانُ يَوْمَئِـذٍ أَيْنَ الْمَفَـرُّ﴾ . (القيامة ١٠)، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ إِحْسَاناً﴾ . (الأحقاف ١٥) . هذه الصفات كلها للمخلوق العاقل .

٣ ـ عنـدمـا ذكـر خلق الإنسـان أعطـاه في جملة كقـولـه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَـانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ . وعندما أعطى التفاصيل وطريقة الخلق ذكر البشر كقوله ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً﴾ .

نلاحـظ الفـرق الـواضـح بين البشـر والإنسـان فالبشـر هو الوجود الفيزيولوجي المـادي للإنسـان ككـائن حي ضمن مجموعة مخلوقات حية . إن القردة كائنات حية والأنعـام كائنـات حيـة لذا عنـدما ندرس جسم الإنسان في الجامعة ككائن حي فقط نقول «كلية الطب البشري» ولا نقول كلية الطب الإنساني . فالبشر هو تباشير الإنسان أولـه حيث تبـاشيـر كل شيء أوائله . وعنـدمـا نقول العلوم الإنسانية فإننا نقصد علوم اللغـات والتـاريـخ والفلسفـة والحقـوق والشـريعـة والسياسة والإقتصاد وعلم النفس والفنون بأنواعها . أي العلوم التي تتعلق بالإنسان ككائن حي عاقل له سلوك واع .

الفرع الثاني

نشأة الإنسان واللغة

تمهيد

أولاً ـ آدم وبداية نشأة الكلام الإنساني

ثانياً ـ نشأة اللغة وارتباطها بالفكر (نفخة الروح)

ثالثاً ـ كيف عبر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الإنسان ونفخة الروح

رابعاً ـ مرحلة الإنسان القديم من آدم إلى نوح

تمهيد:

عندما بلغ البشر مرحلة متقدمة من التطور العضوي ونضج، أصبح مؤهلاً لنفخة الروح وهذا التأجيل كان في ظاهرتين رئيسيتين هما:

١ ـ انتصاب الإنسان على قدميه وتحرير اليدين وذلك في قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّيكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاء رَكَّبَكَ *﴾** (الانفطار ٦، ٧، ٨). فهنا نرى لفظة عدلك جاءت بعد التسوية، وعدل في اللسان العربي لها أصلان صحيحان لكنهما متقابلان كالمتضادين أحدهما يدل على الاستواء والآخر على اعوجاج. ونرى هنا معنى **عدلك** هو معنى فيزيائي وليس اجتماعياً لأنه جاء في آية واحدة مع الخلق والتسوية، والخلق والتسوية هنا لهما معان مادية وليست اجتماعية بمعنى العدل ضد الظلم. ونرى هنا أن المعنى الأول هو الصحيح وهو الاستواء على قدمين، لأن الإنسان الآن مستوعلى قدميه ومتحرر اليدين. هذه الظاهرة في الاستواء على القدمين أعطت للإنسان بعداً إضافياً وهو تحرير اليدين من أجل ظاهرة العمل الواعي، فإذا نظرنا إلى اليدين في الإنسان رأيناهما من أروع آلات العمل حيث تمتلكان قدرة هائلة على المناورة في الحركات.

٢ ـ نضوج جهاز صوتي خاص به، وهذا الجهاز قادر على إصدار نغمات

مختلفة بعكس بقية المخلوقات التي تصدر نغمة صوتية واحدة. هذا الجهاز الصوتي عبر عنه في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. فقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ عن الرحمن فهذا يعني أنه تعلم اللغة بواسطة قوانين مادية موضوعية وليس وحياً أو إلهاماً. وأول هذه القوانين هو وجود الجهاز الصوتي، لاحظ أنه قال «الرَّحمَنَ» ولم يقل «الله».

أولاً - آدم وبداية نشأة الكلام الإنساني:

لا يمكن للكلام أن يسمى كلاماً إنسانياً إلّا إذا كان مقطعاً إلى مقاطع صوتية متميزة بعضها عن بعض يصدرها الإنسان بشكل واعٍ.

عندما أصبح البشر جاهزاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخة الروح «الأنسنة»، وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار النغمات المختلفة. وللدلالة على أنه أصبح جاهزاً قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة ٣٠).

نلاحظ في هذه الآية قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾. والجعل هو عملية التغير في الصيرورة كقوله لإبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. إذ لم يكن إبراهيم إماماً للناس فأصبح إماما. واستعمال اسم الفاعل في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ فيه دلالة على استمرار العملية كقوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ (ص ٧١) ففي مراحل الخلق المختلفة استعمل ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾ فعندما قال ﴿إني جاعل﴾ للدلالة على وجود البشر الذي تمت تسويته وأصبح جاهزاً لتغير في الصيرورة ليصبح خليفة الله في الأرض أي لم يكن خليفة فأصبح ولكنه موجود مادياً. لذا سأله الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ لنقارن هذا القول مع قوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ فعندما قال: ﴿خَالِقٌ بَشَراً﴾. لم يذكر احتجاج الملائكة لأنه لم يستو بعد ولم يكن الإنسان موجوداً في شكله الجاهز لنفخة الروح لذا أتبعها بقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص ٧٢). ومع ذلك لم تقل الملائكة: ﴿أَتجْعَلُ

فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾. ولكن عندما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. جاء الاحتجاج، وكان الاحتجاج طبقاً لمعلومات مشاهدة أي أنه عندما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كان البشر ما يزال في المملكة الحيوانية قبل الأنسنة، ولكنه قائم على رجليه وله جهاز صوتي قادر على التنغيم المختلف وكان تصرفه كالبهائم أي يأكل اللحوم ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وما زال الإنسان إلى اليوم كائناً يأكل اللحوم وله أنياب وربما كان يأكل بعضهم بعضاً ﴿وَيُفْسِدُ فِيهَا﴾ للدلالة على التخريب غير الواعي في الغابات كما تفعل بعض فصائل القردة من قطع أغصان الأشجار، وهنا يجب أن لا نفهم ﴿يُفْسِدُ فِيها﴾ على أنه سلوك لا أخلاقي أي مخالفة تعليمات الله سبحانه وتعالى فهذا يسمى فسوق لا فساد. فعندما يصبح الطعام غير صالح للأكل نقول: فسد الطعام ولا نقول فسق الطعام. فالفساد هو التخريب كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة ٣٣).

هنا ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ تعني قطع الشجر وتخريب الطرق والجسور وهدم البيوت والمنشآت.

وكقوله: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾. (الأعراف ٨٥) وقوله: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (البقرة ٦٠) (هود ٨٥) (الشعراء ١٨٣) هنا أيضاً أكد بأن الله منع تخريب الأرض بعد إصلاحها وفي قوله: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. منع أن نفسد الأرض من جراء إقامتنا فيها في ﴿وَلاَ تَعْثَوْا﴾. وكقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾. (الروم ٤١). هذه الآية تعطينا نبأ مسبقاً عن ظاهرة التلوث حيث ذكر الفساد في الأرض وذكر السبب وهو الناس وهم كل الناس وليس الكافرين فقط. فهنا أعطاها أيضاً مفهوماً مادياً لا مفهوماً أخلاقياً.

وهنا نلاحظ الخطأ في القول بأن ﴿يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. تعني أنه كان هناك مخلوقات عاقلة قبل آدم فسدت وسفكت الدماء فأهلكها الله سبحانه وتعالى، أو علمت الملائكة أن هذا المخلوق سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالقولان فيهما

نظر، والصحيح عندنا أن الملائكة قالت ما شهدت فعلاً عند قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ومن هنا فعلينا أن نعيد النظر في القول الذي يقول إن الله خلق آدم ووضعه في الجنة ثم خلق بعده حواء ثم طردا من الجنة هما وابليس ونزلا إلى الأرض، وذلك للأسباب التالية:

إن وصف الجنة التي وصفها لآدم لا يشبه وصف جنة المتقين، حيث بينا في بحث الساعة والصور واليوم الآخر بأن الجنة والنار لم توجدا بعد وإنما ستقومان على أنقاض هذا الكون بقوانين مادية جديدة، وأن من صفات جنة المتقين الخلود واختفاء ظاهرة الموت. فكيف يمكن إغراء إنسان بشيء لا يعرفه وغير موجود؟ وقد تم إغراء آدم بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾. (طه ١٢٠). وقوله: ﴿مَانَهَاكُمَا رَبُّكُما عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾. (الأعراف ٢٠).

فلولا أن آدم يعرف الموت وأن الأشياء تبلى لما تغرر بذلك القول وهذه الآية تنوه أيضاً بأن غريزة البقاء هي أقوى غريزة لدى المخلوقات كلها. ثم تأتي بعدها شهوة التملك وبقاء الممتلكات بقوله ﴿وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾.

ثم إنّ وصف جنة آدم بعيد جداً عن وصف جنة الخلد وذلك في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴾. (طه ١١٨). ﴿وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيها وَلا تَضْحَىٰ﴾ (طه ١١٩).

هنا نلاحظ أنه يصف جنة أرضية تشبه الغابة التي فيها ثمار طبيعية بحيث يأكل بدون أن يعمل. و «تعرى» هنا من العراء أي الخروج من الغابة إلى الصحراء كقوله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (الصافات ١٤٥) فإذا خرج إلى العراء فإنه يحتاج إلى ظاهرة العمل ليكسب عيشه لذا قال ﴿فلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾. (طه ١١٧).

وكذلك يوجد في الغابات التي عاش فيها الإنسان المياه ﴿لا تَظْمَأُ فِيها﴾، وفيها أيضاً الظل ﴿وَلاَ تَضْحَىٰ﴾ حيث «تضحى» جاءت من فعل «ضحى» وهو في اللسان العربي أصل صحيح يدل على بروز الشيء ويقال ضحى الرجل يضحى، اذا تعرض للشمس، ويقال اضح يا زيد أي ابرز للشمس، ومنه سميت الأضحية لأنها تذبح عند إشراق الشمس، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة.

إن هذا الوصف بعيد جداً عن وصف جنة الخلد الذي جاء في القرآن ومن أول مواصفاتها اختفاء ظاهرة الموت.

من هنا نستنتج:

آ - أن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين «البث» حيث أن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقاً للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة وبعضها مع بعض طبقاً للقانون الثاني للجدل.

وقد وجد البشر وانتشر في مناطق حارة مغطاة بالغابات حيث يوجد في هذه الغابات مخلوقات حية أخرى كان يفترسها البشر ﴿يَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وكان يسلك سلوك الحيوانات الأخرى أي كان كائناً غير عاقل إذ لم تظهر فيه ظاهرة العمل الواعي وهو بشر.

ب - يجب علينا أن نفهم قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾. عَلَى أَنَّهُ انتقال من مرحلةٍ إلى مرحلة أخرى، وليس المعنى «انزلوا منها» ونحن نقول: إن الله أنزل ونزل القرآن ولا نقول أهبط وهبط القرآن وقد استعمل الكتاب فعل هبط في مجال الانتقال المكاني أو الكيفي؛ في مجال الانتقال المكاني أي من مكان إلى آخر على الأرض في قوله ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (هود ٤٨). ترى أين كان نوح عندما قال له ﴿اهْبِطْ﴾ هل كان في السماء؟ وفي قوله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ.. الآية﴾. (البقرة ٦١).

لاحظ أن الكلام هنا عن بني إسرائيل الذين كانوا في سيناء وليس في السماء فاهبطوا هنا جاءت في المعنيين المكاني والكيفي، فالمكاني الانتقال من سيناء إلى مصر والكيفي أنهم كانوا يأكلون المن والسلوى «طعام واحد» فأرادوا الانتقال إلى كيفية أخرى من الأطعمة.

فهنا يجب أن نفهم ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ انتقال كيفي أو مكاني أو الاثنين معاً، وكل ذلك حصل على الأرض، وجنة الخلد ليس لها أية علاقة بذلك لأنها أصلاً لم توجد بعد.

ج ـ مفهوم آدم: لقد جاء آدم من «أدم» وهذا الفعل في اللسان العربي له أصل واحـد وهـو الموافقة والملاءمة، ومنها جاءت الأدمة وهي باطن الجلد لأن الأدمة أحسن ملاءمة للّحم من البشرة ولذلك سمي آدم عليه السلام لأنه أخذ من أدمة الأرض.

هنا جاء في لفظة آدم المصطلحان معاً فالبشر مؤلف عضوياً من عناصر موجودة في الأرض وبعد انتصابه ووجود الجهاز الصوتي المناسب أصبح موافقاً وملائماً لعملية الأنسنة، أي أن آدم هو المخلوق المتكيف الملائم للأنسنة ومن الخطأ الفاحش أن نقول أن آدم اسم أعجمي بل هو مصطلح عربي صرف وإذا مدحنا إنساناً وقلنا إنه آدمي فهذا يعني أنه دمث متكيف مع الظروف التي يعيشها.

وهنا أيضاً يجب أن نفهم أن آدم ليس شخصاً واحداً وإنما هو جنس نقول عنه الجنس الآدمي.

لذا فعندما قال ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾. فإنّه يخاطب الجنس الآدمي وقوله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾. فإنه يذكر أحدى مراحل تطور الجنس الآدمي وذلك بعد خروجه من المملكة الحيوانية وهذه الحلقة هي تعليمه دفن الموتى. ولا تعني كما يقول البعض قابيل وهابيل.

د ـ شرح قوله تعالى «الذي علم بالقلم»: «قلم» في اللسان العربي أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه، من ذلك قلمت الظفر ومن هذا الباب سمي القلم قلماً.

لقد جاء قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. في بداية الوحي، وقد شرحنا قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وعندما قال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. أتبعها بقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. ونلاحظ أيضاً أنهما آيتان منفصلتان بينهما «نجمة»، وكان من الممكن أن يقول «الذي علم الإنسان بالقلم».

ولقد جاء فصل الآيتين للدلالة على أن التعليم بالقلم مطلق للإنسان ولغيره، ومن جملة المخلوقات التي تم تعليمها بالقلم الإنسان. لقد قال المفسرون عن قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. هي كناية عن تعليم الكتابة لأن آلة الكتابة هي القلم. فإذا سلمنا جدلاً بأن هذا الكلام صحيح، فماذا نقول عن قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وقد قال بشكل مطلق أن التعليم لا يكون إلا بالقلم «كما زعموا» فهل كان عند آدم كتابة وقرطاسية؟

إننا نعلم أن الكتابة «الأبجدية» ظهرت في عهد غير بعيد نسبياً.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هو القلم الذي علم الله به كل المخلوقات بدون استثناء ومن ضمنها الإنسان؟

إذا نظرنا للأصل اللغوي وهو التسوية والإصلاح والتهذيب. فعندما نقص أغصان الشجر فإننا نقلمها، وعندما نقص ونهذب طرف العود الصغير فنسميها قلماً. فالقَلْم هو قص الأشياء بعضها عن بعض وتهذيبها، وهذا ما نقول عنه اليوم التمييز «التعريف». فحتى يومنا هذا في سوريا عندما نقوم بجرد مستودع أو استلام مواد نضع في قائمة الجرد أو الاستلام مثلاً:

١ ـ طاولة عدد ٦

٢ ـ كرسي عدد ٦.

٣ ـ خزانة عدد ٣

٤ ـ مكتبة عدد ١.

وعندما نغلق الصفحة نقول «فقط أربعة أقلام لا غير» أي أربعة بنود متميزة بعضها عن بعض، وهذه البنود هي طاولة، كرسي، خزانة، مكتبة.

وفي مكتب تسجيل السيارات هناك القلم أي فيه اضبارة كل سيارة، نوعها، سنة الإنتاج، اللون، الرقم، المالك، كل هذه المعلومات هي لتمييز كل سيارة على حدة. وكذلك هناك في القوات المسلحة «قلم اللواء» أي فيه الأوراق الصادرة والواردة تميز وتوزع حسب العائدية.

فالتقليم هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض وهذه العملية هي العمود الفقري للمعرفة الإنسانية، وبدونها لا تتم أية معرفة.

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا وضعها بشكل مطلق ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. ثم علق الإنسان بها بقوله ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ أقول لأن التقليم ليس من صفات الإنسان فقط حتى المعرفة الغريزية تقليم. فنرى أن القطة تميز أولادها، والبقرة تميز وليدها، فإذا جاء غير وليدها ليرضع منها فإنها تصده، أي أن البقرة لها جهاز ما أو مؤشر ما يتناسب مع بنيتها تستطيع أن تميز به وليدها من غيره، وكذلك النحلة تميز خليتها عن باقي الخلايا، والخيل تميز اللحم من الحشائش فلا تأكل اللحم. والملائكة أيضاً لا تعلم من العلم إلا المعلومات التي تدخل بجهاز التقليم الخاص

بها، فهناك ملائكة تُسَبِّح فقط لأن قلمها قائم على التسبيح فقط لأنها لا تميز شيئاً آخر. لذا فما دخل في قلمنا فهو ضمن معلوماتنا «الشهادة» وما لم يدخل في قلمنا فهو خارج معلوماتنا «الغيب».

وقد خلق الله للتقليم أنواعاً كثيرة وإمكانيات مختلفة حسب الظروف التي يعيشها كل كائن حي. فالأسماك لها قلم والوطواط له قلم.. وهكذا دواليك.

فإذا أخذنا الحواس مثلاً، نرى أن العين تقلم الألوان والأبعاد والأشكال التي تدخل ضمن إمكانياتها البصرية، والأذن تقلم الأصوات التي تدخل في إمكانياتها السمعية، واللسان يقلم المذاق حسب امكانياته، والشم يقلم الروائح، والجلد يقلم الحرارة والملمس. ولولا هذا التقليم الذي هو صفة الحواس لما كان هناك علم حيث أن الحواس تقلم وهي نفسها مقلمة إلى خمسة حواس.

ثم عندما تنتقل صورة الأشياء عن طريق الحواس يعمل الفكر أيضاً على التقليم حيث يحلل «يقلم» ظاهرة ما إلى عناصرها الأساسية ثم بعد ذلك يركب «يعقل» ويصدر حكماً.

فإذا أخذنا تقدم المعارف الإنسانية رأينا أن التقليم هو أساسها. فعندما اكتشفت الكهرباء في القرن الماضي كانت عبارة عن علم بسيط واحد ثم تطورت بالتقليم فأصبح هناك محطات توليد طاقة، خطوط نقل طاقة، محركات كهربائية، دارات إلكترونية، حتى أصبحت كلية قائمة بذاتها تتألف من عدة مواد منفصلة «مقلمة». وكذلك الطب كان هناك جسم الإنسان وطب عام ثم قلمناه بالتطور فأصبح هناك طب عظام وطب عيون وطب أنف وأذن وحنجرة وطب نفساني وطب عصبي، وجراحة، وجهاز هضم، وهكذا دواليك.

ثم لنأخذ القلم في معناه المجازي كأداة كتابة للأبجدية فلا يمكن أن نقول إننا نخط رسالة بحبر أبيض على ورق أبيض، فالعين بذلك لا تميز شيئاً، ولكننا نكتب مثلاً بلون أزرق على ورق أبيض، هذا هو التمييز الأول. ثم هناك التمييز الثاني للأبجدية، فنرمز لصوت النون بالرمز «ن» ولصوت اللام بالرمز «ل». بما أن النون واللام صوتان مميزان بعضهما عن بعض رمزنا لهما برمزين مختلفين لتبيان التمييز.

وإذا أخذنا مثلاً الأمراض فنرى أن مرض السرطان موجود موضوعياً فنستطيع أن

نقلم «نميز» الخلية السرطانية غير المخلقة عن الخلية العادية «المخلقة» ولكننا لم نستطع أن نقلم إلى اليوم الأسباب الحقيقية للسرطنة، لذا فإن مرض السرطان مقلم كظاهرة مرضية وغير مقلم كأسباب حقيقية لهذه الظاهرة، علماً بأنه قد تم تقليم بعض الأسباب المساعدة على السرطنة وهذا يسمّى باللغة الإنكليزية (Identification).

ومبدأ الهوية الشخصية يقوم على التقليم بالاسم والكنية واسم الأب والأم والصورة وتاريخ ومكان الميلاد والعلامات المميزة وذلك لتقليم صاحب الهوية عن غيره.

فإذا رجعنا الآن إلى تعريف الكلام الإنساني قلنا إنه يتألف من أصوات مقطعة متميزة، أي أن الكلام الإنساني يقوم على تقليم الأصوات.

وإذا أخذنا الآن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وقوله ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. لوجدنا أن بداية الوحي لمحمد ﷺ هي بداية المعرفة حيث بدأ بفعل الأمر «اقرأ» والقراءة هي العملية التعليمية فجاءه بعدها العمود ان الفقريان للمعرفة، الأول أن الوجود خارج الوعي الإنساني مؤلف من علاقات متداخلة بعضها مع بعض ومنها خلق الإنسان والثاني أن وعي هذه العلاقات من قبل الإنسان لا يمكن أن يتم إلا بالتقليم أي تمييز هذه العلاقات بعضها عن بعض، والحواس هي الأدوات المادية للتقليم المشخص المباشر.

نستنتج من هذا التعريف للعلاقات المتداخلة ولتقليمها أساس البحث العلمي والنشاط الاقتصادي والإنتاجي. فإذا أردنا أن نقوم ببحث علمي لظاهرة ما فما علينا إلا أن نعلم أن هذه الظاهرة يجب أن تكون مؤلفة من علاقات متداخلة ببعضها وبالتالي فإذا أردنا أن نعرفها فالبحث العلمي يقلمها إلى العناصر الأساسية المركبة لهذه العلاقات. وكذلك في النشاط الإنتاجي الناجح فإنه يجري تقليم العملية الإنتاجية إلى مجموعة من العمليات الأولية وناتج هذا التقليم هو ما يسمى بالخط الإنتاجي. وهكذا فإن النشاط الإنساني المعرفي والإنتاجي قائم على العلاقات وتقليم هذه العلاقات.

فإذا أخذنا الآيات الواردة في الكتاب والتي ذكر فيها القلم رأيناها كالتالي:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (لقمان ٢٧).

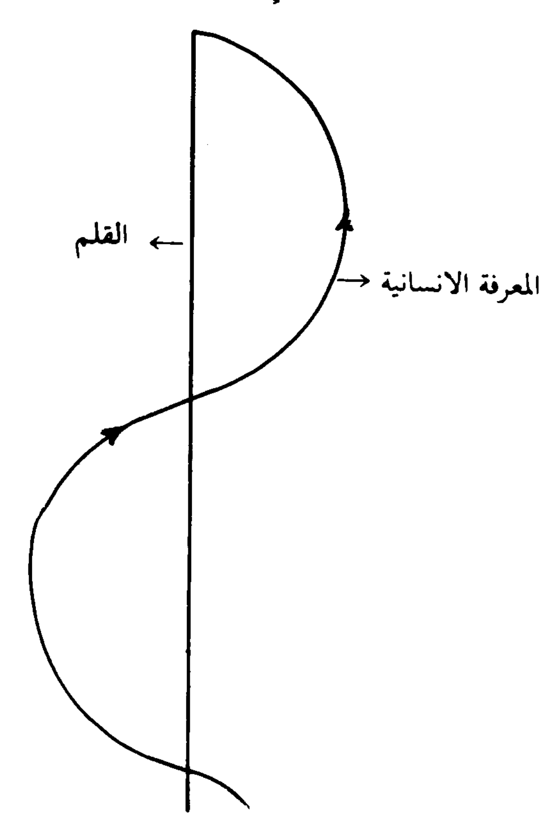
هنـا جاء القلم بالمعنى الثـاني وهـو آلـة الكتـابـة «الخـط» وقد شرحت مفهوم التقليم في الكتابة».

- ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. (آل عمران ٤٤).

هنا جاءت أقلامهم أيضاً للتمييز، فعندما تضرب قرعة بين عدة أشخاص فكل شخص يأخـذ علامـة مميـزة عن الآخر، وقد كانت في الجاهلية تسمى «القِداح» أي كل شخص له قدح خاص ليميزه عن غيره.

- ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَـا يَسْطُـرُونَ﴾. (القلم ١). هذه الآيـة لهـا بحث خاص بها سيأتي. فمن مفهوم القلم نستنتج الاستنتاج الرئيسي وهو:

إن المعرفة الإنسانية صاعدة ومحورها القلم.



هـ ـ **الإسم**: لقد جاء الاسم من أحد فعلين في اللسان العربي:

١ ـ من فعل «وسم» وهذا الفعل أصل واحد يدل على أثر ومعلم، وَوَسَمْتُ الشيء وَسَماً: أثرت فيه بسمة، والوَسْمِيُّ أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات. وسُمي موسمُ الحج موسماً لأنه معلم يجتمع إليه الناس. وقوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾. (الحجر ٧٥). أي الناظرين في السمات الدالة.

٢ ـ من فعل «سمو»: السين والميم والواو أصل يدل على العلو. يقال سموت إذا علوت، وسما بعده علا، وسما لي شخص: ارتفع حتى استثبتّه، وسماوة كل شيء شخصه، والجمع سَمَاء وسَمَاوٌ. والعرب تسمي السحاب سماء، والمطرَ سماء. والسماءة: الشخص. والسماء سقف البيت. وكل عالٍ مطلٍ سماء. حتى يقال لظهر الفرس سماء.

ويقال إن أصل «اسم» سمو وهو من العلو لأنه تنويه ودلالة على المعنى.

لنناقش الآن: هل الاسم مشتق من «وسم» أم من «سمو». فإذا كان الاسم من «سمو» فهو العلو والإرتفاع. أي أن الاسم يعلو صاحبه ولو كان هذا الكلام صحيحاً لعرفنا اسم كل شيء دون أن يخبرنا عنه أحد لأنه يعلوه. أما إذا كان الاسم من «وسم» فهو سمة لصاحبه، أي شيء يميزه عن غيره. ونحن نسمي الأشياء لنميزها عن بعضها أي لنعطيها سمات مميزة. ولكل شيء سمة خاصة به، فنقول «تفاح جميل» فالتفاح اسم لثمرة أطلقنا عليها هذا الإسم لنميزها عن بقية الثمار، وجميل أيضاً اسم وهو سمة «صفة» مميزة للموصوف وهو التفاح.

وقد قال «الفرّاء» واضع أسس المدرسة الكوفية إن أصل الاسم من وسم وليس من سمو. حتى أن ابن فارس وضعها بصيغة غير مؤكدة في «سمو» حيث ذكره بصيغة مُمَرَّضَة «يقال بأن أصل اسم من سمو».

فإذا أخذنا بالرأي القائل إن أصل الاسم من «وسم» فيتضح لنا معانٍ واقعية لآيات في الكتاب ذكر فيها لفظة «الاسم».

لنأخذ الآيات التي فيها لفظ «اسم»:

١ ـ ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾: هنا ذكر الصفة المميزة «لله»، والله هو لفظ الجلالة ولا نقول اسم. وإن من سماته أنه الرحمن الرحيم وكذلك قوله: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ (الأعراف ١٨٠). فالسمات المميزة لله هي الأسماء

الحسنى وقد جاء ذكرها في الكتاب.

٢ - ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ (النجم ٢٣). هنا يذكر في هذه الآية أنه في زمن هود كان تعدد الآلهة مع التخصص فهناك إلاه الحرب وإلاه الغضب وإلاه الخصوبة وإلاه الحب وهكذا دواليك. لذا قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء﴾. لذا أجابه قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾. (هود ٥٤). هنا ذكر «بعض» كجزء من كل أي أن آلهة السوء اعترت هوداً وذلك لوجود آلهة أخرى لها سمات أخرى.

٣ - ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾. (آل عمران ٤٥). إن المسيح هو سمة عيسى بن مريم وقد ذكر هذه السمة بقوله: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. (آل عمران ٤٥). ولا نرى في الكتاب أبداً صيغة «اسمه» مع عيسى بن مريم إلا وقرنها بالمسيح «اسمه المسيح». لأن المسيح هي سمة خاصة لعيسى بن مريم وقد ذكر هذه السمة في الآيات (٤٦، ٤٨، ٤٩) في سورة آل عمران. أي أن لفظة «المسيح» وردت بدون «اسمه» ولكن لايوجد «اسمه» بدون «المسيح».

٤ - ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ (مريم ٧). هنا أعطى الله اسما لابن زكريا، وسمة هذا الاسم أنه أكثر اسم حي من أسماء أهل الأرض لذا سماه «يحيى» وهو اول تسمية فهو في العربي يحيى، حنا، يوحنا، وفي الروسية ايفان، وفي الإنكليزية والفرنسية جون، وفي الإيطالية جيوفاني، وفي الإسبانية خوان، وفي الألمانية ايوهان.

٥ - ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. الصف ٦). إن أحمد هو السمة المميزة لمحمد بن عبد الله ﷺ وهذه الصفة هي على وزن أفعل وهي للتفضيل. فبدأ الله الكتاب بالحمد ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (الفاتحة ١). وبدأ خلق الوجود بالحمد: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾. (الأنعام ١). وبدأ الإنزال بالحمد: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾. (الكهف ١). وأنهى الحساب بالحمد ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (الزمر ٧٥) وأنهى دخول الجنة بالحمد ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (يونس ١٠) وقال ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾. (القصص ٧٠).

لذا فقد أعطى الله لمحمد ﷺ سمة الحمد المميزة بالتفضيل له على كل الرسل والأنبياء، فسماه أحمد. وقد فهم العرب الأوائل هذه الصفة على أنها خاصة بمحمد ﷺ لذا فقد امتنعوا عن تسمية أبنائهم باسم أحمد. فلا نرى في صدر الإسلام أو في العهد الأموي من سمى ابنه «أحمد» وإن أول اسم صادفناه تاريخياً باسم أحمد هو الإمام أحمد بن حنبل في العهد العباسي. علماً بأن كثيراً من الصحابة سموا أبناءهم باسم محمد. أي أنّهم فهموا أن اسم أحمد خاص بمحمد ﷺ. كما أن اسم المسيح خاص بعيسى بن مريم.

ثانياً ـ نشأة اللغة وارتباطها بالفكر «نفخة الروح»:

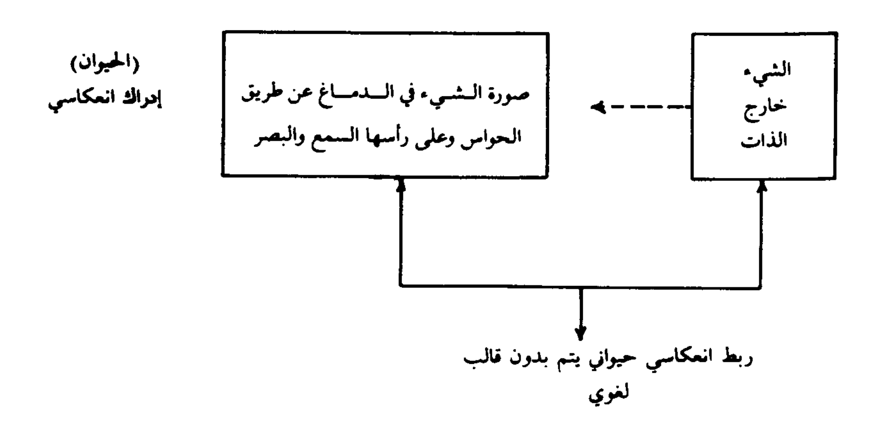
لقد تطور الإنسان من البشر وتميز من «بقية البهائم» بالربط الذهني بين الشيء وصورته وذلك من خلال صيغة لغوية. حيث إن الحيوانات تربط بين الشيء وصورة الشيء بربط انعكاسي (reflection) فالكلب عندما يشم رائحة اللحم يسيل لعابه بربط انعكاسي بحت أي أن هناك الشيء «اللحم» وصورة الشيء «في مخ الكلب عن طريق حاستي البصر والشم» حيث أدى الربط الانعكاسي بينهما إلى سيلان اللعاب.

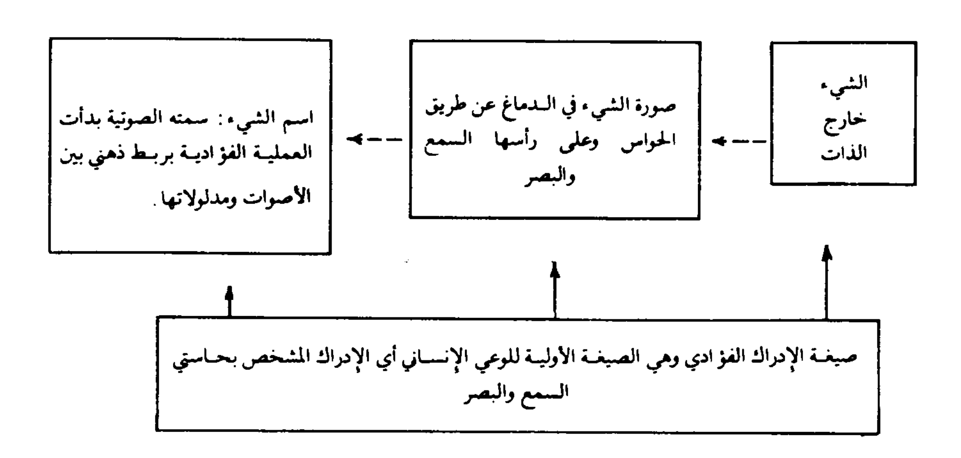
هذا الشيء موجود عند الإنسان في سلوكه الغريزي «البهيمي البحت». أي أن الكلب له سمع وبصر وذوق والإنسان كبشر له سمع وبصر وذوق. فماذا يزيد الإنسان عن ذلك حتى نقول إنه بداية الأنسنة.

فحتى نعرف بداية الأنسنة ونفخة الروح وظهور الفكر فما علينا إلا أن نبحث في نشأة الكلام الإنساني، والسبب الجوهري أن الربط الانعكاسي عند الحيوانات يتم بدون قالب لغوي «أي بدون أسماء». ونحن نعلم بشكل قاطع أن الفكر الإنساني مهما كان بدائياً لا يتم بدون قالب لغوي ـ «صوتي» لأنه يوجد تلازم لا ينفصم بين الفكر واللغة منذ بداية الأنسنة. ونرى الآن أن أهل الأرض جميعاً تفكر بقالب لغوي. أي أن اللغة لها وظيفتان الأولى هي حامل الفكر والوظيفة الثانية هي التواصل بين متكلم ومخاطب في صيغة خبر أو أمر ونهي أو تعجب واستفهام. فإذا

نظرنا إلى الكلام الإنساني بين متكلم ومخاطب رأينا أن صيغة الخبر هي أكثر الصيغ تردداً تليهـا صيغـة الأمر والنهي تليها صيغة التعجب والاستفهام . فلكي نميز الإنسان عن الحيوان «البشر» نضع الصيغتين التاليتين :

الحيوان (إدراك انعكاسي)





فبدأ الإنسان بمرحلة الإدراك القائم على المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر. وقلنا إن الفؤاد هو بمثابة المحمّي أو الصاعق لمرحلة الفكر والذي يليه وهو «القلب». لذا عندما قال ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾. أي عندما فرغ فؤاد أم موسى «بلا فؤاد» كاد أن يصبح سلوكها بهيمياً انعكاسياً غير مسيطرٍ عليه لذا قال: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾. ولكن ذكر مرحلة الفكر المجرد «القلب» وهو المرحلة الأكثر تقدماً والأكثر وعياً حيث سيطرت على سلوكها بقوله: ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِها﴾. (القصص ١٠).

فمهمة الفؤاد هي الإدراك المشخص الذي تنقله الحواس والربط بين الأشياء وأسمائها، أي هل يفيد هذا الاسم هذا الشيء حصراً أو لا يفيد؟ وهذه هي عملية التقليم والتي بدأت بالربط بين الأصوات اللغوية «الأسماء» ومدلولاتها العينية «المشخصة» وهذا الربط ذهني لا انعكاسي. وبعد ذلك تصبح الأسماء جاهزة للعلاقات المجردة في الفكر والعقل.

إن الفؤاد الإنساني الذي يربط بين الشيء المشخص واسمه هو بداية نفخة الروح حيث قلنا إنّ الله سبحانه وتعالى وجود أحادي من صفاته عدم التناقض فبدأ باعطاء هذه الصفة الخاصة إلى البشر بالفؤاد. وابتداء من هذه الخاصية بدأ النقيضان بالعمل في الدماغ الإنساني وهما «الرحمن والشيطان» التصديق والتكذيب «الحقيقة والوهم» وهنا نرى الصيغة الأولية للفكر الإنساني. هذه هي الحلقة المفقودة التي بحث عنها العلماء والتي ربطت بين البشر والإنسان وهي السر في بداية الأنسنة أي السر في جدل النقيضين غير الماديين الحقيقة والوهم «الرحمن والشيطان» والتي تم ربطهما بقانون عدم التناقض وهنا يكمن سر بداية نفخة الروح لذا قال عن آدم ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. وهنا يكمن السر لماذا تقدم البشر وتطور إلى إنسان وأصبح كائناً عاقلاً «عالماً ومشرعاً»، ولم تتطور بقية الحيوانات العليا من فصيلة القردة علماً بأنها وجدت بنفس الشروط الطبيعية ولها نفس النشأة البيولوجية؟ فالبشر خضع لنفخة الروح فأصبح إنساناً والقردة لم تخضع لنفخة الروح فبقيت على ما هي عليه قردة، وعلى هذا يجب أن نزيل الأوهام العالقة في أذهاننا بأن الروح هي سر الحياة وإنما هي سر الأنسنة فالإنسان له روح وبقية الحيوانات ليس لها روح.

وبما أن الكتاب يحتوي معلومات وتشريعات سمي روحاً. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ.. الآية﴾. (الشورى ٥٢).

ونحن نرى إلى يومنا هذا أن مرحلة الإدراك الفؤادي هي المرحلة التي يبدأ بها تعليم الأطفال، وذلك بالربط القائم على حاستي السمع والبصر بين الشيء المشخص واسمه. وهي المرحلة التي يبدأ بها أي علم جديد، أي عندما يكتشف الإنسان شيئاً جديداً فأول شيء يفعله هو أن يضع له اسماً أو تعريفاً. قد يقول البعض إن عدم التناقض والذي هو أساس الفكر الإنساني نتج عن ظاهرة العمل فهذا غير صحيح للأسباب التالية:

١ ـ لم يذكر أصحاب النظرية المادية الانعكاسية ماهما النقيضان اللذان يعملان في الدماغ الإنساني، وإذا كان هناك نظرية انعكاسية فكيف ظهر التصديق والتكذيب والحقيقة والوهم في الدماغ الإنساني.

النظرية القرآنية تقول إن النقيضين غير الماديين اللذين يعملان في الدماغ «الرحمن والشيطان»، «الحقيقة والوهم» مربوطان بقانون عدم التناقض. وعندما يفك هذا الربط فإن الإنسان يتحول إلى شخصيتين متناقضتين تماماً، فدائماً هناك موقف رحماني «صادق حقيقي» في أمر ما وموقف آخر شيطاني «كاذب وهمي» في الأمر نفسه.

٢ ـ حتى يعمل الإنسان بشكل واع «العمل الواعي» يجب أن يكون عنده صيغة أولية بين المخاطب والمتكلم أي أن وعي الشخص الثالث فقط لا يكفي لكي يعمل الإنسان بشكل واع بل يجب أن يكون هناك بالإضافة إلى وعي الشخص الثالث وعي الشخص الثاني «المخاطب» ووعي الشخص الأول «المتكلم».

٣ ـ إن عدم التناقض ليس من صفات المادة الثنائية القائمة على المتناقضات بل هي صفة لوجود موضوعي آخر غير الوجود المادي المعروف من قبلنا وهو الوجود المشيأ «الأشياء». وذلك الوجود الآخر هو وجود أحادي منزه عن صراع المتناقضات الداخلية في ذاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وهو الله سبحانه وتعالى لذا قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

الرحمن والشيطان في الفكر:

عند الربط الذهني بين الشيء واسمه من قبل الفؤاد، يبرز شيء هام وهو الصراع بين نقيضين هما الرحمن والشيطان، فالرحمن هو اسم الله الذي يمثل قوانين الربوبية لهذا الكون المادي، وهو الذي يعطي الصور الحقيقية للأشياء. فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف ظهر مفهوم الوهم عند الإنسان ومفهوم الخطأ؟ فالفؤاد الرحماني هو الذي يثبت الصورة الحقيقية للأشياء مع مسمياتها والفؤاد الشيطاني «الفعلاني» هو الذي يعطي صورة وهمية للمسميات. ولولا هذه العلاقة الجدلية بين المتناقضات في الفكر الإنساني لما كان هناك شيء اسمه وهم ومثالية ولما كان هناك تخيل.

وهذا هو جدل الفكر الإنساني كظاهرة، حيث إن الطبيعة تقوم على القانون الأول للجدل وهو صراع المتناقضات في الشيء، والقانون الثاني التأثير والتأثر المتبادل بين شيئين مختلفين في مستويات مختلفة. أما جدل ظواهر الطبيعة فيقوم على الأضداد كالليل والنهار في اليوم والشهيق والزفير في التنفس «والتي تكون اليوم والتنفس». وكذلك الإدراك الإنساني قام على صراع المتناقضات الحقيقة والوهم والمربوط بقانون عدم التناقض. هذه العلاقة الجدلية بين المتناقضات جاءت في مصطلح الرحمن والشيطان الفعلاني ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾. (مريم ٤٤).

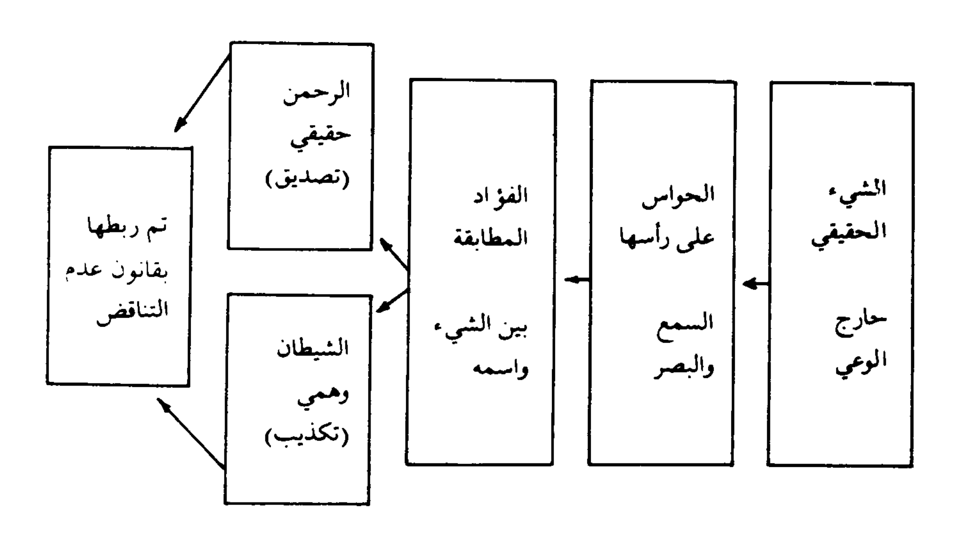
وقد قلت إن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني وهو الطرف الوهمي المثالي. أما الرحمن فهو الطرف المادي الحقيقي.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن «هل الوهم من نتاج المادة التي لها وجود حقيقي»؟

لا يوجد خارج الفكر الإنساني شيء اسمه أوهام، فالأوهام فقط في الفكر الإنساني وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. (النحل ٩٨). وهنا «قرأت» تعني التعلم والفهم، ولا تعني التلاوة، فالشيطان يحوِّل فهم آيات القرآن من فهم مادي رحماني إلى فهم وهمي مثالي

شيطاني وفي هذا المجال نجح الشيطان نجاحاً باهراً مع المسلمين وغيرهم، ونفهم أنه لا يوجد إنسان في العالم إلا وله شيطانه الخاص لأن أي موقف مثالي أو خطأ مهما كان نوعه فهو موقف شيطاني.

هنا يجب أن نضيف إلى المخطط مفهوم الرحمن والشيطان اللذين يمثلان جدل النقيضين بين الحقيقة والوهم في الفكر الإنساني.



ثالثاً ـ كيف عبر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الإنساني ونفخة الروح:

قلنا إنّه لا يمكن أن يكون هناك تفكير إنساني بدون نمط لغوي لذا فقد ارتبطت نشأة الفكر بنشأة الكلام الإنساني ارتباطاً لا انفصام فيه وقد عبر القرآن عن مراحل نشأة الفكر ونفخة الروح بنشأة الكلام الإنساني كالتالي:

المرحلة الأولى: مرحلة تقليد أصوات الحيوانات والطبيعة وهي التي عبر عنها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِؤُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (البقرة ٣١).

هنا نرى قوله «علم» والتعليم هو التمييز «التقليم» وهنا يجب أن لا نفهم ان التعليم وحْيٌ «إلهام» لأن الوحي يحتاج إلى لغة مجردة، ويجب أن لا نفهم أن الله جلس مع آدم وعلمه كما نعلم الأطفال، بل يجب أن نفهمها فهماً مادياً رحمانياً، أي أنه أصبح يميز بواسطة الحواس «السمع والبصر» ويقلد بواسطة الصوت «السمع».
أما قوله «ادم» فقد جاء هنا اسم جنس للدلالة على أن البشر أصبح متكيفاً متلائماً بوجود جهاز صوتي وبانتصابه على قدميه ومتلائماً لعملية الأنسنة. أمّا قوله «الأسماء» فهي من فعل وسم وهي السمات المميزة للأشياء المشخصة والسمات الأساسية المميزة للأشياء المشخصة هي الصوت والصورة وقد بدأ بملاحظة الذي يصدر صوتاً ويتحرك «معاً» «الحيوانات» قبل ملاحظة الذي يصدر صوتاً بدون ملاحظة الحركة «الشجر» لذا قال ﴿كُلَّهَا﴾ أي السمات الصوتية المميزة لكل الأشياء المشخصة الموجودة حوله. أما قوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾. فللدلالة على أن السمات هي للمشخصات حصراً لأن عرضهم تعود على المسميات لا على الأسماء وهل يعرض إلا المشخص. وهنا يجب أن نصحح امرين اثنين:

١ ـ أن «الأسماء» هي السمات وليس كما يقول البعض بأنه علمه أسماء الأشياء كلها بمعنى اللغات.

ولو عنى هذا لقال «علم آدم الألسن كلها» حيث إنه عند استعمال الألسن في شكلها البسيط «استعمال التجريد من أبسط صورة» بدأ الوحي للإنسان من نوح وعندها قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾. (ابراهيم ٤).

٢ ـ يجب علينا أن نفهم قوله : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ . بأن آدم «الجنس» كان في الأرض، ولم يعلم ماذا قالت الملائكة، ولا علاقة لآدم بهذا الحديث وفي هذا المجال قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عظيم﴾ (ص ٦٧). ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾. (ص ٦٨). ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. (ص ٦٩). وقد قلنا إن العلم لا يكون إلا بالقلم للإنسان وغير الإنسان لذا فان ما علمه آدم لم يدخل في علم الملائكة لأن الملائكة لها قلمها الخاص «تمييزاتها الخاصة» لذا أجابت الملائكة بقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. (البقرة ٣٢). هذه المرحلة هي مرحلة التقليد أو المحاكاة «أي مرحلة آدم الأول وفيها ظهر وعي الشخص الثالث هذه المرحلة هي مرحلة ما قبل الكلام الإنساني وهي التمهيد الضروري للمرحلة التي تليها وهي مرحلة بداية الكلام الإنساني القائم على التقطيع بفعل الأمر «أي مرحلة آدم الثاني».

المرحلة الثانية «مرحلة آدم الثاني»:

مرحلة فعل الأمر وقد جاءت في قوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. (البقرة ٣٣). فقوله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾. والنبأ جاء من النبأة وهي الصوت ومنه سمى النبأ لأنه ينتقل من شخص لآخر كما أن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر. وقوله: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾. أي أن واسطة النبأ هو التمييز الصوتي لذا استعمل حرف الجر «الباء» والباء فيها الواسطة أي أن النبأ «الصوت» هو واسطة الدلالة على الاسم فربط بين الصوت والاسم، وبالتالي الشيء والسمة الصوتية للشيء.

وهذه المرحلة ظهر فيها التقطيع الصوتي بواسطة فعل الأمر فمثلاً «لفظة لطلب» للشخص الثاني بواسطة التقطيع الإرادي.

تكرار خَرْخَرْ ـــــ فعل الأمر خَرْخَرْ.

تكرار زَقْ زَق ـــــ فعل الأمر زَقْ زِقْ.

في هاتين المرحلتين نرى مرحلة الإدراك الفؤادي وهي مرحلة الشيء

المتحصص وصورة الشيء عن طريق حاستي السمع والبصر واسم الشيء.

نلاحظ في هذه المرحلة أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. (البقرة ٣٤).

لنقارن تسلسل الآيات «٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤». في سورة البقرة مع تسلسل مراحل الخلق في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾. (ص ٧١). ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. (ص ٧٢). ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. (ص ٧٣). ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. (ص ٧٤).

نلاحظ في الآية ٣٠ في سورة البقرة قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ للدلالة على استكمال التسوية وفي الآية ٣٤ في سورة البقرة طلب السجود ومنه يتبين أن الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣) كانت للتعبير عن بداية نفخة الروح «بداية الأنسنة».

في هذه المرحلة بدأ البشر يصبح إنساناً بظهور الشيطان الفعلاني ولكنه كان غير قادر على ظاهرة العمل الواعي، لذا قال له: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وقد شرحت في مكان آخر جنة آدم وهي عبارة عن غابات استوائية فيها أشجار مثمرة «متوفر فيها الطعام والماء والظل»، كانت هذه الفترة لتعميم فعل الأمر والتقطيع الصوتي على الأصوات المخزونة لديه من المرحلة الأولى. لذا قال ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾. (صيغة الطلب). وكان هذا الطلب أول ظاهرة من ظواهر التشريع البدائي. هنا يجب ان نفهم الشجرة على أنها ذات معنى رمزي فقط حيث جاءت صيغة التشريع البدائي في صيغة تتعلق بمظاهر الطبيعة الشائعة والبارزة لدى الإنسان.

وقد مثل الشيطان الفعلاني الجانب الجدلي في العملية الفكرية حيث دخل الوهم إلى الإنسان بأن هذه الشجرة فيها الخلود «الباطل» حيث كان لدى الإنسان غريزة البقاء فلعب الشيطان بهذه الغريزة حتى أدخل الوهم إلى الفكر الإنساني. في هذه الحالة التي أخذت فترة من الزمن أصبح الإنسان جاهزاً للعمل الواعي فانتقل نقلة نوعية بقوله:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾. (البقرة ٣٦).

هذه النقلة هي نقلة ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. (طه ١١٧). حيث

مثلت هذه النقلة بقـولـه ﴿اهْبِطُـوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. حيث كانت الحيـاة الاجتماعية والتشريعية لم تبدأ بعد وبقوله ﴿فَتَشْقَى﴾. بدأت ظاهرة العمل والتواصل بين اثنين مع البقـاء على استعمـال الأصـوات المقطعـة المكتسبة من تقليد أصوات الحيـوان وظـواهـر الطبيعـة، لذا اعتبـرهـا القرآن فترة انتقالية مؤقتة بقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

مرحلة آدم الثالث:

هذه المـرحلة تعتبـر القفـزة الهائلة في نفخة الروح كقفزة قانون ربط النقيضين بعـدم التنـاقض، وهي قفـزة التجـريـد حيث إن الإدراك الفؤادي يقوم بربط الأسماء بالأشياء كلٍ على حدة ربطاً قائماً على الحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر. انتقـل الإنسـان بعـدهـا إلى مرحلة أخرى من مراحل تطور اللغة وبالتالي الفكر وهي مرحلة التجـريـد أي الانتقال من العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول القائمة على الحواس «السمع والبصر» إلى علاقة اصطلاحية قائمة على الاسم والشيء فقط هذا ما يسمى بالتجـريـد. وبمـا أن الطبيعة المعروفة كلها قائمة على المشخصات فكان الإنسان بحاجة إلى قفزة نوعية للانتقال من المشخص إلى المجرد. وبما أننا ننطلق من النظرة الرحمانية (المادية) في المعرفة الإنسانية أي أن المعلومات تأتي من الخارج القائم على قولـه ﴿وَاللهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لا تَعْلَمُـونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل ٧٨).

فالسؤال الـذي يطـرح نفسه كيف بدأ التجريد عند الإنسان لأول مرة علما أن الطبيعة خالية من التجريد أي أنه لم يأت تقليداً لظاهرة ما في الطبيعة؟

هنـا جاءت مرحلة آدم الثـالث لتغطي هذه القفـزة. في قولـه تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمـاتٍ فَتَـابَ عَلَيْـهِ إِنَّـهُ هُوَ التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. (البقرة ٣٧). لقد جاءت قفزة التجـريـد من الله مبـاشـرة أي أنـه سمـع أصـواتاً مجردة لها معنى التوبة، والتوبة من المفـاهيم المجـردة وليست من المشخصـات أي أنـه سمـع فعـل أمـر من صوتـين أو ثلاثـة أصـوات مقطعـة كقـوله تب فتاب عليه. وهنا بدأ التجريد. وقد أعطى الكتاب مثالاً رائعاً على التجريد والعلاقة الاصطلاحية بين الصوت والمدلول في الآية ﴿وَإِذْ

قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ . (البقرة ٥٨). هنا لاحظ العلاقة الاصطلاحية بين لفظة «حطة» وبين نغفر لكم خطاياكم أي:

حِطَّةٌ «علاقة اصطلاحية بصيغة الطلب» ← تعني المغفرة.

قارن هذه العلاقة الاصطلاحية بقوله تعالى:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ والكلمات كما قلنا من الناحية اللسانية تعني مجموعة الأصوات المقطعة أي تلقّى مجموعة من الأصوات المقطعة بصيغة الطلب تعني التوبة بعلاقة اصطلاحية غير طبيعية. وعليه فإنه ليس بالغريب أبداً أن نرى أن أول كلمة بدأ بها الوحي للنبي ﷺ هي صيغة الطلب بفعل الأمر «اقرأ». بعد هذه القفزة الربانية الهائلة أي قفزة التجريد بدأ القانون الثاني للجدل يعمل مع القانون الأول.

فالقانون الأول للجدل يعمل على ربط النقيضين بعدم التناقض. أما القانون الثاني فبدأ منذ التجريد يعمل بربط الأشياء بعضها مع بعض عن طريق أسمائها المجردة كقولنا «القط جميل». وهذا هو ربط اسماء الأشياء والمفاهيم بعضها ببعض «تأثير وتأثر متبادل قانون الزوجية» برباط يسمى الرباط المنطقي «المسند والمسند إليه»، أي ببداية الفكر المجرد بدأت العلاقات المنطقية بين أسماء الأشياء والمفاهيم وباكتمال التجريد الذي بدأ بقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. والذي أخذ وقتاً طويلاً اكتمل الرباط المنطقي للغة بظاهرتي الصرف والنحو، فظاهرة الصرف تعني إعطاء اسماء جديدة للأشياء أي عندما يكتشف الإنسان جديداً غير معروف سابقاً فإن أول شيء يفعله بدون شك هو أن يضع له اسماً «مصطلح» وفي الوقت الحاضر تستعمل قواعد الصرف «الاشتقاق» في اللسان الواحد أو يستعار من لسان آخر. وفي ظاهرة النحو تظهر بشكل جلي العلاقة المنطقية بين البنية اللفظية النحوية وبين مدلولاتها.

وكذلك ظهر القانون الثالث وهو قانون الأضداد في الظواهر «صفات الأشياء والمفاهيم». وقد ظهر مفهوم العقل وهو الربط المجرد بين المقدمات والنتائج بقانون عدم التناقض الذي ربط بين الرحمن والشيطان، وبه يستنتج الإنسان المجهول من معلوم وهو القانون الأساسي للتفكير المنطقي المجرد عند الإنسان فإذا كانت النتائج

وهمية فهي شيطانية، وإذا كانت حقيقية فهي رحمانية وفي كلتا الحالتين يعمل قانون عدم التناقض.

والآن ما علينا إلا أن نؤكد الحقائق التالية في أذهاننا:

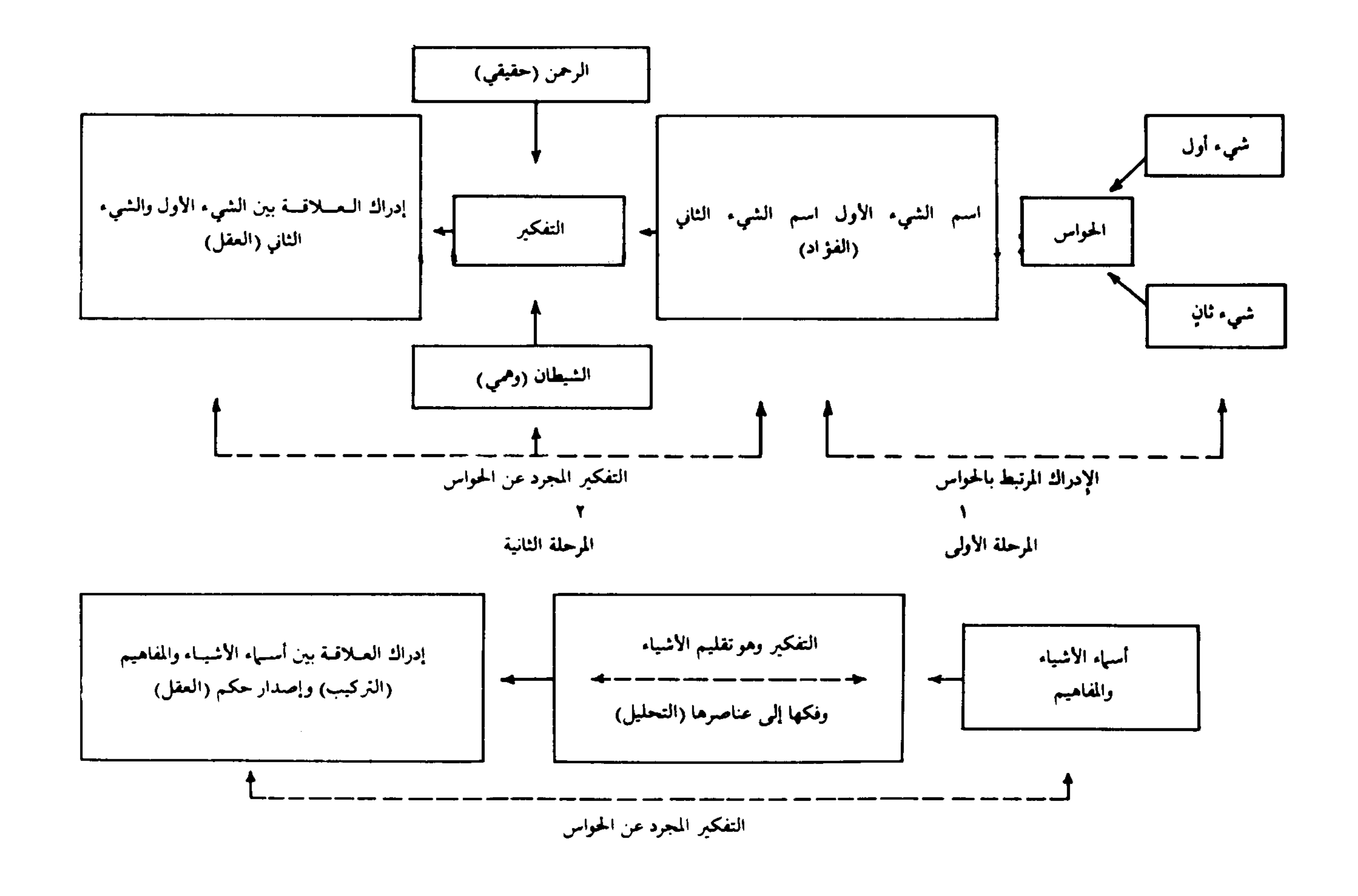
١ ـ إن القانون المنطقي موجود عند كل الناس العاقلين على حد سواء، لأنهم يمتلكون لساناً، ولكن مستويات استعمال هذا القانون تختلف من إنسان لآخر، وهذا القانون يعمل على حد سواء. . سواء كانت المقدمات حقيقية «رحمانية» أم وهمية «شيطانية» لأنه لا يمكن أن نقول: إن العلماء عاقلين والدجالين مجانين حيث كلاهما عاقل. ولكن العالم يستعمل المقدمات الرحمانية، والدجال يستعمل المقدمات الشيطانية وكلاهما يستعمل قانون عدم التناقض.

٢ ـ إن القانون المنطقي الذي هو ربط مجرد بين أسماء الأشياء بعضها ببعض لاستنتاج المجهول من معلوم من مبدأ عدم التناقض. هذا القانون هو الذي نسميه المنطق الصوري.

٣ ـ إن قانون الربط بين النقيضين بقانون عدم التناقض والربط المنطقي بين المقدمات والنتائج القائم على عدم التناقض هو القانون الذي لا يخضع للتطور أبداً وهنا تكمن نفخة الروح. حيث أن التطور جاء منهما وهذا القانون لم يتولد من علاقة إنتاجية أو من طبقة أو من علاقة اقتصادية، بل به تميز الإنسان كجنس وقفز من المملكة الحيوانية وهو الحلقة المفقودة عند داروين.

وهنا لا بد من التنويه لإزالة الالتباس، بطرح اسمين للمنطق: الأول المنطق الصوري. والثاني: المنطق الجدلي. وهذا خطأ فادح حيث لا يوجد منطق جدلي، بل يوجد قوانين الجدل. أما المنطق فهو قانون التفكير الإنساني المجرد والقائم على عدم التناقض.

الآن يمكن أن نضع المخطط الثاني للمرحلة الثانية «مرحلة التفكير المجرد الذي ينتهي بالتعقل»:



شيء أول
شيء ثاني
الحواس
اسم الشيء الأول اسم الشيء الثاني (الفؤاد)
الرحمن (حقيقي)
التفكير
الشيطان (وهمي)
إدراك العلاقة بين الشيء الأول والشيء الثاني (العقل)
الإدراك المرتبط بالحواس
١
المرحلة الأولى
التفكير المجرد عن الحواس
٢
المرحلة الثانية
أسماء الأشياء والمفاهيم
التفكير وهو تقليم الأشياء
وفكها إلى عناصرها (التحليل)
إدراك العلاقة بين أسماء الأشياء والمفاهيم (التركيب) وإصدار حكم (العقل)
التفكير المجرد عن الحواس

مرحلة الهبوط الثاني :

بعد أن تلقى آدم الثالث القفزة الأساسية وهي بداية التجريد حصل الهبوط الثاني وهو الانتقال إلى مرحلة اكتمال التجريد واكتمال العلاقة المنطقية. في هذه المرحلة بدأ الإنسان باكتساب المعارف وبداية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية في أشكالها البدائية. لذا قال ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾. وأتبعها بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (البقرة ٣٨).

لاحظ الفرق بين التعقيب على الهبوط الأول بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾. (البقرة ٣٦). وبين التعقيب على الهبوط الثاني ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. وقد جاءت هذه الصيغة للمستقبل، وقد أرسل الله رسلاً للهدى بواسطة الوحي. وهل يمكن أن يكون هناك وحي من الله لإنسان دون أن يملك الإنسان لغة مجردة «لسان» لكي يوحي له بها.

الاصطفاء:

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. (آل عمران ٣٣).

لقد حصل الاصطفاء في مرحلة آدم الثالث: أي أن الذي تلقى التجريد والعلاقة الاصطلاحية شخص واحد وعن طريق السمع وقد علمها هذا الشخص للآخرين.

لذا جاءت صيغة الهبوط «الانتقال» في الجمع في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾. أي هو ومن كان معه وعلّمهم هو تعليماً. وهذا يؤكد قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾. (طه ١٢٣).

هنا لاحظ التعليق على قوله «جَمِيعاً» بعد «اهْبِطَا مِنْهَا» حصل القول لمثنى والتنفيذ للجمع لأنه لو حصل الهبوط لاثنين فقط فإن كلمة جميعاً لا معنى لها لأنه لو كان الخطاب موجهاً إلى جزء من كل لقال «أجمعون» كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. (الحجر ٣٠) أي أن السجود ليس من كل الملائكة وإنما حصل من الذين وجه اليهم القول. ولو قال «فسجد الملائكة جميعاً» لعنى بذلك جنس الملائكة كلهم، وكقولك «فجاء الناس كلهم أجمعون» أي جاء الناس الذين وجهت إليهم الدعوة فقط. ولو قلت «فجاء الناس كلهم جميعاً» لكان معنى ذلك مجيء الناس بدون استثناء. وهنا قوله جميعاً هي للكل، لذا أتبعها بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

وهذا ما نراه حتى يومنا هذا عند كل أهل الأرض أن العلاقة الاصطلاحية بين الصوت والمدلول «الاسم والمسمى» لا تأتي إلا تعليماً أي أن الشخص الذي يعرف العلاقة الاصطلاحية يعلمها للشخص الذي لا يعرفها. وهذا ما يحصل عند تعليم الأطفال الكلام من قبل الوالدين والمجتمع، فالطفل يمكن أن يقلد صوت الهرة والكلب دون أن يعلمه أحد، ولكن لا يمكن له أن يعلم لوحده كلمة الهرة أو الكلب.

ولو ولد إنسان وعاش لوحده في غابة فإنه يستطيع أن يمر بمراحل آدم الأول والثاني ولكنه لايبلغ مرحلة التجريد أي بإعطاء علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول كما حصل عند آدم الثالث إلا إذا علمه إياها أحد. وهنا يكمن الاصطفاء لآدم الثالث. والذي هو أبو الإنسان وأبو الوجود التاريخي وليس أبا البشر. وعندما نقول عن أنفسنا إننا نحن بنو آدم فهذا لا يعني أننا نحن أبناءه بشكل فيزيولوجي مباشر ولكنه يعني أولاً: أننا نحن من الجنس الأدمي المتكيف المتلائم. وثانياً: أن آدم المصطفى والدنا، فنحن أبناؤ ه من حيث الأنسنة، حيث نقول في اللسان العربي إن فلاناً ابن المدينة أي ولد في المدينة وأخذ طباعها. ونقول إن فلانا ابن أبيه ونعني بذلك أن أباه علمه وأخذ طباعه فكان نسخة عنه أما نوح وآل إبراهيم وآل عمران فهم من أبناء آدم المصطفى من صلبه أي من أبنائه لقوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾.

لذا فان الإنسان الذي تعلم التجريد ومشى فيه استمر إلى يومنا هذا والذي لم يجرد وبقي على العلاقة الطبيعية فقد انقرض، وهذا ما يسمى بالإنسان القديم الذي انقرض تاريخياً. ويمكن أن نشاهد آثاره في الحفريات. أما الإنسان الحديث فهو الإنسان الذي اكتمل عنده حد أدنى من العلاقات المجردة أي أصبح له لغة ولو في أدنى مستوى تجريدي.

إبليس :

لقد شرحنا سابقاً مفهوم الشيطان وقلنا إن هناك نوعين من الشيطان : الشيطان الفعلاني من «شاط ، شيط» ، وهو أحد أطراف العملية في جدل الأضداد في الفكر الإنساني . والشيطان الفيعالي من «شطن» وهو وجود مادي خارج الوعي .

أما إبليس فقد جاء من «بلس» وتعني في اللسان العربي اليأس والقنوط كقوله : ﴿فإذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ . (الأنعام ٤٤) .

وهنا يجب أن نميز بين الملائكة وإبليس ، فإبليس كان من الجن وهي مخلوقات عاقلة مكلفة وجدت قبل الإنسان عندما كانت الأرض ما زالت ملتهبة وقبل أن تبرد لذا قال : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ . (الرحمن ١٥) . وقال : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ . (الحجر ٢٧) . وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ . (الأعراف ١٢) . والجان لها بنية مادية تختلف عن البنية المادية للإنسان بحيث تأخذ هذه البنية أشكالاً مختلفة ، ويمكن أن تكون هذه البنية بنية موجية لذا قال : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ .(الجن ٨) . ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ . (الجن ٩) . هذا الكلام لا ينطبق إلا على مخلوقات يمكن ان تأخذ بنية موجية . ومنه نفهم أن إبليس ليس له علاقة بالملائكة لا من قريب ولا من بعيد وإنما وجد على الأرض كآدم ولكن قبله .

ثم قال الله للملائكة أن يسجدوا لآدم ، ونحن نعلم أن ﴿قوله الحق﴾ فإذا تفحصنا الآيات حول هذا الموضوع رأيناها كما يلي :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ . (الأعراف ١١) . هنا لاحظ كيف وضع إبليس في محل خبر بقوله : ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ . ثم ليبين بشكل قاطع أن الله قال للملائكة قولاً وأمر إبليس أمراً اتبعها بآية منفصلة بقوله : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ .(الأعراف ١٢) . ثم لاحظ ان ابليس ليس له علاقة بالملائكة ولم يخرج من الأرض كآدم لذا قال له كقوله لآدم : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

(الأعراف ١٣).

ولكي يؤكـد أن إبليس عصى الأمر ولم يخالف القول قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾. (الكهف ٥٠).

أمـا قولـه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ (طه ١١٦). ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾. (طه ١١٧). هنـا تعبير ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ اسم إشارة للدلالة على أن أحد الشياطين الفيعالية هو إبليس لأنه وجود مادي خارج الوعي فهنا يجب أن نميز بين مهمة الشيطان الفعلاني التي هي تحويل الحقيقة إلى وهم وهو الذي قال عنه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. ومهمة إبليس «الشيطان الفيعالي» التي هي مخالفة الأمر لذا قال عنه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾. (الأعراف ٢٧). لاحظ كيف جاءت «الشياطين» بصيغة الجمع. وبما أن أوامر الله ونواهيه بدأت من عهد آدم بأبسط الأمور ﴿لاَ تَقْرَبَا﴾. وأن اهم أوامر رب العالمين بدأت بموسى وانتهت بمحمد ﷺ وهي الصراط المستقيم «الوصايا لموسى والوصايا لمحمد ﷺ» وقبل موسى جاء قسم من الوصايا، وبما أن الوصايا والحدود جزئياً أو كلياً لم تكن قد جاءت بعدُ قال: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. (الأعراف ١٤). ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾. (الأعراف ١٥). ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. (الأعراف ١٦). ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف ١٧).

هنا نلاحظ قوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والصراط المستقيم بدأ بالتوحيد ﴿لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾. وانتهى بالوصايا العشر والحدود لذا قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ولكي يبين أن الشيطان الفيعالي «هو وجود خارج الوعي الإنساني» قال: ﴿لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾. (الأعراف ١٧).

لذا فان مهمة الشيطان الفعلاني هي مهمة تحويل الحقيقة إلى وهم في الفكر وزرع الفكر بالأوهام «المثالية» **فهي مهمة معرفية بحتة ليس لها علاقة بالحلال**

والحرام، أما مهمة «ابليس» الشيطان الفيعالي فهي خارج الوعي الإنساني وهي خلق ظروف موضوعية لحض الناس على مخالفة الصراط المستقيم الذي له علاقة بالحلال والحرام فقط «الأخلاق والحدود».

أما قوله ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. (الأعراف ٢٢).

هنا تصف الآية التصرف الطفولي البدائي للإنسان عندما يشعر أنه اقترف ذنباً إذ نرى الأطفال الآن عندما يقترفون ذنباً فإنهم بإدراكهم الطفولي يحاولون الاختباء والاختفاء عن الأعين أي ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾. لا تعني ظهرت الأعضاء التناسلية ولكن بدا لهما أن هذا العمل سيء ومنها جاءت السيئة والسيئات وهنا بين مرحلة بدائية من مراحل وجود الضمير الذي يؤنب الإنسان والتصرف البدائي الطفولي لردة الفعل للضمير الإنساني الذي بدأ بالتشكل.

علما بأن جنس آدم عند نفخة الروح كان عارياً لا يعرف الملابس وكان يعيش في منطقة ذات مناخ حار حيث قال: ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾. (طه ١١٩).

رابعاً مرحلة الإنسان القديم من آدم إلى نوح

لقد بدأ القصص بعد آدم بنوح مباشرة، ولم يغط الفترة الطويلة بين آدم ونوح حيث أن البشر التي تعلمت التجريد من آدم المصطفى في كل منطقة وجد فيها البشر استمرت عملية الأنسنة. حيث قلنا إن البشر انتشرت قبل الأنسنة وأن آدم كان في أكثر من منطقة أي أن آدم المصطفى كان أكثر من واحد وفي أكثر من منطقة. وإن البشر التي لم تتعلم التجريد منه انقرضت وهذا ما يسمى بالإنسان القديم الذي انقرض لأنه لم تتم عنده عملية الأنسنة بالتجريد. أي أن الإنسان القديم هو الإنسان الذي بقيت عنده العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول دون القفزة إلى العلاقة الاصطلاحية. لقد بدأ القصص القرآني بنوح **لأنه يعتقد بان نوحاً يمثل بداية التاريخ الإنساني الحديث في منطقة الشرق الأوسط** على الأقل، ومرحلة نوح تمثل اكتمال

لغة مجردة بأبسط أشكالها حتى حصل الوحي للجنس البشري من الله، لأنه لا يمكن أن يكون هناك وحي بدون لغة تقوم على علاقات مجردة، هذا الوحي بدأ بنوح بأبسط صوَرة مجردة وانتهى بمحمد ﷺ فأصبح القرآن قمة التجريد اللغوي عندما وصل اللسان العربي إلى طور «اللسان العربي المبين» واعتبرت لغة القرآن قمة العلاقات المنطقية المجردة. ولكن ماذا يخبرنا القرآن عن الفترة الواقعة بين آدم ونوح.

لقد اعتمد التعليم بعد آدم على المشخص، وذلك بأن أرسل الله من الملائكة رسلاً ترى بالعين المجردة وتسمع بالأذن، لذا عندما بعث نوحاً وكان هناك لغة مجردة في شكلها الأولي قال له قومه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾. (المؤمنون ٢٤).

اذا حللنا هذه الآية نرى ما يلي:

آ ـ الاستغراب بأن بشراً جاءه وحي من الله ليدعي بذلك الزعامة على قومه علماً بأن قومه تعودوا على أن الاتصال من الله بالبشر كان عن طريق الملائكة لذا قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾. هنا لاحظ ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾. أي وضع صيغة الإنزال أي أن الملائكة التي بعثها لتتصل بالناس مشخصة وترى بالحواس «قابلة للإدراك» أمّا عندما ينزل الملائكة ولاترى بالحواس يستعمل صيغة «نزَّل» كقوله ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. (القدر ٤).

ولكي يؤكد ان هذه أول مرة يأتي بها الوحي إلى جنس البشر عندهم قالوا: ﴿مَاسَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

ب ـ لقد أكد لهم نوح من طرفه ما يلي: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. (هود ٣١).

ج ـ لقد أكد أن اللغة التي يتكلم بها نوح وقومه هي لغة مجردة مقطعة إلى مقاطع صوتية متميزة وذلك ليبين أن الإنسان أصبح جاهزاً للوحي وذلك في قوله. ﴿حم﴾. (الشورى ١). ﴿عسق﴾. (الشورى ٢). ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (الشورى ٣).

هنا نلاحظ أن «حم» عبارة عن مقطعين صوتيين متميزين وأن «عسق» عبارة عن ثلاثة مقاطع صوتية مقطعة متميزة. ثم اتبع هاتين الآيتين بقوله «كذلك» وكذلك في اللسان العربي تستعمل في خبر غير ابتدائي للتعليق على خبر ابتدائي والخبر الابتدائي هو ﴿حَمٓ - عٓسٓقٓ﴾ حيث شرحها بقوله: ﴿كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. هنا وضع المفعول به قبل الفاعل لأهمية الخبر، والخبر هو أنّه عندما وُجِدَ المقطعان الصوتيان المتميزان والثلاثة مقاطع الصوتية المتميزة بدأ الوحي وعلى هذا الغرار كان الوحي للنبي ﷺ وللذين من قبله لذا أضاف إليها الآية ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾. (الشورى ٧).

ولكي يبين أن نوحاً هو أول من أوحي إليه من البشر قاطبة، وأن به بدأ تاريخ الإنسان الحديث في الشرق الأوسط على الأقل قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. . الآية﴾. (النساء ١٦٣).

والآن ما هي الأشياء التي جاءت للإنسان في الفترة بين آدم المصطفى ونوح؟ أي في فترة الانتقال من العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول إلى العلاقة الاصطلاحية؟

ممارسة الإنسان لدفن الموتى عن طريق التعليم المشخص المباشر «التقليد» حيث أكد الكتاب بأن الإنسان تعلم دفن الموتى تعليماً «فؤادياً» مرتبطاً بحاستي السمع والبصر ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. (المائدة ٣١).

لقد ذكر هذه الحادثة ليؤكد أن الإنسان كان لا يعلم دفن الموتى، وقبل ذلك كان يترك الموتى في العراء كالبهائم، وهذا يؤكد مرة أخرى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. بأن الأسماء لا تعني الألسن واللغات، لأن الإنسان لا يمكن أن يكون عنده دلالات دون أن يكون لها مدلولات في ذهنه. فكيف يمكن أن يتعلم آدم فعل «دفن» مثلاً باللسان العربي وهذا الفعل ليس له مدلول في ذهنه. لذا فتفسير ﴿الأسماء﴾. على أنها أسماء الأشياء كلها ولا ندري بأية لغة؟ هل هي بالعربية أو الإنكليزية؟ وأنها جاءته إلهاماً، هذا التفسير هو تفسير خاطىء.

ولقد أكد أن هذه الحادثة حصلت بعد آدم بقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ

بِالْحَقِّ﴾. (المائدة ٢٦). هنا يجب أن نفهم أن ابني آدم لا تعني أولاد آدم المباشرين من صلبه، ولكن نفهمها كقولنا نحن أبناء آدم أي نحن أبناؤه بالأنسنة وليس بالبشرية. كقولنا عن الذي تخرج من جامعة دمشق «ابن جامعة دمشق».

وهكذا نرى أن الإنسان تعلم في هذه الفترة تعليماً مشخصاً فقط وذلك عن طريقين: أولهما عن طريق الملائكة المشخصة «الإنزال» وعن طريق التقليد.

أما الملائكة فكانت مشخصة يراها الإنسان ويسمعها وقد سماها النذر، لذا قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. (فاطر ٢٤). لقد أرسل الله هذه النذر إلى كل التجمعات التي بدأت بالأنسنة في كل أنحاء الأرض، هذه الملائكة أعطتهم فكرة أولية عن الله والتوحيد بأبسط صوره البدائية وعن التقرب والعبادة لله بأبسط الصور البدائية المشخصة، وهي تقديم القرابين لله. لذا لا نرى تجمعاً إنسانياً مهما كان بدائياً إلا ولديه فكرة ما عن الله، ولديه مفهوم ما للتضحية والتقرب من الله أولاً والتي تشوهت فيما بعد وأصبحت التقرب من الآلهة.

هذا المفهوم في أبسط صورة بقي عندنا نحن المسلمين في الذبح في عيد الأضحى المبارك وفي هذا قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. (المائدة ٢٧).

هنا نلاحظ أن مفهوم التقوى لم يكن مجرداً بل كان تقبل الله للقربان تقبلاً مادياً محسوساً. ونلاحظ أيضاً نمو مفهوم الضمير الإنساني بالتقوى وظهور المفهوم الاجتماعي لرفض قتل النفس بقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. (المائدة ٢٨).

علماً بأن قتل النفس لم يحرمه الله سبحانه وتعالى إلا في رسالة موسى لذا قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾. (المائدة ٣٢). أي أن الناس قبل موسى كانت تتصرف حسب أعرافها في عقوبة قتل النفس أو في العقوبة التي تستحق قتل النفس.

وهكذا نفهم فقط قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾. (الشعراء ١٠٥) فنوح إنسان واحد وهو رسول فلماذا قال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ بالجمع؟ هنا نفهم بأنه قبل نوح كان المرسلون من الملائكة فكذبوهم وكذبوا نوحاً معهم فقال:

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾.

بهاتين الطريقتين: التعليم المشخص المباشر «التقليد» أو ارسال ملائكة مشخصة تعلم ما يلي بالإضافة إلى دفن الموتى والقرابين:

عن طريق الملائكة المشخصة: تعلم اللباس بأبسط صوره بقوله بعد ذكر آدم الثالث والانتقال إلى مرحلة الأنسنة مباشرة: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. (الأعراف ٢٦). هنا نلاحظ كيف ذكر عن اللباس الإنزال ولم يذكر التنزيل أي أن الإنسان أدرك اللباس عن طريق شيء ما قلده. ولو ذكر التنزيل للباس لعنى بذلك أنه أرسل ملابس مخيطة من عنده، أي جاءت الملابس بعينها من عند الله وليس فكرة الملابس. أي أن بدايات الإنسان الحديث كان الإنسان يلبس شيئاً ما، وهذا الشيء شرحه في سورة النحل «انظر فصل المفاهيم الجمالية في الباب الرابع».

وعن طريق التعليم المباشر بالتقليد اكتشف الإنسان النار واستعملها. لقد ذكر الكتاب أن الإنسان عاش في مناطق لها غطاء نباتي «غابات» ونحن نعلم إلى يومنا هذا أن الغابات يمكن أن تشب فيها الحرائق الطبيعية بدون تدخل الإنسان، وقد تدوم هذه الحرائق مدة طويلة وتلتهم النار مساحات كبيرة، وهذه الحرائق إذا رآها الإنسان فهي ملفتة للنظر، لأنها تصدر حرارة وتضيء في الليل وتنتقل وتتوسع من شجرة إلى أخرى وتسبب خوفاً وذعراً له وللحيوانات التي تعيش معه. فمن تكرار ملاحظة الإنسان لهذه الحرائق، وكيف أنها تنتقل من فرع شجرة إلى فرع آخر، وكيف تسبب الخوف للحيوانات كلها وتصدر حرارة وتضيء في الليل. فعند ذلك أوقد النار منها لنفسه لذا قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾. (يس ٨٠).

هنا ذكر بأن النار التي جعلت من الشجر الأخضر «الغابات» هي التي أوقد منها الإنسان بعد أن رآها مرات عديدة لذا قال ﴿فَإِذَا﴾ ولو أوقد الإنسان النار من أول مرة رآها لقال «فإذ أنتم منه توقدون».

هنا يعطينا القرآن حقيقة تاريخية كبرى وهي أن الإنسان أوقد النار من حرائق الغابات، وعندما أشعل الإنسان النار بواسطة الاحتكاك كان يعرف النار وفوائدها ومضارها وكان بحاجة إليها ومن الاحتكاك اكتشف كيف يشعلها بنفسه.

هذه النواحي التي أعطاها القرآن تعتبر قفزات نوعية هائلة في تقدم الإنسان نحو الأنسنة وابتعاده عن المملكة الحيوانية.

ففي ظاهرة دفن الموتى ظهر مفهوم اجتماعي وذلك بالقيام بعمل ما يتعلق بغيره وبه فيه وللآخرين مصلحة.

وفي ظاهرة القرابين ظهر مفهوم التضحية والإيثار، وهو مفهوم التقوى بأبسط صوره والذي جاء فيما بعد بمفهوم العبادات والإيثار.

وفي ظاهرة الامتناع عن قتل النفس تعبير مباشر عن بداية ظهور الضمير الاجتماعي وظهور الأخلاق التي كانت الوصايا العشر «الفرقان» قمتها.

وفي ظاهرة إشعال النار قفز الإنسان قفزة معرفية كبرى حيث أن إشعالها أولاً من حرائق الغابات ثم من الاحتكاك مكنته من الدفاع عن النفس والرؤيا في الليل وظهور ظاهرة أكل اللحم مشوياً. ونرى أن الفترة الزمنية الكبرى ابتداء من إشعال الإنسان النار بالاحتكاك «توليد الحرارة من قوة ميكانيكية» إلى توليد القوة الميكانيكية من الحرارة بالمحرك البخاري أخذت الآلاف من السنين.

الإنسان الحديث:

لقد قلنا إنّ الإنسان الحديث الذي بدأ بنوح كان يملك لغة مجردة في أبسط صورها حيث سمحت هذه اللغة بظاهرة الوحي علماً بأنه كان هناك مرحلة انتقالية اشترك فيها الوحي المجرد مع الملائكة المشخصين. فعن مرحلة نوح قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾. (الشعراء ١٠٥) وعن مرحلة عادٍ قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾. (الشعراء ١٢٣) ولكن هناك ناحية هامة في مرحلة عاد إذ إنه جاءت الملائكة «النذر» قبل هود ومع هود لذا قال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. (الأحقاف ٢١).

هنا لاحظ قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. (الأحقاف ٢١). لذا كانت هداية هود على أيدي النذر التي عاصرته: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾. حيث لم يأت قومه بالبينات المادية التي طالبوه بها: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا

بَيِّنَـةٍ وَمَـا نَحْنُ بِتَـارِكِي آلِهَتِنَـا عَنْ قَوْلِـكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . (هود ٥٣) . هنا نلاحـظ طلب النـاس للبينـة حيث يعلمنا الله أن لا نتبع كلام أي شخص بمجرد أنه قال كذا وكـذا بدون بينـات وقـد كانت بينـة النبي ﷺ هي القـرآن «النبـوة» الذي هو تصديق الذي بين يديه «الرسالة» .

وكـذلـك قال في ثمـود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ . (الشعراء ١٤١) . وكذلك قال في لوط : ﴿كَـذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُـرْسَلِينَ﴾ . (الشعـراء ١٦٠) . وقـولـه : ﴿وَلَمَّـا جَاءتْ رُسُلُنَـا لُوطَـاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعَاً وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ . (هود ٧٧) . ولابـراهيم أيضـاً جاءت المـلائكـة المشخصة بالإضافة إلى الوحي في قوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ . هود ٦٩) . وقد انقطعت الملائكة عند موسى حيث بعث الله معه أخاه هارون ، وعند عيسى ، وعند محمد ﷺ .

ولكن بينات موسى وعيسى كانت خارج النبوة والرسالة وكانت مادية مشخصة . أمـا بينـة محمـد ﷺ فكـانت نبـوتـه (القـرآن) وفيهـا قمـة العـلاقـات المجـردة أي أن المعقـولات سبقت المحسـوسـات وعند هذا نضجت الإنسانية وأصبحت مهيأة لتتم مسيرة التطور والأنسنة لوحدها إلى قيام الساعة .

ان القصص في الكتـاب يعطينـا تطـور التشريعات في الرسالات والمعلومات في النبوات بالنسبة للإنسان الحديث ابتداء من نوح إلى محمد ﷺ . وهنا يكمن سر القصص . وهكـذا يجب أن يدرس القصص في الكتـاب . أمـا من يقول إن القصص جاء لتسليـة النبي ﷺ فهـذا نوع من العبث . وإن من يقول عن قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُـرْسَلِينَ﴾ بأن تكـذيب نوح هو بمثـابـة تكـذيب للرسـل التي جاءت من بعده فهذا عبث أيضـاً لأن الإنسـان يمكن أن يكـذب من معـه ومن قبله ولكنـه لا يكذب من هو بعـده . فتكـذيب قوم نوح له ولمن قبله لايعني تكـذيب محمـد ﷺ إذ ليس لهم أيـة علاقة بمحمد ﷺ وإلا فإنهم شركاء لله في معرفة سياق التاريخ الذي هو غيب بالنسبة لهم . والله أعلم .

الفصل الثالث
نظرية المعرفة القرآنية

تمهيد :

الفرع الأول : جدل الأضداد في معرفة آيات الله (العقل الرحماني والعقل الشيطاني) .

الفرع الثاني : أنواع المعرفة ونسبتها .

أولاً : أنواع المعرفة .

ثانياً : الزمن والوقت والنسبية .

ثالثاً : الدائم والباقي .

الفرع الثالث : الوحي وعلم الله وقضاؤه .

أولاً : الوحي .

ثانياً : علم الله .

ثالثاً : قضاء الله .



تمهيد:

قلنا إن العلاقات المجردة التي جاء التعبير عنها باللغة المجردة والرباط المنطقي القائم على عدم التناقض بالربط بين نقيضين هما الرحمن والشيطان هي

نفخة الروح وهي التي حولت البشر إلى انسان وما زالت نفخة الروح تقوم بهذا العمل الجبار التي أنجزته الإنسانية بفرعين رئيسيين وهما:

١ ـ خط التشريع والعبادات والأخلاق وهو العلاقات الاجتماعية والقانونية بين الناس والتعبدية بين الناس والله وهي التي نقول عنها العلاقات المتحضرة «خط الرسالات».

٢ ـ خط تقدم المعرفة الإنسانية بالموجودات وظواهر الطبيعة والتي سمحت للإنسان بتسخير الطبيعة لمصلحته والسيطرة عليها «خط النبوات» «العلماء ورثة الأنبياء».

إننا سنطلق اصطلاحاً على الخط الأول العقل الاتصالي «الاجتماعي والأخلاقي والتعبدي»، وعلى الخط الثاني العقل العلمي.

وبما أن الكتاب كله يحتوي على النبوة «العقل العلمي» والرسالة «العقل الاتصالي» معاً فقد سماه روحاً ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (الشورى ٥٢). وسمي جبريل روحاً لأنه كان ينقل الأوامر «الرسالات» والمعلومات «النبوات».

وهنا يكمن جدل الإنسان في العقل العلمي «المعرفي» وفي العقل الاتصالي «الاجتماعي».

وأعطى تعريف الروح بشكل قاطع في أنها أوامر رب العالمين في الرسالات والمعلومات الموحاة في النبوات بقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. (الاسراء ٨٥). ولكي يبين أن الروح في هذه الآية هي مجمل الوحي أي الأوامر والنواهي والمعلومات إلى النبي ﷺ أتبعها بقوله.

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾. (الإسراء ٨٦).

قلنا إن جدل الإنسان يتجلى في ظاهرة الفكر غير الموجودة في بقية الأشياء التي نعرفها لذا قال:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. (الكهف ٥٤).

تبين هذه الآية أن قوانين الجدل هي من القرآن وأن الأمثال المضروبة في الكتاب هي من القرآن. وهنا قوله: ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. استعمل كلمة أكثر للدلالة على الزيادة الكمية في الجدل. أي أن الجدل الموجود في الأشياء موجود في الإنسان ولكن هناك جدلاً في الإنسان غير موجود في الأشياء، هو جدل الفكر. ولو كان جدل الإنسان هو نفس جدل الأشياء ولكنه أوضح في الإنسان. لقال: «وكان الإنسان أكبر شيء جدلاً».

لقد شرحنا في قوانين الجدل القانون الأول للجدل في الشيء الواحد. والقانون الثاني العلاقة المتبادلة بين الأشياء المتميزة بعضها عن بعض «الأزواج». وهذه العلاقة موجودة في مستويات التأثير المتبادل وهي علاقة في غاية التعقيد حيث أن العلاقة الزوجية بين شيئين مختلفين توجد في مستوى تأثير وليست في وحدة. هذان القانونان يعملان في الأشياء ومن ضمنها الإنسان كبشر وهما العمود الفقري لقوانين القدر.

الأضداد:

إن مفهوم الأضداد يختلف جداً عن مفهوم التناقضات والأزواج. ففي الأشياء لا يوجد أضداد بل أزواج ومتناقضات، ولكن الأضداد موجودة في ظواهر الأشياء التي تدرس من قبل الإنسان. فالقانون الأول للجدل في الشيء الواحد وعيناه من خلال الموت والحياة. وكذلك الأرض والشمس هما من الأشياء. ولكننا لا نقول عن الليل

والنهـار أنهمـا من الأشيـاء ولكنهمـا ظاهـرة طبيعيـة تولـدت عن دوران الأرض حول نفسها، وكذلك الصيف والشتاء هما ظاهرتان تولدتا عن دوران الأرض حول الشمس.

هذه الأضـداد والتي هي من ظواهـر الأشيـاء هي الطـريقـة التي يستـوعب بها الإنسـان الأشيـاء ولهـا وحـدة تسمى وحـدة الأضداد حيث أن الأضداد يلغي بعضها بعضاً ولا تجتمـع ولكنهـا تتعاقب وتتناوب، ويوجد في تناوبها مرحلة انتقالية. فمثلاً بين الليل والنهار يوجد الفجر، وبين النهار والليل يوجد الغسق.

فالأشيـاء في الطبيعـة لا يلغي بعضهـا بعضـاً ولكن الإلغـاء «النفي والاثبات» يكمن في ظواهـر هذه الأشيـاء. حيث نفهم هذا النفي والإثبـات من خلال الحـركـة الميكانيكية والحرارية والعضوية.. الخ. وهذا ما تدرسه العلوم.

وبمـا أن الفكـر الإنسـاني ظاهـرة وليس شيئاً. واللغة هي حامل هذا الفكر ولا تنفصـل عنـه، فقد تم التعبير عن الفكر الإنساني في ظاهرة الأضداد وقد ظهرت هذه الأضداد في اللغة كحامل للفكر لا ينفصم عنه. أي أننا يمكن أن نورد ما يلي:

١ ـ القانون الأول للجدل: «قانون صراع المتناقضات في الشيء الواحد» وقد أدى هذا القانون لتطور اللغات كمفردات جديدة وقوانين للصرف.

٢ ـ القانون الثاني للجدل «قانون التأثير والتأثر المتبادل بين الشيئين» وقد أدى هذا القانون إلى العلاقات المنطقية بين الكلمات في تأليف الجمل وإخراج المعاني المختلفة قد عبر عنه في قوانين النحو.

٣ ـ بمـا أن التعبيـر عن ظواهـر الطبيعـة جاء في الأضداد فجاءت الأضداد في التعـابيـر اللغوية وفي معاني الكلمات أي التعبير عن الفكر، فقد جاءت المتناقضات في الفكـر الإنسـاني المعـرفي في مصطلحي الـرحمن والشيطـان «الحقيقة والوهم» وجـاءت الأضـداد في التعابير اللغوية «قيام، قعود» «شهيق، زفير» «حب، كراهية»، «فجـور، تقـوى»، «كفـر، إيمـان» «سـالب، موجب» «كبيـر، صغيـر» «قليل، كثير» «يمين، يسـار». أي وجب علينـا تمييـز النقيضين في الـرحمن والشيطان أي الحقيقة والـوهم الملتبسين معـاً والمـربـوطين بقانون عدم التناقض وبين التعبير اللغوي على ظاهـرة ما وذلـك في الأضداد أي أن الرحمن هو الجانب الحقيقي والشيطان الجانب الوهمي في الضـد الـواحد علماً بأن الحركة بين الأضداد هي حركة تناقضية. وظاهرة

الأضداد في بنية اللسان العربي واضحة بشكل جلي في الظاهرتين التاليتين :

آ ـ يوجد أفعال في اللسان العربي ذات تراكيب صوتية بحيث إذا انعكس التركيب الصوتي انعكس المعنى ، أي أعطت المعنى المضاد تماماً :

ـ كتب «تعني تجميع الأشياء بعضها إلى بعض» ومنها جاء الكتاب والمكتب والكتابة .

ـ ب ت ك «تعني تفريق الشيء إلى قطع أو تفريق الأشياء بعضها عن بعض ، كقوله تعالى ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ . (النساء ١١٩) .

ـ در «تعني الإعطاء كقوله تعالى ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ . (النور ٣٥) . أيْ أنه شفاف يمرر الضوء .

ـ رد (تعني رد الشيء» .

ـ فاض «عكسها في الصوت والمعنى» ضاف .

ـ نهر سمي النهر نهراً لأنه ينهر المياه ويمررها . عكسها في الصوت والمعنى رهن وتعني الحجز ومنه جاءت الرهينة .

ـ شرف تعني العلو ومنه جاءت الشرف والشرفة ، عكسها في الصوت والمعنى فرش .

ـ حبس تعني الحجر عكسها في الصوت والمعنى سبح وتعني الحركة المستمرة .

ـ جب وتعني التجميع ومنه جاء معنى الجب وهو المكان الذي يجمع المياه وعكسها في الصوت والمعنى بج فنقول بجت الأرض الماء أي طرحته .

ـ رخص تدل على الرخاوة ، عكسها في المعنى والصوت صخر .

ـ س ر ح تدل على الاطلاق وعكسها في المعنى والصوت ح ر س .

ـ ح ز م تدل على شدة في الأمر وعكسها في المعنى والصوت م ز ح .

ـ علق منها تعليق شيء بشيء آخر عكسها في الصوت والمعنى قلع .

ـ قشع عكسها في الصوت والمعنى عشق .

ب ـ يوجد في اللسان العربي أفعال كل فعل يحمل المعنيين : المعنى والمعنى المضاد تماماً في نفس الفعل . فأحياناً يأتي الفعل بالمعنى الأول وأحياناً يأتي بالمعنى المضاد تماماً وأحياناً يأتي بالمعنيين معاً ، ومن هذه الأفعال :

ـ ظن: لهـا معنيـان متضـادان: المعنى الأول الشك كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. (يونس ٣٦). ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. (الحجرات ١٢). وجاءت في المعنى المضاد وهو اليقين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. (البقرة ٤٦). وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾. (البقرة ٢٤٩). وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. (الحاقة ١٩، ٢٠، ٢١). وقوله ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾. (الكهف ٥٣). وقوله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾. (القيامة ٢٤ ـ٢٥) وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾. (الإسراء ١٠١).

ـ عبد: فعل له معنيان متضادان: الأول الذل والخنوع. والثاني الأنفة والكبر. ففي المعنى الأول جاءت في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. (الفاتحة). ومنها جاءت العباد والعبيد. وكقوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾. (التوبة ١١٢). وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون ٤٧). وقوله: ﴿لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. (الكافرون ٣). وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. (غافر ٦٠). وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. (هود ١٢٣). وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾. (الأنبياء ٥٣).

وجاءت بمعنى التكبر والأنفة والاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. (الزخرف ٨١). وهذا يعني أن الله أخبر النبي ﷺ بأن الرحمن لم يلد ولم يولد فإذا تبين أن له ولد فان النبي ﷺ هو أول انسان يكفر به ويستنكف عنه.

وجاءت تحتمل المعنيين معاً في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾. (الذاريات ٥٦). هذه الآية خبرية. فالله خلق الجن والإنس أحراراً ولهم حرية الاختيار، فمنهم من يعبد بمفهوم التذلل والطاعة، ومنهم من يعبد بالمفهوم المضاد، أي يكفر ويتكبر. وهذه الآية تعطينا الغاية من خلق الإنسان وهي

الحرية وتنسجم مع قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ. . الآية﴾. (الكهف ٢٩).

ـ **خفي**: لها معنيان متضادان: الأول الستر والثاني الظهور. ففي المعنى الأول جاءت في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾. (ابراهيم ٣٨) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. (الحاقة ١٨) وقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾. (الأحزاب ٣٧).

وفي المعنى الثاني أي الظهور والعلن جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾. (طه ١٥). هنا «أخفيها» بمعنى أظهرها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾. (طه ٧) هنا «وأخفى» تعني العلن أي يعلم السر والعلن.

ـ **تل**: لها معنيان متضادان هما: الارتفاع والانخفاض. ففي معنى الارتفاع جاءت كلمة التل وهو المكان المرتفع. وفي معنى الانخفاض جاءت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾. (الصافات ١٠٣) أي أخفضه على جبينه إلى الأرض ليذبحه.

ـ **مولى**: لها معنى السيد والعبد. فنقول الله مولانا «أي سيدنا» ونقول فلان مولى فلان «أي خادمه». وجاءت في المعنى الأول في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾. (مريم ٥).

ـ **عدل**: لها معنيان متضادان: العدل «المساواة» والظلم. ففي معنى العدل جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾. (الشورى ١٥). وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً. . الآية﴾. (النساء ٣). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. (الأنعام ١٥٢). وفي المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. (النمل ٦٠).

ـ **قسط**: لها معنيان متضادان: الأول البر والإحسان. والثاني: الجور والطغيان. فالمعنى الأول جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (المائدة ٤٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى. .﴾ (النساء ٣).

والمعنى الثاني جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾. (الجن ١٥).

كيف استعمل الكتاب فعل «جدل» في المواقف الفكرية الإنسانية:

بما أن جدل الانسان قائم على جدل الأضداد في مظهره وجدل المتناقضات في جوهره «محتواه» وذلك في تفكيره العقائدي وفي سلوكه فقد استعمل الكتاب فعل «جدل» عند الإنسان في حالة الأضداد وليس الأزواج علما بأن العلاقة بين الأضداد هي علاقة تناقضية.

١ - ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾. (الكهف ٥٦).
﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾. (غافر ٥).

هنا نلاحظ كيف استعمل الجدل بين الباطل والحق، وهما من الأضداد في وحدة هي الفكر الإنساني، وقد قلنا إن أحد معاني الجدل هو الكلام ومراجعة الكلام «موقف وموقف مضاد»، ونلاحظ هذا المعنى «موقف وموقف مضاد». بشكل كامل في قوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. (المجادلة ١). لقد كانت المرأة التي تشتكي للنبي حول المظاهرة في موقف مضاد فيما يتعلق في زوجها ولكنها هي ليست في موقف مضاد مع النبي. فحول الموقف بالنسبة لزوجها قال: ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. وحول علاقتها مع النبي ﷺ قال: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾. هنا نلاحظ كيف استعمل فعلي الحوار والجدل في آية واحدة. وعندما يوجه الإنسان كلاماً إلى آخر، أمراً أو نهياً أو خبراً بدون أن يعرف موقف الآخر، في هذه الحالة يسمى «خطاباً» كقوله تعالى لنوح: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. (هود ٣٧) ومن هنا جاء مفهوم المهرجان الخطابي حيث يعرض الإنسان في خطابه وجهة نظر، وبعد

ذلك يجادله قسم من الناس، وقسم آخر يحاوره.

٢ - ﴿إنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إنْ فِي صُدُورِهِمْ إلاّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ﴾. (غافر ٥٦).

- ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾. (الشورى ٣٥).

- ﴿حَتَّى إذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هٰذَا إلاّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. (الأنعام ٢٥).

- ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إلاّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (غافر ٤).

هنا نلاحظ أن الجدل غير الحوار فقد قال «يجادلون» ولم يقل «يحاورون» أي يمكن أن يكون هناك حوار بين اثنين من المؤمنين حول معنى آية. ولكن الذي يتخذ موقفاً ضد آيات الله فهذا موقف جدلي لذا قال عن الذين يجادلون في آيات الله ﴿مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾. وقال عنهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقال عنهم: ﴿إنْ فِي صُدُورِهِمْ إلاّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ﴾. (غافر ٥٦).

٣ - ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾. (هود ٣٢).

- ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾. (الأعراف ٧١).

هنا كان موقف جدلي بين نوح وقومه وبين هود وقومه وكان الجدل قائماً بينهم على الوحدة والتعددية لذا قال لهم هود: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾. وكان هذا الموقف الجدلي بين الواحدانية والتعددية بين النبي ﷺ وقومه في قوله: ﴿وَإنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (الحج ٦٨).

٤ - ولكي يبين أن الجدل من الأضداد يمكن أن يكون في الانسان الواحد وأن الأضداد تتناوب وتتعاقب قال عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾. (هود ٧٤ - ٧٥).

لقد اتخذ إبراهيم موقفاً مضاداً حين جادل رب العالمين في قوم لوط فالله يريد أن يهلكهم وكان موقف إبراهيم هو التريث لذا قال ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. ورد الله عليه: ﴿يَا إبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾. (هود ٧٦).

ولكي يبين وحـدة الأضـداد في إبـراهيم أوردها في آية منفصلة في قوله: ﴿إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾. (هـود ٧٥). فالحلم هو من الأنـاة، والتأوه من العجلة فهما متضادان ووحدتهما هو منيب من الإنابة. فالإنابة اما بحلم أو بتأوه. ولكي يبين أن الأضداد تتناوب وتتعاقب قال في سورة التوبة: ﴿وَمَاكَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِـدَةٍ وَعَـدَهَـا إِيَّـاهُ فَلَمَّـا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّـهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٤). لاحظ التناوب في قوله تعالى:

إن إبراهيم لأواه حليم ـــــــ إن إبراهيم لحليم أواه.

والإنابة هي وحدة «أواه حليم» كالتنفس الذي هو وحدة الشهيق والزفير.

هنا نلاحظ الجدل في الأضداد في المواقف الإنسانية، ففي موقف إبراهيم مع أبيه كان أواهاً حليماً أي كان يستعجل الاستغفار لأبيه لذا غلب الأواه على الحليم، وفي موقفه من قوم لوط كان موقف إبـراهيم هو تأجيـل العذاب لذا غلب الحليم على الأواه. وهكذا لا نستغرب لماذا سمي إبراهيمُ خليلَ الرحمن، والرحمن فيه توليد الثنائيات.

جدل الأضداد في العلاقات الاجتماعية والسياسية والفكرية بين الناس:

لقـد قسم القـرآن جدل الأضـداد الـذي يعتبـر ظاهـرة للتعبير عن المتناقضات الـداخليـة في العـلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية بين الناس إلى نوعين من الجدل:

ـ النوع الأول:

جدل متصالح غير متخاصم أي هناك مواقف جدلية بين مجموعتين من الناس ولكن هذه المـواقف ليست مواقف تصـادميـة وبـدون عنف وقـد أطلق عليهـا القرآن «الجـدل بالتي هي أحسن» وذلـك في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّـذِين ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُـولُـوا آمَنَّـا بِالَّـذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُـونَ﴾. (العنكبـوت ٤٦). فقـولـه: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. يعني بالضـرورة أن هنـاك جدلاً مضـاداً وهنـا نلاحـظ كيف بين الكتـاب

العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب فالعلاقة العقائدية هي علاقة جدل متصالح ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي هناك مواقف جدلية ولكنها غير تصادمية، ولكن فيما يتعلق بالعدل والظلم يمكن أن يكون هناك جدل تصادمي مع أهل الكتاب ومع غيرهم من المسلمين أيضاً لذا قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

هنا بين لنا الكتاب الموقف الإسلامي الواضح من غير المسلمين من أهل الكتاب وهذا الموقف «هو موقف جدلي غير تصادمي» بالنسبة للأمور العقائدية وموقف جدلي تصادمي في الأمور الاجتماعية الاقتصادية والسياسية في حالة الظلم، وحالة الظلم هذه تنطبق أيضاً على العلاقة بين المسلمين أنفسهم لذا قال: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾. (النساء ١٤٨).

- النوع الثاني:

الجدل التصادمي «الجدل المتخاصم» هذا النوع من الجدل بين المتناقضات في الجوهر والأضداد في المظهر في العلاقات الاجتماعية والسياسية هو جدل مبرر في الحالات التالية:

آ - حالة الظلم في قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

ب - في حالة القتال العقائدي والسياسي لفئات تعادي المسلمين عنوه وصراحة كالعلاقة بين النبي ﷺ والمسلمين وبين مشركي العرب حيث كانت علاقة جدل تصادمي وقد بين هذا في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. (الزخرف ٥٧ - ٥٨). هنا نلاحظ العلاقة الجدلية المتخاصمة بين النبي ﷺ وبين قومه. وكانت هذه العلاقة واضحة في المعارك التي خاضها النبي ﷺ مع مشركي العرب.

وقد أكد الكتاب أن العلاقة مع غير المسلمين من غير أهل الكتاب هي علاقة جدل غير تصادمي ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وذلك عندما يكون موقف هؤلاء المسلمين موقف جدل غير تصادمي وقد أكد هذا في قوله: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (الممتحنة ٨).

هنا نلاحظ كيف وضع الآية بصيغة عامة بحيث لم يقل «من أهل الكتاب» بل

وضعها صيغة عامة لكل الناس . أي على المسلم أن يكون في علاقة جدلية غير تصادمية مع كل الناس الذين يتخذون مواقف مضادة ما عدا هؤلاء الذين يتخذون مواقف جدلية تصادمية من المسلمين ويحاولون احتلال أراضيهم وديارهم . ومع الظالمين من المسلمين ومن غيرهم .

ـ شرح قوله تعالى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ :

بما أن أساس المعرفة الإنسانية هو التمييز «القلم» حيث أنه في الإدراك الفؤادي ، العين تقلم الألوان والأبعاد والأشكال ضمن مجال إمكانياتها ، والأذن تقلم الأصوات ضمن مجال إمكانياتها السمعية وكذلك بقية الحواس ثم بعد ذلك يأتي الفكر المجرد وتعلم العلاقات المجردة بعضها عن بعض بواسطة اللغة المجردة أولاً ثم بواسطة اللغة المجردة والأعداد والرموز ثانياً وهذه اللغة المجردة والرموز تقوم على علاقات منطقية . ولكن عندما بدأ الإنسان بالكلام كان لا يميز الذكر عن الأنثى في المتكلم والمخاطب ولا يميز العدد أيضاً حيث ظهر هذا التمييز في فترات لاحقة .

فالكتاب يخبرنا أن احدى وسائل التمييز التي لعبت دوراً في الكلام الإنساني المجرد هو صوت النون وذلك في قوله تعالى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . (القلم ١) .

فنرى في اللسان العربي أن الصيغة العامة التي تشمل العاقل وغير العاقل هي صيغة «ما» كقوله : ﴿وَلله يَسْجُدُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ﴾ . (النحل ٤٩) .

ثم استعملت النون لتمييز العاقل فقط بلفظة «من» كقوله : ﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾ . (الرعد ١٥) .

«ما» «صيغة عامة» سبقت في الاستعمال التاريخي .

«من» «صيغة خاصة» للعاقل جاءت بعد «ما» وقد استعمل فيها صوت النون .

وكذلك لعبت النون دوراً في التمييز بين الذكر والأنثى وذلك في «نون النسوة» .

حيث «أنتم» صيغة عامة للذكور والإناث سبقت «أنتن» «صيغة للإناث فقط» أي أن ميم الجماعة سبقت نون النسوة في الاستعمال التاريخي .

وهكذا نجد أن صوت النون في السياق التاريخي كان له دور كبير في التمييز «التقليم» لذا أتبع هذا الصوت في الآية بقوله : ﴿وَالْقَلَمِ﴾ . وبزيادة التقليم زاد التصنيف للأشياء وهذا ما يسمى بالتسطير لذا أتبعها بقوله ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وقد

جاءت يسطرون من فعل «سطر» وهو في اللسان العربي له أصل مطرد يدل على اصطفاف الشيء كالكتاب والشجر وكل شيء اصطف. وهذا ما يسمى باللغة الإنكليزية (Classification) وهو ما نسميه بالعربية التصنيف. أي أن القلم هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض وهو ما يسمى (Identification) ثم يعقبه تصنيف الأشياء حسب مواضيعها وهذا ما يسمى بالتسطير. وفي هذا قال ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾. (القمر ٥٢). أي أن كل الأمور والأشياء صغيرها وكبيرها تدخل ضمن التصنيف (Classified).

ومن فعل سطر جاءت الأسطورة وهي تصنيف الأشياء الباطلة بعضها إلى بعض لإخراج قصة ولهذا سميت أسطورة.

فصوت النون زاد في تقليم الأشياء بعضها عن بعض وزيادة التقليم أدت إلى التصنيف. لذا قال: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

قد يقول البعض إن صوت النون زاد في التقليم والتصنيف في اللسان العربي فما حال بقية الألسن؟

إن الشيء المؤكد في صوت النون هو أنه موجود في كل ألسن أهل الأرض قاطبة وبدون استثناء.

وبالإضافة إلى صوت النون يوجد الأصوات التالية في كل ألسن أهل الأرض قاطبة:

الألف	أ		
اللام	ل	ألر	
الراء	ر		
			ولقد ميز الصحابة الذين خطوا المصحف بين يس.
الياء	ي		﴿يس﴾. التي هي مقطعين صوتيين «ي س» والتي تلفظ
		يس	بالدمج (YES) وبين ياسين الكلمة التي وردت في سورة
السين	س		الصافات في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾. (الصافات ١٣٠).

أي أن «يس» و«ألر» و«ن» هي مقاطع صوتية موجودة في ألسن أهل الأرض قاطبة.

الفرع الأول

جدل الأضداد في معرفة آيات الله
(العقل الرحماني والعقل الشيطاني)

أولاً ـ أسس العقل الرحماني:

لقد عبر القرآن عن جدل الأضداد في ظواهر الطبيعة في مصطلح آيات الله وذلك في قوله:

ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾. (الروم ٢٢).

ـ ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. (الجاثية ٣).

ـ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. (الجاثية ٤).

ـ ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (الجاثية ٥).

ـ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾. (الجاثية ٦).

لقد أعطى الكتاب في سورة الجاثية ثلاثة مستويات مختلفة لظواهر الطبيعة سماها في الآية رقم ٦ بآيات الله. هذه المستويات هي:

١ ـ المستوى العام: هو ظواهر الطبيعة في الوجود المادي كله في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. هنا نلاحظ قوله ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. ولم يقل «إنَّ السموات والأرض». حيث أن تصديق الظواهر العامة في السموات والأرض هو من أركان الإيمان لذا قال: ﴿لآيات للمؤمنين﴾.

٢ ـ المستوى الخاص الأول: هو ظواهر الحياة العضوية في قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾. وقد جعلها في مستوى يقيني حيث أن الخلق والبث والحياة والموت هي من قوانين الجدل «التسبيح» اليقينية التي يعتبر البعث نتيجتها لذا قال: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٣ ـ المستوى الخاص الثاني: ظواهر الطبيعة غير العضوية كالليل والنهار والأمطار والرياح وقد جعلها في مستوى عقلي أي أنه يربط فيها المقدمات والنتائج ويمكن تقليدها على مستوى صغير لذا قال ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

والآن: ما هي المركبات المعرفية لظواهر الطبيعة؟ لقد أعطى الكتاب المركبات المعرفية لظواهر الطبيعة في الآيات التالية والتي سماها «كتاب مبين».

- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُها إِلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَافِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُها وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (الأنعام ٥٩).
- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (يونس ٦١).
- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (هود ٦).
- ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (النمل ٧٥).
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (سبأ ٣).

هنا نلاحظ أن الآيات التي ورد فيها مصطلح «كتاب مبين» تحتوي على ظواهر معرفية وهذه الظواهر يمكن أن تجمل بالبنود التالية:

- ﴿وَيَعْلَمُ مَافِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: تركيب الأشياء (Ingredients).
- ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا﴾: الحركة الميكانيكية للأشياء «الانتقال من مكان إلى آخر». (Movement).
- ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾:
  ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾: مواقع الأشياء (Position).
- ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾. الحركة الحرارية والعضوية للأشياء (Transformation of motion).
- ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ

﴿ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾: الكتلة والـوزن وقـد بين وحدة الكتلة والوزن في الذرة وذكر أن هناك أصغر من ذلك وأكبر من ذلك.

- ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾: حركة الحياة العضوية للكائنات الحية بما فيها البشر.

- ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أعمال الانسان الواعية «السلوك الواعي» مهما استرسل فيها وذلك في قوله ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

هنـا يجب أن نذكـر المـلاحظـة الهـامة وهي أنه في الآيات السابقة يتكلم عن أشياء وظواهر موجودة فعلاً في العالم المادي.

فطبقـاً لآيـات الكتـاب إذا أردنـا معـرفـة ظواهـر الطبيعة فما علينا إلا أن نحدد العناصر التالية لهذه الظواهر:

١ - مواقع الأشياء (Position): ففي الموقع يظهر مفهوم النسبة والأضداد، فإذا أردنـا أن نحـدد موقـع جسم ما فمـا علينـا إلا أن ننسبه إلى جسم آخر ثم نحدد موقعه بالنسبة لهذا الجسم، فيظهر مفهوم الفوق والتحت واليمين واليسار والشمال والجنوب.

٢ - البعد (Dimensions): ففي البعد لا يظهر مفهوم النسبية وإنما يظهر مفهوم المقـارنـة، فعندما نحدد بعد جسم «أبعاده الثلاثة» نحتاج إلى مقياس للمقارنة حيث أن أبعاد الأجسام موجودة في ذات الأجسام غير منسوبة إلى غيرها، وإنما لها مقياس للمقارنة وفيها الصغير والكبير.

٣ - حركة الجسم (Motion): في الحركة تظهر الأنواع المختلفة للحركة وفيها مفهـوم النسبيـة والـوقت والأضـداد. فهنـاك الحركة الميكانيكية والحرارية والعضوية وانتقـال شكـل من أشكـال الحركة إلى شكل آخر، فمن الحركة الميكانيكية نحصل على حرارة، ومن الحرارة نحصل على حركة ميكانيكية.

٤ - كتلة الجسم: نعبر عنها بالكتلة ثم بالوزن وقد اعتبر الكتاب أن الذرة هي وحدة الوزن «الثقل» وهي وحدة مركبة الأجسام المختلفة.

٥ - تركيب الجسم: وهو معرفة العناصر المركبة لهذا الجسم.

٦ - الكم في الوحدة أو الكتلة أو البعد أو الحركات بأنواعها.

هذه هي مركبات العلوم الطبيعية كلها، ولكن علينا أن نعلم أن هناك مفهومين

متناقضين في هذه العناصر الخمسة الأولى وهما حركة الجسم وموقع الجسم، فلا يمكن للإنسان أن يدرس بنفس الوقت حركة جسم وموقعه. فإذا أردنا أن ندرس موقع جسم في لحظة ما، فهذا يعني أنه لا يتحرك. وإذا أردنا أن ندرس حركته فهذا يعني أن موقعه متغير. فلإزالة هذا التناقض تم تقسيم العلوه إلى فرعين رئيسيين هما:

آ ـ حركة الجسم دون النظر إلى موقعه، وهذا ما عبر عنه في الطب بمفهوم الفيزيولوجيا وما عبر عنه في التاريخ بمسار التاريخ. وما عبر عنه في اللغة بمسار تطور اللغة. وعندما ندرس مسار صاروخ من الأرض إلى القمر فإننا نعتبر الصاروخ نقطة مادية.

ب ـ موقع الجسم وأبعاده ومركباته دون النظر إلى حركته: وهذا ما عبر عنه في الطب بالتشريح، فالتشريح يأخذ مقطعاً من جسم الإنسان إما في الجنين أو الطفل أو المسن ويدرسه في اللحظة التي تم أخذ المقطع فيها.

وما عبر عنه في التاريخ بالفترات التاريخية. فالمؤرخ إما أن يدرس حركة مسار التاريخ أو يدرس تاريخ العالم في القرن الثالث قبل الميلاد. ففي هذه الحالة يذكر الشعوب والأسماء والمعارك والوضع الإنتاجي والاقتصادي بكل تفاصيله الممكنة.

إن موقع الجسم وأبعاده يسمى بالمواصفات الهندسية للجسم (Geometrical Properties) وهي من أهم المواصفات التي يدرسها الإنسان في العلوم. فمثلاً في الهندسة ظهر عزم العطالة من بعد الجسم وموقعه. فالجسم له ثلاثة أبعاد M^3 وله موقع واحد بالنسبة إلى شيء آخر منسوب إليه. وهذا الموقع الواحد له بعد M^1. ففي هذه الحالة يصبح عزم العطالة M^4.

طريقة التعبير عن المعارف:

قلنا إن أساس المعرفة هو التقليم ثم التسطير «التمييز والتصنيف» وقد تم التعبير عن المعرفة بالأشكال التالية:

١ ـ التعبير التشكيلي: وهو أن يرسم الإنسان شكلاً ما شاهده مشاهدة مشخصة وقد رسم الإنسان فعلاً في الكهوف القديمة بعض الحيوانات التي كانت لها صلة مباشرة معه «تعبير فؤادي» ثم تطور هذا التعبير إلى أبجدية بتطور اللغة المنطوقة

ووسائل الإنتاج وتطور إلى فنون النحت والرسم والتصوير. أي أن بداية التعبير التشكيلي كانت بداية فؤادية لها علاقة مباشرة بالسمع والبصر ثم تطورت إلى تعبير مجرد عن قيم «انظر فصل المفاهيم في الباب الرابع». وما زالت هذه التعابير تستعمل حتى يومنا هذا بالرسم في علوم الهندسة والطبيعة والطب.

٢ ـ التعبير اللغوي: وهو أعم وأساس التعابير عن المعرفة الإنسانية وقد بدأ بداية فؤادية مشخصة بالسمع والبصر ثم انتقل إلى التجريد وقد شرحت هذا في مقالتي حول نشأة اللغة وارتباطها بالفكر.

٣ ـ التعبير «الكمي» العددي والرمزي: وهو التعبير الأكثر تجريداً من التعبير اللغوي لذا ظهر في مرحلة متأخرة «حيث ظهر في الرياضيات». وظهرت فيه العلاقات المجردة بأرقى تعابيرها.

فمثلاً عندما نريد أن نعبر عن دائرة، فاما أن نرسمها تشكيلياً أو نقول هذه دائرة لغوياً أو نكتب معادلة دائرة بالشكل التالي:

$$R^2 = X^2 + Y^2$$

ـ التعبير العددي «الكمي»:

لنبدأ الآن بتعريف العدد والرقم. إن الرقم والعدد مصطلحان يعبران عن الكم. فالرقم يعبر عن كم معرف والعدد عن كم غير معرف، أي أن الرقم عبارة عن عدد معرف. فإذا قلنا مثلاً لإنسان: عد الطلاب الموجودين في القاعة وقال إن عددهم «٤٥» طالباً.

ففي هذه الحالة يكون قد أجاب الطلب، وإذا قلنا له رقم الطلاب الموجودين في القاعة فقال إن زيداً رقمه واحد وعمراً رقمه اثنان. وهكذا دواليك، فالعدد هو واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، والرقم هو الأول، الثاني، الثالث، الرابع. فالفرق بينهما هو كالفرق بين المعرفة والنكرة. فالعدد منكر والرقم معرف. لذا فعندما نمارس علوم الكم فإننا نتعامل مع الأعداد لا مع الأرقام فنقول: الضرب العددي، لا الضرب الرقمي. فإذا أردنا أن نبحث في كيفية ظهور الأعداد والأرقام عند الإنسان فما علينا إلا تتبع نفس خطوات نشأة اللسان، فبداية نشأة اللسان كانت بداية فؤادية أي أن

بداية العد كانت بداية فؤادية متصلة بحاستي السمع والبصر. فالطفل الآن لا يجرب الأعـداد بل نضـع له تفـاحـة ونقـول هذه تفـاحـة. ثم نضـع تفـاحتين ونقـول هاتان تفـاحتـان. والإنسـان القـديم عنـدما بدأ بالعد لم يجرب العد عن مدلولاته. فمهمة الفؤاد في العدد التالي «هل يفيد العدد الدال على الشيء المدلول المشخص أو لا يفيد» أي المطابقة بين الكم ومدلولاته المشخصة وبالتالي الكم والكيف معاً.

وهكذا نرى في الحضارات القديمة أن أسماء الأشياء وأعدادها مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً بالمعادلة التالية:

١ «تفاحة» + ٢ «تفاحة» = ٣ «تفاحة».

ثم جاءت المـرحلة التـاليـة وهي مرحلة التجـريـد وهـو فصل العدد الدال عن الشيء المـدلـول أي فصـل الكم عن الكيف وهـو ما يسمى بالتجـريد العددي، وقد تعلم الإنسـان التجـريـد في الأعـداد من اللغة المجردة حيث أن الإنسان لم يستطع تجـريـد الأعـداد إلا بعد أن جرد اللغات وأصبح عنده علاقة اصطلاحية بين الصوت والمـدلـول. لذا ظهـر التجريد العددي عند الإنسان متأخراً عن التجريد اللغوي أي أصبح عنده جمع مجرد وهو:

١ + ٢ = ٣.

أي أعداد مجردة عن مدلولاتها. وهكذا ظهر علم الحساب عند الإنسان القائم على استعمـال العـلاقـات المنطقيـة القـائمـة على عدم التنـاقض بين المقـدمـات والنتائج. أي علاقات التأثير والتأثير المتبادل بين الأشياء أصبحت علاقات تأثير وتأثير متبادل بين الأعداد «القانون الثاني للجدل» فأصبح:

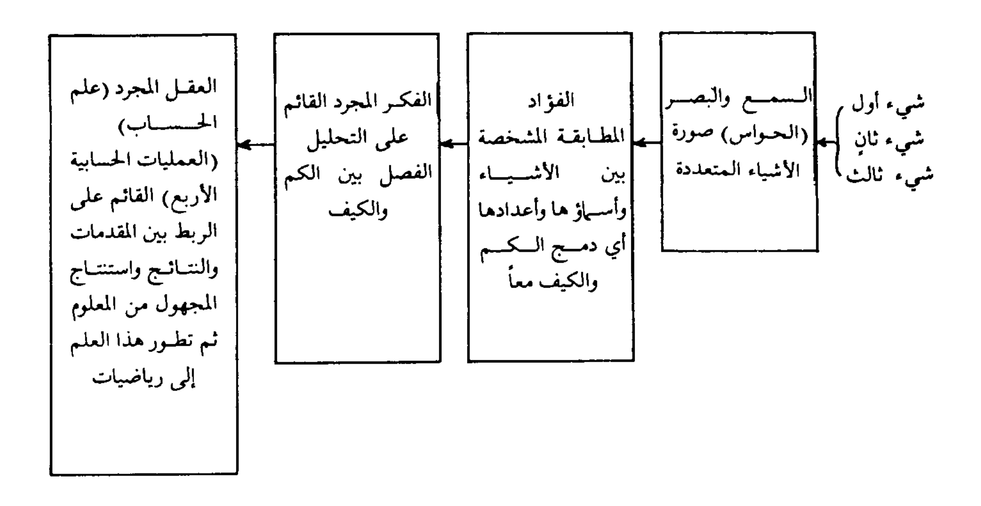
١ + ٢ = ٣

٣ − ١ = ٢

١ + ١ + ١ = ٣

١ + ١ − ١ = ١

أمـا كيفيـة التطـور في التعبير عن الأعداد فهو بحث خاص مشابه لتطور التعبير عن الأصوات اللغوية «الأبجدية»:



ـ القدر والمقدار:

لقد بدأ العد بتعبير كمي عن كيفيات متماثلة أو مختلفة، ثم انتقل إلى تعبير كمي مجرد عن الكيف. لذا وجب علينا تمييز مصطلحين وردا في الكتاب وهما القَدْر والمقدار فكلاهما له أصل واحد وهو فعل «قدر». وهذا الفعل في اللسان العربي أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. فالقَدْر مبلغ كل شيء والقَدْر قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها وكذلك القَدَر ومنه جاءت قُدْرة الله تعالى وهي استطاعته على نفاذ أي شيء يريده في كمه وكيفه: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾. (القمر ٥٤). فالقدر كما ورد في آيات الكتاب هو وجود الأشياء بكمها وكيفها معاً «كنهها» خارج الوعي الإنساني حيث أن الكم والكيف لا ينفصلان عن بعضهما في الوجود الموضوعي وفي كنه الأشياء وغايتها وهو التحول «تغير الصيرورة» والتطور. لذا قلنا إن القرآن فيه قوانين القدر وهو الحق. وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. (القمر ٤٩). وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾. (الفرقان ٢). وقوله: ﴿نَحْنُ

﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾. (الواقعة ٦٠). وقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾. (فصلت ١٠). وقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾. (عبس ١٩). وبما أن القدر فيه الكم والكيف معاً وفيهما تكمن وظيفة الأشياء قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾. (الأعلى ١، ٢، ٣). هنا لاحظ كيف ربط ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾. أي أنّ وجوداً كمياً وكيفياً معاً يؤدي إلى هداية الشيء للقيام بوظيفته. لذا وضع ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾. في صيغة مطلقة وليس لها أي علاقة بالسلوك الإنساني الواعي.

أما المقدار فقد عبر عنه الكتاب على أساس أنه كم مجرد عن الكيف وهو صيغة معرفية مجردة لأنه لا يمكن أن يجرد الكم عن الكيف إلا في الصيغ المعرفية المجردة، ففي الواقع الموضوعي يوجد:

تفاحة + تفاحة = تفاحتان «قدر» كم وكيف معاً.

أما في الواقع المعرفي المجرد فنقول:

١ + ١ = ٢ «مقدار» «كم مجرد فقط».

ولقد جاء المقدار في الآيات التالية:

١ ـ ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. (الرعد ٨).

الآن يمكن تحليل هذه الآية إلى العناصر التالية:

آ ـ الله يعلم	معرفة.
ب ـ ما تحمل كل أنثى	كيف، وهو الحمل.
ج ـ وما تغيض الأرحام وما تزداد	كم مرتبط بالكيف، تغيض وتزداد «زيادة ونقصان في «الكم» أرحام «كيف».
د ـ وكل شيء عنده بمقدار	كم مجرد حيث عمم الكم على معرفة الأشياء.

٢ ـ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (السجدة ٥).

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

(المعارج ٤).

هنا نلاحظ كيف أتبع مصطلح المقدار بتعبير عددي «كمي» مباشر. وهكذا نجد أن نفخة الروح بدأت بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. والتجريد اللغوي. ثم تطورت إلى التجريد الكمي الذي تم التعبير عنه بالأعداد والرموز الرياضية. وهكذا نجد أن اللغة والرياضيات هما وجهان لعلم واحد وهو «قانون عدم التناقض والعلاقات المنطقية» أي أن مادة علم المنطق هي اللغة والرياضيات. فإذا كانت اللغة قائمة على التجريد، فالرياضيات هي مرحلة متقدمة وهي تجريد التجريد. وإذا أردنا أن نعرف علم الله في الأشياء فهو علم رياضي بحت، أي في علم الله لا يوجد أصفر فاتح وأصفر غامق، وتفاحة كبيرة وتفاحة صغيرة، ولكنها في علمه كلها علاقات رياضية عددية بحتة وهي مفاتيح الغيب لأن العلاقات الرياضية تتصف بالدقة والتنبؤ وعندما يريد الله أن يخبرنا عن شيء من علمه فهناك طريقتان:

آ ـ إخبار رياضي مباشر غير لغوي. وقد جاء هذا الإخبار في السبع المثاني.

ب ـ تحويل هذا الإخبار إلى لغة إنسانية. وهذا ما حصل في ليلة القدر عند إنزال القرآن، أي تحويله إلى صيغة لسانية قابلة للفهم من قبل الإنسان وهذا هو الجعل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾.

ولكي نفهم كيف تحصل المعرفة بالمقدرات «القدر» من خلال الأعداد «المقدار» ما علينا إلا أن نشرح المفهوم التالي:

ـ العد والإحصاء:

العدد في اللسان العربي جاء من فعل «عد» وهو أصل صحيح يدل على مقدار ما يعد. ويقال ما أكثر عديدَ بني فلان وعددَهم ومنه جاءت العُدَّة: ما أُعِدَّ لأمر يحدث والاستعداد له، وجمع العدد أعداد، وعِدَادُ الملدوغ أن يجد الوجع ساعة بعد ساعة، وعِدَادُ السليم أن يعد له سبعة أيام، فإذا مضت رجوا له البرء، ومن الباب العِدَّانُ لأنه محدود بزمان. وان عِدَادَ القوس أن تنبض بها ساعة بعد ساعة.

والإحصاء في اللسان العربي جاء من فعل «حصو» وهو المنع والعد مع الاطاقة وشيء من أجزاء الأرض ويشتق منه الحصاة «العقل» كقول الشاعر:

وإنَّ لســان الــمــرء ما لم تَكُـنْ لهُ   حَصَــاةٌ على عوراتــه لدلــيــلُ

لنر الآن كيف جاء العدد والإحصاء في الكتاب وبأي معنى تم استخدامهما:

- ﴿فلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾. (مريم ٨٤).
- ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾. (مريم ٩٤).
- ﴿قَالُوالَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾. (المؤمنون ١١٣).
- ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾. (المؤمنون ١١٢).
- ﴿هُـوَ الَّـذِي جَعَـلَ الشَّمْسَ ضِيَـاء وَالْقَمَـرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. (يونس ٥).
- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾. (الكهف ١١)
- ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾. (الجن ٢٤).
- ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْء عَدَداً﴾. (الجن ٢٨).
- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. (ابراهيم ٣٤).
- ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (الحج ٤٧).
- ﴿أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ﴾. (المجادلة ٦).
- ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. (الكهف ٤٩).
- ﴿وكُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. (يس ١٢).
- ﴿وَكُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾. (النبأ ٢٩).
- ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾. (الطلاق ١).
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾. (الكهف ١٢).

إن الآيات الواردة أعلاه تدل على أن العد والإحصاء فعلان متغايران مع وجود علاقة ما بينهما. فلو كان العد هو الإحصاء لأصبحت الآية: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾. لا معنى لهـا أي تصبـح «ولقـد أحصاهم وأحصاهم» أو «لقد عدهم وعدهم» وكذلك الآية ٢٨ من سورة الجن تبين أن هناك فرقاً وعلاقة بين الإحصاء والعدد وذلك في قولــه: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَدَاً﴾. فكــونــه قال «عـدداً» وهي هنـا حال لفعـل أحصى فهذا يعني أن هناك إحصاء من نوع آخر غير عددي. فالإحصاء هو أن نعقل الأشيـاء. فنحن نرى نخلة فنعقلهـا عن طريق الحـواس ولكننـا نراهـا كقطعـة واحدة متكـاملة علمـاً بأنهـا تتألف من آلاف الجزيئات أي نراها كمّا متصلاً ووحدة متكاملة

«نحصيهـا» بحيث إذا ضمت هذه الجـزيئـات المتألفـة منهـا النخلة «كم منفصـل» بعضها إلى بعض أصبحت نخلة «وحدة متكاملة».

لذا فإننـا نميـز عدة أنواع من الإحصاء وهو أن نعقل الشيء ككل وذلك إما بأن نعرض صورة له ونرسمه وهذا ما نفعله الآن عندما نريد أن نعقل خلية فنضعها تحت المجهر ونرسمها «إحصاء كيفي» وإما أن نعقل الشيء عن طريق الوصف اللغوي كأن نصف شخصـاً وصفـاً عن طريق التعبيـرات اللغـوية بحيث أن المستمع يأخذ صورة كاملة عن الشخص المـوصـوف «إحصـاء لغـوي» أما النوع الثالث من الاحصاء فهو الإحصاء العددي، أي الإحصاء عن طريق الكم أي أننا نأخذ صورة كاملة عن الكم المتصـل «الإحصـاء» بواسطـة الكم المنفصـل «العـدد». لذا قال عن إحصـاء الله للأشياء بأنه إحصاء عددي لا إحصاء لغوي أي أن علم الله للأشياء كما قلت هو علم رياضي تجريدي بحت.

فإذا قلنـا لشخص ما: كم عدد الطـلاب في القـاعـة فيقول مباشرة إن عددهم مثـلاً عشـرة طلاب وإذا قلنـا له أحص الطلاب الموجودين في القاعة فيجب عليه أن يعطينـا صورة كاملة عن كل الطـلاب المـوجـودين في القـاعة بحيث يمكننا أن نأخذ صورة كاملة «متصلة» عنهم من خلال إحصائه لهم دون أن نراهم. وعندما نسأل عن عدد سكـان سوريـا في عام ١٩٨٨ فالجـواب يأتي في عدد واحـد وعنـدما نسأل عن النشـرة الإحصـائيـة للجمهـوريـة العربية السورية عن عام ١٩٨٨ فالجواب يأتي في مجلد كبيـر حيث يقـدم لنـا هذا المجلد صورة متكاملة «كماً متصلاً» عن الجمهورية العـربيـة السورية ولكن التعبيرات في هذا المجلد عبارة عن معلومات عددية منفصلة بعضهـا عن بعضٍ بحيث أن مجمـوع هذه المعلومـات يعطينـا صورة متكـاملة عن سوريا، وكلما زادت المعلومات العددية المنفصلة زادت الصورة وضوحاً. لذا قال: ﴿وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُـوهَـا﴾ (ابراهيم ٣٤) أي أننا يمكن أن نعدد نعم الله علينا بشكل منفصل ونقول: النعمة الأولى البصر، والثانية السمع، وهكذا دواليك. ولكننـا مهمـا عددنـا هذه النعم واستغـرقنـا في عدهـا منفصلة لا يمكن لنـا أن نعقـل «نحصي» نعمة الله علينا ككل متكامل متصل.

ونفهم قوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾. (المؤمنون ١١٢ ـ ١١٣).

فالسنـة وحـدة زمنيـة منفصلة إذ نقـول: سنـة. . سنتان. ولكن السنة الواحدة تحـوي على وحـدات زمنيـة أصغـر منهـا وهي الشهـور والأيام. . الخ. فإذا قلنا سنة سنتـان فيكـون الانفصـال في العـد بين العـدد والذي يليه هو سنة. لذا كان السؤال ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ فجاء الجواب ﴿فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾

وبما أن الإحصاء هو كم متصل متكامل فعندما نسجل على إنسان عمله صوتاً وصـورةً ثم نعـرضـه له، فهـذا إحصـاء لأن المشـاهـد يأخذ صورة متكاملة عن عمل الإنسـان، فالإحصـاء يمكن أن يكـون لشيء واحـد متكـامـل تنطبق عليـه مقـولـة أصغـر وأكبـر، ولا تنطبق عليـه مقـولة أكثر وأقل. وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾. (الكهف ٤٩).

هذه الآية تبين لنا بشكل واضح الأمور التالية:

١ ـ أن أعمال الإنسان غير مكتوبة وغير مسجلة سلفاً.

٢ ـ أن الله يأخـذ صورة وصـوتاً عن أعمال الإنسان حين قيامه بها وقد أكد هذا في قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (الجاثية ٢٩).

٣ ـ ولكي يؤكـد أن الصـورة والصـوت المنسـوخـة عنـه والمكتوبة «المجمعة والمصنفـة» ستعـرض عليــه يوم القيـامــة ويــراهــا «يعقلهـا» بنفسـه فقـد قال: ﴿وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً﴾.

٤ ـ ولكي يؤكـد معنى الإحصـاء بأنـه كم متصـل استعمله فى حالـة المفرد واستعمــل مصطلح الصغــير والكبــير معـه قال: ﴿لاَيُغَـادِرُ صَغِـيرةً وَلاَ كَبِـيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾.

أمـا العـدد فإننـا نستعمـل معه الكثرة والقلة. فعندما يرد مصطلح ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾. (الأعـراف ١٨٧). فإنه يقصد أكثر من شخص واحد وعندما نقول «ولكن أكبر الناس لا يعلمون» فاننا نقصد شخصاً واحداً ككل.

لذا قال عن معركة حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. (التوبة ٢٥). وقـوله واضح أنه عن الكثرة والقلة، وأن الكثرة أكثر من واحد فقال ﴿لاَتَدْعُوا الْيَومَ ثُبُوراً

وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾. (الفرقان ١٤).

وعندما نقول إن العدد سبعة أصغر من ثمانية فإننا نقارن بين العدد سبعة ككل وبين العدد ثمانية ككل ونستنتج أن الثمانية أكبر من السبعة. أي أننا نقارن بين ما يحوي الرقم سبعة ككل مع كل أعداده ومركباته الجزئية، وبين الرقم ثمانية ككل مع كل أعداده ومركباته الجزئية.

والآن بعد أن عرفنا أن الإحصاء هو «التعقل» نقول بأن له عدة أنواع، فعندما يكون نوع الإحصاء عددياً يصبح كماً متصلاً. والعدد كمٌّ منفصلٌ. فالكم المتصل والكم المنفصل يخضعان للمساواة والترجيح. فعن الكم المتصل نقول:

$$Y = X$$

أو $Y >< \times$

وعن الكم المنفصل نقول:

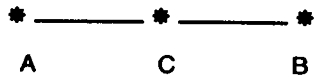
$$4 = 3 + 1$$

$$5 > 4$$

$$5 < 6$$

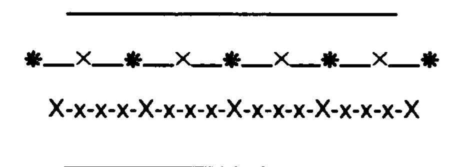
والآن كيف نحول الكم المنفصل إلى كم متصل؟

لكي نعرف كيف يتم التحويل نورد المثال التالي:



إذا أخذنا المستقيم AB ولنقل إن هذا المستقيم هو حرف طاولة ذو لون أخضر. ثم غطينا هذا المستقيم بقطعة من القماش ذات لون أصفر. ووقف متفرج فإنه يرى قطعة القماش ذات اللون الأصفر ولا يرى شيئاً من حرف الطاولة. فعند ذلك نقول إن لون حرف الطاولة مجهول. فإذا ثقبنا قطعة القماش في النقطتين A و B فان المشاهد يرى نقطتين خضراوين أي إنه يعرف لون حرف الطاولة في نقطتين. فعند ذلك نقول إن المستقيم معرف في نقطتين. وإذا أخذنا الآن نقطة ثالثة C وثقبناها. فسيرى المشاهد ثلاث نقاط ذات لون أخضر، والباقي مجهول. وتبقى باقي المسافات مجهولة. فإذا استمرينا بتثقيب النقاط يزيد عدد النقاط المعرفة، وتقل المسافة بينها. وهذه المسافة نرمز لها بـ $X \triangle$ وهي مقدار حسابي عشوائي ليس له إشارة.

فكلما قلت المسافة X بين النقاط زاد عدد النقاط المعلومة. فإذا انتهت X إلى الصفر فإن عدد النقاط المعلومة ينتهي إلى اللا نهاية. ففي هذه الحالة نرى نقاطاً متقطعة «كما منفصلاً» ونرى خطا مستقيماً «كماً متصلاً» أي أننا أحصينا المستقيم «عقلناه» من خلال عدد لا متناهٍ من النقاط المنفصلة.



ونرى أن أحسن تعبير عن الكم المنفصل هو X وأحسن تعبير عن الكم المتصل هو dX. أي عندما تنتهي X إلى الصفر تحصل على dX.

وهذا هو الفرق بين الكمبيوتر والمعادلات الرياضية «التفاضلية» فالكمبيوتر يعمل على X ٢ أي يعمل على الكم المنفصل. لذا فإنه يعبر عن نتائجه من خلال نقاط منفصلة (dots) وكلما قربت النقاط المنفصلة من بعضها زادت دقته. أما المعادلات الرياضية فتعمل على dy, dx النهايات والمشتقات وتعبر عن الكم المتصل. أي تابع ومتحول من خلال التعبير $Y = f(x)$ وبما أن المعادلات التفاضلية تعبر عن كم متصل فإن أحد أسس صحتها هو الاستمرارية. وبما أن الاستمرارية غير متوفرة في عالم الذرة فإن الرياضيات الكلاسيكية تصبح غير صالحة لهذا العالم. ولذلك لجأنا إلى مفهوم جديد هو ميكانيك الكم Quantum Mechanics.

وبما أن الرياضيات هي تعبير مجرد رمزي لها رباط منطقي قائم على عدم التناقض فهي تحمل خاصية اللغة التي هي تعبير مجرد أي تحمل خاصية الأضداد في التعبير. فهناك الموجب والسالب. وإنه من الخطأ الفاحش أن نقول إن -٣ و+٣ هما أزواج. بل هما أضداد لأنه يعدم أحدهما الآخر.

$$+X - X = 0, +3 - 3 = 0$$

وهناك أيضاً الحلول الحقيقية والحلول الوهمية، وهما من المتناقضات لأنهما ملتبسان بعضهما مع بعض في نفس المعادلة فعند الحل ننسف الحل الوهمي ونأخذ الحل الحقيقي.

وبما أن الكم المنفصل والكم المتصل يعبر عنهما من خلال الأضداد فهناك

المـرحلة الانتقـاليـة بينهمـا كالفجـر بين الليـل والنهـار وهـذه المرحلة الانتقالية هي الصفـر. أي أننـا يجب أن لا نفهم الصفـر على أنه عدد بل هو كيف، يعبر عن انتقال الأعـداد «الكم المنفصـل والتـوابـع «الكم المتصـل» ». من ضد إلى الضد الآخر. فالصفر في الأعداد هو مرحلة انتقال من كيف إلى كيف آخر. والصفر في المعادلات يعبر عن التجانس. وفي المشتقات يعبر عن النهايات.

وكـذلـك يجب أن نفهم الـلا نهاية على أنها حالة انتقالية من كيف إلى كيف آخر.

والآن يمكن لنا أن نطرح السؤ ال التالي:

هل هناك أعداد لها صفات المتصل والمنفصل معاً؟؟

فإذا كان هنـاك أعـداد تحمـل هذه الصفـة المميـزة جداً عن غيرها، وجب أن يكون لهذه الأعداد صفات أساسية لها علاقة في الطبيعة حيث أن الطبيعة يتمثل فيها المنفصل والمتصل معاً.

هذه الأعــداد أطلق عليهـا اسم الأعـداد المتعـاليـة أو الأعـداد السـاميـة (Transidental Number). وسنطلق عليها نحن مصطلح الأعداد الرحمانية لأنها حوت الثنائية. هذه الأعداد يجب أن تحمل الصفات التالية:

١ - لا يمكن أن تكون عدداً صحيحاً كالعدد ٢.

٢ - لا يمكن استنتاجها من تقسيم عددين صحيحين كتقسيم ٥ ÷ ٢ = ٢,٥.

٣ - ليس لها نهاية كسرية كالعدد ٤,٥٦٦٧.

٤ - ليس لها نهاية كسرية تحمل صفة الترداد. كالعدد ١,٣٣٣٣ أو كالعدد ١,١٨١٨١٨.

وبـالتـالي يمكن استنتـاج هذه الأعداد من سلسلة غير متناهية. فإذا نظرنا إلى الأعـداد التي تحمـل هذه الصفـات رأينـا أن فيهـا عددين أسـاسيين همـا (e) أساس اللوغـاريتم الطبيعي و (π) أسـاس التـوابـع الجيبيـة. هذان العـددان يستنتجـان من سلسلة غيـر متنـاهيـة وليس لهـا نهـايـة متـرددة. فضمنا كل منهما يحمل كل الأعداد المنفصلة وهما في ذاتهما يمثلان كماً متصلاً. فإذا نظرنا إلى هذين العددين رأينا أن العدد e يرصد التوابع الأسية. والعدد π يرصد التوابع الجيبية. فالتوابع الأسية تمثل التـزايـد والتنـاقص في الطبيعـة. والتـوابـع الجيبية تمثل الترداد في الطبيعة والتابعان

الأسي والجيبي هما تابعان أوليان في الرياضيات أي أن حل المعادلة هو أن تصل إلى تابع أسي أو تابع جيبي أو تابع أسي جيبي.

وكــذلــك نجـد أن العـدد $\sqrt{2}$ هو عدد رحماني. والـذي يستنتج من علاقـة فيثـاغـورث للمثلث القـائم الـزاويـة والمتسـاوي السـاقين حيث كل ضلع قائم يساوي الواحد والوتر يساوي $\sqrt{2}$ أما في مفهوم الجذر التربيعي الموجب فتظهر وحدة الأضداد فنقول إن جذر ٤ هو + ٢ و- ٢. أما إذا أخذنا حالة السالب مثلاً - ٤ فنقول إن - ٤ = - ١ × ٤. فجـذر ٤ هو + ٢ و- ٢. ويبقى لدينـا جذر $\sqrt{-1}$ الـذي يظهر لنا أن هناك حالـة وهميـة وحـالـة حقيقيـة. فظهـرت الأضـداد في السالب والموجب وظهر النقيضان الملتبسان معاً في الحقيقي والوهمي.

وبمـا أن اللغـة هي تجـريـد والـرياضيات هي تجريد وترميز معاً فكلاهما قائم على قانـون عدم التنـاقض وقانون التأثر والتأثير المتبادل «العلاقات المنطقية» ففيهما التعـريف والتنكيـر. فـ «ال» تعتبـر أداة تعـريف في اللغـة يقـابلهـا الإحـداثيات في الـريـاضيـات. والإضـافة في اللغة للتعريف، والإضافة في الرياضيات X1, X2, X3, أيضاً للتعريف.

التغيرات الكمية والكيفية:

قلنا إن الكم والكيف مرتبطان في الطبيعة ارتباطاً لا ينفصل والمعرفة الإنسانية تُمَيّــز بعضهـا من بعض بعمليــة التقليم فالمعــرفـة الإنسـانيـة إمـا أنْ تهتم بالكيف أو بالكم وهـذا يتبـع مستـوى المعـرفـة الإنسـانيـة فالأذن تميـز النغمـات المختلفة في الأصوات أولاً وهي كيف والعين تميز الألوان وهي كيف والجلد يميز درجات الحرارة والنعـومــة والخشــونـة وهي كيف. فبـدايـة التمييـز كيفيـة فؤ اديـة تحولت عن طريق التجـريـد إلى تعبيـر كمي علمـاً بأن الكم والكيف مرتبطـان معـاً في الطبيعة من قوله تعـالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾. (الأعلى ١ -٣) أي أن وظيفـة كل شيء تتبـع المقادير الموجودة فيه وأن أي تغير كمي في الأشياء يتبعه تغير كيفي وظيفي. ولولا هذا القانون لأصبحت كل علوم الرياضيات علوماً ليس لها أي معنى ولا تعكس أي واقع موضوعي. أي أن التعبير المعرفي القائم

على الأضداد لقانوني الجدل الأساسيين في الأشياء الأول والثاني هما التغيرات الكمية التي يلازمها تغيرات كيفية، ولولا هذا التغير الكمي والكيفي لما أمكننا فهم قوانين الجدل في الطبيعة وفي الإنسان. فقانون التغير الكمي الذي يلازمه تغير كيفي هو قانون تابع لقوانين الجدل ١، ٢ وغير منفصل عنهما وهو القانون الذي مكن الإنسان من فهم قوانين الجدل الأساسية فعندما نقول: حين تبلغ درجة حرارة الإنسان ٤٣ فهذا يؤدي إلى الموت فالحرارة كم والموت هو انتقال من كيف إلى كيف آخر. وارتفاع الحرارة في الماء يؤدي إلى التبخر فارتفاع الحرارة تعبير كمي والانتقال من حالة سائلة إلى حالة بخارية حالة كيفية وقابلة للانعكاس وتكاثف بخار الماء يؤدي إلى انخفاض الحرارة وهذا التكاثف له تعبير كمي، وانخفاض الحرارة له تعبير كمي. وكلاهما يمثل كيفاً متميزاً عن الآخر ولكنهما متعلقان ببعضهما وهذا ما شرحته في قوله تعالى:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. (العلق ٢).. أي أن الوجود الموضوعي عبارة عن علاقات متداخلة بعضها ببعض فما علينا إلا أن نميزها ونفصلها عن بعض «التقليم» وهذا الفصل هو فصل معرفي بحت يجري من قبلنا، أما فصل كيفيات مختلفة بعضها عن بعض أو فصل بين كم وكيف أو فصل بين كميات مختلفة بعضها عن بعض والتي تعبر عن كيفيات مختلفة فهذا أرقى أنواع التقليم الذي هو التقليم الكمي من كيفيات مختلفة. وهو الذي قلنا عنه بأنه أرقى أنواع العلوم فهو «الإحصاء العددي» ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. (الجن ٢٨).

وعليه يمكن أن نقول إن قانون الكم والكيف هو الذي سمح للإنسان بمعرفة الطبيعة عن طريق التقليم وإنه سمح للإنسان بفهم الطبيعة وقوانين الجدل وهو الذي سمح للإنسان بالسيطرة على قوانين الطبيعة لمصلحته. فالله مسيطر على الطبيعة ومعرفته لها معرفة رياضية ونحن أيضاً نمتلك معرفة رياضية وكلما زادت معرفتنا الرياضية بالطبيعة زدنا سيطرة عليها حيث أن المعرفة الرياضية تتصف بصفتين أساسيتين هما الدقة والتنبؤ.

ثانياً ـ العقل الشيطاني :

قلنا إن العقل المدرك للموجودات عبارة عن علاقة جدلية بين نقيضين هما: الرحمن وهو الجانب المادي الموضوعي «الحقيقي» والشيطان الفعلاني وهو الوهم والخرافة. وقد شرحنا في الأقوال السابقة أسس العقل الرحماني المادي في الإدراك الفؤادي والفكر والعقل. فما هي أسس العقل الشيطاني الوهمي الذي يولد الخرافة والوهم والأمنيات الكاذبة لدى الناس؟

لقد قلنا إن المادة حقيقة موضوعية وإن الدماغ الإنساني مؤلف من مادة. فكيف يمكن للمادة التي هي حقيقة موضوعية أن تولد وهماً؟ لقد أعطى القرآن جواباً لهذا السؤال ممثلاً بالشيطان الفعلاني الذي هو أحد أطراف العملية الجدلية القائمة في الفكر الإنساني «الوسواس» «الأمنيات الكاذبة». والطرف الآخر هو العقل الرحماني المادي حيث قال: ﴿يَسَاأَبَتِ لاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَنَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾. (مريم ٤٤) فمن مهمات الشيطان تحويل قراءة القرآن من قراءة مادية رحمانية إلى قراءة مثالية شيطانية. وقد نجح في هذه المهمة نجاحاً باهراً، لأننا لم نمتثل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَنِ الرَّجِيمِ﴾. (النحل ٩٨) ولاحظ أنه قال ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾. ولم يقل «فاستعذ بالرحمن».

فلنعدد الأبواب الرئيسية التي يعمل من خلالها الشيطان الفعلاني:

الباب الأول: «تلاه فهو إذن سببه» وهو الربط بين حدثين متتاليين لا علاقة موضوعية بينهما إلا التتالي. مثال ذلك كسوف الشمس وموت إبراهيم ابن النبي ﷺ حيث تلا كسوف الشمس حدث موت إبراهيم. وقد وقع كثير من الصحابة في هذا الوهم وهو قولهم «كسفت الشمس لموت إبراهيم» ولكن النبي ﷺ لم يقع في هذا الوهم حيث صحح لهم بقوله: إن الشمس آية من آيات ربي لا تكسف لموت أحد ولا لحياة أحد. يمكن أن نضرب على هذا الباب آلاف الأمثلة حيث أن هذا هو سبب ظهور معظم الخرافات عند أهل الأرض جميعاً وظهور الأسطورة. وأريد أن أورد مثالاً آخر بسيطاً يقع فيه معظم العرب المسلمين وهو أن زيداً شتم عمراً، وبعد فترة وجيزة أصابت زيداً حمى فيقولون إن الحمى أصابته لأنه شتم عمراً. وقس على ذلك آلاف الأمثلة.

هنا يجب أن نميز بين الربط الوهمي الناتج عن التتالي وبين الحسد. فالحسد هو صفة تحمل صاحبها على القيام بعمل مؤذ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق ٥). وان الشر عمل واع مقصود لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة ٨). أما العين فلها تأثير واحد علمي وهو: إذا نظر مجموعة من الأشخاص وركزوا نظرهم إلى شخص معين وهو يمشي، فربما يؤدي إلى انزلاقه ووقوعه على الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. (القلم ٥١).

الباب الثاني: الخلط بين قدرة الله ومشيئته. هذا الباب دخل منه الشيطان وأوقع كثيراً من الناس في الوهم وخاصة العرب المسلمين. والخلط بين قدرة الله ومشيئته هو الباب الذي دخل من خلاله مشعوذون ودجّالون ممّن يَدَّعُون التصوّف أو العلم إلى عقول المسلمين السذج وزادوهم جهلاً وسذاجة، وهذا الباب لا يولد إلا التخدير والأماني الخادعة. فكيف حصل هذا الخلط؟

لنضرب المثال التالي لنوضح الالتباس بين القدرة والمشيئة. لو قلنا إن زيداً يستطيع أن يحمل ١٠ كغ فهذا لا يعني أنه كلما صادف ١٠كغ حملها بالضرورة. فحمله ١٠ كغ يتوقف أولاً على استطاعته، وثانياً على مشيئته، يريد أو لا يريد.

وكذلك عندما يعلن الرئيس الأمريكي أن باستطاعة بلاده إسقاط أية طائرة تطير فوق مجالها الجوي فهذا لا يعني أن أية طائرة تطير فوق المجال الجوي للولايات المتحدة سيتم إسقاطها بالضرورة. حيث نرى أن إعلان المشيئة يتبع إعلان القدرة. فيقول أن الولايات المتحدة ستسقط أية طائرة تطير فوق مجالها الجوي بدون اذن مسبق. ولكن إعلان المشيئة دون أن يسبقه إعلان القدرة يصبح هراء. وإلا فكيف يمكن لإنسان أن يعلن عن إرادة ما إذا كان غير قادر على تنفيذ هذه الإرادة؟!

لقد فصل الكتاب بين آيات القدرة لله تعالى وآيات المشيئة. ففي آيات القدرة قال:

- ﴿يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (النور ٤٥).
- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (الملك ١).
- ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (الروم ٥٠).
- ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (الحديد ٢).

- ﴿لله مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (المائدة ١٢٠).

هذا فيما يتعلق بالموجودات وظواهرها. أما فيما يتعلق بالأوامر ونفاذها بالنسبة لتاريخ الإنسان فقال:

- ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (التوبة ٣٩).

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (الأنعام ١٧).

- ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة ٢٠)

- ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة ٢٨٤).

من الآيات الواردة أعلاه نلاحظ إطلاق القدرة في ظواهر الطبيعة مع الإنسان. ولكن إطلاق القدرة لا يعني الخروج على ظواهر الطبيعة وقوانينها حيث نعلم أن ظواهر الطبيعة وقوانينها هي كلمات الله وهي سننه في خلقه حيث قال: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾. (الكهف ٢٧). وقال: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلاً﴾. (فاطر ٤٣)

وبالنسبة للإنسان فإن الله قادر على أن يفعل ما يشاء من حيث إطلاق القدرة، ولكن قرنت في الكتاب القدرة بالمشيئة وذلك في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَسِقِينَ﴾. (البقرة ٢٦). ﴿وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلِمِينَ﴾. (البقرة ٢٥٨). ﴿وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ﴾. (البقرة ٢٦٤). ﴿كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُوا بَعْدِ إِيمَنِهِمْ﴾. (آل عمران ٨٦). ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾. (النحل ٣٧). ﴿إِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾. (الزمر ٣). ﴿إِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. (غافر ٢٨). ﴿الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾. (الشورى ١٣).

ونلاحظ هنا أمرين بالنسبة للوجود وظواهره الذي هو كلمات الله. فمشيئة الله هي أنه لا مبدل لكلماته ولا تبديل ولا تحويل لسنته، وبالنسبة للإنسان فمشيئة الله هي أنه لا يهدي الفاسقين والكاذبين والمنافقين. علما بأنه قادر على هدايتهم من

حيث القدرة.

إن السؤ ال عن قدرة الله غير وارد بالنسبة للإنسان المسلم ولا الكافر. فإذا قلنا هل يستطيع الله أن يخلق الشمس علماً بأن الشمس موجودة؟ وهل يستطيع الله أن يخلق إنساناً، والإنسان موجود؟ فإذا قلنا هل يستطيع الله أن يجعل الشمس مكعباً بدلاً من كرة فنقول: نعم يستطيع. فإذا قلنا ولكنها كرة وليست مكعباً، فهل هذا عجز؟؟ الجواب: هي كرة وليست مكعباً لأنه أرادها أن تكون كذلك. كأن نقول إنه طارت طائرة فوق الولايات المتحدة ولم يتم إسقاطها فإننا نفهم أنها لم ترد ذلك ولا نفهم أنها غير قادرة على ذلك.

فإذا كان زيد ذكراً فإن الله قادر على أن يجعله أنثى. فبقاء زيد ذكراً مع أن الله قادر على أن يجعله أنثى لا يعني العجز ولكنه يعني أن الله أراده أن يكون ذكراً من خلال قوانينه.

ويجب علينا أن نعلم أن إرادة الله في الأشياء لا تتم إلا من خلال كلماته: ﴿إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئَاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (يس ٨٢) وإرادة الله في الأحداث لا تتم إلا من خلال كلماته. ﴿وَإذَ قَضَى أَمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (البقرة ١١٧). ونحن نعلم أن قوله هو الوجود ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. والوجود كلماته ﴿يُحِقُّ الله الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾. وعلينا أن نعلم أن لا خوارق ولا تبديل لكلمات الله ولا لسنن الوجود. وان ما نسميه خوارق في الطبيعة هو خروج عن المألوف وعن المعرفة النسبية للإنسان لا خروج عن سنن الطبيعة نفسها «انظر فصل إعجاز القرآن». وكل ما يقال من أن الكرامات هي الخروج عن ظواهر الطبيعة فهي وهم. ولكن الكرامات هي غير ذلك تماماً. فالله يكرم إنساناً بأن يهبه ذكوراً وإناثاً أو يهبه الحكمة: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾. (البقرة ٢٦٩). أو يهبه رزقاً حلالا: ﴿وَإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءِ قَدِيرٌ﴾. (الأنعام ١٧) أو يكرمه فيشرح صدره للإسلام.

هذا الالتباس بين القدرة والمشيئة كان مدخل الشيطان عند المسلمين السذج، فيأتيهم دجال ويقول لهم: إن زيداً صنع كذا وكذا. فنسألهم كيف حصل هذا؟ فيخرسوننا بقولهم: ﴿إنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءِ قَدِيرٌ﴾.

لقد أمرنا الكتاب بأن لا نسأل عن قدرة الله، وحثنا بأن نسأل عن مشيئته ونبحث

فيها أي الكيفية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. (العنكبوت ٢٠).

فواجبنا كمسلمين أن نسأل ونبحث، لا عن قدرة الله في خلق الشمس، ولكن نبحث ونسأل كيف خلق الله سبحانه وتعالى الشمس. أوكيف تمت مشيئة الله في خلق الشمس. هكذا نصل إلى جواب ونصبح علماء حقيقيين لا دجالين. ولا نسأل هل الله قادر على أن يخلق ذكراً وأنثى؟ ولكن نسأل كيف تمت مشيئة الله في وجود الذكر والأنثى؟ ففي هذا ندخل في علم المورثات ونرى أن هناك حيوانات منوية فيها XY للذكر وحيوانات منوية فيها XX للإناث. إن الاستعمال الشيطاني الوهمي لبديهية ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. حرفنا عن منهاج البحث العلمي في الكيفيات والكميات ووقعنا عاجزين أمام العالم. وقد سببت لنا هذه الأطروحة وهماً كبيراً بأن رفضنا كثيراً من النظريات العلمية مثل نظرية النشوء والارتقاء والتطور. والتي برهنا في كتابنا هذا بأنها العمود الفقري لأطروحات القرآن في الخلق والوجود والساعة والبعث واليوم الآخر.

لقد قال بعض المفسرين القدامى ـ ونحن نعلم أن في تفسيراتهم كثيراً من الإسرائيليات ـ في الأمور المتعلقة بخلق الإنسان والكون. لقد قالوا عن آدم بأن الله خلقه على النحو التالي:

جمع الله تراباً من أديم الأرض وخلطه بالماء فأصبح طيناً، ثم تركه ليجف فأصبح صلصالاً. ومنهم من أضاف بأن كل مرحلة من المراحل استمرت أربعين عاماً «كذا». ثم نفخ فيه الروح فأصبح كائناً حياً «كذا» ثم نام واستيقظ فإذا حواء بجانبه لتؤنس وحشته، وخلقت من ضلعه، ثم سكنا الجنة ثم طردهم الله من الجنة إلى الأرض. فإذا سألتهم: أَيُعْقَل هذا؟ فيكون الجواب المباشر «أليس الله على كل شيء قدير». ونطرح على من يقول ذلك السؤال التالي: : إن كان ما تقولونه صحيحاً فهذا يعني أن الله أنشأ معملاً للسيراميك «الفخار». أين؟ لا ندري؟؟ وصنع تماثيل من الطين على شكل إنسان وسمك وحيتان وبقر وغنم وإبل وذباب، وكل أنواع الحشرات والطيور والأسماك والزواحف. كل على حدة. ثم نفخ فيها الروح فأصبحت أحياء. ولكن القرآن يقول إن نفخة الروح حصلت للبشر فقط. علما بأن الإنسان وبقية المخلوقات المذكورة كلها

كائنـات حيـة . ومن هذه الأطـروحـة الـوهميـة للروح على أنها سر الحياة العضوية، انحجب المسلمون عن علوم الجيولوجيا والمستحاثات وأصل الأنواع والتشريح .

ويمكن أن يأخـذ ذلـك الطـرح الشكـل التـالي : إذا كان خلق الإنسان قد تم كمـا ذكـر في تلك الـروايـات «لاكما ذكر في القرآن» فهذا يعني أن الله فعلاً هو الذي خلق الإنسـان . وإذا جاء طرح اخـر يقـول إن الخلق لم يحصـل كمـا تقولون، فهذا يعني أن الله لا علاقـة له بخلق الإنسـان وبـالتـالي فإن هذا الطـرح هو طرح إلحادي كافر. هذا الاستنتاج الشيطاني علينا أن نبتعد عنه وذلك بتوضيح ما يلي :

إنّ الـذين أوّلـوا آيـات خلق الإنسـان وهي كلهـا آيات متشابهات «قرآن»، هم أنـاس كانـوا يقفـون على أرضية علمية ضعيفة . وكان المستوى المعرفي لعصرهم لا يَسْمَح لهم بالتوصل لاستنتاجات حقيقية، والأرضية العلمية ومناهج ووسائل البحث العلمي لعصـرهم ضعيفـة، فأولوا تأويلات تتناسب مع أرضيتهم ومناهجهم . ونحن نعلم قوله تعالى :

﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ . (الأنعام ٦٧) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ . (ص ٨٨) . لذا نستنتـج أنهم كانـوا عاجـزين عن التأويـل العلمي المقنـع لنـا وذلك لعجز الأرضية العلمية ومنهج البحث العلمي لديهم ووسائله .

ونـحـن حيـن نتكلم عن خلق الإنسـان لا نتكلم عن القـدرة، بل نتكلم عن المشيئـة، أي كيف تمت مشيئـة الله في خلق الإنسـان . هذه المشيئـة قد تأخذ ثانية واحـدة . وقـد تأخـذ مئـات الملايين من السنين فإذا اكتشف داروين أن هذه المشيئة أخذت مئات الملايين من السنين، فهذا لا يعني أنه إلحاد أو كفر وكأن الله لا علاقة له بهذا .

وأمثّل بقضية أخرى فأقول : لقد طغى على الأذهان أنّ عمر الإنسان ثابت منذ أن يخلق في بطن أمـه . إنّ هذا الاعتقـاد يلغي كل العلوم المـوضـوعيـة في الطب والإحصـاء التي تقـول عكس ذلـك . فإذا قلنـا إن عمـر الإنسان مفتوح ورزقه مفتوح وعمله مفتوح وغير مكتوب سلفاً ذهب ظنّ الناس السامعين فوراً إلى أن الله لا علاقة له بعمر الإنسان ورزقه وعمله . وبالتالي فقولنا كفر وإلحاد . علماً بأن الكتاب يقول إن الأعمار والأرزاق مفتوحة بالنسبة للإنسان وغير مكتوبة عليه سلفاً . وسنفصل القول في

ذلك في مبحث الأعمار والأعمال والأرزاق في هذا الباب.

فإذا أردنا أن نتخلص من هذا الوهم فما علينا إلا أن نعلم أن نظرية التطور في كل شيء هي نظرية التسبيح وهي العمود الفقري لنظرية القرآن في الوجود. وأن معرفة الإنسان عبارة عن معرفة نسبية بالموجودات تتطور مع الزمن. وأن القرآن حوى الحقيقة المطلقة ككلمة إلهية. والفهم النسبي كمعرفة إنسانية. لذا ففهمه يخضع للتطور والحركة وهنا السر الأكبر في اعجازه.

- الباب الثالث: الخلط بين العلم والأخلاق والتقوى. أي الخلط بين كلمات الله والتي هي الوجود وقوانينه التي جاءت في القرآن «النبوة» وبين الوصايا والمواعظ والأوامر التي جاءت في أم الكتاب «الرسالة». لقد دخل الشيطان من الالتباس بين الرسالة والنبوة. هنا أريد أن أورد الأمثلة التالية للتوضيح:

١ - إذا أخذنا قصة نوح في القرآن مع ابنه حيث قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾. (هود ٤٥) حيث وعده الله بأن ينجي أهله في قوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ.. الآية﴾. (المؤمنون ٢٧).

لقد استغرب نوح كيف يغرق ابنُهُ مع أنّ وعد الله حق نافذ، ويجيء الجواب: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

لكي يكون وعد الله حقاً فالذي غرق ليس ابن نوح في الحقيقة، وإنما ابن زنا، دون أن يدري نوح بذلك. لذا كان استغراب نوح استغراباً في محله. وكان جواب رب العالمين بأن نوحاً لايعلم هذه الحقيقة في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. (هود ٤٦).

هنا تحت باب اللباقة والقيم الاجتماعية والتحرج تم الوقوع في الوهم فقيل لا يليق بامرأة نبي أن تكون زانية مع أنها من أهل النار ﴿ضرب الله مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. (التحريم ١٠). لاحظ أنّ الله سبحانه وتعالى لا يستحي من الحق.

٢ - عندما اتهمت عائشة أم المؤمنين بالزنا «حديث الإفك» كان موقف النبي ﷺ من هذا الاتهام موقفاً موضوعياً مادياً، إذ أنه لا يملك دليلاً لإثبات الاتهام، ولا دليلاً لنفيه، فسكت حتى جاءه الوحي بتبرئتها. وكان الأحرى بالنبي أن يقول منذ أول لحظة «اصمتوا فهذه امرأة نبي ولا يليق بها أن تكون زانية» ولكنه سكت لعدم وجود دليل الإثبات أو النفي.

٣ - لقد انعكس وضع المرأة الإجتماعي على وضعها في الجنة. فمن الناحية الشرعية الاجتماعية لا يجوز ولا يليق بامرأة أن تنام مع رجل بدون عقد نكاح، أو أن تعقد على رجلين. فانعكس هذا المفهوم على وضع المرأة في الجنة. فالحور العين هم للرجال فقط. ولا ندري ماذا تركوا للمرأة في الجنة إذ لا يليق بها أن تنام مع رجلين؟ علماً بأننا نعلم أن في الجنة لا يوجد شيء اسمه عقود أنكحة. وكل القيم الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية والشرعية والقانونية الموجودة في الحياة الدنيا ملغاة في الجنة.

هنا نستنتج بأن أحد مداخل الشيطان هو الخلط وتلبيس الحقائق الموضوعية في القرآن، بالقيم الاجتماعية والاخلاقية في أم الكتاب.

فعلينا أن لا نسقط نهائياً القيم الاجتماعية والاخلاقية على الحقائق الموضوعية، والا فاننا نقع في الوهم «الباطل».

الباب الرابع: الاعتماد فقط على الرباط المنطقي المجرد بين المقدمات والنتائج. أي إذا كان هناك رباط منطقي بين المقدمات والنتائج لمسألة ما. ولا يوجد تناقض، فلا يعني حتماً أن المسألة صحيحة (انظر أنواع المعرفة) إذ أن صحة الرباط المنطقي لا تعني أن المسألة حقيقية حيث يمكن أن تكون المسألة كلها وهمية وفيها رباط منطقي حيث أن المقدمات يجب أن تكون حقيقية.

الباب الخامس: الأماني: وهو إسقاط أهواء الإنسان الخاصة وأمانيه الشخصية على الواقع الموضوعي، مما يسبب له الوقوع في الوهم. هذا الباب يمكن أن يقع فيه كل الناس بدون استثناء حتى الأنبياء والرسل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (الحج ٥٢). هنا نلاحظ أن الأهواء والأماني هي من مداخل الشيطان الفعلاني. وكذلك قوله:

﴿أَمْ لِلْإِنْسَنِ مَاتَمَنَّى﴾. (النجم ٢٤). ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. (النساء ١٢٠) وقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَبِ﴾. (النساء ١٢٣).

وفي الختام نلخص العقل الشيطاني «التكذيب والوهم» بالعبارة التالية:

إن الصور الموجودة في الأذهان غير مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان وهذه هي وظيفة الشيطان الفعلاني.

الفرع الثاني

أنواع المعرفة ونسبيتها

أولاً ـ أنواع المعرفة:

لقد شرحنا في نشأة الكلام الإنساني ارتباط الفكر باللغة، ارتباطاً لا انفصام له، وقلنا إن اللغة تطورت من مرحلة المشخص المحدد بالحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر، أي من مرحلة العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول إلى مرحلة المجرد مع وجود مراحل انتقالية بين المشخص والمجرد. فقلنا إن أنواع التعبير عن المعرفة أخذ الشكل التشكيلي بالرسم، وتطور إلى الأبجدية وباللغة المجردة «البلاغة» وبالرموز الرياضيات.

فيمكن الآن أن نستنتج أنواع المعرفة الإنسانية وهي:

١ ـ المعرفة الفؤادية المرتبطة مباشرة بالحواس «وعلى رأسها حاستا السمع والبصر» وهي أبسط أنواع المعرفة وأكثرها فعالية وأكثرها يقيناً، وهي القاسم المشترك بين أهل الأرض، ذكيهم وغبيهم، لذا قلنا إن الحساب يوم القيامة هو فؤادي مرتبط بالحواس ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾. (النور ٢٤) ﴿وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً﴾. (الكهف ٤٩) ومن هنا طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليكون يقينه بإحياء الموتى يقيناً فؤادياً.

٢ ـ المعرفة الخبرية : وهي بأن يتواتر النبأ عن طريق الخبر، بأن العرب انتصروا على الروم في معركة اليرموك. هذه المعرفة قد تنتهي إلى معرفة فؤادية وهذا من اختصاص علماء الآثار. وقد يستطيعون تصديق الخبر أو تكذيبه. وقد يكون الخبر بالتواتر القولي والفعلي. فالله حفظ الكتاب عن طريق تواتر الحفظة. فمنذ أن كان النبي ﷺ حياً إلى يومنا هذا هناك أناس يحفظون الكتاب بذاكرتهم دون انقطاع. كما أن نقله إلينا تم عن طريق التواتر الخطي بعد جمع المصحف. علماً بأننا في هذا المجال نتكلم عن الخبر كأحد أنواع المعرفة أي صدقه أو كذبه. وقد برع المسلمون في ذلك وخاصة في علوم الحديث إذ أنهم اهتموا بعلم الحديث وطبقات المحدثين وذلك طبقاً للمنهج المتوفر لديهم. ولكن هنا يجب أن نفهم تماماً بأن صدق الخبر شيء واستعمال الخبر استعمالاً مطلقاً شيء آخر. فصدق الخبر لا يعني بالضرورة إطلاقه وخاصة الخبر التاريخي «انظر فصل السنة في الباب الثالث».

٣ ـ المعرفة النظرية «الاستنتاجية» : هذا النوع من المعرفة يعتمد على المنطق الصوري والرياضي في الاستنتاج والاستقراء والربط بين المقدمات والنتائج كما هو معروف أن حدود المنطق ثلاث وهي : الحد الأول في المقدمات، والحد الأوسط في العمليات الانتقالية، والحد الأخير في الاستنتاجات، حيث أن المنطق هو استنتاج المجهول من معلوم بقانون عدم التناقض بغض النظر عن الاستنتاج أوهمي هو أم حقيقي. هذا الرباط المنطقي هو نمط التفكير المجرد عند الإنسان بغض النظر أكان المنطلق مادياً رحمانياً، أو مثالياً شيطانياً، حيث أن النقيضين في الدماغ الإنساني «الرحمان والشيطان» مربوطان بقانون عدم التناقض. وهنا ذكرنا أن أحد مداخل الشيطان في هذا الباب. إذ لا يكفي أن يكون هناك عدم تناقض بين المقدمات والنتائج حتى يكون الحكم حقيقياً. فالرباط المنطقي في العقل الرحماني المادي هو أن المقدمات الموجودة في الأذهان يجب أن تتطابق مع الأشياء الموجودة في الأعيان. أي أن المقدمات يجب أن تكون حقيقية مطابقة للواقع الموضوعي. وهذا ما نسميه بفرضيات النظريات حيث أن هذه الفرضيات يجب أن تتطابق مع الواقع. ثم يأتي الحد الأوسط في العمليات الانتقالية حتى نتوصل إلى النتائج. إن الحد الأوسط في الاستنتاجات وربط النتائج بالمقدمات برباط عدم التناقض هو نفسه عند العالم وعند الجاهل. فلا نقول إن العالم عاقل والجاهل مجنون، ولكن نقول إن

مقدمات العالم حقيقية، ومقدمات الجاهل وهمية ولكن كليهما إنسان عاقل سويّ.
وأوضح مثال على ذلك هو الحاسب الإلكتروني فلا يكفي أن نعرف لغة الحَاسب حتى نحلَّ مسألة عليه، ولكن يجب أن نعرف الرباط المنطقي الذي يقوم عليه الحاسب لكي نبرمج حل المسألة وهذا ما نسميه (Flowchart) ونحن إذا وضعنا مخططاً منطقياً للمسألة فإننا نأخذ حلولاً صحيحة طبقاً للرباط المنطقي ولكن هذه الحلول قد تكون مطابقة للواقع الموضوعي«حقيقية» وقد تكون غير مطابقة «وهمية».

فللتحقق من حقيقة علمية ما أهي صحيحة وحقيقية يجب أن نتحقق من أمرين اثنين:

آ ـ أن تكون المقدمات غير متناقضة مع النتائج «الرباط المنطقي» فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن العمليات الانتقالية بين المقدمات والنتائج صحيحة.

ب ـ إذا كانت النتائج مطابقة للواقع الموضوعي فهذا يعني أن المقدمات صحيحة. وكلما كان التطابق بين النتائج والواقع الموضوعي قريباً كلما تأكدنا من صحة المقدمات، حيث أنه أحياناً تكون النتائج النظرية والواقع الموضوعي متقاربين وغير متطابقين مما يدل على صحة الفرضيات المستعملة، ويدل في الوقت نفسه على نقص في الفرضيات أي هناك متحولات أهملت. ولم يتم أخذها بعين الاعتبار. فالفرضيات هي مجموعة الشروط الموضوعية التي تم تمييزها «تقليمها» من قبل الإنسان، التي تعتبر العناصر المركبة لظاهرة ما.

هذه الناحية من الاعتماد على المنطق بالربط بين المقدمات والنتائج فقط بغض النظر عن فحص المقدمات وتدقيقها وتحقيقها هي السبب في كثير من الوهم الذي وقع فيه علماء الكلام المسلمون إذ اعتمد علم الكلام عندهم على الربط بين الحدود فقط بغض النظر عن المسألة الكلامية أحقيقة رحمانية أم وهمية شيطانية، ولا أريد الاستفاضة في علم المنطق لأن كتابنا هذا ليس كتاباً في المنطق. وعلى من يريد أن يستفيض في هذا العلم فعليه بالكتب المختصة.

ثانياً ـ الزمن والوقت والنسبيه

يجب علينا أن نميز بين مصطلحين أساسيين وهما الوقت والزمن وقد استعمل الكتاب مصطلح الوقت ولم يرد مصطلح الزمن في الكتاب وإنما جاء مصطلح الدهر والسنين. فالوقت جاء من «وقت» ويعني في اللسان العربي الزمان المعلوم، والموقوت الشيء المحدد.

فالزمن له وجود موضوعي وفيه حركة الأشياء، ولكن كيف يمكن للإنسان إدراك الزمن؟؟

نحن ندرك الأشياء بالتقليم الكمي والكيفي. فقد قلمنا الزمن بواسطة الحركة المتغيرة، أي لو أن كل شيء في الوجود يسير بنفس السرعة لما عرفنا أن هناك حركة، أي لما استطعنا تقليمها وبالتالي لما عرفنا الزمن. فمن اختلاف السرعات ظهرت نسبية الحركة ونسبية الزمن وبالتالي ربطنا الزمن بأحداث الأشياء للتعبير عن النسبية في الحركة وظهر مفهوم الوقت، فالوقت هو ربط الزمن بحدث من أجل المعرفة النسبية للحركة، لذا سمي الوقت زمناً معلوماً. وقد استعمل الكتاب مصطلح الوقت بهذا المعنى تماماً حيث ربطه بأحداث، فالساعة حدث وهو الإنفجار الثاني للكون لذا قال عنها: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾. (الأعراف ١٨٧). وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾. (النبأ ١٧). وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. (الدخان ٤٠) وعندما سألوا محمداً ﷺ عن الأهلة وهي ظواهر تنتج عن حركة القمر قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، (البقرة ١٨٩). والصلاة مرتبطة بوقت، والوقت مرتبط بحدث، فعندما تصبح الشمس في كبد السماء نقول حان وقت الظهر، لذا قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾. (النساء ١٠٣). وقال لإبليس ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾. (الحجر ٣٧ ـ ٣٨).

ونحن الآن نقول الساعة الثانية حسب توقيت غرينتش ولا نقول حسب زمن غرينتش. وبنفس الوقت نقول «المسافة = الزمن * السرعة» هنا استعملنا الزمن لأننا أخذنا قانوناً مجرداً غير مرتبط بحدث فلا يصح أبداً أن نقول الوقت وإذا قلنا الوقت فيجب علينا أن نقول وقت ماذا؟ فنحن نستعمل الزمن في المجردات، والوقت عندما

نربط الزمن بحدثٍ معرَّف كوقت الصلاة ووقت الطعام والنوم وتوقيت المعركة وقنبلة موقوتة.

ولتمييز الوقت عن الزمن في الوحدات استعمل الكتاب مصطلح السَّنَة والعام.

فالوقت له نسبيته وهي الحدث ونسبة القياس فعندما تصبح الشمس في كبد السماء نقول وقت الظهر «نسبة الحدث» ونقول إن وقت الظهر هو الساعة ١١,٣٠ حسب توقيت دمشق أو حسب توقيت غرينتش «نسبة القياس». لذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾. (الحجر ٣٧ - ٣٨). فنسب التوقيت إلى حدث ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أما نسبة الزمن فتتعلق باختلاف السرعات فإذا قلنا إن جسماً ما يسير على الأرض بسرعة ١٠٠ كم/سا فإننا ننسب السرعة إلى الأرض ونعتبر أن سرعة الأرض تساوي الصفر. وهكذا ظهرت النظرية النسبية باعتبار أن هناك راصداً ومرصوداً وهناك زمن للراصد وزمن آخر للمرصود، ولما كانت نسبة الزمن لها علاقة بالسرعة فيجب أن يكون هناك سرعة مطلقة تنسب إليها كل السرعات، وحسب معلوماتنا الحالية فإن السرعة المطلقة هي سرعة الضوء حيث أن سرعة الضوء ثابتة بغض النظر عن السرعة البدائية «أي بغض النظر عن سرعة المصدر الضوئي». وبما أن الضوء حسب معلوماتنا فيه كمال السرعة فلا يسير بسرعة الضوء إلا الضوء أي إذا سار أي جسمٍ بسرعة الضوء فإنه يصير ضوءاً.

لقد وضع الكتاب مصطلحات مختلفة للزمن والوقت وهي السنة والعام واليوم. فالسنة مقياس زمني منسوب إلى السرعة لذا فهو وحدة متغيرة غير ثابتة والعام مقياس للزمن منسوب إلى الأحداث أي دائماً يأتي معرفاً. ولبيان نسبة الزمن في مصطلح السنة نجده يضع السنة منسوبة إلى شيء معروف كقوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. (السجدة ٥). فهذا يعني بالضرورة أن هناك سنة تختلف عن السنة التي نعد ولا يوجد أبداً مصطلح «ألف عام مما تعدون» لأن الأعوام بحد ذاتها معرفة كقوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. (التوبة ٢٨). فعرّف العام باسم الاشارة «هذا» حيث ان العام جاءت في اللسان العربي من «عوم» وتعني السباحة كقولنا الأبل تعوم في البيداء وعاومت النخلة حملت عاماً ولم تحمل عاماً «الزمخشري اساس البلاغة ص ٣١٧» هنا نلاحظ كيف ربط العام بموسم الحمل للنخل.

وكقولنا ولد النبي ﷺ في عام الفيل وليس في سنة الفيل أي تم ربط الولادة بحدث. وهذا المصطلح للتوقيت. فنقول توفى النبي ﷺ في العام العاشر للهجرة أي بدأ التاريخ بحدث وهو هجرة النبي ﷺ فنستعمل العام.

ونقول نحن الآن في عام ١٩٨٧ للميلاد ولا نقول سنة ١٩٨٧ للميلاد. لأننا ربطنا التاريخ بحدث وهو ولادة السيد المسيح عليه السلام.

وعندما ربط الزمن بحدث قال: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾. (البقرة ٢٥٩). فجاءت العام لتبين القياس ابتداء من الحدث الذي عبر عنه في قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ﴾. وأجابه بالنسبة للمقاييس المعروفة ابتداء من حدث الوفاة في قوله: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾. وعندما ذكر الأعوام المتعارف عليها عند العرب قال: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. (التوبة ١٢٦): وقال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً﴾. (التوبة ٣٧). وعندما ذكر فصال الطفل وهو حدث بعد الولادة وله قياس قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾. (لقمان ١٤).

وفي سورة يوسف ذكر الزمن بالسنة في قوله ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً.. الآية﴾. (يوسف ٤٧). ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ.. الآية﴾. (يوسف ٤٨). ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. (يوسف ٤٩). هنا نعرف العام بعام الغوث والعصير ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. كقولنا عام الفيل.

ونلاحظ أنه في مصطلح العام لم يستعمل الكتاب مصطلح «مما تعدون». لأنه في الأصل معرف.

أما مصطلح السنة فقد جاء من «سنه» في اللسان العربي ولها أصل واحد يدل على زمان. وقد جاءت إمّا كعد للزمن بشكله النسبي كقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (الحج ٤٧). وقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (السجدة ٥)، وإمّا كعد للزمن بشكل عام دون ربط بحدث ما كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾. (الأحقاف ١٥). وقوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. (يونس ٥) وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾.

(الكهف ١١). وقوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾. (الكهف ٢٥). هنا نلاحظ كيف استعمل الله سبحانه وتعالى الزمن بشكل عام في قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾. وقوله: ﴿ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ﴾، لأنّه يتكلم على وجه العموم عن أي إنسان. و﴿ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ﴾. عبارة عن برهة زمنية (t) وفي معنى البرهة الزمنية العددية (t) جاءت الآية ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾. (طه ٤٠). وقوله ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. (الشعراء ١٨). وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾. (الشعراء ٢٠٥) وقوله ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾. (المؤمنون ١١٢). وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. (الروم ٣ - ٤). وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾. (البقرة ٢٥٩). أي لم يؤثر عليه الزمن t كما يؤثر على غيره. هنا استعمل «يتسنه» للدلالة على الفترة الزمنية. وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. (البقرة ٩٦).

لنناقش الآن الآيات التالية:

١ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. (العنكبوت ١٤). لقد ورد في هذه الآية مصطلحا السنة والعام معاً. فهذا يعني أنه استعمل منكراً عددياً في السنة، ومعرفاً عددياً في العام، وعليه فليس من الضروري أبداً أن يكون الاستنتاج أن نوحاً لبث في قومه ١٠٠٠ - ٥٠ = ٩٥٠. فالسؤال الذي يطرح نفسه: هل لبث نوح في قومه تسعمائة وخمسين سنة أم تسعمائة وخمسين عاماً ونحن نعلم أن البنية البيولوجية للبشر لا تسمح له بأن يعمر هذا المقدار من السنين التي نعرفها الآن؟

فهنا إما أن يكون للسنة مقياس آخر غير الذي نعرفه، أو أن يكون ربط العام بحدث بحيث يكون العام الواحد «الحول» أكثر من سنة أي في كلتا الحالتين تكون النتيجة لا تساوي ٩٥٠ سنة من مقاييسنا. وهناك احتمال آخر أن تكون السنة من مقاييسنا ولكن لفظة ألف لا تعني عدداً يساوي ٥٠٠ + ٥٠٠ ولكن تعني مجموعة من السنين حيث أن «ألف» تعني في اللسان العربي انضمام الشيء إلى الشيء والأشياء الكثيرة. ومنه جاء العدد ألف والتأليف. أي ألف سنة عبارة عن مجموعة من السنين نقص منها خمسون عاماً. ففي هذه الحالة أيضاً لا تكون النتيجة (٩٥٠).

٢ ـ ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج ٤).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (الحج ٤٧).

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. (السجدة ٥).

هنا نلاحظ أنه استعمل مصطلح اليوم للدلالة على مقدار زمني مفتوح، فاليوم يمكن أن يكون ١٢ ساعة أو ٢٤ ساعة أو ألف سنة أو خمسين ألف سنة.. الخ.

فهنا عندما استعمل المقدار ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ فالألف في هذه الحالة لها معنى عددي بحت فعندما قال: ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ذكر المقدار الذي هو كم، ولم يقل مما تعدون، وعندما ذكر ألف سنة عن العذاب وتدبير الأمر قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف ١٣٠).

هنا ذكر في هذه الآية قانونين أساسيين في هلاك الأمم الصالح والطالح، القانون الأول عام ينطبق على كل الأمم وهو (السنين). الزمن، أي أن الزمن كفيل بأن يهلك كل الأمم وفي هذا قال: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. (الإسراء ٥٨). وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾. (القصص ٨٨) القانون الأول للجدل.

والقانون الثاني وهو الأزمات الاقتصادية وذلك في قوله: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. وهذا القانون أيضاً كفيل بإهلاك الأمم لذا وضع العامّ «السِّنين». قبل الخاصّ. «نقص الثمرات». وحول الخاص أتم الآية في سورة الاسراء بقوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾. (الإسراء ٥٨). فالهلاك في الزمن والعذاب الشديد في الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية والحروب، وقد ذكر أن هذا من الأمور المبتوتة المصنفة (Clssified) بقوله: ﴿كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾.

ثالثاً ـ الدائم والباقي:

لقد استعمل الكتاب مصطلح الدائم، ومعنى الديمومة في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. (هود ١٠٧) وقوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّاً﴾. (مريم ٣١).

والدائم جاءت من «دوم» وهو في اللسان العربي أصل واحد يدل على السكون واللزوم، والماء الدائم: الساكن. ويحمل عليه تدويم الطائر في الهواء وذلك إذا حلق وكانت له عندها كالوقفة، ومن ذلك قولهم: دَوَّمت الشمسُ في كبد السماء. وذلك إذا بلغت ذلك الموضع، ويقول أهل العلم بها: إن لها ثَمَّ كالوقفة ثم تَدْلُك. قال ذو الرمة:

والشمس حيرى لها في الجو تدويم. أي أنها لا تمضي.

فكيف استعمل الكتاب مفهوم الدائم؟:

لقد استعمل الكتاب مفهوم الدائم بمعنيين: الأصل والمحمول. فنقول إن زيداً من الناس مداوم على الصلاة، فهذا يعني أنه لا يقطع وقتاً من الأوقات ويؤدي الفرائض الخمس ولكنه بين الصلاة والصلاة يقوم بأعمال أخرى ونقول إن زيداً مداوم على عمله فهذا يعني أنه يتواجد في مكان عمله في أثناء فترة معينة ولكنه يقوم بأعمال مختلفة ضمن الدوام. فإذا ربطنا قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾. مع قوله: ﴿مَـادُمْتُ حَيّـاً﴾. رأينا أن ﴿مَـادُمْتُ حَيّـاً﴾. هي الفترة الزمنية التي قضاها الإنسان على قيد الحياة، وهنا تعني اللزوم، ولكن هذه الفترة الزمنية تحمل ضمنها صفة التقطيع والاستمرار لأعمال ونشاطات مختلفة منها الصلاة والزكاة، فالإنسان يصلي ويزكي ويأكل وينام ويعمل. فإذا صلى خلال فترة زمنية قدرها t_1، فضمن هذه الفترة نقول استمر الإنسان في صلاته لمدة ١٠ دقائق. هنا ظهر مفهوم الاستمرارية في الصلاة، ثم بعد الصلاة أكل لفترة زمنية قدرها t_2، فنقول انقطع عن الصلاة واستمر في الطعام لمدة ١٠ دقائق أخرى، فاستمراريته في الطعام هي في نفس الوقت انقطاع عن الصلاة، واستمراريته في الصلاة هي بنفس الوقت انقطاع عن شيء آخر، ولكن فترة t_1 للصلاة وفترة t_2 للطعام واللتين كلتيهما تعتبران انقطاعاً عن شيء واستمراراً في شيء آخر، كلتاهما تقعان على محور الزمن الذي يعيشه الإنسان

وهو الدوام.

لقد استعمل الكتاب مفهوم الدوام على أنه محور الزمن t الذي يحمل فترات زمنية لأحداث تحمل صفة التقطع والاستمرار اللذين هما النقيضان المتصارعان في حدث ما، وهو أن يبقى مستمراً أو ينقطع وهذان النقيضان محمولان على محور هو الدائم. وبما أن الدائم هو محور النقيضين التقطع والاستمرار وهو محور الزمن فلا نرى أن هذا الاسم يدخل ضمن أسماء الله الحسنى، فلا نقول عن الله إنه دائم ولكن نقول عنه إنه حي باق. ومن الوهم أن نقول عبد الدائم، أو سبحان الدائم لأن الدائم حامل النقيضين والله لا يحمل صفة التناقض وهو غير خاضع للزمن.

وقد استعمل الكتاب أحد النقيضين المركبين للدائم والدوام وهي الاستمرار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾. (القمر ١٩). هنا يجب أن ندقق لماذا استعمل الريح ولم يستعمل الرياح، فنحن نعلم أن الرياح عندما تهب فإنها تهب على دفعات، دفعة قوية تتبعها دفعة ضعيفة أو سكون نسبي ثم تليها دفعة قوية ثم تليها دفعة خفيفة. أي أن الرياح تأخذ شكل نبضات مختلفة السرعات. فالنبضة الواحدة تستمر لمدة عدة ثوان لتنقطع فتتبعها هبة أقل قوة أو أكثر قوة تستمر لمدة عدة ثوان أخرى.. وهكذا دواليك. لذا سميت رياحاً. أما الريح الواحدة فهي نبضة واحدة مستمرة قد تستمر لمدة ١٠ ثوان أو يوم كامل. وقد ذكر الريح في مجال عذاب قوم هود. وهاهنا استمرت الهبة الواحدة يوماً كاملاً لذا استعمل الريح مفرداً وأتبعها بقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾. (القمر ١٩) إن علماء الرياح يعلمون تماماً ماذا تعني نبضة واحدة تستمر يوماً كاملاً. وماهو الدمار الذي يمكن أن ينتج عنها. لذا أعقب الآية بقوله: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾. (القمر ٢٠). ونحن الآن نستعمل الدوام والاستمرار بهذا المعنى عندما نقول تهطل الأمطار في سوريا دائماً في الشتاء ونقول هطل المطر لمدة ثلاث ساعات مستمرة أي ثلاث ساعات لم ينقطع فيها هطول المطر.

وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾. (هود ١٠٧) ولم يقل «مَابَقيت السموات والأرض». وقوله بشكل واضح ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. (المعارج ٢٢ - ٢٣) فدوام الصلاة لا يعني أبداً أنه لا يفعل شيئاً في حياته إلا الصلاة، بل يصلي الفرائض ويقوم بأعمال أخرى بالإضافة

إلى الصلاة.

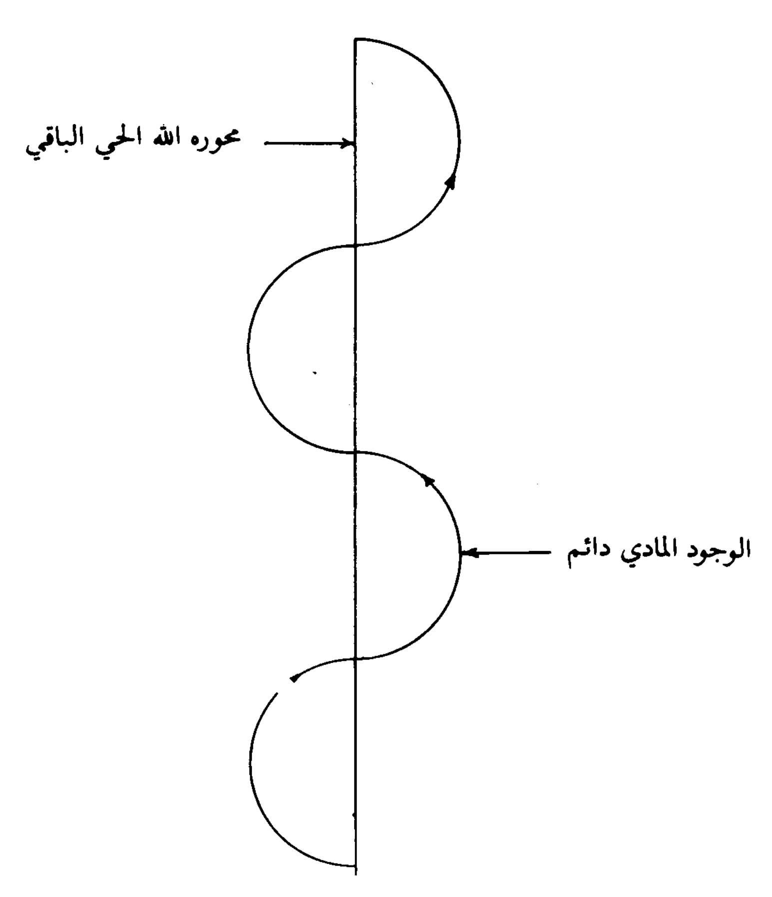
وقوله: ﴿وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ﴾. (المائدة ١١٧) أي أن المسيح كان شهيداً على الناس فقط وهو معهم. وعندما رفعه الله إليه لم يكن شهيداً عليهم، لذا قال: ﴿مَادُمْتُ فِيهِمْ﴾. وَلَمْ يَقُلْ «مَادُمت حيا» أي أنه في الفترة الزمنية التي كنت مقيماً معهم كنت شهيداً عليهم. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاّ ما دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمَـاً﴾. (آل عمران ٧٥). إنّ «مادمت عليه قائماً». لا تعني استمرار المطالبة. ولو قال ما استمريت عليه قائماً لعنى أن الدائن يلازم المدين ويطالبه بدون انقطاع ولا يقوم بأي عمل آخر غير المطالبة. وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُماً﴾. (المائدة ٩٦) تعني أن الفترة الزمنية التي تبدأ بالإحرام وتنتهي بفك الإحرام لا يجوز فيها الصيد. واستعمل هنا. ﴿مَادُمْتُمْ﴾. لأن الحاج قد يحرم من أجل العمرة ثم يفك إحرامه، ثم يحرم من أجل الحج أي أن الإحرام فيه تقطع واستمرار. وعنى هنا بكلمة «مادمتم» الفترة الزمنية للإحرام. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يا مُوسَى إنّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيها﴾. (المائدة ٢٤). هنا أيضاً عنى الفترة الزمنية التي يقيم فيها القوم في الأرض التي أمرهم موسى بدخولها. ولو قال «انا لن ندخلها أبداً ما استمروا بالإقامة فيها» لوجب التعريف أي استمروا بماذا ليأتي الجواب بالإقامة فيها. فهذا يعني إثبات الإقامة ونفي الأفعال الأخرى كالأكل والشرب.

وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ أُكُلُهَا دائِمٌ وَظِلُّها﴾. (الرعد ٣٥) هنا ذكر الدوام في مجال الجنة وأكلها وظلها. وقد ذكرت في فصل الجدل بأن الكون الآخر له قوانين مادية جديدة خالية من صراع المتناقضات في الشيء الواحد، لذا لاموت ولا ولادة ولا حمل. وتقوم علاقات تأثير وتأثر متبادل جديدة بين الأشياء. لذا قال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾. بمعنى اللزوم والثبات و «ظلها دائم». بمعنى اللزوم والثبات. ولو قال «مستمر» لوجب تحديد الفترة الزمنية للاستمرار كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ﴾. وقولنا جلس زيد ثلاث ساعات مستمرة. علماً بأن الزمن في الكون الآخر له مفاهيم مغايرة لمفهوم الزمن في كوننا الحالي. لذا قال أيضاً في مجال اليوم الآخر عن أهل الجنة وأهل النار: ﴿خَالِدِينَ فِيها مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾. (هود ١٠٧). أي هناك سموات وأرض في هذا الكون بظواهر التقطع والاستمرار وهناك سموات وأرض في الكون الآخر بقوانين

الدوام من اللزوم والثبات وبمفاهيم جديدة للزمن.

أما الباقي فقد جاءت في اللسان العربي من «بقى» وهو ضد الفناء أي يبقى على ماهو عليه. لذا نقول إن الله حي باق ولا نقول حي دائم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾. (الرحمن ٢٧). وقوله: ﴿والآخِرةُ خيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. (الأعلى ١٧) ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه ١٣١) ﴿وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. (القصص ٦٠). ﴿وَالله خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. (طه ٧٣). ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾. (طه ١٢٧). وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾. (الصافات ٧٧). أي أن سلالة نوح لا تندثر إلى يوم القيامة وهي منتشرة في كل أنحاء المعمورة، لذا أتبعها بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾. (الصافات ٧٨). ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾. (الصافات ٧٩). ومنه البقاء بمعنى البقية وهو ما تبقى ولم يفن أو يستهلك حتى لحظة معينة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾. (الحاقة ٨). وقوله ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ﴾. (البقرة ٢٤٨). وقوله: ﴿بَقِيَّتُ الله خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (هود ٨٦). وقوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِبَوا﴾. (البقرة ٢٧٨). وقوله: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾. (النجم ٥١). وقوله: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾. (هود ١١٦).

من الدائم والباقي نستنتج أن الوجود المادي الحالي دائم يحمل صفة التقطع والاستمرار التي تعبر عن حركة التغير والتطور. والزمن هو الديمومة الحاملة لهما. والله حي باق لا يحمل صفة التطور والتقطع والاستمرار. فالوجود المادي الحالي دائم ومحوره الله الحي الباقي «أي المرتبط به».



﴿وَمَايَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ . (يونس ٦١) .

فالله هو محور الوجود المادي الذي يسيطر عليه ومربوط به لذا قال «وما يعزب» وقوله «في كتاب مبين» أي أن الدائم «التقطع والاستمرار» هو في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة الجزئية لأنها تخضع للزمن أي أن نسبية الزمن من قوانين الإمام المبين وليس اللوح المحفوظ.

والدائم والمادة لهما معنيان متقاربان فالمادة جاءت من فعل مَدَّ ومنه الامتداد وضمناً تحمل معنى الزمان والمكان فالامتداد فيه حركة «زمان» ويحصل ضمن فراغ «مكان» ومنه نقول الديمومة للمادة والبقاء لله .

الفرع الثالث

الوحي وعلم الله وقضاؤه

أولاً ـ الوحي:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾. (النساء ١٦٣).

إن الوحي هو أحد أنواع المعرفة الخاصة. وقد جاء الوحي في اللسان العربي من فعل «وحى» وهو أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك. والوحي: الإشارة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

فالوحي في الأساس هو نقل المعلومات والأوامر والنواهي بعدة طرق عددها الكتاب بالأشكال التالية:

١ ـ الوحي عن طريق البرمجة الذاتية.

٢ ـ الوحي عن طريق التشخيص «السمع والبصر».

٣ ـ الوحي عن طريق توارد الخواطر.

٤ ـ الوحي عن طريق المنام.

٥ ـ الوحي المجرد.

٦ ـ الوحي الصوتي عن طريق السمع.

الوحي عن طريق البرمجة العضوية في الكائنات الحية أو الوظيفية في ظواهر الطبيعة: وذلك عن طريق تخزين معلومات وأوامر في البنية الجينية للخلايا كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. (النحل ٦٨). ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (النحل ٦٩). أو في البنية الوظيفية للأشياء كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا . الآية﴾ . (فصلت ١٢) وكقوله تعالى : **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾** (الزلزلة ٤ ـ٥) .

الوحي عن طريق التشخيص «صوت وصورة» : وهذا ما نسميه بالوحي الفؤادي وهو أبسط أنواع الوحي وأكثرها بدائية وفعالية وقد جاء هذا النوع من الوحي إلى ابراهيم في قوله : **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾** . (هود ٦٩) . وقوله : **﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾** . (هود ٧٧) .

الوحي عن طريق توارد الخواطر : وهذا الوحي وارد لكل البشر حتى يومنا هذا وهو عندما يقع الإنسان في مأزق أو يفكر في مشكلة علمية تستحوذ على كل تفكيره ، تأتيه فكرة أو خاطرة ما فيها الخروج من المأزق أو حل المشكلة العلمية «كتفاحة نيوتن» . وهذا النوع من الوحي جاء في الكتاب في قوله : **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** . (القصص ٧) .

وفي قوله تعالى : **﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾** . (المائدة ١١١) . وقوله عن يوسف : **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** . (يوسف ١٥) وقوله لموسى : **﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾** . (طه ٣٨) .

هذا النوع من الوحي ليس له أية علاقة بالأمور الشرعية التي تتعلق بأم الكتاب وإنما له علاقة بالأمور الإجرائية والمعرفية حين الأزمات ولا يأتي إلى انسان عشوائياً ، فالإنسان لا يفكر في أمور الذرة فيأتيه إلهام حول أسرار الذرة .

الوحي عن طريق المنام : هنا يجب أن نميز بين مصطلحين هامين وهما : الحلم والمنام إذ لهما مفهومان مختلفان في الكتاب . والشيء المشترك بينهما هو أن كليهما يحصل أثناء النوم . فالحلم هو مجموعة من الصور التي يراها الإنسان وهو نائم وتتصف بأنها عبارة عن صور متداخلة بعضها ببعض وغير مرتبطة . لذا عندما رأى فرعون الرؤيا قالوا له **﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾** . وقولهم للنبي ﷺ : **﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾** . (الأنبياء ٥) . لأن الأضغاث هي صفة الأحلام وتعني في اللسان العربي التباس الشيء بعضه ببعض . والحلم جاء من فعل «حلم»

وأحد معانيه هو النضوج الجنسي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. (النور ٥٩). وإذا بيّن العلم أن هناك رابطاً بين الأحلام وبين النضوج الجنسي فهذا وارد.

أما المنام فهو ظاهرة مختلفة عن الحلم، فالمنام يعبر عن ظاهرتين:

آ ـ أحد أنواع الوحي للأنبياء.

ب ـ بالنسبة لغير الأنبياء يسمى المبشرات وهو الرؤيا الصادقة. وما زالت الرؤيا الصادقة ظاهرة شائعة بين الناس بغض النظر عن التقوى وهي ليست حلماً.

لقد جاء الوحي في المنام إلى إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. (الصافات ١٠١). هنا جاء الوحي باعطاء أمر من الأوامر.

وهناك وحي في المنام باعطاء معلومات كالوحي إلى يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. (يوسف ٤).

والوحي في المنام إما أن يكون صريحاً، كالوحي إلى إبراهيم، وإمّا أن يكون غير صريح وبحاجة إلى تأويل كالوحي إلى يوسف حيث قال في نهاية السورة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا. . الآية﴾. (يوسف ١٠٠).

هنا يجب أن نميز بين قوله عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ﴾. حيث استعمل «أرى» في فعل مضارع، وبين قوله عن يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في الماضي. فالإنسان لا يذبح ابنه بمجرد أن رأى في المنام مرة واحدة أنه يذبحه، بل تكرر هذا المنام لإبراهيم حتى صدقه، بدليل استعمال المضارع «إِنِّي أَرَىٰ». أما مع يوسف فمحتوى المنام كان خبراً، لذا جاءه مرة واحدة، لذا قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ وقد صدق الرؤيا. لذا سمى إبراهيم صدّيقاً حين قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. (مريم ٤١) وقارن هذه الآية حول تصديق الرؤيا في قوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. (الصافات ١٠٥) وكذلك كانت طريقة الوحي إلى ادريس حيث بينها في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. (مريم ٥٦).

وقد أكد طريقة الوحي عن طريق المنام ليوسف حيث سماه أيضاً صدّيقاً في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾. (يوسف ٤٦). وكذلك أطلق الكتاب على مريم لقب صديقة في قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. (المائدة ٧٥) وذلك لأنها صدّقت جبريل بأنه سيهبها غلاماً ذكياً وجاءها بشكل بشر سوي بدون أي علامة فارقة فصدّقته بمجرد أن أخبرها بهذا الخبر فسماها صديقة وقد أكد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾. (التحريم ١٢). وقد سمّي أبوبكر صديقاً لأنه كان يصدّق النبي ﷺ في كل ما يقوله بمجرد أن يقول وبدون أي نقاش.

والآن لنميز أنواع الرؤيا الصادقة:

آ ـ النوع الأول: للأنبياء وهو الوحي عن طريق المنام. فهذا الوحي كما قلت إما مباشر كالوحي إلى إبراهيم، أو غير مباشر «رمزي» كالوحي إلى يوسف.

ب ـ المبشرات: وهي الرؤيا الصادقة وليست وحياً. وهذا يمكن أن يحصل مع كل الناس، المؤمن وغير المؤمن. ويمكن أن يكون مباشراً أو رمزياً. وهذا ما أطلق عليه الكتاب مصطلح الوفاة.

هنا يجب علينا أن نميز بين مصطلحين حصل فيهما خلط والتباس وهما: الوفاة والموت. وقد قلنا إن الروح ليست سر الحياة العضوية وإنما هي سر الأنسنة. فلا تدخل في مصطلح الموت أو الوفاة. وكل ما قيل عن الروح بأنها سر الحياة أو أي موضوع ربط الروح بالحياة العضوية يجب أن يستبعد لأنه ـ كما بينا سابقاً ـ يخالف العمود الفقري للكتاب جملة وتفصيلاً. وكل ذلك حدث بسبب الالتباس في المصطلح بين النفس والروح حيث أن النفس يقابلها في اللغة الانكليزية مصطلحان (body) الجسد العضوي. ومصطلح (Soul) النفس المشاعر والأحاسيس والشخصية «الأنا». أما الروح فيقابلها مصطلح (Spirit) وفي اللغة الروسية هناك مصطلح (ШA Y △) النفس ومصطلح الروح (YX △). ففي الكتاب أطلق مصطلح النفس على معنيين يفهمان حسب سياق الآية:

ـ **المعنى الأول**: النفس ككائن عضوي حي تنطبق عليه ظاهرة الموت وهي التي قال عنها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. (آل عمران ١٨٥). هذه النفس التي تموت يدخل تحت معناها كل الكائنات الحية بما فيها الإنسان: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾. (الملك ٢). وهذه النفس التي يمكن قتلها والتي جاءت في قوله: ﴿وَلَا

﴿تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاّ بِالْحَقِّ﴾. (الأنعام ١٥١). والنفس التي حرم الله قتلها هي النفس البشرية. وهناك نفوس أحل الله قتلها كالأنعام والبهائم والأسماك.. الخ.
وجاءت أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَاكَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾. (آل عمران ١٤٥) وهذه النفس التي قال عنها: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله﴾. (الحجرات ١٥). وقال عنها: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. (التكوير ٧). هذه النفس التي نطلق عليها مصطلح الجسد العضوي المادي والذي ينتقل من حال الحياة إلى حال الموت والتحلل العضوي والتغير والفناء.

- **المعنى الثاني**: النفس الإنسانية فقط وهي النفس التي تُتَوَفَّى والتي لها طب خاص بها اسمه الطب النفسي. وهي مجموعة الأحاسيس والمشاعر وفيها الحب والكراهية والألم النفسي والراحة النفسية والسرور والعذاب وهذه التي قال عنها الله سبحانه وتعالى: ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّىً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (الزمر ٤٢).

هنا يتبين لنا الفرق الكبير بين الروح والنفس، حيث أن الروح هي إزالة التناقض والربط المجرد وهي سبب المعرفة والتشريع وسبب الخلافة، وهي من الله مباشرة لأنها من صفات الله التي لا ينطبق عليها قانون صراع المتناقضات الداخلية في ذاته. أما النفس التي تُتَوفى فهي الصور المدركة والأحاسيس واللذات والمشاعر ولها جدل خاص بها وهي ليست الروح وإنما من نتاجها حيث أن الصور والأحاسيس تعتمد على المدركات من الأشياء وإدراك الأشياء يتم بواسطة الروح. حيث أن هذه الأمور لا تتحلل بالموت لأنها غير مادية، لذا ذكر لها «الوفاة» وذكر للنفس العضوية «الموت». وأعطى نفس المصطلح للحالتين لأنهما مرتبطتان بعضهما ببعض في الحياة. ولا يحصل الانفصال إلا في حالتين وهما المنام والموت لذا قال: ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِها﴾. ويحسن هنا أن نزيل الالتباس الذي يقول أن النوم هو كالوفاة فهذا وهم. فالمنام هو الوفاة والذي يحصل أثناء النوم وليس النوم نفسه. فماذا يحصل في المنام وليس في الحلم؟ يرى النائم في المنام مجموعة من الصور والأحداث المباشرة لها معنى مباشر أو رمزي فيها رعب أو سرور أو خوف أو فرح أو ألم أو لذة.. الخ فيقول الكتاب إن هذه وفاة مؤقتة للنفس حيث

ترسل لقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾. هذه الحالات لا تحدث في الضرورة كلما نام الإنسان، ولكن إذا حدثت، فإنها تحدث أثناء النوم. ولتمييزها عن الحلم فإنها قابلة للتحقيق «التأويل» وهذه التي سميت المبشرات «الرؤيا الصادقة».

أما الوفاة الدائمة التي قال عنها: ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾. فذاك أنه في لحظة الموت لكل إنسان على الإطلاق بغض النظر أكان الموت سريعاً جداً أو بطيئاً لأننا نعني لحظة الموت يرى الإنسان مجموعة من الصور يشعر فيها بالراحة أو بالعذاب. هذه الصور تبقى ثابتة إلى يوم يبعثون والجسد ليس له علاقة بذلك دفن أم حرق. هذا ما نسميه حياة البرزخ. هذه الحياة صور ثابتة وشعور ثابت وهي حالة غير عضوية ما عدا «النبيين والشهداء» وهكذا فقط نفهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. (الأنعام ٩٣). ونفهم قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. (الواقعة ٨٣ الى ٩٦).

هنا نلاحظ كيف يعطي صورة الوفاة حين الموت. فالمقربون يشعرون كشعورهم بفسحة ونزهة «روح» وهم في غاية الراحة «ريحان» هنا ريحان على وزن فعلان وهي ضد «تعبان». ولكي يبين أن هذه الصورة التي تحصل في الوفاة حين الموت تبقى ثابتة إلى يوم يبعثون قال عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. (غافر ٤٦) هنا نلاحظ قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. ثبات الصورة منذ الموت حتى قيام الساعة لقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

هنا أكد القرآن أن لا نعيم جسدياً ولا عذاب جسدياً إلا بعد البعث الجسدي والحساب المادي، فهناك الجنة والنار الماديتان.

هذا البحث يقودنا إلى استنتاج مهم جداً وهو ما يقال عنه عذاب القبر. فإذا

فهم عذاب القبر فهما رمزياً على أنه الصورة التي يراها المتوفى حين الموت بغض النظر أدفن في القبر أم أحرق أم التهمته الوحوش فهذا وارد ولا يتعارض مع المفاهيم الواردة في الكتاب. أما ما ورد في بعض الكتب عن سؤال منكر ونكير بعد الدفن، ويسألون الميت عن ربه ودينه فلم يثبت في نص صحيح. وان ما يفعله بعضهم من تلقين الميت بعد الدفن فما لم نجد له سنداً صحيحاً. وإن من مجانبة الدقة أن نقول الصلاة على روح فلان أو الفاتحة إلى روح النبي ﷺ أو روح الميت. والأدق أن نقول الصلاة على نفس فلان ونفس النبي ﷺ أو نفس الميت. وإننا نقرأ في الأثر قول النبي ﷺ «والذي نفس محمد بيده» وإن كل ما ورد في الأثر وفي كتب التراث أو الأحاديث حيث تذكر الروح على أنها سر الحياة يجب أن يعاد النظر فيه ووضع إشارة استفهام كبيرة على صحته.

أما النفس التي ترى حين الوفاة الروح والريحان وجنة نعيم وتثبت لها هذه الصورة إلى يوم القيامة فهي التي قال عنها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. (الفجر ٢٧ ـ ٣٠) ويبقى أن نلاحظ أنه حيث ورد ذكر الموت والوفاة في الكتاب فالمصطلح المرافق هو مصطلح النفس وليس مصطلح الروح.

قد يسأل سائل: لقد أوردت في بحث الجدل أن الجنة والنار لم توجدا بعد وإنما ستوجدان على أنقاض هذا الكون بعد هلاكه، فكيف قال عن النفس المطمئنة ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. والجنة لم توجد بعد؟ الجواب أن الكتاب أورد أن هناك جنة ليس لها علاقة بجنة المتقين أو جنة الثواب والعقاب وهي التي سماها: ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾. في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾. (النجم ١٣ ـ ١٥).

من هذه الآيات نناقش حادثة المعراج. فإذا شاهد النبي الجنة والنار في المعراج ـ وقد قلنا إن الجنة والنار لم توجدا بعد ـ فهذا يعني أن المعراج حصل في المنام. أما إذا كانت المشاهدة فؤادية أي مرتبطة بالحواس فهذا يعني أنه شاهد جنة المأوى وليس جنة الثواب. وقد ذكر الكتاب بأن المشاهد حسية فؤادية في قوله: ﴿مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾. (النجم ١١). وفي قوله: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. (النجم ١٧).

وفي الختـام يبقى للبحث المستقبلي ترتيـل آيـات النفس التي جاءت في الكتـاب وتصنيف الآيـات حسب معنى النفس ـ الجسد التي تمـوت والنفس التي تتوفى. فعلى سبيل المثال: ﴿وَمَاكَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. (العنكبـوت ٤٠). هنـا النفس التي تتـوفى: ﴿فَنُخْـرِجُ بِهِ زَرْعـاً تَأْكُـلُ مِنْـهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾. (السجدة ٢٧). هنا النفس التي تموت.

لقـد ذكرنا أن ما جاء في الكتاب عن الوفاة والموت يسمى حياة البرزخ بالنسبة لكـل النـاس. والنـاس الـوحيـدون المستثنون من هذه الحياة هم الأنبياء والشهداء. فهـذه الحيـاة بالنسبـة لهم ملغـاة حيث تستمـر مبـاشرة حين موتهم ووفاتهم ـ حياتهم المـاديـة الجسـديـة والنفسيـة ـ عنـد الله سبحانه وتعالى وليس في الجنة. وقد يقول البعض إن جثث الشهـداء تبقى في الأرض أوتحـرق. هذا صحيـح ولكن جسـد الإنسـان المـادي عبارة عن مجمـوعـة من الكميـات والنسب المـاديـة المؤلفـة من عنـاصـر، ولكـل إنسـان وصفـة خاصـة به من المواد ونسبها وهندستها، هذه الوصفة موجـودة عنـد الله سبحـانـه وتعـالى ويعـاد تركيبها. أما الجسد الذي مات فيبقى في الأرض. لذا قال عن الشهـداء: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيـلِ اللهِ أَمْـوَاتـاً بَلْ أَحْيـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ﴾. (آل عمـران ١٦٩). هنـا قال: «أمواتاً» ويعني بذلك الحياة العضوية وأتبعها بقوله: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وأضاف اليها أمراً مادياً بحتاً في قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾. وتلاحظ قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. ولـم يقل في الجنة كقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (الرعد ٣٩).

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. (لقمان ٣٤).

وقد أكد أنه لا بعث للنبيين والشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون في قوله: ﴿وَأَشْـرَقَتِ الأَرْضُ بِنُـورِ رَبِّهَا وَوُضِـعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. (الزمر ٦٩). لاحظ قوله: ﴿وَجِيْءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾. قال هذا لأنهم أصلاً موجودون «عندَ ربِّهم».

هنا تتبين لنا المرتبة العالية للشهداء حيث أن مكافأتهم من الله هي من جنس لتضحيـة التي قدمـوهـا ولكن تفوقها درجات. فالشهداء قصروا أعمار أنفسهم وآثروا المـوت على أن يستمـروا في الحيـاة ويستمتعـوا بهـا أطـول مدة ممكنة فكافأهم الله سبحانه وتعالى بأن أحياهم ومتعهم ورزقهم من لحظة موتهم إلى يوم يبعثون.

ـ **الـوحي المجـرد**: وهـو أرقى أنواع الوحي وهو أن يأتي جبريل بدون أن يدرك بالحـواس فيلتبس مع النبي ﷺ ويسجـل الآيـات المـوحـاة بشكل مباشر في الدماغ «القلب». هذا النـوع من الـوحي الأسـاسي الذي كان يأتي للنبي ﷺ. هنا يجب أن نناقش الوهم الذي يقع فيه البعض وهو أن النبي ﷺ كان يغيب عن الوعي عندما كان يأتيـه الـوحي المجـرد، حيث قالـوا إن النبي ﷺ كانت تأتيـه نوبـات من الصرع وقد حصل هذا الوهم من أن النبي ﷺ كان يغيب عن الوعي ويتفصد عرقاً حين كان يأتيه الـوحي، وبعـد أن يتـركـه الـوحي كان يصحـو ويعـود إلى وعيه، ويرتل الآيات التي أوحيت اليه، وأحياناً كانت تأتيه سورة كاملة من السور الطوال على دفعة واحدة كسورة يوسف، ومعظم سورة الأنعام. لنناقش هذه الظاهرة ونرد على هذا الوهم:

١ ـ إنّ الإنسـان المـريض بالصـرع وتأتيـه نوبـات الصـرع يصحـو بعد النوبة كالمخبول ولا يقول إنه علم شيئاً أو زادت معلوماته قيد أنملة أثناء النوبة. وكل العرب الذين عاشوا مع النبي ﷺ المؤمن منهم والكافر كانوا يعلمون أن النبي ﷺ كان يغيب عن الوعي أثناء الوحي. وبعد أن يعود إلى وعيه يتلو عليهم الآيات التي أوحيت إليه.

٢ ـ اننا نعلم بشكل قاطع أنه لا يمكن للإنسان أن يفكر بشكل متلازم بأمرين اثنين بنفس اللحظـة. فهنـاك طريقتـان لاستلام المعلومات: إما عن طريق الحواس التي توصلهـا إلى المـخ «الإدراك الفؤادي» ثم يبـدأ المـخ بعملية التحليل والتركيب «الفكـر والعقـل» ويصـدر أحكـامـاً. وفي هذه الحـالة، الحواس هي واسطة المعرفة والإنسـان بحـاجـة ماسـة إليهـا. وإمّـا أن تأتي المعلومـات إلى الدماغ بشكل مباشر متجـاوزة الحـواس. ولا تتجـاوز الحواس موضوعياً إلا إذا غاب الإنسان عن الوعي. والعلم والتجـارب العلميـة يمكن أن تبرهن على هذا حالياً أو في المستقبل وذلك إذا أردنا أن نعطي معلومات وأوامر ونواهي إلى دماغ شخص بشكل مباشر واستطعنا فعل ذلـك فهـذا يعني أننـا بالضـرورة نحتـاج إلى أن نعطل حواس الشخص الذي يتلقى المعلومـات ونغيبـه عن الـوعي لأنـه لا يمكن أن نعطي للإنسان معلومات مباشرة إلى دماغه وحواسه تعمل، لأن الحواس بحد ذاتها هي مصدر للمعلومات.

وعلى هذا فإنـه من النـاحيـة العلميـة، لا غرابـة أبـداً بأن يغيب النبي ﷺ عن الـوعي أثنـاء الـوحي. لذا أطلقت على هذا النوع من الوحي مصطلح الوحي المجرد أي المجرد عن الحواس، وهو أرقى أنواع الوحي. علما بأنه وحي مادي أي كان يأتي

من خارج دماغ النبي ﷺ ومن خلال قوانين موضوعية «جبريل» وليس من نشاطات الدماغ الذاتية لذا قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾. (الإسراء ١٠٥). أي ترجمة القرآن إلى العربية حدثت خارج وعي محمد ﷺ. ﴿وَبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾. وتم نقله موضوعياً إلى قلب محمد ﷺ. ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. لذا كان دور النبي ﷺ هو البشير والنذير حيث أن التبشير بالجنة والإنذار بالنار هو من القرآن.

- **الوحي الصوتي**: وهو شكل الوحي الذي جاء إلى موسى عليه السلام فقط بالإضافة إلى أشكال أخرى كالإلهام. لذا فصل الوحي إلى موسى في آية منفصلة وحدها في قوله: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾. (النساء ١٦٤). حيث نرى في الآية ١٦٣ من سورة النساء مجموعة من الأنبياء والرسل ذكرهمْ الله في آية واحدة وذكر أنه أوحى إليهم، ولم يذكر فيهم موسى، بل خصه وحده بهذه الآية المنفصلة.

هذا الوحي الصوتي جاء لموسى شفاهة «صوتاً» ومنسوخاً كالوصايا العشر «الفرقان» حيث قال: ﴿وكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْء مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْء فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾. (الأعراف ١٤٥). وقوله: ﴿وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾. (الأعراف ١٥٠).

- أنواع الوحي التي أوحيت للنبي مُحَمَّد ﷺ:

١ - الوحي المجرد: لقد كان هذا النوع الأساسي للوحي للنبي ﷺ.

٢ - الوحي الفؤادي: كانت بداية الوحي للنبي ﷺ بداية فؤادية حيث لو بدأ الوحي مجرداً لما صدق النبي ﷺ نفسه، ولظن نفسه أنه متوهم. لذا كانت البداية الفؤادية للوحي هي ضرورة بشرية، حيث أن الحواس أساس المعرفة، فجاءه جبريل لأول مرة صوتاً وصورة، ولم يغب النبي ﷺ في هذه الحالة عن الوعي. وقد أوحيت له بالطريقة الفؤادية أوائل سورة العلق. ثم أحياناً كان يأتيه جبريل بصورة

إنسـان يراه هو والآخـرون ويخبـره ويسألـه بمرأى ومسمع من الآخرين دون أن يغيب أحـد عن الـوعي. في هذا المجـال يتبين لنـا لماذا لم ينزل عليه القرآن «لا الكتاب» جملة واحـدة، بل جاء مرتـلاً، وكـان السبب فؤادياً بحتاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَةً وَاحِـدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾. (الفـرقـان ٣٢). لذا جاء القـرآن على دفعـات ببداية فؤادية «مشخصة» لتثبيت فؤاد النبي، أي لكيلا يشك ثم جاءه بعد ذلك على أرتال بالطريقة المجردة.

ثانياً ـ علم الله:

قلنا إن علم الله هو أرقى أنواع العلم. وهو علم تجريدي بحت ويحمل الصفة الـريـاضيـة المتصلة والمنفصلة معـاً: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾. (الجن ٢٨). ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. (الرعد ٨) وقلنا إن العلم التجريدي هو علم مجرد عن الحـواس. فالحواس ضرورية للإدراك الفؤادي المتعلق بالحواس. هذا من ناحية، ومن ناحيـة أخـرى ضروريـة لنـاقصي المعـرفـة أي لاكتسـاب المعـارف عن العالم المـوضـوعي المـادي. أما الإدراك المجرد فهو إدراك بمعزل عن الحواس «العقل»، لذا فعلم الله علم مجرد وهو في الوقت نفسه يحمل صفة كمال المعرفة.

فإذا قلنـا إن مخلوقـاً ما يعـرف أشكـال المـوجودات واحتمالاتها، ويعرف كل أصـوات المـوجـودات واحتمـالاتها. ففي هذه الحالة يبصر ولكن بدون عين ويسمع ولكن بدون أذن فيزيولوجية لذا نقول إن الله سميع بصير أي يسمع بدون أذن ويبصر بدون عين فيزيولوجية حيث أن الحواس ضرورية لناقصي المعرفة. وقد أكد ضرورتها لاكتسـاب المعـرفـة وربطهـا بالفؤاد في قوله: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُـونَ شَيْئـاً وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْـعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئِـدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُـرُونَ﴾. (النحل ٧٨). فبالنسبة لناقص المعرفة هناك السمع كوظيفة عضوية للأذن تؤدي إلى المعـرفـة، وهنـاك الاستمـاع كفعـل إرادي للإنسان نفسه. لذا فإننا نرى في الكتاب صيغـة «قـد سمـع الله» كقـولـه: ﴿قَـدْ سَمِـعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَـادِلُكَ فِي زَوْجِها﴾. (المجـادلـة ١). وقـولـه تعـالى: ﴿لَقَـدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. (آل عمران ١٨١). ولكننا لا نرى في الكتاب صيغة «استمع الله» وانما هي

لغير الله من العاقل كقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾. (الجن ١). وقوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾. (الشعراء ٢٥) وقوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾. (الجن ٩) وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (الأعراف ٢٠٤).

لنناقش الآن: هل كامل المعرفة يحتمل الشريك؟ أي أن الله كامل المعرفة، فهل هناك امكانية بأن يحمل إله آخر أو أي كائن آخر نفس الصفة؟ هذا مستحيل. وللدلالة على ذلك نقول إن كمال السرعة، في حدود ما نعلم، موجود في الضوء، فإذا سار جسم بسرعةٍ أقل من سرعة الضوء لا يصبح ضوءاً، ويبقى جسماً مغايراً للضوء. ولكنه إذا سار بسرعة الضوء، يصبح ضوءاً حيث أنه لا يسير بسرعة الضوء إلا الضوء. فالسيارة تصبح ضوءاً، والإنسان يصبح ضوءاً إذا بلغت سرعتهما سرعته.

وهكذا نرى أن كمال السرعة لا يكون إلا في واحد، وهذا الواحد لا يحتمل الشريك ولا يحتمل معادلة الزمن. وكمال المعرفة لا يكون إلا في واحد ولا يحتمل الشريك ولا يحتمل معادلة الزمن: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (الحديد ٣). وكما أن سرعة الضوء هي السرعة التي تنسب إليها كل سرعات الأجسام الأخرى. وكذلك فاننا ننسب إلى علم الله كل علوم المخلوقات الأخرى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. (البقرة ٢٥٥). وبما أن الروح هي سر اكتساب المعرفة فقد أعطاها الله للإنسان ليكون خليفة له: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. فأصبح البشر إنساناً متعلماً مكتسباً للمعارف. فكلما زادت معارف الإنسان زاد اقتراباً من الله بالمعرفة. وكلما زاد جهلاً بعد عن الله. وهكذا فإننا نرى أن الإنسان ككل يقترب من الله مع التطور ومرور الزمن، وسيبقى هذا الاقتراب من الله مستمراً حتى يأتي يوم يظن فيه الإنسان أنه أصبح إلاهاً. فعند ذلك تقوم الساعة ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾. (يونس ٢٤).

والآن نسأل السؤال التالي: هل علم الله يقيني أم احتمالي؟ نقول هو الاثنين معاً. فعلم الله يقيني كامل بالأشياء والأحداث القائمة والموجودة فعلاً كقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. (الأنعام ٨٠) وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ

عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾. (الأعراف ٨٩). وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. (طه ٩٨). وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾. (غافر ٧). وقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. (الطلاق ١٢). وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. (فاطر ١١، فصلت ٤٧) وقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (الحجرات ١٦). وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (الحديد ٣). وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (المجادلة ٧). وقوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (التغابن ١١). وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. (الحج ٧٠).

نلاحظ في الآيات السابقة قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾. والأشياء هي الموجودات فعلاً وقد أجمل علمه بقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وقد شرحت معنى الكرسي في الباب الأول. أما عن حركة الأشياء ووظائفها فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾. (سبأ ٢، الحديد ٤). وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾. (الأنعام ٥٩).

وعلينا هنا أن نميز بين نوعين من علم الله:

آ ـ النوع الأول: علم الله بالأشياء وظواهرها وحركاتها وهو الذي شرحناه.

ب ـ النوع الثاني: علم الله بالسلوك الإنساني الواعي وبالاختيار الإنساني.

لقد حصل لغط كثير وجدلٌ طويل وأخذ وردٌ والتباس في النوع الثاني من علم الله حول السلوك الإنساني والاختيار. ومَردّ هذا الالتباس إلى أنهم أدخلوا في علم الله حول الاختيار الإنساني ما لا يدخل فيه، ولم يرد له ذكرٌ في الكتاب.

فحول علم الله بالاختيار الإنساني قال:

- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. (النمل ٢٥).
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. (النمل ٧٤).
- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. (القصص ٦٩).
- ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾. (الأحزاب ٥١).
- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾. (غافر ١٩).
- ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. (الشورى ٢٥).

- ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾. (محمد ١٩).
- ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾. (محمد ٢٦).
- ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (الحجرات ١٨)
- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. (التغابن ٤).
- ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾. (الأعلى ٧).
- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾. (البقرة ٢٧٠).
- ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَافِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾. (آل عمران ٢٩).
- ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران ١٦٧).
- ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾. (آل عمران ٩٢).
- ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. (القصص ٨٥).
- ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. (البقرة ١٨٧).
- ﴿فَعَلِمَ مَافِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾. (الفتح ١٨).
- ﴿فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾. (الفتح ٢٧).
- ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. (المزمل ٢٠)
- ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. (المزمل ٢٠).
- ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾. (البقرة ٢٣٥).
- ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾. (الأنفال ٢٣).
- ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾. (الأنفال ٦٦).

إن الآيات الواردة أعلاه كلها تتحدث عن سلوك إنساني واعٍ، فلنأخذ مثلا قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فقد جاءت في صيغة المضارع للدلالة على استمرارية المعرفة أولاً، وجاءت المعرفة لأمر مخفي فعلاً. فإذا كان زيد في لحظة ما لا يخفي شيئاً فالله يعلم أن زيداً لا يخفي شيئاً في هذه اللحظة. وفي لحظة تالية إذا أخفى زيد شيئاً فإن الله يعلم أن زيداً قد أخفى شيئاً. وكذلك الإعلان والإسرار. وبما أن السر والعلن متغير عند الإنسان بتغير نواياه، فجاء العلم بصيغة المضارع للدلالة على استمرارية المعرفة. فأين يكمن الالتباس إذاً؟

إن الالتباس يكمن في أنه إذا نوى زيد غداً القيام بأمر ما فإن الله منذ الأزل يعلم أن زيداً في يوم كذا وساعة كذا وثانية كذا سينوي القيام بهذا الأمر. إننا ننظر إلى الأمر نظرة مغايرة ولتبيانها نقول:

أولاً لنناقش أنه لو كان يدخل في علم الله منذ الأزل ماذا سيفعل زيد في حياته الواعية وماهي الخيارات التي سيختارها زيد منذ أن يصبح قادراً على الاختيار إلى أن يموت. فالسؤال لماذا تركه إذا كان يعلم ذلك؟ هنا من أجل تبرير هذا الأمر ندخل في اللف والدوران فنقول إن الله علم منذ الأزل أن أبا لهب سيكون كافراً، وأن أبا بكر الصديق سيكون مؤمناً. ثم نقول إن أبا لهب اختار لنفسه الكفر وأبو بكر اختار لنفسه الإيمان. إنّ هذا الطرح لا يترك للخيار الإنساني الواعي معنىً، وإنما يجعله ضرباً من الكوميديا الإلهية مهما حاولنا تبرير ذلك. فإن كان الأمر كذلك فماذا نعني بقولنا: إنّ الله كامل المعرفة؟

إنّنا نعني أنّ الله كامل المعرفة بالأشياء وأحداثها «الطبيعة وظواهرها» لأنّ علمه رياضي ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَاً﴾. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. (الرعد ٨). وعلمه رياضيٌّ، لأنّ الرياضيات اليوم هي أرقى أنواع العلوم، ولو توصّل العقل الإنساني «المَصُوغ من روح الله» إلى علمٍ هو أرقى من الرياضيات وسميناه العلم س ثمّ وجدنا في القرآن إشارة لذلك كانت تخفى علينا أو كنّا نؤولها تأويلاً آخر لجعلنا بالعلم س لقلنا إنّ علمَه جَلَّ وعلا عِلْمٌ سينيّ... وما دمنا لا نعرف علماً أرقى من الرياضيات فإننا نذهب ولا نتحرَّج إلى أنّ علمه رياضيّ «دلّنا على ذلك العقل المصوغ من روح الله».. إنّ الرياضيات تتصف بالدقة والتَّنَبُّؤ، فنحن إذا علمنا القانون الرياضي لظاهرة ما في الطبيعة، يصبح من السهل علينا أن نتنبأ سلفاً عن سلوك هذه الظاهرة. وهذا ما نفعله الآن في الاختراعات الكبيرة في الطب والعلوم. إذ يمكننا أن نحكم سلفاً عن موعد وصول الصاروخ إلى القمر إذا عرفنا قدرته وسرعته.. الخ. وبما أن الوجودّ هو كلمات الله، فقد أعطانا الله الاطمئنان بأنّه لا مبدل لقوانينه: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾. وإنّ عين الأشياء هي كلماته. إنّ ظواهر الأشياء في كلماته لذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (مريم ٣٥). ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (يس ٨٢). وقال عن ظواهر الطبيعة إنها في كتاب مبين فلا يوجد شيء في الطبيعة صغيراً كان أم كبيراً

إلا يعلمه الله ويسيطر عليه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. (لقمان ١٦). لذا فإن معرفة الإنسان بكلمات الله هي مفتاح خلافته لله في الوجود وهي مفتاح رقيه.

فعلم الله بالطبيعة إمّا علم مبرمج سلفاً في اللوح المحفوظ «القرآن المجيد» والذي يحوي قوانين جدل الطبيعة الأول والثاني والخلق والتطور والساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار، أي قوانين الجدل المادي لهذا الكون والكون الذي يليه. وإمّا علم في كلية الاحتمالات لظواهر الطبيعة الجزئية القائمة على الأضداد والتي نفهمها من خلال الرياضيات والتي سماها «كتاب مبين». وبما أن سلوك الإنسان سلوك احتمالي فقد سمى القصص أيضاً الكتاب المبين لذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. (يس ١٢). أي أن الإمام المبين هو أرشيف الأحداث الجزئية الجارية للأشياء في الكون والإنسان لذا جاء القصص من الإمام المبين وهناك معلومات عند الله فقط، غير مؤرشفة وغير مبرمجة سلفاً وهي التي قال عنها: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. (لقمان ٣٤).

أمّا بالنسبة للسلوك الإنساني الواعي، فحتى نفهم هذا السلوك الواعي يجب علينا أن لا ننسى أن الإنسان خليفة الله في الأرض وأنه يوجد في الإنسان وليس في الكائنات الحية الأخرى شيء من ذات الله وهو الروح وبها أصبح خليفة الله في الأرض واكتسب المعارف وأصبح قادراً على المعرفة والتشريع. هذه النقطة إذا نسيناها فإن السلوك الإنساني سيتحول إلى مجموعة من الصور المتحركة يديرها الذي صممها «أفلام كرتون». ولكن إذا قلنا إن هناك أمراً مشتركاً بين الله والإنسان وهو الروح، أي إذا قلنا إن الصور المتجركة فيها شيء من ذات المصمم لتغير الأمر.

فعلم الله في السلوك الإنساني الواعي يقسم إلى قسمين:

١ ـ علم الله الكامل بكلية الاحتمالات التي يمكن أن يسلكها الإنسان، فأمام كل إنسان على حدة، ملايين الاحتمالات كل يوم في موعد نومه وفي طعامه وفي لباسه وفي كلامه وفي علاقته مع الآخرين وفي صلاته وفي صومه وإيمانه وكذبه وفي أن يتعلم أو يبقى جاهلاً وهكذا دواليك. فلا يمكن لأي إنسان أن يقوم بأي عمل

علني أو يخفي أي أمـر أو يتبنى أيـة فكـرة سراً أو علنـاً إلاّ وتصـرفـه داخـل في هذه الاحتمـالات وبـالتالي فهو داخل في علم الله الكلي ، أي لا يمكن لأي إنسان مهما عمل أن يقوم بعمل ما سراً أو علناً ويفاجىء الله به ولا يدخل في كلية احتمالات علمه وهـذه هي عين كمـال المعـرفـة كسـرعة الضوء فإنها تحوي كل احتمالات السرعات الممكنـة للأشيـاء. فأبـو بكر لم يفاجىء الله بإيمانه وأبو لهب لم يفاجىء الله بكفره، لأن الكفـر والإيمـان كليهمـا معـاً يدخل في علم الله. ألا ترى إلى قوله: ﴿لِمَنْ شَاء مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾. (التكـويـر ٢٨). حيث ذكر الاستقامة في حيّز التبعيض، فالذي لا يشاء الاستقامة ينحرف، فعلم الله ومشيئته أن يكون هناك استقامة وانحراف معاً، لذا قال في مجال الكلية وليس في مجال التبعيض: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاء الله﴾. (الانسـان ٣٠). ففي علم الله ومشيئتـه الاستقامة والانحراف معاً، وفي مشيئتنا نحن أن نستقيم أو ننحرف. بيد أنّ من يستقم فإنّه لا يفاجىء الله باستقامته، ومن ينحرف لا يفـاجىء الله بانحـرافـه. وفي هذا يصبح الخيار الإنساني الواعي خياراً حراً يستلزم الثـواب والعقـاب، وتصبـح خيـارات الإنسان غير مكتوبة عليه سلفاً. وفي هذا قال: ﴿وَقُـلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُـرْ﴾. (الكهف ٢٩). وإذا قلنـا الآن إن الله منـذ الأزل علم أن أبـا بكـر سيؤمن وأن أبـا جهـل سيكفر فهذا عين نقصان المعرفة وليس كمالها. أي أن علم الله يحمل صفة الاحتمال الواحد. ولو كفر أبـو بكـر وآمن أبـو جهـل لكـانت هذه مفـاجأة كبيـرة لله تعـالى، علما بأن باب الكفر والإيمان كان مفتوحاً أمام الإثنين على حد سواء.

٢ ـ علم الله الكـامـل بأحـداث مسبقـة بكليـاتهـا وجزئياتها أو بأحداث جارية بكليـاتهـا وجـزئياتها: وذلك أنه في لحظة أن نوى أبو بكر الإيمان قبل أن يفضي بهذه النية لأحد وهي ما زالت سراً في نفسه علمها الله أولاً وفي نفس اللحظة التي نوى فيها أبـو بكـر الإيمان. وثانياً هذه المعرفة داخلة في احتمالات علمه الكامل أي لم يفاجأ بها. وهنا تكمن الصفة «الصورة» المشتركة بين الله والناس. فقد خلقنا الله أحراراً في اختيارنا ونحن بالنسبة له لسنا لهواً يلهوبنا. والفرق هو أنه كامل المعرفة «عليم» ونحن ناقصي المعرفة «متعلمين» لذا فهو حر وله تمام الحرية ونحن متحررون. وقد جاءت صيغ الآيات السابقة في صيغة الماضي وفي صيغة المضارع «الحاضر» للدلالة على علمه بأحداث مسبقة بكلياتها وجزئياتها أو بأحداث جارية بكلياتها وجزئياتها.

ولكي يبين حرية الاختيار للإنسان «وأن الإنسان الفرد لحظة اختياره لأمر ما، ينتقل هذا الأمر من علم الله الكلي «كمال المعرفة» إلى علمه المصنف الذي سيسجله على الإنسان» لذا قال: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾. وقال: ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. فإذا اختار الإنسان الفسق بملء اختياره لم يَهْده الله. ومن هنا فقد وضع الله تعالى صيغاً بالنسبة للاختيار الإنساني على الشكل التالي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. (العنكبوت ٣). وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾. (آل عمران ١٤٠). وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾. (آل عمران ١٤٢). وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (المائدة ٩٤) وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جٰهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (التوبة ١٦). وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. (البقرة ١٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾. (محمد ٣١). وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. (الكهف ١٢).

في هذه الآيات قد يظن البعض أن الله ناقص المعرفة، علما بأن هذه الآيات ليس لها علاقة بكمال المعرفة حيث أن كمال المعرفة كلي. وهذه الآيات تدخل تحت باب المعرفة الجزئية والتي هي جزء من المعرفة الكلية أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي. فالإنسان مثلاً يختار الجهاد والإيمان، فهذا الاختيار يصنف في كتاب هذا الإنسان حصراً أي ينتقل من باب المعرفة الكلية للاحتمالات جميعها، إلى باب التصنيف الشخصي لأعمال الإنسان التي يختارها أصلاً من ضمن المعرفة الكلية لله، وهكذا نفهم الآيات التالية: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. (يونس ٢١). ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾. (مريم ٧٩). هنا نلاحظ من مفهوم الكتابة أنه تصنيف أعمال الإنسان وأفعاله عليه. وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

(يس ١٢). ﴿وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. (النساء ٨١). ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾. (الزخرف ٨٠).

ويجب علينا هنا أن نشرح مفهوم الإكراه. فالإكراه هو انخفاض الاحتمالات الممكنة للخيار الإنساني إلى الاحتمال الواحد فقط، فإذا كان يوجد خمر وماء للشرب فأصبح هناك خيار للإنسان في الشراب. ولكن إذا كان لا يوجد إلا الخمر وشربه الإنسان فهنا يدخل مفهوم الإكراه حيث أن الإكراه موضوعياً هو وجود احتمال واحد للاختيار بغضّ النظر أذكر الإكراه علنا أم لم يذكر. وعندما ينخفض عدد احتمالات الاختيار الإنساني للاحتمال الواحد فقط فالعقيدة الإسلامية تقول لا ثواب ولا عقاب فإذا وضعتم علم الله ضمن الاحتمال الواحد فهذا يعني الإكراه ظاهراً أم مبطناً ويعني نقصان المعرفة لاكمالها.

أما قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. (المزمل ٢٠). فالطلب الذي طلبه الله من الرسول في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾. (المزمل ١ - ٤). هو طلب لا يتعلق بالصلاة أو قيام الليل في العبادات وقد حاول النبي فعل ذلك ولكنه لم يستطع علماً بأن هذه الآيات جاءت في أوائل التنزيل حيث لا صلاة ولا صوم ولو أخذنا الآية / ٢٠ / من سورة المزمل وهي آية مدنية أي نزلت بعد نزول أوائل السورة بأكثر من عشر سنوات وهي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. لتبين أن الطلب الذي طلبه غير قابل لأن يعقل ضمن المستوى المعرفي لعصر النبي ﷺ والصحابة لذا قال: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. وهنا الهاء في قوله «تحصوه». تعود على «الليل». وطلب عوضاً عن ذلك فهم ما تيسر من آيات القرآن وليس كل القرآن. هنا القراءة لا تعني التلاوة. وإن إحصاء الليل وتفهمه ودراسته تحتاج إلى تفرغ وإن كثيراً من الناس منهم المريض، وآخرون يزاولون مهنهم للعيش «العمال»، وآخرون مجندون للقتال «الجند» فاستعاض عن ذلك بفهم شيء من القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخير حيث قال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى... الآية﴾. (المزمل ٢٠).

أما قوله: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. (البقرة ٢٣٥) فقد وضع صيغة «ستذكرونهن». بصيغة المستقبل

للجمع حيث أن هذه الآية وردت للنساء الأرامل وهن أثناء العدة، وذكرهن أثناء فترة العدة هو أحد الاحتمالات الواردة والمعروفة سلفاً.

أما قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (الأنفال ٢٢). ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. (الأنفال ٢٣). هنا وصف الله الذي لا يعقل بأنه دابة، بل من شر الدواب وقد ربط العقل بحاسة أساسية من الحواس وهي السمع. وهنا استعمل شر الدواب استعمالاً مجازياً، علماً بأنه يتكلم عن بعض الناس وقد استعمل السمع استعمالاً مجازياً بمعنى الفهم كقوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. لذا قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، أي في علم الله المسبق إذا اختار الإنسان الكفر وصم أذنيه عن غير ذلك فلا فائدة من افهامه لذا أتبعها بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. وهذه الآية هي علم مسبق على وجه العموم «كمال المعرفة في كلية الاحتمالات» ولا تعني أن أبا جهل منذ الأزل سيكون كافراً. ولكن عندما اتخذ أبو جهل هذا الموقف تم تصنيفه ضمن هذه الزمرة «أي تمت كتابة الكفر عليه».

وكذلك نفهم قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾. (الأنفال ٦٦). فقد جاء الآن بصيغة الحاضر و«علم» بصيغة الماضي. أي أن الضعف والقوة هي الاحتمالات الداخلة سلفاً في علم الله، فانطبق أحد هذه الاحتمالات على المؤمنين فقال: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾. ووضعها في صيغة الجمع ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ إذ لا يمكن أن نفهم أن الله خفف الآن بعد أن علم، وكان قبل ذلك لا يعلم. كما وضع في صيغة الجمع ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾.

ثالثاً ـ قضاء الله

لقد جاء فعل «قضى» في الكتاب في المعاني التالية:

١ ـ قضى بمعنى «أخبر» كقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾. (الإسراء ٤) وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾. (الحجر ٦٦). وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾. (القصص ٤٤).

٢ ـ قضى بمعنى «أمر» أي الأمر ضد النهي كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾. (الاسراء ٢٣).

٣ ـ القضاء بمعنى إنهاء الشيء كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. (القصص ١٥). وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾. (الأحزاب ٢٣). وقوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾. (القصص ٢٨).

٤ ـ قضى بمعنى الإرادة الإلٰهية النافذة وقد جاءت في قوله تعالى:

آ ـ ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. (مريم ٣٥).

ب ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. (النحل ٤٠).

ج ـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. (يس ٨٢).

د ـ ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. (غافر ٦٨).

ان بحثنا هو الحالة الرابعة التي هي قضاء الله حيث صاغه الله بصيغة ثابتة صارمة «يقول، نقول: كن فيكون». أي أن قضاء الله النافذ لا يأتي إلا من خلال كلماته: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. ﴿يُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾. وكلماته هي الوجود وقوانينه الموضوعية، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾. (النبأ ٢٩). أي أن قضاءه المبرم لا ينفذ إلا من خلال المقدرات: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾. (الأحزاب ٣٨).

وعندما أراد الله إهلاك عادٍ وثمود ومدين أهلكهم بقضائه، ولكن كان إهلاكه لهم عن طريق القوانين الموضوعية «كلماته» لذا قال عن هؤلاء الأقوام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. (هود ٥٨). وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾. (هود ٦٦). وقوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾. (هود ٧٣) وقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. (هود ٧٦) وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾. (هود ٨٢) وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. (هود ٩٤). وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. (هود ١٠١). هنا نلاحظ كيف ارتبط ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾. بظاهرة من ظواهر القانون

الموضوعي وهي الريح، الصيحة، الرجفة، الأحجار. أي أن هذا الأمر تم من خلال كلمات الله وهي من قوانين الربوبية بقوله عندما علق على كل القصص: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. (هود ١٠١).

لنلخص الآن آيات القضاء المبرم الذي هو أمر الله والذي هو كلمات:
«قَضَى أَمْراً + قَوْلُنا لشيء + إنَّما أَمْرُه+ فَإذا قَضَى أَمْراً» «يقول، نقول له كن فيكون». لاحظ القاسم المشترك بين هذه الآيات وهو فعل «يقول» وقوله الحق.

هنا يجب أن نميز قضاء الله وأمره بإرادة مبرمة أي «قول» وبين أوامر الله والتي هي ضد النواهي والتي تعتبر موعظة ووصية وليست قولاً.

فإرادة الله التي هي موعظة وأمر ضد النهي والتي هي علاقات روحية لا مادية أي علاقة تقوى جاءت في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (النحل ١). ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. (النحل ٢) فأتبعها بقوله ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. (النحل ٢). هنا نلاحظ كيف دمج أوامر الله التي هي ضد النواهي والتي لا يوجد فيها آية «كن فيكون» كيف دمجها مع الروح ووضع فيها التقوى. فالصلاة أمر ضد النهي لا قول وهي من التقوى لأنها ليست كلمة وكذلك بر الوالدين وبقية التعاليم حيث لا نجد في التعاليم كلمة «قال الله» أو «كن فيكون» لذا ميز الأوامر التي هي ضد النواهي بقوله «يعظكم، يأمركم، يوصيكم» والإرادة النافذة بقوله «قول، يقول، حقت كلمة ربك، فحق عليها القول» فمثال الأوامر ضد النواهي وليست قضاء مبرماً «قَوْلاً» أي ليست قانوناً موضوعياً يعمل خارج الوعي وليست كلمات الله:

١ ـ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (النحل ٩٠). لذا جاءت صيغة ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٢ ـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾. (الإسراء ١٦) لاحظ هنا الربط بين ﴿أَرَدْنَا﴾ وبين ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾. (هود ٨٢). وبدون هذا التمييز بين أمر الله الذي هو ضد النهي «الروح» وبين أمر الله الذي هو قضاء مبرم

والـذي هو «القـول» «الكلمـات» «الحق» لا يمكن فهم أسـاس الأسس في العقيـدة الإسلامية. فإذا حكمَ الناسَ إنسانٌ ظالمٌ لا نقول هذه إرادة الله وهذا قدر الله، والله قضى علينـا بكـذا وكذا. إنّ هذا الكلام منافٍ لأساس الأسس في العقيدة الإسلامية لأن هذا الأسـاس يقضي بأنّ المجتمعـات الإنسـانيـة تقوم على قوانين موضوعية هي كلمـات الله. وعلى قوانين ذاتيـة تعتبـر مواعـظ الله ووصـايـاه جزءاً منها، فوعي هذه القوانين الموضوعية هو الذي يعطينا حرية الحركة والتصرف ويزيل عنا مفهوم الجبرية من خلال فهم العـلاقـة المـوضـوعيـة إذ إنّ الله عندما أراد أن يهلك قوماً أهلكهم من خلال تصرفه بهذه القوانين الموضوعية. والآن عندما تريد دولة أن تهلك دولة أخرى فإنهـا تفعـل ذلـك من خلال التصـرف بهـذه القـوانين «الـذرة ـ الصواريخ ـ الأزمات الاقتصـادية»، والتزامنا الواعي بالوصايا والمواعظ هو الذي يحدد العلاقة الاجتماعية من خلال القانون الأخلاقي.

وعلينا أن نعرف أنه إذا تزوج زيد بزينب فهذا يعني أن الله لم يكتب منذ الأزل هذه الزيجة ولو كان الأمر كذلك لما جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. (الأحزاب ٣٦).

لو كان الأمـر مكتـوبـاً منـذ الأزل لمـا قال: ﴿الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. ولما قال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾. لأن هذا أمر ضد النهي لا أمر على أنه كلمة. وكذلك إذا ضرب زيـد عمـراً فلا نقـول إنه مكتوب عليه لأن الله قدر الضرب على زيد وعمرو معاً في وجود اليدين وإمكانية الضرب. فإذا اختار زيد الضرب فما على عمرو إلا أن يرد عليه أو يسامحه..

هكذا يجب أن نفهم معنى كيفية قضاء الله في أعمال الناس وأرزاقهم وأعمارهم وزيجاتهم.

الإذن والمشيئة

قلنـا إن قضـاء الله نوعـان: أمر ضد نهي جاء في أم الكتاب. وأمر شرطي نافذ جاء في القـرآن والـذي علق بقـولـه: ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. أو ﴿نَقُولُ لَهُ كُنْ

فَيَكُـونُ﴾. أو ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَـا الْقَوْلُ﴾، أو ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾. فقضاء الله النافذ قضاء غير أزلي، أي أن الله لم يقض منذ الأزل بهلاك قوم هود أو قوم صالح أو قوم نوح أو قوم شعيب لذا قال: ﴿مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (نـوح ١). أو ﴿عَـذَابَ يَوْمٍ مُحِيـطٍ﴾. (هـود ٨٤)، وأن الله لم يقض من الأزل بزواج زينب من زيـد لأنهـا تمنعت علمـا أن الرسـول أخبرها بذلك لذا قال لها: ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرَاً﴾. (الأحزاب ٣٦)، و «اذا» هنا شرطية ولما يستقبل من الزمن لأنه كان لها الخيار ولو كان قضاء أزلياً لما سئلت ولما أخبرت، وعندما يقضي الله قضاء نافذاً فإن قضاءه ينفذ من خلال كلماته لذا وضع صيغة «القول» دائماً، ففي هذا القول جانبان:

الجانب الأول: إطلاق الإرادة بقوله «كن» والثاني إطلاق القدرة بقوله «يكون» ولاحـظ الفـرق بين «كن» الآنيـة و «يكون» الزمنية ولو كان قضاء الله مبرماً منذ الأزل لقال «فإنما يقول له كن فكان» وإنَّما جاءتْ «فيكون». وهذا الإطلاق قابل للتغيير والتبديل بالدعاء لأنه ليس أزلياً لذا قال النبي ﷺ في حديثه إن صح «ردوا القضاء بالدعاء» وأمّا «اللهم إنـا لا نسألـك رد القضـاء ولكن نسألـك اللطف فيه» فهي صيغة مشكوك فيها لأنهـا تنـاقض الصيغـة الأولى والأصـح أن نقـول اللهم إنـا لا نسألـك رد القدر وإنما نسألـك اللطف بنـا، ومن هـذا نفهم قوله تعالى في قوم يونس لما آمنوا بقوله: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَـةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهـا إيمَـانُهَا إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيـا وَمَتَّعْنَـاهُمْ إِلَى حِيْنٍ﴾. (يونس ٩٨) هنا نلاحظ بشكل قطعي أن قضـاء الله غيـر أزلي ويمكن أن يتغيـر بتغير أحوال الناس، لذا جاء الأنبياء والمرسلون منذرين للناس، ولو كان قضاء أزلياً مبرماً لأصبحت الرسالات والنبوات والدعاء ضرباً من ضروب العبث حيث أن القضاء الأزلي هو في قوانين اللوح المحفوظ وليس الإمام المبين، وكـذلـك الآيـة: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾. (الأعراف ٩٦). وكذلك قوم يونس كفروا فأنذرهم الله بالعذاب ثم آمنـوا فرفـع عنهم العـذاب. لذا فإن المقولة التي تقول إن قضاء الله النافذ بالنسبة للإنسـان هو قضـاء أزلي غيـر صحيحة فقضاء الله النافذ في الإنسان قضاء مشـروط بمـوقف الإنسـان ما عدا قوانين اللوح المحفـوظ الأزلي وهي قوانين الـوجود والتطـور، ولكن عنـدمـا ينفـذ قضـاء الله فلا ينفذ إلا من خلال كلماته. أما قضاء الله الـذي هو أمـر ضد النهي فهـو لا يحمـل أي صفـة من صفات الأزلية ولا أي صفة من

صفات المادية حيث أنه ليس بكلمات الله وإنما هو من الروح حيث جاء من العرش وليس من اللوح المحفوظ أو الإمام المبين.

والآن لنبحث في الإذن والمشيئة حيث جاءت هاتان الصيغتان في الكتاب «شاء الله، أذن الله»:

الإذن:

جاء الإذن من «أذن» وهذا الفعل يعني في اللسان العربي إعلان الشيء وتأكيد الحصول والنفاذ. فعندما يخبرنا الله عن قانون موضوعي يعمل خارج الوعي يستعمل فعل «أذن» كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾. (آل عمران ١٤٥) أي أن إذن الله حاصل ونافذ لا محالة وهنا هو الموت. ولكن الإذن يتم موضوعياً من خلال «كتاب» وهو كتاب الموت أي مجموعة الشروط الموضوعية التي إذا حصلت واجتمعت بعضها مع بعض حصل الموت لا محالة وهذه الشروط مؤجلة غير موقوتة ومن هنا جاء شرط طول العمر وقصره. أي أن الله أذن إذا بلغت حرارة جسم الإنسان /٤٤/ درجة مئوية فما فوق أن يحصل الموت، وأذن إذا شنق الإنسان أن يحصل الموت، وأذن إذا قطع رأس الإنسان أن يحصل الموت.. وهكذا دواليك.

لنأخذ الآن الآيات التالية التي فيها فعل «أذن» على أنه شيء لا محالة حاصل وأنه يجري من خلال قانون موضوعي مادي:

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾. (غافر ٧٨).

هنا يبين بأن الآيات البينات التي يأتي بها الرسل تنفذ من خلال قوانين مادية لا محالة حاصلة، وأنه لا خرق لأي قانون من قوانين الطبيعة وأن الخرق هو في المعرفة لنسبية لدى الناس.

٢ - ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾. (آل عمران ١٦٦).

- ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. (المجادلة ١٠).

- ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

(التغابن ١١). هنا يبين كيف ان الضرر والنفع والمصائب والنصر والهزائم لا تحصل إلا من خلال القوانين المادية الموضوعية لذا قال: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٣ - ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. (القدر ٤).

- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾. (البقرة ٩٧).

قال «باذن ربهم» لأن الملائكة حقيقة موضوعية مادية موجودة خارج الوعي وتنزل من خلال قوانين موضوعية ثم عطف جبريل عليها.

٤ - ﴿مَنْ ذا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. (البقرة ٢٥٥).

- ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. (يونس ٣).

- ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. (هود ١٠٥).

- ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾. (طه ١٠٩).

- ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. (سبأ ٢٣).

- ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. (النبأ ٣٨).

هذه الآيات عن الشفاعة وعن الكلام في غاية الأهمية لأنها جاءت مع فعل «أذن» أي أنه إذا أذن الرحمن لأحد بالكلام أو الشفاعة يوم القيامة فهذا يعني أنه يستطيع الكلام والشفاعة فيزيائياً، وإذا لم يأذن فهذا يعني أنه لا يستطيع الكلام فيزيائياً كأن يصبح أبكم أي بمجرد لفظه الكلام فهذا يعني أن الرحمن أذن له وإذا استطاع الكلام بالشفاعة فيزيائياً فهذا يعني أن الرحمن أذن له، لذا قال في سورة (المرسلات ٣٦). ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾. أي أنهم موضوعياً لا يستطيعون أصلاً الكلام ليعتذروا.

٥ - ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾. (البقرة ١٠٢).

- ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾. (البقرة ٢٤٩).

- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾. (البقرة ٢٥١).

- ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾. (آل عمران ٤٩).

- ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾. (آل عمران ٤٩).

- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾. (الأعراف ٥٨).

- ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾. (ابراهيم ١١).

- ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. (ابراهيم ٢٥).

- ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ . (سبأ ١٢) .
- ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ . (فاطر ٣٢) .

هذه الآيات تبين أن النفع والضرر والنصر والهزيمة للجن والأنس ومعجزات الأنبياء لا تحصل إلا من خلال القوانين الموضوعية المادية كنبات الشجر.

وعندما أراد الله أن يعاقب بني إسرائيل من خلال القوانين التاريخية الموضوعية النافذة قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (الأعراف ١٦٧) .

وعندما أراد الله أن يبين أن الربا حرام قال في حقه ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ . (البقرة ٢٧٩) . والحرب جاءت من فعل «حرب» وهي تعني السلب والنهب في الأموال والممتلكات أي أن سلب ونهب المال لا محالة حاصل من قبل الله في حال الربا وذلك من خلال قوانين الوجود الموضوعي.

أما المعنى الثاني لفعل «أذن» هو الإعلان والموافقة، فقد جاء في الآيات التالية:

١ - ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ . (الحج ٢٧) .
٢ - ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ (التوبة ٩٠) .
٣ - ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ . (النور ٢٨) .
٤ - ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ . (النور ٦٢) .
٥ - ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾ . (التوبة ٨٣) .
٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ . (النور ٦٢) .
٧ - ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ . (التوبة ٣) .
٨ - ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ . (النور ٥٨) .

هنا نلاحظ كيف أن الإذن بمعنى الموافقة والإعلان جاءت في آيات أم الكتاب وكيف أن الإذن بمعنى القانون الموضوعي النافذ جاءت في القرآن وتفصيل الكتاب.

ـ المشيئة : «شاء الله» :

إن إذن الله لا محالة حاصل من خلال قانون موضوعي نافذ كالموت والنصر والهـزيمـة . . الـخ لذا فهـو لا يحتمـل إلا وجهـاً واحداً هو النفاذ في حال وجوده. أما المشيئة فتحتمل الوجهين الإيجابي والسلبي كقوله:

- ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران ٢٦).
- ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (آل عمران ٢٧).
- ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾. (الأعراف ١٥٥).
- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾. (الأعراف ١٥٥).
- ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. (الأنعام ٨٣).
- ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. (آل عمران ٧٣).

هنا نلاحظ الاذن والمشيئة في آية واحدة، فالوحي يحدث من خلال قوانين نافذة أما ما يوحى به لأحد من الناس فشرطي يحتمل عدة أوجه، لذا قال ﴿مَايَشَاء﴾.

- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. (الأنعام ٨٨).

فعنـدمـا قال: ﴿يَهْـدِي بِهِ مَنْ يَشَـاءُ﴾. فهـذا يحتمـل الوجهين: الايجاب أو النفي لذا وضعهـا مفتـوحـة وذلك لأنه جعلها مشروطة بأعمال الإنسان كقوله: ﴿وَاللهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (البقرة ٢٥٨).

لذا قال: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (الرعد ٣٩).

فأحكـام أم الكتـاب حصـل فيهـا تطـور بين نفي وإثبات حسب التطور التاريخي لذا قال: ﴿مَا يَشَاء﴾. فعندما تستعمل كلمة «شاء» يجب أن تفهم أنها تحتمل الوجهين أي أن المشيئة ظرفية مرتبطة بموقف الإنسان أو الموقف التاريخي لذا قال:

- ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾. (الواقعة ٦٥).
- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. (الأنعام ١٤٩). ولكنه لم يشأ ولم يهد الناس أجمعين.
- ﴿وَلَـوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً﴾. (النحل ٩٣). ولكنه لم يشأ وليس الناس أمة واحدة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ . (هود ١١٨) ولكن لم يشأ ولم يجعل الناس أمة واحدة. لذا فعندما نقول إن زيداً سيذهب غداً إلى الطبيب فإن ذهابه سيحتمل الوجهين: الذهاب أوعدم الذهاب فيقول: إني ذاهب غداً إلى الطبيب إن شاء الله. ولكن إذا أخذ زيد حبة من الاسبرين من أجل الصداع فيقول: فيها الشفاء بإذن الله لأنها تحتمل الوجه الواحد وهو التفاعل وتسكين آلام الرأس.

وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ . (الكهف ٢٩) . هنا وضع الكفر والإيمان في المشيئة «مشيئة الإنسان» ولم يضعهما في الإذن لأن عقيدة الإنسان تحتمل الوجهين الإيمان والكفر وله الخيار فيهما.

ونتنقل الآن إلى:

تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَافِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . (لقمان ٣٤) .

إن تأويل هذه الآية يؤكد بشكل قطعي وجازم أن الأعمال والأرزاق والأعمار غير محددة سلفاً وذلك حسب التأويل التالي:

قلنا إن القرآن المجيد في اللوح المحفوظ وهو مجموعة قوانين الطبيعة العامة الصارمة الجازمة ومنها قوانين الجدل المادي «التطور وتغير الصيرورة» وقوانين جدل الإنسان، وإن أي حدث بعد حصوله يتم تسجيله في الإمام المبين، لذا جعل «الكتاب المبين وكتاب مبين» جزءاً من القرآن العظيم، ولا يوجد أي استثناءات منها لأحد، ومطلوب منا وعيها ومعرفتها. ومن خلال وعينا لهذه القوانين تزداد حرية التصرف هذه. ويجدر بنا هنا أن نقارن بين هذين المفهومين: المفهوم الأول: الوجود المادي الموضوعي الصارم. والثاني: حرية التصرف من قبل العاقل بهذه القوانين ومن أجل هذا نضرب المثال التالي:

يوجد في كل من الدولتين العظميين في العالم مجموعة من الأسلحة المدمرة والصواريخ مختلفة الحجوم والمدى. هذه الصواريخ موجودة وكل شيء فيها مبرمج سلفاً: الاتجاه، القوة التدميرية، آلية الانطلاق، مكان الوصول. ولكن هناك شيئاً واحداً فقط غير مبرمج سلفاً هو موعد إطلاق هذه الصواريخ إذ أن هذا الموعد مرتبط بأعلى قيادة سياسية في الدولتين، مثلاً الرئيس الأميركي والأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي. والقيادة السياسية في كلتا الدولتين تتصرف وفق أحد الاحتمالين التاليين:

آ ـ إما أن تتصرف حسب الأحوال السياسية الدولية وحسب تصرف الدولة الأخرى وتقرر أن تطلق أو لا تطلق

ب ـ أن تضع توقيت إطلاق الصواريخ عندها حصراً، ولا تظهر هذا التوقيت إلا بغتة وبشكل مفاجىء.

لقد وضع الله عنده هذين الاحتمالين معاً بعد أن خزن قوانين الكون العامة سلفاً في اللوح المحفوظ وأبقى لنفسه حرية التصرف في هذه القوانين. هذه الحرية تحتوي على الاحتمالية، إما حرية ظرفية، أي الاحتمال الأول، وإما حرية التصرف مع التوقيت، أي إظهار الحدث بشكل مفاجىء. فعلى هذا الأساس لُنحلل هذه الآية بنداً بنداً:

١ ـ ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: لقد برمج الله أحداث الساعة سلفاً في اللوح المحفوظ، وقد وصف لنا ما هي أحداث الساعة وماذا سيحصل في هذا الكون المادي حين تقوم الساعة ولكن لم يضع توقيت قيامها في اللوح المحفوظ، واحتفظ به لنفسه لذا قال: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. لنقارن هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (الرعد ٣٩). أي أن أم الكتاب هي أمر ظرفي قابل للتبديل وغير محددة سلفاً «الاحتمال الأول». أما الساعة فتخضع للاحتمال الثاني لذا قال: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾. (الأعراف ١٨٧). وقال أيضاً: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. (الأعراف ١٨٧). حيث أن توقيتها عنده فقط كأم الكتاب، وقد قلنا إن أم الكتاب هي كتاب الله لذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾. (الروم ٥٥). ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. (الروم ٥٦)

هنا نلاحظ الناحية المهمة جداً كيف قال: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ﴾. ولم يقل في القرآن أو في اللوح المحفوظ أو في الكتاب.

هنا يجب علينا أن نفهم تماماً ما يلي: يقول علماء الفلك والكوسمولوجيا حسب الدراسات العلمية إنّ الشمس ظهرت منذ كذا مليار سنة وإنها ستخبو وتنطفىء بعد كذا من الوقت، فظن البعض ان انطفاء الشمس وزوالها هو الساعة، وأخذ البعض نظرية الكون النابض بأن هذا الكون آخذ في الاتساع فإنه سيأتي زمن يبدأ فيه بالانقباض ليرجع إلى نقطة الصفر، وظن البعض أن هذه هي الساعة. وهذا كله غير صحيح مع أننا لا نشكك مطلقاً بالدراسات الفلكية والكوسمولوجية، ولكننا نشك بربط هذه الأحداث بالساعة، حيث أن الساعة هي حدث كوني مفاجىء تماماً «تسارع في تغير الصيرورة». ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾. وغير متوقع ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. ولا يمكن التنبؤ بزمن حدوثه أبداً ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾. وقد أعطى الله سبحانه وتعالى أشراط الساعة في عدة أماكن لذا قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. (طه ١٥). هنا ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. بمعنى «أكاد أظهرها» أي لم يظهرها ولكنه اقترب من اظهارها بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾. (محمد ١٨). ولو أن توقيت الساعة مخزن في اللوح المحفوظ أو امام مبين «القرآن» لأمكن للعلماء في المستقبل تحديد توقيتها بكل دقة، حتى دقة الثانية، ولكنها ليست كذلك.

٢ ـ ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾: لقد حدد الله سلفاً، القوانين الموضوعية مثل قوانين تشكل البخار وتشكل الغيوم المشكلة للمطر، ولكنه لم يحدد سلفاً كمية المياه التي ستنزل على كل كيلومتر مربع من سطح الأرض، ولو حدده سلفاً لأمكن للعلماء في المستقبل تحديد كمية الأمطار التي ستهطل في مساحة ما على سطح الأرض ولو بعد ألف سنة لذا فإن الإنسان يستطيع أن يقلد تشكيل الغيوم من خلال قانون التبخر ويستطيع أن يسوق هذه الغيوم في المستقبل ولو جزئياً لتنزيل المطر في منطقة ما لأنها غير محددة سلفاً في اللوح المحفوظ. ومن هنا نعرف معنى صلاة الاستسقاء والدعاء لله سبحانه وتعالى بإرسال الغيث لأنه لو كانت كميات الأمطار التي ستهطل في كل منطقة إلى أن تقوم الساعة محددة سلفاً ومبرمجة مسبقاً لأصبح الدعاء لله بتنزيل الغيث ضرباً من ضروب العبث.

٣ ـ ﴿وَيَعْلَمُ مَافِي الْأَرْحَامِ﴾: لقد برمج الله سبحانه وتعالى سلفاً في اللوح

المحفوظ قانون الزوجية واللقاح وأنه عندما يلقح أي حيوان منوي أية بويضة فسيحصل الحمل ويتشكل الجنين. كل هذا ضمن قوانين صارمة هي قوانين الجينات والوراثة ولكنه لم يبرمج في اللوح المحفوظ سلفاً من سيتزوج من. أي أننا نحن البشر غير مبرمجين سلفاً في اللوح المحفوظ ولكن المبرمج هو قوانين الحياة والموت والوراثة والجنين البشري أما تحويل البشر إلى إنسان فقد جاء من الله مباشرة، لذا فلا نقول إن فلانة من نصيب فلان منذ الأزل. لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاء الذُّكُورَ﴾. (الشورى ٤٩). ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاء عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. (الشورى ٥٠). لاحظ هنا قوله «يشاء». ولم يقل «يأذن»، لنعلم بشكل جلي أن عدد الذكور والإناث لكل إنسان غير مبرمج سلفاً وكذلك الزيجات لذا فالدعاء له معنى كقوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. (ابراهيم ٣٩). من هنا نستنتج ما يلي: بما أن نوع الجنين غير محدد سلفاً في اللوح المحفوظ أذكر هو أو أنثى، وبالتالي فإن استطاعة الطب تحديد وتوجيه نوع الجنين سلفاً أذكر هو أو أنثى ومعرفة نوع الجنين وهو في رحم الأم. ولكن ليس باستطاعة الطب خلق جنين بدون لقاح حيوان منوي مع بويضة.

ولو كان كل شيء مبرمجاً سلفاً في اللوح المحفوظ لأمكن معرفة من سيتزوج فاطمة لحظة ولادتها وعدد الأولاد الذين ستنجبهم، ولكن هذا مستحيل لأنه غير مبرمج وإنما يحدد من خلال الشروط الظرفية «المشيئة».

٤ - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾: هنا يؤكد بشكل قاطع أن اختيار الإنسان لأعماله غير محدد سلفاً في اللوح المحفوظ، وإلا فان العلم سيعلم في المستقبل ماذا سيفعل كل إنسان غداً. هذا العمل مفتوح تماماً للإنسان، ويمكن لكل إنسان أن يختار أعماله بنفسه لأنها غير محددة له سلفاً، والأرزاق غير محددة سلفاً لكل إنسان والله يتدخل فيها تدخلاً شرطياً غير مسبق «المشيئة».

٥ - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: هذا مجمل للآيات التي تقول إن أعمار البشر غير محددة سلفاً في اللوح المحفوظ، ولو كانت أعمارهم محددة سلفاً منذ بداية الخلق لأمكن في المستقبل معرفة عمر كل إنسان من لحظة ولادته، وهذا مستحيل لأنه غير مبرمج سلفاً، وفي هذا قال الله سبحانه وتعالى عن معركة بدر ﴿فَلَمْ

تَقْتُلُوهُمْ وَلٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾. (الأنفال ١٧) فلو كانت أعمارهم مبرمجة ومحددة سلفاً لأصبح قوله «ولكن الله قتلهم» غير ذي معنى. ولكن الله حدد سلفاً القوانين الموضوعية التي تحدد الحياة والموت وتحدد قصر العمر وطوله ولنا نحن البشر التصرف بها حسب معرفتنا النسبية لها، والله يتدخل فيها تدخلاً شرطياً «المشيئة».

لذا فإني أقول وأدعو لنفسي وللقارىء بأن يطيل الله أعمارنا ويحسن أعمالنا، وأن يتدخل تدخلاً شرطياً فيستجيب.

القضاء والقدر والحرية:

قلنا إنّ قانون الزوجية بين الأشياء وصراع المتناقضات في الشيء الواحد هما القانونان الأساسيان لجدل الأشياء، وإن ظواهر الطبيعة تقوم على الأضداد. إن الفكر الإنساني يقوم على صراع نقيضين هما الرحمن والشيطان «الحق والباطل» والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية هي من الظواهر، فتقوم على الأضداد في مظهرها وعلى التناقضات في محتواها.

وبما أن الفكر الإنساني عبارة عن ظاهرة تقوم على الأضداد في مظهرها وبالتالي فالحرية الإنسانية ظاهرة تقوم على الأضداد وجدلها والحركة الواعية بين النفي والإثبات بين ضدين، وهذان الضدان متكافئان بين النفي والإثبات كالشهيق والزفير والليل والنهار في ظواهر الطبيعة، ونعم ولا في السلوك الإنساني، والكفر والإيمان في العقيدة، فلا أحد منهما يغلب الآخر وينفيه بشكل مستمر، وفي هذا التكافؤ يكمن سر الحرية الإنسانية، إذ أن الظواهر الموضوعية للطبيعة فيها النفي والإثبات. وظواهر الحرية الإنسانية فيها النفي والإثبات «نعم، لا» بشكل متكافىء، فلا الكفر يغلب الإيمان بشكل مستمر ويسيطر على كل أهل الأرض، ولا الإيمان يغلب الكفر بشكل مستمر ويسيطر على أهل الأرض، وهذه الظاهرة في جدل الإنسان نعمل بها نحن المسلمين على أنها من سنن الله في خلقه في قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. (يونس ٩٩). ولكي يبين التكافؤ بين النفي والاثبات في جدل الإرادة الإنسانية أورد الكتاب هذا الجدل في الإرادة الإلهية حيث وضعه بشكل متكافىء وذلك في قوله:

﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ . (آل عمران ٢٧) . هنا نلاحظ كيف وضع النفي والإثبات بشكل متكافىء وذكر قبله ظاهرة من ظواهر الطبيعة وهي الليل والنهار حيث استعمل فعل ﴿تخرج﴾ لحالة النفي والإثبات معاً أمّا في جدل الأشياء فقال ﴿إنّ الله فالق الحب والنوى﴾ . (الأنعام ٩٥) . فاستعمل صيغتين «يخرج، ومخرج» وذلك لاستبعاد قضاء الإنسان . حيث أن الموت في جدل الأشياء هو دائماً المنتصر النهائي . وكذلك وضع الصيغة المتكافئة للنفي والإثبات في القضاء الإلهي في الظواهر في قوله : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ . (يونس ٣١) . هنا نلاحظ كيف أنهى الآية بقوله : ﴿ومن يدبّر الأمر﴾ . وذكر فيها عملية الرزق، لا الرزق نفسه، وذكر ظاهرة السمع والبصر وليس الأذن والعين .

وقبل أن ندخل في تعريف الحرية علينا أن نحدد بعض الظواهر التي تدخل في مركبات الحرية الإنسانية بشكل مباشر والتي حصل فيها التباس كبير وهي عمر الإنسان ورزقه وعمله لأن هذه العناصر الثلاثة لها علاقة مباشرة بالحرية الإنسانية، هل هي مكتوبة عليه سلفاً «محددة»؟ أي هل مقدر على زيد منذ أن يولد أو منذ الأزل عمره ورزقه وعمله؟ أم أن الأعمار والأرزاق والأعمال مقدرات احتمالية، وبالتالي فالأعمار والأرزاق والأعمال تصبح غير ثابتة ولكنها مقدرة على وجه العموم . كيف تطول الأعمار وتقصر وكيف تتسع الأرزاق وتضيق، وماهي الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الإنسان موضوعياً، «الإنسان يختار منها حسب معارفه واجتهاداته .

الفصل الرابع
الأعمار والأرزاق والأعمال

الفرع الأول : الأعمار .
الفرع الثاني : الأرزاق .
الفرع الثالث : الأعمال .



لقد ظن الكثير أن عمر الإنسان ورزقه وعمله مكتوب عليه سلفاً، والمكتوب جاءت بمعنى المقدر عليه سلفاً، وبذلك يصبح الإنسان فاقد الإرادة ولا خيار له في أعماله وأرزاقه ويصبح الطب والعلاج والعمليات الجراحية بدون معنى وكذلك يصبح دعاء الإنسان لله تعالى ضرباً من ضروب العبث واللهو.

أما رأي القرآن فهو غير ذلك، ففي بحثنا عن القرآن والكتاب عرفنا أن فعل «كتب» تعني تجميع الأشياء بعضها إلى بعض لإخراج موضوع معين محدد. ومن هنا جاءت كلمة الكتاب وهو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى محمد ﷺ وحيا، والتي جمع فيها نبوته ورسالته معاً.

فعندما تأتي لفظة «كتاب» في مواضيع أم الكتاب كقوله: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾. (البقرة ١٨٣). فهذا يعني أن الصوم هو أحد المواضيع التعبدية التي فرضها الله عليكم كما فرضها على الذين من قبلكم، وقوله: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾. (النساء ١٠٣) أي أن الصلاة هي أحد المواضيع التعبدية التي تؤدى في أوقات محددة سلفاً، وهي (أي هذا الكتاب «الموضوع التعبدي») مؤلف من عناصر الطهارة والوضوء والقيام والركوع والسجود.. الخ أي أن مجموعة هذه المواضيع بعضها مع بعض تؤلف كتاب الصلاة.

أما عندما تأتي لفظة «كتاب» في القرآن فهي تعني مجموعة الشروط الموضوعية التي إذا اجتمعت بعضها مع بعض يخرج منها ظاهرة موضوعية ما.

هكذا يجب أن نفهم كلمة «كتاب» عندما تأتي في القرآن، فمثلاً كتاب الموت هو مجموعة الشروط الموضوعية بحيث إذا اجتمعت بعضها مع بعض «كتبت» وقع الموت لا محالة. وكذلك كتاب النصر وهو مجموعة الشروط الموضوعية التي إذا اجتمعت بعضها مع بعض وقع النصر، وكذلك كتاب الهزيمة.

وعندما حاضت عائشة رضي الله عنها عند خروجها مع النبي ﷺ إلى الحج فقال لها النبي ﷺ «مالك أنفست؟ قالت: نعم. فقال لها النبي ﷺ: إنّ هذا أمر كتبه الله على بنات آدم». هنا سمى الدورة الشهرية للمرأة كتاباً أي هو إحدى الظواهر الطبيعية للمرأة. وإذا أردنا أن ندرس كتاب الحيض فعلينا أن نراجع الطب النسائي لمعرفة تفاصيل هذا الكتاب.

إن علاقة الإنسان بكتب الطبيعة والتي هي «القدر» هي علاقة دراسة ومعرفة، فكلما زادت معلومات الإنسان عن كتاب الموت استطاع أن يؤجل وقوعه ولكنه لا يلغيه. بعد هذه المقدمة لندخل إلى صلب البحث:

الفرع الأوَّل

الأعمار:

لنقارن بين الآيتين التاليتين:

١ ـ ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الأُخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾. (آل عمران ١٤٥).

٢ ـ ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا الله قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾. (النساء ١٠٣).

الآية الأولى في آل عمران هي من القرآن «نبوة» أمّا الآية الثانية من سورة النساء فهي من أم الكتاب «رسالة» وقلنا إن النبوة فيها قوانين القدر، والرسالة فيها القضاء الإنساني: فعندما قال إن الموت كتاب مؤجل أي إن كتاب الموت هو مجموعة الشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت، وإن الموت مؤجل حتى تتحقق شروط هذا الكتاب. وعندما يدرس الإنسان كتاب الموت وتزيد معرفته به يستطيع أن يؤجل هذه الشروط ويطيل الأعمار. فمثلاً عندما تقدم طب الأطفال والنظافة العامة، خفت وفيات الأطفال بشكل ملحوظ وألغيت بعض الأمراض السارية. وعندما تقدم طب القلب والعمليات الجراحية أصبحت فرص النجاة من أمراض كانت سابقاً لا أمل من النجاة منها كثيرة، وهذا ما أدى إلى ارتفاع متوسط الأعمار في هذا المضمار، فكلما زاد تقدم البلد في الطب وفي النّظافة وفي تطبيق قواعد السلامة في العمل وفي الحياة العامة، ارتفع متوسط الأعمار فيه، لذا قال عن الموت ﴿**كِتَاباً مُؤَجَّلاً**﴾. أما إذا اجتمعت الشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت فالأجل لا محالة حاصل، ولذلك قال: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾. (الأعراف ٣٤)، ولكنه ربط أي أجل بكتاب بقوله: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾.

(الرعد ٣٨). أي ان الواقع الحتمي لأي حدث «أجله» لا بد أن يسبقه كتاب هذا الحدث وهو مجموعة الشروط الموضوعية التي تؤدي حتماً إليه والتي تخضع للدراسة من قبل الإنسان فكلما زادت معرفة الإنسان بالكتب الطبيعية زادت امكانيته لتسخيرها لمصلحته والمناورة بها وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أن كل شيء له كتاب بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾. (النبأ ٢٩). أما الآية الثانية من سورة النساء فهي من أم الكتاب وهي من قضاء الإنسان لذا قال عنها أي الصلاة هي من المواضيع التي تؤدى في أوقاتها المحددة والمعروفة سلفاً. لذا فإن كتاب الصلاة هو من أم الكتاب وكتاب الموت هو من القرآن فالأول كتاب قضاء والثاني كتاب قدر.

من هذا المنطلق نفهم أن أعمار الإنسان غير ثابتة. بل متغيرة لقوله: ﴿كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾. وجاء هذا البلاغ بشكل صريح في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. (فاطر ١١). لاحظ في هذه الآية كيف صرح أن نقصان العمر أوزيادته لا تكون إلا في كتاب، أي أن هناك مجموعة من الشروط الموضوعية تؤدي إلى نقصان الأعمار، وأخرى تؤدي إلى زيادتها، وما اختصاص علم الطب إلا في هذه الكتب، وإن الأموال المصروفة على الأبحاث الطبية في العالم لا تصرف هدراً وبدون فائدة لأن هذه الأموال تصرف على البحث في شروط طول العمر وقصره. أما ماجاء من اللف والدوران في بعض كتب التفسير بأن الضمير في «ينقص من عمره» تعود على شخص آخر فهذا ما لا تحتمله اللغة لأنه لو كان يريد ذلك لقال «ولا ينقص من عمر آخر» ولكن الفكرة المسبقة عن الأعمار وأنها ثابتة أدت إلى هذا المخرج الساذج.

لقد آن لنا نحن المسلمين أن نفهم أنّ الأعمار غير ثابتة، وآن لأطبائنا أن يفهموا أن الأعمار غير ثابتة ويتحملوا مسؤولياتهم الكاملة تجاه المرضى، وآن للمسؤولين في البلاد العربية والإسلامية أن يفهموا ذلك ويتحملوا مسؤولياتهم تجاه حياة الناس في دولهم.

إن عدم ثبات الأعمار يوضح لنا لماذا كانت عقوبة القاتل هي القتل، لأن القاتل قد نقص من عمر المقتول فكانت عقوبته إنقاص عمره. وإن عدم ثبات الأعمار يوضح لنا لماذا أعز الله الشهيد وأعطاه المرتبة العالية، لأنه تبرع بأغلى ما

عنده وهو الحياة، ولأنه وافق طوعاً على إنقاص عمره في سبيل الله. وهذا أيضاً يبين لنا لماذا كان النبي ﷺ من أحرص الناس على حياة أصحابه وعلى حياة العرب وكان يعدهم بأجر الشهادة عند الله، ولكنه لم يأمر أحداً منهم بأن يذهب في مهمة انتحارية لقتل نفسه، ونرى هذا أيضاً في تحريم الله تعالى للانتحار بأمره ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. (النساء ٢٩). ونرى أيضاً كيف أجل الهلاك على قوم يونس بقوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. (يونس ٩٨).

لنشرح الآن قوله تعالى في الآيات التالية:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾. (التوبة ٥١). إن هذه الآية تفهم في ضوء قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾. (النبأ ٢٩). هذا يعني أن كل شيء في الطبيعة عبارة عن شروط مجتمعة بعضها مع بعض «كتب». فلا يمكن لأي إنسان أن يصيبه شيء إلا من خلال هذه الكتب. فإذا مرض فإنه لن يمرض إلا بمرض من الأمراض الموجودة في الطبيعة والموجودة ضمن الشروط التي يعيشها. أي تنطبق عليه، لذا وضع ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾. جمعاً ولم يضعها مفردة. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. (الحديد ٢٢).

- ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. (الحديد ٢٣). في هاتين الآيتين يتبين أن كل المصائب التي تحصل في الأرض من زراعة وأملاك وهلاك دول وقيامها والزلازل والمصائب التي تحصل في الأنفس لا تكون إلا في كتاب، أي من خلال الشروط الموضوعية الموجودة فعلاً. ففي حالة الهزيمة مثلاً، فهذا يعني أن هناك شروطاً موضوعية وجدت نتج عنها الهزيمة «كتاب الهزيمة»، وفي حال النصر يعني وجود شروط موضوعية اجتمعت مع بعضها أدت إلى النصر «كتاب النصر». وبالتالي فيجب على المنتصر أن لا يفرح بنصره، وعلى المهزوم أن لا ييأس من هزيمته بحيث إذا درسا كتاب النصر وكتاب الهزيمة فيمكن أن يتبادلا الأدوار، فالمنتصر يمكن أن يهزم والمهزوم يمكن أن ينتصر لذا قال: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

أما قول النبي ﷺ «إِنَّ أَحَدَكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطنِ أمِهِ اربعين يوماً نطفة، ثم

يكـون عَلَقَـةً مثـل ذلـك، ثم يكـون مُضْغَـةً مثل ذلك ثم يُرْسَلُ إليه المَلَكُ فينفخُ فيهِ الـروحَ ويُؤْمَـرُ بأربـعِ كلمـاتٍ بِكَتْبِ رزقـهِ وأَجَلِهِ وعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أوسعيدٌ. . إلى آخر الحديث» «انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٦» إن قول النبي هذا يبين لنا الأمور التالية:

١ ـ ان الروح ليس لها علاقة بالحياة لأن الملك عندما ينفخ الروح في الجنين وهـو كائن حي، فالحيـوان المنـوي كائن حي والبـويضـة كذلك وبعد اللقاح يحصل التكـاثـر، وهـذه كلهـا ظواهـر كائن حي، أما الروح فهي شيء آخر تماماً وليست سر الحياة، كما سبق لنا أنْ بَيَّنَّا.

٢ ـ بعـد أن يتحـول الكـائن البشري في الرحم إلى كائن إنسانٍ يبدأ التسجيل عليه في ثلاثة فروع:

آ ـ تسجيل الحياة العضوية أثناء الحياة «تجميع وهذا يعني يكتب».

ب ـ تسجيل الأعمال حين وقوعها.

ج ـ تسجيل الأرزاق حين وقوعها.

وبعـد أن يمـوت ينتهي عمـره ورزقـه وعمله فيمكن أن يعمل له كشف بأعماله فتظهر نتيجة ذلك الكشف بأنه شقي أم سعيد.

إنّ هذا الحديث متطابق تماماً مع النص القرآني، فقد بَيَّنَّا أنّ الروح في النص القـرآني ليست سر الحيـاة، وأن أعمـال الإنسـان في النصّ القرآني إنّما تسجل عليه حين وقـوعهـا لا قبـل وقـوعها وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّـا كُنَّـا نَسْتَنْسِـخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (الجـاثيـة ٢٩). وقـوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُـونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. (الانفطـار ١١و١٢) فنحن نعلم أن النسخ لا يكون إلا من أصـل، فأصـل الأعمـال هو أعمـالنا نحن، أي النسخة الأصلية لأعمالنا هي أعمـالنـا حين وقـوعهـا وحين نقـوم بهـا يؤ خـذ نسخة عنها «صوت وصورة» لذا قال: ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾. لقـد فهم كثيـر من النـاس هذا الحديث فهماً معاكساً تماماً حيث ظنـوا أن الجنين في بطن أمـه يكتب عليـه سلفـاً عمـره ورزقـه وعمله وشقي أو سعيد. لقد أخطأوا هنا بفهم كلمة «كتب». وقد أكدت الآيات التالية أن الأساس هو أعمالنا والله ينسخها ويجمعها لنا حين وقوعها وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّـالِحَـاتِ وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْـرَانَ لِسَعْيِـهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾. (الأنبياء ٩٤). وقوله:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. (يونس ٢١). وقوله: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾. (مريم ٧٩). هنا لاحظ قوله: (لَهُ كَاتِبُونَ، سَنَكْتُبُ، يَكْتُبُونَ) كلها للدلالة على أن أساس الأعمال هو نحن وتسجل علينا وتجمع وتصنف حين وقوعها.

الفرع الثاني

الأرزاق:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. (الذاريات ٢٢).
﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. (الزخرف ٣١).
﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. (الزخرف ٣٢).

لقد ظن الكثير أن أرزاق الناس محددة سلفاً. هذا صحيح إذا فهمناها على معنى الجمع الكلي الاحتمالي وغير صحيح إذا فهمناها على معنى الإفراد. فإذا فهمناها على معنى الجمع فهذا يعني أن أرزاق الناس لا تأتي إلا من خيرات الطبيعة ومن العمل، هذان هما المصدران الوحيدان للرزق لقوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. (يس ٣٥). هنا «ما» اسم موصول بمعنى الذي، أي والذي عملته أيديهم.

أما خيرات الطبيعة من طعام وشراب وأنعام فأساسها الماء لذا سمي ماء المطر «الرزق» لقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (الجاثية ٥). لاحظ كيف سمى الماء من السماء رزقاً، أما قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾. بمعنى والذي توعدون، فإن كل وعود رب العالمين تأتي من السماء لقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾. (السجدة ٥).

أمـا قولـه تعـالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَـا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . الآية﴾ . فهذه الآية تعطينا قواعد التنظيم الاجتماعي المتحضر بأن الناس تمارس عملاً واحداً في معـاشهـا فهناك مجال الزراعة وهناك مجال الصناعة وهناك مجال الخدمات، كل هذه الأعمال هي مجال الحياة ولا خروج عنها لذا قال: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ . وهنـا جاء مفهـوم التسخيـر: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضَـاً سُخْرِيَّاً﴾ . فالذي يزرع مسخر لإطعـام الـذي يعمـل في المصـانـع والطبيب مسخـر لكي يعـالـج العامل والفلاح، والعامل مسخر لكي ينتج للفلاح والطبيب، والمعلم مسخر لكي يعلم أبناء هؤلاء . . وهكـذا دواليـك حيث لا يمكن لأي تجمع حضاري متقدم أن يعيش إلا على أساس تخصص المهن وطـرق المعـاش بحيث أن كل صاحب عمل مسخر لخدمة الباقين، وقد أكدنا أن التسخير لا يكون دون مقابل أي أن السخرة هي عمل له مقابل لذا قال: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً سُخْرِيّاً﴾ . أي أن هذه الآية ليس لها علاقة بالتحديد المسبق لأرزاق الأفراد كل على حدة. أما التحديد المسبق للرزق فهو الطبيعة وخيراتها وعمل الإنسان ثم إنه في عمل الإنسان هناك القسمة في المهن بين الناس التي تعتبر قانوناً لا مناص منه .

أمـا قولـه تعـالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَـلْ لَهُ مَخْرَجاً . . الآية﴾ . (الطلاق ٢) . ﴿وَيَـرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَـوَكَّـلْ عَلَى اللهِ فَهُـوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ . (الطلاق ٣) . فعلينا هنا أن نعرّف التقوى أولاً، فالتقوى الاجتـماعيـة هي اتبـاع وصـايـا أم الكتـاب حصـراً . ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيـماً فَاتَّبِعُـوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّبُـلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . (الأنعـام ١٥٣) . هذه هي الـوصية العاشرة في الفرقان. فعندما يتبع الإنسان الوصايا فإن الله يسهل له عمله ورزقه ولكن هذا التسهيل لا يكون إلا من خلال الكتب أي من خلال الشـروط المـوضـوعيـة التي يعيشهـا هذا الإنسان لا من خارجها أي من خلال المقدرات الموجودة فعلاً، لذا أنهى الآية بأهم شرط بقوله ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرَاً﴾ . فإذا أراد الله أن يرزق إنسـانـاً يعمـل في حقـل الهنـدسـة المـدنيـة «كتـاب الهنـدسـة» فلا يرزقـه من حقـول القمح والبطاطا إلا اذا غير مهنته إلى حقل الزراعة «كتـاب الـزراعـة» . أي عنـدما يريد الله سبحانه وتعالى أن يرزق إنساناً ما يجعل كل الظروف الموضوعية التي يعيشها تعمل لصالحه. والله أعلم .

الفرع الثالث

الأعمال:

ماهي الأعمال؟ وهل أعمال الإنسان مقدرة عليه سلفاً؟ وماهو المقدر عليه سلفاً من أعماله؟ وماهو الشيء المفتوح؟ قبل أن نخوض في هذا البحث علينا أن نعرف المصطلحات التالية:

«العمل»، «الفعل»، «الصنع»، «الكسب»:

ـ **العمل**: هو حركة واعية يقوم بها الإنسان على وجه العموم (WORK).

ـ **الفعل**: هو عمل معرف محدد (do) فنقول «ضرب» فعل ماضٍ أي عمل معرف بالضرب، و«أكل» فعل ماضٍ أي عمل معرف بالأكل، ولا نقول عمل ماضٍ. فإذا أخذنا كل آيات الكتاب المذكور فيها «فعل وعمل» رأيناها لا تخرج عن هذين المعنيين. فالله سبحانه وتعالى يعلم ماذا يفعل فقال: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾. (البروج ١٦). ولم يقل عمال لما يريد. وعندما تسجل الملائكة أعمال الإنسان فإنها تعلمها وتسجلها لذا قال: ﴿**كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾. (الانفطار ١١، ١٢). وعندما كسر إبراهيم الأصنام وجاء قومه يسألونه عمن كسرها: ﴿**قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا**﴾. (الأنبياء ٥٩). كانوا يسألون عن الكسر فأجابهم إبراهيم: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ**﴾. (الأنبياء ٦٣). أي كسره. وعندما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه: ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾. (الصافات ١٠٢). فأجابه ابنه قائلاً: ﴿**قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾. (الصافات ١٠٢). هنا قال «افعل» أي اذبح.

وعندما أمر الله النبي ﷺ بتبليغ الرسالة: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾. (المائدة ٦٧). هنا قال: ﴿**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ**﴾. أي لم تبلغ.

وعندما قال: ﴿**وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾. (الأنعام ١١٢). هنا جاء قوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ**﴾. تعليقاً على

قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. وعندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾. (البقرة ٢٧٨، ٢٧٩) هنا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾. أي لم تذروا ما بقي من الربا، أي جاءت لشيء محدد معرف.

وبما أن الله يعلم أفعال الإنسان تحديداً عندما يقوم بها فقد قال: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. (النحل ٩١) هنا جاءت معرفة الله بأفعال الإنسان بصفتين: الصفة الأولى وهي إثبات المعرفة بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. والثانية نفي الجهل بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (النمل ٩٣) ولو قال «ليس الله بغافل عما تفعلون» فالفعل أصلاً معرف محدد فلا داعي أن يقول ليس بغافل ولا تأتي الصفة قبلها إلا بصيغة يعلم. وبما أن العمل منكر أي على وجه العموم لا التحديد جاءت الصيغة قبله بنفي الجهل بقوله تعالى: ﴿ليس بغافل﴾. ولا نجد في الكتاب أبداً صيغة «وليس الله بغافل عما تفعلون».

أما قوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. (النمل ٨٨). فالخبرة تسبقها معرفة، أي أن الخبرة معرفة وممارسة معاً لذا نقول إن الله عليم خبير. ولا نجد في الكتاب أبداً صيغة «ان الله يعمل ما يشاء» بل نجد صيغة ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. (الحج ١٤)، وصيغة ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾. (ابراهيم ٢٧) لأن إرادة الله وأفعاله كلها معرفة له. فعندما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾. (الكهف ١٠٧) لم يحدد ماهي الصالحات، قالها على وجه العموم لأن الصالحات متغيرة مع تغير الزمن، وعندما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾. (الزلزلة٧، ٨) قالها على وجه العموم لأنه لو قال «ومن يفعل مثقال ذرة خيراً يره» لقالت له العرب ماهو الفعل الذي إذا فعلناه لكان مثقال ذرة من الخير أي لوجب عليه تعريفه تحديداً. ولو قال «ان الذين آمنوا وفعلوا الصالحات» لأتبعها بتحديد الصالحات حصراً، أو لسأله العرب ماهي هذه الصالحات؟ ومثال على ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. إذ أتبعها مباشرة بتحديد هذا الفعل بقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾. حتى آخر السورة. وهكذا نرى عندما يقول ﴿عَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ﴾. تأتي على وجه العموم لا على وجه الخصوص دون أن تعرف ماهي هذه الصالحات، لأنها متغيرة حسب الزمان والمكان وتطور التاريخ فيبقيها دون تعريف.

فالعمل عام، والفعل خاص ومعرف. فنقول إن زيداً من الناس يعمل نجاراً ولا نقول يفعل نجاراً، فيقوم بالأفعال التالية: ينشر الخشب ويدق المسامير ويلصق الألواح الخشبية بعضها ببعض. أي أن العمل بشكل عام والعمل الإنتاجي بشكل خاص يمكن أن يقسم إلى أفعال أولية معرفة كل على حدة.

الآن بعد أن عرفنا الفعل والعمل نرى أن حالة إثبات المعرفة لله سبحانه وتعالى جاءت في الكتاب على ثلاث حالات:

- **الحالة الأولى:**

حالة إثبات المعرفة على وجه الخصوص أي جاءت المعرفة للحدث المعروض في الآية وقد جاءت على وجهين:

آ - تقديم العلم على الفعل:

- ﴿إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. (النحل ٩١).
- ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. (النمل ٨٨) «الخبرة = العلم + الممارسة».
- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. (الشورى ٢٥).
- ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. (الأنعام ١٥٩).
- ﴿إِنَّ الله عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾. (يونس ٣٦).

ب - تقديم الفعل على العلم:

- ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾. (النساء ١٢٧).
- ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ﴾. (البقرة ٢١٥).
- ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله﴾. (البقرة ١٩٧).

هنا قدم الفعل على العلم بصيغة واحدة فقط هي ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾. حيث ذكر الخير في حالة التبعيض في بداية الآيات، وبما أن علم الله يحمل كل الاحتمالات وضع العلم بعد صيغة «من خير».

- **الحالة الثانية:**

حالة إثبات المعرفة على وجه العموم أي أن المعرفة لم تقتصر على الأحداث

المذكورة في الآية بل معرفة عامة كاملة وجاءت في صيغتين:

آ ـ حالة تقديم العلم على العمل: وقد جاءت هذه الصيغة في الكتاب /٣٦/ مرة بالأشكال التالية:

- ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (آل عمران ١٥٣).
- ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. (البقرة ٩٦).
- ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. (يوسف ١٩).
- ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾. (آل عمران ٩٨).
- ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾. (النور ٦٤).
- ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. (الأعراف ١٢٩).
- ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (الجاثية ٢٩).

ب ـ حالة تقديم العمل على العلم: وقد جاءت هذه الصيغة في الكتاب /٣٧/ مرة بالأشكال التالية:

- ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. (البقرة ١١٠).
- ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. (البقرة ٢٣٤).
- ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾. (يونس ٦١).
- ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. (هود ٩٢).
- ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. (المؤمنون ٥١).

ـ الحالة الثالثة:

حالة نفي الجهل جاءت حصراً على وجه العموم أي وردت كلمة «عمل» ولا نجد في الكتاب صيغة «فعل» مع نفي الجهل وذلك لنفي الجهل على العموم لا لنفي الجهل بالموضوع المذكور بالآية ولو جاء نفي الجهل مع «يفعلون» لنفي جهله في الفعل المعرف مع زمن حدوثه بالآية فقط مع إمكانية جهله بمواضيع أخرى وفي أزمنة أخرى:

- ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (البقرة ٧٤).
- ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (البقرة ٨٥).
- ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (البقرة ١٤٩).
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. (الأنعام ١٣٢).

- ﴿وَمَا الله بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (آل عمران ٩٩).
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (هود ١٢٣).
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (النمل ٩٣).
- ﴿وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ الله لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (فصلت ٢٢).
- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. (ابراهيم ٤٢).

إرادة الله وأفعاله كلها معرفة له:

إن إرادة الله وأفعاله كلها جاءت في صيغة المعرف على وجه الخصوص بالنسبة له سبحانه وتعالى لذا استعمل فيها صيغة الفعل لا العمل:

- ﴿وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. (البقرة ٢٥٣).
- ﴿كَذٰلِكَ الله يَفْعَلُ مَايَشَاءُ﴾. (آل عمران ٤٠).
- ﴿مَايَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾. (النساء ١٤٧).
- ﴿وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾. (ابراهيم ٢٧).
- ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾. (الأنبياء ٢٣).
- ﴿إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. (الحج ١٤).
- ﴿إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. (الحج ١٨).
- ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. (هود ١٠٧).
- ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. (البروج ١٦).
- ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾. (النساء ٤٧).
- ﴿لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾. (الأنفال ٤٢).
- ﴿لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾. (الأنفال ٤٤).
- ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾. (الإسراء ٥).
- ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾. (الاسراء ١٠٨).
- ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾. (الأحزاب ٣٧).
- ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾. (المزمل ١٨).

ـ شرح قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾. (يس ٧١).

هنا لو قال «مما فعلت أيدينا أنعاما» فهذا يعني أن المخاطب وهو الإنسان يعلم كل الأفعال المتتالية والمتوازية المعرفة التي تمت في خلق الأنعام ابتداء من أول خلية حية حتى الوصول إلى الأنعام أو لذكر ما هي كل الأفعال التي نفذت حتى تم خلق الأنعام، ولو كانت هذه الأفعال معرفة للمخاطب لاستطاع هذا المخاطب أن يخلق أنعاماً بنفسه. وهنا يجب أن نشرح كلمة ﴿أَيْدِينَا﴾: فالأيدي جاءت من فعل «أيد» ومنه جاءت الأيدي والأيادي والتأييد، فنقول إن فلانا أيّد فلانا في موقفه فهذا يعني أنه وافقه وبالتالي مد له يد المساعدة «دعمه» وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. (الفتح ١٠). أن الله سبحانه وتعالى أيد الصحابة في بيعة الرضوان في موقفهم هذا ومد لهم يد المساعدة وكذلك نفهم قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. (الذاريات ٤٧). فهنا الآية تدل على القدرة والحفظ على وجه العموم لا الحصر.

وإذا جاءت من «يد» فهي تعني المنعة والقوة والإصلاح «ضرب بيد من حديد» أي ضرب بمنعة وقوة، أي اتخذ موقفاً منيعاً وقوياً.

ـ معنى فعل «صنع»:

إن الفعل صنع استعملت في الكتاب للدلالة على نتاج عمل كقوله لنوح ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. (هود ٣٧). وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. (المؤمنون ٢٧). وبما أن السحر كان مهنة أيام موسى قال: ﴿وَأَلْقِ مَافِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾. (طه ٦٩). وفي قوله عن داوود قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾. (الأنبياء ٨٠). وعن الطبيعة

التي هي من صنع الله قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. (النمل ٨٨). أما قوله تعالى عن قوم هود ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. (الشعراء ١٢٩). هنا بما أن قوم هود كانوا يبنون بيوتهم في الأماكن العالية لقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾. (الشعراء ١٢٨). والرِّيع هو المكان العالي، وبما أن هذا المكان العالي بحاجة إلى مياه فقد صنعوا أيضاً حفراً لتجميع المياه، سميت مصانع، وإلى الآن تستعمل في بعض البلاد العربية كلمة «مصنع مياه» أي خزان ماء. وعندما قال: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (النور ٣٠). ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (فاطر ٨). ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ﴾. (العنكبوت ٤٥). فالصناعة تحتاج إلى علم وخبرة ومؤلفة من مجموعة من الأفعال المحددة لإنتاج شيء ما لذا رافقَهُ: عليم وخبير بما يصنعون فوضع «عليم وخبير» قبل «يصنعون» لا بعدها لأنه قالها على وجه الخصوص لا على وجه العموم. أما قوله لموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾. (طه ٣٩). حيث تربى في بيت فرعون وقام فرعون بتربيته وتنشئته والله يرعاه قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ لذا فقولنا «الجامعة هي مصنع العلماء» يعتبر قولاً عربياً صحيحاً أي لتحويل الجاهل إلى متعلم.

ولنشرح الآن الآيتين التاليتين:

١ - ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. (النحل ١١٢). إذ أن آيات الأمثال هي من القرآن دائماً لقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾. (الكهف ٥٤). ففي هذه الآية قانون موضوعي، هذا القانون هو أن كل مجتمع إنساني مستقر «قرية» كفر بأنعم الله فهناك عقابان هما نتيجة صنع الإنسان نفسه، هنا «الباء» في «بما» هي باء الاستعانة كقولنا «ضربتك بيدي» العقاب الأول هو الجوع، والعقاب الثاني هو الخوف. وسببهما هو صناعة الإنسان نفسه. فإذا نظرنا الآن مثلاً إلى العالم رأينا أنه يصنع القنابل الذرية وحاملات الطائرات والغواصات والصواريخ فإذا عرفنا الآن أن حاملة طائرات واحدة مع ملحقاتها تكلف حوالي / ٢٠ / مليار دولار لعرفنا النفقات الهائلة الأسطورية التي تنفق على سباق التسليح. هذا السباق ينتج عنه مشكلتان:

ـ الأولى : الجوع حيث أن هذه النفقات تذهب على حساب متطلبات الإنسان ورفاهيته.

ـ والثانية : الخوف حيث أن هذه الأسلحة تسبب الدمار الهائل فأصبحت تشكل كابوساً على الإنسان، وهذه الأسلحة هي من صناعة الإنسان أصلاً أي من نتاج عمله لذا قال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وهذا أيضاً يدل على أن القرية عندما تكفر بالله لا يقطع الله عنها الرزق من ماء وشجر وزراعة.. الخ، لأنه ربها. فسباق التسلح هو عذاب الله على الكفر بنعمته في العصر الحديث. فعلى الإنسانية المؤمنة أن تسعى لوضع حد لهذا العذاب. إن مقياس إخلاص الإنسان تجاه الإنسانية هو موقفه من سباق التسلح وهدر المليارات من النقود على آلة الرعب وسبب الجوع. وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. (هود ١٥). ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (هود ١٦). هذه الآيات تقول للذين لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ويظنون أنها نهاية المطاف وأنه لا آخرة بعدها فالله يوف إليهم أعمالهم فيها ولا يبخسهم فيها شيئاً. أما في الآخرة فلا تفيدهم كل صناعاتهم المنتجة في الدنيا لذا قال: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾. يظن بعضهم أن الدنيا للكافر والآخرة للمؤمن! وهذا غير صحيح. فالدنيا للكافر والمؤمن على حد سواء، والمؤمن له ثواب الآخرة بالإضافة إلى الدنيا. أما الكافر فلا يوجد له ثواب في الآخرة.

٢ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. (الرعد ٣١).

تدل هذه الآية على أن مواضيع القرآن هي العلم فقط لذا قال ﴿قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. . الخ﴾ وإن العلم متاح لكل إنسان لذا قال عن القرآن: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾. هذه العلوم متاحة للمؤمن والكافر على حد سواء لذا قال للمؤمن إن قوانين الجدل هي قوانين موضوعية وإنه لا مناص من وجود الكفر والإيمان معاً وإن الكفر لا ينتهي والإيمان لا ينتهي بل هما في علاقة جدلية ما دامت الإنسانية موجودة.

أمـا الـذين كفروا فيصيبهم ﴿**بِمَا صَنَعُوا**﴾ فالباء هنا باء الاستعانة أي بصناعتهم التي هي نتـاج عملهم ستصيبهم ﴿**قَـارِعَـةٌ**﴾ وهي من فعـل «قرع» وهي الضربة القاصمة القـويـة ﴿**أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ**﴾ وهنا يجب أن نميز بين الدار والديار، فالدار هي قطعة من الأرض تسمى الوطن، فالأرض التركية هي دار الأتراك، أما الديار فهي أبنية لهـا جدران لذا قال ﴿**أَوْ تَحُـلُّ قَرِيبَاً مِنْ دَارِهِمْ**﴾ أي مجاورة لحدودهم وهذا المعنى جاء في قوم ثمـــود فهنـــاك فئتـان من النـاس في ثمـود، الفئـة الأولى تسكن البيـوت المنحوتة في الجبال وهذه البيوت لها أبواب وجدران ولكنّها دون نوافذ فهلك سكانها بالصيحـة «المـوجـة الصـوتيـة» لذا قال: ﴿**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ (هـود ٦٧). أمـا الفئـة الثـانيـة من الناس فكانت تعيش خارج البيـوت المنحـوتة في السهول ولا تؤثر فيها الموجة الصوتية وكانوا يعيشون على قطع من الأرض لهـا حدود فيمـا بينهـا لقـولـه: ﴿**تَتَّخِـذُونَ مِنْ سُهُـولِهـا قُصُـوراً**﴾. (الأعـراف ٧٤). والقصـور جاءت من «قصـر» أي أن إنساناً ما أخذ قطعة من الأرض ووضـع لهـا حدوداً وأصبحت هذه الأرض مقتصـرة له، وبدون أن يبني عليها مبنى له جدران فهؤلاء أهلكهم الله بالـزلـزال، لذا قال: ﴿**فَـأَخَـذَتْهُمُ الـرَّجْفَـةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾. (الأعراف ٧٨).

ـ الكسب:

هو المـردود الإيجـابي للعمـل لذا قال: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ.. الآيـة**﴾. (البقـرة ٢٨٦). أمـا الاكتسـاب فهـو المـردود السلبي للعمـل لذا قال عن الكسب لها وعن الاكتساب عليها.

الآن لنلخص معاني المفردات الأربع بالمفهوم الإنساني العاقل، لا بالمفهوم الطبيعي:

ـ **العمـل**: حركـة واعيـة يبـذلها الإنسان العاقل ويحمل معنى العموم هنا وقلنا الإنسـان العـاقـل لنميـزهـا عن العمـل النـاتج عن الحركة الميكانيكية للأجسام أي المعنى الفيزيائي البحت.

الفعـل: هوعمـل معـرف محـدد ويحمـل معنى الخصـوص «أكـل، شرب،

ضرب، نام».

- **الصنع**: هو نتاج العمل «أو نتاج تربية».
- **الكسب**: هو المردود الإيجابي للعمل.
- **الأجر**: هو ما يعطيه رب العمل للإنسان مقابل عمل هو للمأجور كسب.

فنقول إن زيداً من الناس يعمل نجاراً ويقوم بالأفعال التالية: يقطع الخشب ويدق المسامير ويلصق الخشب ثم يدهنه فيصنع كرسياً ويكسب نقوداً. ونقول ضرب زيد عمراً فاكتسب إثماً، فالضرب فعل والإثم اكتساب. فهل هذه المعاني تنطبق على الزراعة؟ لا تنطبق كلياً لأنه إذا قلنا إن زيداً من الناس يعمل في الزراعة فإنه يقوم بالأفعال التالية: يشق الأرض ويبذر البذار ويذر السماد ويقوم هو بعدة أفعال لكي تنتج الأرض المحصول فالإنسان يعمل في الأرض، والأرض هي التي تنتج المحصول لذا قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾. (الواقعة ٦٣ - ٦٤) فالحرث هو غلة الأرض الزراعية لا شق الأرض الزراعية، لذا فحرث الأرض هو كسب لمن عمل فيها وهو كسب. فالمزارع يقوم بالأفعال المذكورة لكي تنتج الأرض، لأن الأرض يمكن أن تنتج دون تدخل الإنسان كما نرى في الغطاء النباتي الطبيعي للكرة الأرضية وفي البحار. لقد ذكر تدخل الإنسان «بالعمل بالأرض وفي الحرث» لا في الزراعة نفسها. وأن مصطلح الزراعة والصناعة مفصولان عن بعضهما وهذا صحيح، فالإنسان يعمل في الزراعة ويجني الحرث، والأرض تنتج. ويعمل في الصناعة وهو ينتج لذا قال في سورة يس عن خيرات الأرض من النبات: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾. (يس ٣٥). هنا قال عن النبات: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ**﴾. ومن عمل الإنسان ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾. أي والذي عملته أيديهم.

لنشرح الآن لماذا فصل القول ولم يعتبره فعلاً حيث قال ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ**﴾. (الصف ٢)، أليس القول فعل يقوم به الفم واللسان والجهاز الصوتي؟ أقول لا ليس هذا بالقول، وإنما هو الكلام. فالكلام فعل وليس قولاً فعندما يتكلم الإنسان فيصدر أصواتاً هي الكلام وهذا الإصدار حقيقة موضوعية لأنه صوت وهذا ما نسميه بالنطق، فالنطق فعل وحقيقة لذا قال: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾. (الذاريات ٢٣) ولم يقل مثلما أنكم تقولون، فالنطق للكلمات

لا للأقـوال لذا قال سليمـان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾. (النمل ١٦) ولم يقل قول الطير.

أمـا القـول فهـو عندما تصل الكلمات إلى ذهن السامع فتتحول إلى معنى في الذهن فهذا المعنى هو القول، فالإنسان نطقه حق وليس من الضروري أن يكون قوله حقـاً. أمـا الله سبحـانـه وتعـالى فالقـول والـوجـود بالنسبـة له واحد لذا قال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، وإن الكون كله ماهو إلا عين كلمات رب العالمين لذا قال: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (يس ٨٢).

هل أعمـال الإنسـان محـددة سلفـاً؟ ومـا معنى قولـه تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. (الصافات ٩٦).

لاحـظ أنـه قال «ومـا تعملون» ليضعها على وجه العموم علماً بأن الأفعال هي أعمال معرفة.

ولنأخذ الآن أعمال الإنسان على العموم لنحولها إلى أفعال على الخصوص، ولكن بعد شرح معاني الأفعال التالية في اللسان العربي:

ـ خلق، سوى، جعل:

١ ـ خلق:

فعـل خلق في اللسـان العـربي له أصلان صحيحان، الأول يعني التقدير قبل التنفيـذ كقـولنا خلق الخياط القميص من القماش أي قدره قبل القطع. فعندما يأخذ الخياط قطعة القماش ويضع عليها علامات تبين الأكمام والصدر والظهر.. الخ قبل القص فهذا يعني أنه يخلق قميصاً، وهذا ما نقول عنه في اللغة المعاصرة «التصميم» فعنـدمـا نخلق سيـارة «نصمم» نخلق الاسطـوانـة والمكبس وكل قطع المحرك وبقية السيـارة، كل هذا الخلق يتم على المخططـات طبقـاً لقـوانين الميكـانيـك والتـرمـو دينـاميـك، فكـل ما تقـوم به السيـارة من عمـل هو طبقاً للتصميم الموضوع «الخلق» مؤلف من أفعال أولية موجودة في بنية التصميم، وعندما نقول خلق المهندس بيتاً أي وضـع له مخططـات معمـاريـة وإنشـائيـة وصحية وكهربائية قبل التنفيذ، فالله يخلق والإنسان يخلق، ولكن الله أحسن الخالقين كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ

﴿الْخَالِقِينَ﴾ وذلك لأنه بكل خلق عليم، فالله هو خالق السموات والأرض ولكن الخلق يمكن أن يكون منقولاً فليس من الضروري أن كل بيت يخلقه مهندس هو تصميم لا سابق له فإذا كان لا سابقة له فهذا يسمى الإبداع لذا قال: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. (البقرة ١١٧) أي أن السموات والأرض التي نراها حالياً ليس لها سابقة فالله هو خالق السموات والأرض وهو بديع السموات والأرض.

وهنا يجب أن نفهم بشكل واضح وجلي أن الخلق لا يعني الإيجاد من العدم كما يظن البعض فنرى أنه لا توجد آية واحدة في الكتاب تقول إن الخلق من العدم وإنما من شيء كقوله: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. (العلق ٢)، فهل العلق عدم؟! وقوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾. (ص ٧١). وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. (الأعراف ١٢) وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾. (القيامة ٣٨) وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾. (الفرقان ٥٤) وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾. (السجدة ٧). فعندما يذكر فعل خلق فإما أن يقول: من ماذا؟ كالآيات السابق ذكرها، أو لا يقول شيئاً كقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. (الأنعام ١). أما لماذا سميت بعض النواحي في السلوك الإنساني أخلاقاً وهي من فعل «خلق» هذا فلأن الإنسان في تصميمه «خلق» مهيأ لهذا السلوك فنقول: خلق سيء وخلق حسن، وجاءت في هذا المعنى «الخلاق» وهو ما يستحقه الإنسان نتيجة لسلوك معين فنقول أن زيداً من الناس خليق بكذا وكذا كقوله تعالى: ﴿مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾. (البقرة ١٠٢). وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. (القلم ٤). أما المعنى الثاني لفعل «خلق» هو التمليس فنقول صخرة خلقاء أي صخرة ملساء.

٢ ـ سوى:

وله في اللسان العربي عدة أصول صحيحة:

أولها: المساواة فنقول أن ٣ + ١ = ٤، ثلاثة مضاف إليها واحد تساوي الأربعة. وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾. (فصلت ١٠) أي أن الأرض تعطي أقواتها وخيراتها للذي يعمل فيها ويأخذها كافر أو مؤمن على حد سواء. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾. (البقرة ٦). وبما أن المساواة في المعادلة تكون في الوسط وعلى طرفيها حدود المعادلة فيستنتج منها المعنى الثاني وهو الوسط كقوله تعالى: ﴿فاطّلع فرآه في سواء الجحيم﴾. (الصافات ٥٥) هنا سواء الجحيم أي في وسط الجحيم.

أما المعنى الثالث فهو بعد التصميم نقوم بما نسميه بالتسوية فإن أي تصميم «خلق» يحتاج بعده إلى عملية تنفيذ فعلية لتحويل المخطط المخلوق إلى شيء واقعي منفذ على أرض الحقيقة لذا فإن أي تصميم يعقبه تنفيذ مباشر لذا قال: ﴿سبّح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوّى﴾. (الأعلى ١، ٢) فالخلق يعقبه تسوية ولاحظ أن «فاء» التعقيب والسببية جاءت بين فعلين «خلق، سوى».

والتسوية هي التنفيذ الكامل للتصميم بدون أي نقصان أو عيب فعندما نقول إن زيداً من الناس «إنسان غير سوي»: فيه عيب ونقص. وهكذا نفهم: ﴿فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾. (مريم ١٧) أي أن جبريل تمثل لمريم بصورة بشر سوي لا عيب فيه ولا نقص. ولم تلاحظ مريم أي شيء غير بشري. لاحظ قوله: ﴿بشراً سويّاً﴾. ولم يقل إنساناً سوياً للتأكيد على كمال الناحية الفيزيولوجية.

وعندما قال الله للملائكة عن خلق البشر أعقبه مباشرة بالتسوية بقوله: ﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. (ص ٧١، ٧٢) فلاحظ كيف أن الخلق هو التصميم الذي أعقبه التسوية «التنفيذ».

أما المعنى الأخير لعفل «سوى» فهو الاستقرار والتحكم كقوله تعالى: ﴿لتستووا على ظهوره ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه﴾. (الزخرف ١٣). فالاستواء على ظهور الأنعام هو عملية الاستقرار عليها، فيمكن للإنسان أن يركب على ظهر الجواد ثم يقع على ظهره أثناء التذليل. أما الاستواء فهو الاستقرار والتحكم وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿الرّحمن على العرش استوى﴾. (طه ٥).

٣ ـ جعل:

وتعني في اللسان العربي انتقالاً من حالة إلى حالة أو تغيراً في الصيرورة لشيء موجود فعلاً كقوله تعالى: ﴿إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون﴾. (الزخرف ٣). فهنا «جعل» تدل على أن القرآن كان موجوداً فأخذت منه نسخة مترجمة إلى العربية

لذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾. ولم يقل «إنَّا خلقناه» فالجعل يمكن أن يتم بتغيرات أثناء عملية التسوية أو بعدها كقوله عن أحد مراحل التسوية في الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾. (فصلت ١٠). أي أن الأرض كانت كرة ملتهبة سائلة وتجمد قسم منها وهو القشرة الخارجية لذا قال: ﴿رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾. وعندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. (البقرة ١٢٤) أي أن ابراهيم لم يكن اماماً للناس فأصبح اماما لهم، أي أضيفت له صفة صار بها إماماً للناس. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. (الأنبياء ٣٠) أي أن الماء يغير في صيرورة الأشياء من كائن غير حي إلى كائن حي وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾. (القيامة ٣٨، ٣٩) لاحظ كيف جاءت الأفعال الثلاثة متتالية «خلق، سوى، جعل» هنا جاء التصميم ثم التنفيذ ثم تغير من صيرورة إلى صيرورة أخرى.

ولنعد الآن إلى الموضوع الأساسي وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات ٩٦). ولنأخذ أعضاء الحركة عند الإنسان:

١ ـ **اليد**: تتألف من الكف والزند والذراع وفيها عدة مفاصل فإذا نظرنا إلى اليد من حيث البنية فنرى أن الأفعال التالية موجودة في تصميم هذه البنية «الخلق». فنرى أن الكف يحوي في بنيته «خلقه» على إمكانية الحركة باتجاهين متضادين، القبض والبسط وكذلك الأصابع مع مفاصلها تحتوي في بنيتها على مجموعة من الأفعال. وكذلك الذراع والزند يحتويان في بنيتهما على مجموعة من الأفعال، وكل هذه الأفعال الموجودة ضمن مجال حركتها البنيوي عبارة عن أضداد فاليد اليمنى واليد اليسرى أزواج والحركات ضمن اليد اليمنى واليسرى أضداد، فالقبض والبسط في الكف وعملية الكب والاستلقاء في الزند وعملية الرفع والتنزيل في الزند وفي الذراع وعملية الحركة إلى الأمام والخلف في الذراع.. وهكذا دواليك وكذلك الأرجل ففي بنيتها تحوي أفعالاً وتوجد فيها أفعال على شكل أضداد «الوقوف والمشي» وفي الحوض والأرجل «الجلوس والنهوض». وكذلك الأعين عين يمنى وعين يسرى «أزواج» فيها تدخل امكانية العمى والبصر «أضداد» والأذن فيها إمكانية الصمم والسمع واللسان فيه إمكانية البكامة والكلام والبلعوم فيه إمكانية التقيؤ والبلع.

فإذا أراد الإنسان أن يقوم بعمل ما على وجه العموم فإن هذا العمل يتألف من

مجموعة من الأفعال الأولية على وجه الخصوص وإمكانية هذه الأفعال موجودة في بنيته فلا يستطيع أي إنسان أن يمضغ الطعام برجليه ويمشي بأسنانه.

فكل أفعال الإنسان التي يقوم بها على وجه الخصوص للقيام بعمل على وجه العموم هي ممكنة التنفيذ في بنيته «خلقه» وعلى هذا فالإنسان لا يخلق ولا يستطيع أن يخلق أي فعل غير موجود في بنيته أوفي الطبيعة. فرب سائل يقول إن الإنسان صنع السيارة والصاروخ والغواصة والرافعة والطائرة والأدوية. أقول إن الإنسان صنع هذه الأشياء من قوانين موجودة في الطبيعة، فالإنسان صنع الطائرة نتيجة استيعابه لقوانين الطيران الموجودة فعلاً في الطبيعة والتي شاهدها أولاً من خلال الطيور والحشرات الطائرة لذا فقد سمى القرآن ظواهر الطبيعة ﴿آيات الله﴾. فالإنسان بعد أن عرف هذه الأفعال الموجودة بالإدراك الفؤادي أولاً، ثم بالتجريد العقلي «القوننة» وصل إلى ظاهرة الإبتكار والتخيل فقلد أفعال الطبيعة وأبدع فيها وسخرها لمصلحته «للإعمار أو الدمار» وابتكر آلاف الأدوات والتجهيزات الجديدة، لذا لم يقل أبداً في الكتاب «والله خلقكم وما تصنعون» بل قال: ﴿إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (فاطر ٨). وقال: ﴿إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (النور ٣٠). فكل ما ذكر سابقاً عن الأفعال ووجودها في الطبيعة هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الوعي الإنساني «حق» وهي تعتبر من قوانين القدر «الوجود».

والسؤال الذي يطرح نفسه: ماهو دور الإنسان في هذا وأين الخيار والحرية للإنسان؟ أي أين قضاء الإنسان؟ وما علاقة الإنسان بقوانين القدر القائمة في ظواهرها على الأضداد وفي ذاتها على المتناقضات الأزواج «التأثير والتأثر المتبادل»؟

الجواب هو أن العلاقة تتحدد حصراً بالمعرفة فعندما عرف الإنسان قوانين القدر في الدورة الدموية وفي دورة الدم في القلب والشرايين استطاع أن يقضي فيها وذلك بالعمليات الجراحية وبالتالي زادت حريته فيما يتعلق بهذا الموضوع. وعندما عرف قوانين الطيران استطاع أن يصمم الطائرة وينتجها وبالتالي ازدادت درجة حريته في التنقل، وعندما عرف قوانين الكيمياء زادت درجة حريته في اختراع الأدوية.. وهكذا دواليك، فالإنسان يتعلم ظواهر الطبيعة والأفعال المقدرة فيها لكي يمارس القضاء من خلالها حيث أن حريته تكمن فيهما معاً.

فالموت قدر والقتل قضاء ولولا الموت لما كان هناك قتل. ووجود إمكانية

الضرب باليد قدر والقيام بعملية الضرب قضاء وهذا نراه في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. (يونس ٥٦). «قدر إلهي». وقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾. (المائدة ٢٨) «قضاء إنساني».

فكلما زاد جهل الإنسان بالمقدرات زاد شعوره بالجبرية، فالإنسان يطلب الأشياء حسب معرفته لها، والذي لا يعرف شيئاً لا يطلب شيئاً لذا قال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾. (الأنفال ٢٢) فمثلاً كان الإنسان سابقاً يظن أن وجوده على الأرض وجود جبري، ولكن عندما عرف قوانين الجاذبية وقوانين الطيران والدفع الصاروخي تخطى هذه الجبرية فأصبح يخرج من الأرض ثم يعود إليها.

لنضع الآن تعريفاً للقضاء والقدر والحرية:

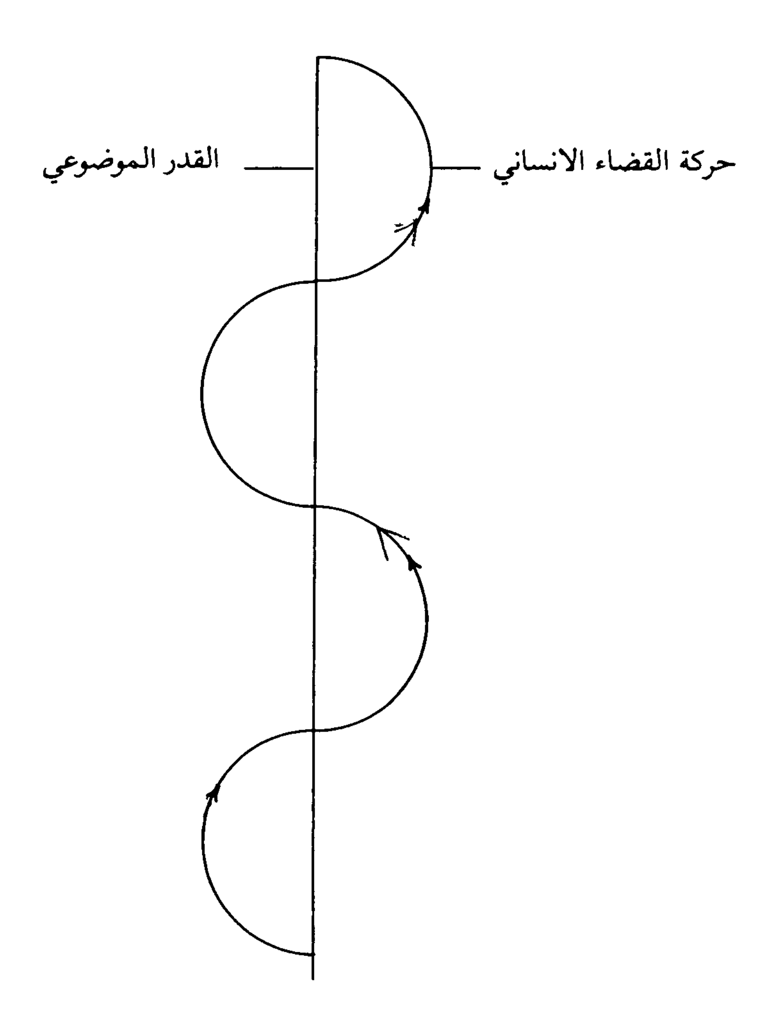
١ - القدر: هو الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها خارج الوعي الإنساني.

٢ - القضاء: هو ظاهرة تتمثل في السلوك الواعي «إرادة إنسانية» قائم على الحركة بين الأضداد، أي سلوك بين نفي وإثبات في ظواهر الوجود «القدر».

فالقضاء الإنساني المتحرك دائماً يتولد من القدر من خلال المعرفة المتحركة دائماً «والتي تعتبر المقادير أعلى شكل للتعبير عنها».

وبما أن المعرفة الإنسانية لظواهر الوجود متحركة دائماً إلى الأعلى وبالتالي فالقضاء الإنساني متحرك دائماً إلى الأعلى.

هذه التعاريف يمكن أن نمثلها بالشكل الرمزي التالي:



القضاء الإنساني صاعد إلى الأعلى ومحوره القدر والقوة المحركة هي المعرفة

فكلمـا زادت معـرفة الإنسان بالقدر زاد قضاؤه وبالتالي زادت حريته وانخفض مفهوم الجبرية عنده. فالقضاء دون قدر وهمٌ وأحلامُ يقظةٍ «لا موضوعية»، والقدر دون قضاء جهل ورجعية أو رجوع إلى المملكة الحيوانية.

من هذا التعريف للقضاء والقدر نستطيع أن نضع تعريفاً جامعاً مانعاً للحرية والتقدمية:

١ ـ **الحـريـة**: هي إرادة إنسـانيـة واعيـة دائمة الحركة بين النفي والإثبات في الأضداد «ظواهر الوجود».

المعرفة

الحرية = القضاء ⟵⟶ القدر

فالسؤال الآن: كيف بدأت حريـة الإنسـان «الـومضة الأولى للحرية»؟ بدأت هذه الـومضـة الأولى مع بداية المعرفة الإنسانية وهذه الومضة جاءت مع نفخة الروح وهي الحلقـة المفقـودة بين البشـر «المملكـة الحيـوانية» والإنسان وقد تم شرحها في مقال سابق.

ولنعبر عن هذا الانتقال بالمعادلات التالية:

هنا تنطبق على البشر قوانين

(في المملكة الحيوانية» البشر ⟵⟶ القدر

الوجود دون إرادة واعية

نفخة الروح «الحلقة المفقودة»

المعرفة «التمييزات»

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. (البقرة ٣١) بداية الإنسان أو «بداية الأنسنة». ⟵⟶ القدر

﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾. (طه ١٢١).

القضاء
الإنسان ـــــــــــ القدر
الإنسان يمارس حريته

من هذا التعريف نرى أن ظاهرة الحرية لها مركبتان: المركبة الأولى موضوعية وهي الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها. والمركبة الثانية ذاتية وجاءت من نفخة الروح وهي المعرفة التي نتج عنها إرادة واعية. فأول شيء مارسه آدم بعد المعرفة مباشرة هو الحرية، وكانت هذه الحرية في معصية أمر الله. لذا فإن الذي يطلب الحرية لا يطلب وهماً ولا يعيش في وهم، وان أحد الأسباب الرئيسية لمعاداة العرب للنبي ﷺ هو الجهل لذا كان النبي ﷺ يدعو بقوله «اللهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون».

أما التعريف القائل إنّ الحرية هي «وعي الضرورة» فهو تعريف ناقص، فوعي الضرورة لا يكفي لممارسة الحرية حيث أن هذا الوعي والذي أطلقنا عليه مصطلح المعرفة بالموجودات هو شرط لازم غير كافٍ لممارسة الحرية حيث قلنا إن الحرية ظاهرة وليست شيئاً. لذا فإنها تقوم على الأضداد. فحتى يمارس الإنسان حريته يجب أن يكون هناك مجال للاختيار بين ضدين أي مجال للنفي والإثبات وهنا يكمن سر جدل الإنسان في الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية. فحتى يتحقق جدل الإنسان في الفكر يجب أن يكون هناك الفكر والفكر المضاد والرأي والرأي المضاد «جدل غير متخاصم» وهذه الخاصية تعتبر أهم خاصية في المجتمعات الإنسانية الحرة المتحضرة.

وإذا سأل سائل: ماهي وحدة الفكر والفكر المضاد في المجتمعات المتحضرة؟ أقول: وحدتهما هي البحث عن الحقيقة في المعرفة والوطنية في السياسة والاقتصاد.

٢ ـ التقدمية: بما أن المعرفة الإنسانية هي معرفة صاعدة إلى الأعلى وغير ثابتة وتحمل مفهوم النسبية، لذا فإن التقدمية هي الانتقال من درجة في الحرية كيفاً وكماً إلى درجة أعلى في كل نواحي الحياة. وإذا فقدت هذه الخاصية في رفع الحرية كما وكيفا للناس فقد فقدت أهم مبررات وجودها.

الآن لننتقل إلى تصحيح بعض الأخطاء الشائعة :

١ ـ إنه من الخطأ الفاحش عندما نعجز عن تفسير ظاهرة ما ، كأن يقع إنسان ما من على السطح ويموت فنقول مات قضاء وقدراً . لأن قولنا مات قضاء وقدراً يعني أنه قتل عمداً من قبل شخص ما لا نعرفه والصحيح أن نقول مات قدراً . وكما قلت كلما زاد جهل الإنسان بالمقدرات زاد الجانب الجبري «القدري» في قناعاته وتصرفاته ، لذا كلما زاد جهل الناس زاد تفسيرهم الجبري للأحداث وهذا شائع جداً في الوطن العربي حيث يرد كثير من الناس كثيراً من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والمرضية بقولهم «هذا مكتوب علينا» ويظنون أن هذه القناعة هي جزء أساسي من العقيدة الإسلامية وهي ليست أكثر من سذاجة .

٢ ـ كلما زاد جهل الإنسان بقوانين الطبيعة والإجتماع والاقتصاد زاد ربطه للأحداث بمفهوم الصدفة وأكبر جهل يمكن أن يرتكبه إنسان هو أن يعزو ظهور الحياة على الأرض وظاهرة الإنسان إلى الصدفة .

٣ ـ إن الإنسان مخير وحر في اختياره لكل أفعاله من خلال عالم الحقيقة لا الوهم والناس ولدوا أحراراً مسلمين والذي يقيد الإنسان في اختياره هو أمران :

١ ـ المرجع الأخلاقي والمعرفي والجمالي والذي يعتبر المرجع القانوني امتداداً له .

٢ ـ الإرهاب «الإكراه» .

فالأمر الأول يقبل به الإنسان العاقل المتحضر من وازع وجداني وإنساني بحت «التقوى» ومن وازع بشري بحت «الخوف من العقوبة» . أما الأمر الثاني فلا يستعمل إلا مع البهائم .

ـ الخلاصة :

إن أساس العقيدة الإسلامية فيما يتعلق بالأعمال والأرزاق والأعمار بالنسبة للإنسان هو أنّ الله لم يحدد سلفاً عمر الإنسان ورزقه وعمله ، وإنما حدد سلفاً القوانين الموضوعية «الكتب» التي من خلالها يولد الإنسان ويحيا ويموت «يطول عمره أو يقصر» والقوانين الموضوعية التي من خلالها يرزق الإنسان ، والقوانين

الموضوعية التي من خلالها يعمل الإنسان. والإنسان حر في اختياره من خلال هذه القوانين، ولا يحد اختياره إلّا أمران: المرجعية المعرفية والأخلاقية والجمالية والعرفية أو الإكراه. وإن تدخل الله في قضائه في هذه الأشياء هو تدخل ظرفي «المشيئة» مرهون بموقف الإنسان وبالظروف الموضوعية التي يوجد فيها: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. (الرعد ١١).

وإن قضاء الله هو إمّا أمر ضد النهي فأعطى فيه القانون الأخلاقي والتشريعي «الذاتي». أما قضاؤه من خلال أمر نافذ وغير مبرم منذ الأزل إنما هو ظرفي لذا قال: ﴿إِذَا أَرَادَ﴾ وتدخله من خلال كلماته، وكلماته هي الوجود، والقوانين الموضوعية للأشياء خارج الوعي. وبما أن الله كامل المعرفة فهو الحر المطلق بهذه القوانين يتدخل فيها لمصلحة الإنسان أو ضده. وبما أن الإنسان ناقص المعرفة فهو ذو تصرف نسبي بهذه القوانين، وبالتالي فحريته نسبية وتزداد بازدياد معرفته لهذه القوانين الموضوعية، وكلما زادت معرفته بهذه القوانين زاد قرباً من الله تعالى.

الديموقراطية

بعد أن عرفنا الحرية والتقدمية ننتقل إلى تعريف الديموقراطية. الديموقراطية: هي ممارسة الحرية من قبل مجموعة من الناس ضمن علاقات معينة وفقاً لمرجعية معرفية وأخلاقية وجمالية وعرفية. فنقول إن الله حر ولكنه غير ديموقراطي، لأن ديموقراطيته تتطلب آلهة مثله لكي يمارس حريته بالاتفاق معها ضمن مرجعية ما، وفي هذا المجال قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾. (الأنبياء ٢٢). وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾. (الإسراء ٤٢) وهنا قوله: ﴿لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾. أي لابتغوا إلى ذي السلطة بينهم أي المرجع.

لنورد الآن بعض الأمثلة على أنواع المرجعية:

١ ـ المرجعية المعرفية: إن الأرضية العلمية وتقدم المعارف بالموجودات «الطب، الفيزياء، الكيمياء، علم الإحصاء. . الخ» تعطينا يومياً معلومات جديدة عن قوانين الوجود «القدر» وبالتالي تنمو معلوماتنا عن الضار والنافع في الموجودات.

هذه المعلومات المتطورة تعطينا أرضية للقيام بتشريعات تحد من حرية الإنسان وأكبر مثال على ذلك «التلوث، التدخين، المواد السامة، المخدرات» حيث تم سن التشريعات هذه طبقاً لأرضية معرفية بحتة، لا طبقاً لأرضية أخلاقية وعليه فإن تقدم المعارف ينعكس على تطور التشريع بالضرورة، وهذه أحدى الصفات الحنيفية في الإسلام «انظر مبحث الاستقامة والحنيفية في الباب الثالث».

٢ ـ المرجع الأخلاقي: هذا المرجع هو من المراجع التي تحمل صفة الثبات في الإسلام وهي تحمل الصفة الكونية مثل الصدق والكذب وشهادة الزور وتحريم قتل النفس والوفاء بالكيل والميزان وحنث اليمين، وهذا المرجع الأخلاقي هو من المراجع التي لا تحمل صفة التطور وهو أحد الصفات المستقيمة في الإسلام ويتمثل في الفرقان «الوصايا العشر» «انظر مقالتي حول الوصايا العشر في الباب الثالث».

٣ ـ المرجع الجمالي: هذا المرجع يحمل الصفة المتطورة حيث مفاهيم الإنسان عن الجمال ضمن المفاهيم المتطورة «انظر مبحث الجمال في الباب الرابع» مثل أشكال اللباس والهندام.

٤ ـ المرجع العرفي: وهو المرجع الذي يتبع أعراف المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان. فهذه الأعراف تختلف من مكان لآخر، ومن زمان لآخر، وهو يتبع الجانب الحنيفي في الإسلام «انظر مقالتي حول المعروف والمنكر في الباب الثالث».

هذه المراجع الأربعة أضيف إليها في الإسلام مرجع خامس وهو الأحكام التي جاءت في الكتاب تحت بند «حدود الله» كالإرث. فهذا التشريع فيه حد من الحرية.

أنواع الحرية:

بما أن الحرية تدخل تحت بند جدل الإنسان وهي خاصة إنسانية بحتة تمارس من خلال المجتمعات الإنسانية وفق المرجعية المذكورة أعلاه، فلها عدة أشكال رئيسية تعبر عن ذاتها فيها. ونذكر منها واحدة فقط وهي حرية الفكر والرأي حيث أن بقية أنواع الحرية تبحث في مفهوم الدولة والمجتمع والقانون.

حرية الفكر وحرية التعبير عنه :

وهي أهم أنواع الحرية الإنسانية قاطبة، إذ أن الفكر والتعبير عنه هو أهم صفة مميزة للإنسان عن البهائم ويتجلى دائماً في حرية الرأي والرأي المضاد وحرية الفكر دائماً تقاس بالميزان المضاد لها. فحرية الفكر عند إنسان ما تقاس بمقدار ما يسمح للفكر المضاد له بالتعبير عن نفسه ولا تقاس بالمقدار الذي يسمح لنفسه بالتعبير عن ذاته. أي يجب علينا دائماً أن نقيس حرية الفكر بحرية الفكر المضاد. وبما أن الحرية هي حركة واعية بين ضدين فيجب أن يكون هناك الضدان حتى نقول إن هناك حرية أصلاً. هذه الحرية هي من نتاج جدل الإنسان وهي ظاهرة مميزة للمجتمعات الإنسانية. وإن حرية الفكر والفكر المضاد لها وحدة هي البحث عن الحقيقة بالنسبة للوجود، وكلاهما يبحث عن الحقيقة ولا يقيد هذه الحرية إلا منهج البحث العلمي. وحرية الرأي والرأي المضاد في المجتمعات لها وحدة هي الوطنية ولا تقيدها إلا المفاهيم الوطنية التي تعتبر مرجعية هذه الحرية والتي يعبر عنها بالدستور.

الباب الثالث
أم الكتاب والسنة والفقه

الفصل الأول
أم الكتاب (الرسالة)



تمهيد في الاستقامة والحنيفية

قلنا إن أمَّ الكتاب هي مجموعة الآيات المحكمات ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران ٧) وهي الكتاب المحكم الذي قال عنه ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. (هود ١) وهي التي خضعت للتطور وللتدرج وللناسخ والمنسوخ ولا تحمل صفة الأزلية وهي التي تلازم فيها الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل ﴿يَمْحُوا الله مَايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾. (الرعد ٣٩).

فالكتاب المحكم هو رسالة محمد ﷺ التي تحتوي على الحدود والعبادات والأخلاق وعلى تعليمات عامة وخاصة وأحكام مرحلية. هذه الأمور كلها تدخل في السلوك الإنساني «الذاتي» (Subjective) والتي تضع أسس علاقة «صلة» الإنسان مع الله «العبادات»، ومع أخيه الإنسان «الأخلاق» وأسس التشريع في الحدود، وهي التي أطلقنا عليها مصطلح العقل الاتصالي.

فلنناقش باختصار كل مفردات أم الكتاب، ولكن قبل ذلك علينا أن نبدأ بالمدخل التالي لفهم أم الكتاب.

لقد بحثنا في فصل جدل الكون وجدل الإنسان المواضيع الرئيسية لنبوة محمد ﷺ أي لمواضيع القرآن الذي وقع به الإعجاز وقد بينا أن إعجازه يكمن في التشابه لذا فهو يحمل طابعاً متميزاً إلى أن تقوم الساعة بينما كانت نبوة موسى وعيسى في التوراة والإنجيل تحمل الطابع النسبي المرحلي التاريخي طبقاً لمعارف الإنسان حين نزولها لذا قال عن التوراة والإنجيل إنهما هدى للناس من قبل.

لنبحث الآن موضوع الرسالة أي بماذا أصبح محمد ﷺ رسولاً؟

إذا قارنا رسالة محمد ﷺ برسالتي موسى وعيسى نرى أن رسالة موسى وعيسى تحمل اسم «الكتاب» أي مجموعة التشريعات التي جاءت إليهما ولكن هذه التشريعات تحمل الطابع الزماني والمكاني «المرحلي التاريخي» من حيث الزمان والمكان «لبني اسرائيل». لذا كان موسى رسول بني إسرائيل، وأرسل عيسى لبني إسرائيل لتعديل شريعة موسى. وهكذا يجب أن نعلم أن شريعة موسى وعيسى كانت

شريعـة عينيـة أي كل التشـريعـات التي جاءت إليهما هي تشريعات عينية وأن مفهوم التجـريـد في التشـريع لم يكن عند موسى وعيسى، لذا فقد وجه الله سبحانه وتعالى اللوم لبني اسـرائيـل لشـدة تمسكهم بشريعة موسى عندما جاء عيسى وقال: ﴿لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّـذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾. (آل عمـران ٥٠) ومن جراء هذا التمسـك بشـريعة موسى ثم بشـريعـة عيسى المعـدلـة، وعلى مرور الـزمن، أصبـح هذا التشـريع غير صالح، وخرج من الحياة تماماً كما خرج التوراة والإنجيل من الحياة أيضاً في تفسير الكـون والإنسـان، لذا فقـد أصبحت الـديانتان اليهودية والمسيحية ديانتين كنسيتين توجـدان في المعـابـد فقـط وخـرجتـا من الحيـاة وبقي في الحياة منهما الفرقان فقط «الوصايا»، حيث أن الفرقان عبارة عن أخلاق وليس تشريعاً ولا تفسيراً للكون والإنسان.

أما بالنسبة لرسالة محمد ﷺ فالوضع يجب أن يكون مختلفاً تماماً، حيث أن محمـد ﷺ خاتم الـرسـل بالإضافة إلى أنه خاتم الأنبياء فكما أن نبوته جاءت بشكل متشابه لكي تصلح لكل زمان ومكان فيجب أن تكون لرسالته خاصية ما تميزها تماماً عن الـرسـالات التي قبلهـا وتجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وهذه الخاصية ليست خاصية التشابه، حيث أن التشابه فقط لآيات القرآن والسبع المثاني. وهذه الخاصية ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء ١٠٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.. الآية﴾. (الأعراف ١٥٨).

إن مشكلة الأدبيات الإسلامية والفقه الإسلامي المتعلقة بالرسالة هي أنها إلى اليـوم لم تميـز هذه الخاصية لكي تستعملها بيسر وسهولة وتكون مقنعة لغير المسلم، قبـل أن تكـون مقنعـة للمسلم نفسه بأن محمداً ﷺ رسول الله إلى الناس جميعاً وهو رحمة للعالمين وأن الرسالة صالحة لكل زمان ومكان.

إنّ إغفـال هذه الخـاصيـة جعل من التشريع الإسلامي تشريعاً متزمتاً متحجراً وحجب عنـا فهم أسس الشـريعـة الإسـلاميـة كما حجب عنا فهم السنة النبوية على حقيقتهـا حيث أن مفهـوم السنـة الـذي قدّمه لنا الفقهاء هومفهوم خاطىء تماماً، لأن فهم السنة النبوية مرتبط بهذه الخاصية التي تتيح لنا وضع مفهوم معاصر متجدد دائماً للشرع الإسلامي وللسنة النبوية، وبالتالي وضع أسس جديدة للتشريع الإسلامي.

فإذا أردنا أن نقسم الرسالة إلى مواضيع رئيسية رأيناها تتألف من:

١ ـ الحدود.

٢ ـ العبادات.

٣ ـ الأخلاق «الوصايا».

٤ ـ التعليمات التي تحمل الطابع التعليمي الخاص أو العام وليست تشريعات.

٥ ـ التعليمات التي تحمل طابع المرحلية.

هذه المواضيع كيف نفهمها ضمن منظور عام خاص بها حصراً يجعل من رسالة محمد ﷺ رسالة صالحة لكل زمان ومكان أي متجددة دائماً؟

هذه الخاصية لا يمكن أن نفهمها إلا إذا فهمنا صفتين أساسيتين متميزتين من صفات الدين الإسلامي بشكل عام، وهما من المتناقضات حيث أن الحركة الجدلية بينهما هي حركة تناقضية تفرزها التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية في مجال المعرفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد والتي ينتج عنها دائماً مجالات جديدة في التشريع كماً ونوعاً. هذان النقيضان هما الاستقامة والحنيفية حيث يكمن فيهما جدل التشريع وبالتالي تطوره وبدونهما يستحيل فهم الدين الإسلامي فهماً معاصراً والاقتناع بصلاحيته لكل زمان ومكان، فالاستقامة جاءت في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. (الفاتحة ٦). وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ١٦١). وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمَاً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (الأنعام ١٥٣). وقوله عن موسى وهارون: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. (الصافات ١١٨).

أما الحنيفية فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفَاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ٧٩). وقوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ١٦١) وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. (الروم ٣٠). وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكٰوةَ وَذٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾. (البينة ٥). لاحظ

قوله تعالى هنا: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾. وقوله في سورة الروم: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. وقوله ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. (الحج ٣١). وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. (النساء ١٢٥). وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (يونس ١٠٥). وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (النحل ١٢٠). وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. (النحل ١٢٣). وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. (آل عمران ٦٧). وقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. (آل عمران ٩٥).

ونبدأ بـ «حنيف» فنقول: اشتق «الحنيف» من «حنف» وتعني في اللسان العربي الميل والانحراف، ويقال للذي يمشي على ظهور قدميه «أحنف» والحنف اعوجاج في الرجل إلى الداخل. وبما أن الحنف والخنف والجنف تشترك في صوتين وتختلف في صوت واحد فلها معان مشتركة، فالحنف الميل والانحراف في الرجل، والخنف الميل والانحراف في اللفظ حيث أن جزءاً من الأصوات يميل نحو الأنف، والجنف الانحراف والميل في القسمة كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾. (البقرة ١٨٢).

أما المستقيم والاستقامة فقد اشتقت من الأصل «قوم» وله في اللسان العربي أصلان صحيحان: الأول جماعة من الناس للرجال فقط وهي جمع امرىء، والأصل الثاني الانتصاب أو العزم، ومن الانتصاب جاء المستقيم والاستقامة «ضد الانحراف» ومن العزم جاء الدين القيم أي الدين القوي صاحب السيطرة، ومن هذا الباب جاء التقييم وأصله أنك تقيم شيئاً مكان شيء. وبمعنى السيطرة والعزم جاء قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾. (النساء ٣٤). وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. (البقرة ٢٥٥). وجاء قوله تعالى لمعنى العزم والسيطرة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ١٦١) هنا نلاحظ أن عزم الدين وقوته وسيطرته تأتي بهاتين الصفتين معاً الاستقامة والحنيفية حيث جاءتا معاً في آية واحدة وأن قوة الدين الإسلامي تكمن في استقامته وحنيفيته معاً.

قد يسأل سائل: كيف تكمن قوة الإسلام في هذين النقيضين؟

إنّ الجواب على هذا السؤ ال هو ما يلي:

يتولد من هذين النقيضين مئات الملايين من الاحتمالات في التشريع وفي السلوك الإنساني العادي بحيث تغطي كل مجالات الحياة الإنسانية في كل مكان وزمان إلى أن تقوم الساعة.

أمّا لفظة الحنيف بمعناها الطبيعي الكوني المباشر فنقول عنها: لقد جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ٧٩). فهنا ﴿حنيفاً﴾ حال والحال تصف الفعل وأول فعل قبلها هو فطر وقد شرحت معنى «فطر» في فصول سابقة ومنها جاءت الفطرة «القانون الطبيعي»، أي أن طبيعة السموات والأرض والوجود المادي كله في هذا الكون الثنائي هي طبيعة حنيفية متغيرة، فمن ناحية الحركة لا يوجد حركة مستقيمة في هذا الوجود المادي ابتداء من أصغر الإلكترونات إلى أكبر المجرات كلها لها مسارات منحنية «مائلة» ولا يوجد فيها استقامة لذا وضع صفة الحنيفية صفةً أساسيةً للوجود المادي قاطبة، فالدين الحنيف هو دين منسجم مع هذا الوجود، وصفة «الحنف» هي صفة طبيعية فطرية، فإذا حمل الإنسان هذه الصفة في فطرته فهي تنسجم مع وجوده في هذا الكون المادي لأنّه في أي مُنْحَنٍ يختلف ميل النقطة عن النقطة التي قبلها والتي بعدها.

وهذه الصفة هي صفة الميل والانحراف في التشريع وفي الطباع والعادات والتقاليد والتي نقول عنها صفة التغير «المتغيرات». فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يكون هناك ثوابت يحتاجها الإنسان في حياته وتشكل علاقة جدلية مع المتغيرات، وهذه الثوابت لا تخضع للتحول «مستقيمة» بل تنسب إليها المتغيرات. فهنا ظهرت حاجة الإنسان إلى الله ليدله على هذه الثوابت والتي سماها «الصراط المستقيم». حيث أن التحول والتغير موجود أصلاً في طبيعته وهو قوي جداً في طبيعة الكون والمجتمعات، ولا يحتاج الإنسان لمن يدله عليه، ولكن يحتاج إلى من يدله على الثوابت لذا قال في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ولا يوجد آية تقول اهدنا إلى الحنيفية لأنها أصلاً موجودة لذا قال عن الحنيفية: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾. (الروم ٣٠) ولكن أمرنا أن نكون حنفاء ولا يعني

أبـداً أن الصـراط المستقيم «الثوابت» جاء ليلغي المتغيرات بل ليشكل علاقة جدلية معهـا، «الثنـائيـة»، وهنـا يكمن التفـاعـل الجدلي بين الثابت والمتحول «المستقيم والحنيف» في الدين الإسلامي. فإذا سأل سائل: إذا كانت الحنيفية «التغير» موجودة في طبيعة الوجود، فما هو الصراط المستقيم «الثوابت»؟

يجب علينـا لنفهم هذا أن نرجـع إلى الـريـاضيات (Mathematics) وخاصة ما يسمى التـوابـع المستمرة أو رياضيات نيوتن والتي ظهر فيها مفهوم التحليل الرياضي (Mathematical Analysis) ومفهوم النقاط المميزة ذات الطبيعة الخاصة بها.

إن التحليـل الـرياضي علم يربط علاقة تابع بمتحوِّل أو متحولين أو أكثر. فإذا كان التابع هو Y والمتحول هو X فالتابع هو:

$$Y = f(x)$$

وإذا كانا متحولين فالتابع هو:

$$Y = f(x,z)$$

ولكن هذه العـلاقـة للتـوابع المستمرة تأخذ أشكالاً متعددة يمكن أن نحصرها فيما يلي:

١ ـ تابـع منحن «حنيف» له نهـايـة عظمى فقـط ونقطـة النهـاية لها وضع مميز خاص بهـا بين كل نقـاط المنحني، وجـاء التعبيـر الرياضي لهذا التمييز بأن المشتق الأول يساوي الصفر. «انظر الشكل رقم ١». «انظر الأشكال في نهاية مبحث الحدود في التشريع».

٢ ـ تابع منحن «حنيف» له نهاية صغرى فقط. «انظر الشكل رقم ٢».

٣ ـ تابـع منحن «حنيف» له نهـايتـان عظمى وصغـرى كالتـوابـع المـوجِيَّـة. وهـذا المنحني له نقطتـان مميـزتـان همـا النهـاية العظمى والنهاية الصغرى حيث المشتق الأول يساوي الصفر في النهايتين ونقطة الانعطاف وهو تغير الميل من الأعظمي إلى الأصغري وبالعكس أي نقطة التوازن بين الأصغري والأعظمي وفيها المشتق الثاني يساوي الصفر. «انظر الشكل رقم ٣».

٤ ـ تابع مستقيم مواز للمحور X ليس له نهاية عظمى ولا نهاية صغرى أي كل نقاطه هي عظمى وصغرى معاً. «انظر الشكل ٤».

٥ ـ تابـع منحن له نهـايـة عظمى أو صغـرى ولكن بنمـط مقـارب أي التـابـع

المنحني يقترب من المستقيم ولا يمسه إلا في اللا نهاية. «انظر الشكل ٥».

٦ - حالة منحن فيه الحد الأعلى موجب والحد الأدنى سالب. «انظر الشكل ٦». .

هذه التوابع تصف ظواهر في الطبيعة، ونلاحظ في التوابع المنحنية أن النهايات العظمى والصغرى فيها يمر منها خط مستقيم مماس لها ولكن له خاصية أساسية هي أنها لا يمكن أن تتجاوزه إذا كانت النهاية عظمى ولا يمكن أن تنزل عنه إذا كانت النهاية صغرى ولا يمكن أن تتجاوزه أو تنزل عنه إذا كانت له نهايتان عظمى وصغرى، وتصل إليه في اللانهاية إذا كان خطاً مقارباً ولا يمكن أن تخرج عنه إذا كان مستقيماً. هنا نلاحظ أن التوابع منحنية بحد ذاتها ماعدا الحالة الرابعة حالة الخط المستقيم، ولكن بنفس الوقت لا تتجاوز أبداً المستقيمات المماسة للنهايات، وأن مجال تحقيقها وعملها هو مجال النهايات تحت النهاية العظمى وفوق النهاية الصغرى، أو بين النهايتين العظمى والصغرى هذه النهايات المتمثلة بمستقيمات تعطينا حدود تحقيق التابع المنحني ما عدا الحالة الرابعة وهي حالة المستقيم. وخارج هذه النهايات لا يتحقق التابع.

إذا فهمنا هذه الخاصيّة تحديداً فإننا نستطيع أن نفهم الإسلام بشقيه المستقيم والحنيف، فالحنيفية هي التابع الذي هو منحن أصلاً والاستقامة هي حدود تحقيق هذا التابع المتمثلة بالنهايات، أما إذا أخذنا الحالة الرابعة وهي حالة المستقيم فقط فإننا نرى أنّ التابع ليس له حدود يتحقق فيها إلا المستقيم نفسه أي لا يوجد فيه مجال للميل «الانحناء» أبداً «غير حنيف».

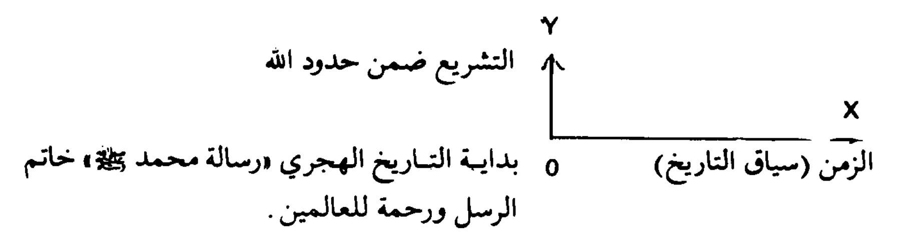
فإذا نظرنا إلى التشريع الإسلامي ووجدناه يحمل هذه الخاصية أي خاصيتي الانحناء والاستقامة معاً فهذا يعني أنه صالح لكل زمان ومكان أي قابل للحركة في حدود النهايات وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان التشريع الإسلامي والسلوك الإسلامي مبنيين على مبدأ النهايات أي الحدود المستقيمة والتي يمكن للحركة الحنيفية أن تتحقق ضمنها وقد أعطانا الله في أم الكتاب الحدود فقط أي المستقيمات التي يمكن أن نكون حنفاء ضمنها وسماها حدود الله وهي مع الفرقان تشكل الصراط المستقيم ونحن نحنف ضمن هذه الحدود المستقيمة.

فإذا نظرنا الآن إلى بعض الآيات في أم الكتاب رأيناها تتصف بهذه الصفة أي

صفة الحدود وقد أعطانا الله الحالات جميعها: الحد الأدنى فقط والحد الأعلى فقط، والحد الأدنى والحد الأعلى معاً، وحالة المستقيم الذي هو حد أعلى وحد أدنى ولا يتغير، وحالة الخط المقارب الذي يقترب من النهاية «المستقيم» ويمسه في اللا نهاية. وحالة الحد الأعلى موجب والحد الأدنى سالب.

ولكن هنا الإحداثيات يجب أن تكون كما يلي: إحداثية (Y) هي تطور التشريع ضمن الحدود وإحداثية (X) هي الزمن أو سياق التاريخ.

ومبدأ الإحداثيات يمثل البعثة النبوية أوزمن تنزيل الرسالة على محمد ﷺ «الهجرة النبوية».



فما علينا الآن إلا أن نميز آيات حدود الله وهي رأس السنام في التشريع والأخلاق والعبادات، علماً أن هناك فرعاً آخر في الرسالة وهو التعليمات والتي لها شق خاص بها، لذا فإن رسالة محمد ﷺ تتألف من:

١ ـ الحدود في التشريع.
٢ ـ الحدود في العبادات. ← الصراط المستقيم.
٣ ـ الأخلاق «الفرقان».

(البنود ١ ـ ٣ يجمعها قوس يشير إلى: الصراط المستقيم)

٤ ـ تعليمات ليس لها علاقة بالتشريع أو بالعبادات أو بالأخلاق

ونبدأ بالجزء الأهم في الرسالة وهو الحدود في التشريع.

الفرع الأول

الحدود في التشريع والعبادات

أولاً ـ الحدود في التشريع :

لقد وردت الحالات المذكورة آنفاً كلها في أم الكتاب أي حالة الحد الأعلى وحالة الحد الأدنى وحالة الحدين الأعلى والأدنى معاً وحالة المستقيم فقط وحالة الحد الأعلى لخط مقارب دون المساس بالحد أبداً أي الاقتراب من الحد دون أن تمسه وحالة الحد الأعلى موجباً والحد الأدنى سالباً.

هذه هي الخطوط المستقيمة «الثوابت» والتي تعطينا مجال الحركة الحنيفية في التشريع «التغير».

١ ـ حالة الحد الأدنى :

آ ـ ورد الحد الأدنى من حدود الله في آيات المحارم وهي :

- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. (النساء ٢٢)..
- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. (النساء ٢٣)..

لقد وضع الله في هاتين الآيتين الحد الأدنى في تحريم النكاح وهذا الحد الأدنى هو الأقارب المذكورين في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة النساء فلا يجوز بأي

حال من الأحوال تجاوز هذا الحد نقصاناً على أساس أنه اجتهاد، ولكن يمكن الاجتهاد بزيادة العدد، فإذا بيّن علم الطب أن الزواج من الأقارب كبنات العم والعمة والخال والخالة المباشرين له آثار سلبية على النسل وله آثار سلبية على توزيع الثروة، فيمكن أن يصدر تشريع يمنع زواجاً من هذا النوع دون أن نكون تجاوزنا حدود الله. هذا النوع من التشريع يحتاج إلى بينات مادية واحصائيات قبل البت فيه، ولا يحتاج إلى قياس حالة على نص تراثي لأنّ ما فعله السلف قد يكون غير مفيد لنا أو قابلاً للتّغير حسب التطور المعرفي والاقتصادي والاجتماعي للمرحلة التاريخية التي نعيش فيها، وفي هذه الحالة نرى أن التشريع الإسلامي تشريع متجدد دائماً وحنيفي «متغير» ولكن ضمن حدود الله. وهكذا نفهم لماذا يكون للمجتهد المخطىء أجر وللمجتهد المصيب أجران.

ب ـ كذلك ورد الحد الأدنى للمحرمات في الأطعمة وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير في الآية رقم «٣» من سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَاذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هنا نرى كيف أعطى الحد الأدنى للمحرمات في الأطعمة وبما أن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إذا كانت على قيد الحياة وتم ذبحها فهي من المحللات، وإذا لم تذبح وتركت فستهلك فتندمج تحت بند الميتة لذا أدمج محرمات الأطعمة في سورة الأنعام في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (الأنعام ١٤٥). وقد أكد تفصيل ما حرم علينا من الأطعمة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾. (الأنعام ١١٩).

هنا نلاحظ أنه لم يغلق الحد الأدنى لمحرمات الأطعمة كما أغلقه لمحرمات

النكاح حيث قال ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (الأنعام ١٤٥). أما بالنسبة لمحرمات النكاح فلا يوجد «فمن اضطر» أي هو حد مغلق تماماً.

نلاحظ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. ورد في نفس آية الحد الأدنى من محرمات الأطعمة «المائدة ٣». لذا نعتقد أن هذه الآية هي آخر آية حدودية وردت في الكتاب، أو آخر آية من آيات أم الكتاب «الرسالة» وليست آخر آية في الكتاب «المصحف».

كذلك الآية رقم ٢٨٣ والآية ٢٨٤ من سورة البقرة هما آيتا الحد الأدنى للمداينة.

كذلك ورد الحد الأدنى للباس المرأة في الآية رقم ٣١ في سورة النور وسنشرحها في مبحث المرأة في الإسلام.

٢ ـ حالة الحد الأعلى: (نظرية العقوبات في السرقة والقتل):

آ ـ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (المائدة ٣٨). والنكال في اللسان العربي من الأصل «نكل» وتعني المنع ومنه جاء القيد ونَكَّلَ به تنكيلاً ونَكالاً: فعل به ما يمنعه من المعاودة.

في هذه الآية بين العقوبة القصوى للسارق وهي قطع اليد أي أنه لا يجوز أبداً أن تكون عقوبة السرقة أكثر من قطع اليد ولكن يمكن أن تكون عقوبة سرقة ما أقل من قطع اليد، فما على المجتهدين إلا أن يحددوا حسب ظروفهم الموضوعية ماهي السرقة التي تستوجب العقوبة القصوى، وماهي السرقات التي لا تستوجب العقوبة القصوى، وماهي عقوبة كل سرقة. هنا نلاحظ مرة أخرى أن الاجتهاد فتح على مصراعيه ونلاحظ حنيفية الإسلام في الاجتهاد، وعلى المجتهدين أن يضعوا ـ كل في بلده وحسب زمانه ـ مواصفات السرقة ذات العقوبة القصوى وهي قطع اليد.

هنا قد يقول قائل: إنه هناك حالات تعتبر في ظاهرها سرقة عادية ولكن عقوبة قطع اليد تعتبر غير كافية كأن يسرق إنسان ما أسرار بلده ويبيعها إلى دولة أجنبية أو يسرق أموال الناس عن طريق الإبتزاز أو عن طريق شركات ومشاريع وهمية، أو يسرق

أموال الدولة ويساهم في تخريب الاقتصاد الوطني أو تخريب البنية السليمة للدولة في وضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب أو ترويج المخدرات أو تخريب المنشآت من مباني وجسور وسدود ومحطات توليد الطاقة الخ . . . فهل تكفي عقوبة قطع اليد بالنسبة لهذه الجرائم؟ من أجل حالات كهذه جاءت الآية رقم ٣٣ من سورة المائدة وهي ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . تلاحظ في هذه الآية عقوبات حدية لذا وضع فيها عدة خيارات للإجتهاد وكلها عقوبات تفوق عقوبة قطع اليد وهذه الخيارات هي (الإعدام ، قطع اليد والرجل من خلاف ، السجن المؤبد) وعلى مجالس التشريع تحديد الحالات التي تنطبق عليها كل من هذه العقوبات سلفاً وفقاً للظروف الموضوعية . وبما أن هذه الأحكام تعتبر عقوبات قصوى فقد فتح باب التوبة والعفو لهؤلاء الناس في الآية ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (المائدة ٣٤) وقد وضع للتوبة والعفو شرطاً أساسياً وهو (من قبل أن تقدروا عليهم) أي حتى يحصل مرتكب هذه الجرائم على العفو فعليه أن يتوب ويعترف من قبل أن يعتقل أو يكشف أمره ففي هذه الحالة يصبح العفو حكماً مرجحاً .

ب ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ . (الاسراء ٣٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . (البقرة ١٧٨) .

هنا بين العقوبة القصوى للقتل بغير حق وهي الإعدام لذا قال : ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ ، أي أنه لا يجوز أن تكون العقوبة القصوى للقاتل ظلماً وعدواناً هي قتله هو وأهله ، فهنا يجب على المجتهدين توصيف جريمة القتل التي تستحق العقوبة القصوى وهي الإعدام والتي تسمى جريمة قتل مع سابق الإصرار والترصد ، ولكن هناك جرائم قتل يمكن أن ترتكب ولا يعاقب عليها بالإعدام مثل القتل غير المتعمد والقتل دفاعاً عن النفس . . وهكذا دواليك ، وهناك أيضا عفو أهل القتيل لذا قال :

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. (البقرة ١٧٨).
هنا بين كيف فتح الإسلام باب الاجتهاد في نظرية العقوبات في القتل إلى يوم الدين، أما في حالة قتل الخطأ فقد وضع الحد الأدنى لعقوبة قتل الخطأ وهي:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّ خَطَئاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. (النساء ٩٢).

هنا وضع الحد الأدنى في قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.
ووضع الحد الأدنى وهو تحرير رقبة لأنه يمكن أن يطلب تحرير أكثر من رقبة.

٣ ـ حالة الحد الأدنى والحد الأعلى معاً:

آ ـ ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾. (النساء ١١).

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. (النساء ١٢).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. (النساء ١٣).

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. (النساء ١٤).

نلاحظ هنا في الآية قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾. وقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾. فالحركة هنا مسموحة ضمن حدود الله فهذا يعني وجود أكثر من حدين حيث جاءت بصيغة الجمع والتعدي هنا هو الحركة في اتجاه الحد حتى نصل إليه، فإذا تجاوزناه حصلت حالة التعدي ولا يعني التعدي هو الوقوف على الحد فقط بحيث تمنع الحركة بأي اتجاه.

نلاحظ من قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾. أن الهاء في حدوده تعود على الله فقط، علما بأن الله ورسوله ﷺ ذكرا قبلها مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾. هنا نستنتج استنتاجاً قاطعاً بأن صاحب الحق الوحيد في وضع حدود تشريعية دائمة إلى أن تقوم الساعة هو الله وحده فقط، ولم يعط هذا الحق للنبي ﷺ، ولو أعطاه الله هذا الحق لقال «ويتعد حدودهما» أي أن كل تشريع حدي أو حدودي ورد من قبل النبي ﷺ فهو مرحلي وغير ساري المفعول إلى أن تقوم الساعة. وهنا تكمن عظمة السنة النبوية والأسوة الحسنة للرسول ﷺ بالاجتهاد ضمن حدود الله أو في وضع حدود مرحلية ظرفية تتعلق بالشروط التاريخية في شبه جزيرة العرب.

لنر الآن ماهي هذه الحدود في آية الإرث: الحدود هي:

الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى بمعنى أنه مهما بلغ التفاوت في تحمل الأعباء الاقتصادية للأسرة أي أن الرجل مسؤول مسؤولية كاملة والمرأة لا تتحمل أية مسؤولية بمعنى المسؤولية الاقتصادية ١٠٠٪ على الرجل وصفر على المرأة، ففي هذه الحالة جاءت حدود الله لتعطينا أن يأخذ الذكر ضعف الأنثى فهنا أعطى الحد الأدنى للأنثى ٣٣,٣٪) والحد الأعلى للذكر ٦٦,٦٪. فإذا أعطينا الذكر ٧٥٪ والأنثى ٢٥٪ نكون قد تجاوزنا حدود الله، أما إذا أعطينا الذكر ٦٠٪ والأنثى ٤٠٪ فلا نكون قد تجاوزنا حدود الله بل بقينا ضمنها. وبما أن الله أعطانا الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى فيأتي دور الاجتهاد حسب الظروف الموضوعية التاريخية بتقريب الفرق بينهما، وهذا التقريب مسموح حتى التساوي الكامل فيما بينهما طبقاً للحالات الإرثية المنفردة كل على حدة أو طبقاً للوضع التاريخي

التطوري العام أو طبقاً للاثنين معاً، وهذا التقريب بينهما يحتاج إلى بينات مادية إحصائية، لا إلى عواطف جياشة مع المرأة أو مع الرجل. وهنا تظهر مرة أخرى استقامة الإسلام في الحدود وحنيفيته في الحركة بين الحدود، وأن الاجتهاد في الإسلام ضمن حدود الله يعتمد على البينات المادية الإحصائية آخذاً بعين الاعتبار مصلحة المجتمع والتيسير على الناس، لا على العواطف ولا على قال فلان، أي أن الفقه الإسلامي لا يقوم أبداً على مطابقة حالة راهنة على نص قيل منذ مئات السنين، ففي هذه الحالة يفقد الإسلام طابعه الحنيفي.

فإذا سأل سائل: كيف عرفت أن ٣٣,٣٪ هي الحد الأدنى للأنثى و٦٦,٦٪ هي الحد الأعلى للذكر وأن الحركة الحنيفية هي ضمن هذين الحدين أي التقريب بينهما لا التبعيد؟ الجواب هنا يأتي من أهل الأرض «الناس» لقوله: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾. (الروم ٣٠). ولو استفتينا مليار إنسان من أهل الأرض لهم علاقة بالإسلام ويعرفون آية الإرث، ومليار إنسان لا يعرفون عن قواعد الإرث الإسلامي شيئاً عن الحركة هل تكون باتجاه التقريب أو التبعيد؟ لجاء الجواب منهم جميعاً: الحركة باتجاه التقريب وكذلك في الطبيعة ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾. فإن التوابع ذات النهايات العظمى والصغرى معاً تتحقق ضمن هذه النهايات لا خارجها.

وبما أنه قال «حدود» فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ﴾. هنا أعطى حالة وجود إناث فقط في الإرث وافترض أن الإناث لا يتحملن أية تبعة اقتصادية، ففي هذه الحالة لا يجوز أن يأخذن أقل من ثلثي التركة، هنا نلاحظ كيف جاء الحد مرة أخرى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَها النِّصْفُ﴾. هنا أيضاً الحد الأدنى لميراث الأنثى إن كانت وحيدة الوالدين.

ب ـ كذلك وردت حالة الحد الأدنى والحد الأعلى معاً في الآية رقم «٣» في سورة النساء حيث وضع فيها الحد الأدنى والحد الأعلى من حيث تعدد الزوجات في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾. (النساء ٣). (انظر شرح هذه الآية الحدودية في مبحث الإسلام والمرأة).

لنشرح آيات الإرث في الأشكال التالية :

الآية رقم (١١) ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له أخوه فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾

الحصة
١
يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين
$\frac{٢}{٣}$ الذكر (حد أعلى)
$\frac{١}{٣}$ الانثى (حد أدنى)
الزمن

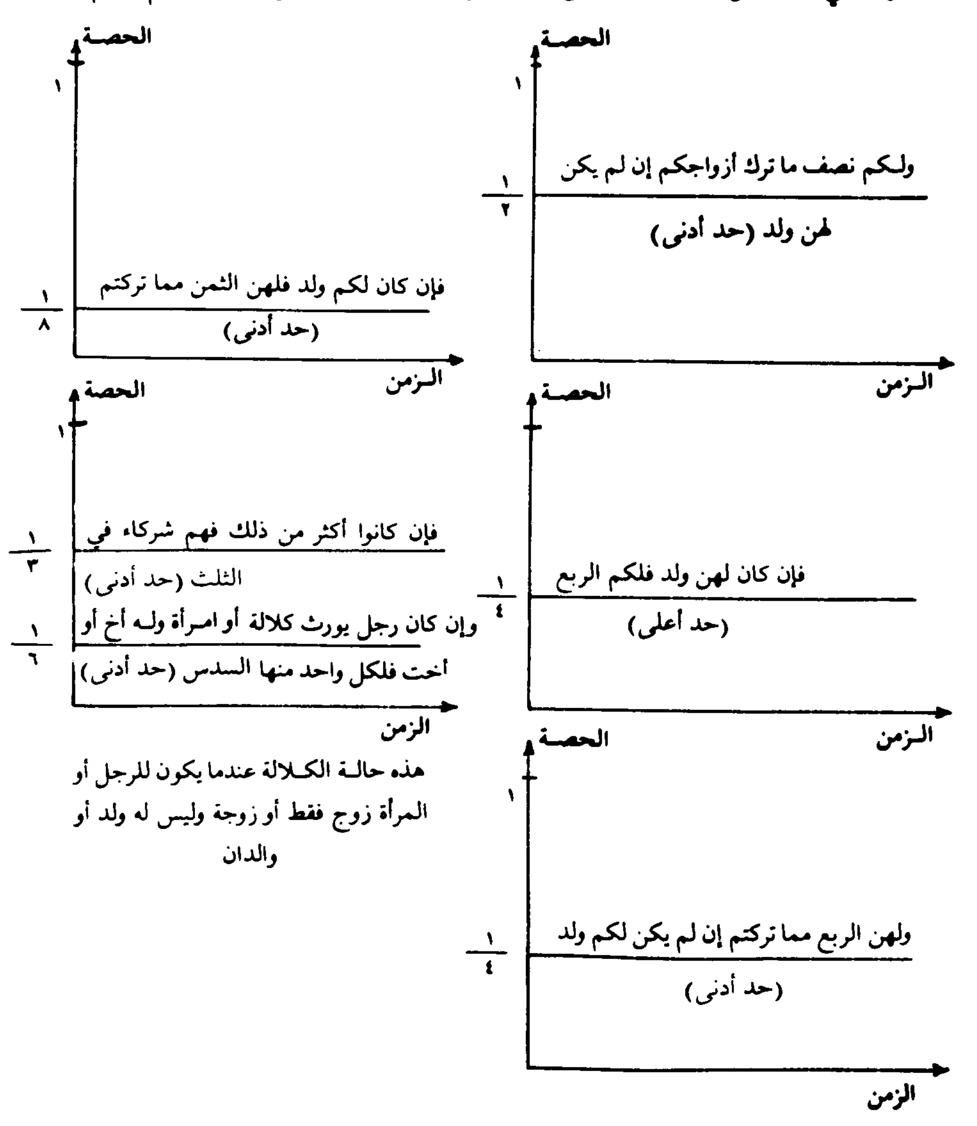
الحصة
١
فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث
$\frac{٢}{٣}$ الأب (حد أعلى)
$\frac{١}{٣}$ الأم (حد أدنى)
الزمن

الحصة
١
فإن كن نساء فوق اثنتين (حد أدنى)
$\frac{٢}{٣}$
وان كانت واحدة (حد أدنى)
$\frac{١}{٢}$
الزمن

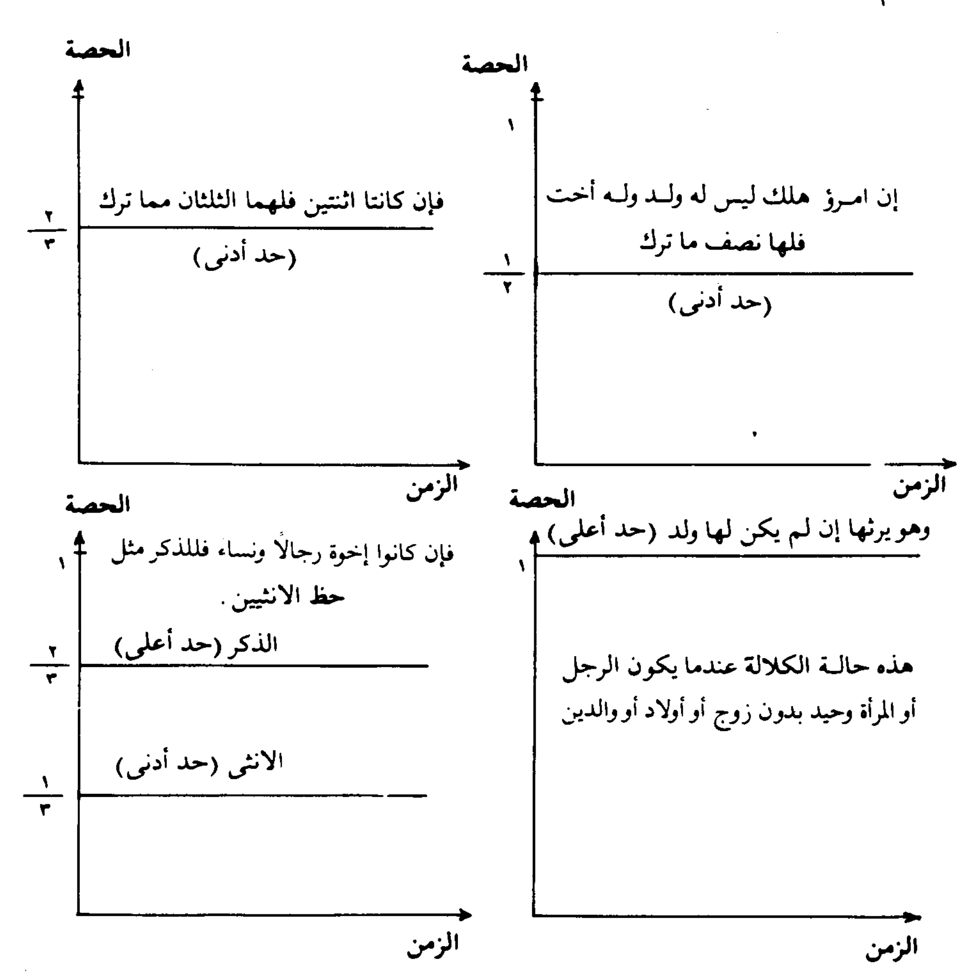
الحصة
١
فإن كان له أخوه فلأمه السدس
الأب (حد أعلى)
$\frac{١}{٣}$
الأم (حد أدني)
$\frac{١}{٦}$
الزمن

الحصة
١
ولأبويه لكل واحد منهما السدس
مما ترك إن كان له ولد
$\frac{١}{٦}$
(حد أدنى وحد أعلى)
الزمن

الآية رقم (١٢) ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعده وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾



الآية (١٧٦) * يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤٌ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم *



٤ ـ حالة الحد الأدنى والحد الأعلى معاً على نقطة واحدة أي حالة المستقيم أو حالة التشريع العيني:

هذه الحالة جاءت في حد الزنا فقط حيث وضع الحد الأعلى والأدنى معاً في نقطة واحدة وهو مئة جلدة في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (النور ٢). لاحظ كيف نوه بأن هذا هو الحد الأعلى والأدنى معاً في قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾. هنا أكد بأنه لا يجوز التخفيف لتبيان أن هذا الحد هو الأدنى أيضاً. علما بأنه لم يذكر موضوع الرأفة في قطع اليد للسارق لأن قطع اليد هو الحد الأعلى فقط ومجال الرأفة والتخفيف مفتوح بل ذكر العكس تماماً في قوله: ﴿نَكَالًا مِنَ اللهِ﴾. لتبيان أن هذا الحد فيه تنكيل من الله فلا يجوز تجاوزه ولا يطبق إلا في حالات العقوبة القصوى للسرقة فقط.

فإذا كان حد الزنا هو نقطة لا مجال للزيادة والنقصان فيه ففي هذه الحالة تصبح المشكلة هي كيف يقام هذا الحد أي ماهي الشروط الظرفية التي يطبق فيها هذا الحد؟

بما أن الله سبحانه وتعالى ثبت حد الزنا فلم يترك الشروط الظرفية لإقامة الحد لاجتهاد الناس بل أعطانا الشروط الظرفية أيضاً وهي «أربعة شهداء» و«الملاعنة» بالنسبة للرجل وزوجه. ووضع أيضاً عقوبة من يرمي الآخر بالزنا بدون تحقيق هذه الشروط وذلك من الآية ٣ إلى الآية ١٠ في سورة النور.

وقد سمى الآيات التي بين فيها الشروط الظرفية لحد الزنا بالآيات المبينات حيث لم تأت الآيات المبينات إلا في موضوع الزنا.

ونرى أن حد الزنا هو الحد الوحيد الذين بين الله تعالى فيه الشروط الظرفية لإقامة الحد لكونه حداً أدنى وأعلى معاً في نقطة واحدة.

أما في بقية الحدود كالسرقة فلم يبين فيها الشروط الظرفية لأنها إما أعلى أو

أدنى، أو أعلى وأدنى ضمن مجال بينهما لا على نقطة واحدة.

٥ ـ حالة الحد الأعلى بخط مقارب لمستقيم أي يقترب ولا يمس:

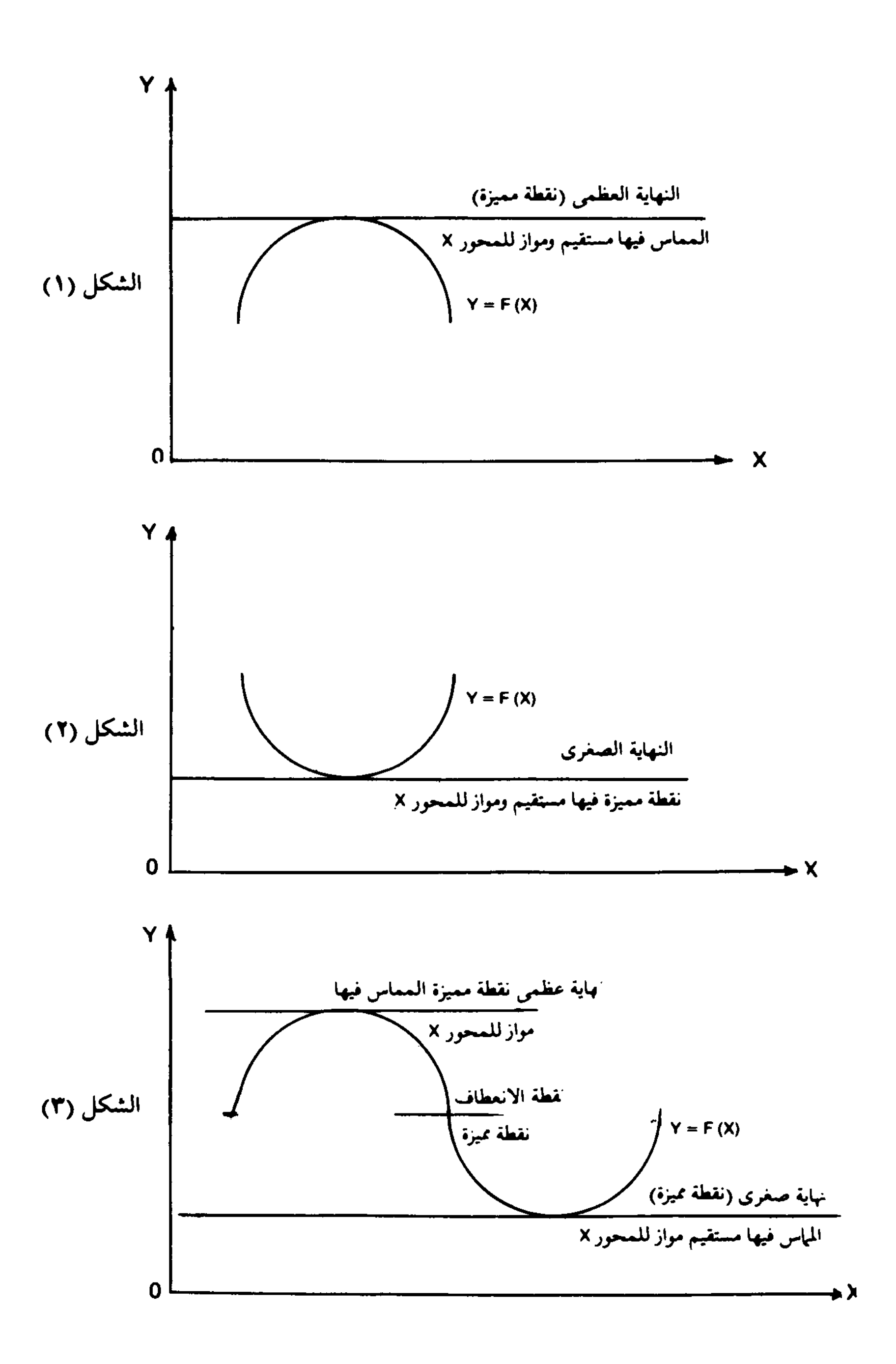
وهي حالة علاقة الرجل بالمرأة من ناحية الجنس، وتبدأ هذه العلاقة بحدودها الدنيا، وهي عدم ملامسة الرجل للمرأة بتاتاً وتنتهي بخط مستقيم يقارب الزنا، فإذا اقترب الإنسان من الزنا ولم يزن، فإنه لم يقع في حدود الله، حيث أن الزنا هو من حدود الله التي يجب أن لا يقف عليها الإنسان أي لا يمسها مهما اقترب منها بينما في حد نكاح المحارم يمكن أن تقف على الحد، وفي حد القتل يمكن الوقوف على الحد، أما في حد الزنا فلا يمكن الوقوف عليه، فالوقوف عليه يعني أنه وقع فيه. وبما أن حد الزنا هو من حدود الله في خط مستقيم مقارب وتسارع كلما اقترب منها الإنسان. وهذا يطابق الحقيقة تماماً في علاقة الرجل بالمرأة، لذا جاءت العقوبة عليه في خط مستقيم، حد أعلى وحد أدنى معاً لذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾. (الاسراء ٣٢). ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾. (الأنعام ١٥١).

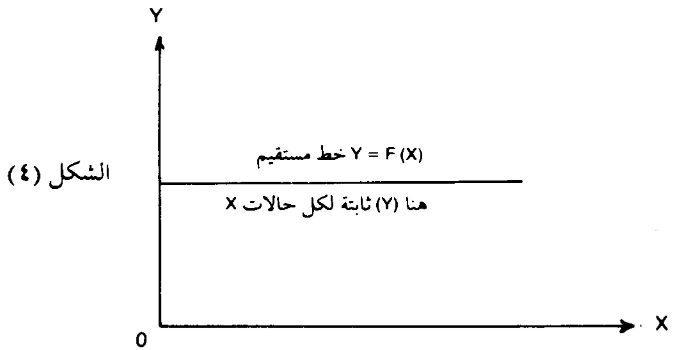
هنا نلاحظ أن الحالة الرابعة وهي عقوبة الزنا منسجمة تماماً مع الحالة الخامسة وهي حد الله في علاقة الرجل بالمرأة وهي الزنا «العلاقة الجنسية المباشرة دون عقد نكاح».

٦ ـ حالة: الحد الأعلى موجب مغلق لا يجوز تجاوزه، والحد الأدنى سالب يجوز تجاوزه:

وهي العلاقة المالية بين الناس، وهذان الحدان يمثلان الربا كحد أعلى موجب والزكاة كحد أدنى سالب، وهذا الحد يمكن تجاوزه بالصدقات وبما أن هناك موجباً وسالباً فهناك حالة الصفر بينهما. أي هذه الحالة تشمل الربا «الموجب» والقرض الحسن «الصفر» والزكاة والصدقات «السالب».

يفهم من هذا أن هناك ثلاث حالات لإعطاء المال يمكن للإنسان أن يحنف بينها حسب الظروف الموضوعية التي يعيشها وحسب وضع الإنسان الذي يأخذ المال. هذه الحالة هي الربا والصدقات.


Y
النهاية العظمى (نقطة مميزة)
المماس فيها مستقيم ومواز للمحور X
الشكل (١)
Y = F (X)
0
X
Y
Y = F (X)
الشكل (٢)
النهاية الصغرى
نقطة مميزة فيها مستقيم ومواز للمحور X
0
X
Y
نهاية عظمى نقطة مميزة المماس فيها
مواز للمحور X
الشكل (٣)
نقطة الانعطاف
نقطة مميزة
Y = F (X)
نهاية صغرى (نقطة مميزة)
المماس فيها مستقيم مواز للمحور X
0
X



النهاية العظمى خط مقارب يمس المحور Y في اللانهاية علماً أن Y هو خط مستقيم

العـلاقـة بين الرجل والمرأة تتطور اقتراباً من الزنا من نظر ولمس الخ

ولكن الفرج يصدق ذلك (يكون الزنا هو الجماع الفعلي)

لذا قال (ولا تقربوا الزنا) وكلما اقتربت العلاقة من الحد كلما تسارع تطور هذه العلاقة .

Y

الـزنى هنـا الـوقـوف على الحد وهو العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة بدون عقد نكاح

X

عدم لمس الرجل للمرأة بتاتاً

0

خط مقارب من الزنا

الشكل (٥)

Y

نهاية عظمى (الحد الأعلى) موجب

نقطة مميزة المماس فيها مستقيم مواز للمحور X

تابع منحنٍ

Y = F (X)

X

0

نهاية صغرى (الحد الأدنى) سالب

نقطة مميزة المماس فيها مستقيم يوازي المحور X

الشكل (٦)

الربا

لقد قلنا إن موضوع الربا هو من حدود الله، الحالة رقم (٦)، الحد الأعلى الموجب والصفر والحد الأدنى السالب. لذا فلا يمكن فصل موضوع الربا عن موضوع الزكاة والصدقات.

ان لفظة الربا في اللسان العربي من الأصل «رب و - رب ء» «الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه» ولها أصل واحد وهو الزيادة والنماء والعلو، تقول ربا الشيء يربو إذا زاد، وربا الرابيةَ يربُوها إذا علاها، والرَّبْوَة المكان المرتفع.

لقد ورد الربا في الكتاب في الآيات التالية:

- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَيَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ الله الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَاسَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (البقرة ٢٧٥).
- ﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾. (البقرة ٢٧٦).
- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (البقرة ٢٧٨).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاتُظْلَمُونَ﴾. (البقرة ٢٧٩).

- ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة ٢٨٠).
- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (آل عمران ١٣٠).

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. (آل عمران ١٣١).

﴿وَأَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (آل عمران ١٣٢).

- ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾. (النساء ١٦١).

- ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾. (الروم ٣٩).

نلاحظ في هذه الآيات مايلي:

آ - ربط الربا بالصدقات بقوله: ﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. (البقرة ٢٧٦).

ب - ربط الربا بالزكاة بقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً... وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾. (الروم ٣٩).

ج - وضع حد أعلى للفائدة «الربا» بقوله: ﴿لاَ تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾. (آل عمران ١٣٠).

د - وضع حد الصفر بقوله: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَتَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾. (البقرة ٢٧٩).

جاء في تفسير ابن كثير (ج ١/ص ٥٩٢) عند الكلام عن آية الكلالة، النساء ١٧٦: مايلي: «وقد أشكل حكمُ الكلالةِ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين أنّه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه - الجدّ والكلالة وباب من أبواب الربا».

إنّ الربا إذاً هو أمرٌ غير مقطوع فيه، وقد أشكل حتى على أمير المؤمنين عمر.

الآن إذا أردنا أن نربط مفهوم الربا بالزكاة والصدقات فما علينا إلا أن نعرف الزكاة والصدقات.

الزكاة والصدقات: هي مبلغ من المال نقدي أو عطاء عيني يعطى من شخص لآخر دون أي مقابل أو التزام من الذي أخذ تجاه الذي أعطى، والفرق بين الزكاة والصدقات، أن الزكاة هي الحد الأدنى للهبة أي الحد الأدنى للصدقات وهي من فرائض الإسلام. لذا فعندما أورد المستفيدين من الزكاة قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾. حيث أن الزكاة هي من ضمن الصدقات، والصدقات هو المصطلح الأعم. هنا نرى أن الحد الأدنى للعطاء السالب هو الزكاة وهو فرض، وهذا الحد الأدنى مفتوح بالصدقات وبما أن الأمر كذلك فقد وجهنا الله نفسه إلى الزمر من الناس التي يجب أن تعطى لهم الصدقات، أي أن هذا الحد مفتوح في الكم وفيه توجه في الكيف لذا قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ.. الآية﴾. (التوبة ٦٠). وبما أن سورة

التوبـة لا تحـوي حدوداً فهـذا يعني أنها مفتوحة للاجتهاد في الزيادة أو النقصان وقد اجتهـد عمـر بحيث ألغى الصـدقـات على المؤلفـة قلوبهم بعد أن أعز الله الإسلام ونصـره. حيث أن هذه الآيـة ليست من آيـات الحـدود. وقـد عرفنا في مبحث الزكاة الفقير والمسكين، وقلنا إن الفقير هو الإنسان الذي لا يستطيع سداد أي قرض ضمن الظـروف الاقتصـادية والاجتماعية السائدة. فلهؤلاء الناس جاءت الآية ﴿يَمْحَقُ اللهُ الـرِّبَـا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. أي أن هؤلاء الناس لا يستطيعون سداد أي قرض أصلاً فالمال الذي يعطى لهم هو ليس بقرض أصلاً وإنما هو هبة وأجرها عند الله.

وجاءت الآية أيضاً التي ربطت الربا بالزكاة: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِبَاً﴾. إلى قوله: ﴿وَمَـا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَـاةٍ﴾. وعنـد إعطاء مال لهؤلاء الناس على أساس قرض مع فائدة فتنطبق عليـه الآيـة ٢٧٥ من سورة البقـرة: ﴿لاَ يَقُـومُـونَ إلاّ كَمَـا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. وجـاءت الآيـة ٢٧٨ من نفس السـورة: ﴿ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الـرِّبَـا﴾. والآيـة ٢٧٩ (فـإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُـوا بِحَـرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ﴾. هذه هي الحالة الأولى من حالات العطاء.

أمـا الحـالـة الثـانية فهي للناس الذين يستطيعون سداد القرض ولكن دون أية فائدة أي حالة الصفر أو ما يسمى بالقرض الحسن وفي هذه الحالة جاءت الآية ٢٧٩ من سورة البقـرة: ﴿وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْـوَالِكُمْ لاَتَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾. وهذه الحالة أيضاً هي الحد الأعلى في معاملة أصحاب الصدقات، لذا فضل الهبة وقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة ٢٨٠).

الآن إذا أخذنا بقية الحالات وهم الناس الذين لا تنطبق عليهم آية الصدقات، ابتـداء من الهبـة بدون مقـابل وحتى القرض الحسن كأعلى حد وعملياً هؤلاء الناس هم أهـل الفعـاليـات التجـارية والصناعية والزراعية والذين هم عصب الاقتصاد مثل شركات النفط والسيارات والتعدين وكل حقول الصناعة والزراعة والتجارة والخامات، فما حكم هؤلاء وهم ليسوا من أهل الصدقات؟ من أجل هؤلاء جاءت الحالة الثالثة وهي الحد الأعلى في الفائدة وهو مغلق تماماً وهذا الحد الأعلى جاء في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (آل عمـران ١٣٠). أي أن الله وضـع سقفـاً للفـائـدة من أجل الناس الذين لا يستحقون الصـدقـات وليسـوا بحـاجـة إليها، وهؤلاء يشكلون شريحة كبيرة في المجتمع وهم

الصناعيون والحرفيون والمزارعون والتجار. . وهكذا دواليك.

هذه الفائدة هي ضعف مبلغ الدين ولا يمكن أن تزيد عن ذلك أي أن أساس النظام المصرفي الإسلامي هو ما يلي:

١ - لا يعطى مستحقو الزكاة والصدقات قروضاً، بل هبات دون مقابل.

٢ - يمكن في حالات معينة إعطاء قرض دون فائدة وهي معاملة الحد الأعلى لأصحاب الصدقات.

٣ - لا يوجد في النظام المصرفي الإسلامي قرض مفتوح الأجل قد تبلغ الفوائد فيه أكثر من ضعف المبلغ، لذا فإن أجل القرض في المصارف الإسلامية كحدّ أعلى هو حتى تبلغ الفائدة ضعف المبلغ، ففي هذه الحالة يجب أن يكون المبلغ مسدداً، وفي الحالات التي تبلغ فيها الفائدة أكثر من ضعف المبلغ الأصلي فيحق للمدين الامتناع عن دفع ما زاد عن الضعف.

هذه هي أسس النظام المصرفي الإسلامي، حيث أن المصارف هي عصب الاقتصاد الحديث من تجارة وصناعة وزراعة. ففي حالة تقيد المصارف بهذه القاعدة فلا مانع أن يضع المسلم ماله في هذه المصارف لكي تديره ويأخذ عليه الفوائد.

وفي هذه الحالة تكون الدولة المسلمة هي صاحبة الحق الوحيد في تحديد نسبة الفائدة السنوية طبقاً للوضع الاقتصادي السائد، والمصارف فقط هي صاحبة الحق الوحيد في إعطاء القروض بفوائد وتطبيق أقصى العقوبات على الذي يقرض بفائدة من غير المصارف.

هنا نناقش وضع النظام المصرفي الإسلامي بالنسبة لاقتصاد معافى سليم ضمن نسب تضخم مقبولة طبقاً للأوضاع السائدة. أما إذا كانت في الاقتصاد نسبة تضخم نقدي عالية، ففي هذه الحالة لا تحلّ المصارف مشكلته وإنما تحل المشكلة بحلول جذرية أخرى.

وكذلك البيع بالتقسيط «إلى أجل» يمكن أن نتجه فيه بنفس الاتجاه أي يجب أن لا يتجاوز المبلغ المقسط ضعف السعر النقدي.

ومع هذا وذاك فإننا نقدّم اجتهاداً ونترك لذوي الاختصاص من الاقتصاديين والمصرفيين والتجاريين المسلمين أن يضعوا تفصيلات لذلك بشرط أن لا يتجاوزوا حدود الله.

مخطط الحد الأدنى السالب والحد الأعلى الموجب في الربا

+ —

الفائدة

﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً﴾

قرض بفائدة حدها الأعلى ١٠٠٪ لكامل المبلغ مع كامل المدة وليس لسنة واحدة فقط

صفر 0

قرض حسن (فائدة صفر)

التاريخ

﴿ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾

(حد رسول الله)

الزكاة حد أدنى ٢,٥٪

الزكاة والصدقات عند الانسان فائدة دنيوية سالبة وأخروية موجبة عند الله.

الصدقات مفتوحة

مجال الدفع (الفقراء والمساكين)

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية (٦٠) التوبة

—

نستنتج من هذا البحث ما يلي :

١ - إن الإسلام مستقيم في الحدود والوصايا «الفرقان» . وحنيف ضمن الحدود فهو يحمل صفة الثابت في الحدود «الاستقامة» والتحول «الحنيف» ضمن الحدود لذا قال : ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾ .

٢ - لقد أعطى الله سبحانه وتعالى تشريعات عينية لموسى وعيسى في الكتاب وذلك لتتناسب مع الظروف التي عاشوها هم ، لذا سميت تشريعات موسى وعيسى «الكتاب» وهذه التشريعات لم تحمل الصيغة العالمية وإنما حملت الطابع الزماني المكاني ، أي أنها لم تكن مبنية على نظرية الحدود لذا تم تجاوزها وتم فصل الشريعة عن الدولة بالنسبة للمسيحية واليهودية وهذا عين الصواب .

٣ - لقد سميت رسالة محمد ﷺ بأم الكتاب لأنها حنيفية على نظرية الحدود لذا فهي تحمل الصيغة الكونية ، ويمكن استنتاج ملايين الأحكام العينية من خلالها ، ومن الصعب تجاوزها إلا على الجاهل ، وكلما زاد الإنسان تحضراً وتقدماً زاد فهمه لحدود الله وقناعته بها . وإننا نرى معظم أهل الأرض ملتزمين بحدود الله في معظم تشريعاتهم وخاصة المتحضرين منهم . لذا وصف الأعراب وهم أقل تحضراً من أهل المدن بأنهم : ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَاأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾ . (التوبة ٩٧) . هنا نلاحظ كيف بين أن حدود الله هي الرسالة وأن أم الكتاب هي رسالة محمد ﷺ . وكذلك يتبين لنا لماذا سمى مجمل الرسالة والنبوة «بالكتاب» لأن الكتاب آياته عينية من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

إنّ الفرق بين الصحابة ساكني المدينة ومكة وبين الأعراب في فهم حدود ما أنزل الله هو أن الصحابة أكثر تحضراً من الأعراب . ولنا أن نذكر فرق التحضر بين الصحابة وبيننا بسبب العنصر الزمني ، وهو فرق أكبر بكثير من ذلك الفرق . لذا فنحن مؤهلون الآن لفهم حدود ما أنزل الله على رسوله أكثر بكثير من أهل القرن السابع الميلادي .

٤ - إن مصطلح «الشريعة الإسلامية» هو مصطلح خاطىء في الأصل ووهمي ، فلا يوجد شيء اسمه الشريعة الإسلامية والقانون المدني حيث أن الإسلام مبني على الحدود فقط وهو دين مدني بحت . ومن هذا المنطلق نرى أن رسالة محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان : ﴿يَاأَيُّها الناسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعَاً﴾ .

(الأعراف ١٥٨). ونفهم لماذا كان محمد ﷺ خاتم الرسل بالإضافة إلى شرحنا بأنه خاتم الأنبياء بالقرآن وأن رسالته رحمة للعالمين.

٥ - إن أكبر خطأ ارتكب في الفقه الإسلامي هو نزع الصفة الحنيفية منه وذلك بوضع المبدأ التالي: «لا مساغ للاجتهاد فيما ورد فيه نص صريح قطعي» والصحيح أن أساس التشريع الإسلامي هو الاجتهاد ضمن مجالات الحدود «دنيا أو عليا أو الاثنين معاً» ويقف الاجتهاد عند النص الذي وردت فيه الحدود، لا على النص الذي وردت فيه الحدود وضمن مجال الحدود. إن اجتهد الإنسان وأخطأ فله أجر واحد وإن اجتهد وأصاب فله أجران. ومن هذا يتبين لنا أن المذاهب الفقهية جميعها هي من التراث وكذلك يتوضح لنا قول النبي ﷺ إن صح «الحلال بين والحرام بين» ولم يقل «الحق بين والباطل بين».

٦ - هنا يتوضح لنا مفهوم السنة تماماً وذلك بأن محمداً ﷺ اجتهد وتحرك ضمن نص الحدود بمايتلاءم مع ظروف شبه جزيرة العرب في القرن السابع. وبهذا كان لنا الأسوة الحسنة. ولا يعني أبداً أنه إذا طبق النبي ﷺ في موقف من المواقف الحد الأدنى أو الحد الأعلى فعلينا أن نلتزم هذا الموقف وأن نستمر عليه إلى أن تقوم الساعة تحت شعار السنة، لأن هذا الموقف ليس له علاقة بالسنة، لذا فإن مبدأ القياس الذي وضعه الفقه الإسلامي الموروث هو مبدأ خاطىء، فلا يمكن قياس الشاهد على الغائب، أما التشريع فهو تشريع مبني على البينات المادية الموجودة كدليل ثم الالتزام بحدود الله.

٧ - بما أن الحدود سميت حدود الله فهذا يعني أن الذي يضع حدود الله هو الله نفسه فلا يمكن لأي إنسان أن يضع حدوداً بنفسه ويقول عنها حدود الله. لذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. (البقرة ٧٩). فكل شيء قاله النبي ﷺ في السماح أو المنع ولم يرد ذكره أبداً ضمن حدود الله في الكتاب أو في الكتاب أصلاً، هو إجراء مرحلي اتخذه النبي طبقاً للظروف التي عاشها مثال «رجم الزاني المحصن» أو تحريم التصوير. أما شروحات النبي ﷺ في الحدود التي وردت في الكتاب فهي ملزمة، كفتح الله الصدقات وضع النبي حداً أدنى لها وهو ٢,٥٪ فهو ملزم ولا يمكن النزول عنه بل يمكن تجاوزه زيادة وهو مايسمى بالطاعة المتصلة لله ورسوله.

٨ ـ إن اجتهاد عمر بن الخطاب في عام الرمادة بعدم قطع يد السارق لا يعني أنه عطل حد السرقة، وإنما كان عمر بن الخطاب فاهماً لحدود الله، أي أن قطع اليد هو العقوبة القصوى للسارق لذا كان موقفه هو عدم تطبيق العقوبة القصوى وهو في هذا لم يعطل حدود الله إطلاقاً، وانما اجتهد ضمن حدود الله ووقف على الحد الأدنى وهو العفو.

وألغى عمر بن الخطاب تطبيق آية توزيع الغنائم على المقاتلين لأنه كان يعلم أنها ليست من آيات الحدود.

٩ ـ عندما تضع الدولة قانوناً، فإن الدولة نفسها تتكفل بحمايته وتطبيقه مثل قانون السير والجمارك.. الخ، وبما أن حدود الله هي من عنده وهو الذي وضعها فإن عقوبة تجاوزها تقع على الله لذا حذرنا الله سبحانه وتعالى من تجاوز حدوده وتعديها وقال إنه هناك جنة وهناك الأجر والأجران في الالتزام ضمن حدود الله. وهناك النار في الخروج عنها وتعديها. وكذلك نبهنا أنه عندما يتجاوز الناس حدود الله فإنهم يظلمون أنفسهم: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. (البقرة ٢٢٩).

١٠ ـ إن العقوبة في الإسلام تجبّ الذنب، فعندما يقتل القاتل العمد أو يسجن القاتل عن غير قصد ففي هذه الحالة «يمحى ذنبه» لذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ﴾. (البقرة ١٧٩). أما إذا تم تجاوز حدود الله وتم الإفلات من العقوبة الدنيوية كأن يقتل الإنسان إنساناً آخر عن عمد ولم يعترف ويسلم نفسه ليحاكم وأفلت من العقوبة، أي تم تسجيل الجريمة ضد مجهول، ففي هذه الحالة فقط يكون الله له بالمرصاد ويأخذ عقوبته من الله وفي هذا قال تعالى عن القاتل العمد الذي يفلت من العقوبة الدنيوية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾. (النساء ٩٣).

١١ ـ في الحالات التي لم يرد فيها حدود نهائياً والتي سماها الفقهاء المصالح المرسلة مثل قانون السير وقانون الجمارك.. الخ. لا تحتاج هذه الحالات إلى حدود من الله، ولو احتاجت لوضع لها حدوداً لأنه في الإسلام التشريعي الحدود لله والتشريع للإنسان وحدود الإنسان تعتمد على نظرية «الأعراف». وهناك تشريع إنساني حنيف «متغير ضمن حدود الله في حالات الحدود بما تمليه مصالح المجتمع آخذاً بعين الاعتبار اليسر لا العسر» وتشريع بدون حدود أيضاً بما تمليه مصالح الناس

والمجتمع ضمن السياق التاريخي لتطور المجتمعات الإنسانية من حيث المعرفة والعلاقات الاقتصادية.

فلم يحدد الله سبحانه وتعالى لنا حدود الضرائب، فالحد الأدنى هو الصفر «الإعفاء» والحد الأعلى يمليه التطور الاقتصادي والاجتماعي والوضع الطبقي «ضريبة الدخل التصاعدية» حيث أن الحد الأعلى متغير دائماً وغير ثابت. والحد الأعلى يستنتجه المشرع من مصلحة المجتمع ككل. وهكذا فقط نفهم ما يقال عنه المصالح المرسلة حيث يضع حدودها المجتمع نفسه.

١٢ - إن حدود الله بشكل عام مغلقة ولا يسمح بتجاوزها، وتجاوز الحدود المغلقة فيه نار جهنم وعقوبة من الله تعالى مثل حدود الإرث وحدود السرقة والقتل ونكاح المحارم. ولكن هناك بعض الحدود وضع الله نفسه لها حالات تجاوزها «أي أعطى جواز سفر لاجتيازها» مثل أكل الميتة والدم ولحم الخنزير حيث قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (الأنعام ١٤٥). وكذلك الحد الأدنى لعبادة الصوم هي صوم رمضان فوضع هو نفسه حالة التجاوز بقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. (البقرة ١٨٥).

وكذلك الحد الأدنى للباس المرأة الوارد في الآية ٣١ في سورة النور وضع له تجاوزاً في الحالات التي وردت في نفس الآية، وقد وضع التوبة في حالات التجاوز غير المسموحة بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (النور ٣١).

١٣ - يمكن الاستفادة جداً من تشريعات الحد الأعلى والحد الأدنى وذلك بتطبيقها على حالات مماثلة في المجتمع. فمثلاً يمكن أن نقول إنه في الدولة العربية الإسلامية يجب ألا يقل الحد الأدنى للرواتب والأجور عن نصف الحد الأعلى للرواتب والأجور. وكذلك بالنسبة للمكافآت والعطاءات التي تمنحها الدولة أو المؤسسات للناس وكذلك بالنسبة للشريحة العليا من ضريبة الدخل بحيث تبدأ الضريبة من الصفر الإعفاء «الحد الأدنى» وتنتهي عند نسبة ٦٦,٦٪ من الأرباح «الحد الأعلى».

١٤ - يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا ينتظر من الناس السؤال حول وضع الحدود ليضعها لهم. فحدود الله أوحيت إلى النبي ﷺ بغض النظر عن

المسألة، كما أن حدود الله في أم الكتاب لا يوجد فيها ناسخ ومنسوخ، وتجاوزها يعرض صاحبها للعقوبة الإلهية، ويمكن أن يكون الناسخ والمنسوخ في الحدود العينية فقط كحد الزنا، فجاء حد الزنا في الآية رقم ٢ في سورة النور وهذا الحد ناسخ للآيتين رقم (١٥، ١٦) في سورة النساء وهما: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾. (النساء ١٥). ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. (النساء ١٦).
لذا قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة ١٠٦). هذه الآية تؤكد أنه لا يمكن أن يكون النسخ أو النسيان إلا لآية كاملة وليس لجزء من آية. كما يتبين أن هناك نوعين من إلغاء الأحكام: النوع الأول النسخ، والنوع الثاني الإنساء «الإهمال عن قصد» والفرق بين الآيات المنسوخة والآيات المنساة هو أن المنسوخ موجود بين دفتي المصحف وما زال يذكر في الكتاب، أما المنسى فهو آيات لأحكام مرحلية جاءت للنبي ﷺ وحياً وتم نسخها وإهمالها عن قصد «أي عدم تثبيتها في المصحف»، وأعتقد أن من الآيات المنساة آية الرجم للزاني المحصن، فهذه الآية إن صح خبرها فهي منسوخة ومنساة، لذا فإن رجم الزاني المحصن الآن ليس من الإسلام. ونعتقد أن النبي ﷺ رجم الزاني المحصن قبل نزول سورة النور لا بعدها. «عن خالد السيباني سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. قلت: قبل سورة النور أو بعدها؟ قال: «لا أدري» (انظر فتح الباري ج ١١ ص ١٠٦ - ١٠٧).

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى غياب الناسخ والمنسوخ من الشرائع السماوية قبل محمد ﷺ لأنها كانت شرائع حدية عينية مؤقتة وكان البديل عن النسخ بعث رسول جديد. أمّا في الرسالة الخاتم فقد جعل الله سبحانه وتعالى الناسخ والمنسوخ تعليماً لنا لنهتدي في تطوير التشريع ضمن حدوده. مع التنويه أن مسار الناسخ والمنسوخ كان من العنت إلى اليسر لا العكس.

وتجاوز حدود الله لا يمكن أن يكون فيه أية منافع للناس كقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(البقرة ٢١٩).

هنا يبين أن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس، فإذا كانت هذه من حدود الله فهل في تجاوز حدود الله منافع للناس؟ هذا أولاً. وثانياً إذا كانت من حدود الله فلقد وضع حالات سمح فيها بتجاوز حدوده في الطعام: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾. (الأنعام ١٤٥). فلماذا قال ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ في الطعام ولم تعمم على الشراب؟ لم يقلها لأنها ليست من الحدود! وإنما نصحنا الله بتجنب الخمر والميسر وكره لنا ذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (المائدة ٩٠). ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. (المائدة ٩١). ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾. (المائدة ٩٢).

هنا تبين لنا أن من قال إن الاجتناب هو أقل من التحريم فقد صدق، لأن التحريم هو لحدود الله كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾. (المائدة ٣). وأن من يقول إن الاجتناب أعلى من التحريم، فقوله من باب المزاودة فقط. وإني أقول لهؤلاء الناس أيهما أكبر. من يشرب كأساً من الخمر أم من ينكح إحدى محارمه؟ ففي حال تحريم نكاح الأخت قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ.. الآية﴾. (النساء ٢٣). ثم هنا أيضاً بيَّن لماذا أمرنا باجتناب الخمر والميسر بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾. (المائدة ٩١). أما في حال تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يبين لنا لماذا؟ لأنها حدود الله وعلينا أن نسلم بها ونقبلها. ثم إنه قبل الصلاة من شارب الخمر بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.. الآية﴾. (النساء ٤٣). وهذه الآية جاءت في سورة النساء، ووضعها مع أحكام لا تزال سارية المفعول إلى اليوم وهي ليست منسوخة لأن النسخ يشمل الآية كاملة وليس جزءاً منها كما بيَّن في الآية رقم ١٠٦ من سورة البقرة. وأخيراً بيَّن أنها رجس، والرجس هو من الاختلاط في الأمور. ولكن يبقى أن أنوه أنه لا يصح أن يُفْهَمَ كلامي على أنه دعوة إلى احتساء الخمور وتسليم العقول لها وتعطيلها بها بل إن قصارى ما أردت الوصول إليه هو أنَّ الله سبحانه أراد إفهامنا أنه يتخذ موقفاً من

الخمور لأنها تنافي الفطرة، وهذا ما يفعله أهل الأرض الآن جميعاً على درجات مختلفة وأنه يأمر السكران بالابتعاد عن الصلاة لأنه لا يعلم ما يقول، والسكر المؤدي إلى فقدان الوعي بالقول والعمل هو الذي ينتج عن الافراط في شرب الخمر وليس بشربها فقط. فعلى الباحثين المسلمين فرز آيات الحدود في أم الكتاب دون أي تشنج ودون مزاودات هدفها تخويف الناس وزيادة العنت عليهم.

نستنتج من نظرية الحدود ما يلي:

١ ـ التشريعات العينية:

يتأكد طرحنا السابق الذي طرحناه عن تاريخ الرسالات السابقة والتي كانت تأتي لرسل وأنها عبارة عن أحكام منفصلة عينية وجزء من الوصايا، ثم جاءت الوصايا «الفرقان» إلى موسى وجاء الكتاب وهو أيضاً دستور كامل من التشريعات ولكنها عينية وليست حدودية كقوله تعالى عن نموذج لتشريعات بني اسرائيل: **﴿وكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**. (المائدة ٤٥). وهذه الآية هي حالة خاصة من حالات أم الكتاب، وفيها نلاحظ كيف أعطى تشريعاً عينياً ولم يعط تشريعاً حدودياً، ونلاحظ في كتاب موسى أن التشريع هو تشريع مشخص «فؤادي» إذ لم تصل الإنسانية وقتئذٍ إلى المفهوم التجريدي للتشريع الذي عبر عنه بالحدود ولكن أجبرهم على التقيد به حرفياً بقوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**. (المائدة ٤٥). حيث أن الإنسان لم يكن قد نضج بعد للاجتهاد ضمن الحدود. وعندما أراد تعديل شريعة موسى العينية (انظر شريعة موسى في الكتاب المقدس) أرسل عيسى بن مريم لتعديل هذه الشريعة نحو التخفيف: **﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾**. (آل عمران ٥٠). ولكن بقي كتاب عيسى الذي هو شريعة موسى معدلة عينياً لا حدودياً. وبما أن شريعة عيسى هي شريعة موسى معدلة عينية فهي تحمل الطابع الزماني البحت، وبما أن هاتين الشريعتين مربوطتان إحداهما بالأخرى فقد ربط نبوة عيسى «الإنجيل» بنبوة موسى «التوراة». لذا أتبعها بقوله: **﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**

﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. (المائدة ٤٦). هنا يكمن سر الوهم الأول الذي وقع به كثير من المفسرين عندما ظنوا أنّ ما بين يدي القرآن في قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. (يونس ٣٧). هو التوراة والإنجيل على غرار تصديق إنجيل عيسى لتوراة موسى. هذا الكلام صحيح لو لم يكن محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل حيث أن رسالته وبوته تحمل طابعاً خاصاً تماماً لا تحمله الرسالات والنبوات السابقة، لذا فإن القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لم يكن تصديقاً لا للتوراة ولا للإنجيل، بل كان تصديقاً لأم الكتاب «الرسالة» حيث أن القرآن لا يحمل الطابع الزماني المكاني، بل هو صالح لكل زمان ومكان، وكذلك أيضاً حدود أم الكتاب لا تحمل الطابع الزماني المكاني ولكنها قابلة للتحوير، فجاء القرآن مصدقاً وحافظاً لها، لذا سمى التشريع عند موسى وعيسى الكتاب، وعند محمد ﷺ أم الكتاب. لذا فإن أم الكتاب لها خاصتان أساسيتان:

١ ـ أنها من عند الله وليست من اللوح المحفوظ «وعنده أم الكتاب».

٢ ـ أن حدود أم الكتاب يمكن أن تُستنتج منها ملايين الكتب في التشريع وليس كتاباً واحداً، لذا سماها أم الكتاب.

أما الوهم الثاني الذي وقع فيه كثير من المفسرين والفقهاء (ولم يقع فيه عمر بن الخطاب) والذي نتج عن الوهم الأول فهو التالي: بما أن كتاب موسى وعيسى يحتوي على تشريعات عينية توجب الوقوف على النص، فقد ظنوا أن تشريعات أم الكتاب عند محمد ﷺ هي على غرار ذلك أي توجب الوقوف على النص لا عند حدود النص ولم ينتبهوا إلى الناحية الحدودية التي جاءت فقط لمحمد ﷺ. إن هذا هو سبب تخلف التشريع الإسلامي في الوقت الحاضر وهو سبب التسمية الخاطئة «شريعة محمد» على غرار تسمية «شريعة موسى» وهو تقليد اليهود والنصارى، وكما كان عند اليهود والنصارى أحبار ورهبان، صار عندنا ما يسمى السادة العلماء «المشايخ». هذا فيما يتعلق بفهم التشريع في أم الكتاب «الرسالة» وقد حذا بعض المفسرين نفس المنهج عندما اعتمدوا على التوراة في تفسير القرآن ونسوا أن التوراة مرحلية والقرآن غير مرحلي.

٢ ـ العبادات :

هي التي تحدد صلة الإنسان بالله وهي توقيفية، وقد خضعت للتطور والتبدل من دين إلى آخر: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. (المائدة ٤٨). وتتربَّع الصلاة على رأسها وهي صلة مباشرة بين العبد وربه. وأهم خاصية للعبادات هي سقوط العقل فيها أي أنها لا تخضع للعقل إطلاقاً، ولا لقواعد البحث العلمي الموضوعي بعكس الحدود التشريعية والوصايا وذلك لورود المقدمات والعمليات والنتائج معاً. ففي أي مسألة من المسائل جاءت فيها المقدمات والنتائج معاً يسقط فيها العقل «العلمي» بالضرورة. فمثلاً إذا طلبنا من إنسان ما أن يسير مسافة كيلو متر واحد ويأخذ مقابل هذا السير عشرة آلاف دولار:

أي : المقدمة ← سير ١ كم.

النتيجة ← ربح عشرة آلاف دولار.

ففي هذه الحالة لا داعي أبداً أن يسأل هذا الإنسان لماذا يجب أن يسير، أي لا داعي لأن يفكر في هذه المسألة أو يعقلها. حيث وردت فيها المقدمات والنتائج معاً. وكذلك إذا أعطينا إنساناً ما نص مسألة وطريقة الحل والنتيجة، ففي هذه الحالة أسقطنا العقل عنده. ففي العبادات هناك حالة الصلاة وطريقة الصلاة ونتيجة الصلاة.

وعلينا أن نعلم أنه كلما زادت المسائل التي تحوي على المقدمات والنتائج معاً ازداد سقوط العقل. هذه الناحية مهمة جداً في العملية التعليمية والتربوية وفي وضع سياسة التربية والتعليم، حيث أن العملية التعليمية والتربوية يجب أن تقوم على أحد أطراف المسألة لكي يفكر الإنسان المتعلم كيف يصل إلى الطرف الآخر، وبما أن المنطق هو استنتاج المجهول من معلوم، **فيفترض أن المعلوم هو المقدمة، والمجهول هو النتيجة**. والعبادات بالنسبة للإسلام تمثل التقوى الفردية وليس الإجتماعية أو التشريعية.

لذا فإنه من الخطأ الفاحش أن نقول إن الصلاة رياضة والصوم للصحة. أو أن نضع فلسفة عقلية للعبادات. هنا يجب أن لا نخلط بين وضع فلسفة عقلية للعبادات وبين فهم النصوص التعبدية على نحو يقتضيه العقل.

فلنر الآن كيف جاءت المقدمات والنتائج معاً في الكتاب بالنسبة للعبادات:

١ ـ الصلاة والزكاة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. (المؤمنون ١ ـ٤). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (المؤمنون ٩ ـ ١١).

هنا نلاحظ كيف أن المقدمة هي الصلاة والزكاة، والنتيجة ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (المؤمنون ١١). أما آلية الصلاة والزكاة فقد شرحهما النبي ﷺ فاكتملت الشروط الثلاثة المسألة وطريقة الحل ونتيجة الحل وعندما يذكر الصلاة والزكاة في الكتاب يذكر معها صفة المفلحين كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (البقرة ٣ ـ ٥) وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (لقمان ٤ ـ ٥). وقوله ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (الروم ٣٨).

٢ ـ الصوم:

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾. (البقرة ١٨٤) «مقدمة ونتيجة». ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ← أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. (الأحزاب ٣٥).

مقدمة «والصائمين والصائمات» = نتيجة «أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً».

وهنا يجب علينا التعليق لماذا لم ترد الصلوات الخمس التي يؤديها المسلمون صراحة في الكتاب، بينما جاء الحج مفصلاً أكثر من الصلاة.

الصلاة في اللسان العربي جاءت من الصلة والدعاء، ففي معنى الدعاء فقط

جاءت في قولـه: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. (الأحزاب ٥٦). وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾. (التوبة ١٠٣). وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. (البقرة ١٥٧). وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَايُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾. (التوبة ٩٩). وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ﴾. (الأحزاب ٤٣).

وفي معنى الصلة بين العبد وربه والذي يعتبر الدعاء جزءاً أساسياً منها جاءت في قولـه تعـالى: ﴿وَأَوْصَـانِي بِالصَّـلاَةِ وَالـزَّكَـوٰةِ مَادُمْتُ حَيّـاً﴾. (مريم ٣١). فهنا الصلاة التي أوصى الله بها المسيح لا تعني صلاة الصبح ركعتين والظهر أربع ركعات وبقيـة الصلوات الخمس. وإنـما هي صلاة «صلة» خاصـة بالـديانة المسيحية. وكذلك قولـه تعـالى على لسـان لقمـان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّـلاَةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْـرُوفِ وَانْـهَ عَنِ الْمُنْكَـرِ﴾. (لقمـان ١٧). ترى هل كان لقمان يأمر ابنه بالصلوات الخمس؟ أم كان يأمـره بالـدعـاء الذي هو الصلة بين العبد وربه والذي هو جوهر العبادة!! وكذلك قوله تعـالى على لسـان إبـراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّـلاَةِ﴾. (ابـراهيم ٤٠). وقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَاأَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ﴾. (الحج ٣٥). وقوله تعالى عن إسمـاعيـل: ﴿وَكَـانَ يَأْمُـرُ أَهْلَهُ بِالصَّـلاَةِ وَالـزَّكَـاةِ وَكَـانَ عِنْـدَ رَبِّـهِ مَرْضِيّـاً﴾. (مريم ٥٥). وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾. (آل عمران ٣٩). هنا أيضاً صلاة زكريا لا تعني أنه كان يصلي الأوقات الخمسة كصلاة المسلمين.

أمـا الصـلاة بمعنى صلاة الظهـر وبقيـة الصلوات أي صلاتنا نحن المسلمين فجـاءت بشكـل صريـح في قولـه: ﴿يَـاأَيُّهـا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَـةِ﴾. (الجمعـة ٩). هنـا الصـلاة تعني صلاة الجمعـة التي نعرفها. وبمعنى الصلوات الخمس الفـرائض أو النفـل التي نعرفها جاءت آية الوضوء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ.. الآية﴾. (المائدة ٦).

وهكـذا نلاحـظ لمـاذا لم يأت تفصيل الصلاة التي نعرفها نحن المسلمين في الكتـاب. ففي هذه الحـالـة تحصل مغالطة كبيرة فنظن أنه كلما وردت الصلاة تعني الصلوات الخمس الإسلامية فيصبح الخبر من الناحية التاريخية غير صحيح.

هنـا نفهم لمـاذا كان من مهمـات الرسول ﷺ شرح الصلاة الإسلامية بأوقاتها

الخمسـة وبعـدد الـركعات في كل صلاة. علماً بأن الركوع والسجود والقيام وهي من أركـان الصـلاة كلهـا وردت بشكـل مُفَصَّل في الكتاب. ونفهم لماذا لا تسقط الصلاة عن أحـد لأنهـا صلة العبـد بربه، فيمكن للإنسان في حالة الاضطرار أن يصلي حتى بواسطة رموش عينيه.

هنـا أريـد أن أنبـه إلى الـوضوء والطهارة والغسل والتفصيلات الفقهية في هذا الصدد وذلك بإيراد الحقيقة التاريخية التالية:

لقـد ظهـر الإسـلام في شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، ونحن نعلم علم اليقين الحقائق التالية:

١ ـ أن شبه جزيرة العرب منطقة شحيحة جداً بالمياه، ويعتبر الماء مادة عزيزة جداً بالنسبة للعرب، وأن مدينتي مكة ويثرب لا تقعان على البحر.

٢ ـ لا يوجد في شبه جزيرة العرب في ذاك الوقت تمديدات صحية، مياه حلوة ومياه مالحة وحمامات في المنازل.

٣ ـ عدم وجـود دورات ميـاه «تـواليت» في المنـازل حيث كانت نسـاء المدينة تخرج ليلاً خارج المدينة للتغوط.

هذه الأمـور الثـلاثة تبين أن مستوى النظافة العامة وإمكانياتها عند الناس كان أدنى منه عندنا الآن. فنحن الآن نعيش في القرن العشرين الميلادي «الخامس عشر الهجري» بشروط أفضل بكثير مما كان عليه الناس في القرن السابع الميلادي من حيث توفر المياه ووسائل النظافة الخاصة والعامة.

وأعتقـد أنـه لا يشـك أحـد من النـاس بصحـة شروط الطهـارة والـوضـوء عند الصحابة وعند نساء المسلمين في يثرب في عهد النبي ﷺ بتلك الشروط التي تعتبر أدنى بكثير من شروطنا المعاصرة. لذا فإن الصفحات الطوال التي كتبت عن الوضوء والطهـارة والغسـل في كتب الفقـه المـوروثـة هي كلام لا يتفق أبداً مع الشروط التي عاشها الناس في صدر الإسلام في يثرب ومكة حيث أن الاستفاضة والشرح المفصل لهـذه الأمـور هو نوع من التـرف الفقهي غيـر مفيد وغير عملي. وإذا أراد إنسان ما أن يتقيد بحرفية هذه الكتب فإنه سيصاب بداء الوسواس بصحة وضوئه وطهارته وصلاته، وقد تم ترسيخ مثل هذا النوع من الفقه خلال قرون عصور الانحطاط. ومن المؤسف أن يدرس اليـوم على أنـه جزء أسـاسي من الفقـه الإسـلامي حيث أن العبادات وخاصة

الصلاة والصوم لا تحتاج إلى أكثر من ساعة واحدة لشرحها لأكثر الناس سذاجة، وقد فرضت الصلاة على إنسان يبلغ من العمر عشر سنوات، فهذا يعني أن الإنسان بعمر عشر سنوات قادر على أن يستوعبها.

أما الصوم من الناحية اللغوية فهو الامتناع عن الكلام كقولنا صام الديك أي امتنع عن الصياح. وهذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾. (مريم ٢٦). ثم جاء معنى الصوم الإسلامي محمولاً عليه وهو الامتناع عن الطعام والشراب والنكاح من الفجر حتى الليل في شهر رمضان.

الزكاة:

الزكاة كما جاءت في الكتاب هي للمسلمين ولغير المسلمين كقوله تعالى عن المسيح: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً﴾. (مريم ٣١). وقوله عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾. (مريم ٥٥). فالزكاة من الناحية اللغوية تعني النماء والزيادة والطهارة «التزكية».

وبمعنى التزكية جاءت في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾. (التوبة ١٠٣). وهذا ما نستعمله في المصطلح الحديث بأن فلانا زكى فلاناً أي شهد بصلاحه من ناحية الكفاءة والأمانة لمنصب ما.

فالزكاة في معناها العام هي الزيادة والنماء. وهكذا نفهم مفهوم زكاة المال، وكيف جاءت الزكاة في الإسلام وقبل الإسلام في نفس المصطلح. هنا نلاحظ دقة الكتاب في الزكاة بأنه تركها مفتوحة من ناحية الكم وكيفية الجباية ولكنه وضع لها حداً أدنى وما زاد عنه فهو صدقات لذا فمصطلح الصدقات أعم من الزكاة، وحددها بشكل دقيق من ناحية الإنفاق. وأعتقد أن هذا الإطلاق والتحديد للسبب التالي:

آ ـ **الإطلاق من حيث الكم والكيف في الجباية:** بما أن الزكاة مال يدفع على شكل نقدي أو عيني، وبالتالي فإن الوضع الاقتصادي التاريخي وبنية الدولة التاريخية يؤدي دوراً هاماً في الكم والكيف، فقد حدد النبي ﷺ الزكاة بأنها ١/ ٤٠ أي ٢,٥ ٪ وأعتقد أن هذا التحديد هو كحد أدنى للزكاة «للصدقات» لا كحد

أعلى، أما من يدفع الزكاة ومن لا يدفع فهذا متروك للظروف الموضوعية الاقتصادية والاجتماعية ويحدد من قبل المجتهدين حسب هذه الظروف. أما من يجبي الزكاة فقد تمت جبايتها لأول مرة من قبل الدولة حيث أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل. فوقع تأسيس الدولة العربية على عاتق الإسلام.

وكانت الزكاة هي أول دخل رسمي للدولة إذ ربط الدولة بأمر تعبدي من الناحية المالية، ولكن هذا الربط كان ربطاً مرحلياً، إذ بعد نمو الدولة وإيجاد دخول أخرى لها كان يمكن للدولة أن تشكل ميزانيتها بدون أموال الزكاة. وتحديد أوجه الإنفاق للزكاة أكد أن الدولة لها مهمة أكبر من مهمة الأوجه التي تنفق الزكاة من أجلها ففي عصرنا الحاضر هناك المنشآت المدنية «الطرق والجسور وسكك الحديد والموانىء والهاتف والكهرباء وتمديدات مياه الشرب والمياه المالحة ومنشآت البحث العلمي والجامعات والمدارس والمشافي والبلديات.. الخ». كل هذه البنود لا تدخل تحت بند الزكاة ولكنها تدخل كلها أو جزء منها ضمن مسؤولية الدولة حسب بنية الدولة الاقتصادية.

لذا فإنه من السذاجة بمكان، الظن بأن الزكاة هي ضريبة، أو أن الزكاة هي مصدر الدخل في الدولة الإسلامية. إذ قد تكون هناك دولة مبنية على أسس إسلامية دون أن تجبي زكاة من أحد، وهذا يقودنا مباشرة إلى تحديد أوجه الإنفاق للزكاة.

ب ـ التحديد في الإنفاق: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة ٦٠).

لقد جاء هذا التحديد للإنفاق لكي يؤكد أن الزكاة ليست ضريبة للدولة وليست البديل للضرائب ولنفقات الدولة، ويمكن أن تكون دخلاً للدولة في ظروف تاريخية معينة كما حدث عند قيام الدولة العربية الإسلامية.

ومن ناحية أخرى جاء هذا التحديد لكي يؤكد ويرد على بعض المزاودين بأن الإسلام يعترف بوجود الفوارق الطبقية أي أن هناك يداً عليا ويداً سفلى. هذا صحيح، فالإسلام يعترف بوجود فروق الدخل بين الناس لأن هذا واقع موضوعي، حيث أن الإسلام لا يدور في الأوهام ولا الطوباويات وعليه فإن مسألة الغنى والفقر دائماً مسألة نسبية وليست مطلقة تتبع الظرف التاريخي والبنية الاقتصادية لمجتمع

ما. وإذا نظرنا إلى كل دول العالم دون استثناء مع أنها ذات بنى اقتصادية مختلفة رأينا أن مسألة الغنى والفقر لها وجود نسبي في كل هذه الدول وأنها تأخذ مظاهر مختلفة حسب بنية الدولة والمجتمع. لأن الإسلام يؤمن بالمساواة المطلقة بين الناس في إنسانيتهم وحقهم في الحياة والحرية بغض النظر عن عقائدهم وعن مركزهم الاجتماعي والاقتصادي، حيث أن الحياة والحرية هما هبة من الله لعباده، ولكنه يقر بفوارق الدخل والدرجات بين الناس انطلاقاً من قوانين الجدل المادي حيث أن قانون التأثير والتأثر المتبادل لا يمكن أن يعمل بشكل ٥٠٪ و ٥٠٪ أي يمكن أن يؤثر x على Y أكثر من تأثير Y على X وتبقى العلاقة بينهما علاقة تقابلية زوجية غير تناقضية. فإذا كانت X تؤثر على Y كلياً دون تأثير متبادل من Y على X فهنا يحصل الخلل، أي كلما ضعفت العلاقة المتبادلة بينهما زاد الخلل.

وقد يقول قائل: إذا كان الدخل القومي كله بيد الدولة، فهل تلغى الزكاة؟

الجواب: لا، لا يمكن للسببين التاليين:

- لا تلغى على مستوى فردي لأنه لا يمكن أن تكون هناك دخول متساوية بين الأفراد لأن التفكير بهذا الاتجاه هو ضرب من ضروب العبث.

- إذا نظرنا إلى أوجه صرف الزكاة، فمن المستحيل قطعياً إلغاؤها من أي مجتمع مهما كان نوعه ودرجة رقيه. فحسب التطور الاجتماعي والاقتصادي يمكن إلغاء جزء من هذه البنود كما حدث أن ألغى عمر بن الخطاب «رض» بند «والمؤلفة قلوبهم» حيث امتنع عن الدفع لهم من أموال الزكاة لزوال سبب الدفع

وننتقل الآن لنناقش ما هي الأوجه التي لا يمكن أن تلغى في أي مجتمع مهما كان نوعه:

١ - الفقراء والمساكين: لقد ميز الكتاب بين الفقير والمسكين، حيث أنهما حالتان مختلفتان تماماً. فالفقير جاءت من فعل «فقر» وهو في اللسان العربي أصل صحيح يدل على انفراج في شيء من عضو أو غير ذلك، ومنه جاء الفَقَارُ للظهر الواحدة «فقرة - فَقَارَةٌ» ومنه جاء العمود الفقري، ومنه اشتقت كلمة الفقير وهو المكسور فَقَارِ الظَّهْرِ من ذلته. فالفقير هو الإنسان المذلول من قلة الدخل كأنه قصم ظهره، ولكن هذا الإنسان ليس من الضروري أن يكون مسكيناً. فمصطلح الفقير هو مصطلح متطور حسب الظروف الإجتماعية والاقتصادية للمكان والزمان الذي نعيش

فيه. لذا وجب علينا عدم التقيد بمصطلح الفقير الذي وضعه الفقهاء في عصور سابقة لأنه قد لا ينسجم مع معطياتنا المعاصرة وعلينا أن نحدد مصطلح الفقير وفقاً للشروط الموضوعية التي نعيشها نحن، لا وفقاً للشروط التي عاشها الفقهاء السابقون. فمثلاً يمكن دمج الأيتام الذين لا معيل لهم ضمن الفقراء والصرف على مؤسسات رعاية الأيتام من الزكاة.

أما المسكين فقد جاءت من فعل «سكن» ومنه جاء السكون والمسكن وهو المكان الذي يسكن فيه الإنسان ويهدأ، فالمسكين هو الإنسان القليل الحيلة أي الذي فيه سكون نسبي عن غيره كالأعمى والأصم الأبكم والمقعدين والقاصرين عقلياً أو فاقدي أحد أعضاء الحركة كاليد أو الرجل أو الكف. كل هؤلاء الناس يدخلون تحت بند المساكين. هنا نلاحظ كيف أنه يمكن للإنسان أن يكون فقيراً ولا يكون مسكيناً والعكس صحيح. قد يسأل سائل: إذا كان الإنسان مسكيناً غير فقير فلماذا نساعده؟ الجواب: هل يمكن لإنسان واحد أعمى أن يفتح مدرسة لتعليم نفسه ويؤهل نفسه للعيش في المجتمع..؟ وقس على هذا. حيث أن كل مؤسسات تأهيل المساكين ورعايتهم تأخذ أموالها من الزكاة.

٢ ـ الغارمين: هم الناس الذين وقع عليهم غرم ولا يستطيعون سداده كتأدية الدية للقتل الخطأ. لذا وجب علينا تحديد الغارمين وفق شروطنا المعاصرة.

وهنا يجب علينا أن ننبه إلى نقطة مهمة جداً وهي أن الغارمين في الإسلام تسدد غراماتهم من الزكاة وليس على حساب المتضررين من الناس أي أن حقوق الناس أمانة في عنق الدولة ولا يجوز للدولة أن تعفو مجاناً عن الذين تسببوا في الضرر للآخرين نيابة عن المتضررين. وإذا أرادت أن تعفو عنهم فعليها أن تسدد عنهم التزاماتهم. لذا جاء بند الغارمين كأحد بنود الزكاة.

٣ ـ ابن السبيل: هم الناس الذين انقطعوا في أثناء السفر كأن سرقت نقودهم وانقطعوا.

إنني ذكرت هنا أربعة بنود فقط من بنود صرف الزكاة لأنه لا يمكن أن يخلو مجتمع مهما كان نوعه من هؤلاء الناس «الفقراء حسب تعريف معاصر والمعوقين بكل أنواعهم، الغارمين، والمقطوعين في السفر». وأعتقد أن أدق تعريف للفقير «هو الإنسان غير القادر على سداد أي قرض مهما كانت قيمته نسبة للظروف الاقتصادية

والاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه».

لقد جاءت بنود صرف الزكاة صريحة لكي يؤكد الله سبحانه وتعالى حقوق هؤلاء الناس على مجتمعهم حيث أن هذه الحقوق لا مزاح فيها.

فإذا كان الدخل القومي كله بيد الدولة فهذا يعني أن ٢,٥٪ من ميزانية الدولة كحد أدنى يجب أن ينفق على هذه البنود. فلنتصور الآن مدى رقي العلاقات الإنسانية في دولة من هذا النوع. فإذا كانت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل لها ميزانية لا تقل عن ٢,٥٪ من ميزانية الدولة ككل ومهمتها رعاية هؤلاء فقط فهذا مؤشر كبير للمستوى الحضاري للدولة.

هنا أريد أن أنبه أنه على المجتهدين المعاصرين إعادة النظر بنصاب الزكاة ومن يدفع وعلى ماذا تدفع الزكاة وتعريف الفقير والغارم وتحديد طرق الجباية وعدم الاعتماد فقط على الفقهاء القدامى حيث أن شروطنا الاقتصادية ومتطلبات الحياة والعلاقات الإنتاجية أصبحت متغيرة تماماً عن العصر الذي عاش فيه الفقهاء القدامى.

أنواع العبادات:

العبادات في الإسلام أربع وهي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

فلنناقش هذه العبادات من حيث النوع والمظهر، فأقدم العبادات هي الحج:

الحج:

لقد بدأت الصلة بين العبد وربه منذ أقدم العصور بشكل مشخص على شكل قرابين وأضحيات. فنرى في كل الديانات القديمة مفهوم الأضحية للإله أو الآلهة. هذا الشكل من التعبد له أساس إلهي ولكنه تحول إلى صور وثنية مختلفة بتعدد الآلهة، فالأضحية هي صلة مادية للاقتراب من الإله، ولها مكان معين تؤدى فيه،

أي أنها عبادة مشخصة بالحواس «عبادة فؤادية». فإذا نظرنا إلى الحج رأينا أنه العبادة الإسلامية المشخصة. فالكعبة بناء حجري يتم الطواف حوله. والصفا والمروة صخرتان يتم السعي بينهما، ثم الوقوف بعرفة والرجم والأضحية. كل هذه العمليات تتم وفق أشياء مشخصة بما فيها الرجم، لذا فإنه لا يستغرب أن الحج كان قبل الإسلام. ثم جاء الإسلام وهذبه وثبته، وإنه من السذاجة القول بأن الحج هو من بقايا الوثنية ولكنّ من الصحيح أن نقول: إنّ الحج هو استمرارية العبادة الفؤادية البدائية المشخصة بحاستي السمع والبصر. وهكذا نفهم قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. (إبراهيم ٣٧). هنا نلاحظ أن الحج استمرارية تاريخية للعبادات القديمة والتي تم فيها التباس في الفهم على أنها استمرارية للوثنية مع أنها استمرارية للشكل الفؤادي المشخص للعبادات الربانية.

وعلينا أن نلاحظ ما يلي:

لقد وجه الكتاب الخطاب حول الصلاة والزكاة والصوم للمؤمنين مباشرة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. (المؤمنون ١ ـ٢) ولكن حول الحج تم توجيه الخطاب إلى الناس في قوله: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. (آل عمران ٩٧). وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾. (الحج ٢٧) هذه الناحية يجب دراستها حيث أن الحج وأماكن الحج لها مدلول أساسي بالنسبة للناس أجمعين، وقد ذكرت هذا في مقام آخر في الكتاب.

الصوم:

عبادة لها علاقة بالغريزة الإنسانية وهي الطعام والشراب والجماع الجنسي. فالصوم أساسه سيطرة العقل والإرادة الإنسانية الواعية على الغرائز البشرية غير الواعية وهو عبادة شخصية فردية بحتة.

الزكاة:

عبادة لها علاقة بشهوة التملك والمعاملات المالية بين الناس ومدى التزام الإنسان بالعلاقة الغيرية غير الفردية المتحضرة مع الآخرين.

الصلاة:

وهي عبادة مجردة بحتة حيث أنها صلة مباشرة للعبد بربه وهي أرقى العبادات ليس لها علاقة بالغيرية أو بالأمور الشخصية الأنانية. ولنلاحظ هذه الناحية المهمة جداً فنرى أن قمة المجرد في العبادات وهي الصلاة ارتبطت بقمة المشخص في العبادات وهي الحج حيث أن الكعبة هي قبلة المصلي وهي من المشخصات.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل هناك حدود في العبادات؟ إن العبادات أيضاً تخضع لنظرية الحدود، إذ نرى أن العبادات وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة تخضع للحدود:

١ ـ الصوم: الحد الأدنى هو صوم رمضان ولا يوجد حد أعلى وله رخصة لاجتيازه.

٢ ـ الزكاة: لقد وضع النبي ﷺ **الحد الأدنى للزكاة** وهو ٢,٥٪ وبما أن هذه النسبة هي من وضع النبي ﷺ وهي من الحدود فيجب التقيد بها كحد أدنى، فهي متغيرة صعوداً، لذا جاء مصطلح الصدقات أعم من الزكاة.

٣ ـ الحج: الحد الأدنى مرة واحدة في العمر على المستطيع.

٤ ـ الصلاة: لم يرد الحد الأدنى للصلاة صراحة في الكتاب على أنه الأوقات الخمس «الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء» ولكن ورد صراحة صلاة الجمعة وتم التأكيد على صلاة العصر ﴿حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾. (البقرة ٢٣٨). وتم الحث بشكل مؤكد على إقامة الصلاة. أي أننا حسب منطوق الكتاب يمكن أن نحدد أربعة مستويات للصلاة:

ـ المستوى الأول ـ صلاة الجمعة «جاء أكبر تأكيد عليها حيث وردت صراحة في الكتاب» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ

الله وذَرُوا الْبَيْعَ﴾. (الجمعة ٩).

- المستوى الثاني - الصلاة الوسطى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾. (البقرة ٢٣٨).

- المستوى الثالث - الصلوات الخمس ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. (المؤمنون ٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج ٣٤).

- المستوى الرابع - النفل والتطوع ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. (الفرقان ٦٤).

وقد أكد النبي ﷺ على مستوى صلاة الجمعة والصلوات الخمس في حديثه ان صح «الصلاة مكفرة لما بينها الصلاة للصلاة والجمعة للجمعة».

من منطوق الآيات والحديث ان صح نستنتج أن تارك صلاة الجمعة وهي أكبر مستوى من التأكيد يمكن أن يخرج من دين الإسلام التعبدي. ويجب أن ننبه هنا أن العبادات في الإسلام هي من التقوى الفردية لا الاجتماعية، أي أنها تخص كل إنسان على حدة ولا علاقة لها بالدولة وبالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

٥ - الوضوء: الحد الأعلى والحد الأدنى جاءا في الآية رقم ٦ من سورة المائدة. الحد الأعلى للوضوء كما ورد في أول الآية، والحد الأدنى التيمم، والاجتهاد هو الحركة بينهما. ويمكن أن يكون الحد الأعلى للوضوء هو الاغتسال والحد الأدنى هو التيمم.

الفرع الثاني

الفرقان أو الوصايا العشر «الأخلاق»

الفرقان هو التقوى الاجتماعية، وهو الأخلاق المشتركة في الأديان السماوية الثلاثة لذا فرقها الله لوحدها وسماها «الفرقان». وعلى المسلم أن يتعامل مع المسلم وغير المسلم على هذا الأساس لا على أساس التقوى الفردية والتي تعتبر العبادات

من ضمنها، وهو الصراط المستقيم بالنسبة لموسى، والحكمة بالنسبة لعيسى، وهو مع الحدود يشكل الصراط المستقيم بالنسبة لمحمد ﷺ.

«التعاليم اليهودية + التعاليم المسيحية + التعاليم الإسلامية» القاسم المشترك فيها = الفرقان.

ويجب أن نميز بين نوعين من الفرقان: الأول: الفرقان العام، والثاني الفرقان الخاص. حيث أن الفرقان العام هو الحد الأدنى من التعاليم الأخلاقية الملزمة لكل الناس، وهو القاسم المشترك بين الأديان، وفيها تتحقق التقوى الاجتماعية. كما أن هناك فرقاناً خاصاً جاء لمحمد ﷺ وهو فقط للذين حققوا التقوى الاجتماعية بحدها الأدنى «أي الفرقان العام» ويريدون زيادة في ذلك، أي يريدون أن يكونوا أئمة للمتقين. وقد ذكر الفرقان الخاص في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. (الأنفال ٢٩). هنا نلاحظ أن الفرقان الخاص جاء منكراً في هذه الآية حيث تم تحديد بنود هذا الفرقان الخاص بمحمد ﷺ في سورة الفرقان من الآية ٦٣ إلى الآية ٧٦.

أولاً ـ الفرقان العام

لقد جاء الفرقان العام مختصراً في سورة الأنعام في الآيات التالية:

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (الأنعام ١٥١).
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (الأنعام ١٥٢).
- ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (الأنعام ١٥٣).

وقد جاء الفرقان مشروحاً في سورة الإسراء «سورة مكية».

هذه الوصايا العشر هي الأخلاق وهي رأس التقوى الاجتماعية، لنشرحها الآن بالتفصيل، كل وصية على حدة:

ـ الوصية الأولى:

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: هنا قال لا تشركوا به شيئاً ولم يقل لا تكفروا به شيئاً فما الفرق بين الشرك والكفر؟

ـ الشرك والكفر:

الشرك جاءت من «شرك» ولها في اللسان العربي أصل واحد وهو جعل شيء ندا لشيء ومكافئاً له، ومنه جاءت الشركة والشراكة كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. (طه ٣٢). وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ﴾. (النساء ١٢). فالله سبحانه وتعالى له أسماء حسنى. فمن أسمائه الحسنى «الباقي» أما غير الله فهو دائم. وقد شرحت معنى الديمومة في وحدة التقطع والاستمرار. فالدائم هو دائم التغير في حركة تقطع واستمرار على محور هو الزمن. فالعرب قبل الإسلام كانوا مشركين ولم يكونوا كافرين، والكون متغير متحرك دائماً ولا يوجد أي ثبات في هذا الكون. أما الله سبحانه وتعالى فهو ثابت لذا فعندما عبد العرب الأصنام ثبتوا صفة الهية للحجارة وهي الثبات. طبعاً هذا التثبيت كان تصوراً باطلاً في أذهانهم، ومن هذا المنطلق كان للشرك مظاهر كثيرة جداً في تثبيت الظواهر الطبيعية والاجتماعية ووضع صفة الأبدية لظاهرة ما وخاصة لهذا الكون الحالي، وعدم الأخذ بعين الاعتبار ظاهرة التطور، وأن التسبيح «الجدل الداخلي» هو شكل الوجود المادي الحالي حيث أن الشرك له مظهر خاص به يتجلى في الطاعة والالتزام كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. (الأنعام ١٢١). فللشرك نوعان:

١ ـ الشرك الظاهر «شرك الألوهية»: كعبادة الأصنام ومظاهر الطبيعة وعبادة الفرد «التأليه» وعبادة الهوى وتثبيت التشريع وشكل الدولة حيث أن التشريع متطور دائماً «حنيف» ضمن حدود الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. (الجاثية ٢٣)، والاعتقاد أن الأموات لهم صفة المساعدة والعطاء كزيارة قبور ما يسمى بالأولياء

وتقديم النذور لهم. ففي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاء وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾. (النساء ٤٨).

٢ ـ الشرك الخفي «شرك الربوبية»: وهو تثبيت مظاهر الطبيعة وحركة التاريخ عند مرحلة معينة والاعتقاد بثبات الأشياء والظواهر الاجتماعية أي جعل الطبيعة والظواهر الاجتماعية متكافئة مع الله في البقاء، وهذا النوع يقع به كثير من الناس وفي هذا بين الله تعالى هذا النوع من الشرك بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. (يوسف ١٠٦). وقول النبي ﷺ ان صح «اتقوا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل».

فالعرب قبل الإسلام كانوا واقعين في نوعين من الشرك الظاهر والخفي. أما الظاهر فقد تجلى بالوثنية. وأما الخفي فقد تجلى بالثبات على الوضع القبلي العشائري وعدم التطور والتقدم. كل هذا حصل وهم لا يقولون بأنهم مشركون حيث أن الشرك لا يحتاج من صاحبه أن يعلن عنه لأنه لسان حال، لا لسان مقال.

لنبين الآن كيف ربط الله سبحانه وتعالى الشرك بالثبات والتوحيد بالتطور. لقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى أن الأمثال في الكتاب كلها قرآن، وفي كل مثل من أمثال القرآن يعطينا الله قانوناً موضوعياً بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾. (الزمر ٢٧، الروم ٥٨). وقد بين لنا أن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العلماء وذلك بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. (العنكبوت ٤٣). فقد ضرب لنا مثلاً على الشرك في سورة الكهف بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾. (الكهف ٣٢). ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً﴾. (الكهف ٣٣). ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾. (الكهف ٣٤). ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَاأَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾. (الكهف ٣٥). ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾. (الكهف ٣٦). ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾. (الكهف ٣٧). ﴿لَٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾. (الكهف ٣٨).

هنا نلاحظ في هذا المثل ومن هذه المحاورة الرمزية بين رجلين أحدهما كان

له وضع نموذجي من شجر وزراعة ومياه وغلة، والآخر لم يكن له ذلك فكان موقف الأول هو أنه ظن أن هذا الوضع يحمل صفة البقاء والأبدية لذا قال: ﴿مَاأَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف ٣٥). ولكن هذا الموقف يؤدي مباشرة إلى نكران الساعة واليوم الآخر حيث أن الساعة والصور هما تغير كامل في صيرورة الكون ينشأ على أنقاضه خلق «تصميم» جديد للكون لذا أتبعها بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. (الكهف ٣٦). أي أصبحت الساعة ليس لها معنى، أو أنها أصبحت أمراً احتمالياً مشكوكاً فيه بقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾. (الكهف ٣٦). هذه الأطروحة باحتمالية الساعة موجودة الآن عند كثير من الناس بقولهم، إننا نؤمن بالساعة واليوم الآخر فإذا كان هناك ساعة ويوم آخر فنحن الرابحون، وإذا لم يكن هناك ساعة ويوم آخر فلا نخسر شيئاً.

زَعَمَ المُنَجِّمُ والطبيبُ كلاهُما أنْ لا معادَ فقلتُ ذاكَ إليكما
إنْ صَحّ زعمكما فلست بنادمٍ أو صحَّ زَعْمي فالوبالُ عليكما

إنّ هذا مما لا يصح لمسلم أن يقع فيه لأن الساعة والصور واليوم الآخر هي كلمات الله، والمسلم على ثقة ويقين بحدوثها كثقته ويقينه بوجوده هو في هذه الحياة الدنيا وثقته بوجود هذا العالم المحيط به من شمس وقمر ونجوم ومجرات.

فعندما رد عليه صاحبه رد عليه بموقفين: الأول اتهمه بالكفر بقوله: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾. (الكهف ٣٧). فكان هذا الموقف هو موقف كفر حيث أنه غطى وتجاهل قانون التطور وتغير الصيرورة مع علمه بأن هذا القانون موجود موضوعياً: ﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾. أما الاتهام الثاني فهو الشرك بقوله: ﴿لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. (الكهف ٣٨). هنا كان لسان حال الأول أن يثبت الشكل «البقاء» لغير الله فوضع البقاء والأبدية في غير الله فأكد على سخف هذا الموقف بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. (الكهف ٤٢). فكان هذا الموقف هو موقف شرك بالربوبية بقوله: ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. لأنّ من يؤمن بثبات الأشياء والمجتمعات وعدم التغير الدائم في صيرورتها فموقفه موقف مشرك بربوبية الله وناكر لقانون تسبيح الأشياء لله، أما من يؤمن بثبات الوثنية وعبادة الفرد من ولي أو زعيم فهو

شرك بالألـوهيـة لأن الشـرك بالألوهية يتولد عنه طاعة والشرك بالربوبية يتولد عنه قناعة ونظرة إلى الكون ومن باب توحيد الربوبية قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾. (الأنعـام ١٦٤). وقـوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. (الإسراء ١١١).

هذا ما يجب أن ينتبـه إليـه الإنسـان المسلم بأنه لا يوجد أي ثبات في الأشياء والمجتمعـات والصنـاعـات والاختراعات والأفكار إلا ما جاء من عند الله في الحدود وكـل شيء متحـرك متغيـر الصيرورة يسبح الله، وأن الثوابت لا تأتي إلا من الله. فكل الطاعات لغير الله نسبية مرحلية ولكي يخلصنا الله من هذه الأزمة وهي طاعة المطلق وضع لنا العبادات التي هي صلة العبد مع المطلق وهي ثابتة لذا نقول لا يعبد الله إلا بمـا شرعـه هولنـا لأننـا نحن نسبيـون، هذا الثبـات المستقيم في العبـادة والأخلاق والحدود لكي يمارس الإنسان فطرته الحنيفية من خلالها، فالشرك بتعريفه العام «هو الثبـات في هذا الكـون المتحـرك» إنكـار لقـانون التسبيح ووقوفٌ ضد التطور، وهذا شرك الـربـوبية، وتثبيت لتشريع غير الله وهذا شرك الألوهية كتثبيت مذهب أو مذاهب فقهيـة معينـة وعـدم تطـوير التشريع بشكل عام لكي يتناسب مع الشروط الموضوعية المتطورة دائماً.

فشرك الربوبية هو من الشرك الخفي وشرك الألوهية هو من الشرك الظاهر وهذا ما لا يسامحنا الله عليه.

من هذا المنطلق ربـط لنـا الشرك الظاهر والخفي بالظلم بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُـوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِـهِ﴾. (الكهف ٣٥). وقـولـه: ﴿يَـابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. (لقمـان ١٣). وربـط الشـرك الظاهر لاتباع الذين يدعون الطاعة المطلقة بقوله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ﴾ (الأحقاف ٤). فكيف ربـط الشـرك بالظلم، والظلم في اللسـان العربي يعني «وضع الشيء في غير محله عن غير قصد أو عَنوة» فسكونية الفكر والفقه والتفسير هي من أول مظاهر الشرك الخفي عنـد العـرب حيث أنهم أعطـوا المـوروث صفـة المطلق وأكبـر مظاهر الشرك قاطبة هو سكونية الفكر (static state of mind) فالتخلف شرك والتقدم توحيد. أي أن الإنسـان المسلم حتى يبتعـد عن الشـرك فعليه أن ينكر ظاهرة الثبات في الأشياء وفي المجتمعـات وفي القـوانين التشـريعيـة ويجب أن يؤمن أن كل شيء متحـرك ما عدا

العبادات والحدود في شكلها ومحتواها والأخلاق في محتواها التي تشكل الصراط المستقيم «الثابت». وأن أي ظاهرة أو قانون يعيق التطور والتقدم فعلى المسلم أن يكافحهما بشدة ويحنف عنهما، فلا ثوابت في المجتمعات وفي الدول وفي القانون وفي السياسة لأنه حين نثبت فإننا نقع في الشرك والظلم. فمثلاً إذا كان هناك قانون صدر منذ مئة سنة ومازال ساري المفعول إلى اليوم، واختلفت الشروط الموضوعية لتطبيقه وهو ساري المفعول فهذا شرك وفيه منتهى الظلم.. وقس على هذا.

لهذا فإنه لا ثوابت في شعاراتنا الإسلامية إلا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» حيث لا يوجد شعار مختصر مفيد جامع مانع كهذا الشعار الذي يدمج كل قوانين التطور والتقدم والعدالة في جملة واحدة فلا قوالب جاهزة إلا هذا الشعار وهذا ما يجب أن تسعى إليه أي دولة عربية إسلامية في دستورها حيث يجب أن تنص أول مادة في الدستور على ما يلي:

كل القوانين التي تصدر في الدولة يعاد النظر فيها كل سبع سنوات «مثلاً» بحيث إذا لم تصدر مرة أخرى معدلة أو بدون تعديل ولم يعد النظر فيها تصبح غير نافذة المفعول على شرط أن تكون هذه التشريعات ضمن حدود الله.

إن نصاً من هذا النوع في دستور الدولة العربية الإسلامية يدل على مصداقية عقيدة التوحيد عندها ويجعل المشرعين والقانونيين في حالة عمل دائم دون كسل وخيبة، وفي الوقت نفسه تصبح الأحزاب والمنظمات الشعبية والنقابية والصحافة ذات فعالية كبيرة، فمن خلال مؤتمراتها وصحفها تدعو إلى تعديل القوانين لأنها قانعة ومتأكدة بأن دستور دولتها ينص على إعادة النظر بالقوانين وإلا فإنها ستفقد مفعولها. هذه المادة هي لتفادي الشرك الخفي.

أما المادة المخصصة لتفادي الشرك الظاهر «شرك الألوهية» فهي:

آ ـ لا يوجد في الدولة العربية الإسلامية طاعة مطلقة ولا حكم مطلق ولا بقاء أو استمرارية، وكل واحد يسمع منه ويرد عليه، وإن الطاعة المطلقة هي لحدود الله، والطاعة النسبية هي للقوانين المتحركة المتبدلة دائماً ضمن الحدود، وإن حرية الفكر هي من أقدس المقدسات في هذه الدولة.

ب ـ إن الدولة العربية الإسلامية مبنية على البينات المادية الموضوعية، لذا فإن منهج التفكير الموضوعي والبحث العلمي والتطور والتصور المبني على

التصديق، لا التصديق المبني على التصور هو الذي يحدد خط سير الدولة، والالتزام بهذا المنهج هو الذي يحدد مصداقية الناس في هذه الدولة بغض النظر عن الحسب والنسب وموقع المسؤولية الذي يشغله أي شخص.

هاتان السمتان هما اللتان تحددان بنية الدولة العربية الإسلامية بغض النظر عن البنية الاقتصادية التاريخية لأنهما صالحتان لكل البنى الاقتصادية.

لقد عرفنا الشرك بكل جوانبه الظاهرة والخفية. فما هو الكفر؟ هل يمكن أن يكون كل مشرك كافر؟ أو كل كافر مشرك؟

جاء لفظ الكفر من «كفر» وهذا الفعل يعني في اللسان العربي «التغطية والستر ونكران الموجود «الحقيقة» عن سابق معرفة أو جهل» ومنه جاء اسم «الكَفْر» وهي القرى المغطاة بثنايا الجبال، وجاء اسم الكَفْر للمناطق الزراعية النائية.

فجاء فعل «كفر» في المعنى اللغوي المادي المباشر في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾. (الحديد ٢٠). هنا جاءت «الكفار» بمعنى الناس الذين يعملون في الزراعة حيث أنهم يحفرون الأرض ويضعون البذار ثم يغطونه ويسترونه.

وجاء أيضاً من كفر معنى التكفير والكفارة والكفران وهو التغطية عن سابق معرفة لقوله تعالى: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾. (آل عمران ١٩٥). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. (العنكبوت ٧) هنا نكفر أي نغطي ونستر عن سابق معرفة وهو ما نسميه اليوم التغاضي عن سابق معرفة. أما الكفارة فهي عمل لستر الذنب كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾. (المائدة ٩٥). وعندما أخبر بأن الله لا يغطي ولا يستر للناس أعمالهم الصالحة قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾. (الأنبياء ٩٤).

إن الكفر بمعناه العقائدي هو تغطية وستر للحقيقة عن جهل وتجاهل ويعبر عن هذا الموقف بلسان مقال لا بلسان حال. فالعرب قبل الإسلام كانوا مشركين شرك ربوبية فكان الشرك لسان حال حياتهم وسلوكهم دون أن يقولوا ويعلنوا أنهم مشركون بل على العكس كانوا يعلنون بقولهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. (العنكبوت ٦١). وكان محمد ﷺ منهم ولكنه

رفض الواقع الذي كانوا يعيشون فيه ولكنه لم يعلم ماهو البديل، أي أنه رفض الواقع المشرك دون معرفة البديل، هذا قبل الإسلام. وعندما جاءه الوحي أعطاه البديل لذا قال تعالى عن محمد ﷺ ووضعه قبل الإسلام ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. (يوسف ٣). وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ. . . الآية﴾. (الشورى ٥٢). لذا فإن ظاهرة الرفض في أي مجتمع هي ظاهرة تسبق تقديم البديل وهذه الظاهرة هي من الإرهاصات الصحية لأي ثورة أو حركة إصلاحية.

وعندما بعث محمد ﷺ انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم آمن به «المؤمنون».

٢ ـ قسم لم يؤمن به ولم يقف ضده فبقوا مشركين.

٣ ـ قسم لم يؤمن ووقف ضده في مواقف علنية عدائية فهؤلاء بالإضافة إلى شركهم أصبحوا كافرين.

هنا يجب أن نفهم تماماً معنى الكفر الذي هو لسان مقال وموقف أمّا الشرك فلسان حال قناعة وطاعة.

وهكذا نلاحظ كيف وصف القرآن الناس الذين وقفوا ضد دعوة الأنبياء بقوله:

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾. (الأحقاف ٣). لاحظ قوله ﴿مُعْرِضُونَ﴾.
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾. (العنكبوت ١٢). لاحظ قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾. (الروم ٥٨). لاحظ قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾.
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. (سبأ ٧). لاحظ «قال».
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾. (سبأ ٣١).
- ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. (يس ٤٧).
- ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. (الصافات ١٧٠).

- ﴿فَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾. (هود ٢٧).
- ﴿أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. (هود ٦٠).

لذا قال الله للنبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. (التوبة ٧٣، التحريم ٩).

- ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾. (النساء ١٣٦).

وعلى هذا فإن منكري الله ورسله واليوم الآخر لا نقول عنهم ملحدين بل هم كفار. ثم لاحظ موقف الكفر كيف جاء بصراحة كبيرة على أنه لسان مقال وموقف بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. (المائدة١٧ - ٧٢). ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾. (المائدة ٧٣).

ونلاحظ موقف الذي آتاه الله الملك مع إبراهيم بقوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾. فكان الجواب ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾. (البقرة ٢٥٨)

وليبين أن الشرك لسان حال وهو غير الكفر بينه بقوله: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (يونس ١٠٥). ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (يوسف ١٠٨). ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (النحل ١٢٠). ﴿وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (النحل ١٢٣). وقد أورد الشرك والكفر في آية واحدة ولكل لفظ منهما معناه الخاص بقوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾. (غافر ٨٤). هنا «كفرنا» أي اتخذنا موقفاً علنياً «قالوا» واضحاً ضد كل مظاهر الشرك، وقوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾. (آل عمران ١٥١).

وأمّا من حيث القتال فقد أمر الله بقتال المشركين عندما يقاتلون المؤمنين بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾. (التوبة ٣٦). أما الكفار فقد نصح بأشد من ذلك بقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. (التوبة ٧٣، التحريم ٩).

وهكذا فإننا لا نرى في الكتاب كله إلا آية واحدة تقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. (النحل ٣٥). لأنه دائماً يعطي الشرك كلنسان حال وقناعة. وآية واحدة تتحدث عن المستقبل وهي: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا

وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ . (الأنعام ١٤٨) . إن هذه الآية في معناها المعاصر وتطبيقها الحالي هي :

١ ـ تعيش أمة من الأمم في وضع سكوني متخلف «شرك خفي» قانوني ومعرفي .

٢ ـ هذه الأمة لا يوجد عندها قوانين متطورة أي أنها تطيع قوانينها البالية القديمة أي قوانين مطلقة «شرك ظاهر» .

٣ ـ وحرم مشرعو هذه الأمة كثيراً مما أحلَّ الله تحريماً دائماً غير ظرفي .

هذه الحال تنطبق على المسلمين تماماً فالفقهاء المسلمون السابقون حرموا كثيراً مما أحل الله «انظر مبحث المرأة في الإسلام» لذا قال: **﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾** . (الأنعام ١٤٨) . فإذا قلنا للفقهاء الحاليين غيروا هذا الفقه فسيرفضون ذلك لذا قال : **﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾** . (الأنعام ١٤٨) . فإذا قلنا لهم ذلك فسيخرجون لنا بالآراء التي كتبت في القرنين الثاني والثالث الهجري وسيبتعدون عن آيات الكتاب لذا أجابهم : **﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾** . فالكتاب لا ريب فيه والباقي فيه ريب فيصبح ظناً هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى عندما قال : **﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** . (الأنعام ١٤٨) . هذا يعني أنهم لم يقولوا بعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى سؤال استفهامي وليس موقف إنكار بعد . فعندما أتاهم الجواب واتخذوا بعد ذلك موقفاً مضاداً أصبحوا كافرين .

أما قوله تعالى : **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾** . (النحل ٣٥) . نرى أن هذه الآية هي جواب للآية ١٤٨ من سورة الأنعام حيث بدأت بقوله : **﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** . فجاءت هذه الآية جواباً لها . وقد أكد فيها أنه لا محرمات من عند الله إلا ما جاء في الرسالة «الحدود» فقط . فعلينا أن لا نعبث بكلمة حرام فهي كلمة كبيرة جداً .

ـ الوصية الثانية «وبالوالدين إحسانا» :

لقد وضع الله بعد الشرك بالله هذه الوصية، وذلك لسببين :

١ ـ إن أساس الحياة هو التكاثر والتباعد والانفصال والانتشار، فإذا نظرنا إلى الحياة النباتية نرى أن الشجرة ترعى بذورها حتى تنضج ثم تنفصل البذرة من الثمرة الأم لتكون شجرة بنفسها وقد تشارك هذه البذرة بعد الانفصال الشجرة الأم في غذائها. وإذا نظرنا إلى الحياة الحيوانية رأينا أن الوالدين يرعيان أطفالهما بتقديم الطعام لهم والدفاع عنهم حتى سن معينة ثم ينفصل الأولاد عن الأبوين انفصالاً كاملاً، وقد يتناحر الأبناء مع الآباء على الفريسة والطعام، وهذه هي سنة الله في خلقه حتى في الإنسان. فالإنسان وهو طفل كائن بشري يسلك سلوكاً حيوانياً وأبواه ومجتمعه يعلمانه، والأم والأب يرعيان الأولاد ثم يكبر الأولاد وينفصلون عنهما وقد يهاجرون إلى مكان آخر بعيد ابتغاء العلم والعمل والرزق. فقد أمرنا الله من الناحية الإنسانية لامن الناحية البشرية أن نحسن لآبائنا وألا ننساهم كما تنسى البهائم والديها ونرعاهم ولا نقول لهم إلا قولاً حسناً: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. (الإسراء ٢٣).

لم يوص الله الآباء بأولادهم لأن حرص الأبوين على الأبناء ليس من الوصايا الإنسانية وإنما هو من الغرائز البشرية حيث قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. (لقمان ١٤). ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ. الآية﴾. (الأحقاف ١٥). أي أن عيد الميلاد الثاني للطفل عند المسلمين هو عيد هام جداً، إذ أنه مرحلة بداية الاعتماد على النفس «الفصال». هنا ذكر الفصال في عامين وذكر الحمل والفصال في ثلاثين شهراً، فأورد الحد الأدنى للحمل وهو اتمام ستة أشهر والدخول في الشهر السابع

٢ ـ إن أساس الحياة الإنسانية هو التقدم والتطور وزيادة المعارف، فالأبوان يعطيان الأولاد معارفهم وخبراتهم المتراكمة، فيأخذ الأولاد هذه الخبرة والمعارف ليزيدوا عليها ويطوروها وهنا تحصل المأساة والمصادمة بين الآباء والأبناء بصراع

متصالح هو صراع الأجيال فالأب والأم ينتميان إلى جيل، والأولاد ينتمون إلى جيل آخر، والأب والأم يحاولان جاهدين أن يلزما الأولاد بطريقة المعاش والأعراف والتفكير التي كانت سائدة عندما كانوا شباباً، والأولاد يرفضون هذه الطريقة، ولو أطاع الأولاد الوالدين في هذه المشكلة لوقف تطور الإنسانية عند حد معين ورجعنا إلى المملكة الحيوانية حيث أن الأبناء في المملكة الحيوانية يقلدون الآباء تقليداً طبق الأصل تماماً. وقد حسم الله سبحانه وتعالى هذا الموقف لصالح التطور والتقدم ولم يعتبره عقوقاً للوالدين بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (العنكبوت ٨). ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (لقمان ١٥). لقد جاء هذا الحسم في الآيتين العنكبوت ٨ ولقمان ١٥. وفي كلتا الآيتين جاء فعل «جاهداك». فهنا الجهاد لا يعني الأمر أو الطلب وإنما هو أكثر من ذلك فالجهاد عملية مستمرة يومية يبذل فيها جهد. ولكنه مرة قال: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ والمرة الثانية: ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. ففي الحالة الأولى جاء خبر صراع الأجيال كأن يقول الوالدان كنا نلبس هكذا وكنا نفعل هكذا وكانت معلوماتنا عن الطبيعة هكذا أي المستوى المعرفي القديم ويطلبان من الأبناء التقيد بذلك «شرك ربوبية» لذا قال «فلا تطعهما» وحسمت لصالح الأبناء. وفي الحالة الثانية يجاهد الوالدان الأولاد على ثبات الطاعة المطلقة لهما أي إشراك أوامرهم بحدود الله بدون أي مجال للاختيار والتصرف «شرك ظاهر» ويضعانها شرطاً للغضب والرضا فهنا أيضاً حسمت لصالح الأبناء بقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ثم أضاف على ذلك: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾. (لقمان ١٥). أي على الأولاد أن يتبعوا الأعراف السائدة في محاولة طاعة الوالدين وأن يحسنوا إليهما وأن لا يقولوا لهما أف ولا أن يطردوهما «ولا تنهرهما» ولكن على الأبناء أن يكونوا أذكياء، عندهم حلم وكياسة في معالجة القضية لذا فقد حسم سبحانه وتعالى قضية صراع الأجيال لصالح الأبناء من ناحية التطور والتقدم في الأعراف وطرق المعاش والعلم وحسمها لصالح الآباء من الناحية الأخلاقية، وفي هاتين الناحيتين يوجد تمييز عن الحيوان، أي أن الإنسان يجب عليه أن يتطور ويتقدم ولا يكون صورة

طبق الأصل لوالديه وعليه أيضاً أن يحمل قيماً أخلاقية تجاه والديه. وهاتان الناحيتان مفقودتان في المملكة الحيوانية.

ـ الوصية الثالثة والخامسة:

٣ ـ ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.
٥ ـ ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.

لا تفهم الوصية الثالثة إلا إذا ربطت وقورنت مع الوصية الخامسة حيث أن كلتيهما تبدأ بأمره تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا﴾.

ففي الوصية الثالثة جاءت ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾ والولد هو الذكر والأنثى، فالسؤال الأول الذي يطرح نفسه الآن: أليس الولد نفساً؟ لماذا لم يدمج الوصية الثالثة مع الوصية الخامسة؟

والسؤال الثاني هو أنه في الوصية الثالثة حدد الشروط التي حرم فيها قتل الولد وهي من إملاق أي إذا كانت الحالة ليست إملاق فيجوز قتل الولد. أما في الوصية الخامسة فجاءت النفس التي حرم الله، فهذا يعني بالضرورة يجوز قتل النفس التي لم يحرمها الله، ثم وضع شرطاً آخر لقتل النفس التي حرمها الله وهو ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾. فهذا يعني أن هناك فرقاً كبيراً جوهرياً بين الوصية الثالثة والوصية الخامسة. فلنشرح الوصية الخامسة وفي ضوء شرحها سنشرح الوصية الثالثة.

فالنفس جاءت من «نفس» ومنها جاءت النفوس والأنفس والنفس والتنفس. فكل كائن حي يتنفس ويأخذ الأوكسجين بطريقة ما حسب درجة تطوره إمّا بشكل مباشر بعد الولادة أو بشكل غير مباشر عن طريق دم الأم قبل الولادة بالنسبة للحيوانات العليا ومن ضمنها البشر. فالحيوانات كلها أنفس كائنات حية وكذلك الإنسان بوجوده الفيزيولوجي البشري فهو نفس، فنقول النفس البشرية حيث أن فيها جهاز تنفس. فقد أحل الله لنا قتل الأنفس غير البشرية بقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾. (المائدة ٤). وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾. (المائدة ٩٦). وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾. (المائدة ١). ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَايُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. (الحج ٣٠). وقد أحل لنا الله سبحانه

وتعالى هذه الأنفس بالقتل وحرم علينا أن نأكلها ميتة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾. (الأنعام ١٤٥) هذه الأنفس التي أحل الله لنا قتلها ولم يحلل لنا أكل لحومها إلا بعد قتلها لذا قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾. (الأنعام ١٥١). فالنفس التي حرم الله قتلها هي النفس البشرية والنفس الإنسانية.

فالنفس البشرية هي الوجود الحي الفيزيولوجي أو هي الوجود الإنساني ككائن حي فقط والذي يفهم من قتلها هو انتقالها من الحياة إلى الموت عن طريق الشنق أو الذبح أو الجروح أو السم أو إطلاق النار عليها أو الحرق..

أما النفس الثانية التي حرم الله قتلها وهي النفس الإنسانية «بشر + روح = انسان» وهي أن يبقى الإنسان كائناً حياً كبشر ويموت كإنسان أي قتل كل الأحاسيس والمشاعر الخيرة والشريرة معاً وتحويله إلى بهيمة أو آلة تماماً. هذه النفس التي قال عنها الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. (الشمس ٧ ـ ٨) فقتل النفس الإنسانية هو قتل هذه النفس المليئة بمشاعر الفجور والتقوى معاً. وتحويل الإنسان إلى بهيمة. هذه النفس التي تقتل بالإرهاب والتعذيب والقمع والكذب والغش، لها حقوق أيضاً. وقد انتبهت الإنسانية إلى هذه النفس بعد الحرب العالمية الثانية تحديداً حين صدرت عن الأمم المتحدة وثيقة حقوق الإنسان «لا حقوق البشر» حيث أن حق البشر هو الحياة والعناية بالصحة الجسدية وحق الإنسان هو الحرية والكرامة والعناية بالصحة النفسية، وإن الفجور والتقوى في علاقة جدلية هي النفس الإنسانية والترجيح بينهما لا يأتي إلا عن طريق التربية لذا قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. (الشمس ٩ ـ ١٠) لذا فإن عناية أي مجتمع بأفراده تتضمن العناية بالصحة الجسدية «البشر» والصحة النفسية «الإنسان». هذه النفس البشرية والإنسانية لا يجوز قتلها إلا بالحق. أي يجب أن يقوم الإنسان بعمل يستحق عليه هذه العقوبة، وقد حدد الله هذا الحق بقوله «النفس بالنفس» وقوله أيضاً ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. يعني أن الذي تريد قتله يجب أن يكون قاتلاً تصديقاً لا تصوراً أي لا يمكن قتل النفس إلا بعد البينات المادية الموضوعية. أما قتل النفس الإنسانية فقد حرمه الله في كل الأحوال حتى مع المجرمين.

ويجب علينا نحن العرب المسلمين أن نكون واعين لهذه الناحية، لذا علينا أن نعلم أن المشافي والخبز والطعام والسكن ليست بديلاً لحرية الإنسان وليست ثمناً لهذه الحرية حيث أن كل أمر منها يتمم الآخر ولا يعتبر بديلاً لها. والحرية أيضاً ليست بديلة للمشافي والطعام والخبز والسكن.

قد يقول قائل إنّ الإنسان يمكن أن يتنازل عن حريته مقابل الطعام والشراب والسكن، هذه الأطروحة هي أطروحة القمع والإرهاب. فإذا أخذت حرية الإنسان ولم تعطه الطعام والشراب والسكن، فكيف يمكن أن يطالب بها؟ إذا أخذت منه حريته وسلبته كل الأقنية التي يمكن أن يطالب بها فيفقد بذلك طعامه وشرابه وحريته معاً. ولكن العكس هو الأصح، فإذا أخذ الإنسان حريته من خلال الصحافة والمؤسسات الحرة والأحزاب دون أن يأخذ الخبز والسكن فتبقى عنده إمكانية المطالبة والحصول عليها حيث أن الحياة والحرية الإنسانية هي أغلى ما يملكه الإنسان ولا يمكن مقايضتها بأي شيء آخر.

وهنا يجب أن ننبه إلى ناحية في غاية الأهمية وهي تجاوز حدود الله في قتل النفس ذلك أن الحد الأعلى لعقوبة قتل النفس هو الإعدام «النفس بالنفس» وقد شرحتها في مبحث الحدود. أي أن الذي يستحق الإعدام هو القاتل عن عمد وقصد ويجب أن تقام البينات المادية عليه لقوله ﴿إلاّ بِالْحَقِّ﴾. فأي تجاوز من الدولة في غير حالة الحرب لحدود الله في هذه الناحية يؤدي بالضرورة إلى شناعات تقشعر لها الأبدان وهي حملات القتل الجماعية، كأن تكال التهم غير المدعمة بأدلة مادية تحت شعار أعداء الشعب أو أعداء الثورة، وتحت هذه التهم يفتح باب الإعدام لملايين من الناس. وقد حصل هذا في ألمانيا النازية وروسيا الستالينية، حيث قتل الملايين دون إدانات مادية. بل لمجرد مواقف فكرية.

ولننتقل بعد هذا إلى الوصية الثالثة: لقد حرم الله قتل الولد في حالة واحدة وهي الإملاق فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾. (الأنعام ١٥١). وقال: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾. (الاسراء ٣١).

ويبقى سؤال: هل هناك من الوالدين من يقتل ولده حيث أن هذه الوصية موجهة للوالدين؟ وهل إذا قتل الإنسان ولده فهو حر ولا يعاقب؟ أو ليس الولد نفساً

وتنطبق عليه الوصية الخامسة؟ هنا لا يمكن تفريق هذه الوصية عن الوصية الخامسة إلا إذا كان الخطاب موجهاً لمشكلة تخص الوالدين فقط وحصراً. وهذه المشكلة هي مشكلة الإجهاض، لأن الولد يصبح نفساً بعد الولادة فتنطبق عليه الوصية الخامسة ويحتاج إلى وصية خاصة وهي تحريم قتل الولد ذكراً كان أم أنثى وهو في رحم الأم وهو ما نسميه اليوم «بالإجهاض» لأن هذه المشكلة تخص الوالدين بشكل أساسي ثم المجتمع، فهنا لم يقل ولا تقتلوا أولادكم إلا بالحق بل قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾. أي هذه هي الحالة التي حرم الله فيها الإجهاض. فالإملاق غير الفقر حيث جاءت من «ملق» وهو أصل في اللسان العربي يعني تنظيف الثوب ومسحه ومنها جاءت الممالقة وهي ما نسميه اليوم «تمسيح الجوخ» تعبيراً عن النفاق. فالإملاق هو نظافة الإنسان من المال وهو سبب اقتصادي بحت. فإذا أراد أحدهم أن يقتل ولده عن طريق الإجهاض بسبب عدم وجود قدرة مالية ليرعى الولد ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾. أو يخاف أن لا يوجد عنده مال ليرعى الولد ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾. إذا كان الإجهاض لهذا السبب فهو حرام.

وهناك كثير من الحالات الأخرى التي لا ينطبق عليها «من إملاق أو خشية إملاق» وعلى علماء الطب أن يحددوها متعاونين ويشرحوها للمسلمين على أنها حالات يعتبر الإجهاض فيها حلالاً، أما بعد ولادة الطفل فمهما كانت الحال فعلى الإنسان المسلم أن يقبل ذلك ولا يقتل الولد لأنه أصبح نفساً، في هذه الحالة تنطبق عليه الوصية الخامسة. وهذه مشكلة أخلاقية يعاني منها كل أطباء العالم في حالتين: حالة ولادة طفل مشوه والعناية به ومحاولة الإبقاء على حياته. وحالة المريض الذي يتعذب ولا أمل في شفائه.

هذه الوصية جاءت عن قتل الولد أي الإجهاض بعد الحمل. أما حالات منع الحمل أصلاً فلا يُسْأَلُ عنها أهي حلال أم حرام، أو هي عمل أخلاقي أم غير أخلاقي؟ لأنها حلال فهي عبارة عن إجراء فني بحت ولا يوجد فيه أية مخالفة للمنظومة الأخلاقية والتشريعية في الإسلام.

قد يقول البعض إن هذه الوصية جاءت لتحريم وأد البنات. أقول هذا غير صحيح لأن العرب كانت تئد البنات بعد الولادة. ووأد البنات يدخل تحت بند الوصية

الخامسة هذا من ناحية. وأما الأولاد فهم الذكور والإناث معاً. ثم إن هذه الوصايا جاءت لأهل الأرض قاطبة ولكل زمان ومكان. فهي ليست للعرب فقط وليست للقرن السابع الميلادي. فإذا أصر الفقهاء على هذا الرأي نقول: عليكم في هذه الحالة أن تعترفوا أولاً أن النبي ﷺ كان رسولاً للعرب فقط وليس للناس وعليكم أن تنسخوا آية: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾. (الأعراف ١٥٨) لكي يكون رأيكم صحيحاً!.

ـ الوصية الرابعة:

٤ ـ ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. (الأنعام ١٥١).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ. الآية﴾. (الأعراف ٣٣).

هنا جاءت الفواحش بصيغة الجمع فهذا يعني أنه يوجد على الأقل ثلاثة أعمال مختلفة تعتبر كل منها فاحشة. لقد جاءت في الكتاب بكل الأمور التي حرمها الله وتتعلق بالعلاقات الجنسية حصراً والفاحشة اسم جنس للعلاقات الجنسية غير المشروعة. فمثلاً السرقة وشرب الخمر والميسر ليست من الفواحش وإنما هي من الآثام جمع «اثم».

فالعلاقات الجنسية المحرمة التي جاءت في الكتاب صراحة والتي سميت فواحش هي التالية:

١ ـ ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَانَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾. (النساء ٢٢).

وهذا ما نسميه اليوم نكاح المحارم حتى ولو بعقد نكاح والتي وردت في الآية (٢٢، ٢٣) في سورة النساء وهي حالة الحد الأدنى في تحريم النكاح.

٢ ـ ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. (الأعراف ٨٠).

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾. (الأعراف ٨١).

٣ ـ ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾. (الاسراء ٣٢).

وعندما صرف الله سوء امرأة العزيز عن يوسف ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. (يوسف ٢٤).

هنا نرى لماذا ذكر الفواحش بصيغة الجمع، ونرى أن للفاحشة نوعين: النوع الأول ذو منشأ غريزي بحت وهو نكاح الذكر للأنثى، هذه الناحية موجودة عند كل مخلوقات رب العالمين الحية بما فيها الإنسان وهي عملية الجماع الغريزية وهي صفة بشرية بحتة لا مجال لنفيها والاستغناء عنها: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. (النجم ٤٥). وقد أضاف الله سبحانه وتعالى للجماع الغريزي البشري صفة تعاقدية إنسانية بحتة لذا سمى العقد الذي يجامع بموجبه الذكر الأنثى «عقد نكاح» لا «عقد زواج» وهذا العقد ذو صيغة اجتماعية. فهذا العقد يقوم على أساسين أولهما تحريم نكاح المحارم الوارد في سورة النساء حتى ولو بعقد. ثانيهما تحريم الجماع الجنسي بين ذكر وأنثى من غير المحارم إلا بعقد. وهذا تمييز إنساني بحت عن المملكة الحيوانية فلا يوجد عند الحيوانات محارم ولا يوجد عقود نكاح. وقد وضع الله سبحانه وتعالى الجماع كحد أعلى للعلاقة بين الذكر والأنثى. أما أي علاقة بين ذكر وأنثى لا تنتهي بالجماع الجنسي فهي ليست من الفواحش وإنما ينظر إليها من باب الأعراف «الآداب العامة». فالفرج هو الذي يصدق الفاحشة أو يكذبها.

أما الناحية الثانية فهي ليست غريزية وإنما جاءت من شهوة إنسانية واعية ومدركة ويمارسها الإنسان عن طريق التعليم الخاطىء أو عن طريق شروط موضوعية غير صحية وهو نكاح الذكر للذكر «اللواط» وهذا أحد أنواع الشذوذ الجنسي «النشوز» لذا قال لوط لقومه عن اللواط ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. (الأعراف ٨٠) وسميت هذه العلاقة فاحشة.

أما قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فلنأخذ أولاً ما ظهر منها. الفاحشة الظاهرة هي المذكورة بشكل صريح وظاهر في الكتاب وهي الزنى واللواط ونكاح المحارم. يبقى الآن استفسار مهم وهو: ماهي الفواحش الباطنة؟

لقد أورد الله سبحانه وتعالى مثالاً على الفاحشة الباطنة وهو عندما يمارس الرجل اللواط مع زوجه فهي أمام الناس زوجه وتزوجها حسب شريعة الله ورسوله فهي حل له وهو حل لها. فإذا أراد الرجل أن يأتي زوجته لواطا لا من حيث أمره الله أن

يأتيها من فرجها ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾. (البقرة ٢٢٢)؛ هذا النوع من اللواط يسمى فاحشة باطنة وهذا ما أسماه الله في سورة النساء النشوز الجنسي من الرجل بقوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾. (النساء ١٢٨) هذه الآية خاطبت المرأة التي تخاف من زوجها الفاحشة الباطنة. ففي هذه الحالة قد يطلب الزوج ممارسة اللواط مع زوجه فإذا امتنعت فيعرض عنها ولا يمارس الجنس معها من حيث أمره الله. وهنا تخاف الزوجة من هذه الفاحشة ويمكن أن تطلب الطلاق وتلجأ إلى الفضيحة، فهنا نصحها الله سبحانه وتعالى هي وزوجها بقوله: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ...﴾ (النساء ١٢٨). هذا القول هو الدليل القوي أن هذه الآية جاءت للشذوذ الجنسي لأنه قال: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾. لأنه متى يسمي الله الصلح بين الناس على أنه جنحة حيث قال عن الصلح في هذه الحالة بأنه ليس بجنحة. أي على المرأة أولاً لأنها هي المخاطب، والرجل ثانياً لأنه هو الناشز أن يصلحا بينهما بأن تعرضه على طبيب وتحاول إصلاح زوجها ما أمكن، على أن يكون الزوج إيجابياً معها لذا قال سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾. (النساء ١٢٨) والشح جاءت من «شح» وتعني في اللسان العربي أن يحتفظ الإنسان بالمال والمغانم والإيجابيات كلها لنفسه دون الآخرين. أي على المرأة أن لا تجعل من زوجها مهزأة وتحاول أن تحتفظ بكل شيء إيجابي لنفسها دون أن تذكر إيجابيات زوجها وكذلك الرجل لا يلقي بكل التبعة على زوجه بل عليهما التعاون وإصلاح ما بينهما وعدم اللجوء مباشرة إلى الطلاق وإلى الفضيحة. وإذا حصل الطلاق فيكون طلاقاً صلحياً لا طلاقاً عدائياً. وهناك نوع آخر من الفاحشة الباطنة وهو لواط الرجل مع أية امرأة غير زوجه من غير المحرمات بموافقتها.

هذه الوصايا الخمس التي جاءت في سورة الأنعام في آية واحدة هي الآية رقم (١٥١) جاءت بصيغة أخرى أكثر تفصيلاً في سورة الإسراء وبأكثر من آية وسماها الحكمة وهذه الآيات هي:

- ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾. (الإسراء ٢٣).

هنا نلاحظ كيف ربط التوحيد وعدم الشرك ببر الوالدين في آية واحدة، وقد شرحت هذا الربط في مبحث حول «وبالوالدين إحساناً» في هذه الآية جاءت الوصية الأولى والثانية.

- ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾. (الاسراء ٣١).

في هذه الآية جاءت الحالة الثانية من الوصية الثالثة وهي ﴿خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾. أي الخوف افتراضاً من عدم إمكانية صرف المال لذا أضاف: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. (الإسراء ٣١). هنا وضع الأولاد قبل الوالدين. أما الحالة الأولى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. (الأنعام ١٥١). هنا وضع الوالدين قبل الأولاد، لأن الإملاق هنا موجود فعلاً لا افتراضاً. وهنا نلاحظ التعليق المهم جداً في آخر الآية في قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾. (الإسراء ٣١). حيث وضع الإجهاض لسبب اقتصادي «من املاق» على أساس أنه خطء كبير ولم يقل جريمة أو مجرمين ولم يضعه بمنزلة القتل المتعمد مع سابق الاصرار بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾. النساء ٩٣). ونلاحظ دقة الصيغة الإلهية في الوصايا.

- ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾. (الإسراء ٣٢).
هنا وضع إحدى حالات الوصية الرابعة.

- ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾. (الإسراء ٣٣).

هنا وضع الوصية الخامسة وشرح معنى ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وهو أنه عقوبة من يقتل إنساناً ظلماً أي بدون ذنب اقترفه ويستحق عليه القتل «النفس بالنفس». وكما شرحت أن الظلم هو وضع الشيء في غير محله عنوة أو عن غير قصد أي ظلم مقصود «القتل المتعمد» وظلم عن غير قصد «القتل الخطأ» وهنا نلاحظ أيضاً كيف وضع القتل كحد أعلى للعقوبة لذا قال ﴿فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾. (الإسراء ٣٣). وهذه الآية هي من آيات الحدود.

ـ الوصية السادسة :

٦ ـ ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. الأنعام ١٥٢).

اليتيم في اللسان العربي تطلق على فاقد الأب والقاصر بنفس الوقت. أما إذا كان فاقد الأم والأب فيصبح يتيم الأبوين. واذا كان فاقد الأم فقط فهو يتيم الأم.

وفي حالة فقدان الأب والقصور، فإن اليتيم بحاجة إلى وصي من الناحية المالية والتربوية لذا جاءت الآيات التالية:

- ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾. (النساء ٢).
- ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾. (النساء ٦).

لذا فإن الوصية السادسة موجهة إلى غير الآباء لأنه في حالة فقدان الأم فالأب هو الوصي حكماً ولا تنطبق عليه هذه الوصية.

أما من ناحية المسؤولية المالية والمسؤولية التربوية معاً فقد جاءت الآية:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنَى أَلاّ تَعُولُوا﴾. (النساء ٣).

انظر شرح هذه الآية وهي من حدود الله في مبحث المرأة في الإسلام.

ـ الوصية السابعة :

٧ ـ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا﴾. (الأنعام ١٥٢).

هذه الوصية تتعلق بالعلاقات الإنتاجية والعلاقات التعاقدية. فإذا نظرنا الآن

إلى أية سلعة من البضائع المنتجة «سيارات، أدوية، ماكولات، مشروبات، مواد بناء، أقمشة وملبوسات». وأردنا أن نضع لها مواصفات، رأينا أن المواصفات لا تخرج عن بندين اثنين:

آ ـ مواصفات وزنية: وهي الكيلوغرام وأضعافه وأجزاؤه، أو الباوند وأضعافه وأجزاؤه.

ب ـ مواصفات بعدية: طول، مساحة، حجم.

لقد جعل الله التقيد بالمواصفات بالبيع والشراء والإنتاج من أركان التقوى في الإسلام حيث دخلت في الوصايا. فلا يمكن أن تستقيم وضعية إنتاجية ومن ثم تعاقدية إلا من خلال المواصفات. فعلى المسلم عندما ينتج ويبيع ويشتري أن يضع مواصفات لإنتاجه ولبيعه وشرائه، وبدون هذه المواصفات لا يمكن ضبط أية سلعة إنتاجية أو تسعيرها بيعاً وشراء. مع العلم بأن رقي أي دولة في الإنتاج يقاس بمقدار رقي مواصفاتها وتقيدها بها. فإذا أراد مسلم مثلاً أن يشتري بيتاً فهذا الشراء به نوعان:

آ ـ شراء حاضر كأن يكون البيت جاهزاً للتسليم.

ب ـ شراء غير حاضر، وهذا الشراء لا يصح إلا بمواصفات، أي عقد البيع يجب أن يكون له ملحق المواصفات التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من العقد وكلما كانت المواصفات دقيقة كان البيع أكثر حلالاً.

وبما أن هناك درجات في الدقة مختلفة في المواصفات جعل جزءاً من هذه الوصية بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فالإنسان يتقيد في المواصفات حسب الدقة الوزنية والحجمية الموجودة عنده وحسب المواصفات القياسية الشائعة في الدولة التي يعيش فيها.

وإن من أولويات الأمور التي يجب أن تمارسها الدولة العربية الإسلامية هي وضع مواصفات لكل شيء ضمن هذه الدولة، وأن تتقدم هذه المواصفات مع تقدم المعرفة أي أن الانعكاس المباشر للتقدم والبحث العلمي في الدولة هو تطوير المواصفات الدارجة في الدولة والمجتمع. أما من الناحية الفردية فعلى المسلم التقي أن يتقيد بالمواصفات الوزنية والحجمية في كل شيء حسب الدقة المتوفرة لديه.

وإذا نظرنا إلى القضايا في المحاكم رأينا أن معظمها ظهر لعدم وجود المواصفات أصلاً في العقد أو وجود مواصفات بدائية جداً. وعلينا أن نعلم أيضاً أن آية المداينة وهي الآية رقم ٢٨٢ في سورة البقرة هي من آيات الحدود وهي آية الحد الأدنى لصلاحية العقد فيجب أن لا ينقص من بنودها شيء في أي عقد بل يمكن إضافة بنود جديدة إليها حسب الحاجة.

ولكي نعلم أن الله أمرنا بالتقيد بالمواصفات في رسالة شعيب حيث وصلت الإنسانية إلى مرحلة التبادل التجاري وظهور الوحدات القياسية لذا جاء التشريع قائلاً:

﴿وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. (هود ٨٥). فجاء التقيد بالمواصفات من أجل غاية هي قوله: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾. أي حين يدفع الإنسان مالاً يجب أن يعلم مقابل ماذا يدفع هذا المال، وماهي مواصفات السلعة المشتراة لأن كل عمل منتج يمكن تحويله إلى مواصفات ويجب علينا أن لا نبخس الناس أشياءهم إن كانت عملاً أو سلعة أو نتاجاً علمياً أو أدبياً أو فنياً أو ابتكاراً. وهنا نلاحظ قوله: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾. ولم يقل «ولا تبخسوا الذين آمنوا» حيث تكون نظرة الإنسان العربي المسلم إلى قيمة الأشياء وإلى العدالة نظرة عالمية بحتة. وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. (النساء ٥٨). ولم يقل بين الذين آمنوا.

- الوصية الثامنة:

٨ - ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. (الأنعام ١٥٢).

إن هذه الوصية هي حالة عامة، تعتبر شهادة الزور حالة خاصة لها فالإنسان يجب أن لا يتكلم إلا كلاماً صادقاً. وعندما يكون الإنسان موضوعياً في أحكامه لا تتحكم فيه الأهواء والعواطف. والموضوعية المادية بحد ذاتها صادقة وعادلة، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (الأنعام ١١٥). فكلام الله الذي هو عين الوجود ونواميسه يحمل صفتين أساسيتين هما: الصدق والعدل. وهكذا فإن الصفة الأساسية للإنسان هي الصدق

والعـدل. لأن قولـه مبني على البينـات، لا على الأهواء. وهذه صفة أساسية للتقوى عنـد الإنســان المسلم وهذا ما شرحته في مبحث عن الشرك بأن الدولة الإسلامية لها بنية في مؤسساتها وأفرادها وهي التصور المبني على التصديق، لا التصديق المبني على التصـور. ففي هذه الحـالـة تحمل الدولة في بنيتها الصدق والعدل. أما شهادة الزور فهي حالة خاصة من هذه الوصية. فعلى الدولة العربية الإسلامية أن تضع في دستورها عقوبة شهادة الزور على أنها عقوبة جزائية لا إدارية أومالية. ويجب أن تغير يمين الشهادة في القضاء بأن يقسم الشاهد على قول الصدق لا الحق. لأن الإنسان قد يقـول الصـدق حسب ما شاهـده وقـد تكـون المشاهدة خادعة أو ظنية فتصبح غير حقيقيـة. لأن الـوحيـد الـذي أقواله حقيقية وصادقة وعادلة تماماً بدون استثناء هو الله فقـط لأن الحق الصـادق والعـادل هو عين كلمـاته وهو عين الوجود: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾.

ـ الوصية التاسعة:

٩ ـ ﴿وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا﴾. (الأنعام ١٥٢).

تعدّ هذه الوصيّةُ اختصاراً قانونياً للآلاف المؤلفة من البنود فيما لو فصلت كلاً على حدة. فكل مهنة لها مواصفاتها ولكل علاقة اجتماعية شروطها. فمثلاً في مهنة الطب هناك أمور يجب على الطبيب أن لا يمارسها وهناك أمور يجب عليه القيام بها من النـاحيـة المهنيـة وهـذا ما نسميـه بالـدستـور الأخـلاقي المهني. فكـل مهنة لها مواصفـاتهـا الأخـلاقيـة «دستـورهـا»: المـالي، والمشـرع، والمهندس، والوزير، والضابط، والشرطي، والموظف، والمنتج في كل دائرة حسب درجة المسؤولية ونوع العمل، وهناك البناء ومواصفاته وأصول البيع والشراء ونسبة الأرباح، في هذه الحالة توضع المواصفات الأخلاقية لكل مهنة على حدة، ولا يسمح لأحد أن يمارس المهنة إلا إذا كان مؤهـلاً أولاً، ثم عليـه أن يقسم اليمين على الـدستـور الأخلاقي لمهنته. فإذا لم يقسم اليمين فإنـه يمنـع أصـلاً من ممـارسـة المهنـة حيث لا يوجد في الدولة العربية الإسلامية مهنة مهما كان نوعها بدون قسم لهذه المهنة.

وتضـع الـدولـة لهـذا القسم عقـوبـة واحدة علماً بأنه يدخل تحت هذا القسم

الآلاف المؤلفة من البنود. هذه العقوبة هي عقوبة حنث اليمين ويجب أن تكون جزائية لا إدارية أو مالية.

وإني أرى أن ينظر إلى اليمين المهني في البلاد العربية الإسلامية بجدية كبيرة. وعدم التقيد باليمين يدل على شدة التدهور الأخلاقي. فاليمين عهد بين الذي أقسمه وبين الله لا بين إنسان وإنسان آخر. وكذلك البيعة في الانتخاب عهد فعندما ينتخب إنسان إنساناً فهذا يعني أن المُنْتَخَبَ أعطى عهداً على أن يمثل مصالح المُنْتَخِبين، والمنتَخِبُ أعطى عهداً على أن يطيع المنتخَبَ طاعة نسبية ضمن التشاريع الصادرة بدون أن تتعدى حدود الله.

ان وصية ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ تختلف تماماً عن أداء الأمانة المادية للآخرين والواردة بأمره تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾. (النساء ٥٨).

وقد يقول قائل إذا كان إنسان ما لا يؤمن بالله يؤدي القسم ولا يلتزم به فيقول إنه غير مؤمن بالله لذا فهو غير ملتزم بالقسم. فنقول: نحن لنا الظاهر فقط والقلوب لله تعالى. فعندما يقسم الإنسان اليمين فعلاً فقد أصبح في نظر الآخرين ملتزماً لا مناص له من ذلك. وإن كان صادقاً في عدم إيمانه فعليه أن يرفض أداء القسم منذ البداية. في هذه الحالة لا أحد يجبره على ذلك ولكنه يعفى من المهام التي ستوكل إليه أو يمنع من ممارسة المهنة التي سيقسم من أجلها.

ثم إن عقوبة حنث اليمين تريحنا من متاهات كبيرة، فمثلاً عندما يؤدي الشرطي اليمين المهني على ألا يستلم مالاً من أحد ثم يأخذ جنيها واحداً، فإننا نعاقبه ليس من أجل الجنيه الواحد بل لأنّه حنث اليمين.

ولقد جاءت الوصايا الأربع «من الوصية السادسة حتى التاسعة» في سورة الإسراء في الآيات التالية:

- ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً». (الإسراء ٣٤). هذه الآية فيها الوصية السادسة والوصية التاسعة.
- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾. (الإسراء ٣٥). «الوصية السابعة».
- ﴿وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْؤُولاً﴾. (الإسـراء ٣٦). هذه الآية هي شرح الوصية الثامنة **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾**. (الأنعام ١٥٢).

أي أن القول يجب أن يكون مبنياً على البينات المادية الموضوعية دون أهواء ولا عواطف. والشهادة يجب أن تكون شهادة فؤادية محددة بالحواس وعلى رأسها السمع والبصر. أما إذا كانت استنتاجاً عقلياً فتسمى خبرة وليست شهادة.

- الوصية العاشرة:

١٠ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (الأنعام ١٥٣).

قد يقول البعض: ماهو الشيء الجديد في هذه الوصية؟ أقول: الشيء الجديد فيها هو أنه اشترط التقوى فيها على أنها اتباع الوصايا التسع الواردة قبلها معاً غير مجزأة، وقد سماها مجتمعة صراطاً مستقيماً وهي من الدين القيم «الأخلاق» **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**. (الأنعام١٦١). وهي الصراط المستقيم عند موسى وعيسى وهي مع الحدود تشكل الصراط المستقيم عند المسلمين.

وقد أمرنا باتباع هذه الوصايا جملة حيث أن التقوى فيها.

وقد يسأل البعض: وماهي الصلاة والصوم والحج والزكاة؟ أليست تقوى؟ أقول نعم هي تقوى ولكن التقوى لها ثلاثة أنواع:

التقوى الفردية والتقوى الاجتماعية «الأخلاق» والتقوى التشريعية «الالتزام بالقانون ضمن حدود الله». فالوصايا مجتمعة هي التقوى الاجتماعية، والعبادات هي من التقوى الفردية، والالتزام بالقانون ضمن حدود الله هو التقوى التشريعية. فعلى العرب المسلمين أن يعلموا هذا جيداً وأن لا يقيموا حكماً على أي إنسان - مسلماً أوغير مسلم - إلا من خلال التزامه بالتقوى الاجتماعية «الوصايا» والتقوى التشريعية. إن عدم تمييز التقوى الفردية من الاجتماعية والتشريعية مطب يقع فيه كثير من العرب المسلمين اليوم، فهم ينخدعون بسهولة من إنسان يصلي ويصوم وقد أدى فريضة الحج، وعندما يعاملونه أو يبرمون عقوداً معه يرون منه العجب. فيقول قائل:

أليس هذا الإنسان متديناً؟ نقول: نعم هو متدين لنفسه. فكل شيء رأيتموه منه هو من التقوى الفردية التي لا علاقة لنا بها، ولكن قيموا الآخرين على أساس الوصايا «التقوى الاجتماعية» وعلى أساس التقوى التشريعية في التزامه ضمن حدود الله. ولن تروا منه في هذه الحالة أي عجب ولن تصدموا بأية مفاجأة. فلندع جانباً هذه العبارات المعسولة «كأن نقول فلان انسان آدمي، متدين، أو صاحب دين، ولا يقطع وقت صلاة» وعوضاً عن ذلك لنقل إن فلاناً ملتزم بالوصايا والحدود فهو جدير بالثقة والمعاملة.

الآن يمكن أن نحدد من هم المغضوب عليهم ومن هم الضالون في قوله تعالى في فاتحة الكتاب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقد هدانا إلى الصراط المستقيم في الحدود والوصايا. هذا الصراط الذي يعتبر الفرقان عموده الفقري والذي هو التقوى الاجتماعية والذي هو من الثوابت «مستقيم». ومن يتبعه فقد أنعم الله عليه ومن يتبع غيره ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يصبح من الضالين ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام ١٥٣) أو من يضع وصايا غير هذه الوصايا أو يحرفها على أنها الوصايا العشر فيصبح مغضوباً عليه ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. نلاحظ أنه لا يوجد في الوصايا شيء حول الطعام كلحم الخنزير لأنه من الحدود. ولأن هناك أناساً ملتزمين بالوصايا ويشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير فهم أيضاً جديرون بالثقة والمعاملة.

هنا جاءت الوصايا بصيغة أمر مباشر وعطفت بعضها على بعض لأنه أحياناً عندما يأتي حرف العطف يعني التغاير والتمايز فهنا جاءت واو العطف للتغاير والتمايز في الوصايا لا في الالتزام، أي لم تأت بصيغة شخص يلتزم بالوصية الأولى وآخر بالسابعة وآخر بالثانية لذا جاء الدمج في الوصية العاشرة وهو أن التقوى الاجتماعية هو التزام كل شخص على حدة بالوصايا التسع مجتمعة.

لقد جاء في الكُتاب في مكان آخر أنواع من الالتزام الفردي «التقوى الفردية» معطوفاً وهذا الالتزام جاء منفرداً لا مجتمعاً وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ

الله كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. (الأحزاب ٣٥).

إذا أخذنا هذه الآية وأردنا أن نطبق المواصفات الواردة فيها بحيث تنطبق على شخص واحد فاننا لا نكاد نجد عدداً قليلاً جداً بين سكان أهل الأرض تنطبق عليهم هذه المواصفات جميعها فيصبح قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. (الأحزاب ٣٥). نوعاً من أنواع التعجيز ولو أنه عنى أن هذه المواصفات تنطبق على شخص واحد ذكراً كان أم أنثى لقال «إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات. .» أي لحذف حرف العطف بين صفة وأخرى كما حذفها عندما عنى نفس المواصفات في امرأة واحدة في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾. (التحريم ٥). هنا وضع واو العطف بين ثيبات وأبكاراً لأن المرأة لا تكون في وقت واحد ثيباً وبكراً، لذا فان الصفات الواردة قبلها موجودة في امرأة واحدة ثيب أو بكر. لذا جاءت الآية ٣٥ في سورة الأحزاب لكي تتناسب مع امكانيات الناس ومزاجهم، فهناك من الناس من يحب تلاوة الذكر ولا يحب دفع المال فقال ﴿الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وآخر يحب دفع المال ولا يحب أن يصوم يوماً واحداً إضافة لشهر رمضان فقال: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾. وهكذا دواليك. فهذه الآية هي آية المساعدة من رب العالمين لا آية التعجيز.

الآن لنأخذ آية التقوى الفردية وقد وضع فيها جانبان: الجانب الايماني القناعة والجانب السلوكي الممارسة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. (البقرة ١٧٧). هنا وضع التقوى الفردية في الإيمان والعبادات والإنفاق والوفاء بالعهد والصبر حين الضر والصبر في الجهاد «حين البأس». لقد وضع الوصية التاسعة في التقوى الاجتماعية مشتركة مع التقوى الفردية بقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾.

لقد قرر بعضهم أن الصلاة ـ وهي بلا شك رأس العبادات. والعبادات كلها

من التقوى الفردية ـ هي أهم من أي شيء آخر في الإسلام. وأقول هذا غير صحيح لقوله تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾. (العنكبوت ٤٥). وقد يقول قائل إن قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. هو بصيغة خبر، لذا فإن الصلاة تنهى بشكل آلي عن الفحشاء والمنكر. وهذا غير صحيح، فمثلاً نقول إن اللوائح الجامعية تنهى عن الغش في الامتحان فهذا لا يعني نفي الغش في الامتحانات وكذلك الصلاة وفي هذا قال النبي ﷺ في حديثه ان صح «مَنْ لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلّا بعداً» «الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٨٠» ثم وضع ما هو أكبر من الصلاة وهو ذكر الله حيث قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾. فلماذا ذكر الله أكبر من الصلاة؟

قلنا إن الذكر في اللسان العربي أتت من «ذكر» وهذا الأصل معناه في اللسان العربي الترديد اللغوي وفي هذا جاء معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. (الحجر ٩). وكما قلنا إن الذكر هنا هو الصيغة اللغوية الصوتية للكتاب بغض النظر عن فهم المحتوى، وفي هذا المعنى جاء ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾. (القمر ١٧). وقد جاء هذا الذكر بالصيغة اللسانية العربية لقوله مخاطباً العرب: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾. (الزخرف ٥). وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. (الأنبياء ١٠).

والذكر جاء في معنى التذكر الذي هو عكس النسيان كقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. (يوسف ٤٢). وقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. (الكهف ٢٤) وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. (ق ٤٥). ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (الأنعام ١٥٢). وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. (الأنعام ٨٠). وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾. (الكهف ٥٧). وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. (الأنعام ٤٤). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾. (الفرقان ٧٣). وفي هذا المعنى جاءت الآية: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾. (العنكبوت ٤٥). لقد شرحت هذه الآية في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .
(آل عمران ١٩١) . هنا جاء شرح الذكر، فالإنسان لا ينسى الله في حالة العمل فإذا اشترى تذكر الله بقوله : **﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾** . (الأعراف ٨٥) . وإذا باع تذكر قوله الله : **﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾** . (هود ٨٤) . وإذا تحدث لا يكذب وكذلك في حالة الراحة والمرض أي أنه إنسان لاينسى الله في عمله وراحته ومرضه ولاينسَ الوصايا «التقوى الاجتماعية» ولاينسى «التقوى الفردية» . هذا هو الإنسان المسلم الذي نقول عنه في المصطلح الحديث «الإنسان ذو الضمير الحي» وفي هذا المعنى وردت «ذكر» في باب الخمر والميسر قوله : **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾** . (المائدة ٩١) . هنا وضع ذكر الله قبل الصلاة ، في باب الخمر والميسر وهما ليسا من العبادات وليسا من الحدود ، ثم فصل طاعة الله عن طاعة الرسول في الآية التي بعدها **﴿وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾** . (المائدة ٩٢) . وهكذا نستنتج بأن «ذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» لا يعني أن يغمض الإنسان عينيه ويقول «الله ، الله» ألف مرة أو أكثر أو أقل .

وعندما أتم الآية بقوله : **﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً﴾** . (آل عمران ١٩١) . نفهم أن المسلم إضافة إلى أنه إنسان ذو ضمير حي يحمل صفة الموضوعية في التفكير، لذا ذكر العالم المادي بأنه عالم حقيقي غير وهمي وأنه عالم البينات فقال : **﴿رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً﴾** .

وعندما أنهى آية العنكبوت بعد قوله **﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾** . قال : **﴿وَالله يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ﴾** . (العنكبوت ٤٥) . نفهم أن هذا الإنسان الملتزم بالوصايا والعبادات والتفكير الموضوعي هو إنسان التربية الإسلامية الجادة .

إن مبحث الفرقان «الوصايا العشر» يبين لنا الفرق الجوهري الأساسي بين مفهومين مختلفين هما الأخلاق والأعراف حيث يمكن أن يحصل بينهما خلط كبير، فلنعرف كلاً منهما على حدة :

١ ـ **الأعراف** : هي مجموعة العادات والتقاليد الاجتماعية الناشئة عن بنية ما اقتصادية وبيئية «المناخ والتضاريس» .

هذه العادات تتغير حسب الزمان وتطور وسائل الإنتاج وتبادل السلع وظهور سلع جديدة، وحسب المكان هل هو صحراوي أو سهلي أو جبلي أو ساحلي أو غابات أو حار أو بارد؟ ويمكن أن نقول إن هناك عادات قومية حيث أن العادات تتغير حسب المكان، فنقول العادات العربية والتركية. . الخ. والأعراف تتبلور نتيجة لتفاعل عدة مؤثرات خارجية موضوعية.

٢ ـ **الأخلاق**: هي قانون روحي اجتماعي يربط أفراد بني الإنسان بعضهم إلى بعض لكونهم مجموعة إنسانية لا حيوانية، بغض النظر عن البنية الاقتصادية للمجتمع الانساني. لذا تحمل الأخلاق الصفة العالمية الشمولية.

وبما أن الأخلاق تأخذ الطابع الشمولي الكوني «كونية الأخلاق»، فقد جاءت وحياً من الله تعالى. أما الأعراف فقد ذكرها الله في الكتاب دون أن يفصلها لأنها متغيرة. وقد جاءت الأخلاق الاجتماعية في الوصايا «الفرقان» من زمن موسى وإلى عيسى وإلى محمد ﷺ وهي ما زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا عند شعوب الأرض بغض النظر عن بنيتها الاقتصادية وبيئتها وأعرافها. لذا فإن الأخلاق هي القاسم المشترك في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ولها صفة التأثير في السلوك الإنساني حيث أنها تؤثر في شكل الأعراف.

هذا ما يجب أن يعرفه الإنسان العربي المسلم عن البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يعيش فيه حيث أن التزامه الاجتماعي تجاه مجتمعه خاصة وتجاه الإنسانية عامة هو التزام أخلاقي قبل أن يكون التزاماً قانونياً.

هناك من يخلط عن عمد أو غير عمد بين الأخلاق وبين الأعراف، حيث يقول إن الأخلاق هي بنية فوقية لبنية تحتية هي العلاقات الاقتصادية. فالأخلاق «الوصايا» التي جاءت بها الأديان الثلاثة هي بنية لعلاقات اقتصادية خاصة، وعندما تتغير هذه البنية تتغير الأخلاق. هذا الكلام لم نجن منه إلا خيبة الأمل لأن هذا الطرح ينتج عنه أن يتحلل الإنسان من الوصايا. فالسؤال الذي يطرح نفسه: أين البديل؟ البديل هو نبذ الأخلاق والوصايا فينتج عن ذلك إباحة قتل النفس وعقوق الوالدين والإخلال بالمواصفات وشهادة الزور وانتشار الفاحشة، حيث أن هذه الأحداث والوقائع بينت أن هذا هو البديل الذي يؤدي إلى أن يقع المجتمع في أزمة أخلاقية تعصف به وتحطمه. وعليه يتوجب على العربي المسلم أن يعلم أن الالتزام بالوصايا هو التزام

أخلاقي إنساني لا علاقة له البتة بالنظام الاقتصادي والبيئة لأنه لا بديل لهذه الوصايا. لذا أعطاها الله سبحانه وتعالى هذه الأهمية ووضعها تحت عنوان خاص هو «الفرقان» وجاءت في سورتين من السور المكية سورة الأنعام وسورة الإسراء، علماً بأن الوصايا العشر في سورة الأنعام نزلت على النبي ﷺ في غزوة بدر.

ثم علينا أن نعلم أن الله أمرنا أن نكيف أعرافنا مع الوصايا حيث أمرنا أن لا تخالف أعرافنا الوصايا، وهي من حدود الله، لذا قال: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾. (التوبة ١١٢). فلا يمكن لنا أن نقول عن شيء ما إنه عرف إذا كان يخالف الوصايا.

- العلاقة الاقتصادية. + البيئة ← الأعراف (تحمل صفة متطورة).

- الله سبحانه وتعالى أوحى الوصايا «الأخلاق» وهي القاسم المشترك في العلاقات الإنسانية.

- الأعراف + الأخلاق ← أساس الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية في المجتمع العربي الإسلامي.

ثانياً - الفرقان الخاص

لقد لاحظنا في الفرقان العام كيف أكد عليه لكل الناس في ثلاث مستويات وهي: مستوى التحريم بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. (الأنعام ١٥١). ومستوى النهي والتأكيد بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾. (الأنعام ١٥١). وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾. (الأنعام ١٥١). ومستوى الوصية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾. (الأنعام ١٥١). ثم ختمه بالوصية العاشرة: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾. (الأنعام ١٥٣). وأكد أن التقوى في اتباعه بقوله:

﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (الأنعام ١٥٣).

فعندما يلتزم الإنسان بالفرقان العام فإنه يصبح من المتقين، ولكن إذا أراد زيادة على ذلك، فهل يمكن أن يكون هناك وصايا إضافية :تبعها فعند ذلك يصبح من أئمة المتقين؟ في هذا قال: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تتقوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً. الآية﴾. (الأنفال ٢٩). نلاحظ في هذه الآية كيف وضع التقوى شرطاً لهذا الفرقان، وكيف جعله فرقاناً خاصاً بالمتقين، أي أنه غير ملزم لكل الناس كالفرقان العام، ولكن من أراد أن يزيد فعليه اتباع هذا الفرقان، ومن يتبع هذا الفرقان فهومن أئمة المتقين. هذا الفرقان ورد في سورة الفرقان في الآيات التالية:

١ ـ ٢ : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإذا خاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾. (الفرقان ٦٣).

٣ : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. (الفرقان ٦٤).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَها كَانَ غَراماً﴾. (الفرقان ٦٥).

﴿إنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾. (الفرقان ٦٦).

٤ : ﴿وَالَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً﴾. (الفرقان ٦٧).

٥ ـ ٦ ـ ٧ : ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ آثَاماً﴾. (الفرقان ٦٨).

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾. (الفرقان ٦٩).

﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. (الفرقان ٧٠).

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللهِ مَتَاباً﴾. (الفرقان ٧١).

٨ ـ ٩ : ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾. (الفرقان ٧٢).

١٠ : ﴿وَالَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾. (الفرقان ٧٣).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إِمَاماً﴾. (الفرقان ٧٤).

نلاحظ في الآيات السابقة أن الفرقان الخاص عبارة عن عشر وصايا ولكنها جاءت بصيغة إخبارية ولم تأت بصيغة أمر صريحة كما جاءت الوصايا في الفرقان العام حيث ختمها بقوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾. في الآية التي تلي الوصية العاشرة، أي أن من يحقق هذه الشروط بالإضافة إلى الفرقان العام فهو من أئمة المتقين. ومن يحقق شروط الفرقان العام فهو من المتقين. ونلاحظ أن هناك أربعة بنود مشتركة بين الفرقان العام والفرقان الخاص وهي:

١ - ﴿لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخر﴾. ←——→ ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾.

٢ - ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾
٣ - ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾.
←——→
﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.
﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾..

٤ - ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. ←——→ ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

كما أن الله سبحانه وتعالى خصص ثواباً خاصاً في الآخرة لهؤلاء الناس بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً﴾. (الفرقان ٧٥).

نلاحظ هنا أمرين في غاية الأهمية في أئمة المتقين وهما التأكيد على الجانب المادي في نظرتهم إلى الحياة، وقد جاء هذا التأكيد بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾. وكما قلنا إن الرحمن هو اسم الربوبية لهذا الكون المادي الثنائي وذلك لكي يؤكد أن زيادة التقوى ليس لها علاقة بالشطحات الصوفية وكرامات الأولياء.

وقد جاء الأمر الثاني في بند خاص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾. (الفرقان ٧٣). وقد حدد لنا القرآن أن آيات الربوبية هي ظواهر الطبيعة، لذا فإن صفة أئمة المتقين هي الإيمان بالمادية وبالعلم والعقل

وأن فهم آيات الله «ظواهر الطبيعة» هي من أساسيات منهجهم في الحياة وهي لا تقل أبداً عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. (الفرقان ٦٤).

لذا فان أئمة المتقين في فرقان محمد ﷺ هم من أئمة العلم المادي وأئمة الناس الذين يؤمنون بالبينات المادية وذوي التفكير العلمي البعيد عن الخرافة. علماً بأن الفرقان الخاص يحتاج إلى شرح مفصل أكثر من ذلك، وبما أنه خاص بأئمة المتقين وليس كل الناس فإننا نكتفي بهذا القدر من الشرح في هذا الكتاب والله الموفق.

الفرع الثالث

المعروف والمنكر والتعليمات التي جاءت بقوله «يا أيها النبي»

قلنا إن الرسالة تتألف من الحدود «حدود الله» والعبادات التي تعتبر من الحدود والوصايا. أما في الأمور الأخرى فقد أورد الكتاب مصطلح المعروف والمنكر أي ما تعارف عليه الناس وما أنكره الناس طبقاً للزمان والمكان، حيث أن الأعراف هي أساس القوانين الوضعية الإنسانية، وقد اعتبرها الكتاب أيضاً أساس التشريع ضمن حدود الله. وهناك أيضاً تعليمات جاءت إلى النبي ﷺ بمقام النبوة وليس بمقام الرسالة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾. وذلك لتبيان أنها تعليمات خاصة بالنبي ﷺ، أو تعليمات مرحلية جاءت لحقبة معينة مثل توزيع الغنائم، أو تعليمات عامة للمسلمين ولكنها ليست تشريعات.

أولاً ـ المعروف والمنكر:

﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (التوبة ١١٢).

- "المعروف" لغوياً جاء من «عرف» ومنه جاء المعرَّف والتعريف فنقول لغوياً إن هناك «ال» التعريف ونقول إن الإضافة في اللغة للتعريف.

- والمنكر جاء من «نكر» وهو يشمل غير المعرف. فعندما جاءت الملائكة إلى ابراهيم قال: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. (الذاريات ٢٥). وعندما جاءت الملائكة إلى لوط قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. (الحجر ٦١، ٦٢). وعندما قدم إبراهيم الطعام إلى الملائكة قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾. (هود ٧٠). وقول موسى للعبد الصالح عندما قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. (الكهف ٧٤). وقول سليمان: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾. (النمل ٤١). وعدم معرفة أخوة يوسف في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (يوسف ٥٨). وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾. (الأنبياء ٥٠). وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾. (المؤمنون ٦٩).

هنا نلاحظ كيف استعمل فعل نكرهم، ومنكرون للدلالة على عدم معرفتهم، وللدلالة على أنه رآهم للمرة الأولى ولم يعرفهم من قبل. فالنكرة تدل على حالتين: إما الجهل وعدم المعرفة والمفاجأة كحالة إبراهيم أو لوط أو موسى أو سليمان ومنه يتولد مفهوم الاستنكار. لأن الإنسان عندما يرى شيئاً لم يألفه فقد يستنكره وهذا هو المعنى الإيجابي للمنكر، كأن يشاهد الإنسان أموراً غير مألوفة فتدخل في مفهوم المنكر فيستنكرها. أو يشاهد أو يسمع أموراً لا تدخل في الذوق العام للمجتمع كقوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. (لقمان ١٩).

. أما المعنى السلبي للمنكر فهو إنكار الشيء وتجاهله عن سابق معرفة به كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. (النحل ٨٣). وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾. (الرعد ٣٦).

أما قوله عن العذاب بأنه نكر ونكير فهو عذاب لم يسبق أن عرفه الإنسان وألفه كقوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾. (الكهف ٨٧). وقوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾. (الطلاق ٨). وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾. (القمر ٦). وعندما أخذ الله

قوم نوح بالطوفان وقوم هود بالريح وقوم صالح بالصيحة والرجفة وقوم لوط بحجارة من سجيل وفرعون بالغرق فقد أخذهم الله بعذاب لم يستعدوا له ولم يعرفوه مسبقاً لكي يستعدوا له لذا قال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. (الحج ٤٤). وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. (الملك ١٨). وقوله: ﴿وَمَابَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. (سبأ ٤٥). أما قوم شعيب فقد حذرهم بأن العذاب سيأتيهم على غرار العذاب الذي جاء قبلهم لذا قال: ﴿وَيَاقَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾. (هود ٨٩). فعندما عذب الله قوم شعيب كان عذابهم على غرار قوم صالح حيث قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. (هود ٩٤). وأتبعها بقوله: ﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. (هود ٩٥). هنا كان عذاب قوم شعيب معروفاً لهم من قبل. أما القول بأن هناك ملكين الأول منكر والآخر نكير يأتيان إلى الميت في القبر فلم نجد له أي أساس في العقيدة الإسلامية.

ومن هنا جاء مفهوم المعروف والمنكر. فالمعروف هو ما عرفه الناس ثم تعارفوا عليه فأصبح مألوفاً للذوق والقبول الاجتماعي وهو بهذا له معنى إيجابي. والمنكر هو ما نكره الناس ثم استنكروه اجتماعياً أي أصبح مستهجناً غير مألوف للذوق الاجتماعي. لذا فإن مبدأ (المعروف والمنكر) هو من أهم أسس السلوك الإسلامي العام. وهو مفهوم متطور حسب الزمان متغير حسب المكان ويغطي كل سلوكيات المسلم بالأمور التي لا تتعلق بالحدود. فعندما نصح الله سبحانه وتعالى المرأة المؤمنة باللباس الخارجي طلب منها أن يكون حسب الأعراف السائدة في البلد الذي تعيش فيه بقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾. (الأحزاب ٥٩). فهنا ربط المعرفة بالأذى بشكل مباشر تماماً. وعندما أمر الله سبحانه وتعالى النبي بسلوكية لا تتعلق بالنصوص قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. (الأعراف ١٩٩). فهنا تبين لنا أن كل الأحاديث النبوية التي ليس لها علاقة بالعبادات والحدود والغيبيات إن صحت فهي أحاديث تتعلق بالأعراف وخاضعة للتبديل ولا يوجد فيها حرام وحلال، أي أن توافق السلوك الإنساني الاجتماعي ضمن الأعراف السائدة في زمان ومكان محددين حصراً، لذا فلا يقاس عليها. فلباس

المرأة المسلمة والرجل المسلم في المدينة المنورة في زمن الخلفاء الراشدين هو ليس لباساً يقاس عليه لباس المسلمين في كل زمان ومكان.

وهكذا يجب أن نفهم مصطلح المعروف في الكتاب. فقد جاء المعروف كمصطلح مطلق استعمل في مجالات عديدة بحيث يفهم ويطبق بشكل نسبي من المسلمين.

لنورد الآيات التالية حول المعروف:

١ - ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً..﴾. (لقمان ١٥).

لقد أمر الله بطاعة الوالدين وعدم عقوقهما، أما عندما يصل الأمر إلى الشرك «انظر مبحث الفرقان» فعليه أن لا يطيعهما ولكن يجب أن تكون علاقته معهما حسب ما تقتضيه الأعراف السائدة في بر الوالدين. فالمسلم الإنكليزي يبر والديه حسب أعراف الإنكليز، والمسلم اليمني يبر والديه حسب أعراف اليمن.. وهكذا

٢ - ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة ١٧٨).

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة ٢٢٨).

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. (البقرة ٢٣١).

﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة ٢٣٢).

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة ٢٣٣).

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة ٢٣٦).

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَافَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾. (البقرة ٢٤٠).

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾. (البقرة ٢٤١).

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (النساء ٦).

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (النساء ١٩).

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. (الطلاق ٢).

﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ . (الأحزاب ٣٢) .
﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَأْتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ . (الطلاق ٦) .

لقد وضحت الآيات السابقة مفهوم المعروف بشكل صريح ، والأعراف بين الناس هي التي تحدد العلاقات العملية ، فعلاقة ولي أمر اليتامى باليتامى من حيث النفقة ، وعلاقة الرجل بزوجه معاشاً أو طلاقاً ، والأخذ والعطاء بين الناس ينبع من الأعراف ، وعلاقة المسلم بزوجته في لندن من حيث المعاش والطعام والكساء حسب أعراف لندن التي تحدد العلاقة العرفية بين الرجل وزوجه . وعلاقة المسلم بزوجه في اليمن تتحدد بأعراف اليمن التي تحدد العلاقة المعروفة المقبولة بين الرجل وزوجه . . وهكذا دواليك . حيث أن الحرام عند المسلم لا يدخل تحت الأعراف أي إذا كانت الأعراف في بلد ما تبيح لحم الخنزير ، فعلى المسلم أن لا يدخل أكل لحم الخنزير ضمن أعراف الطعام عنده لأن تحريم لحم الخنزير من الحدود لا من الأعراف . وإذا وجد مسلم في بلد ما تبيح أكل لحم الخنزير في أعراف الطعام ، فعليه أن يرفض ذلك بكل لباقة وكياسة وبدون تشنج . لذا فقد غطى الإسلام تحت مصطلح المعروف والمنكر كل الأمور التي لم يرد فيها نص صريح واضح أو الحركة بين الحدود ، وجعل مفهوم المعروف والمنكر جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامي ومن سلوكية المسلم .

وبما أن الأعراف وليدة العلاقات الاقتصادية وشروط البيئة ، لذا فهي متغيرة حسب المكان والزمان . فأعراف أهل البادية والصحراء تختلف عن أعراف أهل الغابات والجبال العالية في الطعام والشراب والملبس وأسلوب الضيافة والأفراح والمآتم . وكذلك الوضع الاقتصادي والعلاقات الإنتاجية تؤثر على الأعراف . فأعراف الأغنياء وفي نفس البلد تختلف عن أعراف الفقراء . وكذلك ظهور سلعة جديدة في الإنتاج تؤثر على الأعراف لأنها ستدخل ضمن دائرة التبادل التجاري والاستعمال وهكذا يجب علينا أن نعرف أن مفهوم «المعروف والمنكر» هو مفهوم حنيفي متطور غير ثابت .

هنا يجب على القارىء أن لا يخلط بين مفهومي الأعراف والأخلاق لأن بعض الناس ما يزالون يخلطون بين هذين المفهومين . فالأخلاق جاءت في الكتاب

صراحة وأضيف إليها مفهوم الأعراف إضافة «انظر مبحث الفرقان».

فمفهـوم اللحيـة ولباس الرجل والمرأة وعلاقة الزوج بزوجه والعلاقات الأسرية المعاشية تدخل تحت بند الأعراف لا تحت بند الحلال والحرام أي لا تدخل تحت بنـد حدود الله. وهــذا ما علينــا أن نفعله نحن المسلمين حيث أمـرنـا الله بذلـك: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّـةٌ يَدْعُـونَ إِلَى الْخَيْـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. (آل عمران ١٠٤). ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ بِاللهِ﴾. (آل عمـران ١١٠). ﴿الْآمِـرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾. (التوبة ١١٢). لاحظ في الآية ١١٢ سورة التوبة كيف فصــل المعـروف والمنكـر عن الحـدود. هذا ما يجب أن نفهمـه تمـامـاً نحن المسلمين بأن هنـاك كثيـراً من الأحاديث النبوية إن صحت فهي أحاديث أعراف، لا أحاديث حدود. أي أن هذه الأحاديث غير قابلة أن يقاس عليها حتى ولو صحت لأنّها وليدة بيئة لها معطياتها وقد تغيّرت هذه البيئة وتغيّرت معطياتها «انظر فصل السنة النبوية».

ثانياً ـ التعليمات للنبي:

ـ الآيـات التي جاءت في أم الكتـاب والتي خاطب بهـا الله سبحـانـه وتعـالى النبي ﷺ بقوله: «يا أيها النبي» أي من مقام النبوة وليس من مقام الرسالة والتي تشكل التعليمات الخاصة أو العامة.

إن الآيات التي جاءت للنبي ﷺ مخاطباً اياه في مقام النبوة هي آيات تعليمات وليست حدوداً أو تشـريعـات عينية، أي ليس لها علاقة بالحلال والحرام. لنورد الآن مثالاً ليتبين الفرق بين التشريع والتعليم:

المثال هو: إذا قتل إنسان إنساناً، فان الدولة والسلطة ستقبض عليه وتحاسبه، وقد تحكم عليه بالإعدام حتى لو ادعى أنه لا يعلم أن القتل ممنوع، وأن حادثة القتل هي حرام عنـد الله سبحـانـه وتعالى، فقتل النفس يدخل تحت بند الحرام والحلال. لذا فإن حادثـة قتـل النفس بالنسبـة لله تعـالى إذا لم يعـاقب فاعلها فلها ما بعدها أي سوف لن تمر عند الله بدون أي شيء: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا..﴾. (المائدة ٣٢).

ولكن إذا شرب إنســان ما الحليب دون غلي ، وهـذا الحليب يمكن أن يسبب التسمم، وهنـاك من نبهـه بأن شرب الحليب بدون غلي يسبب التسمم وأن الشـارب سمـع ذلـك من التلفـاز والصحف والإذاعـة وكـل وسـائـل الإعلام، ومع ذلك شرب الحليب بدون غلي وتسمم، فما هو رد فعل السلطة والله عليه؟ الجواب: لا شيء. لأنه هو تسمم وتحمل نتيجة شرب الحليب بنفسه أي أن هذه الحادثة بالنسبة للسلطة ولله سوف تمـر بدون أن يكـون لهـا ما بعـدها. أما إذا وضعت السلطة تشريعاً بالنسبة لشرب الحليب، فإن السلطة تتدخل وتعاقبه.

لنأخذ الآن آية حلال وحرام «حدود» وآية أخرى فيها تعليمات:

الحلال والحرام «الحدود»:

- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (المائدة ٣٨). عقوبة وتحريم.
- ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاّ بِالْحَقِّ﴾. (الانعام ١٥١). تحريم.
- ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾. (المائدة ٣٢). تحريم.
- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾. (المائدة ٤٥). عقوبة.

ان كل الوصايا والحدود التي جاءت في الكتاب والفرقان «الوصايا العشر» تعبير عن الحـلال والحـرام، أي أن التقيـد بهـا يستدعي رضى الله سبحانه وتعالى. وعدم التقيد بها يستدعي غضب الله سبحانه وتعالى. مثل الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل الـولـد من إمـلاق والفـواحش «الـزنـا واللواط وزواج المحارم» وقتل النفس وأكل مال اليتيم وعـدم الـوفـاء بالكيـل والميـزان «الإخـلال بالمواصفات» وشهادة الزور وحنث اليمين. والوصية العاشرة هي الخاصة بالتقيد بالوصايا التسع السابقة وفيها التقوى الاجتماعية.

وكـذلـك الحـدود أي التقيـد بها يستدعي رضى الله وبالتالي ثوابه. ومعصيتها يستـدعي غضب الله وبـالتـالي عقابه. وعلينا أن نعلم أن الفرقان «الوصايا العشر» هو من أهم تشـريعـات أم الكتـاب التي على المسلمين التقيد بها إلى أبعد حد من أجل استقـامـة حيـاتهم الاجتمـاعيـة. لذا جاء في الـوصيـة العاشرة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمَـاً فَاتَّبِعُـوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـوا السُّبُـلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تتَّقُونَ﴾. (الأنعام ١٥٣).

أما التعليمات التي جاءت من الله سبحانه وتعالى والتقيد بها فيه مصلحة للناس دون أن يستدعي ذلك غضباً أو رضى من الله، أي دون أن يكون هناك ثواب وعقاب، أو أنها جاءت خاصة للنبي ﷺ لمرحلة تاريخية معينة. هذه الآيات بدأت بقوله تعالى ﴿يا أيها النبي﴾.

لنورد الآن هذه الآيات:

- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ جَاهِـدِ الْكُفَّـارَ وَالْمُنَـافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. (التوبة ٧٣). (التحريم ٩).
- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَاأَحَـلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـاتَ أَزْوَاجِـكَ وَاللهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾. (التحريم ١).
- ﴿يا أيُها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (الأنفال ٦٤).
- ﴿يَـاأَيُّهَـا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْـرُونَ صَابِـرُونَ يَغْلِبُـوا مِائَتَـيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَـةٌ يَغْلِبُـوا أَلْفـاً مِنَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (الأنفال ٦٥).
- ﴿مَـاكَـانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (الأنفال ٦٧).
﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (الأنفال ٦٨).
- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْـدِيكُمْ مِنَ الأَسْـرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْـراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (الأنفال ٧٠).
- ﴿مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. (التوبة ١١٣).
- ﴿مَـاكَـانَ لِأَهْـلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُـوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِـهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيـلِ اللهِ وَلَا يَطَـؤُونَ مَوْطِئـاً يَغِيـظُ الْكُفَّارَ وَلَايَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (التوبة ١٢٠).
- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾. (الأحزاب ٢٨).

- ﴿يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ . (الأحزاب ٥٩).
- ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ . (الحجرات ٢).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ . (الحجرات ٣).

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ . (الأحزاب ٥٣).

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ . (الطلاق ١).

لنأخذ الآن الآيات المذكورة :

١ - لنأخذ قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (التحريم ١). هنا خاطب محمداً ﷺ بمقام النبوة بقوله «يا أيها النبي» فهذا يعني أن هناك تصرفاً شخصياً من النبي ﷺ حرم فيه أشياء على نفسه فقط من أجل إرضاء زوجاته ، وهنا نريد أن نضرب مثالاً على ذلك : فإذا امتنع إنسان عن لبس لون من اللباس أو أكل نوع معين من الطعام المحلل إكراماً لزوجته فهذا تصرف شخصي بحت ومسموح ولكنه غير إجباري . وهذا ما فعل النبي ، إذ أنه امتنع هو بنفسه عن أشياء معينة ولم يأمر الناس أن يقلدوه بهذا الامتناع ومع ذلك فقد عاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك دون أن يكون هناك أية تبعة من ثواب أو عقاب بقوله : ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (التحريم ١).

الآن لو بدأ الآية بقوله «يا أيها الرسول لم تحرم ما أحل الله . . » فهذا يعني أن أمر الرسالة يصبح مشكوكاً فيه، وأن محمداً ﷺ يحرم الحلال من الناحية التشريعية، لا من جهة الامتناع الشخصي عن شيء محلل. وهذا مما يدل على أنّ محمداً ﷺ كان معصوماً في تبليغ التشريعات عن ربه «الرسالة» ومعصوماً في أداء الأمانة عن ربه «القرآن» وهو النبوة وهنا تكمن عصمته حصراً.

ثم إن الله تعالى لو قال يا أيها الرسول لحذف الضمير المنفصل «لك» أي لقال «يا أيها الرسول لم تحرم ما أحل الله تبتغي مرضاة أزواجك . . » ولحذف تعبير «والله غفور رحيم». وهذا جاء في مقال آخر بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. (الحاقة ٤٤، ٤٥، ٤٦). أما المنهج النسبي لتطبيق هذه الرسالة عملياً فكان في السنة لذا قال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾. (التوبة ١١٧). ولو قال «لقد تاب الله على الرسول» فهذا يعني أن النبي محمداً ﷺ عصى أوامر الله في أمور تتعلق بالرسالة وهذا ماهو معصوم عنه.

هنا يجب أن نفهم القاعدة التالية مرة أخرى وهي أن الحدود والوصايا من الناحية التشريعية فيها حلال وحرام وعليها تبعة. والأوامر من الناحية التعليمية ليس فيها حلال وحرام وليس عليها أية تبعة من ثواب وعقاب.

٢ ـ لنأخذ الآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. (التوبة ٧٣، التحريم ٩). هنا خاطب الله محمداً ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظ عليهم ولم يعط الآية مقام الحكم التشريعي أي أنه لو أعطاها مقام الحكم التشريعي لبين التبعية من ثواب وعقاب وعوضاً عن أن يعطي التبعية للمأمور وهو النبي وضع التبعية على الكفار والمنافقين أنفسهم بقوله: ﴿وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. (التوبة ٧٣، التحريم ٩). فهذه الآية تعليمية وليست تشريعية أي أنك إذا لم تجاهد الكفار والمنافقين وتغلظ عليهم يمكن أن ينتصروا عليك وعقوبتك هي انتصارهم عليك. ونضرب مثالاً آخر: إذا لم يحافظ الإنسان على نفسه من المرض ولم يأخذ لقاحات ضد الأمراض السارية يمكن لهذه الأمراض أن تنتصر عليه، فهذا أمر تعليمي لا تشريعي.

٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ

صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (الأنفال ٦٥). هنا جاءت الآية بشكل واضح إخباري تعليمي أي الآية: تحريض المؤمنين على القتال وهو أمر تعليمي لا تشريعي، لذا فإن التحريض يمكن أن يكون بالترغيب والترهيب أي يمكن أن يكون بالمال والغنائم وبالموسيقى والشعر أو بالوطنية، ثم أتبع التحريض بأمر اخباري هو المعادلة بينهم وبين الكافرين.

٤ ـ ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (الأنفال ٦٤). نرى أن هذه الآية خبرية بحتة «تعليمية».

٥ ـ ﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (الأنفال ٦٧).

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (الأنفال ٦٨).

هذه الآية جاءت تعليمية بحتة وليست تشريعية حيث أن الله تعالى يعلم النبي ﷺ أنه يجب قتل الأسرى في بداية القتال إلى أن تميل الكفة، فعند ذلك يمكن أن يأخذ أسرى. وهنا وضع في الآية التي بعدها وهي الآية ٦٨ قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ﴾ وكما قلت فالكتاب هو مجموعة الشروط الموضوعية الموجودة في الطبيعة بالقوة أو مجموعة التشريعات التي فرضت على الإنسان بالفعل، وهذا الكتاب الذي سبق هو كتاب الحرية أي أن الإنسان خلق حراً ويمارس أفعاله بنفسه، وقد مارس النبي هذه الحرية في الخيارات واختار عدم قتل الأسرى وكان خاطئاً، ففهمه الله أن هذا خطأ وليس حراماً. ولو قال «ما كان لرسول أن يكون له أسرى..» لأصبح هذا القول حكماً شرعياً له ما بعده من ثواب وعقاب. ولأصبحنا نحن المسلمين مطالبين بأن نقتل الأسرى، وإذا لم نقتلهم نكون قد عصينا الله تعالى وعلينا تبعة عند الله.

٦ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (الأنفال ٧٠). أيضاً هنا الآية إخبارية بحتة ولا يوجد فيها ثواب وعقاب ولا حدود.

٧ ـ ﴿مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْكَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة ١١٣). هنا يخبر الله النبي ﷺ بأنه يجب أن لا يستغفر للمشركين أي أنه لو استغفر لهم فإن الله لن يستجيب لدعائه لا

أكثر من ذلك ولا أقل منه، أي أنه إذا استغفر مؤمن لمشرك حتى ولو كان النبي هو المستغفر فإن الله لن يستجيب لهذا الاستغفار ولكن لا يوجد هناك أي عقاب لهذا قال: ﴿إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ (التوبة ٨٠).

٨ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب ٢٨). لاحظ هنا أن الأمر تعليمي إخباري بحت، أي أنه إذا أراد أزواج النبي الحياة الدنيا فإنه سوف يعطيهن إياها أي أنه لا يوجد أي تشريع في ذلك. وعندما حرم الله نكاح أزواج النبي ﷺ ووضعه تحت بند الحرام قال: ﴿وَمَاكَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾. (الأحزاب ٥٣). وأتبعها بقوله: ﴿إنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾. (الأحزاب ٥٣). علماً بأنه في بداية الآية ذكر من باب التعليم لا من باب التشريع الدخول إلى بيت النبي ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾. (الأحزاب ٥٣).

وعندما ذكر الثواب والعقاب في أوامر القتال ذكرها في مقام الرسالة وهو ﴿مَاكَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾. (التوبة ١٢٠) فأتبع ذلك بذكر الثواب والعقاب بقوله: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (التوبة ١٢٠).

وعندما أمر أهل الكتاب باتباع محمد ﷺ قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾. (الأعراف ١٥٧). هنا لاحظ ذكر الرسالة بعد فعل يتبعون. وذكر في مقام الرسالة: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾. (الأعراف ١٥٧). هنا لاحظ كيف ذكر الأمور التشريعية التي هي من مقام الرسالة ثم ذكر التبعية فأتم الآية بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (الأعراف ١٥٧) لاحظ كيف ذكر التبعية من اتباع الرسالة. وبما أن القرآن ليس من الرسالة وإنما معها قال: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾. هنا قال «معه» ولم يقل «عليه» أو «إليه» ثم ذكر في الآية التي بعدها خطاباً إلى الناس بشأن الرسالة بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي

لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ لا إلهَ إلاّ هو يُحْيي ويُميت فآمنوا باللهِ ورسُولِه النبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِماتِه واتَّبِعُوهُ لعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾. (الأعراف ١٥٨). هنا لاحظ كيف ذكر أولاً الرسالة، وبما أن محمداًﷺ نبي ذكر النبوة، وأن النبوة علم وليست تشريعاً لذا قال: ﴿ورسُوله النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ باللهِ وكلماته﴾ هنا قال الإيمان بالله وكلماته، وكما قلنا إن كلام الله هو كل الموجودات لذا فهي تشمل جميع أنواع الإيمان باليوم الآخر وكتبه ورسله والملائكة والبعث والساعة والجنة والنار لأنها كلها كلمات الله وهي كلها مخلوقة لذا قال: ﴿يُؤْمِنُ باللهِ وكلماته﴾. ثم ذكر التبعية بقوله: ﴿واتَّبِعُوهُ لعلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾.

وعندما أعطى تعليمات لا تشريعات بأن لا نرفع أصواتنا فوق صوت النبي قال: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا ترْفعُوا أصْواتكُمْ فوْق صوْت النَّبيِّ ولا تجْهرُوا لهُ بالْقوْل كجهْر بعْضكُمْ لبعْضٍ﴾. ثم أتبعها إخبارا ﴿أنْ تحْبط أعْمالُكُمْ وأنْتُمْ لاتشْعُرُون﴾. (الحجرات ٢).

ثم عندما أراد أن يحول هذه التعليمات إلى تشريعات أتبعها بالآية التي بعدها بقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذين يغُضُّون أصْواتهُمْ عنْد رسُول اللهِ أُولئك الَّذين امْتحن اللهُ قُلوبهُمْ للتَّقْوى﴾. (الحجرات ٣) لاحظ كيف ذكر التقوى مع الرسالة ثم ذكر التبعية وهي ﴿لهُمْ مغْفرةٌ وأجْرٌ عظيمٌ﴾.

وعندما ذكر المثل الحسن والأسوة ذكرها في مقام الرسالة: ﴿لقدْ كان لكُمْ في رسُول اللهِ أُسْوةٌ حسنةٌ﴾. (الأحزاب ٢١).

٩ ـ لنأخذ الآن الآية الأولى من سورة الطلاق والتي يبدأ الخطاب فيها بقوله تعالى: ﴿ياأيُّها النَّبيُّ﴾:

﴿ياأيُّها النَّبيُّ إذا طلَّقْتُمُ النِّساءَ فطلِّقُوهُنَّ لعِدَّتهِنَّ وأحْصُوا الْعِدَّة واتَّقُوا اللهَ ربَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتهِنَّ ولا يخْرُجْن إلاَّ أنْ يأتين بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ وتلْك حُدُودُ اللهِ ومنْ يتعدَّ حُدُودَ اللهِ فقدْ ظلَم نفْسهُ لا تدْري لعلَّ اللهَ يُحْدثُ بعْد ذلك أمْراً﴾. (الطلاق ١). هنا جاء الخطاب بصيغة «يا أيها النبي» ونلاحظ هنا أيضاً أن التعدي

فيه ظلم للنفس لقوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾. كما قلنا سابقاً إن من قتل نفساً بغير حق فعليه تبعة من الله «عقاب» وأما من يشرب الحليب بدون غلي فإنه أضر نفسه ولكن بدون تبعة لذا قال: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾. أما في حدود أخرى كالإرث فتعديها فيه نار جهنم. وعندما ذكر التقوى ذكرها في الآية التي تليها «انتبه لمواقع النجوم» وذلك عند بلوغ الأجل وذلك بإحسان بمعروف أو فراق بمعروف لذا وضعها على شكل موعظة، وتنفيذ هذه الآية فيه تقوى لذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾. (الطلاق ٢). هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لماذا قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾. أي أكد أنها من الحدود وبدأها بقوله: ﴿يَاأَيُّها النَّبِيُّ﴾؟

أقول: إن السبب هو قوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وكما قلت في مبحث نظرية المعرفة إن الإحصاء يختلف عن العد، فالإحصاء هو تعقل الأشياء وربط أجزاء الأشياء بعضها ببعض للحصول على تصور كامل وهذا ما سميته بالكم المتصل فهنا أعطانا حدوداً مرتبطة بالمعلومات المتوفرة لدينا.

فالسبب الأساسي للعدة هو أن تكون المرأة غير حامل لذا قال: ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. (الطلاق ٤). فالمرأة الحامل أجلها وضع الحمل. هنا نلاحظ الدقة الكبيرة في التعبير قال وضع الحمل ولم يقل الولادة. لأن وضع الحمل يمكن أن يكون بالولادة أو بالإجهاض، فإن حصلت الولادة، فالعدة منتهية. وإن حصل الإجهاض فالعدة منتهية.

قد يقول قائل إذا كان هناك ريبة أو شك في الطريقة العلمية لكشف الحمل ففي هذه الحالة أعطى البديل على الأشكال الثلاثة التالية:

آ - الَّلاتِي يَئِسْنَ من المحيض فعدتهن ثلاثة أشهر.

ب - اللاتي لم يحضن بعد فعدتهن ثلاثة أشهر.

ج - المرأة ذات الحيض ولم تبلغ سن اليأس، أي في سن بين بداية الحيض وسن اليأس، فعدتها ثلاثة قروء والقرء الواحد هو مجموع فترة الطهر وفترة الحيض.

هنا نلاحظ أن عدة المطلقة هي من الحدود وقد ذكرها صراحة. فالحد الأعلى هو ثلاثة أشهر أو ثلاثة قروء، والحد الأدنى يتبع المستوى المعرفي في الطب وهو التأكد بأنها غير حامل. ونلاحظ أن زمن الثلاثة قروء هو زمن أقل أو أكثر أو يساوي الثلاثة أشهر: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلايَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ

مَاخَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ . (البقرة ٢٢٨) . ولكن يضع الأمر الأول والثاني مع إضافة أولات الأحمال قال : **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾** . (الطلاق ٤) . ثم أتبعها **﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾** . (الطلاق ٥) .

لنأخذ الآن الآية رقم ٥٠ من سورة الأحزاب .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ . (الأحزاب ٥٠) .

هنا نلاحظ في هذه الآية أنها بدأت بقوله «يا أيها النبي» ولم تبدأ بقوله «يا أيها الرسول» ففي هذه الآية يوجد تعليمات ليس لها علاقة بالحلال والحرام جاءت حصراً للنبي ﷺ حسب الشروط الموضوعية التاريخية . ولو كان هناك حرام وحلال لذكرها صراحة بقوله : «يا أيها الرسول» .

والمهم في هذه الآية أمران : الأول : لماذا قال : **﴿أَحْلَلْنَا لَكَ﴾** . وذكر بنات العم والعمات والخال والخالات وأتبعها بـ **﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾**؟ هنا جاءت في هذه الصيغة لأن الأساس في الزواج وفي الحياة الاجتماعية أن لا يتزوج الإنسان من أقاربه المذكورين في هذه الآية ، وأن الزواج من الأقارب حالة خاصة وليست عامة ، علماً بأن التحريم القطعي للأقارب «المحارم» جاء بقوله : **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾** . (النساء ٢٣) . هنا لاحظ قوله : **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾** . في مقام الرسالة وبالنسبة للأقارب **﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾** . والخطاب في مقام النبوة .

إنّ على العرب والمسلمين أن ينتبهوا إلى هذه الحالة ويضعوا حداً لزواج الأقارب لأنه إذا فهمنا أن الأساس في زواج الأقارب هو المنع ، هذا الأساس ينسجم مع نصيحة النبي ﷺ للمسلمين بأن يتباعدوا بالزواج . أي إذا سمح بزواج الأقارب أو منع ، فالأمر من الناحية الشرعية سيان لأن الحدود الدنيا لتحريم نكاح المحارم جاءت في سورة النساء . فأي منع للنساء المذكورات في هذه الآية هو زيادة لا يوجد فيه تجاوز للحد الأدنى لذا قال : **﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾** . لذا فعلى المشرعين في الدول العربية

والإسلامية وخاصة الدول العربية بأن يصدروا تشريعاً يمنع زواج الأقارب وعليهم أن يعلموا تماماً بأن تشريعاً من هذا النوع ليس له تبعة عند الله من ثواب أو عقاب. أي أنهم لا يحرمون ماأحل الله ولكن تبعيته على أنفسهم، فإذا سن مثل هذا التشريع فله التبعات التالية على المجتمع:

١ ـ تحسين النسل حيث ثبت علمياً أن التباعد في الزواج يحسن النسل والتقارب يضعفه.

٢ ـ توسيع دائرة الأسرة، ففي حالة منع زواج الأقارب ينظر الرجل إلى ابنة عمه وبقية الأقارب وبالعكس نظرته إلى أخته وتنظر المرأة إليهم نظرتها إلى أخيها وبذلك تقوى الروابط الأسرية وتتوسع.

٣ ـ حسم كثير من المشاكل التي تنشأ من جراء زواج الأقارب، فإذا أرادت فتاة أن تتزوج فابن عمها أحق بها. هذه العادات المنتشرة في الأرياف والتي تتسبب بكثير من المآسي.

٤ ـ تركز الثروات ضمن الأسرة، ففي حالة وجود أسرة غنية فإن الزواج يتم ضمن الأسرة الواحدة لعدم خروج الثروة إلى خارجها. وفي تحريم زواج الأقارب فإن هذا المحذور سيزول.

وإذا لم يسن مثل هذا التشريع فإن تبعته على أنفسهم. وأما عند الله فالأمر سيان فلا ثواب ولا عقاب. أما التبعات من عدم سن مثل هذا التشريع فهي على المجتمع فقط وهي:

١ ـ ضعف النسل.

٢ ـ تضييق الدائرة الاجتماعية للأسرة والترابط الأسري.

٣ ـ المشاكل والمآسي الناجمة بين الأقارب بزواج بعضهم من بعض.

٤ ـ تركز الثروة في يد مجموعة من الأسر.

أما الآية ٥٩ من سورة الأحزاب حول لباس المرأة فانظر شرحها في مبحث المرأة في الإسلام.



الفصل الثاني
السنة



﴿لقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾. (الأحزاب ٢١).

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله» حديث شريف «أخرجه الموطأ».

«ألا اني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه» الكتاب والسنة «الرسالة». «جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ١/٢٨١».

«أوتيت القرآن ومثله معه» القرآن والسبع المثاني «النبوة».

تمهيد

إن أي بحث جاد في السنة يجب أن ينطلق من سؤال أساسي يكون الجواب عليه بوضوح تام. هذا السؤال يمكن صياغته كما يلي:

هل كلام النبي ﷺ وتدابيره وتصرفاته في تلك الأمور التي لا تتعلق بالأصول «الحدود والعبادات والغيبيات إن صحت» وحي أم اجتهاد؟

قال بعضهم إنّ ما كان يقوم به النبي ﷺ هو وحي كله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. (النجم ٣، ٤) والاستناد إلى هذه الآية الكريمة لا مسوغ له البتة هنا، فالضمير «هو» لا يعود إلى النبي ﷺ وإنما يعود بوضوح وحصراً إلى الكتاب المنزل ولا علاقة للضمير هنا بالضمير قبله المستتر في الفعل «ينطق» العائد إلى النبي ﷺ والذي كان من صفاته عليه السلام أنه لم يكن ليتحكم فيه وفي أقواله وفي أفعاله الهوى وتقلبات النفس. الأمر الذي يجعله في مرتبة رفيعة حقاً هي مرتبة النبوة، لكن دون أن يجعل أقوال وأفعال النبي ﷺ كلها من صنف الوحي على كل حال. ثم إن هذه الآية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾. جاءت في مكة في مرحلة كان العرب يشككون في الوحي نفسه. ولم تكن المشكلة هي مشكلة أقوال النبي وأفعاله ولكنها كانت مشكلة القرآن نفسه والمشكك فيه من قبل معظم العرب. أي أن الوحي كان موضوع التساؤل والشك، وليس سلوك النبي الشخصي. علماً بأننا إذا أردنا أن نصنف الحديث النبوي إلى مكي ومدني لوجدنا أن معظم الحديث إن لم يكن كله مدنيٌ وليس مكياً.

وإننا لنضرب مثلاً من الكتاب نفسه: فقد خاطب الله عز وجل نبيه الكريم منبهاً بشكل صريح ولا يحتمل الاجتهاد في عدة مناسبات، فعندما أعرض عن ابن مكتوم، الأعمى الفقير وأقبل على صناديد قريش يحدثهم آملاً في هدايتهم واسلامهم خاطبه قائلاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾. (عبس ١ ـ ٣) علماً بأن هذه الآيات ليست من القرآن وليس لها علاقة باللوح المحفوظ ولا إمام مبين.

وفي مرة أخرى قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (التحريم ١).

وفي مرة ثالثة قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (الأنفال ٦٧).

وهكذا فإنه يمكننا القول إن ما اصطلح على تسميته بالسنة النبوية إنما هو حياة النبي ﷺ كنبي وكائن إنساني عاش حياته في الواقع، بل في الصميم منه وليس في عالم الوهم. فهو عليه الصلاة والسلام إلى جانب عنصر الوحي الذي كرمه الله به، عاش حياته في القرن السابع الميلادي في شبه جزيرة العرب بكل ما كان يحيط بها من ظروف جغرافية وتاريخية وثقافية وسياسية.

لنلاحظ أن النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم لم يعتبروا في وقت من الأوقات أن الأحاديث النبوية هي وحي. فهو عليه السلام من جهته لم يأمر بجمعها كما فعل مع الوحي «الكتاب» وكذلك الأمر مع الخلفاء الراشدين فقد فهموا أنها كانت نتيجة تعامل مع واقع معين في ظروف معينة عاشها النبي ﷺ وجابه فيها عالم الحقيقة المكاني والزماني فهي بهذا تشكل منبعاً ثرياً يستفيد منه المؤمنون عامة، والعلماء المشرعون خاصة.

ويبرز من هذا الأمر سؤالان:

١ ـ لماذا لم يأمر النبي ﷺ بجمع كلامه، مع أنّه أمرهم بتدوين الوحي بكل دقة وقال لهم في الوقت نفسه «لقد تركت فيكم ما إن اتبعتموه فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي». ؟

تذهب فئة من العلماء إلى أنّ النبيّ لم يأمر بجمع كلامه وتدوينه لتجنب الاختلاط بين الوحي والحديث، وهذه حجة واهية. فالنبي أول من يعلم بقوله

تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. (الحجر ٩). ثم إن ذلك كان سيستبعد بخطوة إجرائية بسيطة وهي تخصيص بعض الكتبة للوحي وبعضٍ آخر للحديث.

٢ ـ بعد أن فرغ الصحابة من جمع الوحي «الكتاب» وقد بدأ الجمع في أيام أبي بكر الصديق وانتهى تماماً في زمن عثمان بن عفان. وتم نسخ المصحف الموجود بين أيدينا اليوم. وتم إتلاف كل الصحف التي نسخ عليها الوحي. وقد كان معظم الصحابة أيام عثمان بن عفان على قيد الحياة. فلماذا لم يجمع الصحابة الحديث كما جمعوا الكتاب بعد أن فرغوا من جمع الكتاب وتدوينه؟ علماً بأن الأحاديث النبوية حول الحدود والعبادات والأخلاق «الصراط المستقيم» قد انتقلت إلينا بالتواتر.

فإذا كان النبي ﷺ لم يفعل ذلك بنفسه ولم يفعله الصحابة من بعده لسبب واحد وذلك لعلمهم بأن جمعه ليس ضرورياً. وأن الحديث هو مرحلة تاريخية وأن السنة ليست عين كلام النبي ﷺ. وإذا لم يكن الأمر كذلك فهناك نتيجة واحدة وهي أن النبي ﷺ والصحابة من بعده كانوا يريدون إرباك المسلمين بعدم تدوين الحديث، وهذا يعني أن آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لا معنى لها إذ كيف أكمل الدين والحديث لم يدون؟ وكيف دون الصحابة الكتاب ولم يدونوا الحديث؟ هذه التهمة هم براء منها للسبب التالي:

إن عدم أمر النبي ﷺ بجمع كلامه وتدوينه. وأمره بكتابة الوحي وحرصه المطلق على ذلك هو والصحابة يقود إلى فهم عميق لفرق أساسي بين النبوة والعبقرية: فالعبقري هو إنسان أنتجه عصره في ظروف معينة مادية ومعنوية يسجل الناس عنه كلامه أو هو يسجله بنفسه أثناء حياته، ولكن سيكون كلامه وتصرفاته نتاجاً تاريخياً يحمل طابع المرحلية وبالتالي فإن الواقع سيتجاوزه مع تطور الحياة في سياق الزمن. وبما أن محمداً ﷺ هو نبي وليس عبقرياً وحسب، فإنه قد علم أن جانب الوحي فيه ـ النبوة والرسالة ـ يتصل بعالم المطلق لينفذ به إلى عالم الحقيقة الموضوعي النسبي. ففي الإسلام جانبان: الجانب المطلق هو الله سبحانه وتعالى، وقد عبر عن هذا الجانب بالكتاب الموحى بصياغة الله سبحانه وتعالى المتشابه في النبوة والحدود في الرسالة. أما الجانب النسبي في الإسلام فهو النبي ﷺ في سنته،

حيث أخذ المطلق «الحدود في الرسالة» وحوله إلى عالم الحقيقة النسبي الذي واجهه هو نفسه ولو لم يكن كذلك فلا يوجد حاجة إلى تعدد النبوات والرسالات على مر التاريخ. بل كان يكفي نبي ورسول واحد لكل الناس من نوح إلى أن تقوم الساعة. ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. فقد سبق محمداً ﷺ كثير من النبوات والرسالات التي تشكل كلها حلقات في الإسلام والتي كان محمد ﷺ آخرها ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. (المائدة ٣). وقد قلنا في مبحث الحدود إن هذه الآية هي جزء من آية حدودية.

وبهذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان من حيث ذلك الاتصال بالمطلق «الكتاب» ليتفاعل مع الظروف والمراحل التاريخية المتعاقبة فينتج مجتمعاً معيناً وحضارة معينة في كل مرحلة. فهو والحالة هذه يمكن أن يأخذ صيغاً حضارية تاريخية حسب العالم الموضوعي الذي يتفاعل معه. هذا هو السبب المحوري للنبي ﷺ وصحابته في حرصهم على الوحي الذي هو المبدأ أو المطلق. وأما الباقي فمتروك للإنسان في سياق الزمن. فلا قوالب جاهزة مسبقاً، ولا توقيف لحركة التاريخ في الإسلام. هذا الشيء الذي تفاداه النبي والصحابة ووقعنا فيه نحن، فجمدنا التاريخ وحنطناه بأنفسنا واتهمنا النبي ﷺ بذلك ونزعنا عن الإسلام أهم صفة من صفاته وهي الحنيفية، حيث أن الإسلام يشترط الحنيفية في إخلاص الناس للدين في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾. (البينة ٥).

ثم إن الأحكام «أم الكتاب» جاءت من الله مباشرة وليست من اللوح المحفوظ أو امام مبين، وهي التي تمثل الرسالة وتحتوي على الحدود والعبادات والأخلاق والذي قال عنها: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (الرعد ٣٩). فهي ليست قديمة لأنها ليست كلام الله وإنما هي كتاب الله.

من هنا يأتي التعريف الخاطىء برأينا للسنة النبوية بأنّها كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول ومن فعل أو أمر أو نهي أو إقرار. علماً بأن هذا التعريف للسنة ليس تعريف النبي ﷺ نفسه وبالتالي فهو قابل للنقاش والأخذ والرد. هذا التعريف كان سبباً في تحنيط الإسلام، علماً بأن النبي ﷺ وصحابته لم يعرفوا السنة بهذا الشكل وتصرفات عمر بن الخطاب تؤكد ذلك. مع العلم بأن أسس التشريع الإسلامي هي الكتاب والسنة وهذا صحيح ولكن ليس الكتاب والحديث. وإذا كان الأمر كذلك فما

هو تعريف السنة؟

لنضع الآن تعريفاً معاصراً للسنة وهو:

ـ السنة

هي منهج في تطبيق أحكام أم الكتاب بسهولة ويسر دون الخروج عن حدود الله في أمور الحدود أو وضع حدود عرفية مرحلية في بقية الأمور، مع الأخذ بعين الاعتبار عالم الحقيقة «الزمان والمكان والشروط الموضوعية التي تطبق فيها هذه الأحكام» معتمدين على قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. (البقرة ١٨٥). وقوله: ﴿مَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. (الحج ٧٨) حيث أن السنة جاءت من «سن» وتعني في اللسان العربي اليسر والجريان بسهولة كقولنا ماء مسنون أي يجري بسهولة. وهذا ما فعله النبي ﷺ تماماً إذ أنه مارس تطبيق أحكام أم الكتاب متحركاً ضمن حدود الله وواقفاً عليها أحياناً من خلال عالم الحقيقة النسبي الذي عاشه هو ـ لا نحن ـ ولم يكن في يوم من الأيام أو في موقف من المواقف حالماً ولا متوهماً ولا مطلقاً.

لذا فإن الذي فعله النبي ﷺ في القرن السابع في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معينة وليس الوحيد وليس الآخير. حيث أنه كان خاتم الأنبياء والمرسلين ولا يمكنه أن يفعل إلا هذا للحفاظ على حيوية الرسالة والنبوة إلى أن تقوم الساعة. وبما أن رسالته تقوم على الحدود فهو الرسول الوحيد الذي سمح له بالاجتهاد لأنه الخاتم ولكي يعلم الناس أن يجتهدوا لوحدهم من بعده حيث أن الإسلام هو تشريع إنساني ضمن حدود الله.

الفرع الأول
سنة الرسالة وسنة النبوة

الآن بعد أن عرفنا السنة علينا تقسيمها إلى فرعين رئيسين وهما **سنة الرسالة**، **وسنة النبوة**. وكما قلت فالنبوة علوم والرسالة أحكام وتعليمات حيث أن الطاعة جاءت

للرسالة ولم تأت للنبوة. وليس في الكتاب أي آية تقول وأطيعوا النبي بل هناك آيات تقول: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. علماً بأن المدح العظيم جاء لمقام النبوة في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾. (الأحزاب ٥٦).

سنة الرسالة:

يجب علينا ان نميز في سنة الرسالة بين الحدود والعبادات والأخلاق والتعليمات. فهناك بعض الأوامر والتنبيهات جاءت إلى النبي ﷺ تخاطبه بعبارة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾. فهذه الآيات تحتوي على تعليمات وإرشادات أو حالات خاصة بالنبي حصراً وليس لها علاقة بالحلال والحرام اطلاقاً. حيث أن الطاعة جاءت في مقام الرسالة بقوله: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾. وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. (الأحزاب ٢١). إذ قال «رسول الله» ولم يقل «نبي الله». وهنا في سنة الرسالة يجب علينا أن نميز بين نوعين من الطاعة:

١ - الطاعة المتصلة:

وهي الطاعة التي جاءت فيها طاعة الرسول مندمجة مع طاعة الله بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (آل عمران ١٣٢). وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾. (النساء ٦٩). وبما أن الله حي باق وقد دمج طاعة الرسول مع طاعة الله في طاعة واحدة، ففي هذه الحالات تصبح طاعة الرسول مع طاعة الله في حياته وبعد مماته. هذه الطاعة جاءت حصراً في الحدود والعبادات والأخلاق «الصراط المستقيم». ولنورد الأمثلة التالية:

في الحدود:

- لقد وضع الرسول ﷺ حداً أعلى لحالات وردت في أم الكتاب كحد أدنى فقط. مثال على ذلك: لباس المرأة الوارد في الآية رقم ٣١ في سورة النور في هذه الآية ورد الحد الأدنى للباس المرأة وهو ما يقال عنه اليوم اللباس الداخلي. ففي هذه الحالة وضع الرسول ﷺ الحد الأعلى للباس المرأة بقوله «كل المرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها» فطاعة هذا الحديث هو كطاعة الآية وليس أقل. أي إذا خرجت المرأة عارية في الطريق كما خلقها الله فقد تعدت حدود الله في اللباس. وإذا خرجت

مغطاة تماماً يدخل في غطائها الوجه والكفان فقد خرجت عن حدود رسوله. ولباس المرأة المسلمة هو لباس حسب الأعراف ويتراوح بين اللباس الداخلي وبين تغطية الجسم ما عدا الوجه والكفين. وهكذا نرى أن لباس معظم نساء أهل الأرض هو ضمن حدود الله ورسوله «انظر مبحث المرأة في الإسلام». وكذلك قول الرسول حول الإرث «لا وصية لوارث» «انظر الجامع الصغيرج ٢ ص ٢٠٣» وقوله «لا تعضية في ميراث الا فيما محل القسمة» «انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثيرج ٣ ص ١٠٦». حيث أن هذه الأحاديث تتعلق بالحدود.

ـ لقد وردت الزكاة في الكتاب كحد حيث أن العبادات تنطبق عليها نظرية الحدود وهي حالة خاصة من الحدود حيث تكمن فيها التقوى الفردية. فقد وضع الرسول ﷺ الحد الأدنى للزكاة وهو ٢,٥٪ وطاعة الرسول في ذلك كطاعة الله. وكذلك الصلاة فطاعة الرسول فيها كطاعة الله بقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي» «أخرجه البخاري ـ انظر جامع الأصول ج ٥ ص ٥٧٦» فإذا أراد الإنسان المسلم أن يصلي لله بغير الطريقة التي علمنا إياها الرسول ﷺ فإن صلاته مرفوضة. وإذا صلى كما صلى الرسول، ولكن لغير الله، فصلاته مرفوضة أيضاً. وكذلك الحج لقوله ﷺ «خذوا عني مناسككم» «انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٤٣». وكذلك الصوم، نصوم كما صام الرسول ﷺ، ولكن ليس من الضروري أن نفطر كما أفطر الرسول ﷺ.

ـ في الأخلاق: كل أحاديث الرسول التي جاءت حول الوصايا العشر من أكل مال اليتيم إلى العهد إلى بر الوالدين وشهادة الزور ماهي إلا أحاديث شارحة للوصايا. فالطاعة فيها طاعة متصلة.

ـ حدود الله في العقوبات يجب أن نفهم أن كلام النبي ﷺ حول تطبيق حدود كتاب الله في العقوبات هو تهديد بتطبيق الحد الأعلى من العقوبة أي الوقوف على الحد. وقد أمرنا النبي ﷺ أن نتجنب تطبيق الحد الأعلى من العقوبة «حدود كتاب الله» بقوله «ادرؤ وا الحدود بالشبهات وأقيلوا الكرام عثراتهم إلا في حد من حدود الله تعالى» وقوله «ادرؤ وا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة» «انظر الجامع الصغيرج ١ ص ١٣». ولم يقل ادرؤ وا العقوبات بالشبهات. وقد كان النبي ﷺ كارهاً لتطبيق حدود الله في العقوبات وخاصة في الزنا. وكان يلتمس

الشبهـات بنفسـه لتفادي تطبيق الحد «مثال على ذلك قصة ماعز حيث قال له النبي: لعلك قبلت، أو غمزت أو نظرت؟» «انظر جامع الأصول لابن الأثير ج ٣ ص ٥٢٦ - ٥٢٧».

- لقـد وضـع النبي ﷺ تعـريفـاً وتـوصيفـاً للجـرائم ذات الحـدود العليـا من العقوبات. فهو بهذا علمنا أن نضع نحن تعريفاً وتوصيفاً لجرائم الحد الأعلى قبل أن نطبق هذه الحـدود. وهـذا التعـريف يخضـع للظـروف المـوضوعية لكل بلد حسب الزمان والتطور.

٢ - الطاعة المنفصلة:

وهي الطاعة التي وردت في الكتاب في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾. (النساء ٥٩). وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾. (المـائـدة ٩٢). هذه الطاعة للرسول جاءت منفصلة عن طاعة الله، هذه الطـاعـة جاءت طاعـة للرسول في حياته لا بعد مماته أي في الأمور اليومية والأحكام المرحلية. وفي الأمور والقرارات التي مارسها كرئيس دولة وكقاض وكقائد عسكري، وفي أمـور الأحكـام المعـاشية والطعام والشراب واللباس حيث اتبع الأعراف العربية وكـان يتحـرك ضمن حدود الله دون أن يخرج عنها وفي الحالات القصوى للعقوبات يقف عليها. هذه الأمور تفهم فهماً معاصراً في المضمون لا في الشكل، وإذا كانت هناك أشياء مفيدة لنا في الوقت الحاضر أخذناها وإذا كانت هناك أشياء غير مفيدة لنا تركنـاهـا، ولـو كانت هنـا طاعـة الـرسول مندمجة مع طاعة الله وأتبعها ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. حيث أن أولي الأمر منكم تعني الأحياء من أولي الأمر لا الأموات. في هذه الحـالـة تصبـح طاعة أولي الأمر كطاعة الله في الصلاة والصوم وأن معصية أولي الأمر تعني معصية الله ولأصبح أولو الأمر هم ممثلي الله في الأرض وخلفاءه فعلاً، علماً بأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض وليس الحكام. فكل شيء قاله النبي ﷺ في أمور لم يرد ذكرها في الكتاب بتاتاً وقال فيها هذا ممنوع وهذا مسموح فمعناها أنها أحكام مرحليـة وحـدود مرحليـة لا علاقـة لها بحدود الله. أي أن النبي وضع حدوداً لأمور ما

وكان من الضروري أن يضع هذه الحدود وذلك وفقاً للشروط الموضوعية التي عاشها وطبقاً للمشاكل التي كان بصدد حلها، ولا تحمل صفة الأبدية كحدود الله، مثل منع التصوير والنحت والرسم والموسيقى والغناء ولبس الذهب واستلام المرأة لمناصب في الدولة.

فإن منع النبي ﷺ للرسم والنحت والتصوير إن صح كان مفهوماً في حينه، حيث أن العرب كانوا حديثي عهد بالوثنية، فمنع ذلك كخطوة وقائية مؤقتة. حيث أن هذا المنع لم يرد في الكتاب نهائياً. حيث ورد في الكتاب «اجتناب الرجس من الأوثان» لا اجتناب الأوثان. حيث أن كل هذه الأحاديث ليس لها علاقة بحدود الله، وقد علمنا بهذا أن كل التشريعات غير الإلهية تحمل طابع الضرورة المرحلي، وعلمنا أن نشرع بأنفسنا.

من هذا المنطلق يجب علينا فصل الأحاديث التي تتعلق بالحدود والعبادات والأخلاق على حدة أي أحاديث الصراط المستقيم.

وعلينا هنا أن ننبه بأن الله سبحانه وتعالى لم يعط لأحد الحق في وضع حدود تشريعية ثابتة إلى أن تقوم الساعة، حيث سميت الحدود بحدود الله في قوله: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ**﴾. (النساء ١٤). هنا الهاء تعود على الله فقط ولو سمح الله بوضع حدود للنبي ﷺ كحدوده تماماً لقال «ويتعد حدودهما» ولو كان الأمر كذلك لوجدنا نسخة واحدة من كتب الحديث ومضبوطة تماماً كآيات الحدود في الكتاب، أي لاهتم النبي ﷺ والصحابة بجمعها وضبطها كاهتمامهم بالكتاب.

أما بقية الأحاديث التي تتعلق بالسلوكيات العامة والاجتماعية فلها أهمية تاريخية فقط وهي غير ملزمة لأحد وتندرج تحت أحاديث التشريع الخاص والقرارات والأجوبة على أسئلة طرحت عليه خلال الحياة اليومية التي عاشها ﷺ.

وهكذا نفهم أن **السنة النبوية** هي اجتهاد النبي ﷺ في تطبيق أحكام الكتاب من حدود وعبادات وأخلاق آخذاً بعين الاعتبار العالم الموضوعي الذي يعيش فيه متحركاً بين الحدود، وواقفاً عليها أحياناً، ووضع حدود مرحلية للأمور التي لم ترد في الكتاب. وفي هذا كان الرسول الأسوة الحسنة لنا إلى يوم الدين بالحنف ضمن حدود الله وفي وضع حدود حنيفية لبقية الأمور، وفي هذا قال «ألا اني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه». وهكذا أيضاً نفهم قوله النبي ﷺ إن صح «اختلاف أمتي رحمة» «الجامع

الصغير ج ١٢/١» أي أن المسلمين يختلفون في الحركة ضمن حدود الله من مكان لآخر. ومن زمان لآخر ويختلفون في وضع حدود إنسانية أيضاً حسب الزمان والمكان وهذه هي عين الرحمة وعين السنة. لذا وجب علينا أن نعيد فهم الأحاديث في ضوء فهم الكتاب لا العكس، حيث أن الأسلوب المتبع التقليدي هو فهم الكتاب في ضوء الحديث.

ويبقى أن أتمنى على القارىء أن يفهمني بدقة ولا يظنّ أننا نردُّ الحديث النبوي معاذ الله وكيف نفعل وقد سمعنا قوله ﷺ: (ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله.. الخ). ولكننا ندعو إلى إعادة فهم الحديث وتصنيفه ونقده وقدره حقّ قدره.

أحاديث النبوة:

وتقسم إلى نوعين:

آ ـ أحاديث تتعلق بالغيبيات أي بشرح القرآن وتتعلق بالفهم العام للقرآن وليس التأويل إذ أن النبي ﷺ كان ممتنعاً عن التأويل. هذه الأحاديث يجب أن تتطابق مع المفهوم العام للقرآن حيث أن المفهوم العام يتطابق مع الحقيقة والعقل. وإذا لم تتطابق فتهمل.

ب ـ أحاديث تتعلق بشرح تفصيل الكتاب كقوله «أوتيت القرآن ومثله معه» هنا يشرح أن السبع المثاني هي كالقرآن وقوله «في ليلة القدر أنزل القرآن إلى السماء الدنيا» هذه الأحاديث يجب أن تتطابق مع آيات تفصيل الكتاب «لا محكمة ولا متشابهة».

الفرع الثاني

السنة النبوية في العمل الثوري وبناء الدولة

إن المرحلة المكية في حياة النبي ﷺ لم تدرس ولم تلق الاهتمام من قبل الفقهاء وإنما غَطّى أحداثها التاريخية كتَّابُ السيرة وإن الذي تلقى الاهتمام من قبل الفقهاء النواحي التشريعية والتي كانت معظمها في المدينة حتى النواحي التشريعية تم فهمها من خلال منهج غير حنيف لتشريع حنيف ممّا أدى إلى تحنيط الأحكام وتجميد حركة التاريخ وإخماد الروح الثورية والوطنية لدى العرب والمسلمين. هنا يجب أن يفهم الإسلام على أنه ثورة عامة شاملة شملت كل نواحي الحياة الشخصية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. قامت هذه الثورة بامكانات إنسانية وسلوك إنساني وبمنهاج إلهي واجتهاد إنساني. إذا نظرنا الآن إلى التاريخ القديم في منطقة الشرق الأوسط الذي هو مهد الحضارات الإنسانية القديمة نرى أن الدول في تلك الحضارات والبلاد كان يقضي عليها أعداء خارجيون. فعندما حارب الإسكندر الأكبر الفرس استقبله أهل فارس بالترحاب لأنهم كانوا يعيشون تحت الظلم ولكنهم أنفسهم كانوا عاجزين عن القضاء على حكامهم حيث أن القهر والعبودية أوقعا الشعوب القديمة في حالة عجز. هذه الظاهرة تفرض علينا دراسة التاريخ القديم بإمعان، أي لماذا لم تقم ثورات من قبل الشعوب القديمة لتقضي على حكامها وكان القضاء على هذه الدول في معظمها نتيجة حروب خارجية. ؟

إذا نظرنا بإمعان نجد أن سبب غياب الثورات لدى الشعوب القديمة هو أن الشروط الثورية الثلاثة التي لا بد لأي ثورة أن تستكملها لكي تنجح لم تكن متوفرة، وهذه الشروط هي:

١ ـ الظروف الموضوعية التي تسمح بتغيير ثوري «القدر».

٢ ـ وعي هذه الظروف «وعي القدر، المعرفة».

٣ ـ تشكيل الأداة الثورية «القضاء الواعي».

لقد كانت الظروف الموضوعية متوفرة ولكن وعي هذه الظروف كان ضعيفاً أو وجد عند قلة قليلة من الناس بحيث عجزوا عن تشكيل الأداة الثورية.

لقد حصلت ثورات غير واعية في التاريخ القديم ولكن لا يمكن أن نسميها ثورة بالمفهوم الحديث بل هي انتفاضات أو ردة فعل عفوية مثل انتفاضة عبيد روما بقيادة سبارتاكوس.

وكما نرى في قصص القرآن أن الله كان يتدخل مباشرة لنصرة رسله وأنبيائه حيث أن الذين اتبعوهم كانوا قلة «نوح، هود، صالح، شعيب، لوط، موسى، وهارون».

لقد كان الإسلام أول ثورة كبرى شمولية في التاريخ الإنساني تحققت فيها الشروط الثورية الثلاثة حيث كان للعرب هذا الدور المميز في التاريخ، إذ وقعت على عاتقهم قيادة أول ثورة كبرى شمولية ضمن أطر ثورية ناضجة أسسوا بعدها دولة ذات علاقات حضارية وحرروا شعوب المنطقة من نير الاستعباد الرازحين تحته. حتى المسيحية لم تستطع أن تقضي على الدولة الرومانية، وإنما تبنتها الدولة الرومانية وأعادت صياغتها ضمن أطرها الوثنية الامبراطورية. وكانت السنة النبوية هي قاموس هذه الثورة.

قبل أن نبدأ بشرح مفردات هذا القاموس سنشرح لماذا العرب وليس غيرهم وقع على عاتقهم ذلك العبء المشرف لهم. لقد شرحت في الباب الرابع في مبحث فن العمارة عن فن العمارة عند العرب أنه كان فناً غير متطور وأن النظام العربي قبل الإسلام كان نظاماً قبلياً بحتاً. ولم يكن هناك أي نظام سياسي يوحد شبه جزيرة العرب. هذه القبائل كانت تعيش بشكل أساسي على الرعي «حياة البداوة» وكان طعامها الأساسي من نتاج المواشي «الإبل والغنم» من لحم ولبن وكانت تأكل التمر حيث النخل من الأشجار الصحراوية التي لا تحتاج إلى رعاية وخدمة كبيرة من قبل الإنسان. وكانت الأماكن الرئيسية في الحجاز مكة ويثرب مقراً لعمل آخر هو التجارة. أما مفهوم الصناعة عند العرب ـ حيث أن الصناعة تحتاج إلى عمل يدوي ـ فقد كان شبه معدوم عندهم، لأن العمل اليدوي يربط الإنسان بمكان واحد، وقد كان العرب يحتقرون العمل اليدوي للسبب الموضوعي التالي الذي كان سائداً في ذلك الوقت: لقد كان العرب في شبه جزيرتهم في القرن السابع على علم تام بأحوال الدول المجاورة لهم وكانوا يعرفون أن هناك قصوراً ومعابد وحلبات سباق ومدرجات رياضية هائلة وعربات، وكانوا يعلمون أن الذي صنع ونفذ كل هذه المنشآت الضخمة كانوا

عبيداً يعملون بالسخرة، فارتبطت في ذهن العربي هذه المنشآت والعمل اليدوي بشكل خاص بالعبودية. لذا فقد أنف العربي من العمل اليدوي لارتباطه بالعبودية في ذلك الوقت، حتى أن الصناع المهرة في مكة كانوا من غير العرب. وإن أهم منشأة عندهم كانت الكعبة المشرفة، وإذا نظرنا إليها اليوم نراها عبارة عن منشأة بسيطة لا يوجد فيها أي تعقيدات ولا تتطلب مهارات خاصة في إشادتها. لقد ظهرت إيجابية هذا الموقف في أن العرب في معظمهم كانوا أحراراً لا يخضعون إلى أي نظام عبودي منظم له مؤسساته ومنشآته الخاصة وجيشه الخاص في حين أن هذا الوضع كان سائداً في الدول المحيطة بهم وكانوا يعلمون تماماً أن هذه الدول كانت متقدمة عليهم من الناحية المدنية، وأقوى منهم من الناحية العسكرية ولكن كانوا يعلمون أن سكانها عبيد، والإنسان عندما يولد عبداً ويعيش عبداً ويموت عبداً وكذلك أبناؤ ه وأحفاده فإنه يصل إلى نوع من العجز الكامل الذي يعجز فيه عن تحرير نفسه ويستسلم لقدره ويعتاد على الطاعة المطلقة دون تفكير «تنفيذ الأوامر فقط» ويصل إلى وضع غير قادر فيه على إمساك زمام المبادرة والتفكير حتى بالأوامر الصادرة له بحيث يصبح هذا النمط من العيش هو من سنن الحياة الأساسية عنده. هذا النوع من الناس غير قادر على قيادة أي ثورة لأنه فقد ملكة التفكير الحر والمناقشة «وهذه كانت سنة الأولين وليس الآخرين، والآخرون هنا هم الإنسان العصري بعد بعثة محمد ﷺ».

هذا المثال واضح في علاقة بني إسرائيل بموسى. إذ وقع على عاتق موسى فقط تخليص بني إسرائيل من الفراعنة ولم يقدم بنو إسرائيل أية مساعدة وسند لموسى لتخليصهم من فرعون ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَاجِئْتَنَا﴾. (الأعراف ١٢٩). وذلك لأنهم ظلوا مستعبدين عدة قرون من بعد يوسف حتى موسى. وعندما خرج بهم موسى من مصر إلى سيناء رفضوا أن يقاتلوا معه وقالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾. (المائدة ٢٤). هذا هو السبب الأول في أن الرسالة والنبوة جاءت إلى العرب ووقع عليهم هذا العبء المشرف وقد تجلت هذه الحرية في كثرة الشعراء في العصر الجاهلي والتي كانت تلعب دور الصحافة الحرة.

أما السبب الثاني فهو أصالة اللسان العربي: لقد شرحنا في مبحث نشأة الإنسان واللغة أصالة اللسان العربي. إذ أنه حين نزل القرآن كان اللسان العربي قد وصل إلى طور الإبانة «لسان عربي مبين» وقد كان اللسان العربي هو ذلك الوعاء الإنساني الذي حوى مطلق الحقيقة ونسبية الفهم.

أما السبب الثالث: فهو أن خاتم الأنبياء والمرسلين يجب أن يكون في أم القرى «مكة»: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾. (القصص ٥٩). ولهذا السبب وضع إبراهيم ابنه إسماعيل في أم القرى لأن خاتم الأنبياء والمرسلين يجب أن يكون من سلالة إبراهيم أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾. (العنكبوت ٢٧).

ـ مفردات قاموس الثورة النبوية «الأصالة الثورية»:

١ ـ الطرح الايديولوجي والفلسفي الشمولي للكون والحياة والإنسان. وهذا الطرح جاء في مكة في القرآن حيث أن معظم الآيات التي تبدأ بـ ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾. هي مكية وهي من هذا الطرح الشمولي، لذا قال عن القرآن أنه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ وعن الكتاب بأنه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. حيث غطى هذا الطرح الوجود كله: الله، الكون، الإنسان، ونظرية المعرفة الإنسانية، أصل الإنسان، الحياة، الموت، الساعة، البعث، اليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب، قوانين جدل الطبيعة وجدل الإنسان، قوانين التاريخ، حرية الإنسان «القضاء والقدر»، ونظرية الدولة والشعب والأمة والقومية والأخلاق. لأن أي طرح ايديولوجي وفلسفي لا يمكن أن يكون إلا إنسانياً ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

٢ ـ هذا الطرح الذي جاء في مكة والذي جاء بلسان عربي مبين، والذي فهموه فهماً نسبياً حسب أرضيتهم المعرفية واللسانية، وذلك من خلال خاصية التشابه، كان طرحاً متقدماً على كل ما هو موجود عند العرب وعند غيرهم وذلك في إطار فهمهم النسبي للقرآن ومقارنته مع ماهو موجود فعلاً في ذلك العصر. وعلينا نحن الآن أن نفهم القرآن ضمن الأرضية المعرفية السائدة في القرن العشرين ومقارنته مع ماهو موجود وسائد عندنا، فنراه طرحاً متقدماً على كل ما هو سائد عند العرب

والمسلمين.

٣ ـ لقد كان هذا الطرح قوياً في مضمونه حسب ما فهموه في ذلك الوقت، لكنه كان ضعيفاً في مواجهته المادية مع الخصم إذ كان دون أنصار لأنه كان جديداً كل الجدة على المجتمع السائد.

٤ ـ انطلاقاً من هذا الطرح تشكل تنظيم قريب الشبه بما يسمى اليوم بالحزب الطليعي.

٥ ـ كانت بدايات التنظيم الطليعي سرية «مرحلة دار الأرقم بن أبي الأرقم».

٦ ـ بعد المرحلة السرية انطلق هذا التنظيم إلى العلنية ملتزماً التزاماً كلياً بالنضال السلبي «السلمي»، أي أنه كان يطرح الأفكار ويتلقى الصدمات دون أن يرد على العنف بالعنف المضاد. لذا ففي المواجهات الفكرية العقائدية كان المشركون يهربون من المسلمين ولا يحبون مواجهتهم حتى أنهم سموا محمداً ﷺ ساحراً سِحر شبابهم. أما في المواجهات القتالية فقد كان المسلمون يهربون من المشركين لعجزهم عن المواجهة حتى أنهم كانوا يضطرون للهرب في بعض المواقف «الهجرة إلى الحبشة» علماً بأنه كان هناك بعض المسلمين الذين طلبوا من النبي ﷺ الرد على العنف بعنف مضاد ولكنهم منعوا من ذلك ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**. . .﴾. (النساء ٧٧) وذلك لأن الشروط الموضوعية لتلك الفترة لم تكن تسمح بذلك.

٧ ـ لقد استعمل أعداء الطرح الجديد (الملأ) كل أساليب القمع والتعذيب الجسدي والنفسي وكانت قمة المواجهة السلبية هي الحصار الإقتصادي حيث تم هذا الحصار في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات ولم يستطع المسلمون مواجهته إلَّا بالصبر والإيمان بقضيتهم حيث لم يستطيعوا الحصول على الطعام إلَّا بالمساعدة السرية من بعض أصدقائهم من مكة. وهذا السلاح ما زال موجوداً حتى يومنا هذا وفعَّالاً ولا يمكن مواجهته إلَّا بالصبر والإيمان بالقضية التي حوصر الناس من أجلها.

٨ ـ لقد استعمل التنظيم الجديد في دعوته كل الوسائل المتوفرة في عالم الحقيقة آنذاك فكان النبي ﷺ والمسلمون يذهبون لدعوة الناس ومجابهتهم ومناقشتهم ضمن كل الأطر المتوفرة آنذاك مثل «دار الندوة» وأسواق العرب مثل «سوق

عكـاظ» ومـواسم الحـج . كل هذا مع تفادي الصدام العنيف مع أعدائهم . علما بأنه بعد انتصارهم ألغيت دار الندوة وسوق عكاظ وبقي موسم الحج بعد تعميمه فريضة تعبدية .

٩ ـ اللجـوء إلى كل «وسـائـل الإعـلام» الممكنـة آنذاك مثل الشعر للرد على وسائل الإعلام المعادية .

١٠ ـ اللجـوء إلى كل أسـاليب الخـدعـة والهـرب والتمـويه كي يخففوا عنهم ضربات الأعداء مع كل الحفاظ على القيم الأخلاقية فلم يمارسوا السبي وقتل النساء والأطفال والسرقة .

١١ ـ المـرونـة في المنـاقشـة والطرح «التكتيك» «المواقف السياسية» «صلح الحـديبيـة» مع الصـلابـة في المواقف العقائدية المبدئية ﴿**قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ . (الكافرون ١ ، ٢) .

١٢ ـ البحث عن أرض ضمن شبـه جزيـرة العـرب يمكن إقـامة مجتمع صغير عليها مُسَيَّس طبقاً للطروحات الجديدة ، وكانت هذه هي الغاية الأساسية من الهجرة إلى يثـرب إذ كان الحصـول على الأرض الآمنـة وإقـامة المجتمع المسيس هو نقطة انعطـاف كبـرى في مسيـرة الثورة . حيث أنه لا ثورة دون أرض ومجتمع مسيس على هذه الأرض .

وفي هذا تكمن نقطة الضعف الكبرى في الثورة الفلسطينية ، إذ هي ثورة وطنية بلا أرض ، ونرى دائماً أنه عندما تحصل هذه الثورة على قطعة أرض ولو كيلومتر مربع واحـد تقيم عليهـا قانـونهـا الخـاص نرى أن القوى تتداعى عليها لسلبها هذه القطعة وتقضي على هذا المجتمع المسيس طبقاً لقانون الثورة الفلسطينية .

١٣ ـ بعـد الحصـول على الأرض وإقامة المجتمع المسيس انتقلت الثورة من مرحلة النضـال السلبي إلى مرحلة النضـال الإيجـابي وبـدأت الحـرب الأهليـة فعلاً وانتشـرت حتى سيطـرت على شبـه جزيـرة العـرب كلها لإقامة الدولة الواحدة ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ . (الحج ٣٩) .

١٤ ـ كذلك في مرحلة النضال الإيجابي استعملت كل أنواع الخدعة والتمويه مع الحفاظ الكامل على القيم الثورية الإسلامية فلم يقتلوا امرأة أو طفلاً أو أعزل من السلاح وحافظوا على عهودهم ووعودهم وأحسنوا معاملة الأسرى . و . . . و . . .

١٥ - عدم إغفال العلاقات الدولية بعد إقامة المجتمع المسيس «رسائل النبي ﷺ إلى كسرى وهرقل والمقوقس».

١٦ - الحفاظ على وحدة أرض شبه جزيرة العرب من الأعداء الخارجيين «غزوة مؤتة، غزوة تبوك» أي بعد انهزام العرب في معركة مؤتة خشي النبي ﷺ من هجوم الروم على شبه جزيرة العرب، فذهب على رأس جيش بنفسه إلى تبوك.

١٧ - بداية التشريع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأحوال الشخصية في المدينة حيث أن الآيات المدنية في معظمها تشريع وتبدأ بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في حين أنّ الآيات المكية إنسانية تبدأ في معظمها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

١٨ - استثمار كل المزايا العربية الإيجابية مثل الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف والعفو عند المقدرة والنزعة إلى الحرية حيث استثمرت إلى أبعد الحدود كل المزايا الإيجابية للقومية العربية «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» «صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٥٨».

١٩ - الاعتماد على أكثر الناس تحضراً بالنسبة لمجتمع شبه جزيرة العرب «قريش والأنصار» في قيادة العمل الثوري حيث كان المهاجرون «من قريش» والأنصار من «يثرب» هم النواة الأساسية للتنظيم الثوري، ولا عجب بأنهم كانوا القادة السياسيين والعسكريين للدولة وتحت قيادتهم جرت حروب التحرير الكبرى لأنهم كانوا أكفاء عن غيرهم في المناورة والتكتيك واتخاذ القرار ضمن الالتزام العقائدي الكامل، إذ أنهم عاصروا الرسول ﷺ من أوائل أيام دعوته حتى وفاته وكانوا هم ذراعه الأيمن ومستشاريه في جميع الأمور التي لا تتعلق بالوحي.

٢٠ - التفريق في القيمة بين القيادات وعامة الناس والتسوية في المعاملة ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. (الحجرات ١٤). هذه النقطة الخطيرة التي يمكن أن تقع فيها أكبر الثورات وتعتبر من نقاط المقتل في العمل الثوري. أي أن السابقين في الإسلام والذين تحملوا أقسى أنواع المشاق والموثوقين في التزامهم العقائدي والذين يقال عنهم الآن القيادة السياسية هم أعلى في القيمة من الناس العاديين الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ

﴿أَفْوَاجاً﴾. (النصر ١ ، ٢) ولكنهم متساوون مع الناس العاديين في الحقوق وأحكام القانون.

٢١ ـ السلطة السياسية هي أعلى سلطة في الدولة. فقد كان النبي ﷺ في الأمور التي لا تتعلق بالوحي هو القائد السياسي وهو رأس القضاء، ولكنه لم يتول القيادة العسكرية إلا في الأمور الكبيرة «كقائد أعلى للجيش». هذه السنة التي سنها النبي ﷺ والتي تشربها الصحابة والعرب معهم وهي أن القيادة السياسية هي أعلى سلطة في الدولة وإليها ترجع القرارات الاستراتيجية «العسكرية والمدنية وتقدير المواقف» كانت هذه السنة واضحة أشد الوضوح بعد وفاة النبي ﷺ وهذه السنة تتمثل في الأمور التالية:

آ ـ إن السلطة السياسية يجب أن تكون من أناس لهم ماض معروف وملتزمين وليسوا نكرات أي أنهم مارسوا النضال والقيادة قبل الوصول إلى هرم السلطة وهذا واضح في الخلفاء الراشدين والقواد العسكريين والمستشارين بعد وفاة النبي ﷺ إذ كانوا من المهاجرين والأنصار.

ب ـ إن القيادات العسكرية كانت خاضعة خضوعاً كاملاً ومطلقاً للقيادة السياسية حتى أن هذا الأمر كان طبيعياً جداً عند العرب بعد وفاة النبي ﷺ. مثال على ذلك عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح. وأمر الخليفة أبي بكر لخالد بن الوليد بترك العراق والذهاب إلى الشام. ومحاكمة خالد بن الوليد من أجل صرف المال دون أن تشفع له كل أمجاده العسكرية. وقد استمرت هذه الظاهرة حتى أوائل العهد العباسي حيث كان الخليفة الأموي هو رأس السلطة السياسية الفعلي وكان القواد العسكريون ملتزمين بكل قراراته دون أي مخالفة «قتيبة بن مسلم الباهلي» «موسى بن نصير» ولم تضعف الدولة العربية الإسلامية إلا حين انعكس الأمر أي حين أصبح الخليفة الذي هو رأس السلطة السياسية يعين من قبل القادة العسكريين الذين سيتحكمون بالتالي بجميع القرارات والاتجاهات الكبرى للدولة.

ج ـ ان القرارات التكتيكية متروكة للقادة العسكريين أنفسهم دون تدخل السلطة السياسية بأحداث المعارك أو توزيع الفرق والألوية ومواضع مبيتها وأوقات تنقلاتها.

٢٢ ـ بعد وفاة الرسول مباشرة فصل القضاء عن السلطة السياسية فحتى حين تولّىٰ أبـو بكـر الخلافة كان القضاء من مهام عمر بن الخطاب. ونلاحظ هنا أن أهمية القضاء تأتي بالمرتبة الثانية بعد رئاسة الدولة بالنسبة للسلطة السياسية وقد تطور هذا المفهـوم بعـد ذلك بظهور الفقه حيث كان الفقهاء يمثلون السلطة التشريعية «اللوائح القانونية» ومن هنا نرى أن الأوائل من الفقهاء كان لهم دور رئيسي في قيادة الدولة من النـاحيـة التشـريعيـة وقد كان الفقهاء الخمسة منارات هدى مضيئة ناصعة عظيمة في الحضارة العربية الإسلامية ولكنهم اجتهدوا لمجتمعهم ولم يجتهدوا لنا وإنما تكمن مشكلتنا الآن في استمرارية الاعتماد عليهم.

إلّا أنـه بعـد عصـر الفقهـاء الخمسـة أدى الفقهاء اللاحقون وخاصة مع بداية عصور الانحطاط دور تحنيط التشريع ودور تجميد الفكر والحؤول دون تحركه ونشاطه.

٢٣ ـ وجـود المـرجـع المعـرفي والأخلاقي والجمالي الواحد لكل من السلطة والنـاس وهـذا ممـا أتاح الجو لبداية بذور الديموقراطية السياسية حيث كان أي إنسان من النـاس ذكـراً كان أم أنثى له الجـرأة في سؤ ال الخليفـة عن سلوك ما، ولولا وجود المرجع لما حصل هذا لأن الديموقراطية لا تكون دون هذا المرجع.

٢٤ ـ القضـاء قضـاء كامـلاً على نظـرية الحق الإلٰهي للحاكم في الحكم لأن الحـاكـم ليس خليفـة الله المطلق في الأرض وإنمـا ﴿أَمْـرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. (الشورى ٣٨). لقد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم وإنما الإنسان كإنسان هو خليفة الله في الأرض وليس الحـاكم. وهكـذا نرى أنه لا يوجد في الإسلام رجال دين لتنصيب الملوك والخلفاء لإعطائهم الصفة الشرعية.

٢٥ ـ مع وجـود المـرجـع المعـرفي والأخلاقي والجمالي كانت الخلافات في الرأي بين القيادات لا تصل إلى حد اتهام بعضهم لبعض بالخيانة حتى خلاف علي ومعاوية كان جدلاً بين إسلام وإسلام وليس بين إسلام وجاهلية حيث كانت تجمعهم القضية العربية الإسلامية.

ولا يهولنك ما كانوا يتنابذون به من ألفاظ تُحِسُّ فيها جفاء وغلظة فنحن نسمع اليـوم في أبهـاء المجـالس النيـابيـة في أرقى دول العالم بل في أبهاء الأمم المتحدة منابذات ومهاترات أشدّ وألذع جداً جداً.

٢٦ ـ إعطاء المرأة حقوقها طبقاً للظروف الموضوعية السائدة ونسبة إلى العالم المحيط بها وذلك يعتبر بداية تحرير المرأة حيث ما حصل للمرأة في حياة النبي ﷺ هو بداية التحرير وليس التحرير بكامله.

٢٧ ـ بداية التغير في العلاقات الإنتاجية. هذه النقطة من أهم نقاط بحثنا، وتعتبر نقطة حاسمة في السلوك الاقتصادي الثوري وهو أنه لا يجوز إحداث تغيير مفاجىء في العلاقات الإنتاجية وفي وسائل الإنتاج. هذه النقطة التي استغلها اليسار الطفولي وهي: لماذا لم يأت التشريع الإسلامي في القرن السابع على تحرير كامل ونهائي للرق وإنهاء هذه المشكلة وإنما بدأ بحلها؟ جواب هذا السؤ ال تم اكتشافه في القرن العشرين فقط وهو أن إحداث تغييرات مفاجئة في وسائل الإنتاج والعلاقات الإنتاجية يؤدي إلى كوارث قد تقصم ظهر الدولة. وكان الرق هو العمود الفقري للإنتاج. ثم تأتي العمالة بعد ذلك لتحل محل الرق. فالحل الأخلاقي في الرق كان ضرورياً، والاقتصادي كان متدرجاً. وقد حدث الحل الجذري للرق في عام ١٨٦٠ في أمريكا فنتج عن ذلك حرب أهلية كادت أن تفتت الدولة علماً بأن هذا الحدث حصل بعد ما يزيد على ١٢ قرناً من ظهور الإسلام «القرن الثالث عشر الهجري».
أما الحلول الجذرية فيمكن اتخاذها فيما يتعلق ببنية الدولة وفي إدارتها وفي سياستها بشكل خاص لأن من مهمات الثورة بعد مرحلة نجاحها وتسييس المجتمع، التنظير لتطوير مفاهيم المجتمع وفق الظروف الموضوعية المستجدة والتناقضات الجديدة وعلاقات التأثير والتأثر المتبادل الجديدة وذلك لخلق حركة دفع دائمة التطور حفاظاً على عجلة التقدم في المجتمع، ولتحاشي النكسات والتجمد والتحجر، مما يبرر الضرورة الدائمة للتغيير في البنية والإدارة والتشريع وحل التناقضات الجديدة التي لا تنتهي أبداً والشورى «الديموقراطية» وحرية التعبير عن الرأي هي أساس الأسس في هذا التطور.

٢٨ ـ الالتزام الكامل بالوعود التي تقطعها الثورة للناس وعدم النكال بها «أي تطابق الأقوال والأفعال».

٢٩ ـ إبرام معاهدات مرحلية من أجل الوصول إلى الهدف الأساسي وخفض عدد الأعداء إلى الحد الأدنى «معاهدة النبي مع يهود يثرب لأن المعركة الأساسية كانت مع مشركي العرب» «صلح الحديبية».

٣٠ ـ اعتبار القتال آخر حل يمكن اللجوء إليه، وفي حال وجود حلول أخرى لكسب المعركة فإنها هي التي تتبنى «المؤلفة قلوبهم».

٣١ ـ ممارسة الديموقراطية «الشورى» في كل أبعادها الممكنة في ذاك الوقت في الأمور التي لا تتعلق بالوحي ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. (الشورى ٣٨). ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. (آل عمران ١٥٩). حيث أن عقيدة التسبيح «التطور» في الوجود والحركة بين الحدود في التشريع هي أساس الوحدة الوطنية التي تحتمل الديموقراطية في المعرفة وفي التشريع.

٣٢ ـ عدم اللجوء إلى الإجراءات الانتقامية عند النصر والتمكن من العدو، لأن الدول لا تبنى على الحقد والانتقام ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾. (النحل ١٢٦).

ونرى هذا في أن النبي ﷺ عفا عمن آذاه في حال الإمكانية.

٣٣ ـ صياغة مفاهيم وطنية تأخذ كل إيجابيات القومية العربية في الجاهلية مضافاً إليها مفاهيم الإسلام في العقيدة والمعاملة والأخلاق.

٣٤ ـ إعطاء كل الشخصيات القيادية أبعادها الكاملة في القيادة والقرار حيث أنه بعد وفاة النبي ﷺ كانت القيادات كلها مهيأة للقيادة السياسية والعسكرية.

وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. (الأحزاب ٢١). فالأسوة الحسنة هي اتباع منهج النبي ﷺ في تطبيق أحكام الكتاب حسب الزمان والمكان حيث كان هو الأسوة في هذا المنهج الذي حول التعليمات الإلٰهية المطلقة إلى واقع موضوعي في عالم النسبية.

الفرع الثالث

جمع الحديث وتدوينه وفهمه

لنناقش الآن لماذا تم التأكيد الكبير على حرفية الحديث حيث أن الفقهاء الأربعة ظهروا في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (الشافعي ولد عام ١٥٠هـ). والفقهاء الأربعة ظهروا في أوائل العصر العباسي، وكذلك المحدثون

(البخاري ولد عام ١٩٦ هـ).

إن السبب الأساسي لجمع الحديث أولاً وللتأكيد عليه ثانياً هو سبب سياسي بحت. تولد عنه منطلق فكري عقائدي بعد سقوط دولة الخلفاء الراشدين وظهور الدولة الأموية، ظهرت فرق في الإسلام كلها ذات منشأ سياسي، وكان هذا المنشأ بحاجة إلى أرضية ايديولوجية «الشيعة، الخوارج» وظهرت بداية تيارات فكرية فلسفية مثل الجهمية والقدرية والمرجئة. هذه التيارات حاولت تبني الفهم الفلسفي للقرآن وللرسالة. هذا الفهم الذي كان بعيداً عن العرب في حياتهم البدوية ضمن ظروفهم في شبه جزيرة العرب حيث كانوا أبعد الناس عن الفلسفة والفهم الفلسفي. وكان الصحابة جزءاً من هؤلاء العرب. إن المشكلة الكبرى التي ما زلنا نعيشها إلى اليوم بسبب تكريس مفهوم الحديث ـ أي حديث ـ والتأكيد عليه، تكمن فيما يلي:

هل نحن أفهم من الصحابة في فهم الكتاب؟؟ في الجواب على هذا السؤال يجب أن نكون جريئين في الحق بدون خوف. الجواب هو نعم ولا في آن واحدٍ.

فالجواب نعم: نحن على يقين بأننا في أواخر القرن العشرين في مشاكلنا المعاصرة والتي لا يعرف الصحابة عنها شيئاً. وبوجود الكتاب الذي لا ريب فيه بين أيدينا، قادرون على نقله من عالم المطلق إلى عالم النسبية الذي نعيشه نحن وقادرون أن نتحرك ضمن الحدود بشكل يتناسب مع عصرنا، وفي هذا نحن أقدر منهم وليس من الضروري أبداً الاعتماد على أقوالهم وتحريها فوضعنا منهم هو: إن كانت أقوالهم تناسبنا أخذناها، وإن كانت لا تناسبنا تركناها.

والجواب لا: لأنهم فهموا الإسلام حسب شروطهم وظروفهم أفضل من فهمنا التاريخي للإسلام وهو متفاعل مع ظروف القرن السابع في شبه جزيرة العرب.

ان المغالطة الكبرى هي أننا نريد أن نفهم الإسلام فنرجع من القرن العشرين إلى القرن السابع في طريقة تفكيرنا. أي أننا نريد أن نفكر كما فكروا هم وهذا مستحيل. ثم بعد ذلك ننتقل من القرن السابع إلى القرن العشرين لنقدم إسلام القرن السابع في القرن العشرين. في هذه العملية يتم تشويه التاريخ والتطور والزمان والمكان. وينتج لدينا اسلامٌ خياليٌّ يعيش في فراغ وخارج التاريخ ودينٌ لا علاقة له بالحياة بل خارج الحياة. هذه العملية إن لم ننتبه اليها ونصححها فلا أمل في تقدم المسلمين والخروج من مأزقهم. والخروج من المأزق هو استيعاب السنة بمفهومها

الحقيقي «الأسوة الحسنة للرسول»: «بعثت بالحنيفية السمحة ومن خالف سنتي فليس مني» وهو أننا يجب أن نكون واثقين من أنفسنا ونقول إننا في القرن العشرين قادرون على تحويل القرآن من مطلق إلى نسبي كما فعل النبي ﷺ «وليس عين ما فعل النبي ﷺ» وكما فعل أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وليس عين ما فعلاه لأنهما فهما هذه الحقيقة. وإذا كان هناك أمور في صدر الإسلام نعتبرها مفيدة اليوم أخذناها، وإذا كانت لا تفيدنا تركناها دون حرج. ونحن قادرون أيضاً على أن نتحرك ونجتهد ضمن حدود الله ورسوله في الأمور التي وردت في الكتاب، وقادرون على أن نضع حدوداً في الأمور الأخرى كما فعل النبي ﷺ.

هذا الكلام يجب أن لا يفهم على أننا نكيل الاتهامات لهم أو نقلل من قدرهم وعظمتهم «لا سمح الله». ولكن يجب علينا أن نعطيهم قيمتهم التاريخية النسبية دون أن نضعهم في المطلق.

فإذا سألني سائل الآن «ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن»؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: **كلا لا يسعني ما وسعهم** لأن أرضيتي العلمية تختلف عن أرضيتهم. ومناهج البحث العلمي عندي تختلف عنهم. وأعيش في عصر مختلف تماماً عن عصرهم. والتحديات التي أواجهها تختلف عن تحدياتهم.

إني أواجه فلسفات قوية ومنيعة دخلت عقر داري، وأواجه تقدماً علمياً يؤثر على كل حركة وكل قرار أتخذه في حياتي، وأكون متوهماً إذا قلت أو قبلت أنه يسعني ما وسعهم.

لقد ظهرت أوائل الحركات الفكرية في العصر الأموي بعد الفتوحات العربية الهائلة حيث تتوجت هذه الحركات في العصر العباسي بظهور المعتزلة أصحاب الفكر الحر حيث طرحوا مسائل لم يطرحها الصحابة بشكل مؤكد ففهمها الفقهاء على أنها خروج عن الإسلام. فظهر هناك تياران أساسيان: التيار الأول ظن أن الإسلام له شكل واحد في فهمه وتطبيقه هو شكله في شبه جزيرة العرب في صدره فقط وأن الصحابة هم خير من فهموا القرآن والكتاب بشكل مطلق، لذا كان هذا التيار بحاجة ماسة وملحة لكل كلمة قالها النبي ﷺ والصحابة، لا المنهج أي كانوا بحاجة إلى عين كلامه. وتبني عين الكلام لا يعتبر أسوة وذلك لكي يؤكد ويدعم اتجاه هذا التيار الذي نسميه تيار النقل وقد اعتمد هذا التيار على ناحيتين مهمتين وما زال

يستعملها حتى الآن وهما:

آ - العواطف الجياشة النبيلة للمسلمين في حبهم للنبي ﷺ والصحابة وقد استغلت هذه العواطف وما زالت تستغل إلى اليوم على صورة لا ترضي النبي ﷺ.

ب - انعدام البحث العلمي لدى هذا الاتجاه حيث كان البحث العلمي عندهم يعتمد على «هكذا قال عمر» والمشكلة الأساسية عندهم هي قال أم لم يقل أي صدق الرواية. وهكذا ظهر مفهوم علم الحديث وطبقات المحدثين، علماً بأنه علينا أن نعي المقولة الأساسية التالية وهي «صدق الخبر لا يعني إطلاقه» أي إذا كان الخبر صادقاً فلا يعني أنه مطلق.

هذا التيار نتج عنه أمران في منتهى الخطورة:

١ - وضع حياة النبي ﷺ في عالم المطلق بينما كانت حياته منسوبة إلى شبه جزيرة العرب في القرن السابع بكل ما أحاطها من معطيات اقتصادية واجتماعية وسياسية.

٢ - الإصرار على أن أوامر النبي ونواهيه هي وحي، وأن السنة هي وحي، والوحي دائماً من الله، والله مطلق. علماً بأن طاعة النبي متصلة بطاعة الله في الحدود «حدود الله» والعبادات والأخلاق «الصراط المستقيم» فقط.

هذان السببان نتج عنهما أننا وقعنا في عمق المزلق المسيحي دون أن ندري حيث أن الديانة المسيحية مرتبطة بشخصية المسيح حصراً. وقد كان كلام المسيح عندهم هو كلام الله، لذا فإننا نرى أن كل الأناجيل على اختلاف أنواعها عبارة عن السيرة الذاتية للسيد المسيح. والأحاديث هي السيرة الذاتية للنبي ﷺ، فكما أنّ هناك عدة أناجيل فهناك عدة كتب للحديث. فلماذا نعيب على المسيحيين أنّ لديهم عدة نسخ للأناجيل ولا نعيب هذا على أنفسنا في الحديث. تقوم المسيحية على تأييد المسيح، فشعائرهم الدينية مرتبطة بشخصية المسيح: عيد الميلاد، عيد الفصح، حتى القداس هو الحضور الحي للمسيح. فالمسيح بذاته عند النصارى هو الشهادة الإلٰهية لا الإنجيل.

أما عندنا نحن المسلمين فالشهادة الإلٰهية هي «الكتاب المنزل» وليس شخصية النبي. ولكن بمفهوم السنة التقليدي الموروث أصبح محمد ﷺ هو الشهادة الإلٰهية إلى جانب الكتاب بل أصبح فعلياً الحديث النبوي هو المعتمد عليه أكثر من

الكتاب في بعض الأحيان.

ولو كان الأمر كذلك لنتج عنه أننا نتهم محمداً ﷺ دون أن ندري بالتقصير في ابلاغ رسالة ربه، إذ لو كان حديثه وحياً لوجب عليه أن يأمرهم بكتابته كما أمرهم بكتابة الوحي. أما وقد نهاهم فلم يبق إلا احتمالٌ واحد وهو ألّا يكون كلامه وحياً فلا حرج عليه في نهيه عن كتابته.

وأما التيّار الأساسي الثاني فهو:

تيار العقل:

وقد تمثل في المعتزلة حيث أن الإسلام عندهم تفاعل مع معطيات العصر وتحدياته وأنتج فكراً نيراً حراً نقدياً.

وقد انتهت المعركة مع الأسف بانتصار التيار الأول وما زلنا نعيش مآسيها وخيبتها حتى يومنا هذا، حيث أصبح التيار الأول يسمى نفسه أهل السنة والجماعة. وانتصار التيار الأول قتل الفكر الحر النقدي عند الناس مما أدى إلى استسلامهم حيث استلم الفقهاء قيادة الناس تحت عنوان أهل السنة والجماعة، ومات الفكر النقدي. ومنذ ذلك الحين أصبح الفقه والسلطة توأمان بغض النظر عن ماهية هذه السلطة، وطنية أم غير وطنية، عربية أم غير عربية.

هكذا يظهر لماذا كانت الحاجة الملحة إلى علم الحديث حيث تم ظهور علم الحديث في خضم هذه المعركة حتى أصبحت السنة بمفهومها وتعريفها التقليدي الفقهي هي السيف المسلط على رأس كل فكر حر نير ونقدي وأصبح الظن عند المسلمين أن محمد ﷺ حل كل مشاكل الناس من وفاته إلى أن تقوم الساعة.

أما السبب السياسي البحت وهو أن كل حركة سياسية، الشيعة، السنة، الخوارج.. الخ كانت بحاجة إلى أرضية فكرية عقائدية لكي تكسب المؤيدين وتحافظ على استمراريتها مع الزمن، فكان الاعتماد على الحديث هو المرجع الفكري لهذه الفرق السياسية.

ثم هناك نقطة منهجية حول سند الحديث يجب أن لا نغفلها وهو أنه من الناحية التاريخية كان أبوبكر الصديق «رض» أكثرَ الناس ملازمة للنبي ﷺ منذ أول يوم للدعوة وحتى وفاة النبي ﷺ ولا نجد له في كتب الحديث إلّا أحاديث قليلة جداً منسوبة اليه. في حين نجد العشرات من الأحاديث منسوبة إلى أبي هريرة، وهذا أمر

يدعو إلى التساؤل، علماً بأن أبا هريرة قدم إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة وكان النبي ﷺ في خيبر ولبث في المدينة إلى وفاة الرسول ﷺ، أي أنه عاش مع الرسول ﷺ مدة ثلاث سنوات فقط، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي عاشوا مع النبي ﷺ أكثر من ذلك بكثير، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان أبو هريرة يقول «ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر» وكان عمر «رض» يقول «أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به» ثم يقول أبو هريرة «أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي؟ أما والله لأيقنت أن المخففة ستباشر ظهري» فان عمر كان يقول «اشتغلوا بالقرآن فان القرآن كلام الله» ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: «انك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فدعهم على ماهم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث وأنا شريكك في ذلك» وهذا معروف عن عمر رضي الله عنه «انظر كتاب البداية والنهاية ص ١٠٧ لابن كثير».

الآن لنورد بعض الأمثلة على السنن النبوية التي يمكن أن تفهم في المضمون لافي حرفية النص ونفهمها فهماً معاصراً:

١ ـ **السواك**: لقد كان النبي ﷺ يستعمل السواك وسيلة لنظافة الفم والأسنان حيث أن السواك مأخوذ من شجر الآراك وهو شجر موجود في شبه جزيرة العرب. فإذا أردنا أن نفهم سنة السواك فهماً معاصراً نقول إن السنة النبوية تحض المسلمين على العناية بنظافة الأسنان والفم ضمن الوسائل المتاحة وكان السواك هو الوسيلة المتاحة في عهد النبي ﷺ فاستعمله. هذه السنة هي درس كبير لنا للعناية بصحتنا.

٢ ـ **سنة اللحية واللباس**: لقد كان النبي ﷺ يلبس من لباس العرب حتى إن الذي كان يدخل عليه من العرب وهو جالس مع الناس لأول مرة كان يسأل من منكم محمد. فهذا يعني أن النبي ﷺ لم يتميز بأي شيء في لباسه ولا لحيته وكان لباسه لباس العرب في حينه، وإطلاق اللحية هو من عادات العرب في حينه. وهكذا نفهم السنة النبوية في اللحية واللباس **هي أن على المسلم أن يلبس لباسه القومي وأن يكون هندامه قومياً بدون حرج**. لأن النبي ﷺ كان لباسه وهندامه قومياً وهذه السنة أكبر درس في الشعور القومي.

٣ ـ **سنة أكل التمر وشرب الحليب**: لقد كان طعام النبي ﷺ معظمه من التمر والحليب. فإذا نظرنا إلى شبه جزيرة العرب رأينا أن الإنتاج الزراعي الأساسي لها هو

التمر وكان العرب يربون الإبل والضأن فكان الحليب هو نتاجها. لذا فإننا نقول أن السنة النبوية من حيث المأكل هي: **أنه على المسلم ان يأكل من الطعام الذي تنتجه بلده**. هذه السنة إذا فهمناها هكذا فهي درس في السلوك الوطني. إما إذا فهمنا السنة على أنها عين التمر والحليب فإنها تصبح شكلاً دون مضمون.

٤ ـ (صوموا لرؤ يته وأفطروا لرؤ يته) إنّ الأهلّة مواقيت للناس، وهي التي تحدد دخول الشهر وانتهاءه ومع تطور علوم الفلك أصبح تحديد دخول الشهر وانتهائه غاية في السهولة وفقاً لمعطيات العلم الحديث، ولكنّ النبي عليه السلام لم يكن لديه خيار آخر، إذ لم يكن بالإمكان معرفة دخول الشهر وانتهائه إلا برؤ ية العين والخيار الواحد لا يفلسف، ومن هنا فإنّا لا نرى بأساً في أن تصوم لرؤ يته بأية وسيلة أخرى مع العين أو دونها.

إنني أرى أنه يجب إعادة دراسة سلوك النبي وأقواله في غير الحدود والعبادات على هذا النحو وإعطاؤ ها المضامين المعاصرة الصحيحة والوطنية والقومية والاجتماعية.

إن النتائج التي يمكن أن نستنتجها في فصل السنة هي التالية:

١ ـ إن السنة هي منهج في تطبيق الكتاب في الحركة بين الحدود أو الوقوف عليها أو وضع الحدود المقابلة لحدود الله أو وضع حدود مرحلية. حيث أن الكتاب يمثل الجانب المطلق الإلهي من الإسلام والسنة تمثل الجانب الإنساني من الإسلام «الاجتهاد».

٢ ـ علينا إعادة النظر في كتب الحديث ضمن النهج التالي:

آ ـ تقسم الأحاديث الشريفة إلى أحاديث النبوة وأحاديث الرسالة.

ب ـ تقسيم أحاديث الرسالة إلى أحاديث ملزمة بالنص والمضمون معاً والمتعلقة بالعبادات والحدود والأخلاق «الصراط المستقيم» وأحاديث ملزمة بالمنهج فقط مثل أحاديث التعاريف أي علينا أن نعرف السارق قبل قطع اليد لأن النبي عرفه، والإلزام علينا هو التعريف لا عين التعريف.

ج ـ علينا تبيان أن أحاديث النبوة ليس لها علاقة بالحلال والحرام.

د ـ علينا إعادة النظر في تنقيح الأحاديث المتعلقة بالغيبيات على ضوء الفهم الحديث للقرآن.

هـ ـ علينـا اعتبـار كل الأحاديث المتعلقة بالحلال والحرام والحدود، التي لم يرد نص فيهـا في الكتـاب على أنهـا أحاديث مرحلية مثل الغناء والموسيقى والتصوير واعتبـارهـا أحـاديث قيلت في حينها حسب الظروف السائدة، وعلينا أيضاً اعتبار كل أحـاديث الغيبيـات التي لا تنطبق مع القـرآن مثـل عذاب القبـر والـروح على أنها سر الحياة على أنها أحاديث ضعيفة أو موضوعة وعدم الأخذ بها.

٣ ـ علينا أن نعيد النظر في كيفية حبنا للنبي ﷺ . إن أكبر حب يمكن أن نحبه للنبي ﷺ هو إرجـاعـه إلى أرض الـواقع على أنه إنسان يوحى إليه ولد من امرأة قرشية كانت تأكـل القـديـد، وأنـه عاش حياته في شبه جزيرة العرب بكل أبعادها بعيداً عن الأوهـام والفـرضيات. وعلينا أن نبتعد عن إدخاله في عالم المطلق كقولنا «أول خلق الله» و«نـور عرش الله» «قبض الله قبضـة من نوره وقـال لها كوني محمداً» ان كل هذه الأوهـام التي نضـع من خلالهـا النبي في عالم المطلق لا تفيـدنـا بشيء إلا بالخيبـة والتخـديـر. لقد وضع المتصوفة النبي ﷺ في عالم المطلق من حيث الوجود ووضعه الفقهاء في عالم المطلق من حيث التشريع، فحولوا بذلك الإسلام ورسول الله إلى خرافة من حيث الوجود وإلى تحجر وتزمت من حيث التشريع.

الفصل الثالث
الفقه الاسلامي

الفرع الأول

أزمة الفقه الإسلامي:

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾. (الروم ٣٠).
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾. (الروم ٤٣).
- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (آل عمران ٦٧).
- ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالله وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (آل عمران ٦٨).
- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (النحل ١٢٠).
- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (النحل ١٢٣).
- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ١٦١).

إن الإسلام دين الفطرة وهو دين الحنيفية المتغيرة حسب الزمان والمكان وحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وهومتطابق تماماً مع فطرة الناس والتي تحمل تشابهاً كبيراً مع قوانين الطبيعة. لذا ربط قوله: ﴿فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. (الروم ٣٠). أي طبائع الناس بقانون الطبيعة بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾. ثم علق في نهاية السورة بأن هذا الدين هو﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. أي صاحب السيطرة والقوة وبالتالي فله القيومية. وقد أكد بأن معظم الناس لا تعرف هذه الحقيقة عن الإسلام بأنه دين منسجم مع طبائعها ومع قوانين الطبيعة معاً وهنا تكمن أزمة الفقه الإسلامي.

لنضرب الآن أمثلة من الطبيعة وكيف ربط طبائع الناس بها:

١ ـ إن أعلى نقطة على سطح الأرض هي قمة إيفرست في جبال هيمالايا،

وأخفض نقطــة على سطـح الأرض هي ساحـل البحـر الميت في وادي الأردن . فإذا نظرنا إلى المكان الذي يعيش فيه الناس رأينا أنه محصور بين هاتين النقطتين . وبين هاتين النقطتين يقـع سطـح الكرة الأرضية ببرها وبحرها . ونرى عدداً قليلاً من الناس يعيش على ساحل البحر الميت، ونرى بعض المغامرين من الناس يصلون إلى قمة إيفرست .

٢ ـ إن أطول نهار في السنة في مدينة دمشق هو ١٤ ساعة و ٢٦ دقيقة ، وأقصر نهـار في السنـة هو ٩ ساعـات و ٥٠ دقيقة . فإذا سأل سائل : ماهو طول النهار في بقية أيام السنة؟ فالجواب هو: بينهما .

٣ ـ إن العين لا تبصـر إلا الألـوان المحصـورة بين الطيف الضوئي مع مركباته فهي لا تبصر تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية .

٤ ـ إن الأذن لا تسمع إلا الذبذبات الصوتية المحصورة بين ٢٠ ـ ٢٠٠٠٠ هرتز .

وكـذلـك حركـة اليـدين والأرجـل ونبضـات القلب والشهيق والـزفير ودرجات الحرارة لجسم الإنسان .

٥ ـ إن النسبـة الطبيعيـة للسكـر في الـدم تتـراوح بين ٧٠ ملغ /ل حداً أدنى و ١٢٠ ملغ /ل حداً أعلى . فإذا وصل السكر في الدم إلى نسبة ٧٠ فهو طبيعي . ولكن على الحـد الأدنى تمـامـاً . ويحتاج إلى مراقبة . وإذا وصل السكر في الدم إلى نسبة ١٢٠ فهـو طبيعي ولكن على الحـد الأعلى تمـامـاً ويحتـاج إلى مراقبـة . أمـا النسبة الطبيعيــة للسكـر في الـدم عنـد ملايين النـاس فهي بين الحـدين . وكـذلـك نسبـة الكولسترول والشحوم وبقية العناصر المكونة للدم .

٦ ـ إن درجـات الحـرارة في مدينـة ما تنحصـر دائمـاً بين حدين أدنى وأعلى . فمثلاً نقول إن أدنى حرارة في مدينة ما استمرت لساعة واحدة هي الصفر وأعلى درجة حرارة استمـرت لسـاعـة واحـدة هي ٤٠ أو نقـول إن أدنى درجـة حرارة في مدينـة ما استمـرت لمـدة ٢٤ ساعـة هي ٥ درجـات مئـوية فوق الصفر، وأعلى درجة استمرت لمدة ٢٤ ساعة هي ٣٨ درجة . أما بقية درجات الحرارة على مدار السنة فهي بينهما . وقـد تتغيـر «تحنف» في اليـوم الواحد أربع أو خمس مرات ولكنها تبقى بين الحدين . وكذلك نسبة هطول الأمطار وسرعة الرياح ودرجات الرطوبة وارتفاع الأمواج في

البحر.

٧ ـ إن الحد الأدنى للسوائل التي يجب أن يتناولها الإنسان يجب أن لا يقل عن كمية معينة في النهار الواحد. أما الحد الأعلى فهومفتوح حسب درجات الحرارة وحسب حالة الإنسان في حالة عمل أو راحة.

٨ ـ إن الحد الأدنى لسرعة جسم منطلق من الأرض هو حوالي ٧كم/ثا وذلك لكي ينفذ من الجاذبية الأرضية. أما الحد الأعلى فهومفتوح. ومن الناحية النظرية مفتوح حتى سرعة الضوء وفي هذه الحالة يتحول الجسم إلى ضوء.

٩ ـ إن الحد الأعلى للسرعة في الوجود المعروف حتى الآن هوسرعة الضوء فلا يوجد سرعة أعلى منها، ولكن يوجد سرعة أخفض منها. فإذا سأل سائل إذا كان الجسم ساكناً فسرعة الصفر هي الحد الأدنى. أقول: إن السرعة لا تطلق على جسم ساكن فمتى نطلق على جسم ما مصطلح السرعة فيجب أن يكون متحركاً.

١٠ ـ إن الحد الأدنى اللازم لوجود حياة في مكان ما هو وجود الماء «الرطوبة» ووجود الأوكسجين.

١١ ـ ان الحد الأدنى لعدد المدارات حول النواة في كل العناصر هومدار واحد، والحد الأعلى هوسبع مدارات. فكل العناصر في الطبيعة مداراتها بين الواحد والسبعة حيث أن بعض العناصر لها مدار واحد كالهيدروجين، وأخرى لها سبعة مدارات.

١٢ ـ إن الحد الأدنى لعدد الحواس التي يجب أن يمتلكها الإنسان لكي يستوعب العالم الخارجي هو السمع والبصر.

١٣ ـ إن الحد الأعلى للعلاقة العضوية بين الذكر والأنثى هو الجماع الجنسي.

هذه الحقيقة أول من اكتشفها وسلم بها في التاريخ الإنساني هو إبراهيم عليه السلام. وبهذا كانت ميزته على الأنبياء والمرسلين. أي أنه اكتشف الطبيعة الحنيفية «المتغيرة» وسلم بها وبذلك اكتشف أن كل شيء ما عدا الله فهو حنيف. وأن تثبيت أية ظاهرة في الوجود هو شرك بالله، أي أشرك هذه الظاهرة مع الله في بقائها وثباتها. لذا فقد تم ربط الحنيفية بالتوحيد حيث أتبع مصطلح ﴿حَنِيفاً﴾. بقوله: ﴿وَمَاكَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام ١٦١). هذا فيما يتعلق بظواهر الطبيعة الحنيفية حيث أن

الإيمـان بحنيفيـة الطبيعة وبالحدود الموجودة فيها والحركة في هذه الحدود فيه توحيد الربوبية ومن هنا كان إبراهيم ﴿أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً﴾. (النحل ١٢٠). وهو الذي سمانا المسلمين والحنفـاء. فإذا أخـذنـا ظواهـر الطبيعـة الحنيفيـة وأسقطنـاها على سلوك الناس، رأينا أن سلوك الناس يكون ضمن حدود دنيا أو عليا أو الاثنين معاً. فإذا جاء للنـاس دين يتطـابق مع هذه الفطرة فهو يتناسب معهم ويعيش معهم، وهذا الدين هو الـدين المبني على الحـدود في التشـريـع لا على تشـريعـات عينية. وهذا هو الدين الإسلامي الذي له المنعة والقوة والقيومية ويتطابق مع طبائع أهل الأرض، وأكثريتهم لا تعلم ذلك.

ولكي يبين أن إبراهيم كان أول الحنفاء حيث اكتشف الحنيفية في الوجود قبل أن يأتيـه الـوحي قال ﴿وَلَقَـدْ آتَيْنَـا إِبْـرَاهِيمَ رُشْـدَهُ مِنْ قَبْـلُ وكُنَّـا بِهِ عَالِمِينَ﴾. (الأنبياء ٥١). ولكي يبين أن الديانتين اليهودية والنصرانية لا تحمل الطابع الحنيف، وأن الحنيفيــة انتقلت من إبـراهيم كنظـرة إلى الكـون إلى محمـد ﷺ كدين عالمي شمـولي بقـولـه تعـالى: ﴿مَـاكَانَ إِبْرَاهِيـمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (آل عمران ٦٧).

وقـد أوضـح الله سبحـانه وتعالى في سورة البقرة أن الديانة اليهودية كانت ديانة عينيـة، حيث أن النـاس كانـوا لا يستـوعبون المفهوم الشمولي الحدودي في الآيات «٦٧ - ٧١» من سورة البقرة حيث أمر الله بني إسرائيل بذبح بقرة، أيَّة بقرة، فأرادوها هم بقــرة عينيــة، أي أرادو أن يدلهم الله على بقــرة معينــة من بين كل جنس البقـر الموجود، وكذلك آية العقوبات ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ. . الآية﴾. (المائدة ٤٥).

انطلاقاً من هذا المفهوم للدين الإسلامي الحنيف نفهم تماماً الأمور التالية:

١ - إن رسـالـة الإسـلام رسـالـة عالميـة وليست للعـرب فقط أو للقرن السابع الميـلادي ﴿قُـلْ يا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنِّي رَسُـولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰـهَ إِلَّا هُوَ﴾. (الأعـراف ١٥٨). فهـو دين واحـدٌ من إلـه واحـدٍ مالـك للسموات والأرض لكل من في السموات والأرض.

٢ - نفهم لمـاذا كانت رسـالة محمد ﷺ هي رحمة للعالمين ﴿وَمَاأَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء ١٠٧).

٣ ـ نفهم لماذا كانت رسالة محمد ﷺ هي خاتم الرسالات بالإضافة إلى أن القرآن كان خاتم النبوات، حيث أن رسالته تعني أن الإنسان ابتعد عن المملكة الحيوانية وهو مدين لله في هذا البعد وقد وجهه الله في المعرفة بالنبوات والتشريع بالرسالات حتى وصل عند محمد ﷺ إلى درجة النضوج في المعرفة والتشريع بحيث أصبح قادراً أن يعتمد على نفسه في معرفة الوجود وفي التشريع «الإنسان المعاصر».

انطلاقاً من هذا نتوجه بالسؤال التالي: هل الإسلام جاء ليحيا الناس به أم ليحيوا من أجله؟ فإذا جاء الإسلام ليحيا الناس من أجله فهذا يعني أنه لا يتناسب مع فطرتهم وفرض عليهم فرضاً وسيأتي يوم يعافونه ويهربون منه. وإذا جاء ليحيوا به فهو متناسب معهم في كل زمان ومكان.

من هنا يجب أن ننطلق في فهم أزمة الفقه الإسلامي الموروث والتفسير، والذي أصبح يشكل عبئاً علينا حيث أصبح غير متناسب مع معلوماتنا وظروفنا في القرن العشرين حيث أن الأزمة تنطلق من خطأ في المنهج، لا من ضعف في اللغة العربية أو قلة في التقوى:

١ ـ أمّا بالنسبة للتفسير فقد ظن المفسرون أن القرآن على غرار التوراة فكلاهما فيه كونيات وقصص. ففسروا القرآن بالتوراة غير آخذين بعين الاعتبار خاصية التشابه. وقد ثبت هذا التفسير إلى يومنا هذا.

٢ ـ وأما بالنسبة لأم الكتاب «الرسالة» فقد ظن الفقهاء أن شريعة محمد ﷺ هي شريعة عينية على غرار شريعة موسى، لا شريعة حدودية. وقد وقعوا في خطأ أن آيات أم الكتاب هي نص، ولا اجتهاد في النص. فوقفوا على الآية أي على الحد، لا عند الحد. علماً بأنه إذا أراد فريقا كرة قدم أن يلعبا مباراة بكرة القدم فعليهما أن يلعبا ضمن حدود الملعب لا عند حدوده. مثال على ذلك آية الإرث، حيث وقفوا على الآية تماماً أي على الحدود ولم يتحركوا ضمن الحدود أبداً. واننا لا نلومهم على ذلك لأن مفهوم الحدود «الرياضيات» والتحليل الرياضي وضعه إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر. وهكذا نفهم لماذا سميت رسالة محمد ﷺ بأم الكتاب بينما سميت رسالة موسى وعيسى بالكتاب لأنه يمكن استنباط ملايين الكتب في التشريع من أم التشريع، ومعظم التشريعات المعاصرة لأهل الأرض تدخل ضمن أم الكتاب.

٣ ـ الفهم الخاطىء للسنة النبوية على أنها عين الحديث، وإنما السنة النبوية هي منهج في التعامل مع الكتاب طبقاً للظروف الموضوعية التي عاشها النبي ﷺ وهو بهذا كان الأسوة الحسنة لنا وكذلك سنة الحدود والأخلاق والتي تشكل الطاعة المتصلة «وأطيعوا الله والرسول».

إن نبوة محمد ﷺ ورسالته هما الخاتم، ولكل الناس ولكل زمان ومكان. فكونهما الخاتم فهذا يعني بالضرورة أن الإنسانية ببعثته ﷺ نضجت لكي تفهم وتتعامل مع قوانين الوجود واستنباط هذه القوانين من القرآن أو من خارجه لوحدها، ونضجت أيضاً لكي تشرع لوحدها ضمن حدود الله. وفي هذا اكتملت خلافة الإنسان لله في الأرض في ربوبيته في السيطرة على الطبيعة. وفي ألوهيته في قدرته الذاتية على التشريع. وبهذا قال للنبي ﷺ فقط ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾. (المائدة ٣). والإنسان كلما تقدم في سلم الحضارة زاد فهمه للحدود. وكلما بعد عن الحضارة زاد جهله بالحدود لذا قال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ الله عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾. (التوبة ٩٧). وكل الثورات التي ظهرت في العالم وتخلصت من شريعة موسى وعيسى وقعت في أحضان الإسلام بدرجات متفاوتة دون أن تدري. لذا فإننا **نضع تعريفاً معاصراً وأصيلاً للتشريع الإسلامي كالتالي:**

التشريع الإسلامي: هو تشريع مدني إنساني ضمن حدود الله. حيث أنه في بعض الحالات يمكن أن يقف هذا التشريع على الحدود. وفي معظم الحالات ضمن الحدود، لذا فهو تشريع حنيفي «متطور» يتناسب مع رغبات الناس ودرجات تطورهم التاريخي «الإجتماعي والاقتصادي والسياسي» ويقر بأعراف الناس. وإنّ تجاوزَ حدود الله لا يجوز أن يخضع للتجربة من قبل الناس ليتأكدوا من صلاحيته، حيث أن نتيجة هذه التجربة ستكون الخيبة والفشل، لأن الله مَنَّ على الناس وأعطاهم الحدود التي يجب أن يعملوا ضمنها لمصلحتهم الخاصة وذكر أن تجاوز حدود الله فيه ظلم كبير ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾. (الطلاق ١). وفيما يتعلق بالعقوبات فيجب على الإنسان أن يسعى جاهداً أن لا يقف على الحد إلا في الحالات البينة تماماً «ادرؤوا الحدود بالشبهات» وفي الحالات الاستثنائية.

وقد أدرج الله سبحانه وتعالى القتل والفواحش ضمن الحدود وضمن الوصايا

لأن الإنسان يجب أن يمتنع عن القتل وعن الفواحش من وازع أخلاقي ذاتي أولاً، ومن وازع قانوني سلطوي ثانياً.

وعلى هذا المبدأ فلنناقش مبادىء التشريع الإسلامي المدونة وهي الكتاب والسنة والقياس والإجماع. ولنحدد مفهومنا لها:

١ ـ الكتاب:

في آيات أم الكتاب توجد الحدود، والعبادات جزء منها وكذلك الوصايا والتعليمات والآيات المرحلية، فعلينا أن نفرق بينها ونفرز آيات الحدود على حدة لأنها أساس التشريع، والعبادات أساس التقوى الفردية، والوصايا أساس الأخلاق «التقوى الاجتماعية»، والتعليمات «يا أيها النبي» والآيات المرحلية لأن هذه الأقسام تعلمنا التشريع. وآيات الحدود هي آيات أساس التشريع وليست عين التشريع، حيث يجب الوقوف عندها لا عليها ويمكن الوقوف عليها في بعض الحالات. لذا فالقول بأن لا مجال للاجتهاد فيما ورد فيه نص بالنسبة للحدود قول لا يصح. وبالنسبة للأشياء التي لم ترد في حدود الله علينا وضع حدود بأنفسنا وهذه الحدود بحد ذاتها متغيرة مثل ضرائب الدخل.

٢ ـ السنة:

لها نوعان: سنة الحدود والوصايا وهي طاعة متصلة. أما الباقي فهو ضمن الطاعة المنفصلة أي طاعة الرسول في حياته. وسنة النبي ﷺ هي منهج في الحركة بين الحدود أو الوقوف عليها أو وضع حدود مرحلية في أمور لم ترد في الكتاب وهو بهذا كان الأسوة الحسنة ويجب علينا أن نقلده في الاجتهاد لأنه فتح لنا الباب بنفسه.

٣ ـ القياس:

إن قياس الشاهد على الغائب هو قياس باطل ومجحف. فلا يصح أن نقيس أي مجتمع معاصر على المجتمع الذي عاش فيه النبي ﷺ وإلا فإننا نقع في الوهم. أما القياس الحقيقي فهو قياس الشاهد على الشاهد ضمن الحدود. أما الشاهد الأول فهو البينات المادية الموضوعية، والشاهد الثاني هو الناس الأحياء الذين سيقاس من

أجلهم. مثال: منع التدخين، فالشاهد الأول هو المعلومات الطبية والإحصائية حول التدخين والشاهد الثاني هو الناس الذين سيطبق عليهم قانون منع التدخين. وعلينا أن نعلم أن الأحداث الإنسانية تتشابه ولكنها لا تتطابق أبداً.

٤ ـ الإجماع:

إن الإجماع في المفهوم المطروح للكتاب والسنة والقياس يعطينا مفهوم الإجماع الحقيقي. وهو إجماع أكثرية الناس على قبول التشريع المقترح بشأنهم، وهم سيلتزمون بهذا الإجماع بتطبيق هذا التشريع، لذا فإن المجالس التشريعية المنتخبة والمنابر التشريعية الحرة وحرية التعبير عن الرأي هي جزء لا يتجزأ من النظام السياسي في الإسلام وذلك حتى يتحقق مفهوم الإجماع وهذا هو المفهوم الحقيقي للديموقراطية التشريعية وحرية التعبير عن الرأي ضمن الحدود.

إن المفهوم الموروث بأن الإجماع هو ما أجمع عليه السلف أو جمهور الفقهاء هو مفهوم وهمي. فقد أجمع هؤلاء العلماء على أمور تخص الناس في حياتهم وضمن مشاكلهم الخاصة بها وليس لنا علاقة بهم. ونرى أن المذاهب الفقهية الموروثة إذا كان فيها أمور تناسبنا حالياً أخذناها بغض النظر عن مؤلفها، وإذا وجدناها لا تتناسب مع ظروفنا تركناها دون حرج ويمكن الاعتماد على الفقهاء في الأمور المتعلقة في فقه العبادات مع ترك العنت والتزمت.

٥ ـ التعريف بالجريمة حسب الزمان والمكان:

يجب على المشرع الإسلامي تعريف الجرائم التي تتطلب تطبيق حدود الله «الحد الأعلى» ووضع توصيف واضح لها. وهذا التعريف والتوصيف يتغير من مكان لآخر ومن زمان لآخر. ويمكن في بعض الحالات إلغاؤه والاكتفاء بالعقوبات الأدنى ويمكن في بعض الحالات الاستثنائية التأكيد عليه وتوسيع مجاله. وبهذا نكون قد اتبعنا سنة النبي ﷺ في الحدود. ويجب أخذ إجماع الأكثرية على هذا التعريف. وفي هذه الحالة يمكن أن تقع ألف حادثة سرقة وتقطع يد واحدة، والبقية يأخذون عقوبات أخف من ذلك قد تصل حتى الإعفاء. وكذلك القتل فيمكن أن تقع مائة حادثة قتل ويعدم شخص واحد والباقي يسجن أو يعاقب بعقوبة أخف من القتل.

ـ ماهي الشروط التي يجب أن تتوفر في التشريع الإسلامي المعاصر؟

١ ـ فهم اللسان العربي على أنه خالٍ من المترادفات، وأن أي نص لغوي من الكتاب أو من خارج الكتاب لا يفهم إلا على نحو يقتضيه العقل.

٢ ـ استيعاب الأرضية العلمية للعصر الذي يعيش فيه المشرعون.

٣ ـ استيعاب القوانين الاقتصادية والاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه.

٤ ـ اعتبار علماء الطبيعة بكل فروعها «هندسة ـ طب ـ فلك ـ فيزياء ـ كيمياء.. الخ» هم الساعد الأيمن للمشرع.

٥ ـ الاعتماد كلياً قبل إصدار أي حكم بقياس شاهد على شاهد على توفر البينات المادية. لذا فإن علماء الإحصاء بالذات هم شركاء المشرعين الذين لا غنى للمشرع عنهم.

٦ ـ إذا تغير أحد الشواهد ـ وهنا هي الظروف الموضوعية ـ فيعاد النظر بالأحكام.

٧ ـ اعتبار أن قاعدة «إن صح الحديث فهو مذهبي» ليست صحيحة دائماً لأن صحة الحديث لا تعني أنه مطلق.

٨ ـ عدم التقيد بأي مذهب فقهي تاريخي مهما كان نوعه.

٩ ـ اعتبار الأعراف التي هي بنية فوقية لبنية تحتية هي العلاقات الاقتصادية والإنتاجية والبيئة هي موجه التشريع.

١٠ ـ عدم النسيان مطلقاً أن أساس التشريع الإسلامي والحياة الإنسانية هو الحرية والإباحة.

١١ ـ يجب عدم نسيان أن الإسلام دين حنيف، فأي تشريع يعرقل مسيرة التقدم في المجتمع والعدالة النسبية، فعلينا أن نحنف عنه «نميل عنه» دون الخروج عن الحدود.

١٢ ـ يجب على المشرعين المعاصرين تدقيق مبدأين فقهيين شائعين وهما:

آ ـ باب سد الذرائع:

لقد جرى تحت هذا الباب تحريم كثير من الحلال فنحن إذا أخذنا الإسقاطات السياسية لهذا الباب فينتج عنها إعلان حالة الطوارىء والأحكام العرفية.

فحالة الطوارىء والأحكام العرفية تطبق عندما تخاف الدولة من أمور قد تحدث، لا حدثت فعلاً وتحتاط لهذه الأمور سلفاً. هذا الباب يعتبر من أهم أبواب الفقه الإسلامي التي يجب تدقيقها وإعادة النظر فيها.

وقد يقول البعض إن هناك طباً وقائياً، أفلا يمكن أن يكون هناك تشريع وقائي؟
الجواب: إن هذا القياس هو قياس خاطىء للأسباب التالية:

آ ـ لم يظهر الطب الوقائي إلا بعد بحث علمي وتدقيق بأن عدم تعقيم الأدوات الجراحية يسبب تلوث الجرح، وأن لقاح الأطفال ضد الجدري والسعال الديكي والدفتريا هو مانع فعلاً لا فرضاً. وذلك بعد آلاف التجارب. أي أن الطب الوقائي مبني على بينات مادية موضوعية وصل إليها المشرع عن طريق الدليل العملي لا النظري.

ب ـ ومع ذلك فإن المشرع لم يضع ثواباً وعقاباً لمن لا يلقح أولاده أي أن الطب الوقائي لم يساهم بحجز الحريات الشخصية إلا من باب معرفي فقط لا من باب أخلاقي ولا من باب جمالي ولا من باب الحلال والحرام.

أما باب سد الذرائع من الناحية الفقهية فلا يمكن أن يستعمل إلا بعد تقديم الدلائل المادية البرهانية. فلا يحق للمشرع أبداً أن يقول «إذا خشي كذا وكذا فعليكم بكذا وكذا» هذا ليس تشريعاً. فالمشرع يقول لقد حصل فعلاً كذا وكذا ويقدم الإحصائيات والنتائج المادية التي حصلت فعلاً، ويقدم الحل التشريعي. لذا فعلم الإحصاء هو الشريك المباشر للقانون حيث لا يمكن للتشريع بدونه أن يكون فعالاً لأن أي فتوى فقهية أو قانونية فيها حجز لحرية الناس. والحرية هي أقدس مقدسات الإنسان، فلا يجوز العبث بها بسهولة وبدون الشعور بالمسؤولية. وعلينا أن نعلم أن التشدد يحسنه كل إنسان: الجاهل والعالم والفقيه وغير الفقيه. وهو لا يحتاج إلى فقه ولا إلى بينات.

فلا يستعمل باب سد الذرائع إلا بعد تقديم البينات المادية المقنعة.

ب ـ باب درء المفاسد أهم من جلب المنافع:

هذا الباب أيضاً من عيوب الفقه الإسلامي يجب تدقيقه لأن هذا الباب إذا طبق ـ وقد طبق فعلا مئات السنين ـ كان من نتائجه فقدان روح المغامرة عند الإنسان المسلم. وهنا يجب أن نفهم أن المفاسد والمنافع نسبية تماماً. فمثلاً عندما يذهب

الشـاب العـربي المسلم إلى أوربـا لطلب العلم، فإنـه قد يقـع في الـزنى أوشرب الخمر. فإذا طبقنا هذا الباب خوفاً من الوقوع في الزنى أومن شرب كأس خمرة فلا نسافر ولا نتعلم.

إنّ على الفقهـاء والقـانـونيين أن يتخلوا عن هذا البـاب كلياً ولو مؤقتاً، ثم إذا أرادوا استعماله فيجب أن يستعمل أيضاً بعد تقديم البينات المادية الإحصائية لحدث ما، ثم الإفتاء.

وهكـذا نرى أن الفقهـاء والقـانـونيين هم أكثـر النـاس احتيـاجـاً للمعلومـات المختلفة في الطب وبقية العلوم والمعلومات الإحصائية في كل مجالات الحياة أي أنهم سيكونون أكثر الناس استعمالاً واستفادة من الحاسوب الإلكتروني مثلاً.

- نتائج الفقه الإسلامي في يومنا هذا:

إن المـذاهب الفقهيـة الخمسـة الـرئيسيـة «الحنفي، الشـافعي، الحنبلي، المـالكي، الجعفـري» هي من أطـر تفـاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معينة عاشها هؤلاء الفقهـاء بكـل أبعـادهـا السيـاسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد كان عملهم تقويماً للسنة النبوية والخلفاء الراشدين حيث بدأ النبي ﷺ هذا التفاعل، ومن بعده الخلفـاء الـراشـدون. وجـاء الفقهـاء وأطـروه ونهجـوه ووضعـوا له أسساً تنسجم مع الشـروط المـوضـوعيـة التـاريخية التي عاشوها هم لا نحن. وقد كان فقههم قوياً في حينـه وتكمن قوتـه في أنه أجاب على كل المسائل المطروحة عليه في مجتمعهم في سيـاقـه التـاريخي، وقـد كان تفـاعلهم مع مجتمعهم تفاعلاً إيجابياً ووطنياً في نفس الـوقت، حتى إن الشـافعي له مذهبـان: القـديم والجـديـد. فعنـدما سافر إلى مصر واستقـر فيهـا كتب مذهبـه الجـديـد لأنه غير المكان ضمن نفس المرحلة التاريخية. وبعد هذا التفاعل ضعفت الدولة الإسلامية ووهنت ولم يستمر هذا التفاعل الإيجابي والـوطني. فبعـد استيـلاء العناصر غير العربية والشعوبية على السلطة في بغداد، بدأ هذا الاستيلاء في عصر المعتصم واكتمل في عصر الواثق، ومن جراء هذا الاستيلاء ضعفت السلطة، ومنع الاجتهاد وقمع الفكر، وأصبح الفكر الإسلامي فقه السلطة أيا كانت، ومن عهـد الـواثق أصبحت من المهمـات الأسـاسيـة للفقيـه قمع الفكر الحر

النقـدي وتـرضية عامة الناس بأوضاعهم المتردية وجعلهم يقبلون بالسلطة أيا كانت، حتى إنه جاء في «العقد الفريد» لابن عبد ربه ما يلي «إذا كان الحاكم عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان ظالماً فعليه الوزر وعليك الصبر».

لقـد استمـر هذا الفقه منذ ذلك الحين مروراً بالمماليك الذين لا يعرفون حتى اللغـة العـربيـة والـدولة العثمانية حتى يومنا هذا. فما هو دور الفقهاء في هذه الحقبة التـاريخيـة عنـدمـا كان يحكم المسلمين «قطـز، وبيبـرس، وأقطـاي، وقـلاوون» وسـلاطين بني عثمـان؟ لقـد كان لهم دور هو ترضيـة عامـة النـاس وإبعـادهم عن مشـاكلهم الحقيقيـة وحصـر الإسـلام في نواقض الوضوء ومفسدات الصلاة والطهارة والنجـاسـة ولبـاس المـرأة والـرجـل ومنـاسـك الحج، وقد انعكس الوضع السياسي والاقتصـادي المشـرذم في الأمراء والمماليك المختلفين في تشرذم الفقهاء أنفسهم، فأصبح لكل أمير رعيته وفقهاؤه حتى أصبح في الجامع الأموي أربع محاريب للصلاة من أجـل أتبـاع الفقهـاء الأربعـة، وأصبـح الإلتـزام الفقهي موازيـاً للإلتـزام والـولاء السيـاسي. فكمـا أن الأميـر كان لا يسامح الناس بالولاء لغيره، أصبح الفقيه أيضاً لا يقبل من أتباعه بسماع غيره، حتى أصبحت المقولة «المريد بين شيخين كالمرأة بين رجلين» هي السـائـدة. وقـد استمـر هذا الأمر مئات السنين، وما نحن المسلمين في عصـرنـا الحـاضـر ومـا نحمله من فقـه نظن أنـه فقـه إسـلامي إلا نتاج لهذه العملية التاريخية الطويلة.

وقـد أخـذ المعتـزلـة بادىء ذي بدء على عاتقهم مهمـة تقـديم طرح فلسفي معـرفي للكـون والحيـاة والإنسـان، وقـامـوا بدور إيجـابي جداً فقـد استطـاعـوا من النـاحيـة الفلسفيـة المعرفية سحق كل العقائد القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام وكـانـوا هم درع الإسـلام الحصين من الناحية العقائدية، حيث أن الفقهاء بأجمعهم لم يستطيعـوا مواجهتهم، حتى جاء أبـو الحسن الأشعـري وجـابـه المعتـزلـة بنفس سلاحهم، لا بسـلاح الفقـه، ثم أكمـل هذه المهمـة الفلاسفة المسلمون حتى جاء الغـزالي واتهم الفـلاسفـة بالـزنـدقة ومنع الفكر الحر النقدي. فكان الغزالي من أهم أركان تجميد الفكر الإسلامي وتشويه نظرية المعرفة حيث وقع في خرافات وأوهام التصوف.

وبعـد ضرب المعتـزلـة الضـربـة السـاحقـة كانت السـاحـة خالية من الناحية

الفلسفية المعرفية فجاءت الصوفية لتملأ هذا الفراغ بمادة هيولية غثة حولت الإسلام إلى دين خرافة وتمائم وتعاويذ وأوراد وأذكار فأصبح المسلم بين نارين. النار الأولى: تكبيل الفقهاء وتشرذمهم وتحويل الإسلام إلى دين كنسي بحت. والنار الثانية: خرافية المعرفة. فعندما كانت دائماً مشاكل الإنسان المسلم عبارة عن مشاكل يومية يعيشها ويلمسها، فعوضاً أن تعرفه بأسبابها الحقيقة «منهج البحث العلمي الموضوعي» حولتها إلى قوى غير مرئية فقدمت الصوفية إلى السلطة إنساناً مقهوراً ذليلاً إمَّعة جاهلاً قانعاً بكل شيء وهذه الأطروحة ما زالت حتى يومنا هذا، حتى أصبح الدعاء المشهور القديم الجديد هو «اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا» هذا الدعاء هو دعاء إنسان مفلس مستسلم قانع بأن أمور قيادته خرجت من بين يديه إلى الأبد. وهذه الأطروحة شيطانية خادعة، فكلما حلت مصيبة بالمسلمين يقول لنا مشايخنا هذه ذنوبكم لأنكم ابتعدتم عن الله، كما لو كان المسلمون هم المذنبون الوحيدون في الأرض وأصبح الدعاء السائد هو «اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه» هذا الدعاء لإنسان مستسلم غير صحيح، علما بأن الدعاء الوارد عن النبي ﷺ ان صح هو «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» «الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠٣».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما يتحدثون مع المسلمين بأحاديثهم الخرافية، ويسأل سائل ما، عنده بقية من عقل، كيف حصل هذا؟ فيكون الجواب «إن الله على كل شيء قدير» ولقد أعطينا جواباً لهذه المعضلة في فصل جدل الإنسان.

لقد استبدلت الصوفية والفقه المتشرذم المتخلف، بالجامعات ومعاهد البحث العلمي الزوايا والتكايا المليئة بمضيعة الوقت والخزعبلات وحلقات الدرس المقتصرة على قراءة حاشية ابن عابدين والطهارة والنجاسة ومفسدات الوضوء. وعندما خرج العثمانيون من سوريا كان هناك مدرسة واحدة ومئات حلقات الذكر والنوبات والزوايا والتكايا. وليتني أرى من يذكر لي عالماً واحداً في الرياضيات أو في الفلك أو الفيزياء أو في بقية العلوم ظهر خلال أربعة قرون من حكم الدولة العثمانية. وبالمقابل كان في كل بلد عشرات المشايخ من فقهاء ومتصوفة دورهم الأساسي تخدير الناس وإبعادهم عن مشاكلهم المباشرة وأعدائهم الحقيقيين. فقد كانوا

أعمـدة السلطـة والأوضـاع الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية الفاسدة، سواء عرفوا ذلـك أم لـم يعـرفـوا. ومـا زال ورثـة هؤلاء النـاس يعيشون بيننا حتى يومنا هذا تحت أسمـاء شتى يعيشـون ويفقهـون على المسلمين ما يسمى بالإسلام حسب زعمهم، ولـم يعلمـوا أن وجـودهم هو أحـد المشـاكـل التي يعاني منها الإسلام. وأن وجودهم يحجب الفكـر النقـدي عن الناس. وما نحن في عصرنا الحاضر إلا أمة مهزومة ورثنا فكراً نظن أنه فكر إسلامي أصيل وماهو إلا تفاعل تاريخي بحت، ونعيش حياة مادية معـاصـرة ونعـرف ماذا يوجـد في العـالم فأصبحنا نعيش في شخصية مزدوجة مهزوزة نبحث عن ذاتنـا في الفكـر الفلسفي المـوروث وفيمـا يسمى بالحجـاب الشـرعي، ونعيش حياتنا في الوقت الحاضر وهذه المشكلة غير قابلة للحل إلا إذا أعدنا النظر في الفكـر الفلسفي السلفي المـوروث كاملاً، وأجرينا تفاعلاً جديداً للكتاب والقرآن مع معطياتنا الحالية، وهذه هي السنة في تفاعل الكتاب من جديد وإعادة تأويل القرآن. وعلينا أن نكون على ثقة بأننا قادرون على أن نفقه لأنفسنا.

لذا فإن الطـرح الـذي ينادي بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على أساس أن الإسلام هو الموروث من كتب الفقه وعلى أساس أن حدود الله هي تشريع عيني هو طرح في فراغ ووهم لا يمكن أن يكتب له النجاح وهو من باب مضيعة الوقت والمال والأنفس. علمـاً بأن الـدولـة بدأت تنفصـل عن الـدين بمفهـومـه الموروث، إن لم تنفصل كلياً، حيث أن الحياة ومشاكلها لا ترحم أبداً ولا تساير أحداً. وأعطتنا الحياة المعـاصـرة انطبـاعـاً بأن الإسـلام لا يصلح لكـل زمـان ومكـان، وهذا غير صحيح. فالإسلام يصلح لكل زمان ومكان بمفهومه الحقيقي الذي نقدّمه.

الفرع الثاني
فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات

آ ـ القضاء الإسلامي:

بعد أن شرحنا نظرية الحدود والجدل المستمر بين النقيضين الاستقامة والحنيفية والذي يتولد فيه ملايين الحالات من التشريع، نقول إن فلسفة التشريع الإسلامي تقوم على العلاقة الجدلية بين الثبات والتغير وبالتالي تقوم على نفس علاقة الثبات والتغير في إصدار الحكم من قبل القاضي. وهكذا فإن القضاء الإسلامي يسمح بإصدار حكمين متغايرين لقضيتين متشابهتين. كما أن التشريع يسمح بتنفيذ النسب الإرثية حسب تغير الأحوال وذلك انطلاقاً من المبدأ الطبيعي التالي:

لا يمكن لحدثين إنسانيين أن يتطابقا تماماً، ولكن يمكن أن يتشابها وهناك حدود للتشابه بينهما، وكذلك في الطبيعة لا يمكن لحدثين أن يتماثلاً تماماً. فهناك الجدل بين التماثل والاختلاف، هذا الجدل إذا أخذ بعين الاعتبار في حالة إصدار حكم قضائي، فيكون هذا الحكم أقرب إلى العدل، ولكن لا يمكن تحقيق هذا عملياً في القضاء إلا إذا كانت النصوص القانونية تحمل الطابع المستقيم والحنيف معاً، أي أن النص القانوني هو نص حدودي يجب الوقوف عنده لا عليه. في هذه الحالة لدينا حالتان:

١ ـ الحالة الأُولى: النص القانوني هو نص عيني، أي لا يحق للقاضي أن يحيد عنه قيْد شعرة واحدة والوقوف عليه تماماً. في هذه الحالة لا يوجد عند القاضي أي مجال للحركة وأخذ القرار طبقاً لكل حالة تخاصمية على حدة وعند ذلك يفقد القضاء هيبته ويصبح القاضي مجرد موظف عادي يمكن لأي إنسان مهما بلغ من قلة الذكاء أو البلاهة أن يصبح قاضياً بمجرد أنه قدم امتحاناً وحفظ النصوص عن ظهر قلب، وإذا كانت هذه الحالة عند العرب موجودة الآن فقد ورثناها من الفقه الخاطىء الذي يقول لا اجتهاد في مورد النص والذي استمر أكثر من ألف عام. وهذه الحالة

يرفضها القضاء الإسلامي رفضاً باتاً.

٢ ـ الحالة الثانية: أن يكون النص القانوني إسلامياً، أي حدودياً بمعنى أن النص القانوني يعطي للقاضي فقط الحدود العليا التي لا يمكن تجاوزها، أو الحدود الدنيا التي لا يمكن النزول عنها أو الحدين الأدنى والأعلى والمسموح له أن يتحرك بينهما. في هذه الحالة يمكن للقاضي أن يصدر مئات الأحكام المتغيرة لقضايا متشابهة.

مثال: إذا وضع القانون غرامة القتل الخطأ «الدية» مبلغ مئة ألف ليرة سورية وسجن سنة واحدة. فيجب أن ينص القانون على حدوديته، أي هل هذا حد أعلى أم حد أدنى؟ فإذا كان حداً أدنى فيحق للقاضي أن يفرض غرامات ابتداء من مئة ألف ليرة فما فوق، ولكن لا يجوز له أبداً أن يصدر حكماً بأقل من ذلك. هذا النوع من القانون يعطي للقاضي حرية الحركة لتحقيق العدالة منسوبة إلى كل قضية على حدة.

ولكن هذا النوع من القانون، وبالتالي القضاء، يتطلب من القاضي أن يكون شخصاً مميزاً، أي شخصاً معروفاً بنزاهته وميله إلى العدل، وبخبرته الواسعة في الحياة، ومشهود له بالفطنة والذكاء بحيث لا يمكن لأي إنسان حفظ القانون أن يصبح قاضياً، بل يتطلب الأمر أكثر من ذلك بكثير. مثال على ذلك: هيئة محلفين لكل قضية على حدة. وفي هذه الحالة أيضاً يظهر الجدل بين المدعي العام والمحامي، فالمدعي العام يبرز أوجه القضية التي تتطلب العقوبة القصوى، والمحامي يبرز أوجه القضية التي تقتضي تنزيل العقوبة. هذا النوع من الجدل بين التشديد والتخفيف يساعد القاضي على الوصول إلى حكم أقرب إلى العدالة «العدالة النسبية» في القضية المعروضة عليه. لذا فإن وجود المدعي العام والمحامي هو من أسس بنية القضاء الإسلامي.

إن أساس القانون في الدولة العربية الإسلامية هو أنه قانون حدودي لا عيني وبالتالي فإن القضاء فيها مرن ومميز، إلا في بعض الحالات الاستثنائية التي يمكن أن يكون القانون عينياً كحالة حد الزنا «الفاحشة العلنية»، ولكن في هذه الحالة يجب على القانون شرح ظروف إقامة العقوبة، علماً بأن هذه الحالات الشاذة يجب أن تكون مهمة جداً كحد الزنا والخيانة الزوجية أو حالة الخيانة الوطنية بحيث يجب

أن تعرف تعريفاً واضحاً.

وعلى القضاء الإسلامي أن يأخذ بعين الاعتبار الحديث النبوي «ادرؤوا الحدود بالشبهات» والحدود في العقوبات تعني العقوبة القصوى. هنا لاحظ قول النبي ﷺ «ادرؤوا الحدود» ولم يقل «ادرؤوا العقوبات بالشبهات». فإذا كان هناك سارق وثبتت عليه السرقة ولكن هناك شبهة «شك» بأن هذه السرقة قد لا تنطبق عليها عقوبة قطع اليد، في هذه الحالة يمتنع القضاء عن إصدار حكم قطع اليد وينزل إلى الحكم الأدنى من ذلك.

ب ـ العقوبات:

نوع العقوبات:

لقد وردت عقوبات قطع اليد والإعدام والجلد على أنها عقوبات حدية في الجلد وحدودية في قطع اليد والإعدام، ونلاحظ أنه لم ترد عقوبة السجن في الكتاب كعقوبة من الله، ولكن وردت عقوبة السجن في سورة يوسف كعقوبة من الناس «عقوبة عزيز مصر ليوسف».

لم يضع الله سبحانه وتعالى عقوبة السجن في مجال العقوبات لأنه تركها للناس لتحددها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السجن إهانة لكرامة الإنسان حيث أن الحرية هي أقدس ما يملكه. أما قطع اليد والإعدام فهما الحد الأعلى للعقوبات على السرقة والقتل لذا فهي استثنائية أي خاصة جداً.

والآن إذا أجرينا مقارنة بين عقوبة الجلد وعقوبة السجن، فنعتقد أن الجلد أرحم بكثير من السجن للأسباب التالية على أساس أن الجلد هو عقوبة نتيجة حكم وليس وسيلة للتحقيق والاستنطاق:

١ ـ لا يعطل الإنسان عن عمله.

٢ ـ لا يؤثر على أهل المعاقب إذا كان عنده مسؤولية إعالة زوجة وأطفال.

٣ ـ لا يتطلب أية نفقة من الدولة مثل بناء السجون ووضع الحراسة.. الخ.

٤ ـ لا يفسد الإنسان من الناحية الأخلاقية كما يفسده السجن.

٥ ـ إن طبيعة الإنسان تفضل الجلد على السجن، فإذا أجرينا استفتاء بين كل

المساجين في العالم بأن كل مائة جلدة تعادل سجن سنة فإني أعتقد أن أكثرية المسجونين تفضل الجلد على السجن.

علنية العقوبات:

لقد أمر الإسلام على علنية العقوبة، وقد يظن البعض أن هذا الإصرار هدفه تربوي بحت وذلك لكي يردع بقية الناس عن ارتكاب الجريمة. هذا صحيح ولكنه يأتي في المرتبة الثانية في أهمية العلنية في العقوبة. أما المرتبة الأولى لعلنية العقوبة فهي ما يلي:

إن علنية العقوبة في الإسلام هي أكبر وأهم ضمان للناس ضد تعسف الحكم والأحكام.

فإذا كانت السلطة التنفيذية والسلطة القضائية في أي بلد تعلم أن أية عقوبة يجب أن يصدر بها حكم ويجب أن تنفذ علناً. فهذا يعني أن الناس ستسأل عن البينات التي قامت على المعاقب حتى نفذ فيه الحكم وعلى السلطة أن تقدم هذه البينات. ولا تتجرأ أية سلطة مهما كانت ظالمة أن تنفذ العقوبات بشكل علني إلا إذا كانت البينات متوفرة. وهذا ما نطلق عليه ديموقراطية العقوبات في الإسلام حيث يكمن فيها أكبر صمام أمان ضد التعسف في الأحكام وفي العقوبات.

الفرع الثالث

نموذج للفقه الجديد في دراسة موضوع المرأة في الإسلام

إن بحث المرأة في الإسلام يعتبر من أهم المواضيع حساسيةً، وهو من المواضيع التي بحثها عديد من مؤيدي الإسلام، ومن أعدائه ابتداء من عصر النهضة وحتى يومنا هذا. ولا أعتقد أنه تم إلى اليوم تقديم بحث أصيل حول المرأة في الإسلام انطلاقاً من الجدل بين الاستقامة والحنيفية والفطرة الإنسانية والتي تعتبر

حدود الله هي العمود الفقري لهذا المنطلق.

لقد انطلق مؤيدو الإسلام في بحثهم موضوع المرأة من منطلق فقهي بحت وهو أن أحكام المذاهب الفقهية الخمسة هي أحكام صحيحة ومنصفة للمرأة. بينما انطلق أعداء الإسلام من حلول لمشكلة المرأة من خارج الإسلام ويمكن أن تكون هذه الحلول إسلامية دون أن يعلموا ذلك، فوقعوا في الاغتراب حيث لا يمكن حل مشاكل المرأة العربية المعاصرة إلا من خلال فهم إسلامي أصيل للمرأة والذي ورد في الكتاب في الحدود وضمن مفهوم السنة المعاصر الذي تم شرحه في فصل سابق.

إن الأخطاء الأساسية التي ارتكبت في الحقبة التاريخية السابقة عند تقييم وضع المرأة، والتي تعتبر أخطاء في صلب المنهج، هي التالية:

١ ـ عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحق المرأة في أم الكتاب والتي يعتبر جزء منها حدوداً والجزء الآخر تعليمات مثل آية تعدد الزوجات، فهي من الحدود، وآية لباس المرأة أيضاً في الآية ٣١ من سورة النور هي من الحدود أيضاً. أما الآية رقم ٥٩ من سورة الأحزاب فهي من التعليمات. وكذلك لم يتم التفريق في الأحاديث النبوية بين أحاديث الحدود وأحاديث التعليمات. إننا لا نستطيع أن نلوم السلف على عدم فهمهم للحدود هذا الفهم المعاصر إذ أن المفهوم الرياضي للحدود ظهر منذ إسحاق نيوتن وبعد ذلك قفزت كل العلوم هذه القفزات الهائلة إذ أعطاها التحليل الرياضي والحدود «النهايات» الآلية التي تم بموجبها تحليل ظواهر الطبيعة حيث أنه تبين أن ظواهر الطبيعة تخضع لحدود «نهايات». وقد أكد الكتاب ذلك بأنَّ فَهْمَ الحدود يحتاج إلى إنسان متحضر بعيد عن البداوة بقوله: **﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (التوبة ٩٧). لذا بعد فهم نظرية الحدود ومطابقتها على أنها في المستقيم والحنيف معاً ومطابقة لظواهر الطبيعة ولفطرة الإنسان فاننا نستطيع أن نقيِّم وضع المرأة تقييماً معاصراً متحضراً انطلاقاً من الكتاب والسنة.

٢ ـ الظن بأن ما حصل أثناء حياة النبي في حق المرأة هو كامل تحريرها أي أن تحرير المرأة بدأ منذ بعثة محمد ﷺ وانتهى بوفاته، فإذا لم تعمل المرأة في حياة النبي ﷺ قاضيةً أو لم تستلم منصباً سياسياً فهذا يعني أنه ممنوع عليها ذلك، علماً

بأن وضـع تحـريـر المـرأة في الإسـلام كوضـع الرق تماماً فالإسلام في أمور كهذه لا يَسْمَـحْ بقفـزات فجائية «حرق مراحل» لأنها تؤدي إلى تدمير المجتمع، ولكن وضع لها أسساً في الكتاب لكي تحل هذه الأمور مع سياق الزمن التاريخي. وقد كان الرق أوضـح مثـال على ذلك. فالعلاقات الإنتاجية كانت تقوم على الرق حيث كانت اليد المنتجة هي الرقيق وهي وسيلة الإنتاج. وقد وضع الإسلام أسس التحرير وبدأ بداية موضـوعيـة حسب ما تسمـح به الظـروف دون أن يدمر العلاقات الإنتاجية، وقد برهن القـرن التـاسـع عشـر على صدق هذه الأطـروحة. فقد توفي النبي ﷺ عام ٦٣٢م، وأصـدر الـرئيس الأمـريكي لنكـولن قراراً بإلغـاء الرق في أمريكا عام ١٨٦٠ أي بعد ١٢٢٨ سنة من وفاة النبي ﷺ. ومع ذلك فقد أدى هذا القرار إلى حرب أهلية دمرت أمـريكـا وكـادت أن تقسمها إلى عدة دول. وقد أظهر القرن العشرين بينات أقوى من ذلك وهي أنه إذا أرادت سوريا الآن أن تحول جذرياً وفوراً قوى الإنتاج إلى الإنسان الآلي «الـروبـوت» وإلى الحـاسـوب الالكتـروني «كمبيـوتر» فإن نتيجة هذا القرار هو التدمير الكامل للإنتاج والاقتصاد السوري وبالتالي تدمير المجتمع.

من هذا المنطلق يجب أن ننظـر إلى وضـع المـرأة في الإسـلام، فقـد أخذت المرأة كل الحقوق التي يمكن أن تأخذها في عهد النبي ﷺ مثل الإرث على أساس نصف الـرجـل لأنهـا غيـر منتجة، ولكن أعطاها الإسلام الحق السياسي من أول يوم للدعـوة، فأول إنسـان قُتِـلَ في سبيـل الإسـلام هو امرأةُ (سُمَيَّةُ) وقد حضرت النساء بيعتي العقبة الأولى والثانية حيث أن هاتين البيعتين تعتبران بمثابة المؤتمر التأسيسي لقيام الدولة الإسلامية في يثرب. فكيف يمكن أن نقول إن الإسلام سمح للمرأة بأن تنـاضـل وَتُقْتَـل وتهـاجر ولم يقل لها التزمي بيتك فوظيفتك هي إنجاب وتربية الأولاد والعناية بالبيت - وبنفس الوقت في الأمور الأقل صعوبة عند قيام الدولة والمناصب المسؤولـة ومجـالس التشـريـع تذكر واجباتها أمّاً ومربية أطفال - قد يقول قائل: إن هذا لم يحصل في عهد النبي ﷺ. الجواب: إن المجتمع الذي أقامه النبي ﷺ هو المجتمـع الأول للإسـلام (الثمـرة الأولى) وليس الـوحيـد وليس الأخيـر حيث أن النبي ﷺ تصـرف ضمن حدود الله ووضـع تعـاريفـاً في بعض الأمـور التي جاء فيها حدود من الله ووضع تعريفاً في أمور أخرى تتناسب مع مجتمعه الذي عاش فيه وتصرف من خلاله، لأن ظروف التطور التاريخي للعرب آنذاك لم تكن تسمح أصلاً بقيام مجالس

تشريعية ولا تسمح بأن تتقلد المرأة منصب إمام أو قائد. وفي الأمور التي تجرأت فيها المرأة وخاضت معارك بنفسها كحالة خولة بنت الأزور وعائشة أم المؤمنين، فلم يمنعها الإسلام ولم يلمها أحد على ذلك.

في هذه الحالة يجب علينا أن نصحح الخطأ المنهجي ونقول إنه بدأ تحرير المرأة في الإسلام في عهد النبي ﷺ ولكنه لم ينته وهو كالرق تماماً، ويخضع تحريرها للتطور التاريخي للإنسانية كلاً وللعرب كجزء. وبما أن الله سبحانه وتعالى وضع في أم الكتاب آيات حدودية للمرأة فقد وجب أن تغطي هذه الآيات كل مراحل التطور التاريخي حيث أنها آيات ثابتة «حدود» وتسمح بالحنيفية ضمن الحدود.

٣ ـ الخطأ المنهجي في فهم بعض الآيات التي ورد فيها لفظة النساء وهي الآية رقم ١٤ من سورة آل عمران ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾. والآية رقم ٢٢٣ من سورة البقرة ﴿**نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. في هاتين الآيتين وردت لفظة النساء، فإذا كانت النساء هنا هي جمع امرأة وقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه وهو في آية آل عمران ورد اسم إشارة بقوله ﴿**ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا**﴾ (آل عمران ١٤). ففي هذه الآية أصبحت المرأة متاعاً «ما ينتفع به من الأشياء» وقد عوملت فعلاً هكذا على مدى قرون على أنها شيء من الأشياء. وفي آية البقرة ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾ فناقضت الآية التي قبلها وهي الآية رقم ٢٢٢ والتي جاء فيها ﴿**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاء في الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ الله إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطهِرِينَ**﴾.

هذا الفهم الخاطىء للآيتين أدى لاعتبار المرأة شيئاً من الأشياء ومع شديد الأسف فإن الفقه الإسلامي الموروث يعتبرها كذلك وينسب ذلك إلى الله ورسوله. ولكن يمكن أن نبرّر لهم ذلك بعدم فهمهم لنظرية الحدود أولاً، ولأنه في سياق التطور التاريخي كان الرجل هو المسيطر في المجتمع، فتم تفصيل الإسلام متناسباً مع الرجال تماماً. فالمرأة فتنة الرجل وعليها أن تتحجب، ولم يقولوا إن الرجل فتنة المرأة فعليه أن يتحجب، علماً بأن الكتاب لم يورد أبداً أن المرأة فتنة الرجل، ولكن

وردت علاقة متكافئة بين الرجل والمرأة بتعبير راق جداً وهو ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة ١٨٧) وأكثر من ذلك بما أن الرجل بحاجة إلى المرأة في الحياة الدنيا من أجل الخدمة البيتية والجماع فعليها طاعته تماماً واعتمدوا على الحديث «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» «كشف الخفاء ج ٢ ص ٢٢٨) ولكن في الحياة الآخرة يوجد في الجنة «حور عين» للجماع والرجل ليس بحاجة لأن يخدمه أحد في الجنة ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ (الحاقة ٢٣) ففي هذه الحالة الرجل ليس بحاجة إلى المرأة فأرسلها إلى النار معتمداً على الحديث «أريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع وأريت أكثر أهلها من النساء» «البخاري ج٢ ص٩٣) هذان الحديثان يناقضان كل ما أوحي إلى محمد ﷺ في الكتاب شكلاً ومضموناً. وقد شرحت في مفهوم الأزواج في الجنة مفهوم الحور العين. وقد قلنا إن آيات الجنة والنار هي من الآيات المتشابهات.

ثم هناك حديث منسوب بهتاناً للنبي ﷺ بقوله «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب ويقي ذلك مؤخرة الرجل» «مسلم ج ١ ص ٣٦٥» هذا الحديث يناقض أيضاً كل ما أوحي إلى محمد ﷺ من الله حيث فيه إهانة المرأة وتخريجها من المجتمع الإنساني الذي كرمه الله وجعله خليفة له في الأرض.

نبدأ بحثنا في الإسلام والمرأة بالتعريف. فما هو تعريف المرأة؟ **لقد عرف الله المرأة والرجل أيضاً ضمن مستويين مختلفين: المستوى الأول بشري فيزيولوجي، والمستوى الثاني إنساني عاقل واع.**

- **المستوى الأول**: قال: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**﴾ (النجم ٤٥) وقال ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الذاريات ٤٩). في هذا المستوى دمج الرجل والمرأة مع كل المخلوقات العاقلة وغير العاقلة والأشياء أيضاً. فالأنثى من البشر، والبهائم لها تركيب فيزيولوجي خاص بها قابلة للقاح والإخصاب والحمل والولادة والإرضاع وتربية النسل، ففي هذا لا تتميز الأنثى عند الناس عن أي أنثى عند البهائم. والذكر هو زوج الأنثى، الطرف المقابل، يكون معها علاقة تقابلية متكيفة وهو قابل لأن يلقح، ففي هذه الحالة لا يوجد أي تمييز للذكر عن أي ذكر عند البهائم.

- **المستوى الثاني**: وهو المستوى الإنساني العاقل الواعي المتميز عن بقية

المخلوقات بنفخة الروح، وفي هذا قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء ٧٠).

فالله سبحانه وتعالى عندما يخاطب الناس أي يخاطب العاقل وكل خطابات القرآن تبدأ بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي الرجال والنساء معاً وخطابات أم الكتاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الرجال والنساء معاً. فالله سبحانه وتعالى كرم الناس جميعاً وسواهم بالإنسانية ولم يفضل أحداً على الآخر إلا بالعمل الصالح، وكرامة أية أنثى من الناس لا تقل عن كرامة أي ذكر. ورغبة المرأة بأمر من الأمور ورأيها لا يقل عن رأي أي رجل عندما تتيح الظروف لها ذلك. والأطروحة التي تقول عن النساء «ناقصات عقل وناقصات دين» يجب إعادة النظر فيها.

لنبدأ الآن بآيات الحدود التي جاءت في أم الكتاب ولها علاقة بالمرأة:

١ ـ تعدد الزوجات:

إن تعدد الزوجات تعتبر من أهم المشاكل التي تواجه المرأة العربية الإسلامية بشكل خاص وتواجه الإسلام أمام العالم بشكل عام. فإذا فهمنا أن آية تعدد الزوجات الواردة في أم الكتاب هي من آيات الحدود فينقلب فهمنا للآية تماماً وتصبح الآية شاملة للنواحي التاريخية «التطور التاريخي السابق والمعاصر» وشاملة لأنبل النواحي الإنسانية.

وردت آية الحدود في تعدد الزوجات كالتالي:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء ٣).

لنشرح أولاً الأصلين (قَسَطَ وَعَدَلَ). فالأصل «قسط» في اللسان العربي أصل صحيح يدل على معنيين متضادين تماماً والبناء واحد. ففي المعنى الأول هو العدل مع المساعدة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة ٤٢، الحجرات ٩، الممتحنة ٨). والمعنى الثاني الظلم والجور كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا

الْقَـاسِطُـونَ فَكَـانُـوا لِجَهَنَّمَ حَطَبَـاً (الجن ١٤). وكذلك الأصل «عدل» له معنيان متضـادان الأول استـواء والآخر اعوجاج، ويقال للشيء يساوي الشيء هو عدله «ابن فارس» وهناك فرق بين القسط والعدل، فالقسط يكون من طرف واحد، والعدل بين طرفين، لذا نقـول معـادلـة، أي أن المعـادلـة هي مساواة بين طرفين مختلفين كقولنا س = ع.

لقـد جاءت هذه الآيـة معطـوفـة على التي قبلهـا في قوله (وَإِنْ) والتي قبلها وردت بحق اليتـامى في قولـه تعـالى: **﴿وَآتُـوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْـوَالَهُمْ إِلَى أَمْـوَالِكُمْ إِنَّـهُ كَانَ حُوبـاً كَبِيراً﴾** (النساء ٢). وقد عرفنا اليتيم في مبحث الـوصـايـا بأنه فاقد الأب فقط وقاصر أيضاً أي دون سن الرشد، فهذا يعني أن أمـه على قيـد الحيـاة وليست طاعنـة في السن، فجـاءت آية تعدد الزوجات وهي آية حدودية لتغطي الحد الأعلى والحد الأدنى في الكم، والحدين الأعلى والأدنى في الكيف.

آ ـ **حدود الكم**: بما أن هذه الآية تتكلم عن النكاح في قوله **﴿فَانْكِحُوا﴾** وبدأ بالمثنى من النسـاء من حيث الكم، وبمـا أن الـرجل لا يمكن أن ينكح نفسه أوينكح نصف امرأة، فالحد الأدنى هنا هو الواحدة، والحد الأعلى هو الأربعة، والخطوة هي مثنى، ثلاث، ربـاع، حيث في عدد النسـاء أو الـرجال لا يمكن أن يكون هناك عدد كسـري أي أن حدود الله في تعـدد الـزوجـات هي الـواحـدة حداً أدنى والأربعة حداً أعلى، وهنـا عطف مثنى وثـلاث ورباع ليبين أن الحالة عدد صحيح كأن نقول: جاء النـاس مثنى وثـلاث وربـاع فهـذا لا يعني أنهم جاؤوا تسعة تسعة. فإذا تم منع تعدد الـزوجـات فنكون قد وقفنا على حدود الله «الحد الأدنى» في الكم دون أن نتعداها. فمن ناحيـة المبـدأ لا يوجـد أيـة حرمـة في ذلك. وإذا سمحنا بالتعددية حتى الأربع فنكـون قد تحـركنـا ضمن حدود الله من حيث الكم، ووقفنا في بعض الحالات على الحـد الأعلى وهـذا ما حصـل فعلاً خلال أربعة عشر قرناً مضت وهو إطلاق الكم من الواحدة إلى الأربعة دون النظر إلى الكيف إطلاقاً، لذا فقد فسروا قوله **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْـدِلُـوا فَوَاحِـدَةً﴾** هنـا فهمـوا قولـه **﴿تَعْدِلُوا﴾** بين الزوجات لذا فقد رجحوا بأن أساس العدد في الزواج هو الواحدة وقالوا إن تعدد الزوجات هو ظروف اضطرارية.

ب ـ **حدود الكيف**: نقصـد بالكيف هنـا هو: هل الـزوجـة بكـر أم ثيب؟ وإذا

كانت ثيباً فما وضعها أأرملة أم مطلقة؟ إذا أخذنا الكم فقط دون النظر إلى الكيف فلا يمكن إطلاقاً ربط جواب الشرط ﴿فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . . الآية﴾ بالشرط وهو ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ . فإذا أردنا أن نربط جواب الشرط بالشرط فيظهر لنا الكيف التالي :

بما أنه لم يذكر الأولى من ناحية الكيف فهذا يعني أنه أطلق الكيف في الزوجة الأولى حيث يمكن أن تكون بكراً أو أرملة أو مطلقة ، ولكي نربط جواب الشرط ﴿فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء﴾ ، بالشرط وهو الإقساط إلى اليتامى فينتج لدينا بالضرورة أنه يتكلم عن أمهات اليتامى «الأرامل» ، هنا نرى أنه أطلق الكم حتى الأربعة وقيد الكيف بأن تكون الزوجة الثانية حتى الرابعة من الأرامل ذوات الأيتام وأن يتزوجهن الرجل ويأخذهن كزوجات مع أولادهن . في هذه الحالة ضم أولاد الأرامل في الإعالة والتربية إلى أولاد الزوج ، وفي هذه الحالة ينطبق على الزوج قوله تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً﴾ (النساء ٦) . فإذا أخذ الرجل ثلاث أرامل زوجاتٍ وضم أولادهن إلى أولاده فهذا يعني أنه أصبح كثير العيال وأصبح عليه عبء مالي كبير جداً ، في هذه الحالة نفهم قوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي تعدلوا بين الأولاد «أولاده وأولاد زوجاته الأرامل» وهنا ظهر فعل «عدل» بين أولاده وأولاد زوجاته ، أما فعل «قسط» فقد جاء لليتامى فقط أي طرف واحد لأنه بدأ الآية : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فإذا خاف ألا يعدل بين الأولاد فواحدة ، وبما أن الكلام عن التعددية فالخطاب للمتزوج لذا بدأ بالمثنى ، فالواحدة هنا تعني الثانية وليست الأولى ، أي إذا كان الرجل قادراً على التعددية من الناحية المالية فقد شجعه الله سبحانه وتعالى أن يتزوج على الأقل أرملة واحدة زوجة ثانية ويأخذها مع أولادها وقد أكد على هذا المعنى في نهاية الآية بقوله ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ . و«تعولوا» جاءت من الأصل «عول» ومعناها كثرة العيال والجور ، فعندما يصبح الرجل كثير العيال وتكبر عليه المسؤوليات المالية والتربوية فيمكن أن يقع في عجز وبالتالي يقع في الجور.

وهكـذا نفهم الحـديث النبـوي ان صح «أنـا وكـافلُ اليتيم كهاتين في الجنة» وأشـار إلى أصبعيـه. فهـذا الحـديث يمكن أن يكون تعليقاً على هذه الآية وتشجيعاً للرجال بالزواج من أرامل وكفالة أولادهن.

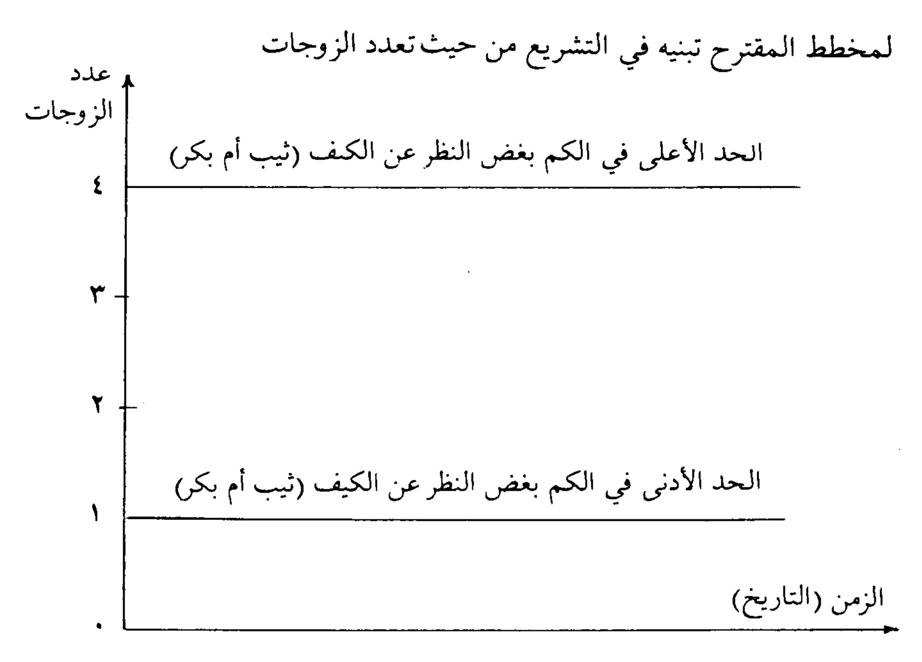
هنا نرى الناحية الإنسانية في تعدد الزوجات وأن الله سبحانه وتعالى أجاز تعدد الـزوجـات ضمن آيـة حدودية حيث يتبين لنا حرص الله سبحانه وتعالى على الأرامل والأيتام. «انظر الشكل رقم ١».

وبمـا أن هذه الآيـة حدوديـة فيمكن للمشـرع أن يبني عدة احتمـالات في التشـريـع حول التعـدديـة وبمـا تمليه الظروف الموضوعية. ففي حالة الحروب مثلاً ونقص عدد الـرجـال يمكن للمشـرع أن يجيـز الزوجة الثانية وما فوق بأن تكون أرملة دون أولاد ولكن لا يجـوز أبـداً أن يتـزوج إنسـان أرملة وعنـدهـا أولاد ويأخـذها دون أولادها فهذا خروج عن حدود الله ويجب أن لا يسمح التشريع الإسلامي بذلك أبداً.

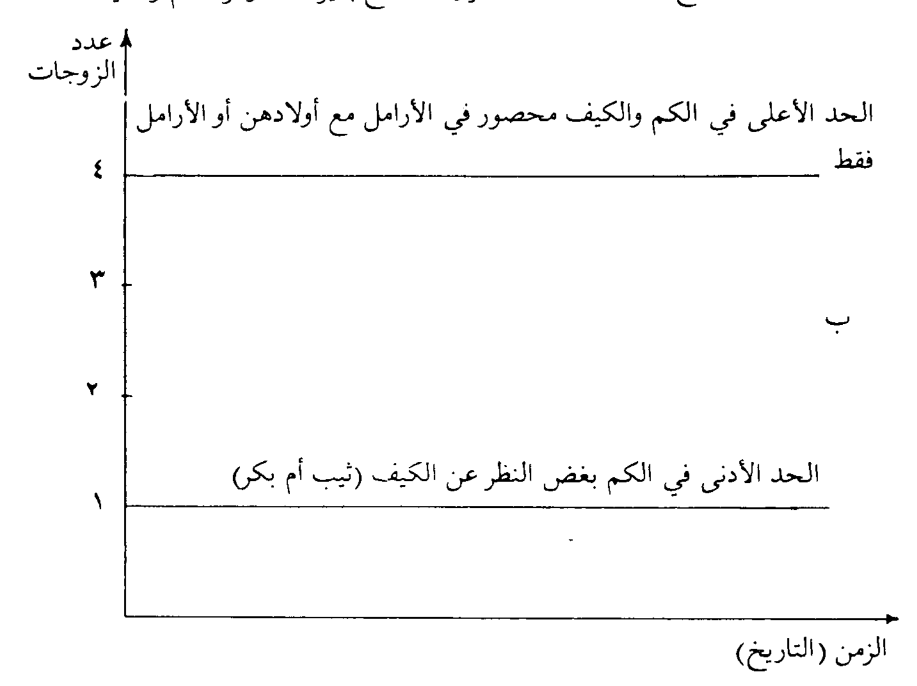
وقد أعطى الله سبحانه وتعالى تسهيلات بالنسبة للراغبين بالزواج من أرامل مع أولادهن وذلـك بأن أعفـاهم من الصـداق في قولـه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَـرْغَبُـونَ أَنْ تَنْكِحُـوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ (النساء ١٢٧). هنا نلاحظ كيف أعفى الرجل من صداق الأرامل بشرط رعاية أولادهن الأيتام. وفي حالة الزواج من أرملة لم يطلب الله سبحانه وتعالى العدالة بين النساء حيث أن الزواج هو في الأصل من أجل الأيتام لذا قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُـوا أَنْ تَعْـدِلُـوا بَيْنَ النِّسَـاء وَلَـوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَـذَرُوهَـا كَالْمُعَلَّقَـةِ وَإِنْ تُصْلِحُـوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء ١٢٩) ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ (النساء ١٣٠).

فالمطلوب هنا أن لا يترك الرجل إحدى زوجاته كزوجة أمام الناس فقط لذا قال ﴿فَـلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْـلِ فَتَـذَرُوهَـا كَالْمُعَلَّقَـةِ﴾ بل يجب أن يمـارس الحياة الزوجية معهـا. وفي حال طلبت إحـدى الـزوجـات الطـلاق فيحق لهـا ذلك تماماً دون غمط حقوقها لذا قال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾.

لمخطط المقترح تبنيه في التشريع من حيث تعدد الزوجات



لقد سار على هذا المخطط الفقه الإسلامي منذ عهد النبي حتى الآن حيث ان الظروف التاريخية كانت تسمح بذلك أما الآن فالظروف تسمح بغير ذلك وهو الكم والكيف معاً.



هنـــا لا بد أن ننبـه إلى زيجـات النبي ﷺ حيث تذكـر هذه الحـالـة من بعض المغرضين ضد الإسلام وهذا التنبيه هو التالي :

لقـد كانت بعثـة محمد ﷺ هي الحد الفاصل بين الأولين «الانسان الحديث» والآخـرين «الإنسـان الحـديث والمعـاصـر» حيث كان محمـد ﷺ النبي والـرسـول الخـــاتم، فالأولـون قبله والآخـرون من بعـده إلى أن تقـوم السـاعـة والآخـرون هم المجتمعـات العصـرية المتحضرة وقد كانت بعثته هي المرحلة الانتقالية بين الأولين والآخرين، ولقد كانت زيجاته من سنن الأولين وليس من سننا نحن وقد أكد هذا في قوله تعالى ﴿مَاكَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ (الأحزاب ٣٨) . هنا نلاحظ قوله ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلُ﴾ ونلاحظ أيضاً كيف ذكره في مقام النبوة في قوله ﴿مَاكَانَ عَلَىٰ النَّبِيِّ﴾ وليس «ما كان على الرسول».

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن هذا يسبب حرجاً على النبي وعلينا لذا فقد نبهنا بأن هذا ليس من منهجنا نحن لذا فإننا نستنتج ما يلي :

آ ـ إن البحث في زيجـات النبي ﷺ هو ضرب من ضروب العبث لأننـا نناقش هذه الزيجات بمقاييسنا المعاصرة، لا بالمقاييس القديمة وهنا يكمن سوء الفهم والالتباس.

ب ـ إن النبي ﷺ في زيجـاتـه لا يعتبـر أسوة لنا أبداً وكذلك زوجاته لا يعتبرن أسوة لنساء المسلمين ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب ٣٢) قال «نساء النبي» ليبين لنا أن هذا تعليمٌ وليس تشريعاً.

٢ ـ الإرث :

لقـد بحثنـا في فصـل الحـدود موضـوع الإرث وبينا أن آيات الإرث عبارة عن آيات حدودية لا حدية ولعدم الالتباس قال الله بعدها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ حيث أعطى الله للأنثى نصف حصـة الـذكـر حداً أدنى، وهذا الحد الأدنى في حالة عدم مشاركة المـرأة في المسؤوليـة المـاليـة للأسرة، وفي حال المشاركة تنخفض الهوة بين الذكر

والأنثى حسب نسبة المشاركة وما تفرضه الظروف التاريخية. علماً بأن هذا البحث يحتاج إلى دراسة رياضية خاصة يمكن أن تصدر بشكل مقال منفصل عن هذا الكتاب.

٣ ـ الصداق «المهر»:

لقد ورد الصداق «المهر» للمرأة في قوله تعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾ (النساء ٤).

لقد فرض الله تعالى صداق المرأة وهو المهر ولكن أعطاه صفة أساسية وهي إتيان الصداق نحلة، ونحلة تعني في اللسان العربي الهدية دون مقابل ودون أي التزام من المرأة تجاه الرجل وهذا ما يسمى بالهدية الرمزية قلّت أو كثرت. وما تقسيم مهر المرأة إلى متقدم ومتأخر إلا إجراء فقهي بحت. وإذا كان يفهم من مهر المرأة أنه عملية بيع وشراء فهذا ليس من الإسلام في شيء وإنما هو من الأعراف المتخلفة في المجتمع.

وهكذا نرى أن حدود الله في الزواج متوفرة عند معظم سكان أهل الأرض وهذه الحدود الدنيا هي:

١ ـ الإيجاب والقبول.

٢ ـ الإشهار (شاهدين).

٣ ـ الصداق «الهدية بدون مقابل».

لذا عندما قال النبي ﷺ للرجل «التمس ولو خاتماً من حديد» يعني أن الصداق هو من حدود الله في الزواج وقيمته حسب أعراف الناس وإمكانياتهم في عصر من العصور. فالذي يستطيع أن يقدم خاتماً من الماس والذهب فعليه أن يفعل ذلك ولا مانع أبداً، ولكن يجب أن يقدم شيئاً ولو كان خاتماً من حديد إذا كانت الإمكانيات غير متوفرة.

أما الإشهار فحدوده الدنيا شاهدان فقط، أما ما زاد عن ذلك فيدخل ضمن الأعراف الخاصة لكل مجتمع ولا يوجد أي تجاوز لحدود الله في ذلك.

٤ ـ لباس المرأة والرجل وسلوكهما الإجتماعي:

جاء لباس المرأة والرجل في آيتين حدوديتين في سورة النور والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور ١).

ـ بالنسبة للرجل:

ـ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (النور ٣٠).

ـ بالنسبة للمرأة:

ـ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور ٣١).

لنشرح هذه الآيات فقرة فقرة:

لقد جاء أمر مشترك للمؤمن والمؤمنة على حد سواء بشيئين أولهما الغض من البصر. هنا نلاحظ قوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ فجاء هنا حرف الجر «من» للتبعيض أي جزء من كل، فأمرنا الله الغض من البصر لا غض البصر، ثم إنه لم يضع المفعول به بالنسبة للرجل والمرأة على حد سواء، أي لم يقل لنا أن نغض من أبصارنا عن ماذا؟ فتركت مفتوحة حسب الأعراف «حسب الزمان والمكان» ومفتوحة للمؤمن والمؤمنة على حد سواء. ثم إنه استعمل فعل «غض» في اللسان العربي للدلالة على لطف الفعل، لا على فظاظة الفعل. فالغضاضة فيها لطف وطراوة فنقول: غصن غضٍّ أي لين غير يابس، وهنا نضرب المثال التالي:

إذا كان رجل يغير ملابسه وهو في وضع لا يحب أن يراه فيه أحد حتى ولو كان رجلاً، ووقف حوله مجموعة من الرجال تنظر إليه فإنها ستسبب له الحرج، وكذلك

المرأة إذا كانت في وضع لا تحب أن يراها فيه أحد حتى من النسوة فإنها ستشعر بالحرج إذا نظر إليها أحد، وهذا هو ما أراده الله منا رجالاً ونساء، أن لا ينظر بعضنا إلى بعض في مواقف لا نحب أن يُنظر إلينا فيها، وهذا ما نسميه اليوم بالسلوك الاجتماعي المهذب، أي أننا يجب أن نأخذ موقف التجاهل في مثل هذه المواضع وهذا هو فعل «غض».

ولكن إذا كان الرجل يتكلم إلى المرأة أو العكس وهم في موقف غير محرج فعليه أن ينظر إليها وتنظر إليه ولا يوجد حرج ومنع في ذلك.

وثاني هذين الأمرين هو حفظ الفرج من الزنى، والحد الأدنى من اللباس للرجل هو تغطية الفرج فقط «حدود الله» وجاءت في قوله تعالى: ﴿**وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ ﴿**وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ هنا نلاحظ كيف يكون السلوك المهذب بحيث لا يحرج الناس بعضهم بعضاً، وغض البصر عن الأمور التي يعتبرها الناس من خصائصهم الشخصية، والامتناع عن الفواحش جاء على حد سواء للرجل والمرأة وهما من الفرائض على المؤمنة والمؤمن. هنا في نهاية الآية ٣٠ قال تعالى ﴿**إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ (النور ٣٠). وكما جاء في مبحث الفعل والعمل والصنع أن الصنع هو نتاج العمل ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ**﴾ (هود ٣٨). أو نتاج تربية ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ (طه ٣٩) فهنا وضع الأسلوب التربوي الذي هو الأسلوب الأساسي في صناعة المؤمن والمؤمنة القائم على السلوك المهذب وحفظ الفرج، وليس الأسلوب القمعي أي أن المؤمن والمؤمنة المهذبين واللذين يغضان من أبصارهم ويحفظان فروجهم هما نتاج تربية وليسا نتاج خوف وقمع.

الآن: ما هي الإضافات التي أضافها الكتاب بالنسبة للمرأة؟ هذه الإضافات تتعلق بالزينة والعورة حيث أن الآية رقم (٣١) من سورة النور هي آية الحد الأدنى للباس المرأة وهي من الفرائض.

لنضع الآن تعريفاً للزينة: فزينة المرأة في الآية رقم ٣١ تقسم إلى قسمين: القسم الأول: الزينة الظاهرة، والقسم الثاني: الزينة المخفية. ولكن ماهي زينة المرأة المقصودة هنا بحيث تنسجم مع الآية نفسها وتنسجم مع بقية الآيات الواردة في الكتاب وخاصة آيات المحارم الواردة في سورة النساء رقم ٢٢ ورقم ٢٣؟

فالزينة لها ثلاثة أنواع:

آ ـ زينة الأشياء: إن زينة الأشياء هي إضافة أشياء لشيء أو لمكان ما لتزيينه، مثال على ذلك الديكورات في الغرف والنجف والدهان والملابس وتسريحة الشعر للرجل والمرأة والحلي والمكياج للنساء. كل هذه أشياء تضاف للتزيين، وقد جاءت الزينة الشيئية في قوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾ (**النحل ٨**) وقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ (الأعراف **٣١**).

ب ـ زينة المواقع أو الزينة المكانية: وهذا واضح في المدن، فالبلديات في المدن تبقي على ساحات خضراء تسمى حدائق. . هذه الأماكن للزينة يقصدها الناس وهي تنتسب إلى الزينة المكانية، أي أن تبقى أماكن على طبيعتها أو نضيف عليها أشياء طبيعية كالشجر والورد وهذا ما جاء في الآية رقم **٣١** في سورة النور أي حتى تنسجم هذه الآية مع آيات المحارم في سورة النساء يجب أن تكون الزينة مكانية لا شيئية.

ج ـ الزينة المكانية والشيئية معاً جاءت في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ (الأعراف **٣٢**) وقوله: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا**﴾ (يونس **٢٤**) أي أن التطور والتقدم العلمي سيملآن الأرض بالزينة المكانية والشيئية. فإذا كانت الزينة مكانية فجسد المرأة كله زينة والزينة هنا حتماً ليست المكياج والحلي وما شابه ذلك، وانما هي جسد المرأة كله، هذا الجسد يقسم إلى قسمين:

ـ **قسم ظاهر بالخلق**: لذا قال: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَاظَهَرَ مِنْهَا**﴾ فهذا يعني أن هناك بالضرورة زينة مخفية في جسد المرأة. فالزينة الظاهرة هي ما ظهر من جسد المرأة بالخلق أي ما أظهره الله سبحانه وتعالى في خلقها كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين، ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الرجل والمرأة عراة دون ملابس.

ـ **قسم غير ظاهر بالخلق**: أي أخفاه الله في بنية المرأة وتصميمها. هذا القسم المخفي هو الجيوب، والجيب جاء من «جيب» كقولنا جبت القميص أي قورت جيبه وجيبته أي جعلت له جيباً، والجيب كما نعلم هو فتحة لها طبقتان لا طبقة واحدة، لأن الأساس في «جيب» هو فعل «جوب» في اللسان العربي له أصل واحد

وهو الخرق في الشيء ومراجعة الكلام «السؤال والجواب» فالجيوب في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق وهي ما بين الثديين وتحت الثديين وتحت الابطين والفرج والاليتين هذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمار جاءت من «خمر»، وهو الغطاء، والخمر سميت خمراً لأنها تغطي العقل وليس الخمار هو خمار الرأس فقط، وإنما هو أي غطاء للرأس وغير الرأس، لذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنات بتغطية الجيوب التي هي الزينة المخفية خلقاً وسمح لهن بإبداء هذه الجيوب بقوله: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (النور ٣١). هذا الإبداء لا يكون إلا لشيء مخفي أصلاً كقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ (البقرة ٢٨٤) والإبداء لا يكون إلا لعاقلٍ كقوله: ﴿فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُمَا﴾ (طه ١٢١). قد يقول البعض: أليس الفم والأنف والعينان والأذنان من الجيوب؟ نقول: نعم ولكنها جيوب ظاهرة لأنها في الوجه، ورأس المرأة أو الرجل هو أظهر جزء منه وهو هوية الإنسان.

هذا الإبداء للجيوب بالنسبة للمرأة يجوز للذكور التالية مواقعهم منها:

١ ـ الزوج ﴿بعولتهن﴾.
٢ ـ الأب ﴿آبائهن﴾.
٣ ـ والد الزوج ﴿آباء بعولتهن﴾.
٤ ـ الابن ﴿أبنائهن﴾.
٥ ـ ابن الزوج ﴿أبناء بعولتهن﴾.
٦ ـ الأخ ﴿إخوانهن﴾.
٧ ـ ابن الأخ ﴿بني إخوانهن﴾.
٨ ـ ابن الأخت ﴿بني أخواتهن﴾.

قد يقول البعض: هذا يعني أن المرأة المؤمنة يحق لها أن تظهر عارية تماماً أمام هؤلاء المذكورين أعلاه والمذكورين في نص الآية. أقول: نعم يجوز إن حصل ذلك عَرَضاً، وإذا أرادوا أن يمنعوها فالمنع من باب العيب والحياء «العرف» وليس من باب الحرام والحلال لأنه شملهم مع الزوج. أي إذا شاهد والد ابنته وهي عارية فلا يقول لها: هذا حرام ولكنه يقول لها هذا عيب. ووضع هؤلاءِ المحارم مع الزوج لأنها غالباً تعيش معهم، فعلى المرأة المؤمنة أن لا تحرج من هؤلاء.

الآن إذا طرحنا الزوج جانباً لأنه ليس من المحارم، نجد آن المذكورين في باب الزينة من المحارم هم سبعة «الأب، والد الزوج، الابن، ابن الزوج، الأخ، ابن الأخ، ابن الأخت». فإذا قارنا هؤلاء مع المحارم وجدنا أنهم نصف المحارم الواردين في سورة النساء تماماً. أما المحارم على المرأة التي حرم عليها أن تتزوجهم ولكن يجوز لها أن تختلي معهم ولا يجوز لها إبداء زينتها المخفية «الجيوب» أمامهم وهم: العم، الخال، الابن من الرضاعة، الأخ من الرضاعة، زوج الأم، زوج البنت، زوج الأخت، فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن والذي يجبرنا أن نعيد النظر بمفهوم الزينة على أنها المكياج أو الحلي والتي يجب أن لا تظهرها المرأة ويجب أن تضرب عليها الخمار ومنها شعر الرأس.

فإذا كان الأمر كذلك، فعلى المرأة المؤمنة أن تظهر أمام صهرها «زوج ابنتها» كما تظهر أمام الغريب تماماً لأنه محرم عليها حرمة أبدية، وغير مذكور في آية الزينة، أي لا يجوز له الإطلاع على زينتها المخفية وكذلك العم والخال. فهل يمكن هنا أن تكون الزينة أمراً غير الجيوب التي شرحتها؟ وهكذا أخطأ الفقهاء حين اعتبروا أن الزينة المذكورة في الآية هي زينة الأشياء، وإنما هي زينة المواقع. وسبب هذا الخطأ هو قياس الشاهد على الغائب الذي سأشرحه فيما بعد، والخطأ في فهم نظرية الحدود.

اننا نقول هذا لأنه آن الأوان لكي نتسلح بالفكر النقدي ونعيد النظر بأقوال الفقهاء كلهم حول المرأة.

ثم أضاف إلى هؤلاء ليكون حكمهم كحكم الأب والزوج من ناحية إظهار الزينة عبارة:

﴿أو نسائهن﴾: ماذا تعني هنا كلمة «نسائهن»؟ لقد قال بعضهم إنها تعني النساء المؤمنات أي أن المرأة لا يحق لها أن تبدي زينتها المخفية إلا أمام النساء المؤمنات. وهذا غير صحيح لأنه لو عنى ذلك لقال «أو المؤمنات من النساء» ولكنه قال «أو نسائهن» ونون النسوة هنا للتابعية لا للجنس، فإذا كانت للجنس فهذا يعني أن هناك نساء النساء «وهذا غير معقول إذا كانت نسائهن تعني الإناث». ولكن إذا قصد «بنسائهن» زوجات الرجال المذكورين قبلها وهم أخوها وابن أخيها.. الخ، فلزم أن يضع ميم الجماعة عوضاً عن نون النسوة فيقول «أو نسائهم» ولكن هنا نون

النسوة وليست ميم الجماعة. ولا يصح أن نقول إنه وضع نون النسوة عوضاً عن ميم الجماعة للتغليب فيصبح وضع نون النسوة لضرورة صوتية، ولا يوجد في الكتاب كله شيء اسمه ضرورة اللحن أو النغم، وهناك شيء واحد فقط هو ضرورة المعنى. فنسائهن هنا يجب أن تكون من الذكور وليس من الإناث ونون النسوة للتابعية فقط كأن نقول «كتبهن، بيوتهن» وهذا لا يمكن إلا إذا فهمنا النساء على أنها جمع نسيء لا جمع امرأة أي المستجد «المتأخر» فالمستجد هنا وغير المذكور في الآية هو ما يلي:

لم يذكر في آية الزينة ابن الابن والأحفاد ولم يذكر ابن ابن الأخ وابن ابن الأخت وابن ابن الزوج.. وهكذا دواليك، فابن الابن يأتي متأخراً عن الابن «أو نسائهن» أي ما تأخر عن هؤلاء المذكورين من الذكور وهم أبناؤ هم وأبناء أبنائهم، وبنفس الوقت هؤلاء المتأخرين لهم علاقة القرابة مع المرأة، لذا وضع نون النسوة للتابعية قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ وقد ذكر نفس الحالة مع نساء النبي ﷺ في سورة الأحزاب عندما سمح لهن بالظهور ليس أمام كل المحارم بل أمام هؤلاء واستثنى منهم الزوج، لأن النبي ﷺ هو زوجهن واستثنى ابن الزوج لأن النبي ليس له أبناء، واستثنى والد الزوج لأن النبي ﷺ ولد يتيماً فقال: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ (الأحزاب ٥٥) هنا لاحظ كيف وضع «ولا نسائهن» لكي يبين الأبناء وأبناء الأبناء «الأحفاد».. وهكذا دواليك. قال هذا لنساء النبي ﷺ مع أن كل المؤمنين هم من المحارم بالنسبة لنساء النبي ﷺ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب ٦) ﴿وَمَاكَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (الأحزاب ٥٣). إن الوضع الخاص بالنسبة لنساء النبي ﷺ هو مخاطبتهن المؤمنين من وراء حجاب، مع أن المؤمنين كلهم من المحارم بالنسبة إليهن وهذا غير مطلوب من النساء المؤمنات لقوله تعالى: ﴿يَانِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاء﴾ (الأحزاب ٣٢). فغير مطلوب من المرأة المؤمنة تقليد نساء النبي في علاقاتها الاجتماعية مع الغير، وإذا أرادت أن تقلد نساء النبي فعليها أن تخاطب كل الناس بما فيهم المحارم من وراء حجاب عدا السبعة محارم ونسائهن المذكورين في آية الزينة. وفي هذه الحالة تُحَمِّل المرأة المؤمنة نفسها لزوم ما لا يلزم لأن الوضع

الخاص بالنسبة لهن هو مخاطبة الناس من وراء حجاب ولا علاقة للزينة المخفية أو الظاهرة بنساء النبي. أما بالنسبة للمؤمنات فالوضع المشترك مع نساء النبي هو الزينة المخفية واللباس حسب الأعراف وليس المخاطبة من وراء حجاب.

لنورد الآن جدول المحارم وجدول من يحق للمرأة أن تبدي لهم زينتها المخفية من المحارم.

جدول المحارم	جدول بمن يحق للمرأة أن تبدي لهم زينتها المخفية عن قصد أو غير قصد
١ ـ الابن	١ ـ الابن
٢ ـ الأب	٢ ـ الأب
٣ ـ الأخ	٣ ـ الأخ
٤ ـ العم	
٥ ـ الخال	
٦ ـ ابن الأخ	٤ ـ ابن الأخ
٧ ـ ابن الأخت	٥ ـ ابن الأخت
٨ ـ الابن من الرضاعة	
٩ ـ الأخ من الرضاعة	
١٠ ـ أبو الزوج	٦ ـ أبو الزوج
١١ ـ زوج الأم	
١٢ ـ زوج البنت	
١٣ ـ زوج الأخت	
١٤ ـ ابن الزوج	٧ ـ ابن الزوج
هنا لا يوجد أو نسائهن	٨ ـ يضاف إلى هؤلاء الزوج الذي لا يعتبر من المحارم.
	٩ ـ يضاف إلى هؤلاء السبعة أولادهم وأحفادهم والذين دمجوا جميعاً بكلمة «أو نسائهن» وهذا ما يقال عنه الفروع مهما نزلوا.

يجب أن يفهم من كلامي انني لا أدعو المرأة أن تجلس عارية أمام الثمانية المذكورين أعلاه ولكن إذا حصل ذلك عَرَضاً فلا يوجد حرام، ولكن تلبس أمامهم من باب العيب والحرج، لا من باب الحرام.

ثم يتابع ذكر المسموح للمرأة بإبداء زينتها لهم وهم:

- ﴿أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ﴾ (النور ٣١): إن هذه الفقرة جاءت لتغطي مرحلة تاريخية وهي مرحلة «العبيد» سابقاً، وأمرها لا يعنينا في هذه الحقبة.

- ﴿أَو التَّـابِعِينَ غَيْـرِ أُولِي الإِرْبَـةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ (النور ٣١): هؤلاء الرجال يتبعون المذكورين أعلاه في الحكم وهم الرجال غير ذوي المأرب، وليس المعتوهين أو المجانين، فالشهوة الجنسية لا تخبو عند المجانين. فمثلاً الطبيب عندما يريد أن يولد المرأة فإنه يرى فرجها، ولكن ليس له أي مأرب فيها، فعليها والحالة هذه أن تعتبره كوالدها أو كولدها وإذا أراد الطبيب أن يكشف على المرأة في منطقة الجيوب «تحت الإبطين أو بقية الجيوب» فيعتبر في حكم أبيها. على النساء المؤمنات أن يفهمن ذلك، ويعلمن أن المرأة يحق لها الذهاب إلى الطبيب الذي تراه مناسباً، والذي ترتاح إليه ذكراً كان أم أنثى دون حرام أو حرج لأنه يدخل في بند ﴿غَيرِ أُولِي الإِرْبةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾. وهناك أيضاً مهن أخرى وحالات تنطبق عليها ﴿غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾. فعلى المجتهدين البحث عنهم وتبيانهم للمرأة «مثلاً الطبيب وكل من يعمل في اختصاص الطب من مصوري الأشعة والمخدرين والممرضين ونحوهم الخ».

- ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّـذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَـاءِ﴾ (النور ٣١) هنا لا بد من تعريف العورة، فالعورة بالمعنى العربي هي «ما يستحي المرء من إظهاره» هذا ما أجمع عليه أئمة اللسان العربي في معنى العورة «انظر كتاب فقه اللغة وسر العربية للثعالبي»، وفي هذا يستعملها النبي ﷺ في أحاديث إن صحت، فالعورة ليس لها علاقة بالحلال والحرام لا من قريب ولا من بعيد أي أنه إذا كان هناك رجل أصلع دون شعر ولم يرغب بأن يرى الناس رأسه وهو أصلع فيضع الشعر المستعار على رأسه لأنه اعتبر الصلع في رأسه عورة. وفي هذا قال النبي ﷺ في حديثه إن صح «من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته» «جامع الأصول ج ٦ ص ٦٥٣ - ٦٥٤» هنا يبين إذا كان هناك شيء في المرء لا يريد من الآخرين أن يعرفوه وعرفه أحدكم فلا يفضحه وستر

عورة المؤمن هنا لا تعني أن يضع عليه ملابس ليستره. وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَاهِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ (الأحزاب ١٣) هنا المعنى واضح في العورة أن بيوتهم أصبحت مكشوفة بالنسبة للمهاجمين وهم لا يريدونها أن تكون كذلك، والواقع أنها ليست كذلك. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الأَيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور ٥٨). هنا يبين أن هناك ثلاثة أوقات يجب أن يستأذن من المرء حين الدخول عليه وقت النوم وهي وقت القيلولة عند الظهر ومن بعد العشاء وقبل الفجر، وهي الحد الأدنى للأوقات التي لا يرغب المرء أن يدخل عليه أحد لذا سماها ثلاث عورات، والحد الأعلى هو الاستئذان عند دخول الغرف دائماً.

فالعورة جاءت من الحياء وهو عدم رغبة الإنسان في إظهار شيء ما في جسده أو سلوكه، وهذا الحياء نسبي وغير مطلق ويتبع الأعراف. فالعورة متغيرة حسب الزمان والمكان فيصبح معنى الفقرة ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ هم الأطفال الذين لا يعرفون لماذا استحت المرأة من وضعية معينة في الجلوس أو في اللباس وهذا معروف عند الأطفال بأن الطفل حتى سن معينة لا يفهم معنى الحياء والعيب، فالأطفال حتى السن الذي يعرفون فيه مصطلح الحياء والعيب في مجتمعهم تنطبق عليهم الفقرة ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لذا فإن تحديد عورة الرجل من السرة إلى الركبة، هو تحديد نسبي وغير مطلق يتبع أعراف المجتمع الذي تم فيه هذا التحديد لأنه ينبع من مفهوم الحياء والعيب، لا من مفهوم الحلال والحرام، وإذا قال أحدهم هذا المفهوم الشرعي للعورة فهذا كلام مردود لأن الشرع هو حدود الله فقط وما عدا ذلك فهو حدود الناس.

- ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ (النور ٣١): إن الذي يفسر هذه الفقرة على أساس الخلخال في القدم، أي على المرأة أن لا تضع خلخالاً في القدم وتضرب على الأرض لكي لا يسمع صوت الخلخال أو أن تلبس حذاء ليس

له صوت أثناء السير فهو غير مصيب في تفسيره.

لنفهم أولاً معنى فعل «ضرب» في اللسان العربي: فضرب في اللسان العربي لها أصل واحد ثم يستعار ويحمل عليه. وأول معنى محمول عليه هو الضرب في الأرض بغرض العمل والتجارة والسفر كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا... الآية﴾ (النساء ٩٤) هنا إذا خرجتم في سبيل الله وكقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ (النساء ١٠١) هنا جاءت بمعنى السفر وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ (المائدة ١٠٦).

والمعنى الثاني المحمول للضرب هو الصيغة والصياغة كقوله تعالى ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (ابراهيم ٤٥) وقوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الفرقان ٣٩) وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم ٥٨) ويقال للطبيعة والسجية الضريبة كأن الإنسان قد ضرب عليها ضرباً، ويقال للصنف من الشيء الضرب كأنه ضرب على مثال ما سواه ومن هنا جاء ضرب المثل. والضريبة هي ما يضرب على الإنسان من مال بمقابل الربح والكسب أو خدمة تؤديها له الدولة، وضرب فلان على يد فلان إذا حجر عليه ومنها جاء الإضراب عن العمل وهو حجر النفس وكفها عن العمل والإضراب عن الطعام وهو حجر النفس عن الأكل.

ومن هنا نفهم ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ والسبب في ذلك النهي هو لكي لا يعلم ما يخفين من زينتهن وهنا الكلام عن الزينة المخفية وهي الجيوب لأنها لا يمكن أن تعلم إلا إذا أرادت المرأة ذلك، فهذا يعني أن الله منع المرأة المؤمنة من العمل والسعي «الضرب» بشكل يظهر جيوبها أو بعضها، كأن تعمل عارضة «ستربتيز (Striptease) أو تقوم برقصات تظهر فيها الجيوب أو بعضها، ولكنه لم يحرم الرقص بشكل مطلق بل حرم عليها إظهار الجيوب أو بعضها بشكل إرادي وهذا لا يحصل إلا من أجل كسب المال أو على شواطىء البحر، من هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى حرم في حدوده مهنتين فقط على المرأة وهما: آ - التعرية «ستربتيز» ب - البغاء. أما بقية المهن فيمكن للمرأة أن تمارسها دون حرج أو خوف وذلك حسب الظروف الاجتماعية التاريخية والجغرافية.

وفي نهاية الآية قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(النـور ٣١) هنـا طلب من المؤمنين والمؤمنـات التـوبـة لأنه في سياق الحياة يمكن للمؤمن والمؤمنة أن يشذا عن ذلك فوضع لذلك التوبة فقط دون ترتيب عقوبات.

ويبقى لقائلٍ أن يقول: إن ما تقوله عن لباس المرأة الذي جاء في سورة النور «الفرائض» هو تغطية الجيوب المخفية فقط. أقول: نعم وهو الحد الأدنى من اللباس لذا سماه فريضة وهو فرق بين الحلال والحرام دون عقوبات ومع التوبة فقط. ولكن هل للمؤمنـة أن تخـرج بهـذا اللباس الذي هو الحد الأدنى؟ أقول: لقد جاء اللباس المتمم لهذا اللباس في سورة الأحزاب، وجاء الخطاب في مقام النبوة الذي هو ليس حراماً وحلالاً وإنما تعليمات لدفع الأذى وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَـاتِـكَ وَنِسَـاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب ٥٩) هنا بدأت الآية بقوله: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ﴾ فهي آيـة تعليم وليست تشـريـع وهـذه الآية تعلم المؤمنات اللباس الخارجي وهو ما سماه بالجلبـاب، فالجلبـاب جاءت من الأصل «جلب» وهذا الفعل في اللسان العربي له أصلان أحدهما الاتيان بالشيء من موضع إلى موضع، والآخر الشيء يغشي ويغطي شيئـاً آخـر، فالجلبـة هي القشـرة التي تغطي الجـرح عندما يبرأ ويندمل وقبل أن يبدأ الجـرح بالانـدمـال نضـع له رباطاً من القماش المعقم لنحميه من الأذى الخارجي. ومن هنـا جاء الجلبـاب للحماية وهو اللباس الخارجي. فاللباس الخارجي يمكن أن يكـون بنطـالاً وقميصـاً أو تايـوراً أو روباً أو مانطو، كل هذه الملابس تدخل تحت بند الـجـلابـيب لذا قال: ﴿يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ (الأحـزاب ٥٩) للتبعيض باستعمال حرف الجر «من» وللتقريب باستعمال «يُدْنِينَ» من فعل «دنو، يدنو» وبما أن هذه الآيـة للتعليم لا للتشـريـع وضـع السبب وهـو المعرفة التي تسبب الأذى، فعلى المرأة المؤمنة تعليماً لا تشريعاً أن تغطي من جسدها الأجزاء التي إذا ظهرت تسبب لها الأذى. والأذى نوعان: طبيعي واجتماعي. والأذى الطبيعي مربوط بالبيئة الطبيعية من درجـات الحـرارة والـرطـوبـة فالمؤمنـة تلبس حسب الشروط الجوية الخارجية بحيث لا تعـرض نفسهـا للأذى الطبيعي. قد يقـول البعض ولكن هذا أمر مفروغ منه لذا لـم يذكره في هذه الآية وإنما ربط الأذى بالمعرفة ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ لاحظ «فـاء السببيـة» والتعقيب بين المعـرفة والأذى، وهو ما نسميه بالأذى الاجتماعي، أي على المؤمنـة أن تلبس لبـاسـاً خارجياً وتخرج إلى المجتمع حسب الأعراف السائدة

في مجتمعها بحيث لا تكون عرضة لسخرية وأذى الناس، وإذا لم تفعل ذلك ستعرض نفسها للأذى، وهذا الأذى الذي ستتعرض له هو عين عقوبتها لا أكثر من ذلك أي دون أن يكون هناك أية تبعة عند الله من ثواب أو عقاب.

ولكي لا يزاود الناس في اللباس وضع النبي ﷺ الحد الأعلى للباس المرأة بقوله «كل المرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها» أي بهذا الحديث سمح النبي ﷺ للمرأة أن تغطي جسدها كله كحد أعلى ولكنه لم يسمح لها بأي حال من الأحوال بأن تغطي وجهها وكفيها، حيث أن وجه الإنسان هو هويته. فإذا خرجت المرأة عارية فقد خرجت عن حدود الله واذا خرجت دون أن يظهر منها شيء حتى وجهها وكفيها فقد خرجت عن حدود رسول الله وطاعة الله ورسوله في الحدود واجبة.

وهكذا نرى أن لباس معظم نساء أهل الأرض يقع بين حدود الله ورسوله وهذه هي فطرة الناس في اللباس، وفي بعض الحالات القليلة يقف اللباس عند الحدود، وفي حالات أقل يتجاوز اللباس الحدود.

حكم لباس النساء اللواتي لا يرجون نكاحاً:

لقد وضع الله حكماً خاصاً وحرية كبيرة في اللباس للنساء اللواتي لا يرجون نكاحاً من المقعدات بغض النظر عن السن حيث قال:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور ٦٠).

فالقواعد جاءت من «قعد» وهو أصل واحد يقاس عليه ويدل على ثبات في شيء وهي لا تعني الجلوس، والقعود ضده القيام. والقعود جاءت من قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة ٢٤) والقعود جاءت بمعنى الثبات وعدم الحركة والامتناع عن الذهاب إلى القتال. والقيام جاءت بمعنى الاستمرار كأن تقول «وجدت فلانا قائماً على رأس عمله» أي أنه يمارس عمله.

فهنا جاءت القواعد من النساء وهن النساء اللواتي أقعدن بسبب مرض ما كالشلل مثلاً بغض النظر عن السن بحيث جعلهن لا يرجون النكاح لذا قال: ﴿اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ ولا تعني أبداً اللواتي لا يرغبن بالزواج وهنا القواعد ليس

كمـا قال الفقهـاء قعـدن عن الحيض وهـذه الحالة جاءت في قوله تعالى ﴿يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ وليس قعدن عن المحيض وهو ما نسميه بسن اليأس للمرأة وليس بسن القعود.

﴿لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَـاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيـابَهُنَّ﴾ (النـور ٦٠). فالجنـاح جاءت من «جنـح» وتعني الانحـراف كأن نقـول جنحت السفينة أو الطائرة عن مسارها. ومن هنا جاء مفهـوم الجنحـة وهي مفهـوم أقـل من الجريمة بكثير حيث جاءت الجريمة بقوله تعـالى: ﴿وَيـاقَـوْمِ لا يَجْـرِمَنَّكُمْ شِقَـاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْـلُ مَا أَصَـابَ قَوْمَ نُوحٍ.. الآية﴾ (هود ٨٩).

أما فعل «وضع» في اللسان العربي فله أصل واحد يدل على الخروج للشيء وحطه وإخراجه كقوله: ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق ٤) وقـولـه: ﴿فَلَمَّـا وَضَعَتْها قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى﴾ (آل عمران ٣٦) فعندما تضع المرأة حملها تخرجه منها كلية وتحطه عنها. فهنا قال ﴿يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ﴾ فالثياب هنا اسم جنس وهي كل ما يرده الإنسـان على جسمـه من لباس داخلي وخارجي وجاءت من الأصل «ثوب» ومنها جاءت الثياب، والمثابة، والثواب هو كل ما يرد للإنسان من عمل صالح إيجابي. فيصبح ﴿يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ﴾ هو خلع جميع الملابس، وقد اشترط بذلك عدم القصد بإظهار الزينة المخفية للآخرين «أي الجيوب فقط» بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ و«برج» تعني في اللسان العربي البروز والظهور والملجأ والبرج هو بارز ظاهر وبنفس الوقت هو ملجأ للحماية. لذا قال: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ﴾ فوضع هذا الشـرط أن لا يكـون القصـد من وضع الثياب هو اللجوء إلى إبراز زينتها المخفية «فـرجهـا وباقي الجيوب» وهذا واضح في الحياة، فكثير من النساء المقعدات بسبب المـرض أو الشيخـوخـة يحتجنَ إلى حمـام شمسي وإلى تغسيـل ومسـاجات بحيث يحتجن إلى خلع كل ملابسهن أمـام الآخـرين الذين يعتنون بهن لأنهن يحتجن إلى مسـاعـدتهم ولكنـه من باب الترجيح فقط وليس من باب الحلال والحرام قال: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ أي أنها إذا استطاعت أن لا تظهر زينتها المخفية «عارية تماماً» فهو خير لها.

لنشرح الآن أين يكمن خطأ التفسير الموروث حول لباس المرأة:

إذا أخـذنـا المـرأة العـربية في شبه جزيرة العرب قبل نزول الآية ٣١ في سورة

النور والآية ٥٩ في سورة الأحزاب فنرى ما يلي :

١ ـ لم تكن المرأة العربية حين نزول هاتين الآيتين عارية بدون ملابس .

٢ ـ الرجال والنساء العرب كانوا يلبسون الزي القومي حسب الأعراف السائدة في مجتمعهم وحسب المستوى الإنتاجي للألبسة . فكان النبي ﷺ يلبس من لباس قومه حتى إن كثيراً من العرب كانوا لا يستطيعون تمييزه من غيره في اللباس . فكان كثير منهم يأتون إلى المدينة ويدخلون المسجد ويسألون الجالسين فيه : أيكم محمد؟ وكذلك كان لباس المرأة العربية هو لباس حسب أعراف العرب ومناخ شبه جزيرة العرب فكانت تلبس ثوباً طويلاً وتضع خماراً على رأسها ليقيها الحر . كلباس نساء البادية الآن . فعندما نزلت الآية ٣١ من سورة النور نظرت المرأة العربية المسلمة إلى لباسها الذي ترتديه فعلاً ولم تغير منه شيئاً وإنما وجدت إمكانية إظهار جيوب الشديين من فتحة الصدر في ثوبها الخارجي فضربت على صدرها بخمار رأسها ، لأن بقية الجيوب أصلاً كانت مغطاة في زيها القومي . لذا فهم خطأ بأن الجيوب هي الصدر فقط لذا فان ما نسميه اليوم باللباس الشرعي هو لباس المرأة العربية المسلمة في القرن السابع الميلادي . إن لباس المرأة المسلمة فقط الذي جاء في سورة النور وجاء لكل مؤمنات أهل الأرض ولكل زمان . فعلى المرأة العربية المؤمنة أن تصحح هذا المفهوم الخاطىء والذي نتج عن قياس الشاهد لباس مسلمات أهل الأرض جميعاً في كل زمان ومكان على الغائب وهو اللباس القومي للمرأة العربية في القرن السابع . ولا يصح هذا القياس إلا إذا افترضنا أن المرأة العربية قبل نزول آيتي النور والأحزاب كانت عارية تماماً بدون أي لباس ثم لبست مالبست من جراء هاتين الآيتين وهذا موضوعياً غير صحيح . أي علينا أن لا نخلط بين فرائض اللباس في الإسلام وبين الزي القومي ، لأن هذا الخلط حصل فعلاً فيما يسمى «اللباس الشرعي» وقد جاء هذا الخلط من قياس الشاهد على الغائب .

٣ ـ حتى نفهم آيتي النور والأحزاب فهما صحيحاً علينا أن نفترض وجود امرأة عارية تماماً تريد أن تدخل الإسلام . فماذا عليها أن تلبس؟ .

٤ ـ علينا أن نفهم أن امرأة مؤمنة في أيِّ بلد في العالم عليها أن تلبس حسب أعراف بلدها متقيدة بالآيتين ٣١ من سورة النور كفرض والآية ٥٩ من سورة الأحزاب كتعليم لا تشريع .

٥ ـ أما فيما يتعلق ببعض الأراء الفقهية التي ترى أن صوت المرأة عورة فهذا محض وهم لأن المرأة كانت تحضر صلاة الجمعة في المدينة وكانت تقف مع النبي ﷺ في طرقات المدينة وتسأله ويجيب على أسئلتها. ثم إن العورة هي من الحياء لا من الحرام. أي أنه إذا كان مجتمع من المجتمعات يحبذ صوت المرأة ولا يعتبره عيباً حتى في الغناء فلا يوجد أي إثم في ذلك.

قد يقول البعض: وهل الفقهاء كانوا لا يعرفون اللغة العربية ونحن نعرفها الأن؟ إن الخطأ ليس خطأ لغوياً، وإنما في المنهج، فعندما يقرأ علماء العربية كلهم الآية ٣١ من سورة النور والآية ٥٩ من سورة الأحزاب ويقرؤون الحديث النبوي «كل المرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها» ظانين بأن هذا الحديث هو شارح للآية وليس الحد الأعلى للباس المرأة، أي أعطى الطرف المقابل. ففي هذه الحالة لاتفيدهم كل معرفتهم للغة العربية وفقهها ونحوها وصرفها بشيء وسيضطرون إلى قبول المغالطات والدوران «انظر الشكل رقم ٢».

فإذا أردنا أن نرسم مخططاً للباس المرأة والمهن التي يمنع ممارستها وما هو المسموح والممنوع حسب حدود الله ورسوله فينتج لدينا المخطط التالي:

(تغطية الوجه)

اللباس

خروج عن حد رسول الله

الحد الأعلى (حد رسول الله)

تغطية كل الجسم ما عدا الوجه والكفين

فطرة الناس في اللباس هي الحركة بين الحدين حسب الأعراف وهنا تظهر الحنيفية مع الالتزام بحدود الله ورسوله
(وهذا ما ورد في الآية ٥٩ من سورة الأحزاب)

الحد الأدنى (حد الله) تغطية الجيوب فقط (فتحة الصدر + تحت الأبطين + الفرج + الإليتين)

خروج عن حد الله — الظهور عارية بدون ملابس
ما عدا اللذين ذكروا في الآية ٣١ في سورة النور

الزمان والمكان (الظروف الموضوعية)

المهن

بقية المهن كلها مسموحة حسب الأعراف وحسب الحدود التي يضعها المجتمع بنفسه ويحق للمجتمع ان يمنع المرأة من ممارسة الكثير من المهن من باب حدود الناس لا من باب الحلال والحرام.

(حدود الله) البغاء + التعرية (محرم ممارستهما على المرأة)

في المهن

الزمان والمكان

(الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله)

٥ ـ لننتقل الآن إلى الموضوع التالي بالنسبة للمرأة وهو العلاقة العائلية بين الرجل والمرأة:

إن العلاقة العائلية بين الرجل والمرأة تقسم إلى بابين رئيسيين هما:

آ ـ العلاقة العاطفية: علاقة الود والحب والوفاء بين الرجل والمرأة فالرجل لباس المرأة، والمرأة لباس الرجل. واللباس جاءت من «لبس» وتعني في اللسان العربي الاختلاط والتداخل. وهذا في قوله تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾** (البقرة ١٨٧) فعلاقة الحب والود والرحمة علاقة متكافئة بين الرجل والمرأة، كلاهما مليء بالأحاسيس والمشاعر لا تمييز لأحدهما على الآخر. ويجب أن نفهم أن المرأة ليست متاعاً للرجل والرجل ليس متاعاً للمرأة.

ب ـ العلاقة الاقتصادية الموضوعية والعلاقة الاجتماعية الناتجة عنها والمرتبطة بها:

جاءت هذه العلاقة في الآية **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا**

حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ . (النساء ٣٤) .

بدأت الآية ٣٤ بصيغة الخبر: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ هنا وضع علاقة موضوعية بأن الرجال لهم القوامة على المرأة، وذكر القوامية بين الرجال والنساء ولم يذكر القوامية بين المؤمنين والمؤمنات أي لم يقل «المؤمنون قوامون على المؤمنات» لذا فإن هذا الخبر يجب أن يكون صادقاً في كل أنحاء الأرض ولذلك ذكر علة القوامية، وبما أنه ذكر علة القوامية فبذهاب العلة يذهب المعلول وبتبديل العلة يتبدل المعلول والعناصر التي تشكل علة القوامية هي:

- القوة الفيزيائية ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .
- القوة المالية الاقتصادية ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ .

وبما أنه قال ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فهي تعني أنها قابلة لتكون عكسية بانعكاس العلة أي قابلة للعمل موضوعياً باتجاهين:

فلنر كيف تعمل في الاتجاه المعاكس: إذا كان الرجل مريضاً كأن يكون أعمى أو مشلولاً وزوجه تخدمه، في هذه الحالة موضوعياً لها القوامية «الأمر والنهي». وإذا كان الرجل فقيراً وزوجه تنفق عليه فتصبح لها القوامية موضوعياً، وهذه العلاقة هي العلاقة الموضوعية حتى بين الدول. فالقوي من الدول له الأفضلية على الضعيف. والقوي والغني من الدول له الأفضلية على الضعيف والفقير. وأعلى أنواع القوامية هي بين القوي الغني والضعيف الفقير ويمكن إسقاط هذا المفهوم على أعلى العلاقات الإنسانية وهو العلاقات الدولية وهذا واضح جداً في مفهوم حق الفيتو للدول الكبرى في مجلس الأمن الذي هو أعلى مؤسسة دولية. إذ أن أية دولة من هذه الدول لها حق إيقاف أي قرار يصدره مجلس الأمن «القوامية».

وعندما تصبح المرأة عاملة أو لها دخل ما وتنفق على العائلة كالرجل تصبح متكافئة معه في القوامية من الناحية المالية وفي الأمور التي تحتاج إلى قوة فيزيائية «قوة في الخلق» فتبقى القوامية للرجل في هذه الأمور دون الأمور المالية. هذا إذا كان أقوى منها فيزيائياً فعلاً.

هنا وضع العلاقة الموضوعية المادية الاجتماعية باتجاهين متعاكسين وذلك لتبيان التكافؤ والعلاقة المتبادلة بينهما.

فوضع القوامية للرجل على المرأة مع ذكر العلل ووضع كيف يجب أن تكون العلاقة الاجتماعية والأخلاقية بين الرجل والمرأة إذا كان الوضع معاكساً، أي كانت المرأة في وضع أقوى من الرجل، حيث بدأ الآية ببيان مطلق وسم ذكر الرجال والنساء بغض النظر مؤمنين أو كافرين، ولكن عندما عكس الوضع، وضع قوامية المرأة ذكر المرأة الصالحة فقط ولم يقل النساء فالمرأة الصالحة عندما تكون لها القوامية لها الصفات الأخلاقية التالية:

ـ قانتات: والقنوت هو الهدوء والاستقامة مع الاستمرار على ذلك لذا قال: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ (البقرة ٢٣٨) وقوله عن مريم: ﴿وكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم ١٢).

ـ حافظات للغيب بما حفظ الله: أي أن المرأة الصالحة تحفظ خصوصيات زوجها وعائلتها التي أمر الله بحفظها. ولا تجعل هذه الخصوصيات عرضة للثرثرة، وكذلك الرجل المؤمن يحفظ خصوصيات روجه وعائلته. فإذا لم تتحقق هذه العلاقة بين الرجل والمرأة على حد سواء يمكن أن يحصل وضع هو النشوز من المرأة أو الرجل على حد سواء.

فالنشوز جاء من «نشز» والذي يعني في اللسان العربي البروز والاستعلاء والتكبر من الناحية الاجتماعية أو الشذوذ من الناحية الجنسية. فعندما ينشز أحد الزوجين اجتماعياً على الأخر، تكون البداية بالموعظة ثم بالهجر في المضاجع فقط من الزوج الآخر، وهذان الإجراءان خاصان جداً أي دون العلن ثم يأتي الحل الثالث وهو «واضربوهن». هنا نرجو ألا يفهم «الضرب» بمعناه المباشر كما فهموه معنى مباشراً في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ (النور ٣١) ففعل «ضرب» معناه الضرب ويحمل عليه كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلاً﴾ (النحل ١١٢، التحريم ١١) وقد شرحت هذا الفعل في شرح ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾.

فعندما نقول «ضرب» نحمل عليه مباشرة فنقول الضرب على الوجه هو من فعل «صك» كقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات ٢٩) وعندما يكون الضرب على الخد فنستعمل فعل «لطم» وعندما يكون الضرب على القفا فنقول «صفع» وعندما يكون الضرب بالرجل نقول

«ركل» «رفس» وعندما قتل موسى الرجل قال ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ (القصص ١٥) ولم يقل «فضربه» وعندما سأل الله موسى عن العصا قال ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ (طه ١٧ - ١٨) ونستعمله من الناحية الاقتصادية، فنقول ضرب الأسعار ومنه جاءت المضاربة ونقول ضربت الدولة المتلاعبين بالأسعار، أي اتخذت منهم موقفاً حازماً وحجرتهم عن المضاربة وهنا نفهم معنى «واضربوهن» أي عندما لا تفيد الموعظة والهجر في المضاجع فيأتي الحل العلني وهو اتخاذ موقف حازم علني من الرجل تجاه المرأة أو من المرأة تجاه الرجل بحيث يمنع أحدهما الأخر من النشوز الاجتماعي، لأن النشوز من أحد الزوجين يتسبب بإهانة كبيرة للآخر ومع ذلك لم يقترح الطلاق، علماً بأنه عندما يتخذ أحد الزوجين موقفاً علنياً حازماً تجاه الآخر فإن هذا قد يتسبب في الطلاق. ولتبيان هذه الحالة جاءت الآية التي بعدها تقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (النساء ٣٥). هذه الآية تبين تماماً أن النشوز قد يحصل من أحد الطرفين وهو اجتماعي بحت لا جنسي. والضرب هو موقف علني حازم، لا الضرب باليد أو العصا كما فهمه البعض. هذا الموقف قد يتسبب في الطلاق، في هذه الحالة أمر الله تعالى بالإصلاح بينهما قبل الطلاق وهذا الإصلاح يتم عن طريق حكم من طرفه وحكم من طرفها وهذا ما نسميه اليوم بالمصطلح الحديث «لجنة التحكيم» وهذه الممارسة شائعة جداً اليوم في العلاقات الاقتصادية والتعاقدية بين الأفراد والمؤسسات والدول.

أما النشوز بمعنى الشذوذ الجنسي من الرجل فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء ١٢٨) «حول شرح هذه الآية انظر مبحث الفرقان بند الفواحش».

قد يقول البعض: لِمَ لَمْ يقل الفقهاء هذا من قبل؟ قلنا مرة ونكررها بأن ما ندرسه من فقه هو تفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معينة وليس الإسلام بعينه. لذا فإن قول الفقهاء كان منسجماً مع مرحلة التطور التاريخي الاقتصادي والسياسي التي عاشوها، حيث أن فقههم كان منسجماً مع مجتمعهم الذي عاشوا فيه واجتهدوا من

أجله، لذا فعلينا أن لا نبخسهم قيمتهم التاريخية من هذه الناحية وقد بينا في الفرع الأول (أزمة الفقه الإسلامي) الخطيئة المنهجية التي وقع فيها الفقهاء بشأن المرأة وهي خطيئة قياس الشاهد على الغائب وخطيئة الحدود.

٦ ـ حق العمل:

لم يمنع الإسلام المرأة من العمل من الناحية الشرعية في كل مجالات الحياة والإنتاج، وإنما الظروف الموضوعية التاريخية هي التي تحدد عمل المرأة، وهذا ما حصل فعلاً في التاريخ العربي الإسلامي، إذ مارست المرأة مهنة التمريض في الجهاد وكانت تمارس بعض الأعمال الإنتاجية مثل حلب النوق والشياه وصناعة الزبدة واللبن وكانت تمارس مهنة الرضاعة حيث كانت ترضع أولاد غيرها مقابل أجر.

وعلى هذا فعلينا نحن المسلمين أن ننظر إلى عمل المرأة من خلال السياق التاريخي لا من قياس الشاهد على الغائب، لأن التشريع الإسلامي لا يوجد فيه ما يمنع ذلك ولكن كانت هناك ظروف تاريخية حجرت المرأة عن العمل، والمهنتان الوحيدتان اللتان منع الله المرأة من ممارستهما هما البغاء والتعرية.

قد يقول البعض إن هناك محذورين من هذا:

ـ المحذور الأول: أن عمل المرأة يوجب الاختلاط مع الرجل: أقول إن الإسلام لم يمنع المرأة من أن تختلط مع الرجل ولكن حذر من الخلوة بين الرجل والمرأة من غير المحارم في مكان مغلق، وكذلك سفر المرأة مع غير محرم لوحدهما، واعتقد أن منعاً من هذا النوع هو منع ايجابي جداً.

وهنا نريد أن ننبه إلى آية صلاة الجمعة حيث لم يرد أمر صريح في الكتاب حول الصلاة والذهاب إليها إلا صلاة الجمعة وذلك بأمره تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ . . الآية﴾ (الجمعة ٩) هنا الخطاب موجه للذكور والإناث على حد سواء. فعلى المرأة المسلمة كالرجل تماماً أن تكون حريصة على حضور صلاة الجمعة سافرة أم متحجبة حسب أعراف بلدها وأن تضرب عرض الحائط احتكار الرجال لصلاة الجمعة. .

ولنلاحظ قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ هنا الخطاب موجه للذكور والإناث على حد سواء أيضاً، فعلينا أن نفهم ذلك ونقبله من غير حرج.

ـ المحذور الثاني : هو أن هناك بعض المهن الصعبة الشاقة لا تستطيع أن تقوم بها المرأة من الناحية العملية، وهناك بعض المهن لا تليق بأنوثة المرأة، هذا صحيح ولكن في هذه الحالة على المرأة من خلال مؤسساتها أن تحدد بنفسها ماهي المهن الموجودة فعلاً والتي لا تستطيع أن تمارسها وماهي المهن التي لا تليق بأنوثتها، لا أن تدع الرجال عامة (وخاصة السادة العلماء) أن يحددوا لها المهن التي تليق أو لا تليق بأنوثتها.

٧ ـ حق العمل السياسي والتمثيل التشريعي:

إن حق العمل السياسي هو أول حق أعطاه الإسلام للمرأة بشكل مباشر. وقد بدأ الإسلام تحرير المرأة بإعطائها هذا الحق. وقد كافحت المرأة المسلمة مع الرجل على حد سواء وكان كفاحها عقائدياً «أخت عمر بن الخطاب» ونضالياً مباشراً «سمية» واشتركت في الهجرة إلى الحبشة وإلى يثرب وحضرت بيعة العقبة الأولى والثانية. وهناك من يقول «طبقوا الإسلام ثم اسألوا المرأة هل تريد دخول البرلمان» أقول إن هذا الكلام هو عين الوهم لأن الطلب الذي يبدأ بالفعل «طبقوا الإسلام» موجه لمن؟ هل للرجال أي يا أيها الرجال طبقوا الإسلام ثم إسألوا المرأة؟ فإذا كان للرجال فقط فيصبح الإسلام ديناً للرجال فقط. وإذا كان الطلب للرجل والمرأة بتطبيق الإسلام فنريد أن نسأل السؤال التالي: أي إسلام تريد منا أن نطبق؟ وهل قدمتموه لنا بلغة القرن العشرين ورفضناه؟ أم قدمتموه لنا بأطر قديمة تاريخياً فيها إسلام السنة وإسلام الشيعة والمعتزلة والخوارج والإباضية والزيدية وكل ما هنالك من فِرَقْ ومذاهب؟!

أما إذا أردنا أن نطبق الإسلام بمفهومه الأصيل الصالح لكل زمان ومكان فعلينا أن نقدمه لزماننا ومكاننا «ظروفنا» ثم نقول للرجل والمرأة: هذا هو الإسلام الأصيل في الكتاب والسنة وهذا هو فهمه الحديث في القرن العشرين. في هذه الحالة تدخل المرأة والرجل معترك السياسة منذ أول لحظة، فكيف في هذه الحالة نريد من المرأة أن تناضل مع الرجل وتموت معه، ثم بعد ذلك نقول لها: اذهبي إلى بيتك. وقد يقول البعض إن المرأة المسلمة دخلت ميدان النضال السياسي الثوري مع النبي ﷺ ومع ذلك لم تحكم. أقول إنها لم تحكم ضمن سياق تاريخي لا ضمن تشريع إسلامي، وعلى هذا لا يحق لنا قياس الشاهد الذي هو نحن على الغائب الذي هو

وضع المرأة الاجتماعي والسياسي في زمن النبي لأن الزمن اختلف.

ثم هناك من ينسب إلى النبي ﷺ إن صح قوله «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» هذا الحديث إذا صح فلا يقاس عليه لأنه جاء من النبي ﷺ تعليقاً على حدث معين وهو إخبار أحدهم للرسول أن الروم مات ملكهم فخلفته على عرشه ابنته، فعلق الرسول بقوله «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وهذا الحديث ان صح لا يعتبر تشريعاً ولاتعليماً وإنما هو تعليق ظرفي على حادثة بعينها ولا يدخل تحت بند الحدود والأخلاق والعبادات. لذا لا تنطبق عليه قاعدة، إن صح الحديث فهو مذهبي، علماً بأنه من الأحاديث المنفردة. ثم إن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن حالة امرأة حاكمة وهي ملكة سبأ، فعندما نقرأ قصة هذه الملكة لا نرى أي استنكار لكونها حاكمة لقومها، ولكن الاستنكار جاء لها ولقومها لأنهم يعبدون الشمس من دون الله، وقد عاملها سليمان عليه السلام معاملة الند للند. ونرى هذا واضحاً في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل ٢٣) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل ٢٤) وقد كان سلوكها مع قومها هو سلوك الاستشارة والرأي بقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَاكُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل ٣٢) ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. (النمل ٣٣) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل ٣٤).

لقد أفردت إحدى الباحثات المغربيات كتاباً خاصاً حول موقع المرأة السياسي والتشريعي في الإسلام تحت عنوان «الحريم السياسي» كتب باللغة الفرنسية وقد أجرت الباحثة استقصاء مطولاً حول هذا الحديث فتبين أنه من الأحاديث المنفردة وتبين أن أحد رواته هو «أبا بكرة» الذي أقيم عليه حد الشهادة الكاذبة بأمر من عمر بن الخطاب أمام جمع من المسلمين في قضية الزنا التي نسبت إلى المغيرة بن شعبة. هذه الناحية تبين كذب الرواية أصلاً. ولكن أقول ولو صح هذا القول عن النبي ﷺ فهو ليس تشريعاً لكل زمان ومكان وإنما هو تعليق. فعلى المرأة المسلمة أن تعلم أن لها الحق بأن تَنْتَخِب وأن تُنْتَخَب وأن تمارس أعلى مراكز المسؤولية في الدولة الإسلامية حتى رئاسة الدولة ويحق لها أن تصلي الجمعة مع الرجال وتشارك

في ممارسة مهمات السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية على أن تكون مؤهلة لذلك.

٨ ـ عقدة النكاح:

إن عقدة النكاح مفتوحة للرجل والمرأة على حد سواء، فيمكن أن تكون العصمة بيد الرجل وبيد المرأة. لذا فإن عقد النكاح يجب أن ينص صراحة على العصمة، فإذا لم ينص فتصبح العصمة بشكل متساو للرجل والمرأة ولا يصح عقد النكاح إلا بالإيجاب والقبول والشهود «الاشهار» والصداق لذا قال: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ (البقرة ٢٣٥) وهنا ﴿تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ جاءت من مباشرة عقد النكاح، أي جاءت من «عزم» لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران ١٥٩) فالعزم فيه مباشرة بالعمل. ويحق للمرأة أن تضع ما تريد في عقد النكاح، فالعقد شريعة المتعاقدين.

وهنا يجب علينا أن نفهم مشكلة ولي الأمر. فالمرأة المسلمة إذا كانت تحت السن القانونية فلا تتزوج إلا بموافقة ولي أمرها. أما إذا بلغت السن القانونية، ويمكن وضع سن معينة في كل بلد على حده، مثلاً (٢١) سنة حيث أن الفتاة في هذه السن يحق لها أن تتزوج بنفسها بدون ولى أمر لأن أجل الكتاب في النكاح الإسلامي هو الإيجاب والقبول والشهود والصداق، وهذه هي نفس الشروط التي يضعها أي قانون زواج مدني في كل انحاء العالم لأنه لا يوجد في الإسلام زواج شرعي وزواج مدني فكلاهما واحد. حيث أن شروط عقد النكاح في الإسلام هي من حدود الله.

٩ ـ الطلاق:

يحق للرجل والمرأة المسلمة على حد سواء طلب الطلاق. لذا فإن الطلاق الشفهي يعتبر من اللغو. فإذا قال الرجل لزوجه أنت طالق فهذا من باب اللغو ولا ينظر إليه بأي جدية. الطلاق بين الرجل والمرأة لا يكون إلا عن طريق القضاء حصراً. فإذا حصل الطلاق من قبل الرجل فيمكن أن يكون طلاقاً ردياً أو نهائياً. أما إذا حصل عن طريق المرأة فهو طلاق يمكن أن يرفضه الرجل فقط إذا كانت حاملاً. حيث أن للرجل أفضلية على المرأة في هذه الحالة فقط، أي أنه إذا حصل الطلاق من قبل الرجل أو

المـرأة، وتبين أن المـرأة حامـل، في هذه الحـالة للرجل درجة على المرأة في قوله:
﴿وَالْمُطَلَّقَـاتُ يَتَـرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَـةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِـلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَاخَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَـامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَـومِ الآخِـرِ وَبُعُـولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْـلاحـاً وَلَهُنَّ مِثْـلُ الَّـذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْـرُوفِ وَلِلرِّجَـالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَـةٌ وَاللهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٢٨) أي أن المطلقة إذا تبين أنها حامل وأراد زوجها أن يردها بغض النظـر عن طالب الطـلاق، في هذه الحـالـة فقـط يؤخـذ برأيه دون رأيها أي له درجة عليها وذلـك من أجـل لمّ شمل العائلة فإن وجود طفل في رحم المرأة يمكن أن يغير الوضع كلية

أما في حال الطلاق الكامل من الرجل للمرأة فلا يحق له ردها إلا بعد أن تنكح زوجاً آخر، وقد أسيء استعمال هذه القاعدة من قبل بعض الفقهاء المتخلفين علماً بأنهـا قاعـدة عظيمـة جداً وذلـك لتبيـان أن الطـلاق عمليـة جدية جداً وليست مجرد انفصالات مؤقتة.

أمـا العـدة فالهـدف منهـا استبـراء الـرحم لقـولـه تعـالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطـلاق ١) وقـد شرحت مفهوم العدة في مبحث سابق، أما عدة الأرملة فهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وعدتها أن لا تتزوج ولا تتحدث بزواج، أما جلوسها في بيتها وعدم كلامها مع الرجال فهذا من باب الأعراف المتخلفة. أما تعويض المطلقة فجعله الله مفتوحاً تماماً فلا حدود ولا قيود. إلا إذا أتت بفاحشة مبينة ولا يحق للرجل أن يعضل المرأة ويكارهها حتى تسامحه في تعويضاتها. ويجب على المشرع أن يأخذ هذا في عين الاعتبار، فلا طلاق غيابياً دون دراية الزوجة، ولا يحق للقضاء أن يرفض طلاق المـرأة إلا إذا كانت حامـلاً ولا يرغب زوجهـا في طلاقهـا. وما عدا ذلك فحق المرأة كحق الـرجـل تمـامـاً، أمـا مفهوم بيت الطاعة ومفهوم النفقة الهزيلة ومفهوم التعددية والطلاق التعسفي وتعنت الرجل في طلاق المرأة حتى تسامحه في حقوقها فهذا كله يجب إعادة النظر فيه كلياً ويجب أن يكون دليلنا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء ١٩).

١٠ ـ العلاقة بين الرجل والمرأة:

إن العلاقة بين الرجل والمرأة في الإسلام ينظر إليها من خلال مستويين مختلفين تماماً.

ـ المستوى الأول: مستوى حدود الله «الحلال والحرام» المحدد من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذا الحد هو الزنا، والزنا هو علاقة الجماع الجنسي المباشر بين الرجل والمرأة بدون عقد نكاح والذي أطلق عليه مصطلح الفاحشة، فموضوع بحثنا هنا هو الزنا. وقد وضعه الله مع قتل النفس في مستويين: الأول مستوى تشريعي «عقوبات» حيث ورد القتل والزنا في الحدود. والثاني أخلاقي بحت حيث ورد القتل والزنا في الوصايا. فالإنسان المتحضر لا يقتل ولا يزني، ليس خوفاً من العقوبة فقط ولكن من وازع ذاتي أخلاقي بحت أيضاً. وبما أن الجماع الجنسي بدون عقد «الزنا» هو الحد الأعلى للعلاقة بين الرجل والمرأة فقد نظر إليه الكتاب من زاويتين مختلفتين تماماً وهما حقوق الله وحقوق المجتمع:

ـ الزاوية الأولى: علاقة جماع بين رجل وامرأة دون شهود في الخفاء، في هذه الحالة المجتمع لا دخل له في ذلك ولا يحق له أن يطبق أية عقوبات بناء على الشبهات وعلى التخمين. وتبقى العلاقة بين الزاني وربه وباب التوبة مفتوح دائماً عند الله، فعلاقة الناس بالله سبحانه وتعالى علاقة معصية وتوبة وعلاقة الله بالناس علاقة رحمة ومغفرة.

ـ الزاوية الثانية: علاقة جماع بين رجل وامرأة علنية، والعلن حدده الله سبحانه وتعالى في أربعة شهود عدول شاهدوا العملية تماماً، وبالنسبة للخيانة الزوجية شهادة أحدهما بأربع شهادات. في هذه الحالة هناك علاقة التوبة والمغفرة بين العبد وربه، وعلاقة الزاني بالمجتمع، وقد وضع الله هذه العلاقة بعقوبة حدية قدرها ١٠٠ جلدة بدون زيادة أو نقصان. وفي حالة الاعتراف بدون شهود حاول النبي ﷺ أن لا يطبق الحد بالتماس الشبهات. أما بالنسبة للخيانة الزوجية فتكفي شهادة أحد الزوجين لأن الشهادة تعتبر بأربع شهادات ولكن يمكن لأحدهما أن يدرأ عن نفسه العذاب «الحد» بالشهادة الخامسة وتبقى العلاقة بين العبد وربه.

من هنا نفهم حرص الإسلام الشديد على عدم علنية الفاحشة وإشاعتها وبالتالي حرصه الشديد على منع الناس من قذف أعراض الآخرين وتوجيه الاتهامات

لهم بدون بينات.

ـ المستوى الثاني: علاقة الرجل بالمرأة بالمستويات دون العلاقة الجنسية. هذه الناحية تركها الله لحدود الناس، فهم يضعون حدوداً لعلاقة الرجل والمرأة وهذه الحدود تتبع أعراف البلد أوما يسمى بالآداب العامة في كل بلد، وهي تختلف من بلد لآخر ومن زمان لآخر، وقد أكد النبي ﷺ أن كل علاقة بين الرجل والمرأة لا تصل إلى الجماع الجنسي «فهي ليست زنا» وأن كل علاقة تنتهي بالجماع الجنسي فهي زنا من أولها إلى آخرها «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

قد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يصافح النبي ﷺ النساء، وبنفس الوقت قال «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»؟ أقول إن النبي ﷺ خاطب الناس بأن الفرّج هو الذي يصدق أو يكذب الزنا، وبنفس الوقت وضع حداً لنفسه كنبي ورسول ورئيس دولة، ونضرب مثالاً على ذلك: في منصب رئيس الدولة في الولايات المتحدة أو فرنسا أو روسيا، في هذه الدول الأعراف تسمح بعلاقة بين الرجل والمرأة قد تصل إلى حد الزنا المخفي لا العلني ولا يوجد ما يمنع هذه العلاقة عرفاً ولا تشريعاً، ولكن عندما يرشح إنسان ما نفسه لمنصب الرئاسة، ويتبين أنه كان عنده علاقات غرامية وهو متزوج أو أنه ينتقل من امرأة إلى أخرى، فإن هذا الوضع يقضي عليه حكماً ولا يمكن أن يقبل ترشيحه لهذا المنصب الرفيع. فالنبي ﷺ في سلوكه الشخصي كان حريصاً جداً على أمور كهذه وقد أعطى نموذجاً يحتذى به للناس أصحاب المناصب العليا على وجوب حرصهم على سمعتهم في علاقاتهم مع الآخرين، لأن الإنسان صاحب المنصب الرفيع عرضة لأنظار الناس وأفواههم أكثر بكثير من الإنسان العادي. وكذلك أيضاً زوجات هؤلاء الناس، يجب أن يعتبرن أنفسهن ليس كبقية النساء، ومن هذا المنطلق أكد الله سبحانه وتعالى على زوجات النبي بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب ٣٢). وقد وضع الإسلام بهذا أسساً هامة جداً أخذت الصيغة العالمية المتحضرة وهي الحرص الشديد في السلوك الشخصي بالنسبة للناس ذوي المناصب الرفيعة هم وأزواجهم.



الباب الرابع
في القرآن

الفصل الأول
الشهوات الانسانية



تمهيد

يقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على مبدأ «متاع الحياة الدنيا» أي ما ينتفع به من الأشياء في الحياة الدنيا طال هذا الانتفاع أو قصر، ويقوم على المتطلبات الإنسانية، الجانب البشري الغريزي والجانب الإنساني الشهواني، حيث أن هذين الجانبين تداخلا بعضهما ببعض بحيث صار من الصعب فرز كل واحد على حدة، فالإنسان لا يأكل فقط من أجل إملاء المعدة «الجانب الغريزي» ولكن يأكل من خلال الشهوات أيضاً، فهناك صنوف الأطعمة وطريقة تحضيرها والأصناف المركبة لكل طعام وكذلك استعمال النار، وحتى الجماع الجنسي فهو غريزة بشرية ولكنها ترافقت مع شهوات إنسانية من لباس وزينة وحفلات الزفاف. فالغرائز عبارة عن رغبات غير واعية وهي تتبع الجانب البشري الحيوي من الإنسان وفي هذا الجانب يكون الإنسان كالحيوان تماماً.

أما الشهوات فهي رغبات واعية وهي تخص الإنسان فقط. وبما أن الغرائز توجد لدى الحيوان أيضاً، والحيوانات لا تشكل مجتمعات وإنما تشكل قطعاناً، فنقول قطيع من الغنم وقطيع من البقر، وسرب من الطيور، ولا نقول مجتمع من الغنم. والمجتمع له علاقات واعية بين أفراده وهو يخص الإنسان فقط. لذا فإن أساس الحياة الإجتماعية والإقتصادية يقوم على الشهوات الإنسانية فلا نقول إن هناك علاقات اقتصادية، ودورة اقتصادية في البهائم حيث أن الغرائز فيها تمارس دون علاقات واعية، والغرائز وحدها لا تكفي لصنع نظام اقتصادي، لذا فإنه ضمن ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة نقول إن الإنسان يفقد إنسانيته ولكن لا نقول إنه يفقد بشريته.

فما هي مقومات الحياة الاقتصادية عند الإنسان؟!

لقد حدد القرآن مقومات قوانين الاقتصاد الإنساني بالبندين التاليين:

١ ـ إن مادة الاقتصاد الإنساني هي «متاع الحياة الدنيا»، وهذا المتاع غير ناضج وخاضع للتبدل والتحول ولا يخضع للثبات. وقد حدد القرآن الحياة الاقتصادية على أنها متاع في الآيات التالية:

ـ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُها﴾ (القصص ٦٠).

ـ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ (غافر ٣٩).

ـ ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الشورى ٣٦).

ـ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف ٤٦).

وقد بين أن متاع الحياة الدنيا غير ناضج ولا يحوي صفة الكمال وإنما يخضع للتطور وتنطبق عليه قوانين الجدل الداخلي في قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران ١٨٥). والغرور جاءت من الأصل «غر» وهو قلة الخبرة وعدم النضوج.

٢ ـ إن «متاع الحياة الدنيا» بالنسبة للإنسان له مصدران أساسيان لا ثالث لهما وهما:

آ ـ خيرات الطبيعة «الأرض» بما تحويه من غابات ونباتات ومصادر معدنية ومياه وأنعام.

ب ـ عمل الإنسان الواعي.

وقد ورد هذان المصدران في سورة يس في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس ٣٣ ـ ٣٥) وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس ٧١ ـ ٧٣). نلاحظ في هذه الآيات كيف حدد أساس الحياة في موارد الطبيعة من نبات وحيوان ومياه في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ وعمل الإنسان في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، هنا «ما» اسم موصول بمعنى الذي، أي والذي عملته أيديهم.

وبما أن عمل الإنسان الواعي والذي يقوم على علاقات واعية يخص الإنسان فقط، فيجب علينا تحديد الشهوات الإنسانية الرئيسية التي تلعب دوراً أساسياً في سلوكه الشخصي والإجتماعي والتي تلعب دوراً كدور الغرائز.

الفرع الأول

الشهوات الإنسانية المذكورة في القرآن

لنضع تعريفاً لكل من الغرائز والشهوات:

- **الغرائز**: هي رغبات غير واعية وهي ذات منشأ فيزيولوجي بحت، أي أنها مغروزة في الطبيعة البشرية للإنسان مثل غريزة الطعام وغريزة الجنس وغريزة البقاء، وهذه تعتبر اهم الغرائز الموجودة في الكائنات الحية ومن جملتها البشر.

- **الشهوات**: هي رغبات واعية وهي ذات منشأ معرفي واجتماعي وموجودة فقط في الإنسان، أي بعد الأنسنة لا قبلها، لذا فلها بداية تاريخية «معرفية واجتماعية».

لقد عرف القرآن الشهوات على هذا الأساس أي أنها ذات منشأ معرفي واجتماعي ولها بداية تاريخية.

لنأخذ قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٨٠) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (الأعراف ٨١). هنا نلاحظ أنه قال عن ظاهرة اللواط بأنها شهوة وعلق عليها بقوله: ﴿مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. ولم يقل عن ظاهرة الجماع الطبيعي شهوة لأن هذه الظاهرة ليس لها أية بداية تاريخية واعية، بل هي وجود فيزيولوجي بحت، ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾. السؤال الآن: أسرفوا في ماذا؟ فالإسراف هو الزيادة في استعمال شيء ما كقوله تعالى: ﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف ٣١) أي لا تسرفوا في الطعام والشراب. فهنا قال لهم «مسرفون» هل أسرفوا في اللواط؟ فاللواط فاحشة وهو حرام قل أو كثر ولكن جاء الإسراف هنا في الشهوات عندما قال ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي أن الشهوات الإنسانية مقبولة وهي فطرة الناس ولكن الإسراف فيها مرفوض ووضع القرآن اللواط أحد أنواع الإسراف في الشهوات، كما وصف القرآن نعيم الجنة بأنه من الشهوات «أي رغبات يريدها الإنسان عن وعي» وذلك بقوله ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء ١٠٢) وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ﴾ (فصلت ٣١) وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف ٧١)

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل ٥٧). وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ (سبأ ٥٤) ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الطور ٢٢) وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الواقعة ٢٠ ـ ٢١). هنا نلاحظ كيف وضع الشهوات الإنسانية حيث يريدها ويرغبها عن معرفة لا عن سلوك لا إرادي. فإذا سأل سائل كيف قال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أليس الطعام غريزة؟ أقول: نعم الطعام غريزة ولكن اللحم المشوي والحساء والسلطة والأطعمة المصنعة كلها شهوات لأن اللحم المشوي مارسه الإنسان بعد أن عرف النار واستفاد منها، فالحيوان يأكل اللحم طبيعياً تماماً والإنسان الآن يأكله بعد معالجة. فعملية إملاء المعدة غريزة، أما نوع الأكل وطريقة معالجته ووضع المعرفة الإنسانية فيه فيدخل في الشهوات، وكذلك الجنس فهو غريزة ولكن الزينة والحلاقة والعطور شهوات لأنها كلها تولدت عن معرفة وتمارس من قبل الإنسان فقط. وشرب الماء غريزة، ولكن شرب المياه الغازية وشراب البرتقال والعنب يعتبر شهوة، والشرب من خلال أوعية للشرب من أقداح وكؤوس يدخل في الشهوات.

وبما أن الشهوات إنسانية بحتة تولدت عن معرفة وبالتالي تدخل فيها وسائل الإنتاج مثل النار مصدر الشواء وعملية الصيد الواعية للحيوان ومن ثم مع تقدم المعرفة تقدمت وسائل الإنتاج وتقدم تنوع الإنتاج كيفاً وكماً، وتشعبت الشهوات الإنسانية كماً وكيفاً وهي في حالة تطور دائم، لذا نظر الإسلام إليها نظرة حنيفية «متطورة» أي لا ثوابت فيها وصنف حب التطور والتجدد في الأشياء أول الشهوات وأعرقها في الإنسان. لقد حدد القرآن الشهوات الإنسانية الرئيسية والتي منها تتشعب كل الشهوات بالآية التالية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران ١٤) «نوع الآية: قرآن، متشابه» وهي بحاجة إلى تأويل، والتأويل هو مطابقة الآية مع العقل والحقيقة أي صدق الخبر موضوعياً وعقلانيته.

ـ التأويل.

١ ـ هنا قال «الناس» والناس هم الذكور والإناث من العاقل وهي جمع إنسان

لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣).

٢ ـ ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ والشهوات هي رغبات واعية إنسانية، ووضع ﴿زُيِّنَ﴾ للمجهول لأن المهم هنا هو الفعل نفسه «الخبر» وليس الفاعل، والزينة هنا لأمور يرغبها الناس ولا يعافونها كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ (يونس ٢٤). وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (النور ٣١) وقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ (النحل ٨).

٣ ـ لقد عدد في هذه الآية ست شهوات وهي حسب الترتيب في الآية كالتالي:

١ ـ النساء، ٢ ـ البنين، ٣ ـ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ٤ ـ الخيل المسومة، ٥ ـ الأنعام، ٦ ـ الحرث.

٤ ـ بعد أن عدد هذه الشهوات قال عنها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آل عمران ١٤) هنا «ذلك» اسم اشارة للدلالة على الشهوات الست السابق ذكرها وقال عنها إنها متاع الحياة الدنيا. أما كلمة «متاع» فقد جاءت في الكتاب كلمة للدلالة على أشياء ينتفع بها الإنسان ضمن فترة من الزمن ويرغب في اقتنائها، ومنها جاءت المتعة وهي اقتناء شيء أو القيام بعمل ينتفع منه الإنسان فيسبب له السرور ويرغب في حيازته أو القيام به عن وعي. فالحيوانات لا يوجد عندها متاع ومتعة إلا طعامها الذي تتغذى به دون وعي لذا قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات ٣١ ـ ٣٣) فالكلأ يعتبر متاعاً للأنعام ولكن لا يعتبر متاعاً للحيوانات اللاجمة. أما الأمتعة فهي حالة خاصة من المتاع وهي متاع المسافر والمقاتل لذا قال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ (النساء ١٠٢).

لنأخذ الآن الآيات التالية:

١ ـ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف ١٧) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ (يوسف ٦٥) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ (يوسف ٧٩). هنا جاء المتاع في معنى الحاجات التي أخذوها معهم والتي

يحتاجون إليها في مرتعهم وملعبهم وتمارينهم ومأكلهم، وعندما يكون المتاع معداً للبيع والمقايضة يصبح بضاعة.

٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ (النور ٢٩) هنا جاءت أيضاً الحاجات التي ينتفع بها ويرغب الإنسان بامتلاكها.

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب ٢٨) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب ٥٣).

٤ - ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢٤١).

٥ - ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة ٢٣٦).

هنا في الآيات الثلاث المتعلقة بالمطلقات ذكر أن على الرجال أن يمتعوهن، والمتاع هنا أن يعطيها أشياء تنتفع بها وترغب المرأة في اقتنائها كالمال والحلي والملابس وما شابه ذلك وقد ربط ذلك بالمعروف أي حسب الأعراف المتبعة في كل بلد وفي كل زمن لذا قال ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهنا أخذ المعروف شكله النسبي البحت أي لا يوجد معروف مطلق.

٦ - ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس ٣١ - ٣٢).

٧ - ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات ٣١ - ٣٢ - ٣٣) فالكلأ يعتبر متاعاً للأنعام والمتاع من الأشياء التي ينتفع بها واللازمة لحياة الإنسان ومعاشه. لذا ذكر العطاء النباتي الطبيعي للأرض على أنه متاع للإنسان وللأنعام بقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

وقد حدد كلمة المتاع بشكل قطعي بقوله:

٨ - ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى ٣٦) هنا نلاحظ كيف ربط الأشياء بالمتاع.

٩ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ (البقرة ١٢٦) هنا لاحظ قوله. ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أي أن أشياء الحياة الدنيا من لباس وبيوت وسيارات وأنعام وأرض

وزراعة وحلي هي للمؤمن والكافر على حد سواء، ومن الخطأ أن نقول إن المتاع هذا وقف للكفار في الحياة الدنيا وإنما هو للمؤمن والكافر على حد سواء أي للناس كلهم. وقولك «تمتع بعضنا ببعض» أي انتفع بعضنا ببعض لوجود المنافع المتبادلة.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد ٢٠، آل عمران ١٨٥) فقد قلنا إن المتاع شيء ينتفع به ويولد السرور ضمن فترة زمنية، هذه الأشياء في الحياة الدنيا والتي نتمتع بها مثل الفواكه والأطعمة والسيارات والبيوت، والتي هي متاع الحياة الدنيا والتي وصفها بالغرور وهو النقصان وعدم النضوج، إن كل ما نصنعه نحن الناس يمكن تجاوزه إلى أحسن منه، هذا من باب صنع الإنسان، ومن باب خيرات الطبيعة فالتفاح بحاجة إلى رش وسماد ورعاية وأدوية حتى يعطي الإنتاج مرة واحدة في السنة، أي في الموسم الواحد، أما متاع الآخرة فهو متاع غير ناقص «ناضج» وذلك بعد تغير في صيرورة قوانين المادة فالزراعة لا تحتاج إلى عمل وإلى أدوية، بل كل ما سيوجد هناك لا عيب فيه ولا يمكن تجاوزه إلى أحسن منه.

لنعود الآن إلى آية الشهوات الرئيسية الست للناس والتي وصفها بأنها ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آل عمران ١٤) والتي أتبعها بقوله: ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ للدلالة على أنها ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ متاع غير ناضج غير مكتمل.

لقد ذكر أن الشهوة الأولى من هذه الشهوات «النساء». فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل النساء المقصودات في هذه الآية هن أزواج الرجال؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١٤) والناس هم الذكور والإناث معاً ولم يقل زين للرجال؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قال في نهاية الآية: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإذا كان المقصود بالنساء أزواج الرجال فهل هذا يعني أن المرأة حاجة كالطعام والشراب والبيت والسيارة والحذاء؟ ومن ناحية أخرى أيضاً إذا كان المقصود بالنساء أزواج الرجال فقد وردت في الشهوات مع الخيل المسومة ومع الأنعام التي هي الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والماعز والإبل. هذا الفهم الخاطىء الشنيع هو الذي سمح للفقهاء المسلمين، والمسلمين بشكل عام، بأن يعاملوا المرأة كالغنم والبقر وعلى أنها شيء من الأشياء.

السؤال الثاني هل البنون المذكورون في هذه الآية هم الذكور من الأولاد؟

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن مرة أخرى: هل الذكور من الأولاد هم أشياء «متاع»؟ وكيف عطفهم على الخيل والبقر والغنم؟

السؤال الثالث: إن النساء هن من الناس والذكور من الناس أيضاً فكيف تشتهي النساء النساء والذكور؟ علماً بأن الغريزة الجنسية لا تدخل في الشهوات، وإنما هي من الغرائز المغروزة في بنية الإنسان الفيزيولوجية والتي يتشارك بها مع بقية البهائم.

السؤال الرابع: إن هذه الآية هي من القرآن فهي من الآيات المتشابهات وتحوي على خبر موضوعي وتأويلها هو مطابقتها مع الحقيقة الموضوعية بحيث يكون الخبر صادقاً موضوعياً. فإذا كانت النساء هن الإناث والبنين الذكور من الأولاد فيصبح الخبر كاذباً، علماً بأن الناس هم الذكور والإناث مؤمنين وكافرين ومتقين وفاجرين وهم كل الأمم والقوميات العربي والتركي والياباني والروسي والأمريكي والافريقي.. الخ.

فعندما نأتي على لفظة النساء والبنين في آية من آيات الكتاب وخاصة «القرآن» يجب ان ننظر إلى سياق الآية ونفهم المعنى فهماً يقتضيه العقل والموضوع والمطابقة مع الحقيقة «صدق الخبر» فعندما تأتي النساء أزواجاً للرجال تأتي واضحة في سياق الآية كقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء ٣٤) أو قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (النساء ٣٢) وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ (النساء ١١) وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء ١) وقوله: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ (الأحزاب ٣٢) وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (الطلاق ١).

أما البنين بمعنى الذكور من الأولاد فتفهم من سياق الآية كقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (الصافات ١٤٩) وقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (الصافات ١٥٣) هنا جاءت النساء والبنون بالمعنى المجازي للكلمة، أما المعنى الحقيقي للنساء والبنين فهو ما يلي:

- النساء: جاءت في اللسان العربي من «نسأ» والنسيء هو التأخير كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (التوبة ٣٧) ونسيء ونسوء جمعها نسوة ونساء «معجم متن اللغة - أحمد رضا»، وكقول النبي ﷺ انِ صح «من أحب أن

يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه» «صحيح مسلم ج ٣ ص ١٩٨٢»
وجاءت النساء أزواج الرجال في المعنى المجازي لأنها اشتقت من هذا الأصل.
فالنساء جمع امرأة وجمع نسيء.

لقد فهم المفسرون الأوائل هذا بشكل بدائي جداً حيث قالوا إن الله خلق آدم ثم خلقت منه حواء أي أن الأنثى ظهرت في الوجود متأخرة عن الذكر ولهذا سميت الإناث نساء «أي تأخرن في الخلق» وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء ١).

أما الفهم الموضوعي فهو بداية الوجود الحياتي للكائنات الحية كانت الذكورة •الأنوثة مختلطة أي لم تكن أزواجاً، فنرى أن كائناً وحيد الخلية لا يتكاثر بالتزاوج وإنما يتكاثر بالانقسام، ومع تطور الكائنات الحية ظهرت الذكورة والأنوثة وهذا ما نلاحظه تماماً في الإنسان فالحيوان المنوي في الذكر يحتوي على الذكورة والأنوثة معاً، أما البويضة في المرأة فلا تحوي إلا على الأنوثة فقط، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ (القيامة ٣٧ ـ ٣٩) فالنطفة هنا هي الخلية ثم عرفها بالخلية المنوية فقال: ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي الخلية المنوية بعد اللقاح تتحول إلى علقة وهي التي تحدد الذكورة والأنوثة بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ هنا يحدد القرآن أن الأصل هو الذكورة والأنوثة معاً، ثم تم انفصال الأنوثة على حدة ومن هنا جاءت كلمة النساء على أنها المتأخرات ويمكن إطلاق هذا المصطلح على كل شيء جاء متأخراً. وهنا يظهر معنى النساء في آية الشهوات والتي تعتبر الشهوة رقم واحد والتي يشتهيها كل الناس وهي المتأخرات من المتاع «الأشياء» أي ما نسيء منها أو نقول عنه في المصطلح الحديث «الموضة» فالإنسان يشتهي آخر موضة في اللباس وفي السيارات وفي الأثاث والستائر وفي البيوت، فنرى أن هذه الشهوة الموجودة عند الإنسان في الأرض قاطبة والإنسان يشتهي المتأخر «الجديد» من الأشياء كلها فالأشياء المنتجة عام ١٩٨٦ جاءت متأخرة عن الأشياء المنتجة عام ١٩٨٥ فكل الأشياء المتجددة «أي جاءت متأخرة عن ما قبلها» نسئت عما قبلها جملها القرآن بمصطلح واحد هو النساء. والنبي ﷺ كانسان تنطبق عليه هذه الآية فكان يحب هذه الشهوة من بين كل الشهوات وهي التجديد وذلك بقوله ان صح

«حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» «الجامع الصغير ج ١ ص ١٤٥» هنا فهم الكثيرون أن النساء هن أزواج الرجال، ولكن النساء هنا هي شهوة التجديد في الأشياء وقد جاءت بمعنى التأخير في سورة النور فى قوله ﴿أو نسائهن﴾ أي ما تأخر عن المذكورين في الآية من أحفاد وفروع مهما نزلوا.

الآن إذا نظرنا إلى هذه الشهوة لوجدناها كامنة وراء التقدم الصناعي في إنتاج الأشياء «المتاع» فلولا هذه الشهوة لانخفض إنتاج معامل الألبسة مثلاً وكل شيء يخضع للتجديد. هنا أريد أن أوضح أن المرأة ليست متاع الرجل والرجل ليس متاع المرأة وإنما علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة حب ومودة ورحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم ٢١) ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة ١٨٧).

ـ البنون: جاءت من الأصل «بنن» وتعني اللزوم والإقامة، وعندما يتزوج الذكر فإنه يبني على الأنثى وكان يبنى له خيمة منفصلة عند العرب، أما لفظة الابن فقد جاءت من «بنو» وهو من التوليد وجمعها أبناء فنقول ابن فلان وابن المدينة وابن القرية. فالمعنى الحقيقي للبنين هو من اللزوم والإقامة وهذه هي صفة الأبنية والبنيان، وقد جاءت في المعنى الحقيقي في قوله تعالى ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٣) هنا ربط البناء بتذليل الأنعام فلولا تذليل الأنعام لما استقر الإنسان وبنى له مسكناً. وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف ٤٦) فالبنون هنا هي الأبنية من اللزوم والإقامة وليس الذكور من الأولاد والمال كل ما يمول به الإنسان من نقد ومواد تحويلية فقوله (والبنون) يعني الأبنية التي هي المواد غير المنقولة. هنا لاحظ كيف تطابقت هذه الآية مع آية الشهوات حيث شهوات الإنسان أشياء منقولة وغير منقولة وهذه الأشياء متاع الحياة الدنيا وزينة الحياة الدنيا «هنا لاحظ كيف تمت وحدة الموضوع في الآيات وكيف أصبح الخبر موضوعاً صادقاً». فإذا سأل سائل: لماذا هذا التعقيد؟ أقول هذه الآيات من القرآن والقرآن كله متشابه «انظر فصل إعجاز القرآن».

ـ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة: فالقناطير جمع قنطار، والقنطار جاء من المجموعة التي لها انحناء، فإذا جمعنا كميات من القمح أو التمر أو الشعير فإن تجمعها يأخذ شكل منحنٍ ومن هنا جاءت المقنطرة أي ذات الانحناء كما نقول أيضاً القناطر الخيرية أو الجسور التي لها أقواس «قناطر». فيصبح معنى القناطير المقنطرة

من الـذهب والفضـة هي العـدد الكبيـر من الحلي المصنعـة من الـذهب والفضـة والمصنعـة بأشكـال هندسية فيها منحنيات. فإذا نظرنا إلى أنواع الحلي المصنعة في العـالم جـدنـا أنـه لا يوجـد قطعـة من الحلي ليس فيهـا شكـل منحنٍ «قنطـرة» كالخواتم وعقود الرقبة وأقراط الأذنين والأساور في اليدين. هنا نستنتج نتيجة هامة بأن الإنسان يشتهي الذهب والفضة بعد تصنيعهما أي بعد وضع جهد وفن الإنسان فيهما لا في حالتهما الطبيعية وهما في باطن الأرض.

- الخيـل المسـومـة: الخيل المدربة والمعلمة المرباة كقوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (هود ٨٣) نرى إلى يومنا هذا أن الخيل المسوَّمة هي من الشهوات التي لا يستطيع إشباعها أي إنسان.

- الأنعـام: وتشمـل مواشي الـركـوب ومـواشي إنتـاج اللحم واللبن اللذين يعتبر ان الغذاءين الرئيسيين للإنسان.

- الحرث: من «حرث» ولها في اللسان العربي أصلان: الأصل الأول الجمع والكسب ومن هذا المعنى سمي الرجل «حارث» لأنه يجمع المال ويكسبه. من هذا المعنى للجمـع والكسب جاء مفهـوم المنـافـع والحـوافـز المادية للإنسان في الدنيا والأخـرة لقـولـه تعـالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الـدُّنْيـا نُؤْتِـهِ مِنْهـا وَمَـالَـهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى ٢٠). هنا جاءت الحـرث في الجمـع والكسب على معنى العمـوم في الحوافز المادية بكل أنواعها بما فيهـا حوافـز الثـواب المادي في الأخرة وقد جاء الحرث بمعنى الجمع والكسب على معنى الخصوص بمفهوم المحصول الزراعي الذي يدخل عمل الإنسان فيه لا الغطاء النباتي للأرض ولا الأرض الزراعية لذا قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الـزَّارِعُـونَ﴾ (الواقعة ٦٣ - ٦٤) فالحرث هنا ما يجنيه الإنسان من محصول من العمل في الزراعة. ولكي يبين أن الأرض غير الحرث قال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَـرْثَ﴾ (البقـرة ٧١) هنـا لاحظ كيف فرق بين الأرض والحرث وربـط فعـل السقـايـة مع الحـرث أي أن الحـرث هو نتاج زراعي يحتاج إلى سقاية. وجـاءت في هذا المعنى بقـولـه تعـالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّـا ذَرَأَ مِنَ الْحَـرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبـاً﴾ (الأنعـام ١٣٦) وقـولـه تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ (الأنبياء ٧٨).

أما قوله تعالى: ﴿نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٢٣) هذه الآية تحتاج إلى تأويل.

لنأخذ الآية التي قبلها وهي: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢) في هذه الآية بين الله سبحانه وتعالى لنا اعتزال العلاقة الجنسية زماناً وهوزمن الحيض بقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ وشرح لنا العلاقة الجنسية مكانا بقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ أما الآية ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة ٢٢٣) هذه الآية ليس لها علاقة بالعلاقة الجنسية بقوله تعالى «أنى شئتم» لأن الآية التي قبلها حددت المكان والزمان في العلاقات الجنسية بشكل نهائي وكامل. ولنلاحظ كيف أتمها بقوله ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٢٣) فهنا النساء تأتي بمعنى الأشياء المحدثة المستجدة فقال عنها إنها «حرث لكم» وهنا استعمل صيغة الجماعة للدلالة على الذكور والإناث معاً لأنه في اللسان العربي يمكن أن يوجه الخطاب إلى الذكور والإناث معاً بصيغة الذكورة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون ١) فهنا المؤمنون هم الذكور والإناث وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم ١٢) أي مريم كانت من القانتين من الذكور والإناث.

هذه الأشياء المستجدة قال عنها إنها حرث للناس أي هي من الأشياء المادية التي يحب الناس أن يجمعوها ويكسبوها، وقد أباح الله سبحانه وتعالى لنا استعمالها متى نشاء وكيف نشاء أي «أنى» زمانية مكانية. وبما أن هذا الحرث هو من متاع الدنيا قال: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ﴾ (البقرة ٢٢٣) أي علينا أن نتقي الله في استعمال هذه الأشياء وألا ننسى حقوق الله فيها وألا ننسى الآخرة وهذا وضحه في سورة المزمل بقوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل ٢٠).

أما الأصل الآخر للحرث فهو إهزال الشيء أي جعله هزيلاً.

وهكذا نرى أن لفظة النساء في الكتاب جاءت بمعنى جمع نسيء لا جمع

امرأة في الآيات التالية:

١ - الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

٢ - الآية ١٤ من سورة آل عمران.

٣ - الآية ٣١ من سورة النور «بمعنى الأحفاد أي ما تلى المذكورين أعلاه من الذكور».

٤ - الآية ٥٥ من سورة الأحزاب «بمعنى الأحفاد» أي ما تلى المذكورين أعلاه من الذكور.

الفرع الثاني

أسس النظام الاقتصادي في الإسلام

إنّ الشهوات الإنسانية المذكورة هي من الأشياء المتمكنة في سلوك الإنسان وهي من العناصر الرئيسية الموجهة له في سلوكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. فعلى أي نظام سياسي اقتصادي مبني على أسس إسلامية أن يأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

١ - إن الإنسان يشتهي التجديد وكل جديد في الأشياء، فعلى أي تخطيط اقتصادي أن يأخذ هذا بعين الاعتبار بالنسبة لإنتاج السلع كماً وكيفاً وبالنسبة للعملية الإنتاجية نفسها وإلا فإنه سيفقد أهم حافز من حوافز رغبة الناس في شراء السلع، وهكذا تعمل عملية الإنتاج وتبادل السلع بكل جد ونشاط وإذا لم يحصل ذلك فإن عملية البيع والإنتاج ستتم بالإكراه بغض النظر عن الطروحات وشعارات الدولة إسلامية أم غير إسلامية. علماً بأن الشهوات مرتبطة بشكل مباشر بالمستوى المعرفي للإنسان، فكلما زادت معرفته تشعبت شهواته.

٢ - إن مبدأ الحوافز المادية في الجمع والكسب «الحرث» هو أساس كل نظام اقتصادي مبني على النهج الإسلامي، فبدون هذا المبدأ يفقد الإنسان اهتمامه بالعمل والإنتاج.

٣ - إن ملكية الأبنية السكنية والأشياء ومستجداتها من أثاث ولباس ووسائل

رفاهية ووسائل الاتصال الشخصية «السيارات مثلاً» والحلي تدخل تحت بند الملكية الشخصية للإنسان ولا يحق لأحد أن يتدخل فيها.

٤ - إن ملكية المواشي «وسائل إنتاج اللحم واللبن» تدخل تحت بند الملكية الخاصة لأنها كائنات حية تحتاج إلى حب ورعاية وعناية والشروط التاريخية الموضوعية تنظم شكل هذه الملكية وضوابطها.

٥ - لقد فصل الإسلام بين الأرض كملكية وبين المحصول الزراعي كنتاج عمل وجهد وتنظيم وإدارة، والشروط الموضوعية التاريخية هي التي تحدد شكل الربط بين المحصول الزراعي والأرض. أي أن المحصول الزراعي يجب أن يكون ضمن الملكية الخاصة لأنه نتاج عمل وجهد والمزروعات كائنات حية تحتاج إلى رعاية خاصة. أما شكل الربط التاريخي فحسب الشروط الموضوعية حيث يكون بالشكل الذي يساعد على تطور الإنتاج وزيادته وفعالية استثمار الأرض. وإذا كان هذا الشكل الذي نختاره لا يحقق التطور والزيادة والفعالية فعلينا كمسلمين أن نحنف عنه «نميل عنه» بدون أي حرج لأنه يجب علينا أن لا ننسى أثناء تخطيطنا الاقتصادي أننا أمة ذات ملة حنيفية. أما بالنسبة للأرض بعد إشادة المباني السكنية عليها فإن بيوت السكن تدخل تحت بند الشهوات المشروعة لا الأرض التي تبنى عليها المساكن.

٦ - إن السواد الخام الطبيعية من غابات ونفط وتخامات معدنية ومراع لا تدخل تحت بند الشهوات وإنما تدخل تحت هذا البند بعد تصنيعها وقلبها إلى سلع «متاع» والظروف الموضوعية التاريخية تحدد شكل ملكيتها.

٧ - إن النظام الإسلامي يقوم على أساس عدم الإفراط والتفريط في البنود أعلاه، أي عدم السرف والترف، والسرف هو الزيادة في استهلاك الحاجات والطعام والشراب، والترف هو الاختصاص بالنعم على أناس دون غيرهم «طبقة المترفين» أي عدم تكافؤ الفرص.

٨ - إن بند الشهوات هو أحد البنود الحنيفية من الإسلام، لذا يجب أن تكون نظرتنا إلى هذه الأمور وتشريعاتنا الناظمة لها حنيفية أيضاً أي عندما نرى أن أي تشريع من التشاريع المتعلقة بهذه البنود لا يتناسب مع الواقع أو يعرقل مسيرة النمو والتقدم والرفاهية، فما علينا إلا أن نحنف عنه «نميل عنه» وإلا ستنطبق علينا الآية

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة ١٣٠) فنصبح من السفهاء أي «المجانين المتخلفين عقلياً» لأن الحنيفية هي أساس النهج التقدمي في العالم كله.

٩ ـ فيما يتعلق بالنظام المصرفي والفوائد حيث يعتبر من أساسيات النظام الاقتصادي في أية دولة فقد شرحته في فصل الحدود.

١٠ ـ ان علاقة النشاط الواعي للإنسان مع الأرض يجب أن تكون علاقة مسؤولة، فلا يحق للإنسان أن يفسد الدورات الطبيعية للأرض من مناخ ورطوبة ومياه من جراء إقامته فيها لقوله ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود ٨٥ ـ الأعراف ٧٤) والأرض بما فيها من أنظمة حياتية معقدة هي مكان إقامة الإنسان ونشاطه الواعي ومصدر حياته، وقد أعطانا الله هذه الأرض أمانة بأيدينا لكي نعمرها ونستفيد منها ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود ٦١) وقد خلق الله الأرض وأنظمتها بشكل أنها قادرة على أن ترمم نفسها وتحافظ على صحتها، والمشكلة هي الإنسان ذو النشاط الواعي غير المسؤول والذي من جراء نشاطه هذا قد يؤدي إلى إفساد الأرض «مرضها» فعلى كل البرامج الاقتصادية في التنمية والاستثمار أن تأخذ هذه الناحية بعين الاعتبار لأن مرض الأرض من جراء عبث الإنسان فيها سيؤدي إلى دمار الإنسان نفسه وتعتبر هذه الظاهرة اليوم هي من التناقضات الرئيسية في العالم كله من مشاكل تلوث بيئة وتصحر.

١١ ـ إن أي طرح للعدالة النسبية لا يأخذ بعين الاعتبار البنود الواردة أعلاه فهو طرح طوباوي لا معنى له ومآله إلى الفشل لا محالة حيث أن قوانين الوجود وفطرة الإنسان المنسجمة معها لا تكذب على أحد ولا تغش أحداً وبنفس الوقت لا تساير أحداً. لذا وجب علينا معرفتها وطرح شعارات العدالة النسبية من خلالها لا من خارجها. وإذا تم الطرح من خارجها فنكون قد وضعنا القانون الأخلاقي بشكل متصادم ومعاكس للقانون الموضوعي، فنقع في الوهم ومضيعة الوقت والمال والأنفس.

الفرع الثالث

أسس المفاهيم الجمالية في الشهوات الإنسانية

بما أن الشهوات الإنسانية نتجت عن معرفة الإنسان بالموجودات المحيطة به وهي من نتاج نفخة الروح، حيث أن هذه النفخة نتج عنها الفكر وارتباطه باللغة وقدرة الإنسان على التجريد بالمعرفة والتشريع، فقد تطور مفهوم الجمال مع المعرفة وظهرت المفاهيم الجمالية المعرفية خلال السياق التاريخي للتطور الإنساني، ورافق هذا التطور المعرفي تطور المعايير الجمالية والأخلاقية، فجاءت المعايير الأخلاقية في الوصايا.

وبحثنا الآن هو نشأة المعايير الجمالية وتطورها وترافقها مع المعرفة الإنسانية. وبما أن المعرفة الإنسانية هي خاصية تتبع جدل الإنسان فكذلك المعايير الجمالية فهي خاصية تتبع جدل الإنسان، فما هو تعريف الجمال؟

من الناحية الجدلية الجمال والقبح هما نقيضان يوجدان في النفس الإنسانية المدركة ويظهر التعبير عنهما والجدل بينهما حسب درجة وعي الإنسان للعالم الموضوعي الذي يعيش فيه ويمارس نشاطه ضمنه كظواهر متصلة بعضها ببعض «الكلي» وكظواهر منفصلة بعضها عن بعض «الجزئي» ضمن وحدة جدلية الانفصال والاتصال للموضوع التي ينتج عن وعي الإنسان لها الحركة المستمرة للجمال والقبح «الحنيفية» فكلما زاد وعي الإنسان لهذه الظواهر الموضوعية منفصلة ومتصلة تتغير مفاهيم الجمال والقبح عنده.

أما الأخلاق فهي مفاهيم ذاتية تنتمي إلى جدل الإنسان ولكنها منفصلة عن مفاهيم الجمال والقبح حيث أنها تحمل الطابع الكوني الشمولي وهي قيم ذاتية تؤثر في طريقة التعبير عن مفاهيم الجمال عند الناس، أي أن الأخلاق مرتبطة مع الجمال بعلاقة عضوية مؤثرة غير تناقضية. إن جميع الفنون الإنسانية قاطبة ظهرت من خلال المنفصل والمتصل والكلي والجزئي.

قبل أن نبدأ ببحث الجمال ومركباته بعد أن عرفناه علينا الإجابة على السؤال التالي:

هل خلق الله الكون والإنسان من أجل الجمال؟ أي هل هناك غاية جمالية في الطبيعة؟ فإذا كان كذلك فهذا يعني أن للجمال وجوداً مطلقاً ويفقد الجمال مفهوم النسبية والتطور وتصبح غاية المعرفة الإنسانية هي التعرف على جمال الطبيعة المطلق الموجود خارج الوعي، فبذلك تدخل علوم الفلك والفيزياء والكيمياء والطب تحت علم الجمال.

لقد أدرك الإنسان مفهوم الجمال المتطور دائماً. من خلال ادراكه لقوانين الجدل المادي في الوجود (الثنائية التناقضية والزوجية والضدية) التي تحكم الأشياء وظواهرها. فعندما ينظر الإنسان إلى ظواهر الطبيعة ومركباتها ويرى أن كل عنصر يقوم **بوظيفته ضمن قوانين ناظمة له فإن هذا الإدراك يولد الشعور بالجمال في جدل الإنسان. فعندما ننظر إلى العيون ذات الألوان والأبعاد الطبيعية ثم ندرك أن هذه** العيون فاقدة البصر فإنها تفقد جمالها في نظرنا، لأن العين في وعينا وجدت لتقوم **بوظيفة الإبصار. فالوظيفة هي أساس الجمال وبعد ذلك يأتي البعد والموقع ونوع المادة واللون التي هي مركبات الجمال، فالجمال شعور يتولد لدى الإنسان** الواعي لذا فهو خاصة ذاتية (Subjective) تتولد في الشعور الإنساني من جراء إدراك العالم الموضوعي والاجتماعي عندما يقوم بوظيفته التي نعيها طبقاً لدائرة معارفنا، **والقبح نقيض ذلك لذا فإن مفهومي الجمال والقبح غير مستقرين بل متطوران مع تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية «وهذه هي الحنيفية في الجمال».**

لنر الآن ماهي المكونات الموضوعية للجمال عند الإنسان والتي من خلال وعيها والحاجة إليها نمت مفاهيم الجمال عنده وتقلمت «تميز بعضها عن بعض». **إن مادة الجمال والقبح أي الجانب الموضوعي هي: الأصوات، الحركة، الألوان، الخطوط، النص اللغوي «الكلمة، الشعر، النثر، الصياغة اللغوية». والتي يظهر فيها كلها جدل الانفصال والاتصال الكلي والجزئي الموجودين في آن واحد في الموضوع المراد التعبير عنه فأول مادة من مواد الجمال والقبح هي الأصوات والحركات.**

إن السبب في دمج الأصوات والحركات معاً هو أنهما قديمين قدم **الإنسان على الأرض، وهما موضوعان مارس فيهما الإنسان مفاهيم الجمال لأنهما** يدخلان في تركيب جسم الإنسان ذاته أي هما أول ما عَرَفَ الإنسان، لأن له جهازاً

صوتيـاً، وأول ما ميـز العالم الخارجي الأصوات، فهي وسيلة التمييز حيث كان تقليد أصـوات الطبيعـة والحيـوان عنـد الإنسان لا يحتاج إلى وسيلة خارجية بل احتاج إلى جهاز صوتي موجود عنده، وكذلك أيضاً الحركات فجسم الإنسان متحرك جيئة وذهاباً يحرك يديه ورأسه ورجليه بمرونة كبيرة، لذا كانت ولا زالت الأصوات والحركات هي أكثر التعبيرات أصالة عن مفاهيم الجمال لقدمها، وكل الفنون التي تتعلق بالأصوات والحركات «الغناء والرقص والرياضة» هي من أكثر الفنون أصالة في تاريخ الإنسان. لذا لا يوجـد شعب من شعـوب الأرض من أكثـرهـا بدائية إلى أرقاها تحضراً إلا عنده الغناء والرقص «الصوت والحركة».

هذه الأصوات وعاها الإنسان منفصلة ومتصلة، فوعيه المنفصل لها جاء بتقليد الأصـوات الطبيعيـة كل على حدة وهـذا ما جاء التعبيـر عنه في الغناء المنفرد ووعاها بشكل متصل كمجموعة من الأصوات المختلفة النغم بعضها مع بعض في إيقاع أو بلا إيقـاع، وهـو ما جاء التعبيـر عنه أيضاً في الغناء الجماعي والذي كان يمثل التعبير عن موقف اجتماعي أو سياسي أو أخلاقي. «ظهر هذا الموقف عند العرب في الهجرة النبـويـة عنـد استقبـال النبي ﷺ في المـدينـة المنورة بغناء جماعي معبراً عن موقف فكري وسياسي».

أي أن الجمـال الجـزئي في الصوت والحركة «الغناء الفردي والرقص الفردي» جاء سابقـاً للغنـاء الجمـاعي والرقص الجماعي حيث أن الجماعية تحتاج إلى وعي متقدم على الفردية وتحتاج إلى مفهوم وموقف مشترك بين الجماعة التي تؤدي الدور الغنائي والـرقصي وبين الجماعة التي تشاهده ومع زيادة الوعي والحاجة إلى مواقف مشتركة ومفاهيم مشتركة أي زيادة درجة التقدم الاجتماعي عند الإنسان وزيادة التقدم العلمي بالمـوجـودات «الأصـوات، والحـركـات» نمـا وتشعب هذان الشكـلان من الفنون ففي جمال الأصوات حصل ما يلي:

ظهـور الآلـة المـوسيقيـة التي بدأت بأشكـال بدائيـة جداً كضرب العصا على الأرض ضرب العصا على عصا، أو ضرب كف على كف «التصفيق وهو أقدم تعبير موسيقي ما زال موجوداً عند الإنسان»، ضرب الرجل على الأرض ظهرت هذه الآلات مع نمـو المعـرفـة الإنسانية بالإضافة إلى البذور الفطرية الجمالية في الإنسان، فظهر جمـال الصـوت في الآلات بأن أصبـح هنـاك آلات ذات أصـوات مختلفـة، فهنـاك

الآلات الوترية والنافخة والإيقاعية «الطبل وما شابه» بحيث أصبح لكل آلة صوت جمالي خاص بها وظهر مع ظهور هذه الآلات مفاهيم النوتة الموسيقية للتعبير عن وحدة الموضوع بين الجزئي والكلي، كل آلة على حدة، والكلي في الآلات المختلفة وهي تعمل بعضها مع بعضها الآخر للتعبير عن موضوع معقد، ولم تظهر النواحي الجمالية في الموضوع المعبر عنه إلا من خلال عمل الآلات ككل متصل، علماً بأنه خلال العزف المتصل يظهر جمال المنفصل كل على حدة ضمن مقاطع منفصلة لكل آلة «البيانو، الكمان، العود» من هنا كانت الموسيقى والغناء من أكثر الفنون أصالة عند الإنسان لأنها أقدمها ظهوراً. أما الحركات فقد مارسها الإنسان البدائي بشكل حركات طبيعية تشبه الحركات التي كان يمارسها في العمل والصيد والجماع الجنسي لذا كانت حركات فردية بالأساس ثم مع نمو وعي العالم الموضوعي تطورت هذه الحركات وظهر منها نوعان من الفنون: النوع الأول الرقص، والنوع الثاني الرياضة، ففي البداية لم يجد الإنسان تمييزات واضحة بين الرقص كقيمة جمالية وبين الرياضة حيث أنهما كانا مندمجين بعضهما ببعض، ثم ظهر الانفصال بينهما «التقليم» من جراء تقدم المعرفة الإنسانية وبالتالي تقدم التقليم بين الأشياء ومن ضمنها الحركات.

فبتقدم الحركات إلى الرقص نتج نوعان من الرقص: الرقص الفردي والرقص الجماعي وهذا واضح في الرقص العربي وفي رقص الباليه وفي دور الراقصة الرئيسية في الرقص الجماعي وهذا واضح في تناسق الحركات بين الفردي والجماعي أي بين الواحد والمجموعة.

أما في الرياضة فقد ظهر بشكل واضح أكثر بين الرياضة الفردية والجماعية، فقد ظهرت الرياضة الفردية عند الشعوب قبل الرياضة الجماعية لأن الرياضة الجماعية تحتاج إلى وعي لتتقدم على الرياضة الفردية، فالرياضة الفردية ظهرت في ألعاب القوة والقوى والسباحة والسباق، والرياضة الجماعية ظهرت في ألعاب الكرات المختلفة. وفي الرياضة الفردية يظهر جمال الجزئي في الأداء، وفي الرياضة الجماعية يظهر جمال الكلي في التناسق والإيقاع في إخراج الموضوع «كرة القدم يظهر الموضوع في تسجيل الهدف» والجزئي في اللاعبين ذوي الأداء المتميز «المهارات الفردية».

أما عندما ندمج الصوت والحركة معاً فيظهر تعقيد إخراج الموضوع في الصوت والحركة وهذا واضح في فن الباليه. وبما أن الرياضة تعتمد فقط على جمال الحركة وبلوغ الهدف فيمكن أداؤها دون أصوات موسيقية حتى يومنا هذا، علماً بأنه يمكن مواكبة صوت البيانو مع بعض الحركات الرياضية المحدودة.

لنأخذ الآن موضوع الألوان والخطوط حيث تعتبر من المواضيع التي اهتم بها الفن التشكيلي (الرسم والنحت وفن العمارة). لقد تم دمجها بعضها ببعض لأن لها بداية تاريخية واحدة وهي كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل ٨١).

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلى حِينٍ﴾ (النحل ٨٠).

لقد عاش الإنسان قبل أنسنته عندما كان بشراً في الغابات وعندما بدأ ظهور الوعي وبدأت عملية الأنسنة كان يعيش في الغابات «جنة آدم» لقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (طه ١١٨). ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (طه ١١٩) ففي هذه المرحلة كانت الغابات تؤمن له المأوى ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ (النحل ٨١) وكانت تؤمن مرحلة حياتية متصلة مع المرحلة البهيمية، ثم انتقل بعد ذلك إلى العراء وكانت المرحلة الثانية مرحلة العراء والسعي وراء الطعام وهي مرحلة الصيد وكان سكن الإنسان في هذه المرحلة هو الكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْنَاناً﴾ (النحل ٨١) فعندما سكن الإنسان الكهوف متنقلاً من مرحلة الغابات عاش في جماعات متفرقة وكان عارياً لذا ذكر بعدها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (النحل ٨١) لأن الإنسان في بداية حياته في الغابات والكهوف كان يعيش في مناطق حارة ولم يصل بعد إلى المناطق الباردة. ففي البداية كانت للكهوف وظيفة عضوية فقط ضمن الحاجة الملحة آنذاك وهي الوقاية والاختباء من الأعداء ومن ظواهر الطبيعة والحيوانات المفترسة، وهكذا كان وعي الوظيفة العضوية للعمارة «وعي الجزء» سابقاً عن وعي الكل وهو انسجام الجزء مع المحيط الخارجي، أي انسجام الكهف مع المحيط الخارجي له علماً بأن هذا الانسجام كان موجوداً، ولكن لم

يلحظه الإنسـان لأنه لم يكن بحاجة إليه ولأنه لم يصل بعد مرحلة التجريد الجمالي حيث كان في مرحلة المجسم الوظيفي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ظهر الفن التشكيلي في مرحلة سكن الإنسان في الكهوف لسبب أساسي جداً وهو التعبير حيث كان الإنسـان يتكلم وعنـده جعبة معينـة من الكلمات للتعبير، والمعروف أن أساس الكـلام إلى يومنـا هذا هو الصوت فكان الإنسان يصدر تعابير صوتية «كلاماً» ولكنه لا يعـرف الأبجـديـة وهنا يكمن بيت القصيد، إذ أن الإنسان تكلم ووعى بعض الأجزاء المجسمة للعالم الخارجي «أشجار، حيوانات.. الخ» وأصدر لها تعابير صوتية تدل عليها ولكنه كان عاجزاً عن التسجيل إذ لا يوجد عنده أبجدية، فرسم ما أراد أن يعبر عنـه من مجسمـات بخطـوط بدائية بسيطة تنسجم مع وعيه ومع آلة الإنتاج لديه «أداة الحفر أحجار منحوتة» فكانت بداية الفن التشكيلي عند الإنسان هي بديل الأبجدية، لذا فإن الفن التشكيلي «رسم ونحت» يعتبر من أقدم الفنون أصالة عند الإنسان بعد الحـركـة والصـوت ولكنـه قبـل فن الكلمة «الشعر والأدب»: ونلاحظ هذا حتى يومنا هذا، إذ أن الطفـل يرسم قطـة أو كلبـاً بخطوط قبل ان يستطيع أن يكتب كلمة قطة أو كلب بحـروف ابجـديـة. والأبجـديـة القـديمـة هي أقـرب إلى المجسم «الأبجـدية الفؤاديـة» منهـا إلى المجـرد. مثـال ذلك الأبجدية المصرية القديمة «الهيروغلوفية» واللغـات التي ليس لهـا أبجـديـة مثل الصينية. وأثناء سكن الإنسان في الكهوف بدأ باستعمـال السـرابيـل للوقـايـة من الحـر وهي عبارة عن جلود الحيوانات التي وضعها الإنسـان على جسـده بدون مخيـط. لذا قال «سرابيل» وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ (ابراهيم ٥٠) فالقطران لا يخاط ولا يفصل، والسرابيل هي مواد للوقـايـة ولكن بدون تفصيـل وخيـاطة، إذ أن الإنسان في هذه المرحلة لم يعرف المخيـط بعـد، ففي الآيـة رقم ٨١ من سورة النحل تظهر وحدة الموضوع وهو مرحلة الإنسان القديم في الغابات والكهوف.

ثم انتقـل الإنسـان بعـد ذلـك إلى مرحلة السكن في البيـوت، والسكن من «سكن» وهو الهدوء والراحة، والسكن هو الوظيفة الأساسية للبيت. هذه البيوت كانت متنقلة أو ثابتـة ولكن لهـا نفس الـوظيفـة «السكن» كانت من جلود الأنعام أولاً وانتقل اللبـاس من السـرابيـل إلى أصـواف وأوبـار وأشعـار الأنعام ولكن هذا الاستعمال هو مرحلة من حيـاة النـاس وليس إلى أن تقـوم الساعة لذا قال: ﴿أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾

(النحـل ٨٠) وهنـا نرى كيف لعبت الأنعـام «تـذليـل الأنعـام» دوراً أساسياً في حياة الإنسان، إذ أنها كانت طعاماً له واتخذ من جلودها لباساً وسكناً ومن وبرها لباساً، وقد لعبت الدور الحاسم في الانتشار الواعي للإنسان عبر الأرض ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النحـل ٧) حيث كان لهـا الـدور الحـاسم في استقرار الإنسان وفي تنقله، واستمرار هذه الوظيفة حتى نهـايـة القـرن الثـامن عشـر، ولا زالت الأنعـام تلعب اليـوم الـدور الحاسم في طعام الإنسان ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل ٥).

من هذا العرض التاريخي نرى أن الخطوط والألوان أخذت تتطور باتجاهين:

- الخطوط: ١ ـ الكتابة ٢ ـ الفن التشكيلي ٣ ـ الفن المعماري.
- الألوان: ١ ـ الفن التشكيلي، ٢ ـ الفن المعماري.

والذي يجمع بين الخطوط والألوان معاً فقط هو الفن التشكيلي، إذ أنه يتشكل من خطوط وألوان فقط ليعبر عن موضوع معين فهو فن تعبيري كالكتابة تماماً.

أما الخطوط والألوان مضافاً إليها المادة فأخذ التعبير عنها في فن النحت. وأما الخطوط والألوان والمادة مضافاً إليها الحركة فتم التعبير عنها في فن العمارة.

فيمكن أن نجري التصنيف التالي:

١ ـ خط فقط = أبجدية + فن تشكيلي بداتي.

٢ ـ خط + لون = فن تشكيلي.

٣ ـ خط + لون + مادة «رخام، حديد، برونز» = نحت.

٤ ـ خط + لون + مادة + حركة = فن عمارة.

أمـا مراحـل السكن فقـد مرت بالمـراحل التالية. هنا يجب أن نميز بين البيت والسكن، فالبيت هو مكان السكن، والسكن هو وظيفة هذا المكان. فهذه المرحلة هي:

١ ـ مرحلة سكن الغـابـات وهي المـرحلة التي بدأ بهـا الانتقـال من الحـالـة البهيميـة «البشـر» إلى الأنسنـة وكان فيها العمل يدوياً بحتاً يعتمد على ما تلتقطه يداه من الغـابـات ومـا تفترسه يداه من الحيوانات وكان لاحماً نباتياً عارياً «أي كان نشاطه مقتصراً على الصوت والحركة الجسدية».

٢ ـ مرحلة سكن الكهـوف وفيهـا بدأ باستعمـال وسـائـل الإنتـاج البـدائيـة

«الأحجار» أي كان نشاطه فقط مقتصراً على الحركة والأصوات والخطوط البدائية بداية الفن التشكيلي وفيها بدأ باستعمال اللباس بدون مخيط وكانت مرحلة صيد الأنعام وغيرها حيث كانت برية غير مذللة. ونعتقد أن الإنسان اكتشف استعمال النار في هذه المرحلة.

٣ ـ مرحلة سكن البيوت الثابتة أو المتنقلة، في هذه المرحلة كان قد ذلل الأنعام واستخدم اللباس المخيط، وفي هذه المرحلة ظهرت الكتابة والألوان وظهرت العمارة كفن منفصل وظهرت الزراعة في بعض المناطق كنتيجة ضرورية لتذليل الأنعام كما في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف ١٢).

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف ١٣). هنا لاحظ وظيفة الأنعام: ١ ـ الطعام، ٢ ـ المواصلات، ٣ ـ اللباس.

ولكن قوله تعالى ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ﴾ هنا استعمل «إذا» أي أن الإنسان عرف الأنعام ولكن بين معرفته للأنعام وبين تذليله لها مضى وقت طويل لذا قال ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ﴾ ولو أن الإنسان استوى على الأنعام مباشرة حين معرفته لها لقال «اذ استويتم» عوضاً عن «اذا استويتم» هنا حسب ترتيب الآية وضع الفلك قبل الأنعام، فإذا أخذنا هذا الترتيب من الناحية الزمنية فهذا يعني أن الإنسان ركب الماء قبل أن يذلل الأنعام «فبركوب الماء وتذليل الأنعام انتشر الإنسان في الأرض» وهذا الترتيب منطقي من الناحية الموضوعية، فربط قطعتين من الخشب بعضهما ببعض بوسائل بدائية أسهل على الإنسان من تذليل حصان وحشي لأنه حتى يومنا هذا تستطيع أية مجموعة من الناس لا على التعيين وبدون خبرات مسبقة أن تربط قطع خشب بعضها بوسائل بدائية «أدوات حجرية وألياف طبيعية» ولكن لا تستطيع أية مجموعة من الناس تذليل حصان وحشي دون خبرة مسبقة وإني أرى هذا الترتيب منطقياً من الناحية العلمية، لذا نرى أن أول سفينة صنعها الإنسان هي في قوم نوح ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ (هود ٣٨). بوسائل انتاج بدائية «أحجار» وألياف طبيعية لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر ١٣) والدسر هي الألياف الطبيعية

الطـريـة. هذا في قوم نوح، أمـا قوم عاد الذين جاؤ وا بعد قوم نوح من الناحية الزمنية قال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٢ - ١٣٣) الأنعـام والأبنيـة، لاحـظ الربط بين الأنعام والأبنية حيث كانت معلومة لديهم من هود لأنه قال ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾. (الشعراء ١٣٢). علماً بأنه لم يذكر الأنعام مطلقاً مع قوم نوح، حيث قال عند نوح: ﴿يُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح ١٢) وهنا قال ﴿أَمَدَّكُم﴾ حيث لم يكن في زمن نوح أمـوال وبنـون ولكن هذه كانت من نبـوة نوح. أي أن بداية الاستقرار وتذليل الأنعام والبناء كانت من عاد الأولى أي عاد قوم هود.

أمـا الآن فلنأخـذ العـلاقة الجدلية في الجزء والكل «المنفصل والمتصل» في العناصر المذكورة أعلاه أي الخطوط والألوان والمادة والحركة.

- الخطـوط: قلنـا إن الخطوط هي بدايات الفنون التشكيلية، فبدأت الخطوط بدايـة وظيفيـة أي تعبيـراً عن شيء مادي مجسم بطـريقة بدائية، في هذه المرحلة لم يكن للمفاهيم الجمالية أي وجود منفصل في الفكر الإنساني وإنما كانت الحاجة هي الـدافـع لذلـك ففي هذه المـرحلة كانت الـوظيفـة والجمال في حالة دمج كامل دون وجود أي تمييز بينهما وذلك لسببين هامين:

١ - قصـور المعـرفـة الإنسـانية حيث كانت مقتصرة على الإدراك الفؤ ادي أي معـرفـة المجسمـات من ظواهـر الطبيعـة والحيـوانـات والأشجار والتي كان يحتاجها الإنسان والتي كان يخافها أحياناً علماً بأنه في هذه المرحلة كانت الأصوات المتميزة موجـودة لدى الإنسـان أي أنـه قادر على إصدار أصوات متمايزة وعنده جعبة معينة من الكلمـات وكـان التجـريـد في بدايتـه «أي وجـود مفهوم الذنب والتوبة» وهو من أقدم المفـاهيم المجـردة عنـد الإنسـان حيث سبق مفهـوم القبـح والجمـال وهذا المفهوم المجـرد للذنب والتـوبـة مرتبط مع الخوف من الطبيعة والحاجة إليها وهنا حصل هذا التشويش في الفكر الإنساني في الخلط بين الله سبحانه وتعالى وبين ظواهر الطبيعة فظهرت الوثنية الطبيعية التي تعتبر أقدم مرحلة من مراحل الوثنية وهي وثنية قوم نوح.

٢ - قصور وسائل الإنتاج والمواد المتوفرة حيث أن المفاهيم الجمالية بالإضافة إلى المعرفة تحتاج إلى وسيلة إنتاج مثل الإزميل والفرشاة وتحتاج إلى مواد مثل الطين والأصبغة.

لقد بدأ التمايز في الخطوط بين الوظيفة والجمال في مرحلة لاحقة وذلك عندما بدأ الإنسان باستعمال الخطوط من الناحية الوظيفية فقط في اختراع الكتابة، ومن الناحية الجمالية في الرسم علماً بأن هناك مرحلة انتقالية خلط فيها بين الكتابة والرسم مثل الأبجدية الهيروغلوفية، وهذا ما تؤكده الحضارات القديمة في مصر والصين والهند وما بين النهرين.

إن الإنسان بدأ بالتمييز بين الكتابة والرسم في مرحلة متأخرة وليس ما قبل التاريخ، أي في مرحلة كان فيها مستقراً يعرف الزراعة والبناء «الأنعام والبنين». في هذه المرحلة الحضارية بدأ التمييز بين الكتابة والفن التشكيلي والنحت والعمارة. ففي الخطوط فقط «الأبجدية» ظهر الجمال منفصلاً في الحرف وهذا ما نراه حتى يومنا هذا إذ أن معظم أبجديات أهل الأرض مقطعة كل حرف على حده وكانت الغاية الجمالية بكل حرف على حدة ولم يظهر الكلي والجزئي إلا في أبجديات مثل الأبجدية العربية حيث يكوّن الحرف وحده وحدةً جماليةً وفيها الحرف المتصل مع الحرف في الكلمة والجملة، وهذه الخاصية أتاحت للخط العربي أن يكون فناً قائماً في ذاته أي لو كان الخط العربي منفصلاً فقط لما ظهر الفن المتقدم في هذا الخط. حيث نرى في الآثار العربية إلى يومنا هذا لوحات الخط كظاهرة فنية قائمة في ذاتها وبارزة أكثر بكثير من مثيلاتها في الحضارات الأخرى لأنها حوت جمال المنفصل والمتصل حيث أنهما موجودان في بنية الخط العربي، وهذا أيضاً انعكس على الرسوم الهندسية في حفر الخشب والأحجار حيث نرى أنها عبارة عن تداخل الخطوط بعضها ببعض لتعطي جمالاً في الشكل الهندسي المنفرد «مربع، دائرة، معين..» وفي النسب بين أبعاد الشكل وجمال المتصل في ربط الأشكال الهندسية بعضها ببعض وماهي إلا تطوير لجمال الخطوط الأبجدية على الأشكال الهندسية المعروفة حيث أننا نرى إبداع الفن العربي في الخط والأشكال الهندسية ونسبها وبروزه في الحضارة العربية عنه في بقية الحضارات. وهكذا نرى أن بداية الخطوط كانت وظيفية بحتة ثم أضيفت إليها النواحي الجمالية، فالوظيفة هي الأساس والجمال هو العرض الطارىء على الوظيفة والمتطور طبقاً للحاجة والوعي الوظيفي.

ـ الفن الثاني من الخطوط هو الفن التشكيلي «الرسم»:

قلنا إن بداية الرسم كانت وظيفية بحتة وهي كظاهرة بديلة عن الكتابة وسابقة

لها. ولكن بعد ظهور الكتابة انحسر دور الرسم كوظيفة وبقي كتعبير رمزي في البداية ثم كتعبير رمزي وجمالي فيما بعد. فالتعبير الرمزي للرسم كان يتمثل في العقائد الوثنية حيث صار الإنسان يرسم تصورات عن الآلهة وعن الحياة وعن الموت وعن القحط والإخصاب وهذا نراه واضحاً في الحضارة المصرية التي ملأت الرسوم مدافنها ومعابدها ثم استعملت أيضاً الرسوم للتعبير عن الشجاعة والانتصارات العسكرية في المعارك وهذا واضح في حضارات ما بين النهرين حيث كانت الرسوم تعبيراً عن موضوع معين وكانت تعبيراً عن وظيفة معينة ترمز لعقيدة أو سلوك والمفهوم الجمالي كان ثانوياً في هذه المرحلة، فالجزئي في هذه الرسوم كانت عناصر الموضوع نفسه كالجندي والسيف والقائد والسهم، والكلي كان الموضوع نفسه المعركة والنصر، والجزئي كان أيضاً عناصر الحياة بعد الموت، والكلي هو موضوع الحياة بعد الموت. أي أن الرسم تطور مع تطور العقائد الدينية والوثنية حتى بلغ قمته في العالم القديم في الحضارة الرومانية والحضارة الإغريقية وهذا ما أثر تأثيراً بالغاً على الفن الكنسي عندما تبنت الدولة الرومانية الديانة المسيحية حيث نرى أروع اللوحات الفنية هي لوحات متعلقة بالعقيدة الدينية المسيحية وتعبر عنها إلى أن جاء عهد النهضة واتجه الفن اتجاهاً جمالياً في الفنون التشكيلية التي تعبر عن الجمال في الطبيعة والإنسان والمواقف الإنسانية.

أما الخطوط والألوان معاً، فقد استعملت الألوان حين توفرها لأنها بحاجة إلى معرفة وإنتاج وكان استعمالها متوقفاً على توفرها ولكنها أعطت تميزاً واضحاً للأشكال المرسومة.

ـ الخطوط والمادة «النحت»:

استعمل فن النحت انطلاقاً من وعي الإنسان للنسب البعدية وتقدم آلة الإنتاج الإزميل والمطرقة. وقد وعى الإنسان النسب البعدية قبل تقدم وسائل الإنتاج وذلك بأنه باشر باستعمال النحت من الطين، إذ بدأ بفن المجسم من مواد أولية متوفرة في الطبيعة بكثرة وقابلة للطواعية باليد أو بأبسط أدوات الإنتاج وهذا واضح في أن عصر النحت الطيني الفخاري سبق عصر النحت الحجري ولا عجب أن أول الكتابات نقشت على الطين وهكذا يعتبر الطين أول ما استعمل من الأدوات القرطاسية، فالقرطاس بدأ بالطين ووصل إلى شريط الفيديو ولوحة الكومبيوتر في يومنا هذا،

فالطين قرطاس وشريط الفيديو قرطاس أيضاً من حيث الوظيفة «القرطاس هو ما يسجل عليه» هنا نرى أن بداية فن النحت كانت وظيفية بحتة لأن الضرورة الأولية لها هي حاجة الإنسان إلى القرطاس ليسجل عليه. من هذه النقطة بدأ النحت يتطور مع تطور وعي الإنسان للنسب البعدية وتطور أداة الإنتاج بحيث بدأ الإنسان يتعامل مع مواد غير الطين مثل الحجر والرخام علماً بأن العرب في شبه جزيرة العرب كانوا بدائيين جداً في فن النحت والخط والرسم حتى ظهور الإسلام. وقد وجه الإسلام الطاقات الفنية الهادفة طبقاً لمستوى التطور التاريخي الذي كان يعيشه العرب.

ومع تطور النسب البعدية وأدوات الإنتاج تطور النحت وابتعد عن مفهوم القرطاس ليعبر عن مفاهيم جديدة دينية واجتماعية وذلك في العقائد الوثنية القائمة على تعدد الآلهة، فأصبح لكل إلاهٍ نحت خاص به، وفكرة النحت للآلهة إلاه المطر والحب وإلاه الجمال.. الخ هذه التعددية التي قال عنها القران ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ (الأعراف ٧١) حيث نرى أن مفهوم التعدد في الآلهة والنحت لكل إلـه كان موجداً تاريخياً في قوم عاد حيث كانت وسيلة الإنتاج متوفرة بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء ١٢٨). بينما كان قوم نوح يعبدون مظاهر الطبيعة «لأن الاسم جاء من فعل وسم ليس من فعل سمو». وقد نمت هذه الظاهرة في الحضارات المصرية وما بين النهرين والهند والصين ثم في الحضارة الإغريقية والرومانية لأن الجذور التاريخية لظهور النحت كانت عند الإنسان هي وظيفته أولاً ولم تظهر النواحي الجمالية في النحت إلا بعد أن استوعب الإنسان النسب البعدية وتقدمت وسائل الإنتاج. فالجزئي في النحت يظهر في دقة نحت أجزاء الجسم مثل اليد والعين والفم وجمال الكلي في تكامل الأجزاء ضمن نسب مطابقة للنسب الطبيعية.

- فن العمارة:

ظهر فن العمارة انطلاقاً من أشد الغرائز قوة في الإنسان وهي غريزة البقاء وسعي الإنسان غير الواعي للحفاظ على حياته، ثم انتقل هذا السعي إلى رغبة واعية، فسكن الإنسان أولاً الغابات في المناطق الحارة ثم انتقل إلى الكهوف ونشأت في وعيه وظيفة أساسية للكهوف هي وظيفة السكن «والسكن من فعل سكن» وهو الهدوء والراحة والنوم بشكل مطمئن فيه على أغلى ما عنده وهو الحياة. لذا تدرج

السكن في القرآن في الغابات ثم في الكهوف، فكانت الكهوف أول سكن له جدران طبيعية وسقف ومدخل وهذا ما نراه في الحياة الحيوانية إلى يومنا هذا، إذ أن كثيراً من الحيوانات تأوي إلى قمم الأشجار كالطيور والقرود ومنها ما يأوي إلى الكهوف ومنها ما يحفر أنفاقاً في الأرض. لذا فبداية السكن عند الإنسان كانت وظيفية إلى آخر الحدود ولم يكن للجمال أي دور فيها. وهذه هي الوظيفة الأولى للسكن إلى يومنا هذا فنرى الإنسان الواعي قد قلد الحيوانات في الحفر في الأرض، فبنى الأنفاق للمرور والملاجىء ضد غارات الأعداء. والله سبحانه وتعالى غرز حب البقاء في الإنسان وجعل الطبيعة مطواعة له للحفاظ على هذه الغريزة **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾** (الجاثية ١٣).

إن غريزة حب البقاء التي أخرجت آدم من الغابة «الجنة» حين وسوس إليه الشيطان وأغراه بغريزة البقاء بقوله تعالى: **﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَىٰ﴾** (طه ١٢٠) فأغراه بصفتين مضادتين للموت وهما الخلود والفناء بقوله «لا يبلى» فلو كان آدم لا يعرف الموت والبلاء لما استجاب إلى وسوسة الشيطان أي أنه كان موجوداً في وسط فيه موت يرى الأشجار والحيوانات تموت والأشياء تبلى. وهل يمكن إغراء أحد بشيء لا يعرفه؟!

لقد كان انتقال الإنسان من السكن في الكهوف ومن مرحلة الصيد مربوطاً بتذليل الأنعام حيث أن تذليلها يمثل أكبر نقلة نوعية في تاريخ سكن الإنسان ونمط حياته حيث انتقل إلى مرحلة الزراعة واستعمال الأنعام في العمل وفي الطعام، لذا فإنه لا يمكن من الناحية التاريخية فصل الأنعام عن فن العمارة وهذا واضح في قوله تعالى: **﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾** (الشعراء ١٣٣). هنا نلاحظ كيف ربط الأنعام بالأبنية حيث أن «البنين» جاءت من «بنن» في اللسان العربي.

ـ ملاحظة: هذه الآية فيها وحدة الموضوع، فأي موضع يوحد بين الأنعام والبنين إذا فهمنا أن البنين هم الذكور من الأولاد. والموضوع الذي يوحد بينهما هو أن البناء واستقرار الإنسان ارتبط بالأنعام. ثم لاحظ وحدة الموضوع في قوله تعالى: **﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** (الكهف ٤٦) هنا الأموال المتحركة والثابتة «الأبنية» هي زينة الحياة الدنيا وليس الأموال والذكور من الأولاد لأن التأويل لا يحوي وحدة الموضوع ولا يطابق الحقيقة الموضوعية فيصبح الخبر كاذباً. بعد تذليل الأنعام

وظهور الزراعة وبالتالي ظهر مفهوم التمويل عند الإنسان ومن هنا جاءت كلمة الأموال من التمويل حين وعدهم نوح في نبوته ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح ١٢) حيث ربط التمويل من المواد الغذائية بالأبنية وبدأ البناء يأخذ ملامحه كعمارة وفن معماري بالإضافة إلى الوظيفة. فباستقرار الإنسان بدأت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تتطور من أسرة إلى مجموعة من الأسر «العشيرة» ثم القبيلة ثم ظهور مفهوم السلطة والدولة وهذه الظواهر الاجتماعية تتطلب نوعاً من الأبنية له وظائف تستجيب للمتطلبات الجديدة ويمكن تنفيذها بأدوات الإنتاج المتوفرة.

فأول أداة إنتاج متوفرة لدى الإنسان كانت العمل اليدوي للإنسان نفسه ولم يستغل العمل اليدوي للإنسان نفسه على مر التاريخ كما استغل في فن العمارة «لاحظ حجم العمل اليدوي المصروف في الأهرامات ومعبد الكرنك ولم تظهر عبودية الإنسان في أشنع أشكالها كما ظهرت في العمارة والسكن والحماية من الأعداء بالنسبة للملوك والفراعنة.. الخ» هنا يجب أن نفهم ظاهرة في غاية الأهمية وهي أن عرب قلب شبه جزيرة العرب كانوا بدواً رحلاً وكان مكان إقامتهم هو الصحراء وبيوتهم جلود الأنعام وأوبارها وليس الحجر المنحوت إلا بعض بيوت الطين في مكة ويثرب ولا يوجد عندهم قصور للملوك أو رؤساء القبائل ولم يكن عندهم ملوك أصلاً حتى الكعبة كانت عبارة عن مكان صغير من الأحجار المرصوفة بعضها فوق بعض.

وكان العرب وخاصة في الحجاز ونجد وعسير والاحساء «قلب شبه جزيرة العرب» على علم بالحضارات التي تحيط بهم وما فيهامن أبنية ضخمة وكانوا يعلمون تمام العلم أن هذه الأبنية شيدها أناس مستعبدون لأسيادهم وملوكهم. ونحن نعتقد أن هذا هو السبب الجوهري الكامن وراء احتقار العرب في شبه الجزيرة العربية للعمل اليدوي، إذ أنه مرتبط في أذهانهم بالعبودية دون توهم أو مبالغة، وكان هذا فعلاً من الناحية التاريخية وهو مبرر في ذاك الوقت. أما الآن فلا يوجد أي مبرر لاحتقار العمل اليدوي.

هذه الظاهرة نشأت ليس بسبب عدم حب العرب للعمل أو الأنفة كما يرى البعض، ولكن بسبب أعمق من ذلك وهو ارتباط العمل اليدوي بفقدان الحرية في ذاك الوقت وليس بالأمر العجيب أبداً أن تأتي الرسالة السماوية إلى هؤلاء الناس الذين لم يكبلوا بالعبودية ولم يعتادوا عليها حيث كانت الحرية تعني الكثير بالنسبة

إليهم، وكـذلـك نفهم قولـه تعالى : ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام ١٢٤) هذا بالإضافة إلى أصالة اللسان العربي الذي كانوا يتكلمونه والذي هو لسان الرسالة والنبوة. واعلم أن كل الثورات في العالم لا يقودها إلا الأحرار.

الآن يمكن أن نقـول إن العمـارة وظيفـة أولاً، وتتألف من دمـج العناصر التالية لإخراج الوظيفة، ثم جاء المفهوم الجمالي ثانياً.

الخط + اللون + المادة + الحركة = الوظيفة المعمارية والجمال المعماري.

فالخـط ظهـر بوعي الأشكـال الهنـدسية «خط مستقيم، منحنٍ» والتناسب بين الخطوط المستقيمة بعضها مع بعض والمنحنية بعضها مع بعض.

ـ **اللون** : ظهـر بتقـدم المعـرفة الإنسانية بالألوان وصناعتها، لذا كانت العمارة القديمة ذات الوان طبيعية بحتة ثم ظهرت الألوان الصناعية.

ـ **المادة** : بدأت بالطين وتطورت استعمالاتها من حجر وغرانيت ورخام ومعادن مختلفة ثم مواد مصنعة كالبيتون والمواد البلاستيكية.

ـ **الحركة** : ظهر تشعب الوظائف من الكهوف الذي هدفه المبيت فقط واللجوء إليه عند الخطر فقط، وقد رافق هذا التشعب التقدم المعرفي للطبيعة وقوانينها والتقدم في وسـائـل الإنتـاج والـذي نتـج عنـه تشعب الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية وظهور التشريع والدولة فكان هناك المعبد وساحة السباق والقتال وقصر الملك والمقابر «علماً بأن أول ظاهـرة اجتمـاعيـة تعـامل فيها الإنسان مع الأرض بوظيفة محددة هي ظاهرة دفن الموتى لذا فإن أقدم الآثار للإنسان توجد في المقابر».

لقـد كان وعي الجـزء الوظيفي في العمارة سابقاً وبالتالي كان الجمال مقتصراً على الـوحـدة المعمـاريـة حيث وعى الإنسـان جمال الجزء الوظيفي، فنرى المعبد والقصـر وبيـوت النـاس والمقـابر مبعثرة هنا وهناك دون وجود أي نسق بينها حيث كل واحـدة منهـا تقوم بوظيفتها على حدة ولم يأت ربط الوظائف المختلفة بعضها ببعض إلا في مرحلة متأخرة بعد نشوء الدولة وتقدمها.

فأول ما ظهـر الـربـط عنـد الإنسان ظهر بشكل موضوعي عملي وهو الربط بين أماكن السكن حيث ظهر مفهوم الطريق، هذا المفهوم تطور حتى أصبح أحد العوامل المسيطـرة على تنظيم المـدن، فأول ما نبـدأ بتنظيم أي مدينـة نبـدأ بشبكـة الطـرق وبمداخلها أي بربطها مع بقية المدن والمراكز الصناعية والزراعية. في هذه المرحلة

ظهر فن العمارة الكلي المتناسق والذي يربط الوظائف المختلفة بعضها ببعض، وما كان لهـذه المـرحلة أن تظهـر دون ظهور الطرق ووسائل الاتصال كعناصر أساسية في حياة الإنسان.

فبالبداية كان الجمال في الوظيفة «الجزء» «الوحدة المعمارية» ثم أضيف إليه الكل. وفن العمارة الآن ما هو إلا علاقة جدلية بين الوظيفة في «الجزء» والتناسق مع المحيط الخارجي «الكل». وكما قلنا إن العقائد والأخلاق والعادات تؤثر على الفن المعمـاري، أي أن هنـاك علاقة جدلية خارجية «تأثيراً متبادلاً» بين العقائد والأخلاق والعادات وبين مفاهيم الجمال كلها من رقص وموسيقى ورسم ونحت وفن عمارة وكل الفنون. هذه العلاقة كان لها التأثير الكبير على كل الفنون بما فيها فن العمارة ومنه فن العمارة العربي الإسلامي الذي تأثر بالعقيدة الإسلامية تأثيراً بالغاً.

ـ **جمال الكلمة**: إن جمال الكلمة «التعبير عن الموضوع بشكل لغوي» يعتبر أرقى أنـواع الفنـون الإنسـانيـة قاطبـة والذي لا يرقى إليه أي فن آخر فهو ملكة الفنون كلها. قد يسأل سائل: لماذا؟ فأقول ما يلي:

١ ـ إن اللغة هي أداة الفكر والاتصال ولا يمكن لأي إنسان أن يفكر لوحده أو يعبر عن نفسه إلا ضمن إطار لغوي، ونشوء اللغات وتطورها مرتبط مباشرة بنشوء الفكر وتطـوره «أقصـد هنـا اللغـة المنطـوقة لا المخطوطة» لأن التعبير المادي عن اللغة هو الأصـوات لا الخطـوط ومـا الخطوط إلا اصطلاحات لتسجيل الأصوات وهي اختراع إنسـاني، أمـا اللغـة فهي ليست اختـراعـاً وليست إلهـاماً، وإنما خضعت في نشأتها لقوانين صارمة وهي كونها أداة التفكير والتعبير.

٢ ـ بمـا أن اللغـة أداة التفكيـر والاتصـال لذا فهي أوسع وأسهل أداة يمكن أن يتصـل فيهـا متكلم مع سامـع، فالبث الإذاعي والتلفـزيـوني ومحاضرات الجامعات والمـدارس والبيـع والشـراء لا تتم إلا عن طريق الكـلام الإنسـاني ولا تتم عن طريق الصـور واللوحـات والحـركات، حتى إن الإنسان يفضل سماع برنامج دون صور عن مشـاهـدة برنـامج فيـه صور دون صوت. أي أن اللغة هي الوسيلة التي يتم بها أوسع أنواع الاتصال مع الناس.

٣ ـ هذه اللغـة التي بدأت من تقليـد صوت الطبيعـة والحيوانات ثم قفزت إلى التجـريـد في التعبير عن المعاني المادية والمجردة ووصلت إلى مرحلة الإبانة «لسان

عربي مبين» أي قدرة التعبير واستيعاب أدق خصائص الأشياء المادية والمشخصة في العالم الموضوعي «اللغة العلمية» والوصول إلى أدق المعاني في التعبير عن الأحاسيس والشعور والعلاقات الإنسانية المجردة مثل الشجاعة والجبن ومثل الحب والكراهية والجمال والقبح والكرم والبخل والعدل والظلم والبر والإحسان والأنانية والاعتزاز والعبادة والأمر والنهي والتي استطاعت أن تستعمل في تعبيرها وأدواتها كل أنواع البيان من كناية واستعارة وتشبيه وسجع وإيقاع موسيقي. هذه اللغة المنطوقة لا يمكن أن يجاريها أو ينافسها ريشة فنان أو يد نحات أو نوتة موسيقية أو رقصة باليه، حتى الفنان التشكيلي أو النحات والموسيقي والراقص فإنهم يفكرون بألوانهم وتماثيلهم ونوتاتهم الموسيقية وحركاتهم الراقصة ضمن إطار لغوي أولاً.

لننظر إلى جمال اللغة، فكما قلنا إن اللغة أداة التفكير والاتصال لذا فهي تعبر عن المعلومات والشعور والأمر والنهي في بنية لغوية صوتية لإيصالها إلى الآخرين. فإذا فقد الكلام هذه الوظيفة يصبح مجرد أصوات لا معنى لها أي أصوات لها وجود تحسه الآذان دون أن يكون لها أي مدلول في الفكر لذا قلنا سابقاً إن البلاغة في القول والفصاحة في الكلام. فالجمال في بداية نشأة الكلام الإنساني كان مندمجاً مع الوظيفة دون تفريق بينهما وما زالت الوظيفة موجودة حتى يومنا هذا، ولكن تقدم الفكر الإنساني ليميز بين وظيفة اللغة وجمالها. فالإنسان القديم لم يميز في اللغة بين جمالها ووظيفتها، أي لم يستعمل الأوجه البيانية في وصف الجمال والحب.. الخ إذ أن هذه المفاهيم تحتاج إلى لغة متطورة، وقد توفر هذا في اللسان العربي عند نزول القرآن، إذ كان قد وصل في مراحل تطوره إلى مرحلة الإبانة «لسان عربي مبين» حيث كان قادراً على التعبير عن أدق المعاني بغنى المفردات وكمال البنية الوظيفية والبنية الجمالية في الاستعارات والتشبيه والكنايات.

فعندما ننظر إلى جمال الكلمة يجب أن ننطلق إلى ما يلي:

- إلى الألفاظ والبنية النحوية وذلك في ربط الألفاظ بعضها ببعض وهدفها خدمة المعاني، وأن المعاني هي المالكة سياستها وعندما ينسى القائل أنه يقول ليبين فهذه ليست لغة وإنما هراء. فهنا يظهر جمال الجزء في اللغة وهو انتقاء اللفظة المناسبة بحيث لا توجد لفظة أخرى تحل محلها لتؤدي المعنى المطلوب بدقة، ومن ثم انتقاء الجملة أي ربط الألفاظ بعضها ببعض «مسند ومسند إليه» بصيغة مبني

للمعلوم أو مبني للمجهول أو بجملة اسمية أو جملة خبرية ابتدائية أو غير ابتدائية.
كل هذه الانتقاءات هي انتقاءات وظيفية لأنها تؤدي المعنى المطلوب بالدقة التي يريد المتكلم أن ينقلها للسامع وهذه هي عين البلاغة وليست البلاغة أكثر من ذلك ولا أقل، أما جمال الكل فيظهر في اللغة في استعمال الأدوات البيانية «الاستعارة والتشبيه والكناية والسجع.. الخ». هذه الأدوات تظهر جمال الكل ولكن ليس على حساب المعنى «البلاغة» وإنما بالعكس لخدمة المعنى حيث أنه عند استعمال هذه الأدوات فإن المعنى يصل إلى المستمع بشكل أسرع وأدق لأن الأدوات البيانية هي من خيال المتكلم وهذا واضح في الشعر لخدمة المقصود من القصيدة من معنى مراد نقله من خلال صور تساعد المستمع على الفهم وتحريك مشاعره انطلاقاً من صدق الخبر وجمال التعبير عنه.

٤ ـ لذا فإن الشعر والأدب عموماً هما أعلى أنواع الفنون الإنسانية قاطبة لأنهما قادران على الوصول إلى أكبر عدد من الناس وبأسهل الطرق عن طريق التعبير بواسطة آلية الفكر الإنساني «اللغة» وما رافق هذا التعبير من خيال وصور مسكوبة بقالب لغوي متماسك، كما أنهما قادران على اختراق كل العوائق المادية «لأنها لغة منطوقة وليس لوحة أو تمثالاً» للوصول إلى أحاسيس الناس وآلامهم الاجتماعية والاقتصادية. ومن هنا نرى أن الكلمة هي أخطر أعداء الحكومات الدكتاتورية، فهي تلاحق من قبلها مع المسرح أكثر من فنون الرسم والنحت والتصوير والرقص والموسيقى.

ومن ناحية ثانية يرقى الشعر والأدب عن الرسم والنحت والرقص فضلاً عن كونه مرناً مرونة الكلمات والجمل بأنه فن متحرك وليس ساكناً حيث مادته الكلمات والبنية اللغوية أما مادة الرسم فهي الألوان وتناسق الخطوط ومادة النحت المعادن والحجارة ومادة الرقص الحركات الجسمية ومادة الموسيقى الأصوات غير اللغوية وكل هذه الفنون لا تحوي مرونة وحركية اللغة، أي أن لها عطالة أكبر من عطالة الكلمات في الوصول إلى الموضوع المعبر عنه وفي الوصول إلى عقل وأحاسيس المستمع.

وبما أن الموسيقى هي مجموعة النغمات الصوتية المختلفة المنسجمة بعضها مع بعض لإخراج موضوع متكامل «كتاب» فهي أقرب الفنون رقياً إلى الشعر والأدب أي تلي الشعر مباشرة في الرقي. والله سبحانه وتعالى ترك مجالاً للموسيقى في

المشاعر الإنسانية حين تعجز اللغة أن تعبر عنها.

فعمالقة الشعر مثل شكسبير وبوشكين وأبو الطيب المتنبي يليهم عمالقة الموسيقى دخلوا إلى حياة شعوبهم وشعوب العالم أكثر من النحاتين والرسامين والراقصين.

من هذا المنطلق نرى أن اجتماع ملكة الفنون وهو الأدب من نثر وشعر يليه الموسيقى ثم الحركة ثم اللون، هذه الفنون مجتمعة توجد في المسرح، ففي المسرح يوجد النص اللغوي وفيه الحركة «حركة الممثلين» وفيه الألوان «الديكور» واللوحات ولكن أضعف نقطة فيه هي الموسيقى لأنها تلي الكلمة في رقيها، وبما أن المسرح يقوم على قوة الكلمة «النص» فلذلك لا داعي لقوة الموسيقى أو لوجود الموسيقى أصلاً في المسرح. فالمسرح هو ملكة الفنون قاطبة لأن الجزء الرئيسي منه هو قوة الكلمة مضافاً إليها الفنون الأخرى، فعندما يكون النص المسرحي قوياً في وظيفته «يعبر عن موضوع يهم الناس» وقوياً في بنيته أي في بنية النص «بنية الجمل والحوار» قوياً في ألفاظه قوياً في أدائه «قوة وبراعة الممثلين» في هذه الحالة يمكن تقديم مسرحية في حديقة عامة لا على خشبة المسرح وستلاقي القبول الهائل ففي المسرح يظهر بشكل رائع جمال الكل والجزء في وحدة جدلية وهي قوة الموضوع في النص أو القصيدة وجمال الجزء في الجمل المنفصلة وفي أداء الممثلين. فعلى كل شعب متحضر أن يفخر بشعرائه وأدبائه وفنانيه فخراً لا يقل أبداً عن فخره بعلمائه «علماء الهندسة والطبيعة والفلك.. الخ» لأن الفنانين وعلى رأسهم الشعراء والأدباء والموسيقيين وعلماء الطبيعة والطب والهندسة هم صانعو الحضارة بمفهومها الروحي، أمّا العمال والمهندسون والفلاحون فهم صانعو الحضارة بمفهومها المادي، وما الزعماء السياسيون إلا منفذين ومعبرين عن رغبات هؤلاء الصانعين العمالقة.

- مفاهيم الجمال في الإسلام:

هل منع الإسلام الشعر والأدب والموسيقى وسائر الفنون وما هو موقفه منها؟

لقد كان الإسلام نقلة نوعية في تاريخ الإنسانية عامة وفي تاريخ العرب

خاصة، إذ نقل الناس نوعياً من مستوى إلى مستوى آخر في العقيدة والنظرة إلى الكون والحياة الإنسانية وفي التشريع وفي العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وفي الأخلاق وفي الفنون أيضاً.

لننظر الآن إلى موقف الكتاب من الفنون:

١ ـ الموقف من الشعر والأدب:

قلنا إن الكتاب جاء لغة منطوقة «الذكر» وكما قلنا إن الكلمة هي أرقى الفنون الإنسانية قاطبة، فقد جاءت صياغة الكتاب صياغة كلامية أي على شكل أرقى الفنون، ولم يمنع الكتاب الشعر والقصة وكل فنون الكلمة الأخرى ولم ينتقد الشعر والأدب، ولكنه انتقد ظاهرة عدم الالتزام في الشعر والأدب فقال: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** (الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٦) من هذه الآيات نرى أن الكتاب استنكر ظاهرة عدم الالتزام من الشعراء، أي انتقد الشعر غير الملتزم والذي يؤدي بدوره إلى ظاهرة الارتزاق بالشعر «الشعراء المرتزقة».

٢ ـ الموقف من النحت:

لقد وقف الإسلام من النحت موقفاً دقيقاً وهو:

لقد سمحت العقيدة الإسلامية بالنحت ولم تمنعه مطلقاً، فنرى أن استنكار إبراهيم على قومه كان عبادة الأصنام لا صنعها وهذا واضح في قوله: **﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾** (الصافات ٩٥) **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾** (ابراهيم ٣٥). ان الموقف العقائدي الإسلامي هو تجنب عبادة الأصنام بصورة خاصة وتجنب الوثنية بصورة عامة، فالوثنية هي دين، وعبادة الأصنام هي أحد مظاهر هذا الدين. والديانة الوثنية هي أن تعبد مظاهر الطبيعة من شمس وقمر وأنهار وبحار وشجر وبرق ورعد وأصنام وتماثيل. فإذا كان هناك أناس يعبدون الشمس، فهل نفجر الشمس ونزيلها لنمنعهم من عبادتها؟ وكذلك القمر والبرق والرعد، فهل نمنع ظاهرة البرق والرعد في الطبيعة لنمنع الناس من عبادتها؟! هذه هي الوثنية والتي تعتبر ظاهرة عبادة الأصنام أحد مظاهرها.

لقد وضع الإسلام الحل الحاسم لهذه الظواهر وذلك بقوله تعالى: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾** (الحج ٣٠) قال الأوثان ولم يقل الأصنام لأن الأصنام أحد

مظاهر الوثنية. ثم لنلاحظ قوله تعالى: ﴿الرِّجْسَ﴾ جاءت من «رجس» والرجس هو الاختلاط في الأمور لذا قال عن الخمر والميسر إنهما رجس من عمل الشيطان، لأن الإنسان يظن أن الخمر تسبب له مسرة وتنسيه همومه، وهذا وهم، ويظن أن الميسر يجلب له الغنى والمال، والرجس هو الاختلاط في الأمرين بين الخمر والميسر وبين المسرة والغنى. ولذلك أمر باجتناب الرجس من الأوثان وليس باجتناب الأوثان ذاتها، لأن الأوثان ذاتها لا يمكن اجتنابها وهذا واضح في الظواهر التالية:

١ ـ لقد أزال المسلمون كل معالم الوثنية «في المسجد الحرام وفي غيره» لكيلا تختلط الأمور على الناس فالإسلام يحرم نحت التماثيل والرسم فقط في أماكن العبادة «المساجد» لكيلا تختلط الأمور على الناس أثناء العبادة، حتى إنه حرم أن يكون هناك قبور في المساجد حتى ولو كانت للصالحين الأولياء لتجنب الاختلاط «الرجس».

٢ ـ عندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام وفارس ومصر، فهذه البلاد كانت مهداً لحضارات قديمة مليئة بالتماثيل، فهل هدموا المنشآت والتماثيل في البلاد المفتوحة مثل أبي الهول وأبي سنبل والكرنك وبلاد بابل والشام؟ علماً بأن الفتوحات تمت في السنين العشر الأولى بعد وفاة الرسول ﷺ والعرب الفاتحون كانوا من الجيل النبوي أي أنهم عاصروا النبي ﷺ من أصغر جندي إلى الخليفة.

هذه التماثيل لم تهدم لأنها كانت لا تعبد. ولو كان الأمر غير ذلك لدخل العرب المسلمون التاريخ كشعب همجي مهدم للحضارات ولا يعقل أن النبي ﷺ قد حرم النحت لأنه لو فعل ذلك لهدم العرب المسلمون كل التماثيل التي صادفوها أثناء الفتوحات ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

٣ ـ لقد أغلق العرب المسلمون معابد النار في بلاد فارس، ولا استبعد أنهم استعملوا القوة في ذلك لأن النار كانت تعبد في هذه المعابد، ولكن هل منع العرب المسلمون الناس من استعمال النار لأمر آخر كالطبخ والتدفئة؟ لم يحصل ذلك لأنه كان واضحاً في أذهانهم أن الله منع «الرجس من الأوثان».

لذا فإن العقيدة الإسلامية لا تحرم النحت كفن وإنما حرمت وحذرت من الرجس «الاختلاط في الأمور» لكي لا يظن الناس أن المنحوت فيه ضرر ونفع «وهذا باطل».

من هذه الأمور يتبين لنا أنه إذا كان هناك أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ بشأن النحت، فهي أحاديث قيلت في حينها واستوجبتها الظروف التي عاشها النبي ﷺ ولا تقتضي الشمول لأنها ليست من حدود الله.

٣ ـ الموقف من الرسم:

لم يكن في الأصل فن الرسم والتصوير متقدماً عند العرب في الجاهلية، إلا أنه بالأصل اعتبر الإسلام أن الفنون هي من الفطرة الإنسانية، فالأساس في الأمور الإباحة وليس التحريم، وقد استند تحريم التصوير والرسم إلى بعض الأحاديث النبوية مثل ما روي عن سعيد بن الحسن أنه قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنه إذ أتى رجل قال: يا ابن عباس إني إنسان وإني أعيش من صنع يدي وإني أصنع هذه التصاوير فقال له ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ» «صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٧٠». إن هذا الحديث لا يمكن للنبي ﷺ أن يقوله لأنه مناقض تماماً للنص القرآني، ففي القرآن الروح هي أوامر ومعلومات وهي التي أعطت الإنسان الوعي للعالم الموضوعي والأوامر والنواهي، وبها أصبح البشر إنساناً حراً، والروح ليست سر الحياة لا من قريب ولا من بعيد، فكيف يقول النبي ﷺ بأن ينفخ فيها الروح. وان صح هذا الحديث وغيره في هذا الباب فهي أحاديث تتعلق بالمرحلة التي عاشها النبي ﷺ ولكنها ليست أحاديث تتعلق بالحدود.

أما التبرير الآخر للتحريم فهو أن المصور هو من أسماء الله الحسنى، أولم يعلموا أن الله سبحانه وتعالى قلم أسماءه لنعرفه بها لأنه قال ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق ٤) والتعليم جاء من خلال العالم الموضوعي الذي يعيشه الإنسان، فالله يَعلَمُ والإنسان متعلِّم لأنه خليفته. والله يَرزُق والإنسان يرزُق ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (الحجر ٢٠) ولكنه أحسن الرازقين. الله يَخْلُقُ والإنسان يَخْلُقُ ولكن الله هو أحسن الخالقين ﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٤).

٤ ـ الصوت:

لقد جاء القرآن في بيانه بإيقاع ونغمة في تلاوته سهلة السماع على الأذن «العربية» تطرب لها النفس، وما الموسيقى إلا مجموعة من الأصوات ضمن إيقاع

ونغمة معينة للتعبير عن موضوع معين. وعندما قدم النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة استقبله الأنصار في يثرب بالأغاني والغناء الجماعي وضرب الدفوف لأن هذا الذي كان متوفراً عندهم، ومن هنا يتبين أن الموقف الذي اتخذه الفقهاء من الفنون هو موقف تاريخي كان صالحاً لفترتهم وعصرهم وقد تغيرت الفترة والعصر وهذا مسوغ لتغير المفاهيم.

لذا فإن الموقف الذي يمنع الغناء يعتبر موقفاً غير إسلامي. والفنون والشهوات هي من الدين الإسلامي وهي بطبيعتها حنيفية غير مستقيمة أي خاضعة للتطور مع تطور المعارف ووسائل الإنتاج الإنسانية.

والآن للنظر إلى جمال الكلمة في القرآن وجمال الكل والجزء:

من تعريفنا للجمال يجب أن نفهم أن جمال الكلمة والصيغة في القرآن هو جمال ظهر من خلال أداء الوظيفة، وصياغة القرآن لا تهدف إلى الجمال فقط أي يجب علينا أن نفهم أن إعجاز القرآن ليس جمالياً فقط إن التحدي بالإعجاز في القرآن هو تحدٍ جمالي ووظيفي معاً، وعندما نفهم صياغة المتشابه التي حوت مطلق الحقيقة ونسبية الفهم نرى فيه قيمة الجمال لأن مفردات القرآن وصياغته أدت الوظيفة المطلوبة. إن جمال الجزء في القرآن هو في الألفاظ واشتقاقاتها حيث أنه إذا أخذنا كلمة في القرآن وبحثنا في كل معجم مفردات اللسان العربي لنبدلها بكلمة أخرى أو باشتقاق آخر دون أن يتغير المعنى فهذا مستحيل!!! وجمال الكل يظهر في الصياغة المتشابهة القابلة للتأويل حسب الأرضية المعرفية للقارىء، وللمرحلة التاريخية التي تجري القراءة فيها، وهذا الجمال يظهر في المفهوم الأساسي وهو مواقع النجوم، أي مواقع الفصل بين الآيات: **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾** (الواقعة ٧٥، ٧٦). أي أن القرآن جمع في صياغته التي حوت جمال الكل ما يلي:

١ ـ الصياغة الخبرية الصادقة للقوانين الموضوعية «اللغة العلمية».

٢ ـ الصياغة الفنية لهذه القوانين بصيغ بيانية «اللغة الأدبية».

أي أن القرآن جمع النظم العلمي والأدبي معاً علماً بأننا نراهما منفصلين في غير القرآن.

الفصل الثاني

القصص في القرآن

تمهيد
الفرع الأول ـ نوح .
الفرع الثاني ـ هود .
الفرع الثالث ـ تسمية الأنبياء والرسل .

تمهيد:

إن قصص الأنبياء والرسل الواردة في الكتاب هي من القرآن وهي من الجزء المتغير، أي تراكم الأحداث الإنسانية بعد وقوعها، وقد أوحي من إمام مبين وليس من لوح محفوظ، وقد قلنا إن القرآن كله حق. فأحداث التاريخ التي حصلت فعلاً أصبحت حقيقة ولا مناص لتغييرها لذا اعتبرت من القرآن «حق» لذا قال عن القصص: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الكهف ١٣) وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام ٥٧).

فقصص القرآن والذي سماه الكتاب المبين وأحسن القصص يعطينا خط تطور التاريخ الإنساني بالمعرفة والتشريع أي التفاعل الإنساني مع الوجود الإلهي والكوني بالعقيدة والتفاعل الإنساني مع التشريع بالسلوك.

وعلى هذا الأساس سنتناول قصة نوح وهود معتمدين على الترتيل والمعلومات التاريخية المتوفرة حيث أن التشابه في القصص منسوب إلى المعرفة الإنسانية بخط تطور التاريخ.

لقد استنتجنا في فصل جدل الإنسان أن القرآن قسم التاريخ إلى قسمين: التاريخ القديم والتاريخ الحديث. وقد بحثنا في مقولة آدم وقلنا إن التاريخ القديم هو الفترة الزمنية بين بداية الأنسنة وبين تشكل لغة مجردة في أبسط صورها وبالتالي تشكل مجتمع إنساني بحيث أصبح الإنسان قادراً على استقبال الوحي. والإنسان الحديث بدأ من تشكل اللغة المجردة في أبسط صورها ووجود مجتمع إنساني يتكلم هذه اللغة وامتد تطور الإنسان الحديث حتى يومنا هذا. وابتدأ الإنسان الحديث والمعاصر بنبوة محمد ﷺ.

لقد غطى القرآن المراحل المهمة في فترة الإنسان القديم فقط مثل إيقاد النار وسكن الكهوف ودفن الموتى.

أما فترة تطور الإنسان الحديث فقد غطاها القرآن بجزء هام منه وهو القصص الذي بدأ بقصة نوح تليها زمنياً قصة هود. علماً بأن القصص القرآني لم يعط التفاصيل الجزئية بكل دقائقها وإنما أعطى مؤشرات مهمة لاستنباط خط تطور

التـاريـخ لذا قال: ﴿تِلْكَ الْقُـرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِها. . الآية﴾ (الأعراف ١٠١) وقوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ. . الآية﴾ (هود ١٢٠) وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ. . الآية﴾ (هود ٤٩).

لاحـظ في الآيـات الثلاث كيف ذكر المعلومات الواردة في القصص للتبعيض في قوله: ﴿مِنْ أَنْبَاء﴾.

الفرع الأول
نوح

لقد جاء ذكر نوح في الآيات التالية:

١ ـ آل عمران ٣٣.

٢ ـ النساء ١٦٣.

٣ ـ الأنعام ٨٤.

٥ ـ الأعراف ٥٩ ـ ٦٤، ٦٩،

٦ ـ يونس ٧١.

٧ ـ هود ٢٥ ـ ٣٢، ٣٦ ـ ٤٨، ٨٩.

٨ ـ إبراهيم ٩.

٩ ـ الإسراء ٣، ١٧.

١٠ ـ مريم ٥٨.

١١ ـ الأنبياء ٧٦ ـ ٧٧.

١٢ ـ الحج ٤٢.

١٣ ـ المؤمنون ٢٣.

١٤ ـ الفرقان ٣٧.

١٥ ـ الشعراء ١٠٥ ـ ١٢١.

١٦ ـ العنكبوت ١٤.

١٧ ـ الأحزاب ٧ .
١٨ ـ الصافات ٧٥ ـ ٨٣ .
١٩ ـ ص ١٢ .
٢٠ ـ المؤمن ٥ ، ٣١ .
٢١ ـ الشورى ١٣ .
٢٢ ـ ق ١٢ .
٢٣ ـ النجم ٥٢ .
٢٤ ـ القمر ٩ .
٢٥ ـ الحديد ٢٦ .
٢٦ ـ التحريم ١٠ .
٢٧ ـ الحاقة ١١ ـ ١٢ .
٢٨ ـ سورة نوح ١ ـ ٢١ ـ ٢٦ .

الاستنتاجات المستقاة من قصة نوح عليه السلام

١ ـ نوح أول بشر يوحى إليه :

لقد شرحت في فصل جدل الإنسان أن بداية اتصال السماء بالأرض كانت عن طريق المشخص فقط وذلك بإرسال «نذر» ملائكة قبل نوح وكان أول اتصال للسماء عن طريق الوحي المباشر لجنس البشر هو نوح عليه السلام وبه بدأ الإنسان الحديث كما يعتقد في منطقة الشرق الأوسط حيث كان يمتلك لغة مجردة بأبسط صورها وقد وضح هذا بالآيات التالية :

ـ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ . . الآية﴾ (النساء ١٦٣) .

ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ . . الآية﴾ (الأعراف ٦٣) .

- ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله. . الآية﴾ (يونس ٧١).
- ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا. . الآية﴾ (ابراهيم ١٠).
- ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ. . الآية﴾ (ابراهيم ١١).
- ﴿مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء الله لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤).
- ﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ. . الآية﴾ (هود ٣١).

هنا نلاحظ كيف ذكر مصطلح البشر ليقصد به الجنس البيولوجي العضوي أي ليس ملكاً وليس من الجن. كما نلاحظ أنه جاء لنوح أول صيغة لغوية تعبدية من الله للناس وذلك في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ. . الآية﴾ (الأعراف ٦٣).

٢ ـ إرسال ملائكة رسلاً مع نوح:

لما كان نوح أول بشر يوحى إليه فقد أرسل الله معه رسلاً من الملائكة فجمع بين الأسلوبين: أسلوب النذر، وأسلوب الوحي للبشر وذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ (الفرقان ٣٧).
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٠٥).

٣ ـ مجمل الوحي إلى نوح:

كان مجمل الوحي إلى نوح يتضمن ما يلي:

آ ـ الإنذار.

ب ـ التقوى وهي الرسالة.

ج ـ الرحمة وهي النبوة والدعوة النبوية والعلم.

وقد جاء هذا الإجمال في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٣).

ـ الإنذار:

لقد اشترك نوح مع الملائكة بأنه كان نذيراً إلى قومه والإنذار كلمة تدل على تخويف ووعيد حيث توعدهم بالعذاب الأليم لقوله:

آ ـ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الشعراء ١١٥).

ب ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (يونس ٧٣).

ج ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (نوح ١).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (نوح ٢).

موقف قومه من إنذاره:

كان التكذيب هو الجزاء الذي تلقاه من قومه نتيجة إنذاره لهم:

١ ـ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء ١١٦).

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (الشعراء ١١٧).

٢ ـ ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنبياء ٧٧).

٣ ـ ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (المؤمنون ٢٦).

٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ (المؤمن ٥، ق ١٢، القمر ٩).

ـ الرسالة:

لقد كان نوح أول رسول ونبي من البشر في منطقة الشرق الأوسط كما يعتقد «العالم القديم»، وقومه هم بداية الإنسان الحديث في هذه المنطقة حيث كان هناك مجموعة من الناس لها علاقات اجتماعية بدائية ولها لغة مجردة بحيث تسمح لنوع من الوحي المجرد. وكان الوضع الإنتاجي في هذه الحقبة التاريخية بدائياً جداً لذا فقد كان الشرك الأساسي الذي وقع فيه الإنسان آنذاك هو عبادة مظاهر الطبيعة

وخاصة الشمس والقمر وقد ذكر هذا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً﴾ (نوح ١٥) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ (نوح ١٦) وبالتالي فقد اقتصرت رسالة نوح على التوحيد والاستغفار فقط دون أن يكون هناك أي وصايا أخلاقية أو شعائر تعبدية، فعند نوح لا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا أي شكل من أشكال العبادات التي نعرفها وذلك في الآيات التالية:

١ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف ٥٩).

٢ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٦١).

٣ - ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٢).

٤ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحَاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (هود ٢٥).

٥ - ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ أَلِيمٍ﴾ (هود ٢٦).

٦ - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء ١٠٧ - ١٠٨).

٧ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحَاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون ٢٣).

٨ - ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ (نوح ٣).

٩ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (نوح ١).

وتجدر الإشارة إلى أن نوحاً توعد قومه بالعذاب الأليم وهو عذاب في الدنيا وليس في الآخرة وقد بين هذا في قوله:

١ - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (هود ٣٩).

٢ - ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود ٣٢).

موقف قوم نوح من الرسالة:

كان موقف قوم نوح من الرسالة هو الكفر.

- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاّ الله جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم ٩).

- النبوة:

وهي دعوة نوح أي الدعوة هي النبوة لذا كان موقف أقوام الرسل والأنبياء كفراً بالرسالة ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ (ابراهيم ٩) وموقف شك وريبة في النبوَة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (ابراهيم ٩) فقد كانت نبوة نوح قفزة نوعية على سلم التطور من الناحية العلمية للإنسان في ذلك الوقت وقد بين هذا في قوله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ الله مالا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٢) فكانت نبوته تشمل:

١ - التوحيد:

وهو أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل. حيث أن التوحيد هو نبوة كعقيدة وهو رسالة من حيث عبادة الله وحده كسلوك حيث أن التوحيد جمع بين الحق كوجود والحلال كسلوك.

٢ - تعليم البشرية ركب الماء أو اجتياز العوائق المائية:

إن صناعة الفلك كانت وحياً من الله:

- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٧).
- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا. الآية﴾ (المؤمنون ٢٧).

هنا سيظهر سؤال في غاية الأهمية وهو: ماهو المستوى الإنتاجي في وسائل الإنتاج لصنع الفلك؟ ومن ركب في الفلك؟ لقد أجاب القرآن على هذه الأسئلة كالتالي:

١ - لم يكن في زمن نوحٍ حبالٌ مصنعة ولا مسامير لربط الخشب بعضه إلى

بعض، وإنما تم ربط الخشب على مبدأ الدُّسُر وهي الألياف الطبيعية «أغصان طرية فيها ألياف طبيعية» وذلك في قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر ١٣).

٢ ـ أما الفلك نفسه فقد جاء من فعل «فلك» وهو الاستدارة كقولنا: فَلّك ثدي الفتاةِ إذا استدار، وهو بمثابة المعدية المائية، وقد أكد القرآن أنه لم يكن في ذلك الوقت مجاذيف للتجذيف ولا دفة للتوجيه ولا أشرعة أي أن الفلك مجرد جسم خشبي له استدارة يعوم في الماء فقط وذلك في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء ١١٩) فقد أعطى هنا صفة للفلك بأنه مشحون وهو من فعل «شحن» وهو أنه محمل بالناس وغيرهم وبنفس الوقت مشحون كأن نقول عن السيارة قاطرة ومقطورة أو شاحنة ومشحونة، فالشاحنة فيها دفة توجيه ومحرك للشد وقابلة للتوجيه، أما المشحونة فهي قابلة للتحميل ولكن لا يوجد فيها أداة توجيه ومحرك للشد. فإذا سأل سائل: كيف تم التوجيه والجر في فلك نوح؟ فأقول: لقد تم الجر بواسطة التيار المائي حسب اتجاهه الطبيعي لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (الحاقة ١١) وقوله: ﴿وَهِي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ (هود ٤٢) أما التوجيه بحيث لا ترتطم السفينة بالصخور أو بأي عائق فقد تم من قبل الله تعالى بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنا﴾ (القمر ١٤) وقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود ٤١) أما الآن فان توجيه السفن يجري بواسطة الرادار والبوصلة والشد بواسطة المحرك والأشرعة.

٣ ـ يجب أن نفهم أن طوفان نوح كان محلياً أي عبارة عن عاصفة مطرية كبيرة جداً جرت بشكل محلي حيث كان قوم نوح يسكنون في مناطق منخفضة قريبة من الأنهار تحيطها الجبال حيث قال: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوَابَ السَّمَاء بِماء مُنْهَمِرٍ﴾ (القمر ١١) ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر ١٢) ونحن نعلم الآن أنه خلال ساعات من العاصفة المطرية الشديدة يمكن إغراق مدينة بأكملها وبنفس الوقت نعلم إذا كانت هناك عاصفة مطرية تبعها طوفان في منطقة ما في استراليا فهذا لا يعني أن الطوفان قد وصل إلى مصر أو الهند وأن من يفسر بأن الطوفان عم كل الأرض فهذا غير صحيح ولكنه عم كل الأرض التي سكنها قوم نوح وبنفس الوقت لم يغط الجبال حيث قال ابن نوح ﴿سآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الْمَاء قَالَ لا عَاصِمَ﴾ (هود ٤٣) وعندما انتهت العاصفة المطرية قال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا

سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود ٤٤).

وبما أن المنطقة التي سكن فيها قوم نوح عبارة عن منطقة محاطة بالجبال فقد حصل تيار مائي قوي وكان الموج كسلاسل الجبال من حيث الشكل لا من حيث البعد كما نراه الآن في طوفان الأنهار الجبلية ذات الميول الكبيرة بقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود ٤٢) أي أنه في قوله «كالجبال» الكاف هي كاف التشبيه للشكل وإذا كانت أبعاد الموج هي كالجبال فهناك استحالة في أن ينادي نوح ابنه حيث أتم الآية بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحُ ابْنَهُ﴾ (نوح ٤٢).

٤ ـ بما أن كل الذين لم يركبوا في الفلك هلكوا بقوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (الشعراء ١٢٠) فمن المتوقع أنه في زمن نوح كان الإنسان لم يتعلم السباحة بعد.

٥ ـ لقد صنع نوح الفلك على اليابسة وليس في الماء حيث أن هذا الفلك جرى وطاف بعد أن طغى الماء على اليابسة التي صنع عليها الفلك ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (الحاقة ١١).

٦ ـ لقد كانت إشارة الطوفان بالنسبة لنوح ليعلم أن وعد الله قد آن حيث أخبره الله سلفاً بأن قومه مغرقون في قوله ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٧) هذه الإشارة هي «فوران التنور» حيث يتوقع أنه في منطقة نوح وفي الجبال التي تحيط بهذه المنطقة كان يوجد بركان خامد وكانت إشارة الطوفان هي نشاط هذا البركان وقد عبر عنه ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ.. الآية﴾ (هود ٤٠) ونحن نعلم الآن أن الحمم البركانية المصهورة تفور في فوهة البركان وأن النشاط البركاني يمكن أن يرى من مسافات بعيدة وكانت هذه الإشارة لكي يركب نوح ومن معه على الفلك.

٧ ـ لقد ركب مع نوح الناس الذين وعده الله بنجاتهم وهم أهل نوح، وبما أن وعد الله حق وأن الله لا يخلف الميعاد فقد استغرب نوح غرق ابنه لذا قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود ٤٥) فكانت الإجابة أنه ليس ابنه ونوح يجهل ذلك بقوله ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود ٤٦) هذه الناحية شرحتها في مبحث العقل الشيطاني، حيث شرحت أن ابن نوح هو في ظن نوح، ولكن نوحاً كان لا يعلم أنه ليس ابنه حيث قال

له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وقد وعده الله بنجاة أهله الكافر منهم والمؤمن حيث قال له ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ (هود ٤٠) وقد قال البعض إن ابن نوح كان كافراً لذا غرق وهذا غير صحيح لسبب جهل نوح بذلك، فهل كان نوح يجهل أنّ ابنه كافر؟؟ أم كان يجهل أن هذا ليس ابنه؟ علما بأن الذين ركبوا معه في الفلك كان فيهم كافرون ومؤمنون ومنهم امرأته لأنها من أهله لقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ١١٨) حيث طلب نوح نجاته ومن معه من المؤمنين فكان رد رب العالمين نجاته ومن معه فقط دون ذكر من المؤمنين في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء ١١٩) وقد أعطاه الله إشارة في الآية ٤٠ في سورة هود بأن هناك أناساً يريد نوح أن يركبوا معه ولكنهم سيغرقون وذلك في قوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ. الآية﴾ (هود ٤٠) هنا أعطى التنويه عن فقدان بعض من يظن نوح أنهم من أهله بقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ هذه الاشارة مهمة جداً حيث نرى أن السلوك الطبيعي لأي إنسان عندما تحصل كارثة طبيعية أو انفجار كبير يؤدي إلى دمار البيوت فإن أول شيء يفعله الإنسان هو البحث عن أهله فقد يجد بعضاً منهم ويفقد آخرين، وفي هذه الحالة يبقى الإنسان يبحث وينقب ولا يغادر المكان حتى يطمئن على الذين لم يعثر عليهم فقد تلحقه بذلك الكارثة أيضاً، وهنا نبه الله نوحاً بأنه وقت الكارثة سيركب في الفلك من ركب دون البحث عن الذين لم يعثر عليهم لذا نبهه بقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود ٤٠) وهذا ما فعله نوح تماماً إذ لم ير ابنه فلم ينتظره أو يبحث عنه فركب هو ومن معه. وترينا الآية ٤٢ في سورة هود أن نوحاً وجد ابنه وهو في الفلك يجري بهم في موج كالجبال وليس من مكان الركوب. وكان استغراب نوح في محله حيث أن من كان يظن أنه ابنه كان من المغرقين والاستغراب لأن «وعد الله حق».

٨ ـ قد يقول البعض إن نوحاً دعا على قومه بالغرق وهذا غير صحيح فلا يوجد نبي أو رسول دعا على قومه بالهلاك ولكن نوحاً بعد أن يئس من قومه دعا الله أن يحل المشكلة بينه وبين قومه فقط وذلك في قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ١١٧ ـ ١١٨) فكان الجواب من رب العالمين ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٦ ـ ٣٧).

٩ ـ لقد جرف السيل جثث قوم نوح ورماها في فوهة البركان حيث يتبين من الآية أن فوهة البركان كانت منخفضة وعلاها الماء ودخلت الجثث في البركان وقد بين هذا في قوله: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً**﴾ (نوح ٢٥) هنا استعمل فاء السببية والتعقيب بين الغرق وإدخال النار واستعمل النار نكرة وهنا لا يقصد فيها نار جهنم «أي نار الآخرة».

١٠ ـ لقد كانت دعوة نوح التي وردت في الآيتين ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾ (نوح ٢٦ ـ ٢٧) هذه الدعوة دعاها نوح بعد الطوفان لا قبله، أي دعاها بعد أن غرق قومه وذلك بعد أن رأى الأهوال والدمار الذي لحق بالمنطقة فخاف على نفسه وعلى من معه من انتقام من بقي حياً في هذه الحالة سينتقمون منه وممن معه وسيربون أولادهم على الكفر وكراهية الإيمان منذ صغرهم ويكرهوا الناس على الكفر لذا قال ﴿**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾ (نوح ٢٧) حيث هنا «يلدوا» جاءت من التوليد من التربية وليست الولادة الفيزيولوجية حيث نعلم الآن أن الإنسان يولد من بطن أمه دون معلومات ودون مواقف مسبقة والإنسان يولد على الفطرة مسلماً فالبيئة تجعله كافراً أو على أي دين آخر.

١١ ـ لقد قلنا إن حجم السفينة لا يتجاوز معدية خشبية صنعت على مبدأ «الدسر» لذا فقد ركب فيها عدد قليل من الناس وبعض الحيوانات الأليفة المتواجدة عندهم في منطقتهم مثل الدجاج وغيره وكان لا يوجد أنعام في السفينة «خيل، وبغال، وبقر، وغنم.. الخ» حيث أن الأنعام في عهد نوح كانت برية ولم تذلل بعد، فلم يأت ذكر الأنعام إلا في قصة هود. وقد بين ذلك في قوله ﴿**احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ (هود ٤٠) هنا لابُدَّ من الإشارة إلى أن قراءة حفصٍ وحده ﴿**مِنْ كُلٍّ**﴾ بتنوين كل. وقرأ الباقون ﴿**مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ**﴾ بترك التنوين، وعلى قراءة الأكثرين يكون المعنى من الموجود عندكم من البهائم الحية التي تأكلون لحمها فقط. أما فهمها على أنه حمل فيها من كل الحيوانات التي على الأرض بما فيها الدب القطبي والنمور والغوريلا والزرافة.. الخ فهذا خطأ يدل على قصور في فهم السياق

التاريخي لخط تطور الإنسان. ثم إننا نستنتج استنتاجاً هاماً من قصة نوح وهو أن البشرية تعلمت اجتياز العوائق المائية قبل أن تذلل الأنعام حيث أن اجتياز العوائق المائية وتذليل الأنعام كانت الوسائل الوحيدة لانتشار الإنسان في الأرض وقد بقيت الفلك والأنعام الوسائل الوحيدة لتنقل الإنسان حتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر أي حتى اختراع الآلة البخارية. وقد ورد هذا الترتيب في الآية ﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَاتَرْكَبُونَ**﴾ (الزخرف ١٢).

٣ ـ البند الثالث من النبوة وهو:

١ ـ **التبشير بالبنيان والاستقرار**: لقد كان الإنسان يعيش في عهد نوح في الكهوف حيث كانت المنطقة تحيط بها الجبال وفيها أنهار فيعتقد أنهم كانوا يعيشون في الكهوف وفي الغابات المحيطة بالأنهار لذا فقد كانوا يعبدون مظاهر الطبيعة حيث أن تمييز الآلهة لم يوجد عندهم بعد فكانت من نبوة نوح التبشير بالبنيان والاستقرار وهذا التبشير في نبوته ورد في قوله تعالى: ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾ (نوح ١٢) وقد ذكر إهلاك القرى المستقرة بعد نوح في قوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاها تَدْمِيراً * وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**﴾ (الاسراء ١٦ ـ ١٧) من هنا نلاحظ كيف بشر نوح الناس بالاستقرار من البناء وهذا الاستقرار فعلاً كان حاصلاً حتى زمن هود وذلك في قوله ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾ فهنا البنين لا تفهم على أنها الذكور من الأولاد ولكن تفهم من فعل «بنن» وتعني الثبات واللزوم والإقامة وهذه هي طبيعة الأبنية والبنيان. أمّا قوله ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً... الآية**﴾ (نوح ٢٨) فهنا البيت في اللسان العربي اسم جنس ولها أصل واحد وتعني المأوى والمآب وجمع الشمل. فليس من الضروري أن يكون البيت عبارة عن بنيان ولكن يمكن أن يكون كهفاً.

أما قوله ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ**﴾ وهنا المال لا تعني النقد، فالمال جاء من فعل «مول» وتعني هنا أدوات الإنتاج البدائية وما يمكن أن يصطاده الإنسان ويجنيه من الطبيعة وفي القاموس خرج إلى ماله: أي خرج إلى ضياعه أو إبله.

٢ ـ بداية توجيه العقل الإنساني للتفكير بنفسه وبالوجود من حوله وتنمية المدارك العقلية للإنسان والتوجيه إلى البحث في الوجود الإلهي والكوني والإنساني

وذلك بالنسبة لنوح ولمن بعده وذلك في قوله:

- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . الآية﴾ (إبراهيم ١٠).
- ﴿مَالَكُمْ لَاتَرْجُونَ للهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً *﴾ (نوح ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥).

٣ ـ بداية ترسيخ العبادة التجريدية عند الإنسان وذلك بالاستغفار حيث أن الاستغفار مفهوم مجرد غير مشخص وقد بدأ التجريد عند الإنسان به ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيهِ﴾ (البقرة ٣٧).

أما عند نوح فقد ورد:

- ﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ (نوح ٧).
- ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (ابراهيم ١٠).
- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (نوح ١٠).
- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ (نوح ٢٨).
- ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود ٤١).
- ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (نوح ٤).

٤ ـ بداية مفاهيم البعث والجزاء والتلميح إليها دون ذكرها صراحة:

لقد وردت في نبوة نوح تلميحات بسيطة غير مباشرة إلى وجود بعث ورجعة بعد الموت، هذه التلميحات وردت في الآيات التالية:

- ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ (هود ٢٩).
- ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ (نوح ١٧ ـ ١٨).
- ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود ٣٤).

هنا يجب أن نلاحظ نقطة في غاية الأهمية وهي أن البشرية في عهد نوح كانت غير قادرة على استيعاب الانفجار الكوني وتشكل الكون وقوانين الجدل والتطور والساعة ونفخة الصور والبعث واليوم الآخر والجنة والنار لذا لم تذكر هذه الأشياء نهائياً في نبوة نوح وإنما ذكرت بالتفصيل في نبوة محمد ﷺ حيث أن العقل الإنساني قد نضج لتقبل هذه المفاهيم وفهم قوانين الطبيعة والجدل والتطور، وعنده الإمكانية لأن يعقلها.

٥ ـ وجود مبدأ الأجر والاستخدام وبداية ظهور الملكية والطبقات وبالتالي وجود التمايز الاقتصادي والاجتماعي:

لقد بينت الآيات المتعلقة بنوح وجود مبدأ الاستخدام من ناس إلى ناس آخرين ووجود ناس متميزين عن ناس آخرين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وقد بين هذا في قوله:

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ (يونس ٧٢).
- ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٩).
- ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ (هود ٢٩).

والأجر في اللسان العربي تعني الكراء على العمل أي إعطاء شيء مقابل العمل. أما وجود التمايز الاقتصادي والاجتماعي فقد عبر عنه بكل صراحة في مصطلح الملأ والأراذل. فالملأ تمثل الطبقة العليا، والأراذل تمثل الطبقة الدنيا، وقد علمتنا قصة نوح أن اعتماده الرئيسي في دعوته كان على الطبقة الدنيا «الأراذل» وقد تكون هذه الطبقة هي العبيد. والملأ هم السادة وذلك في الآيات:

- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ.. الآية﴾ (المؤمنون ٢٤).
- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَانَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. (هود ٢٧).
- ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء ١١١). وهنا «قالوا» تعود على الملأ وهذا واضح من الآية ٢٧ في سورة هود.

فهنا يبرز سؤال: من هم الأراذل الذين اعتمد عليهم نوح واتبعوه؟

لقد عرف القرآن الأراذل بتعليقه ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وهم الناس بدائيي الرأي في نظر الملأ وهم من نقول عنهم العامة أو الطبقة غير المتعلمة بالنسبة لعلوم زمانها «الطبقة الجاهلة»، وقد جاءت الأراذل في هذا المعنى في مقامين آخرين وهما:

- ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً. الآية﴾ (النحل ٧٠).
- ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ (الحج ٥).

هنا استعمل مصطلح «أرذل العمر» وهو لا يعني الشيخوخة إطلاقاً ولكنه يعني

التوقف عن اكتساب المعرفة، فإذا تخرج إنسان من الجامعة في سن الـ ٢٥ سنة وتوقف عن اكتساب العلم ورفع الكفاءة العلمية وبقي على معلوماته في الجامعة فيبدأ أرذل العمر عنده من سن الـ ٢٥ وهذا ما عبر عنه بـ ﴿**لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ وهناك أناس يتابعون تحصيل العلم حتى سن متأخرة ثم يقفون عن المتابعة لأسباب متعددة منها المرض وهذا ما عبر عنه بـ ﴿**لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً**﴾ أي انه يمكن أن يأتي يوم في حياة الناس يقفون فيه عن متابعة العلم واكتساب المعلومات ليتركوه لغيرهم أي للأجيال الجديدة الناشئة وهذه هي سنة الحياة في اكتساب العلم.

هنا يعلمنا القرآن نقطة في غاية الأهمية: لقد كان خطاب نوح إلى الملأ «الخاصة» ولكن كان اعتماده على الأراذل «العامة» مما أثار سخط الخاصة وأعتقد أن العامة هم الذين صنعوا الفلك، وهذه النقطة تعطينا قاعدة هامة وهو أن الخطاب الفكري العقائدي يجب أن يكون دائماً على مستوى رفيع بالنسبة لعصره، ولكن الممارسة يجب أن تكون مفهومة وواضحة بالنسبة للعامة ذوي المستوى الأدنى.
ونستنتج أيضاً من قصة نوح أنه في العصور القديمة كان التمايز العلمي والثقافي حكراً على الملأ لأنهم كانوا لا يعملون بل متفرغين وهناك الغوغاء «بادي الرأي» الذين يعملون، فهذا الوضع أدى بشكل طبيعي إلى تقدم المعارف العلمية والأدبية عند الملأ. وهذه الناحية نراها سارية المفعول حتى يومنا هذا إذ أن اكتساب المعارف ورفع الدرجة الثقافية بشكل عام والعلمية بشكل خاص يحتاج إلى تفرغ، والمتفرغ يحتاج إلى من يعيله وهذه الإعالة الآن تقوم بها الدول من ميزانياتها، فكلما صرفت *الدولة من ميزانيتها على البحث العلمي وعلى التفرغ للبحث العلمي ارتفع أبناؤها* في درجات الرقي والتقدم. ونلاحظ أن الصراع الاجتماعي قد بدأ في عهد نوح، وقد أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾ (الإسراء ١٦) وقوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ.. الآية**﴾ (الإسراء ١٧).

لقد أوردنا في الباب الأول مثالاً واضحاً على الفرق بين آيات أم الكتاب وآيات القرآن وذلك في الآيتين:
- ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**

وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠).

- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء ١٦).

فالآية الأولى تتحدث عن أمر من أوامر الله يعظنا به لذا قال في نهاية الآية ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (نهي من أم الكتاب «الرسالة»).

أما الآية الثانية فانتهت بقوله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ لذا فهي عبارة عن قانون موضوعي من قوانين العلاقات الاجتماعية يعمل خارج الوعي الإنساني، فهذه الآية من القرآن «النبوة».

لنورد الآن تأويل هذه الآية مع استعمال قواعد التأويل المذكورة سابقاً وخاصة المطابقة مع الحقيقة أي صدق الخبر طبقاً لمستوى معارفنا.

لنبدأ بشرح معنى فعل «أمر»: فعل «أمر» في اللسان العربي له خمسة أصول صحيحة «ابن فارس».

الأول: الأمر ضد النهي، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ. الآية﴾ (النحل ٩٠). فحتى يفهم فعل أمر على أنه أمر ضد النهي فيجب أن يورد بعده المأمور به كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة ٦٧). وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (الأنفال ٢٧). وقوله: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة ١١٢). وقوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ (الكهف ٦٩).

الثاني: الأمر بمعنى الشأن كقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف ٢٨). وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق ٤). وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام ١٥٩) وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف ١٠٢). وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٤٧، غافر ٦٨).

الثالث: العلامة كقولنا جئت لعندك بأمارة كذا وكذا.

الرابع: الدهشة والتعجب كقوله تعالى ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ (الكهف ٧١).

الخامس: النمو والزيادة. وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا

﴿أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها﴾ (الإسراء ١٦). أي نموا وزادوا، فمترف واحد لا يدمر مجتمعاً بل يجب أن يكون عدد كافٍ من المترفين وهذا ما نسميه بالمصطلح الحديث «طبقة اجتماعية».

لنورد الآن معنى المترفين. فقد أورد القرآن مصطلح المترفين وهو أدق مصطلح يمكن أن ينطبق على أي مجتمع بغض النظر عن عنوان البنية الاجتماعية والاقتصادية. فالقرآن لا يهتم بالشعارات بقدر ما يهتم بالحقائق الموضوعية الفعلية التي تجري تحتها. فالترف له شرطان: الشرط الأول الكثرة والزيادة في النعم. هذا الشرط يطمح إليه كل أهل الأرض وهو طموح مشروع بأن يطمح الناس إلى الكثرة والزيادة في النعم. ولكن هناك الشرط الثاني وهو التخصص بها وهو ما نسميه اليوم بالامتيازات. أي أن المترف هو صاحب الكثرة والزيادة في النعم والمتخصص بها دون غيره وقد سماها بعضهم الامتيازات الطبقية وهذا صحيح في الشكل خطأ في المضمون حيث أن هناك مجتمعات تقول عن حكم الطبقة الواحدة والتي عبرت عن نفسها بمفهوم الحزب الواحد أو القائد ولكن يوجد فيها مترفون وقد أثبتت الأحداث العالمية في الثمانينات صدق هذه المقولة والذي حصل هو استبدال المترفين القدامى بمترفين جدد. لذا فإن مصطلح المترفين هو أدق مصطلح ينطبق على أية بنية اجتماعية بغض النظر عن عنوان هذه البنية. وقد أورد ابن فارس هذا المعنى للترف في قوله (وَتَرَّفَهُ أَهْلُه إذا نعَّموه بالطعام الطيبِ والشيء يُخصُّ بهِ) (ابن فارس م ١ ص ٣٤٥).

ففي أي مجتمع يمكن أن يوجد طبقة اسمها طبقة المترفين. وهذا المصطلح أكده القرآن بقوله ﴿أمرنا مترفهيا﴾ أي زاد عددهم ونما فمترف واحد أو اثنان أو عشرة لا يمكن أن يؤدوا إلى هلاك مجتمع حتى تكون طبقة كاملة بيدها مقاليد الأمور ومن خواصها أن لها امتيازات لا توجد لدى بقية الناس وخاصة في النعم والرفاهية والإسراف. لقد أورد القرآن أنه بوجود هذه الطبقة في أي مجتمع والمهم هو وجودها موضوعياً بغض النظر عن اسم المجتمع إسلامي أم غير إسلامي. هذا الوجود يؤدي إلى الفسوق لذا قال ﴿فَفَسَقُوا فِيها﴾ والفسوق هو الخروج عن أوامر رب العالمين وعصيانها كقوله تعالى عن ابليس ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف ٥٠). فأوامر رب العالمين لا تعني شيئاً بالنسبة للمترفين.

هذا الـوضـع يؤدي موضـوعيـاً إلى دمـار هذا المجتمـع لذا قال ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاها تَدْمِيراً﴾ (الإسراء ١٦) وأعداء التغير والتطور هم المترفون وهم الملأ حيث أعطي مواصفات الملأ على أنهم المترفون في سورة المؤمنون في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُـلُ مِمَّـا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (المؤمنون ٣٣).

وقـد أكـد أن هذا القـانـون هو قانـون عام ينطبق على كل المجتمعات في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ ٣٤) وقوله: ﴿وَكَـذٰلِـكَ مَا أَرْسَلْنَـا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّـةٍ وَإِنَّـا عَلَى آثَـارِهِمْ مُقْتَـدُونَ﴾ (الـزخرف ٢٣). وقد أكد القرآن أن احدى حجج المترفين المعلنة هي الحفاظ على تراث الآباء والأجداد أو الحفاظ على شعار وهمي وخادع للعدالة لذا أتبعها بقوله ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّـا بِمـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِـرُونَ﴾ (الزخرف ٢٤). فكانت النتيجة ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الزخرف ٢٥).

نرى هنـا الـربـط المنطقي والمـوضوعي بين الآية ٢٥ من سورة الزخرف وقوله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهـا الْقَـوْلُ فَدَمَّـرْنَـاهَا تَدْمِيراً﴾ الإسراء ١٦). وقد ذكر المترفين على أنهم أصحـــاب الشمـال في سورة الـواقعـة في قولـه ﴿وَأَصْحَـابُ الشِّمَـالِ مَا أَصْحَـابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بارِدٍ وَلاكَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْـلَ ذٰلِـكَ مُتْـرَفِينَ * وَكَـانُـوا يُصِـرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ (الـواقعة ٤١ - ٤٦) والشمـال جاءت في اللسـان العربي من «شمل» وتعني الشمول وأمر شامل «والمعنى الحقيقي هو دوران الشيء بالشيء وأخـــذه إيـاه من جوانبـه» فأصحـاب الشمـال هم المترفون وهم الذين جمعوا «شملوا» في أيديهم كل مقاليد الأمور والنعم واختصوا بها دون غيرهم «امتيازاتهم الخاصة» وكانوا أعداء لكل تغيير إيجابي. ومن خواص هؤلاء أن اليوم الآخر بالنسبة لهم ليس أكثر من مجرد أسطورة ومهزأة وذلك في قوله ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ (الواقعة ٤٧ - ٤٨).

لقد ذكر القرآن الكريم أن هذا القانون بدأ بالعمل ببداية الإنسان الحديث ذي العـلاقـات الاجتمـاعية والاقتصادية واللغة المجردة وقد بدأ الإنسان الحديث بنوح،

لذا أتبع الآية بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ (الإسراء ١٧).

وأخيراً يجب أن نميز أنواع الهلاك: فهناك هلاك القرى والحضارات «هلاك الأشياء المادية» وقد عبر عنه بالدمار. أما فشل الأعمال وخيبتها وبطلانها فقد عبر عنه بالتباب كقوله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد ١). وقوله ﴿وَمَازَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود ١٠١). أما فشل الأفكار وخيبتها وبطلانها فقد عبر عنه بمصطلح «التبار» كقوله ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ (الإسراء ٧). وقوله ﴿إِنَّ هٰؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف ١٣٩).

د ـ من وقف في وجه دعوة نوح:

في ضوء الترتيل نرى أن أعداء دعوته عليه السلام هم الناس المستفيدون من الوضع القائم وهم «الملأ» أصحاب الامتيازات ورجال الدين «الكهنة» فالتغيير فيه إنقاص للملأ الذين ملؤوا مالاً وجاهاً «نفوذاً» وفيه فقدان لسيطرة رجال الدين على الناس. وقد قلنا إن عبادة مظاهر الطبيعة كانت العبادة السائدة عند قوم نوح «الشمس، القمر، النجوم، الرعد، البرق، الأنهار» وكل عبادة وثنية لها كهنتها، فمظاهر الطبيعة هي الآلهة، والكهنة هم مندوبو الآلهة لدى الناس لذا فالآلهة والكهنة مرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً وهذا ما عبر عنه القرآن بكل دقة بقوله ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاّ ضَلالاً﴾ (نوح ٢٣ ـ ٢٤).

هنا نلاحظ كيف استعمل ﴿تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ ثم أعاد الفعل مرة ثانية ﴿تَذَرُنَّ وَدّاً. الخ﴾ فمظاهر الطبيعة هي الآلهة «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» هم الكهنة مندوبو الآلهة للناس ونلاحظ كيف ربطهم بآية واحدة وقد أتبع مهمتهم وهي إضلال كثير من الناس، واعتقد أن القول الذي يقول بأن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً عبارة عن أصنام غير صحيح للأسباب التالية:

١ ـ لو كانت أصناماً لقال عنها آلهة ولدمجها مع الآلهة.

٢ ـ إن الوضع الإنتاجي «وسائل الإنتاج» في عهد نوح لا يسمح بنحت الأصنام إذ أن نحت الأصنام يحتاج إلى وسائل للنحت وإلى مفاهيم هندسية بعدية وهذه المفاهيم الهندسية لم تظهر عند الإنسان إلا بظهور الأبنية «الاستقرار» حيث أن

البناء يحمل مفاهيم هندسية بعدية.

٣ ـ مظاهر الطبيعة أو الأصنام ليست من العاقل فإذا كان الإنسان يعبد الشمس فلا نقول أن الشمس أضلته ففي هذه الحالة سيكون العقاب للشمس لأنها هي التي أضلتــه، بينمــا كان تعليقـه على ود وســواع.. الـخ هو ﴿وَقَـدْ أَضَلُّوا كَثِيـراً وَلاَ تَزِدِ الظَّـالِمِينَ إلاّ ضَلالاً﴾ (نـوح ٢٤). فهـل مظاهر الطبيعة أو الأصنام تضل الناس عن عبـادة الله الـواحـد وقد وصفهم بالظلم وهل مظاهر الطبيعة والأصنام تظلم وهذه كلها صفات للعاقل أم أن الناس الذين يدعون إليها هم الذين يضلون الآخرين ويظلمونهم؟

وأعتقد أن هذه الظاهرة ما زالت إلى يومنا هذا حيث أن المترفين ورجال الدين يضلون الناس ويوقعونهم في الوهم «الباطل». لذا فإن الإسلام دين مدني ولا يوجد فيه رجال دين.

أما موقف الملأ فقد عبر عنه كما يلي:

- ﴿قَـالَ الْمَـلأُ مِنْ قَوْمِهِ إنّا لَنرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف ٦٠) هنا نلاحظ كل الملأ بدون استثناء.
- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إلاّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبينَ﴾ (هود ٢٧).

في الآيـة ٦٠ من سورة الأعـراف نلاحـظ كيف ذكـر الملأ كله كطبقة وكان موقـف الـملأ ككـــل هو تخطئــة نوح بقــولهم ﴿إنَّــا لَنَــرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأعـراف ٦٠). ولكن بعـد فتـرة هنـاك جزء من الملأ اقتنع مع نوح وبقي الجزء الآخر ضد نوح وضد من معه من الملأ لذا جاءت الآية ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ (هود ٢٧). لقد كان هذا الاتهام هو ليس الضلال الخطأ كقولنا «أضل الطريق» ولكن الاتهام كان التكذيب بقولهم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ وهنا فعل ظن يعني اليقين لا الشك.

أما التهم التي وجهت إلى نوح ومن معه فهي كالتالي:

إن البطش في أيـة دعـوة إنسـانيـة تدعو إلى التوحيد والتطور من قبل أعداء التطـور وهـم المستفيـدون من ثبـات الأوضـاع والكهنـة، هذا البطش يحتاج إلى

مبررات، فما هي هذه المبررات؟

الضلال والتكذيب ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي أن هذه الدعوة جاءت لتضلل الناس وتخدعهم وتحيدهم عما وجدوا آباءهم عليه وهذا المبرر بقي إلى حين دعوة النبي ﷺ وإلى يومنا هذا بأشكال متعددة حسب الظروف الموضوعية وسلم التطور وذلك في قوله تعالى:

- ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾. (الزخرف ٢٢)
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَاأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قَالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنَا آباءنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٣).
- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف ٢٤).
- ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (إبراهيم ١٠).

هنا نلاحظ أن هذه السنة وهي الاستمرارية على ما ورثوه عن الآباء هي الحجة الكبرى لأعداء التطور وهنا أيضاً أعطى تعريفاً دقيقاً لأعداء التغيير والتطور وهم المترفون من الملأ أصحاب الامتيازات وهذا الخوف على الامتيازات وضح في قوله ﴿وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ (هود ٢٧).

وهكذا نفهم التهمة الأولى وهي الضلال المبين. فإذا اكتسبت الدعوة الأنصار يتطور الاتهام إلى التكذيب ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (الشعراء ١١٧) ثم يتطور إلى الحجة أن الدعوة الجديدة تريد استلام السلطة ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون ٢٤). وهذا التكذيب يرافقه ظاهرة السخرية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (هود ٣٨). والازدراء ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ (هود ٣١).

أما الإجراءات التي يتخذها أعداء التجديد والتطور فهي:

- النفي ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ (إبراهيم ١٣).
- الأذى «التعذيب» ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى ما آذَيْتُمُونَا﴾ (ابراهيم ١٢).
- الرجم ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء ١١٦).
- الزجر ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (القمر ٩).

- المكر «التآمر» ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ (نوح ٢٢) والمكر هو التآمر، فأعداء التقدم والتطور يتآمرون لمنع تقدم عملية التطور إلى الأمام ويتهمون دعاة التطور والتقدم بالتآمر وقد حصل هذا فعلاً عندما اتهم فرعون موسى والسحرة بالتآمر في قوله ﴿قَالَ فِرْعَوْنَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٢٣). وقوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الأعراف ١٠٩ ـ ١١٠).
- الفرار ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاّ فِرَاراً﴾ (نوح ٦). وأحد معاني الفرّ في اللسان العربي هو النيل منه وخرق عرضه فنقول فلان يفر من فلان إذا نال منه وخرق عرضه.
- عدم الاصغاء لقيام الحجة: حيث أن حجة التحجر والتزمت ضعيفة جداً ودعاة التوحيد «التطور» ذووحجة قوية جداً، فأحد ردود الفعل ضدهم هي عدم الإصغاء اليهم ومنع الآخرين من الإصغاء إليهم ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ (نوح ٧).

وفي هذا المجال نرى أن ننوه إلى المعاني التالية:

١ ـ التمييز بين الفلك والسفينة. فالفلك جاءت من «فلك» وهو الاستدارة وهي عبارة عن الشكل الهندسي للسفينة قبل نزولها في الماء، فالفلك عبارة عن قطع خشبية مربوطة بعضها ببعض بألياف طبيعية لها شكل قريب من الدائري أو البيضوي من أحد أطرافها على الأقل. أما السفينة فهو الفلك عندما يجري في الماء فترتطم به الأمواج. ومن هنا جاءت السفينة من فعل «سفن» وله أصل واحد وهو تنحية الشيء عن وجه الشيء الآخر أي أن السفينة تسفن الماء كأنها تقشره.

٢ ـ لقد سمى كل أعداء نوح بالظالمين، وقد شرحت في مبحث الفرقان معنى الظلم وأن الشرك عبارة عن ظلم، والمظهر الرئيسي للشرك هو وقف عملية التطور من حيث المعرفة ومن حيث التشريع:

- ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون ٢٨).
- ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٧).

- ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ (نوح ٤).

٣ ـ التمييز بين الجهر والعلن في قوله:

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً﴾ (نوح ٨).
- ﴿ثُمَّ إني أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ (نوح ٩).

في الآيتين ٨ ـ ٩ من سورة نوح تبين لنا أن هناك فرقاً بين الجهر والعلن، فالجهر جاءت من الجمال فنقول فلان استجهرته أي راعني جماله وكثر في عيني، وفلان ذا جهرة أي منظره تجتهره الأعين. فعندما قال ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً﴾ (نوح ٨). أي أنه كان في دعوته لهم لطيفاً جداً وبدون أية فظاظة وهذا أيضاً ما أمر الله به موسى عندما أرسله إلى فرعون ﴿اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه ٤٣ ـ ٤٤) أما قوله ﴿إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ (نوح ٩) فهذا يعني أن الدعوة أخذت الوجه العلني والوجه السري.

٤ ـ إن مسار القصص القرآني يبين أن دعاة التطور والتقدم وهم الأنبياء ودعاة التشريع وهم الرسل كانوا ذوي أتباع قلائل وكانوا مغلوبين على أمرهم فكان الله يتدخل لنصرتهم وتدخل الله هو من خلال ظواهر الطبيعة وقوانينها لذا سمى هذه الظواهر آيات الله في سورة الجاثية الآية ٦. فقال عن الظالمين ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (البقرة ٣٩/ آل عمران ١١/ المائدة ١٠ ـ ٨٦) وقول نوح ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (المؤمنون ٢٦) فقد كذب الظالمون بالفلك وبالطوفان وهما من آيات الله فنصره الله بهما.

٥ ـ لقد بدأ الإسلام بنوح وانتهى بمحمد ﷺ حيث ذكر الإسلام من نوح في قوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى الله وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٧٢) وفقط بالنسبة للنبي ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة ٣) وهذه الآية كما شرحت سابقاً هي آخر آية من آيات الحدود أو من آيات أم الكتاب أنزلت على محمد ﷺ وبها ختم التشريع الإلهي للإنسان وبدأ التشريع الإنساني ضمن حدود الله، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ. . الآية﴾ (الشورى ١٣).

فالدين الإسلامي هو سلم التطور في الرسالات والنبوات حيث ختمه

محمد ﷺ وبعد النبي ﷺ أصبح الإنسان قادراً بنفسه على تطوير معارفه وتطوير تشريعاته ضمن حدود الله التي أعطيت لمحمد ﷺ فقط في أم الكتاب لذا كان محمد ﷺ هو الخاتم وبه بدأ الإنسان الحديث والمعاصر.

والآن يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل القصص القرآني هو من أساطير الأولين كما يقول البعض؟

أترك استنتاج جواب هذا السؤال للقارىء نفسه في ضوء هذا المبحث حول نوح.

الفرع الثاني

هود

لقد جاء ذكر هود في الآيات التالية:

- الأعراف ٦٥ - ٧٢.
- هود ٥٠ - ٦٠.
- الشعراء ١٢٣، ١٣٩.
- الأحقاف ٢١ - ٢٦.
- القمر ١٨ - ٢١.
- الحاقة ٤ - ٦ - ٨.
- ق ١٢.
- فصلت ١٣ - ١٦
- ابراهيم ٩.

بعد هلاك قوم نوح ونجاته في السفينة هو ومن معه، حققت الإنسانية بنبوّته قفزة نوعية بركوب الماء واجتياز العوائق المائية. وبعد هذه القفزة حصلت قفزة نوعية كبرى وهي تذليل الأنعام وهذه القفزة حصلت في الفترة الواقعة بين نوح وهود ومن جراء

هاتين القفزتين حصل ما يلي :

ـ تحقق نبوة نوح بالاستقرار والبناء ﴿يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح ١٢) حيث أن تذليل الأنعام نتج عنه أمران هامان :

آ ـ الاستقرار إذ بدأ الإنسان باستغلال الأنعام واستعمالها للزراعة وللطعام وللركوب مما هيأ له الاستقرار وبالتالي البناء بأبسط صورة ووفرت له من جلودها وأوبارها مادة أولية للباس .

ب ـ الانتشار الواعي في الأرض «الهجرة» حيث أن الأنعام كانت وسيلة النقل البرية بالإضافة إلى الفلك «وسيلة النقل المائية» وذلك في قوله ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل ٧) .

لذا ففي الفترة الواقعة بين نوح وهود حصلت هاتان الظاهرتان معاً ظاهرة الاستقرار وجاءت في قوله تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء ١٢٨ ـ ١٢٩) . ففي الآية ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ فالريع هو المكان المرتفع ، حيث كان في معلومات قوم هود طوفان نوح فاتخذوا الاحتياطات ضد الطوفان وبنوا في الأماكن المرتفعة وهنا ذكر البناء صراحة بقوله ﴿أَتَبْنُونَ﴾ وبما أن الأمكنة المرتفعة تحتاج لمصادر المياه فقد حفروا حفراً لتجميع المياه في هذه الأماكن وقد أطلق على هذه الحفر مصطلح «مصنع» فقال ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ هنا جاءت للراحة من نقل المياه إلى هذه الأماكن .

ولتبيان أن الأنعام والأبنية حصلت معاً وفي الفترة الواقعة بين نوح وهود قال ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٢ ـ ١٣٣) ولكي يبين أن هذا الاستقرار ووجود نوع من البناء والأنعام المذللة أدت إلى ظهور الزراعة بأبسط أنواعها أتبعها بقوله : ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء ١٣٤) .

أما ظاهرة الانتشار فقد وردت في قوله تعالى :

ـ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى﴾ (النجم ٥٠) بما أنه قال ﴿عاداً الأولى﴾ فهذا يعني أن هناك عادا الثانية على الأقل، ولم يذكر لفظة الأولى بالنسبة لثمود أو مدين لأنه لا يوجد إلا ثمود واحدة ومدين واحدة .

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (الفجر ٦ ـ ٧) .

فهنـا أعطى وصفـا لعـاد هو إرم ، وقد جاءت من «أرم» وتعني الأصل ومنها جاء مصطلح «الأرومة» أي هنا يتكلم عن عاد الأصل وليس الناس الذين تفرعوا عنها .

- ﴿**أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**﴾ (هود ٦٠) هنا بين أن عاداً الأولى هي عاد الأصل وإليها أرسل هود لذا قال «عاد قوم هود» أي هناك عاد ليسوا بقوم هود .

- ﴿**وَاذْكُـرْ أَخـا عَادٍ إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . . الآية**﴾ (الأحقاف ٢١) هنا ذكر المكان وهو الأحقاف للدلالة على أن هناك أمكنـة أخـرى غيـر الأحقـاف كانت مسكـونـة . وهذه المنطقة عبارة عن منطقة غزيرة الأمطـار لقـولـه ﴿**وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماء عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَـزِدْكُمْ قُوَّةً الَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَـوَلَّـوْا مُجْـرِمِينَ**﴾ (هود ٥٢) . هنا لاحظ قوله ﴿**يُرْسِلِ السَّـمَـاء عَلَيْـكُـمْ مِدْرَاراً**﴾ وقـولـه : ﴿**وَتَتَّخِـذُونَ مَصَـانِـعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ (الشعـراء ١٢٩) . حيث لا يمكن للحفـر في الأمـاكن المرتفعة أن تمتلىء بالمياه إلا إذا كانت الأمطار غزيرة .

طريقة الوحي إلى هود :

لقـد قلنـا إنـه قبل نوح كان الله يرسل الرسل من الملائكة وسماها النذر، وكان نوح أول رسـول ونبي من جنس البشـر لذا قال له قومـه ﴿**لَـوْ شَاء الله لأَنْـزَلَ مَلائِكَةً**﴾ (المؤ منـون ٢٤) هذه النـاحيـة بقيت أيضـاً بالنسبـة لهود، ولكن بالنسبة لهود جاءت النذر قبله وعاصرته وذلك في قوله تعالى : ﴿**وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . . الآية**﴾ (الأحقاف ٢١) . وقوله : ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُـرْسَلِينَ**﴾ (الشعـراء ١٢٣) . المـرسلون هنـا هـم هود والنذر . وقوله ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ تَعْبُـدُوا إِلاّ الله . . الآيـة**﴾ (فصلت ١٣ ـ ١٤) وقـد أنكـر قومـه هذا أشـد الإنكار على أن يوحي الله إلى بشر مثلهم ومنهم ، وقد جاء هذا في قوله ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْـرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ مِنْكُمْ لِيُنْـذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ . . الآية**﴾ (الأعراف ٦٩) .

وقد أورد قومه نفس حجة قوم نوح بقولهم ﴿**قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا**

بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُون﴾ (فصلت ١٣).

لنبحث الآن ماهي رسالة هود:

لقد أرسل هود إلى قومه برسالة التوحيد مع حصول تطور بمظاهر الشرك عند قوم هود تختلف عما كانت عليه عند قوم نوح وهذا الاختلاف هو تعدد الآلهة مع الاختصاصات بينها وقد جاءت دعوة التوحيد في قوله: **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ مُفْتَرُونَ﴾** (هود ٥٠). هنا ذكر مع دعوة التوحيد الافتراء. فماذا افترى قوم هود؟ الافتراء هو توزيع الاختصاص على الآلهة كأن نقول إلاه المطر، إلاه الحب، إلاه الغضب، إلاه الحرب، وهكذا دواليك وقد جاء هذا التخصص في قوله تعالى:

- **﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَانَزَّلَ الله بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾** (الأعراف ٧١).

هنا قال الأسماء هو للتمييز بين الآلهة، وهذه الأسماء افتريت من قبلهم وقبل آبائهم.

- **﴿إِنْ نَقُولُ إِلاّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسوء قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** (هود ٥٤). هنا بين أيضاً أن هناك آلهة السوء وبالضرورة يوجد آلهة النفع والخير لذا قال **﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾** وقد كانت رسالة هود هي التوحيد لذا أتبع قوله **﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوء﴾** بقوله: **﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** (هود ٥٤).

بالاضافة إلى التوحيد كانت رسالته تحتوي على الاستغفار والتوبة لقوله: **﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ... الآية﴾** (هود ٥٢).

هنا في رسالة هود حصل تطور هام عن رسالة نوح وهو أن الأضداد لها إله واحد حيث لم يستوعب الناس في ذلك الوقت وحدة الأضداد وظهر هذا الجهل بتعدد الآلهة والاختصاصات بينها. لذا كانت رسالة هود هي التوحيد والتوبة والاستغفار ولا اكثر من ذلك لذا قال **﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

أبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف ٦٧ ـ ٦٨) هنا لاحظ كيف قال ﴿رِسالاتِ رَبِّي﴾.

موقف قومه من رسالته:

١ ـ الكفر والإنكار والإصرار على اتباع نهج الآباء ﴿قَالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَاكَانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف ٧٠) ﴿فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (فصلت ١٤).

٢ ـ الاتهام بالجنون «السفاهة» والتكذيب من قبل الملأ أصحاب السلطة والمال: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرٰيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف ٦٦).

نبوة هود:

١ ـ لقد كانت نبوة هود هي التأكيد على نبوة نوح والتي بشر بها قومه فتحققت على سلم التطور في الفترة الواقعة بين نوح وهود وهي الاستقرار والبناء وتذليل الأنعام والتي أصبحت حقيقة معروفة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. (الشعراء ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤) وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف ٢٥). وبما أن هذه النبوة أصبحت حقيقة ملموسة لذا طلب قومه منه البينات غير التي ذكرت بقوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود ٥٣). وقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأحقاف ٢٢) فكانت بينة هود هي الوعيد بقوله: ﴿قَالَ إِنَّما الْعِلْمُ عِنْدَ الله وَأُبَلِّغُكُمْ مَاأُرْسِلْتُ بِهِ وَلٰكِنِّي أَرِيكُم قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ (الأحقاف ٢٣) ﴿فَلَمّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هٰذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُو مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف ٢٤).

٢ ـ لم يذكر اليوم الآخر بتاتاً في نبوة هود ولا الساعة ولا البعث ولا الصور والجنة والنار، كل هذه المعلومات كانت غير واردة في نبوته، وإنما لمح لليوم الآخر

بشكل غير مباشر بقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف ٥٩) - هذا إن كان «عذاب يوم عظيم» يعني عذاب اليوم الآخر - علماً بأن هناك آيات ذكر فيها العذاب العظيم وتعني عذاباً في الدنيا لا في الآخرة وذلك في قوله ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء ٧٦) وقوله: ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء ١٥٦) وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء ١٨٩) حيث ذكر اليوم الآخر صراحة لأول مرة ولمرة واحدة في نبوة شعيب في قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت ٣٦).

الفرع الثالث

الأنبياء والرسل

لابد لنا عند بحث موضوع الأنبياء والرسل وكيف صنفهم القرآن أن ننوه إلى النقاط التالية:

١ - إن آدم المصطفى الذي هو أبو الإنسانية لم يكن وحده بل كان معه بشر آخرون فاصطفاه الله منهم وبدأ بتعليمه التجريد وهو بدوره علم الآخرين، فالناس هم أبناء آدم ليس بالضرورة من صلبه وإنما أبناءه بالأنسنة كقولنا ابن جامعة دمشق. ابن مدينة دمشق.. وهكذا. لذا فعندما يقول تعالى «يا بني آدم» فهذا يعني أنه يخاطب أبناء آدم الذين هم من صلبه والذين هم أبناؤه بالأنسنة. فهنا يظهر تماماً الاصطفاء لآدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣) [illegible]رِّيَةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران ٣٤) فحصل الاصطفاء من [illegible] لآدم ممن معه من البشر ولنوح ولآل إبراهيم وآل عمران وأما قوله: ﴿ذُرِّيَةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ فهذا يعني أن نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران هم من أبناء آدم ليس بالأنسنة فقط وإنما من ذريته أي من نسله المباشرين. وأن آدم المصطفى ليس نبياً ولا رسولاً حيث أن النبوة والرسالة بدأت إلى بني البشر من نوح لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ..

الآية﴾ (النساء ١٦٣) لذا فإن عدد الأنبياء الذين ذكروا في القرآن هو ٢٤ نبياً منهم من هو نبي فقط ومنهم من هو نبي ورسول.

٢ ـ عندما ذكر في سورة مريم «زكريا، يحيى، عيسى، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، موسى، هارون، إسماعيل، إدريس» قال عنهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ (مريم ٥٨).

نرى في سورة مريم أن زكريا ويحيى ومريم «عيسى» من آل عمران والبقية ما عدا إدريس هم من ذرية إبراهيم كلهم من ذرية آدم ولكنهم ليسوا من ذرية نوح لقوله ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (مريم ٥٨). ومنه نستنتج أن آل إبراهيم وآل عمران هم من ذرية آدم وليسوا من ذرية نوح بل من ذرية «من حملنا مع نوح». وبما أن يعقوب منهم وهو الملقب إسرائيل فإن بني إسرائيل ليسوا من ذرية نوح ولا سام ابن نوح، وعليه فإن النظرية السامية ليست أكثر من وهم. وقد أكد القرآن هذه الفكرة حول بني إسرائيل في قوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (الإسراء ٢ ـ٣ ـ).

وبما أن محمداً ﷺ هو من ذرية إسماعيل لذا فهو من ذرية آدم من نسله أي من حيث الدم وليس من الضروري أبداً أن يكون كل العرب من ذرية إسماعيل أو ذرية آدم، فالنبي ﷺ ينتسب دما إلى إسماعيل، وقومية إلى العرب.

٣ ـ لقد وردت أسماء الأنبياء بشكل رئيسي في السور التالية:

آ ـ سورة الأنعام: ورد فيها:

ـ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ (الأنعام ٨٣ ـ٨٧).

نلاحظ في سورة الأنعام في الآيات ٨٣ ـ ٨٧ ما يلي:

ـ أنه ورد فيها ١٨ نبياً بشكل مباشر وورد فيها محمد ﷺ بشكل غير مباشر في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . الآية﴾ (الأنعام ٩٠) حيث في هذه الآية الخطاب موجه إلى محمد ﷺ.

ـ نلاحظ أيضاً بشكل صريح أن آدم ليس بنبي إذا أجرينا تقاطعاً بين الآيتين ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٨) ففي هذه الآية الخطاب موجه إلى آدم المصطفى ومن معه وقال لهم بصيغة المستقبل ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً . . الآية﴾ (البقرة ٣٨). وإذا أخذنا قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ . . الآية﴾ (الأنعام ٨٤) وقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام ٩٠) من هذا التقاطع نستنتج أن آدم المصطفى ليس له علاقة بنبوة ولا رسالة.

ب ـ سورة الأنبياء وقد ورد فيها الأسماء التالية: موسى، هارون، إبراهيم، لوط، إسحاق، يعقوب، نوح، داوود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذو الكفل، يونس «ذو النون»، زكريا، يحيى، مريم «عيسى»، وعددهم سبعة عشر «١٧» وقد ورد فيها بشكل غير مباشر محمد ﷺ في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

ج ـ في سورة الشعراء: وقد ورد فيها الأنبياء: موسى، هارون، إبراهيم، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، وقد ورد فيها بشكل غير مباشر محمد ﷺ في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥).

د ـ في سورة مريم وقد ورد فيها: زكريا، يحيى، عيسى، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، موسى، هارون، إسماعيل، إدريس، وقد جاء ذكر محمد ﷺ بشكل غير مباشر في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (مريم ٩٧).

هـ ـ في سورة الصافات: نوح، إبراهيم، إسحاق، موسى، هارون، إلياس، لوط، يونس، وقد ورد فيها بشكل غير مباشر خطاب لمحمد ﷺ في قوله ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (الصافات ١٤٩).

من هذه السور الخمس نستنتج ما يلي:

أن عدد الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الكتاب هو ٢٤ نبياً هم:

١ ـ نوح، ٢ ـ هود، ٣ ـ صالح، ٤ ـ شعيب، ٥ ـ لوط، ٦ ـ إبراهيم، ٧ ـ إسماعيل، ٨ ـ إسحاق، ٩ ـ يعقوب، ١٠ ـ يوسف، ١١ ـ يونس، ١٢ ـ أيوب، ١٣ ـ موسى، ١٤ ـ هارون، ١٥ ـ داوود، ١٦ ـ سليمان، ١٧ ـ زكريا، ١٨ ـ يحيى، ١٩ ـ ذو الكفل، ٢٠ ـ إدريس، ٢١ ـ إلياس ٢٢ ـ اليسع، ٢٣ ـ عيسى، ٢٤ ـ محمد ﷺ.

وإذا تصفحنا الآيات الواردة في هذه السور الخمس مع آيات أخرى رأينا أن عدد الرسل من هؤلاء هو ١٣ ثلاثة عشر رسولاً والباقي أنبياء. والرسل هم:

١ ـ نوح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (نوح ١).

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ١٠٦ ـ ١٠٧).

٢ ـ هود: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ١٢٤ ـ ١٢٥).

٣ ـ صالح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ١٤٢ ـ ١٤٣).

٤ ـ لوط: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ١٦١ ـ ١٦٢).

﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ١٣٣).

٥ ـ شعيب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ١٧٧ ـ ١٧٨).

٦ ـ يونس: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ١٣٩).

٧ ـ إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ٢٦).

٨ ـ إسماعيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم ٥٤).

٩ ـ إلياس: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ١٢٣).

١٠ ـ يوسف: ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَازِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غافر ٣٤).

١١ ـ موسى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم ٥١).

١٢ ـ عيسى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ.. الآية﴾ (آل عمران ٤٩).

١٣ ـ محمد ﷺ: ﴿مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب ٤٠).

أما الباقي فهم أنبياء وليسوا رسلاً، وبدأ الكتاب بموسى وهو الرسالة أي مجموعة كاملة من التشريعات وبعد موسى جاء الكتاب إلى عيسى وهو شريعة موسى «كتاب موسى» مع بعض التعديلات لذا قال: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران ٤٩). وبعد ذلك جاء الكتاب إلى محمد ﷺ وهو الخاتم وأم الكتاب هي رسالة محمد ﷺ. فكل من جاء بعد موسى حكم بشريعة موسى حتى عيسى، ثم جاءت رسالة محمد ﷺ وهي الرسالة الخاتم وتختلف عن كل الكتب التي قبلها بأنها حدودية وسميت عوضاً عن الكتاب بأم الكتاب.

أما الأنبياء فهم:

١ ـ إسحاق: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ..﴾

٢ ـ يعقوب: ﴿وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ (مريم ٤٩).

٣ ـ هارون: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ (مريم ٥٣).

٤ ـ إدريس: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم ٥٦).

٥ ـ زكريا، ٦ ـ يحيى، ٧ ـ داوود، ٨ ـ سليمان:

وقد جاؤوا في الفترة الواقعة بين موسى وعيسى فهم أنبياء فقط أما قوله ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم ١٢). فالكتاب هنا هو كتاب موسى لأن يحيى وزكريا كانا على شريعة موسى. أما قول زكريا الوارد في الآية ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم ٦). فهذا يعني أن هناك صلة رحم بين آل يعقوب وآل عمران حيث أن آل يعقوب هم من آل إبراهيم وزكريا من آل عمران لذا قال عن آدم ونوح وآل

إبراهيم وآل عمران ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران ٣٤).

٩ ـ ذو الكفل:
١٠ ـ اليسع: جاء ذكرهم في سورتي الأنبياء والأنعام ولم يذكر لهم أية رسالة.
١١ ـ أيوب:

ماهي الاستنتاجات التي يمكن أن نستنتجها من هذه السور آخذين بعين الاعتبار منهجنا المتبع في هذا الكتاب:

١ ـ ما هو الزبور؟ ألم يؤت داوود زبوراً. فالزبور هو نبوة داوود فقط وهو كتاب نبوة فقط «معرفة» أي متجانس مع التوراة والإنجيل والقرآن. فالزبور هو نبوة داوود أما شريعته فقد كانت شريعة موسى حيث ذكر الزبور في مقام النبوات في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ حتى أنهى الآية بقوله ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ (النساء ١٦٣). ولكي يبين أن أفضل الأنبياء بعد موسى وعيسى ومحمد ﷺ هو داوود قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ (الإسراء ٥٥). لقد بين في هذه الآية بشكل قاطع أن الزبور أعطى أفضلية لداوود على كثير من الأنبياء.

ولكي يبين أن الكتاب والحكمة هي من الرسالة، والرسالة لا تأتي إلا لنبي أي تضاف إلى النبوة إضافة قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران ٨١). هنا نلاحظ كيف ذكر بعد النبيين الإضافة وهي كتاب وحكمة حيث جاءت منكرة لأن الكتاب والحكمة كمجموعة كاملة «كود كامل» لم يأت إلا إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. أما بقية الأنبياء فقد جاء جزء منه حسب التطور التاريخي. ولكي يفصل الكتاب «التشريع والأخلاق» عن النبوة بالنسبة للأنبياء قال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.. الآية﴾ (البقرة ١٧٧) هنا نلاحظ كيف وضع الكتاب والنبوة.

لذا فإن الكتاب الوحيد الذي يشكل نبوة فقط ولا يوجد فيه أية رسالة «أي كتاب

وحكمـة» هو الـزبـور، فالـزبـور كله معلومـات لذا قال عن القـرآن ﴿وَإِنَّـهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء ١٩٦ ـ ١٩٧) هنا لِمُ كد أن علماء بني إسرائيل ليسوا الأحبار وإنما بقية العلماء. وقوله تعالى ﴿كَانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّـاسِ فِيمـا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ. . الآية﴾ (البقرة ٢١٣) لذا فإن داوود هو من اليهود ونبي فقط، وليس من بني إسرائيل ولكنه من ذرية نوح وكذلك سليمان وأيوب. ونرى أيضاً كيف نوه بأنه يوجد في الزبور علوم قرآنية.

٢ ـ لقد ورد ذكر يوسف وموسى وهارون في سورة مريم على أنهم من ذرية آدم ومن ذريـة من حملنـا مع نوح وليس من ذريـة نوح وجاء ذكرهم في سورة الأنعام على أنهم منّ ذريـة نوح في قولـه ﴿وَوَهَبْنَـا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْـلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِـهِ دَاوُودَ وَسُلَيْـمَانَ وَأَيُّـوبَ وَيُـوسُـفَ وَمُـوسى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام ٨٤).

ونحن نعلم أن يوسف هو ابن يعقـوب وبـالتـالي هو من آل إبـراهيم. وكـذلك موسى وهارون وبالتالي نستنتج أن يوسف وموسى وهارون هم من ذرية نوح من طرف الأم وهم من ذريـة إبـراهيم من طرف الأب. أمـا أيوب وداوود وسليمان فهم من ذرية نوح وليس لهم علاقة بآل يعقوب حيث أن آل يعقوب كانوا معروفين بعد موسى. أما القرآن فيذكر أن داوود كان نكرة في بني إسرائيل وصار ملكاً بشجاعته حيث كان جندياً عنـد طالـوت وذلـك في سورة البقـرة من الأيات ٢٤٦ حتى الآية ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَـلَ دَاوُودُ جَالُـوتَ وَآتَـاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ٢٥١).

هنـا نلاحـظ كيف لم يذكـر الكتـاب مع داوود، وذكر فقط الحكمة، والحكمة وحدها لا تكفي للرسالة حيث أن الله أعطى الحكمة للقمان وهو ليس بنبي. ولا رسول.

٣ ـ يجب أن نميز بين بني إسرائيل واليهود، فبنو اسرائيل هم من اليهود ابتداء من زمن موسى وليس كل يهودي هو من بني إسرائيل.

٤ ـ هناك عائلات محددة من بني إسرائيل هم من ذرية نوح وليس اليهود أو بنو سرائيل هم من ذرية نوح كأن نقول أن محمداً ﷺ هو من ذرية إبراهيم ولكن ليس كل

العرب من ذرية إبراهيم أو إسماعيل والكتلة الاساسية من بني إسرائيل ليست من ذرية نوح لقوله عن بني إسرائيل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (الإسراء ٣). أي أن النظرية السامية ما هي إلا وهم، فلا اليهود ساميون، ولا العرب ساميون.

٥ ـ لقد أكد الله سبحانه وتعالى في القرآن أن ذرية نوح لا تفنى ولا تنقطع إلى يوم القيامة، وأن ذريته منتشرة في كل أنحاء الأرض وليست مقتصرة على دين واحد أو قومية واحدة وذلك في قوله ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات ٧٥ ـ ٧٩). بينما قال عن إبراهيم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الصافات ١٠٨). وقال ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات ١٠٩).

٦ ـ ان هوداً وصالحاً وشعيباً هم ليسوا من ذرية نوح وليسوا من ذرية آدم حيث لم يأت ذكرهم نهائياً من ذرية نوح ولا من ذرية آدم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣) لذا فانهم من ذرية البشر الذين تأنسنوا مع آدم المصطفى وأعتقد أن ذا الكفل منهم أيضاً.

٧ ـ لقد تم ذكر إدريس في سورة مريم على أنه نبي فقط ليس له أية رسالة وبما أن نوحاً هو أول نبي ورسول من البشر فإن ادريس بعد نوح لا قبله حيث ورد اسمه تحت الأنبياء الذين قال عنهم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (مريم ٥٨).

الخاتمة

بعد هذا العرض للقراءة المعاصرة للإسلام والذي اصطبر القارىء عليه مشكوراً ظهر لنا جلياً الأمور التالية:

١ - دقة المصطلح في الكتاب، وأن المصطلحات الواردة في الكتاب ترقى إلى أدق المستويات العلمية سابقاً وحالياً، واعتقد في المستقبل ايضاً.

٢ - البرهان على أن نبوة محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان بالتشابه، وأن رسالته صالحة لكل زمان ومكان بالحدود، وبالتالي فإن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل، وأن الإسلام هو دين الفطرة «الطبيعة» ومنسجم مع قوانين الوجود حيث أن الإله الذي أوحى الإسلام هو نفس الإله الذي خلق الطبيعة، فكان هذا الإنسجام الكبير بين الإسلام والطبيعة نظراً لوحدة الناموس بينهما.

وبالتالي ظهر لنا جلياً الأمور التالية:

آ - إن رسالته رحمة للعالمين وهذه الرحمة نلمسها الآن في كل أنحاء العالم، وليس في شبه جزيرة العرب وفي القرن السابع الميلادي فقط أي ظهر لنا جلياً مصداقية قوله تعالى: ﴿وَمَاأَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

ب - عالمية الرسالة، أي أن رسالته صالحة لكل أهل الأرض وتنسجم معهم ومع فطرتهم، أي ظهر لنا جلياً الآن وفي القرن العشرين، مصداقية قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف ١٥٨).

ج - ظهر لنا جلياً مصداقية قوله تعالى ﴿مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّين وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب ٤٠). وأن أي

إنسان بعد محمد ﷺ يدعي النبوة فقط أو النبوة والرسالة معاً ما هو إلّا مشعوذ.

من خلال رحلة هذا الكتاب ظهر للقارىء جلياً أن أساسيات النظرة الشمولية إلى الوجود بأنواعه «الله، الكون، الإنسان» محتواة في نبوة محمد ﷺ ورسالته، وأن العقيدة الإسلامية يجب أن تطرح وتفهم فهماً فلسفياً ضمن منطوق القرن العشرين.

من هذا الفهم الفلسفي، حوى هذا الكتاب على المواضيع التالية:

المنهج المقترح في معالجة الكتاب والقرآن معالجة علمية، والذي جاء في الباب الأول من هذا الكتاب، والذي بين بشكل جلي الفرق الأساسي بين الكتاب والقرآن والذكر والفرقان والسبع المثاني وأم الكتاب وتفصيل الكتاب واللوح المحفوظ والإمام المبين. وأن ما طرح على أنه من المترادفات خلال قرون عديدة ظهر أنه من المتغايرات. كما ظهر الفرق الجلي بين النبوة والرسالة وبين نبوة محمد ﷺ ورسالته ونبوات ورسالات الرسل قبله. كما ظهر إعجاز القرآن وأنواع التحدي، وفي ضوء هذه المفاهيم تم تحديد قواعد التأويل.

٣ - إن أي طرح فلسفي «الله، الكون، الإنسان» يجب أن يستنتج منه الفروع التالية:

آ - نظرية الوجود الإلهي والكوني وهذا ما جاء في الفصل الأول في الباب الثاني، حيث تم تحديد الوجود الإلهي «الحق، والوجود الكوني الحق أيضاً» وتم تبيان أن الله أحادي، والكون ثنائي، وتم تحديد قوانين الجدل في الكون، وهي الثنائية التناقضية، والثنائية الزوجية، والثنائية الضدية. وعلى ضوء الثنائية التناقضية تم تعريف قانون تسبيح الأشياء لله. ومن هذه الثنائية والتي يعتبر قانون تغير الصيرورة «التطور»، هو العمود الفقري لها، تم استنتاج الصور «الساعة»، البعث، اليوم الآخر، الجنة، النار، وتم استنتاج أن الصور والساعة والبعث لم يحصلوا بعد، وبالتالي فإن الجنة والنار لم توجدا حتى الآن، وإنما ستقومان على أنقاض هذا الكون بعد التسارع في تغير صيرورته «الانفجار الثاني».

ب - نظرية المعرفة الإنسانية: وقد تم شرح هذه النظرية في الفصل الثاني من الباب الثاني، وتم تحديد مصطلح: الرحمن، الشيطان، إبليس، نشأة اللغة وارتباطها بالفكر. وتم تحديد مستويات الوعي الإنساني بالإدراك الفؤادي المشخص، والفكر والعقل، وتم تحديد النقيضين اللذين يعملان في الفكر

لإنسـاني. وفي ضوء هذه النظرية تم تحديد قانون الكم والكيف، والقدر والمقدار، الـدائم والبـاقي، والقلم، والعلق، وتم تأويـل آيـات آدم، أي ما يسمى بالحلقـة لمفقـودة، التي انتقـل بهـا البشـر إلى إنسـان. وفي هذا الفصـل تم تعريف القضاء والقـدر، والحـرية، وعلم الله، وأسس العقل الرحماني، والعقل الشيطاني. كما تم البـرهـان على أن الأعمـار والأرزاق والأعمال غير مكتوبة سلفاً على أحد، وأن مفهوم الجبرية هو مفهوم دخيل على العقيدة الإسلامية الأصيلة.

ج ـ نظرية التشريع «أم الكتاب» والتي تم تحديدها بحدود الله، والتي جاءت في الفصل الأول من الباب الثالث، حيث بينا أن الشرع الإسلامي هو شرع حدودي لا حدي، وأن الله أعطى للنـاس في أم الكتـاب حدود التشـريـع، لا عين التشريع، ومن هنـا كانت الـرسـالـة عالمية، وصالحة لكل زمان ومكان، وهي الرسالة الخاتم، علماً بأن التشـريع الحدودي لم يعط إلى أحد قبل محمد ﷺ، وبهذا تميزت رسالته عن الرسالات التي قبله، لذا فهو الرسول الخاتم.

د ـ نظـريـة الأخـلاق: وقد جاءت في الفصل الثاني من الباب الثالث، تحت مصطلح الفرقان العام «الوصايا العشر» وهو الأخلاق المشتركة لكل أهل الأرض، وقد جاء لكل من موسى وعيسى ومحمد ﷺ، مع وجود فرقان خاص جاء لمحمد ﷺ.

كمـا تم بحث المفـاهيم التـاليـة في هذا البـاب، وهي العبـادات والمعـروف والمنكـر والتعليمـات التي جاءت إلى النبي ﷺ وهي ليست تشريعات. كما تم إفراد بحث خاص للسنـة النبـويـة، حيث خلصنـا إلى مفهوم معاصر للسنة النبوية، ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. وفي نهاية هذا الباب تم اقتراح منهج جديد للتشريع الإسلامي يقوم على الحدود، والتعريف المعاصر للسنة، وإلى مفـاهيم معـاصرة للقياس والإجماع، وتم تطبيق هذا المنهج في التشريع على بحث الإسـلام والمـرأة. حيث تم بحث وضـع المرأة في الكتاب على ضوء الحدود. وتم بحث موضـوع التعـدديـة الـزوجيـة، ولبـاس المرأة، وممارسة المرأة للعمل والحياة العـامـة، وبحث الأحـوال الشخصية وذلك في الفصول ٣ ـ ٥، كما تم بحث فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات.

هـ ـ نظرية الاقتصاد: تم استنتاج الأسس العامة للنشاط الاقتصادي المطروح في القرآن، والذي يقوم على أساس الشهوات. وتبين أن أساس الاقتصاد هو التجديد

في السلع، ووسائل الإنتاج والمردود المادي وذلك في الفصل الأول من الباب الرابع.

و- نظرية الجمال: تم تحديد مفاهيم الجمال، وتطور مواضيع الجمال خلال التاريخ. وتم بحث عناصر الجمال «الغناء، الرقص، الموسيقى، الأدب، الشعر، المسرح». وتم تحديد موقفْ الإسلام من الجمال وذلك في الفصل الأوّل من الباب الرابع.

ز- التطور التاريخي أوخط سير التاريخ: والذي جاء في القصص القرآني، حيث بينا أن القصص القرآني يعطي خط تطور التاريخ الإنساني من حيث المعارف والتشريع. وقد أعطينا نموذجاً عن هذا الخط في ترتيل قصة نوح وقصة هود وذلك في الفصل الثاني من الباب الرابع.

وننتقل الآن إلى ذكر بعض النتائج التي يمكن استخلاصها مما تم عرضه في أبواب الكتاب وفصوله.

أولاً: تعريف الإسلام

تم في الأبواب السابقة شرح مركبات الكتاب من النبوة والرسالة، وتم شرح قوانين الجدل المادي وجدل الإنسان في النبوة ووضع أسس التشريع والأخلاق في الرسالة «أم الكتاب». فما علينا الآن إلا أن نعرف الدين الإسلامي ضمن المنظور المطروح في الأبواب السابقة، وبالتالي نشرح قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران ١٩).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الأُخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران ٨٥).

أولاً لنشرح كلمة «الدين»، فالدين جاءت من الأصل «دين» وهو جنس من الانقياد والذل، فالدين الطاعة ومنها جاءت المدينة والمدنية، وسميت المدينة لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر ومن هذا الباب جاء الدَّين لأن فيه طاعة المدين للدائن مقابل أخذ وعطاء.

فمن باب الحكم جاء قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم الحكم، وقوله تعالى: ﴿مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (يوسف ٧٦) أي في طاعته وحكمه.

فكلمة الدين في المعنى الإسلامي هو مادان به الإنسان لله في خروجه من المملكة الحيوانية وما لزم به طاعته. وهنا جاءت بمعنى «الدين» وهو نفخة الروح، ومن جراء هذا العطاء من الله للإنسان تطور الإنسان وأصبح متحضراً له مدنية، وهذه المدنية نشأت عن معرفة الإنسان التدريجية بقوانين الوجود، وبنفس الوقت تحتاج إلى تشريع وطاعة هذا التشريع وذلك لوجود علاقات اجتماعية اقتصادية واعية، لذا سمى الوحي «الروح» لأن الوحي يحتوي على قوانين الوجود بالنبوة والتشريع بالرسالة. وسمى الكتاب «روح» ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى ٥٢) أما مفهوم الدين وهو كلمة (Religion) على أنه العبادات فقط بالمعنى الأوروبي، فهذا فهم مرفوض عند المسلمين. أما كلمة الإسلام فجاءت من الأصل «سلم» وهو أصل صحيح معظم بابه من الصحة والعافية. فالسلامة أن يسلم الانسان من العاهة والأذى والله هو السَّلامُ لسلامته من العيب والنقائص «تغير الصيرورة» ومن هذا الباب جاء الإسلام وهو الانقياد لأنه يسلم من الإباء والامتناع من هذا المعنى جاء مصطلح الإسلام والدين الإسلامي وهو الدين الخالص من النقائص والعيوب وهو دين سهل الإنقياد ولا يوجد فيه عنت ولا تحجر ولا تزمت بحيث يصبح ممتنعاً على الناس، ولكن الإسلام لا يعني الاستسلام أبداً لأن الله طلب منا أن نُسْلِمَ له لا أن نستسلم بدون قيد أو شرط وفي هذا قال ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ (البقرة ١٢٨) ولم يقل مستسلمين لك وقوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر ٦٦) وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ١٣١).

فكيف نفهم الآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩) وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران ٨٥).

الآن إذا نظرنا إلى مركبات الدين الإسلامي رأيناه يحوي صفتين أساسيتين وهما من المتناقضات وهما الاستقامة والحنيفية، وعلى ثلاث مركبات هي الحق، والأخلاق، والتشريع والعبادات والأعراف، فلنر الآن أين الاستقامة والحنيفية في هذه المركبات الثلاث:

١ ـ الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ٣٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (الفتح ٢٨).

لقد فهم المفسرون أن الدين كله هو اليهودية والنصرانية «الأديان السابقة» ولكن الدين كله هو اسم جنس، واعتقد أن الدين كله بالإضافة إلى كل الديانات السابقة يعني الدين الإسلامي بمركباته الثلاث ودين الحق هو أحد مركباته وهو أقواها جميعاً «أظهرها» وهذا يعني أن دين الحق هو دين الوجود الموضوعي خارج الذات الإنسانية (الكون)،ا وهذا الدين يحتوي على القوانين العامة الناظمة للوجود الموضوعي ولحركة تطور التاريخ، وهذا ما جاء في القرآن «النبوة» لأن من يفهم قوانين الوجود يستطيع أن يتحكم بها ويجعلها تعمل لمصلحته. أما الجانب المستقيم من النبوة فهو النص الثابت، وأما الجانب الحنيف فهو الفهم الإنساني النسبي المتغير.

٢ ـ **دين الأخلاق «القيم الإنسانية»**: وهو دين السلوك الإنساني الأخلاقي والذي جاء عموده الفقري في الوصايا العشر «الفرقان» وهو مستقيم في محتواه ومتغير في طرق التعبير عنه، وبما أن الأخلاق عبارة عن قيم إنسانية ذاتية فهي ضعيفة في ذاتها بحاجة إلى قوة تؤيدها وتدعمها.

٣ ـ **التشريع**: جاء في حدود الله حيث أعطى الله سبحانه وتعالى في الإسلام حدود التشريع وليس عين التشريع، والاستقامة هي في الحدود، والحنيفية هي الحركة ضمن الحدود وحسب التطور التاريخي للمجتمع.

٤ ـ **العبادات**: هي من الحدود.

٥ ـ **الأعراف**: هي حدود الناس وهي الجانب المتغير، وكلها حنيفية حيث أن الفرق بين حدود الله وحدود الناس «الأعراف» أنّ الأولى ثابتة والثانية متغيرة. لذا فإن حنيفية التشريع مرتبطة بالأعراف. والإسلام يقر كل الأعراف الإنسانية «حدود الإنسان» إذا كان لا يوجد فيها تجاوزات لحدود الله، في هذه الحالة الالتزام بحدود الله أهم من الالتزام بالأعراف.

التقوى:

ـ التقـوى: جاءت من الأصـل «وقى» وتدل في اللسان العربي على دفع شي عن شيء بغيره، والوقاية ما يقي الشيء، واتق الله توقه أي اجعل بينك وبينه كالوقاية.

الآن كيف نجعـل وقـاية بيننا وبين الله، أي نتقي سخطه وغضبه، فالتقوى في الإسلام لها أنواع منها التقوى الفردية والتقوى الإجتماعية والتقوى التشريعية حيث أن كل ما يتعلق بالتقـوى جاء في أم الكتـاب «الـرسـالة» إذ لا يوجد في النبوة أي تقوى، فالتقوى هي في السلوك الإنساني لا في الوجود الموضوعي.

آ ـ التقوى الفردية: هي الالتزام بالعبادات ما عدا الزكاة والصدقات حيث أنها عبادة وعلاقة اجتماعية ابتداء من الحد الأدنى فما فوق، وهذه التقوى لها علاقة بكل شخص على حدة، فصلاة الإنسان وصومه وحجه لنفسه، فإذا صلى الإنسان فصلاته له ولا يؤثر في صلاته أو عدم صلاته على أحد وكذلك الصوم والحج.

ب ـ التقـوى الاجتمـاعيـة «الأخلاقية»: وهي الالتزام بالوصايا «الأخلاق» في علاقة المسلم مع غيره من الناس قاطبة بالإضافة إلى الزكاة والصدقات في علاقته مع مجتمعه.

ج ـ التقوى التشريعية: وهي التزام المسلم بالتشريع ضمن حدود الله والتزامه بالأعـراف السـائـدة ضمن حدود التشـريـع، وحقـه في المطـالبـة بتغيير التشريعات والأعراف وتغييرها فعلاً إذا طال عليها الزمن وأصبحت معيقة للتطور الذي هو العمود الفقري للتوحيد، ولا يصدر أي تشريع إلا من خلال موافقة أكثرية الناس عليه «الإجماع».

هذه الأمور كلها تنسجم مع الفطرة الإنسانية ومع قوانين الطبيعة.

ثانياً: فصل الدين عن الدولة

لنناقش الآن أطروحة فصل الدين عن الدولة، أو أطروحة الدولة العلمانية.

لقـد ظهـرت هذه الأطـروحـة ابتـداء من عصـر النهضة في أوربا نظراً لتناقض مكتشفـات العلم مع التفسيـر التـوراتي للكون، ونظراً لجمود شريعة موسى حيث أن

طرح التوراة والإنجيل كان مرحلياً، وشريعة موسى وعيسى كانت زمانية مكانية حدية، فكانت هذه المطالبة مبررة وتنسجم مع فطرة الإنسان، لذا تم في نهاية الأمر فصل الدين عن الدولة حيث أن الديانتين المسيحية واليهودية أصبحتا في المعابد فقط وكان الابتعاد عنهما ينسجم مع فطرة الإنسان الحنيفية. هذا هو السبب الأساسي في فصل الدين عن الدولة.

أما بالنسبة للدين الإسلامي فهو دين حنيفي منسجم مع الفطرة الإنسانية ويعتمد على التشريع الإنساني ضمن حدود الله وعلى البينات المادية وإجماع أكثرية الناس على التشريع.

لنناقش الآن فصل الدين عن الدولة من وجهة نظر إسلامية:

١ ـ إذا أردنا فصل دين الحق عن الدولة، فهذا يعني أن الدولة غير معنية بالبحث العلمي وتطوير مناهج التعليم والجامعات وغير معنية بربط منجزات العلم مع الحياة. والدولة لا تعنيها البينات المادية والإحصائية في رسم سياساتها المختلفة، وبالتالي فإن الدولة تقوم على المنجمين والمشعوذين والدجالين.

٢ ـ إذا أردنا فصل منهج التشريع الإسلامي «حدود الله» عن الدولة فهذا يعني أن الدولة غير حنيفية في التشريع، والتشريع فيها حدي غير متطور، والدولة لا يهمها إجماع أكثرية الناس على التشريع المطروح ولا تأخذ بعين الاعتبار تأثير تطور المعارف على التشريع، ففي هذا يقع ظلم كبير على الناس من جراء عدم تطوير التشريع زماناً ومكاناً.

٣ ـ إذا أردنا فصل الوصايا «الفرقان» عن الدولة فهذا يعني أن الدولة غير معنية بشهادة الزور وقتل النفس وإشاعة الفاحشة ورعاية الأيتام وحنث اليمين والوفاء بالمواصفات في البيع والشراء والإنتاج.

٤ ـ إذا أردنا فصل مفاهيم الجمال عن الدولة والتي تعتبر من الفطرة الإنسانية فهذا يعني أن الدولة غير معنية بالآداب من شعر ونثر ورسم ونحت وتصوير وغير معنية بالرياضة والنشاطات الرياضية.

الآن إذا تم فصل هذه البنود الأربعة عن الدولة ينتج لدينا سؤال هام وهو: ماهي الدولة؟ الجواب هو في هذه الحالة: الدولة هي لا شيء. قد يقول البعض إن ما نعنيه بفصل الدين عن الدولة هو العبادات فقط. أقول: لقد كفاكم النبي ﷺ

مؤونة هذا الفصل حيث فصلها بنفسه. فهل مارس النبي الإكراه في العبادات الصلاة والصوم والحج؟ وهل كلف أحداً بمراقبة من يصلي ومن لا يصلي، أو من يصوم أو لا يصوم، أو من أدى فريضة الحج؟ لقد استعمل النبي ﷺ في هذه العبادات أسْلوب الترغيب والترهيب، أي الأسلوب التربوي البحت، لا الأسلوب السلطوي حيث نفهم أن الدولة تعني السلطة، والسلطة فيها إكراه، أي لو كانت الصلاة والصوم هي من مهام الدولة لوضعت الدولة عقوبة على تارك الصلاة والصوم، ولأكرهت الناس على أدائها. وهذا لا يوجد في الإسلام بتاتاً، حيث أن العبادات هي صلة بين العبد وربه، وكل مهمة الدولة في العبادات تنحصر في التسهيل على الناس أداء الحد الأدنى من العبادات واحترام هذه العبادات وعدم تشجيع الناس على تركها.

وهكذا نفهم قوله تعالى ﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران ٨٥).

وهكذا نجد أيضاً أنه لا يوجد إنسان في الأرض إلا وله في الإسلام نصيب علم ذلك أم لم يعلم، لأن الإسلام ينسجم مع الفطرة الإنسانية «طبيعة الناس». قد يقول قائلٌ إنَّ معظم أهل الأرض في هذا المنظور ملتزمون بحدود الله ويعيشون حسب أعرافهم المتطورة، فهل يعني هذا أنَّ معظم أهل الأرض سيدخلون الجنَّة؟ جاء الجواب في الكتاب أن المؤمنين منهم فقط سيدخلون الجنة، لذا أتبع قوله ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ (التوبة ١١٢). بقوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ١١٢). أي أن البشرى للمؤمنين من هؤلاء. لذا فقد ورد الموقف الإلهي من الناس كافة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢).

نلاحظ هنا أن هذه الآية تنطبق على كل أديان أهل الأرض السماوية منها وغيرها، والشرط الأساسي هنا الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ـ هنا نريد أن نصحح الخطأ الشائع وهو أن الصابئيں هم أهل حرَّان شمال شرق سوريا الذين أُطْلِق عليهم الصابئة، والصح هو أن الصابئين من صَبأ عن الأديان السماوية الثلاثة ولكنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا ما نعرفه عن قول العرب في مكة عندما كان يدخل أحد منهم في دين محمد ﷺ (صبأ فلان) أي خرج عن دين الآباء ودخل في دين

محمد ﷺ . وهنا الصابئون من صبأ عن ديانة موسى وعيسى ومحمد ولكنه مؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً .

من هنـا نرى لمـاذا وضـع صيغة المبني للمجهول في قوله : ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران ٨٥) حيث أنه مفروغ منه أنه لن يقبل من قبل الله لقوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ ولكن هنـاك وجـه آخـر أنـه ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ مِنَ قبل الناس أيضاً، فأي خروج عن الفطرة الإنسانية في النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتشريعي فيه خروج عن الإسلام فسيؤدي ذلك بالضرورة إلى استنكار الناس له لذا فإن ميزاننا نحن المسلمين بأن أي موقف لا يوجد فيه خروج عن حدود الله وفيه العدالة النسبية «أي معتمـد على البينـات المـاديـة» سيؤدي إلى إرضاء الناس وموافقة أكثرية الناس عليه . وأي موقف يؤدي إلى احتجاج أكثرية الناس عليه فهو موقف غير إسلامي . هذا هو ميزاننا الدقيق في ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم ٣٠) .

من هذا المنظور نرى أن الأحاديث الثلاثة للنبي ﷺ ان صحت منسجمة تماماً بعضها مع بعض :

١ ـ «بعثت بالحنيفية السمحة ومن خالف سنتي فليس مني» «الجامع الصغير» .

٢ ـ «اختلاف أمتي رحمة» «الجامع الصغير ج ١/ ١٢» .

٣ ـ «كـل مولـود يولـد على الفطرة حتى يعرب لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» «ذكره الجامع الصغير» .

هنا نلاحظ كيف أكد النبي ﷺ على الحنيفية وأنها هي العمود الفقري لرسالته وهي سنتـه . وهي بالمفهـوم الـذي طرحنـاه تحمـل مفهـوم السمـاحـة وعـدم العنت والتحجـر، وهي ملة إبـراهيم وليست ملة موسى وعيسى لذا قال «كـل مولود يولد على الفطرة» حيث أن الحنيفية هي فطرة الإنسان وهي أساس الإسلام وعلق بقوله «فأبواه» وهما أكثر الناس تأثيراً عليه، ثم المجتمع يحولانه من فطرة إسلامية حنيفية إلى عقيدة متـزمتـة متحجـرة حديـة عينيـة لذا قال «يهـودانـه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولـم يقل أو يجعلانه على ملة إبراهيم علماً بأن إبراهيم جاء قبل موسى وعيسى .

أمـا قول النبي ﷺ «اختـلاف أمتي رحمـة» فقد علق عليه البعض بأنه إذا كان الاختـلاف رحمـة فهـذا يعني أن الإجماع نقمة . أقول إن الإجماع نقمة فعلاً . فهل

يمكن أن تطبق عقوبة الإخلال بالآداب العامة في باريس مثل عقوبة الإخلال بالآداب العامة في اليمن؟ إن أم الكتاب أعطتنا المجال بأن نطبق تشريعات مختلفة على حالة معينة باختلاف الزمان والمكان، وكل هذه التشريعات إسلامية بحتة.

إن الإجماع بمفهومه الإسلامي الصحيح هو إجماع أكثرية الناس على التشريع المقترح لحالة معينة في زمان ومكان معين، لا الإجماع المطلق الذي لا يحوي بعد الزمان والمكان وهذا ما يسمى بالإجماع الوهمي وهو الذي يطرحه الآن علماء الدين الإسلامي بقولهم «أجمع جمهور العلماء» حيث أن هذا الإجماع ليس أكثر من وهم يطرح على الناس. لأنهم أخذوا آراء الفقهاء في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة وجمعوها وقالوا هذا هو الإجماع الذي يجب أن يتبعه المسلمون في كل زمان ومكان، إلى أن تقوم الساعة، فقتل الإسلام في مهده وتم طرحه في فراغ وفُصِلَ عن الحياة بأيديهم ولا يزالون يقاتلون من أجل فصله ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويظنون أن أعداء الإسلام هم الذين يريدون فصله عن الدولة، علماً بأن فصل الإسلام الحقيقي عن الدولة وبالمنظور المطروح في هذا الكتاب فيه استحالة.

هنا أريد أن أنبه إلى ناحية في غاية الأهمية وهي مبدأ الدفاع عن الحدود. فإذا تجاوز أحد من الناس حدود الله، فإن الله سبحانه وتعالى يدافع عن حدوده لأنه هو الذي وضعها، فإذا تم تجاوز حدود الله من قبل أحد فسيقع ظلم كبير على الناس، في هذه الحالة يجب أن يتأكد الناس بأن الله سبحانه وتعالى لن يترك حدوده مستباحة، وأنه سيتدخل ويكيد لمن يخترق حدوده. أما إذا استبيحت حدود الناس كأن يصدر تشريع إنساني يضع حدوداً لضرائب الدخل وفيه ظلم للناس وهو ليس من حدود الله، فعلى الناس أن تعلم أن من مهامها هي حصراً إزالة هذا الظلم والإحتجاج عليه، لا أن تضعه على عاتق الله وتنتظر تدخل الله. إن الإنسان الذي ينتظر تدخل الله في كل شاردة وواردة في الحدود التي لا تتعلق بحدود الله هو الإنسان المستكين الذي يخضع ويتلاءم مع الأنظمة الديكتاتورية في العالم. فالله يحرس حدوده، والناس تحرس حدودها والله الموفق.

ثالثاً: إسلامية الدولة العربية بالمنظور المعاصر

إذا سألني سائل: ماهي المواد التي يجب أن يحتويها دستور أية دولة لكي تصبح إسلامية؟ إنني أنوه هنا بالخطأين الشائعين جداً من قبل المسلمين وهما:

آ ـ المناداة بأن دستور الدولة القرآن، وهذا خطأ لأن القرآن لا يحتوي على أي تشريع.

ب ـ خطأ المناداة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، لأن الشريعة الإسلامية لا تحتوي على أحكام، بل على حدود، ولا يوجد حكم حدي في الإسلام إلا في حالة الفاحشة العلنية.

• فحتى تصبح الدولة العربية المنشودة أو أي دولة إسلامية يجب أن يحتوي دستورها على عقيدة التوحيد، وهذه العقيدة يعبر عنها بما يلي:

١ ـ إن عقيدة الدولة العربية الإسلامية فيما يتعلق بالوجود هي أن هذا الكون الذي نعيش فيه هو وجود مادي حقيقي مبني على الثنائية بالتناقضات والأزواج والأضداد وعلى تغير الصيرورة «التطور» في الأشياء وفي المجتمعات، والتناقضات الداخلية في المجتمعات تؤدي بالضرورة إلى تغير الشكل وظهور شكل جديد في المجتمع والعلاقات الاجتماعية وفي بنية الدولة. لذا فإن هذه الدولة هي دولة متطورة مبنية على البينات المادية التي يقدمها العلم الموضوعي وعلى العقل، وهذه الدولة لا يمكن أن تزول ولكن تتطور من شكل إلى آخر ما دام هذا الكون قائماً حتى قيام الساعة (نهاية التاريخ) وهلاك هذا الكون ليقوم على أنقاضه كون جديد خال من المتناقضات، والإنسان يتدخل في تغير الصيرورة إسراعاً أو إبطاءاً ولكن لا يستطيع أن يلغيها. لذا فإن البحث العلمي وربط العلم بالحياة ودفع عجلة التطور إلى الأمام هو أحد المبررات الرئيسية لوجود هذه الدولة، في هذه المادة تكمن عقيدة توحيد الربوبية ﴿كُلُ شَيْء هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص ٨٨). أو ما أطلقنا عليه قانون التسبيح. وأي طرح للعدالة خارج عن هذا القانون هو طرح طوباوي وهمي وإنّ العدالة لا يمكن أن تكون إلا نسبية مرحلية.

٢ ـ إن التشريع في الدولة العربية الإسلامية مبني على أنه لايوجد شيء اسمه

الشـريعـة الإسـلاميـة ولكن يوجـد شيء اسمه حدود الله التي وردت في أم الكتاب. والتشـريـع الإسلامي هوتشريع إنساني ضمن حدود الله، لذا فلا يجوز أن يصدر أي تشـريـع في هذه الـدولة فيه تجاوز لحدود الله وإلا فهو باطل. وصاحب الحق الوحيد في وضع حدود تشريعية دائمة «ثابتة» أو تشريع حدي لا يتغير هو الله وحده. أما كل نص تشـريعي حدودي أوحدي يضعـه الإنسـان فهـو بحـد ذاتـه متغيـر وقابل للإلغا والحنف عنـه ويخضـع للأعـراف ودرجـة التطـور العلمي والتاريخي للمجتمع، أي للحـالات التي تفـرزهـا التنـاقضات الداخلية للمجتمع وحالات علاقة المجتمع مع غيره من المجتمعات، لذا فيجب أن يضم أي تشريع يصدر في هذه الدولة بنداً يحدد مدة صلاحيته ووجوب إعادة النظر فيه.

٣ ـ إن العلاقات الأخلاقية في المجتمع العربي الإسلامي مبنية على الفرقان العام «الوصايا»، والدولة ملتزمة بوضع منهاج تربوي للأجيال مبني على الفرقان.

في هذين البندين تكمن عقيدة توحيد الألوهية.

٤ ـ إن الـدولـة العـربيـة الإسـلاميـة تحتـرم الجـد والعمـل والكسب والتوفير وطموحات الأفراد والجماعات في كل مجالات الحياة لذا فعلاقتها مع المواطنين لا تقوم على الحقد والحسد، وكذلك علاقة المواطنين بعضهم ببعض.

٥ ـ في الدولة العربية الإسلامية تكفل الدولة للناس ممارسة الحد الأدنى من العبادات بالنسبة للمسلمين وغيرهم، ولا يمكن أن يصدر أي تشريع يمنع الناس من هذه الممـارسـة، وكـذلـك لا يمكن أن يصـدر أي تشـريع يجبر الناس على ممارسة العبـادات. وكـذلك لا تشجع الدولة أية جهة تحض الناس على ترك العبادات، لأن العبـادات ليست موقفـاً سيـاسياً أو تشريعياً وبالتالي فإن هذه الدولة تنظر إلى مصطلح الخليفة ورجال الدين والفقهاء والمفتي والإمام على أنها ألقاب تاريخية أفرزها تفاعل الإسلام مع مراحل تاريخية مختلفة للمجتمعات العربية الإسلامية.

٦ ـ بما أن التشريع الإسلامي تشريع حنيف ويحتاج إلى بينات مادية وإجماع أكثـريـة النـاس على التشـريـع المقتـرح، لذا فإن الـدولـة العـربيـة الإسلامية دولة ديموقراطية تقوم بنيتها الأساسية على التعددية الحزبية وحرية التعبير عن الرأي حيث يمكن أن يطـرح في هذه الـدولـة عدة اجتهادات لمشكلة معينة وكلها إسلامية ضمن حدود الله، والمـواد المطـروحـة أعلاه هي ضمان الديموقراطية، وفيها تكمن الأسس

المتينة للوحدة الوطنية بحيث أنها تنسجم مع قوانين الطبيعة وفطرة الناس.

رابعاً: في أزمة العقل عند العرب

في ضوء شرحنا للعقل العلمي الذي جاء في النبوة والعقل الإتصالي الأخلاقي والتشريعي الذي جاء في الرسالة يتبين لنا بشكل جلي أزمة العقل عند العرب، هذه الأزمة التي هي قديمة حديثة والتي بدأت بشكل جلي بعد حسم المعركة بين المعتزلة والفقهاء لصالح الفقهاء، وضاع بعد هذه الهزيمة ضياعاً كاملاً الفرق بين النبوة والرسالة، وبين الكتاب والقرآن، أي تم الدمج بين العقل العلمي والعقل الإتصالي والذي تجلى فيما يلي:

١ ـ لقد تم دمج القرآن والكتاب والذكر والفرقان معاً، وتم تحويل الدين الإسلامي إلى دين اتصالي فقط أي أن التنزيل كله جاء من أجل تنظيم العلاقة الإتصالية بين العبد وربه، وبين الإنسان والإنسان، وأن الإسلام دين العبادات والمعاملات فقط. أما الآيات الكونية والقصص التي هي القرآن جاءت ليتفكر المسلم بآلاء الله ونعمه وقدرته، ليس إلا. وأصبح الإسلام ليس له علاقة بالفلسفة وبالعلوم العملية التي أسموها فيما بعد بالعلوم الدنيوية «مثل أصل الإنسان، التطور، النشوء، الإرتقاء، خلق الكون، نظرية الطفرة» وقد تم الاعتماد على النقل اعتماداً كاملاً بدون نظرة نقدية.

٢ ـ بما أن سنة الحياة هي العقل العلمي الذي يحاول الإنسان من خلاله فهم الوجود «الله، الكون، الإنسان» وبما أن تخلف هذا العقل يؤدي إلى تدهور مستوى التقدم، وقد حصل هذا في عصور الانحطاط حيث لم يتقدم العرب والمسلمون قيد أنملة إلى الأمام، علماً بأن الفقه والعبادات والمواعظ لم تتوقف، والمساجد والزوايا وحلقات الذكر ومجالس الصلاة على النبي ﷺ لم تتوقف بل زادت ونمت، ومع ذلك وصل العرب والمسلمون إلى غاية التدهور في التخلف والسذاجة في التفكير وفي تفسير أحداث الكون والتاريخ الإنساني حتى وصلنا إلى العقدة الكبرى وهي أن كل فشل أساسه العقل العلمي، يعزى إلى فشل العقل الإتصالي، وقد تجلت هذه العقدة في تفسير أحداث التاريخ. فمثلاً كل هزيمة منيَ بها العرب والمسلمون سببها

بعدهم عن ربهم وقلة التقوى علماً بأن هزيمتهم تمت على أيدي كفرة غير مسلمين.
وما زال العقل الإتصالي حتى يومنا هذا هو العقل المسيطر عند العرب في مجالات الأفراد والمجتمعات والدول.

ففي مجالات الأفراد، نرى حتى يومنا هذا المئات من الأغنياء العرب يتبرعون لبناء المساجد والمدارس الدينية، ولا يخطر على بال الكثير منهم التبرع لجامعة أو لمعهد بحث علمي مثل معهد أبحاث السرطان وأمراض القلب، حيث أن تبرعاً من هذا النوع لا يقل أهمية عند الله سبحانه وتعالى عن المال المدفوع لمسجد.

أما في مجالات الجماعات فما زالت حتى يومنا هذا المجتمعات العربية والإسلامية تنظر إلى العقل الاتصالي على أنه العقل الديني. وأن الإسلام جاء من أجل التقوى والموعظة والمودة والحب، ويغفلون جانب الحق والباطل في الدين الإسلامي والذي هو أهم جانب فيه وأقواه، وأن النبي ﷺ قاد معركة بدر وأحد والأحزاب من أجل الحق والباطل، لا من أجل الحلال والحرام، أي أن هذه المعارك تم خوضها ليس من أجل ترك الخمر والميسر، بل من أجل سحق أوهام الجاهلية «الباطل في عقول العرب» علماً بأنه من الناحية الاتصالية كان يوجد عند العرب مكارم أخلاق في الجاهلية وقد ثبتها الإسلام. ولكن العقل الجاهلي العلمي هو الذي نسفه الإسلام نسفاً دون رحمة ولا هوادة.

وأما في مجال الدول فترى الأموال التي تنفق على صياغة العقل الاتصالي «المسموح والممنوع» عند المواطن أضعاف ماينفق على صياغة العقل العلمي «الحقيقي والوهمي».

هنا أيضاً يجب أن ننتبه إلى ناحية في غاية الخطورة وهي أن العقل الاتصالي حتى ولو كانت طروحاته جذابة وجميلة ومحببة إلى النفس مثل مفهوم تحقيق العدل وإلغاء الظلم. حيث أن هذا الطرح يبقى شعاراً جميلاً محبباً ووهمياً إذا لم يقترن بالعقل العلمي. أي علينا أن نتعلم باستمرار القوانين الموضوعية للوجود وللعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بحيث لا نقع في طرح للعدالة بشكل طوباوي يتعارض مع القوانين الموضوعية. هذا الطرح لا نجني منه إلا الفشل والخيبة. وإذا أردنا أن نصوغ هذه الأطروحة بشكل آخر فهو أن العقل الاتصالي يجب ألا يوضع بشكل معاكس للعقل العلمي. فقوانين الوجود لا تتغير من أجل قوانين الأخلاق والعدالة

ولا يمكن تطبيق أم الكتاب بشكل معاكس ومتعارض مع القرآن، لأن كل واحد منهما يتماشى مع الآخر ولا يتعارض معه.

٣ - إن عدم فهم نظرية الحدود في أم الكتاب لمئات من السنين، أي فهم حدود الله على أساس حدي لا حدودي أوقع العقل العربي في مواقف حدية دائماً، فأصبح هذا العقل لا يرى إلا الأبيض والأسود دون النظر إلى آلاف الاحتمالات من الألوان بين اللونين. فهذا العقل يعادي بشكل حدي ويصادق بشكل حدي وابتعد جداً عن مفهوم الحل الوسط في كل الأمور. وعن مفهوم الديموقراطية وإجماع أكثرية الناس على التشريع المقترح والمدعم ببينات مادية إحصائية.

٤ - لقد أثر هذا المفهوم في الوقوف على الحدود على أنها التشريع على منهج التعليم، فأصبح التعليم عبارة عن تلقين من المعلم وحفظ من الطالب أي امتحان للذاكرة فقط، وغاب الفكر النقدي غياباً شبه كامل لمئات من السنين. وفي هذا المجال أورد بيتين من الشعر لابن فارس ينتقد فيه ثقة الناس بما يدعونهم الأعلام الثقاة ويدعو فيه إلى الفكر النقدي ويحذر من التقليد:

إسمعْ مقالةَ ناصحٍ ... جَمَعَ النصيحةَ والمِقَهْ
إيّاك واحذرْ أن تكو ... ن من الثقاتِ على ثقهْ

علما بأن الفكر النقدي لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا من خلال نظام ديموقراطي يقوم على حرية التعبير عن الرأي.

وهكذا نرى أن أزمة الديموقراطية هي أزمة مستعصية في العقل العربي قبل أن تكون في الأنظمة.

هنا يجب علينا وضع مفهوم للتخلف، حيث كثر الحديث حول هذا المصطلح. فبرأينا للتخلف نوعان:

١ - تخلف نسبي عام للإنسانية جمعاء وهو تخلف المعقولات عن المحسوسات وهو ما يسمى بالغيب الكلي، أي أن هناك كثير من قوانين الوجود وظواهره ما زالت مجهولة بالنسبة للجنس الإنساني بشكل عام وهذا التخلف لا يمكن إلغاؤه كلياً. حيث أن إلغاءه يعني أن الإنسان أصبح كامل المعرفة، ولكن الإنسانية تسير حتماً باتجاه مقارب لهذا الإلغاء دون الوصول إليه.

٢ - تخلف نسبي خاص وهو تخلف مجموعة من الناس عن مجموعة أخرى،

وهـذا التخلف عبـارة عن تحنف المعقولات عن المحسوسات بالنسبة لمجموعة من الناس بحيث أن هذه المحسوسات نفسها هي معقولات بالنسبة لمجموعة أخرى من النـاس. وقـد نظن البعض أن فتـح معـاهـد البحث العلمي والجـامعـات في الدول المتخلفة هو الحل فقط. أقول هو جزء أساسي من الحل وليس الحل كله، حيث أن منهـج التفكيـر العلمي المـادي القـائـل إن التصـديق سابق التصـور بالنسبة للمعرفة الإنسـانيـة، والـذي يجب أن يكـون من مسلمات كل فرد في المجتمع متعلم أم غير متعلم هو جزء أساسي مع الجامعات ومعاهد البحث العلمي.

فالـوطن العـربي عبـارة عن شعـوب ما زالت متخلفـة مع كثـرة الخريجين من الجامعات، والسبب أن الإنسان العربي المتعلم يعيش عقدة الإنفصام بين ما تعلمه في الكتب والجـامعـات من علوم مختلفـة وبين سلوكـه اليـومي في الحيـاة حيث أن طرائق التفكير للحياة اليومية تختلف تماماً عن طرائق التفكير العلمي. وهذه المشكلة أيضاً موجودة عند الخريجين العرب من جامعات غير عربية.

خامساً: العروبة والإسلام

ومن خلال سيـاق هذا الكتـاب تبين لي زيف الانفصام المصطنع بين العروبة والإسلام بالنسبة للعرب بالذات، حيث أنني كعربي ومسلم، لم أشعر لحظة واحدة خلال حوالي ربع قرن بأن ما أكتبه يشكل انفصاماً بين العروبة والإسلام، بل العكس هو الصحيح، تبين لي هذا التلاحم الطبيعي بينهما، وقد بينت الأيام والأحداث زيف الانفصـام المصطنـع بينهمـا. كمـا أن عالمية الإسلام بينت أنه لا يوجد انفصام بين الإسلام وبين أي قومية أخرى غير العربية. فالمسلم السويدي عليه أن يبقى سويدياً بكل أعراف وطبائع أهل السويد، وعليه أن يتقيد فقط بحدود الله والوصايا. واعتقد ان القـارىء استنتـج لوحـده من خلال قراءة هذا الكتـاب بأن التطور والتقدم هما أساس العقيدة الإسلامية، وأن اليسر وراحة الناس، وتقديم الأدلة المادية، وإجماع الناس على التشـريـع، همـا اسـاس السلوك والتشـر يع الإسلامي، ومن هنا سمي الإسلام «بـالـدين الحنيف» وأن أحب الأديـان إلى الله هو «الحنيفيـة السمحـة» وأن الله رحم عباده ويَسَّر عليهم أكثر من رحمة الوالدين لأولادهما وتيسيرهما عليهم.

من هذا الطرح قد يسأل سائل: إن الإسلام في شكله المعاصر المطروح في هذا الكتاب يختلف تماماً عن إسلام القرن السابع الميلادي. أقول: نعم في المظهر، ولا في المحتوى، وأضرب المثال التالي: إذا كتب عالم في نشأة الكون «الكوسمولوجيا» مقالة عن الانفجار الكوني وتطور المادة حتى أصبحت شفافة للضوء، أي حتى ظهر عنصر الهيدروجين، وهذه المقالة هي تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، وقرأ هذه المقالة أبوبكر الصديق، ففي هذه الحالة فإنه لا يفقه شيئاً مما قرأ، ولا يعلم أن هذه المقالة هي تأويل قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ولكن إذا كتب صاحب المقالة جملة «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول المقالة، فإن أبا بكر سيعلم أن كاتب هذه المقالة هو مسلم وينتمي إلى نفس الدين الذي ينتمي إليه أبوبكر. لذا فإن الخيط الرئيسي الواصل بيننا وبين السلف وبين الخلف، هو التوحيد في أبسط صوره وتعابيره وهو «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» والعبادات. فالمسلم من قبل، والآن، ومن بعد، يصلي كما صلى النبي والسلف، ويصوم كما صام النبي ﷺ، ويحج كما حج النبي ﷺ. وهنا تظهر أهمية التوحيد في أبسط صوره، والعبادات في حياة الأمة، والتي تعتبر خط التواصل في مختلف مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. لذا فقد كان من الطبيعي أن تفصل العبادات عن الدولة وعن أي عمل سياسي أو اقتصادي.

ومرة أخرى أتوقع أن يصدم القارىء بمحتويات هذا الكتاب، وما حواه من أفكار، لذا فإني أرجو من القارىء ألا يتسرع في الحكم عليّ، وعلى الكتاب، وأطلب منه راجياً إعادة قراءة هذا الكتاب. كما أرجو من القارىء أن يعلم أن الدافع وراء هذا الكتاب الذي أعطيته زهرة شبابي، كان الألم مما وصل إليه العرب والمسلمون من مهانة وذل وتخلف، حتى كادت تصبح كلمات «العرب والمسلمين والتخلف» من المترادفات. وكذلك الألم وخيبة الأمل من سذاجة الطروحات والسلوكيات الإسلامية المعاصرة، وبشكل عام من سطحية الفكر العربي المعاصر الذي وصل إلى درجة العقم والجفاف. وعلى القارىء أن يضع نصب عينيه أنني بشر، ولا أدعي الكمال أبداً، ولكنني وضعت منهجاً علمياً في فهم الكتاب، وأتمنى من القارىء أن يستوعبه ويطوره.

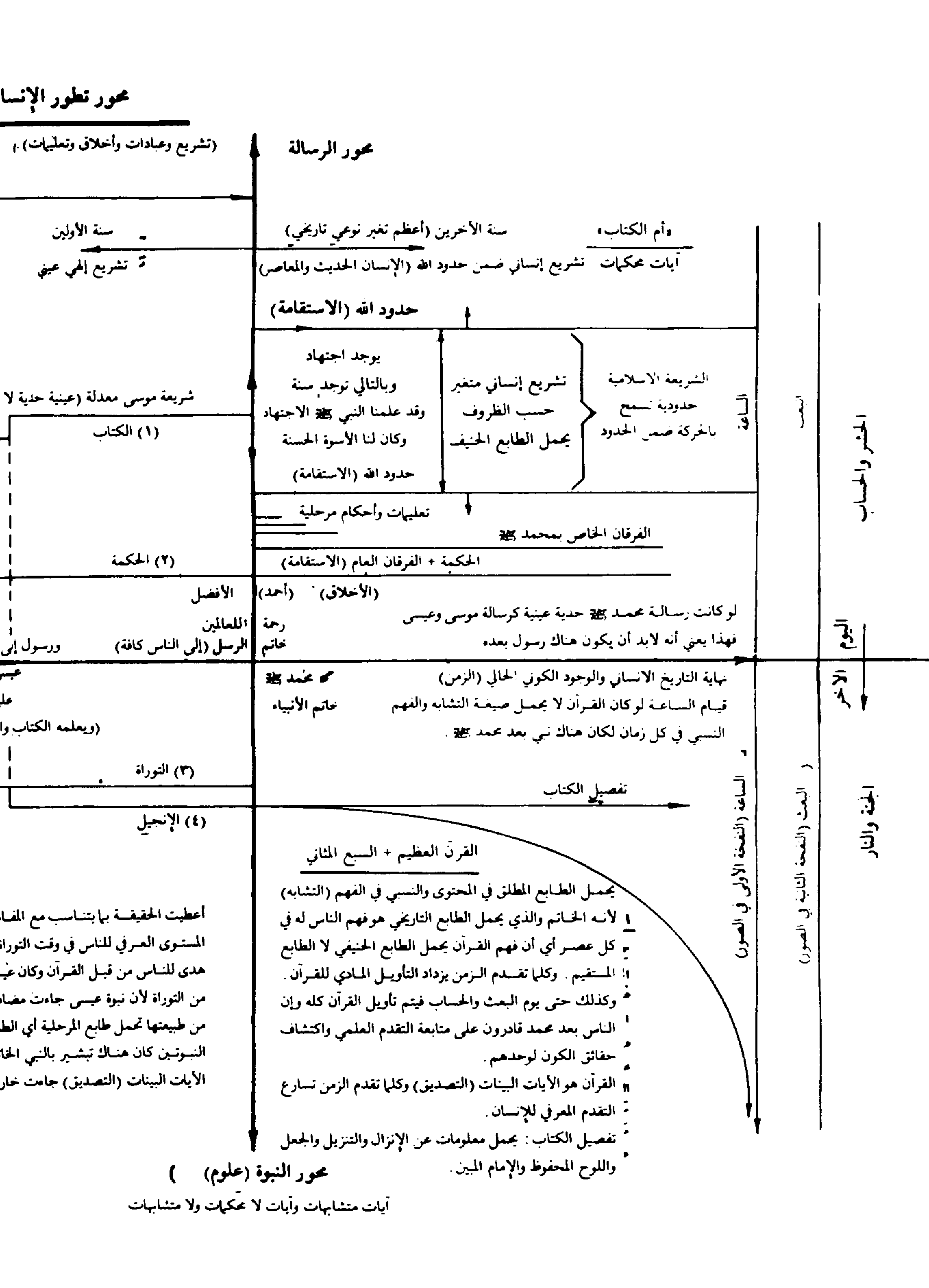
إن العالم الآن على أبواب استقبال القرن الحادي والعشرين الميلادي، ولا

أعتقد أنه يوجد شيء عند العرب والمسلمين ليدخلوا به هذا القرن، فكأنه كتب علينا «حاشا الله» أن نعيش عالة على العالم في السلع والأفكار. إن ما نعيشه الآن ليس قدرنا الإلهي ولكنه قضاؤنا الذي اخترناه بأنفسنا نتيجة جهلنا، وعدم وجود نظرية معرفية إنسانية لدينا.

إنني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن أكون من الناس الذين استطاعوا أن يقدموا شيئاً إيجابياً لأمتهم وشعبهم. ولا أدعي الكمال في حياتي الشخصية، ولا أعيش حياة الناسكين. وأرجو أن أكون عند الله من الذين قال عنهم: ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر ٣٥).

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران ٨).

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود ٨٨).



محور تطور الإنسا
محور الرسالة
(تشريع وعبادات وأخلاق وتعليمات)
سنة الأولين
تشريع إلهي عيني
سنة الآخرين (أعظم تغير نوعي تاريخي)
تشريع إنساني ضمن حدود الله (الإنسان الحديث والمعاصر)
«أم الكتاب»
آيات محكمات
حدود الله (الاستقامة)
يوجد اجتهاد
وبالتالي توجد سنة
وقد علمنا النبي ﷺ الاجتهاد
وكان لنا الأسوة الحسنة
حدود الله (الاستقامة)
تشريع إنساني متغير
حسب الظروف
يحمل الطابع الحنيف
الشريعة الاسلامية
حدودية تسمح
بالحركة ضمن الحدود
الساعة
البعث
الحشر والحساب
شريعة موسى معدلة (عينية حدية لا
(١) الكتاب
تعليمات وأحكام مرحلية
الفرقان الخاص بمحمد ﷺ
(٢) الحكمة
الحكمة + الفرقان العام (الاستقامة)
الأفضل
(أحد)
(الأخلاق)
للعالمين
رحمة
الرسل (إلى الناس كافة)
خاتم
ورسول إلى
لو كانت رسالة محمد ﷺ حدية عينية كرسالة موسى وعيسى
فهذا يعني أنه لابد أن يكون هناك رسول بعده
اليوم الآخر
محمد ﷺ
خاتم الأنبياء
نهاية التاريخ الانساني والوجود الكوني الحالي (الزمن)
قيام الساعة لو كان القرآن لا يحمل صيغة التشابه والفهم
النسبي في كل زمان لكان هناك نبي بعد محمد ﷺ.
(ويعلمه الكتاب وا
(٣) التوراة
تفصيل الكتاب
(٤) الإنجيل
القرآن العظيم + السبع المثاني
الساعة (النفخة الأولى في الصور)
البعث (النفخة الثانية في الصور)
الجنة والنار
يحمل الطابع المطلق في المحتوى والنسبي في الفهم (التشابه)
لأنه الخاتم والذي يحمل الطابع التاريخي هو فهم الناس له في
كل عصر أي أن فهم القرآن يحمل الطابع الحنيفي لا الطابع
المستقيم. وكلما تقدم الزمن يزداد التأويل المادي للقرآن.
وكذلك حتى يوم البعث والحساب فيتم تأويل القرآن كله وإن
الناس بعد محمد قادرون على متابعة التقدم العلمي واكتشاف
حقائق الكون لوحدهم.
القرآن هو الآيات البينات (التصديق) وكلما تقدم الزمن تسارع
التقدم المعرفي للإنسان.
تفصيل الكتاب: يحمل معلومات عن الإنزال والتنزيل والجعل
واللوح المحفوظ والإمام المبين.
أعطيت الحقيقة بما يتناسب مع المفا
المستوى العرفي للناس في وقت التورا
هدى للناس من قبل القرآن وكان غ
من التوراة لأن نبوة عيسى جاءت مضا
من طبيعتها تحمل طابع المرحلية أي الط
النبوتين كان هناك تبشير بالنبي الخا
الآيات البينات (التصديق) جاءت خار
محور النبوة (علوم)
آيات متشابهات وآيات لا محكمات ولا متشابهات

...رسالات من بداية الأنسنة

المملكة الحيوانية

مرحلة انتقالية بين
التقليد والأنسنة

الانسان القديم

...الحديث

«الكتاب»

الشريعة

...خاصة من حالات أم الكتاب

...حدية لايوجد احتهاد) حالة خاصة من حالات أم الكتاب

الانتصاب على القدم

﴿الكتاب المُستبين﴾

﴿الكتاب والفُرقان لعلهم يهتدون﴾

اكتمال لغة مجردة
بأسط صورها
وبما يتناسب مع
التطور الاجتماعي
والانتاجي

﴿...الصراط المُستقيم﴾

التوحيد والاستغفار فقط

حياة اجتماعية متميزة

آدم (المصطفى)

نوح

موسى
عليه السلام

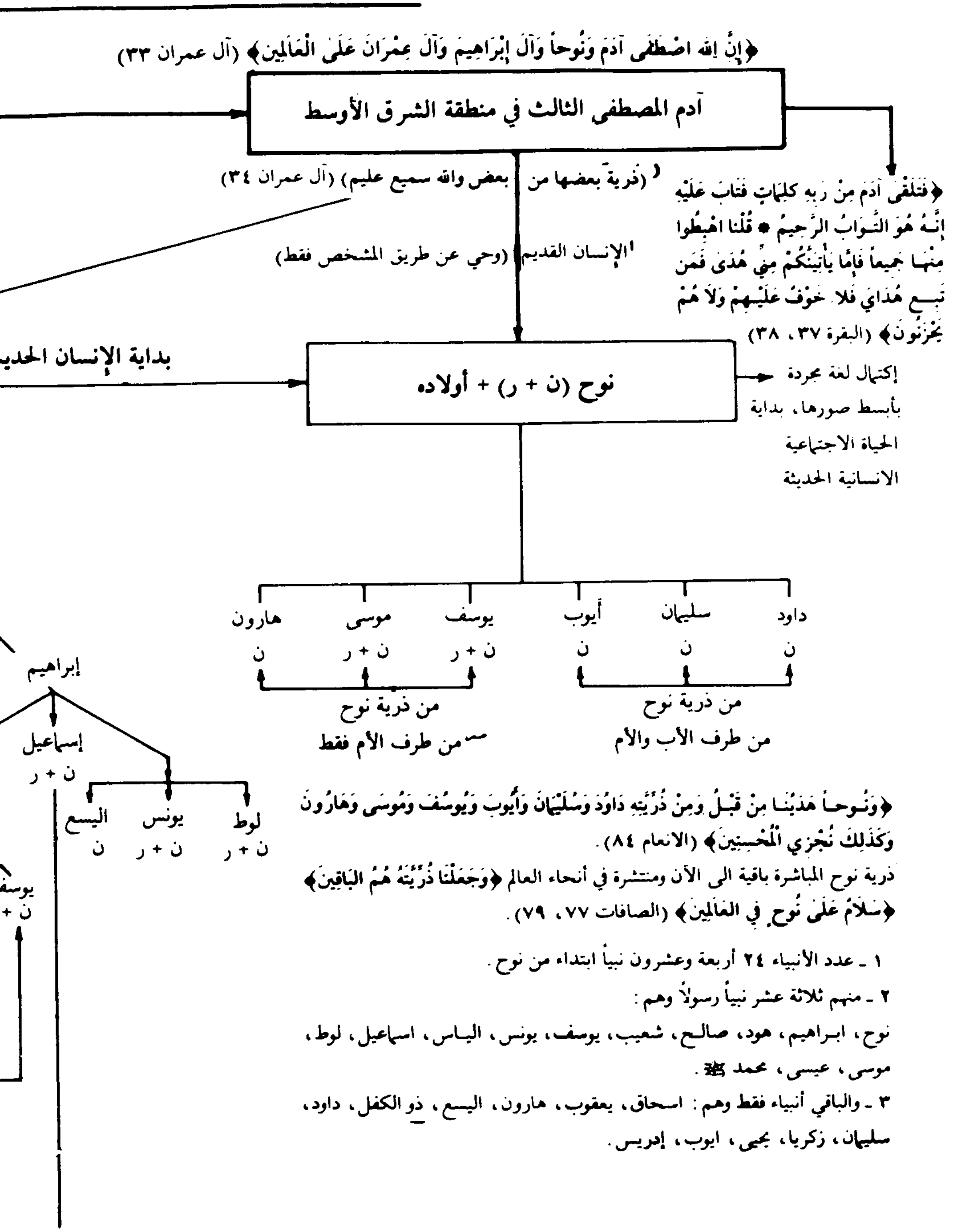
...و الانسان
بداية التجريد

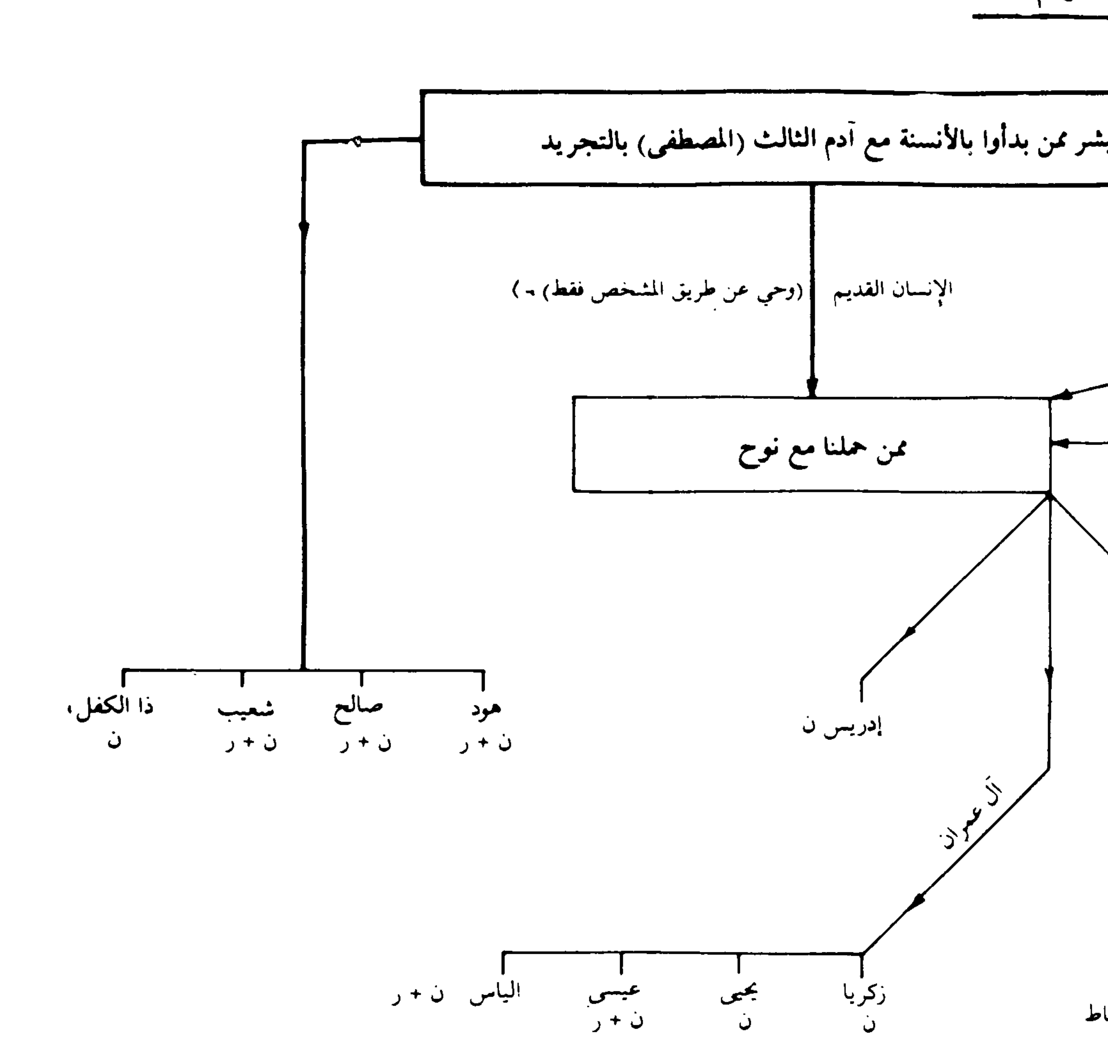
التبشير بالبيان
صناعة الفلك

اكتشاف النار
ودفن الموتى
وإدراك مشخص فقط
والتعليم فقط عن
طريق الملائكة
المشخصة (إنزال)
التعليم الفؤادي

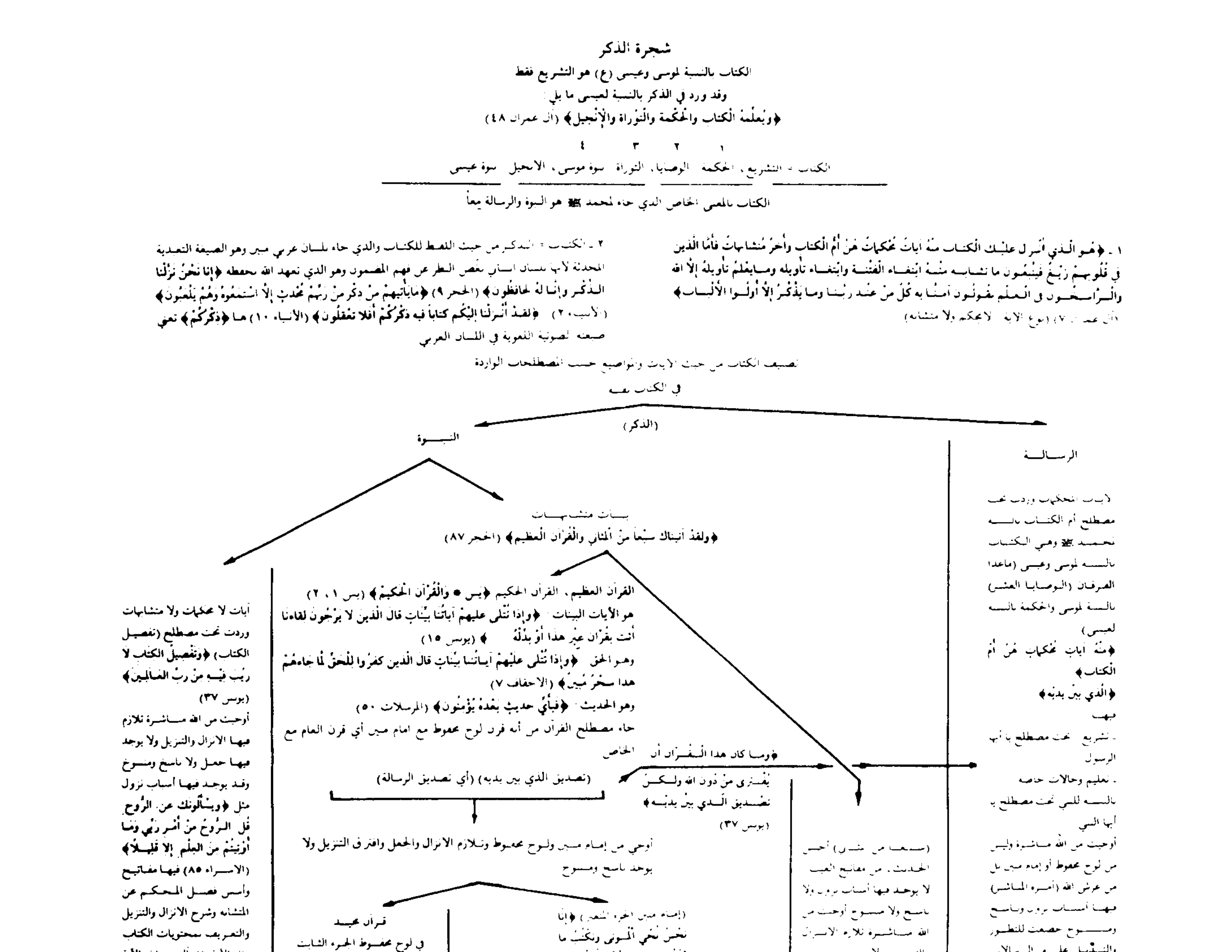
بداية الوحي المجرد
للبشر بالإضافة إلى
التعليم الفؤادي
تطور المعارف الإنسانية
بالنبوات

إبراهيم
بداية التفكير الحنيف عند الانسان ملة
إبراهيم حنيفاً
(ولهذا كان إبراهيم أمة قانتاً لله حنيفاً)
وما كان من المشركين
وكان إمام الناس


﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣)
آدم المصطفى الثالث في منطقة الشرق الأوسط
(ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) (آل عمران ٣٤)
الإنسان القديم (وحي عن طريق المشخص فقط)
﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٧، ٣٨)
بداية الإنسان الحديث
نوح (ن + ر) + أولاده
إكتمال لغة مجردة بأبسط صورها، بداية الحياة الاجتماعية الانسانية الحديثة
داود
ن
سليمان
ن
أيوب
ن
يوسف
ن + ر
موسى
ن + ر
هارون
ن
من ذرية نوح
من طرف الأب والأم
من ذرية نوح
من طرف الأم فقط
إبراهيم
إسماعيل
ن + ر
لوط
ن + ر
يونس
ن + ر
اليسع
ن
يوسف
ن +
محمد ﷺ
بداية الانسان الحد
﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الانعام ٨٤).
ذرية نوح المباشرة باقية الى الآن ومنتشرة في أنحاء العالم ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات ٧٧، ٧٩).
١ ـ عدد الأنبياء ٢٤ أربعة وعشرون نبياً ابتداء من نوح.
٢ ـ منهم ثلاثة عشر نبياً رسولاً وهم:
نوح، ابراهيم، هود، صالح، شعيب، يوسف، يونس، الياس، اسماعيل، لوط، موسى، عيسى، محمد ﷺ.
٣ ـ والباقي أنبياء فقط وهم: اسحاق، يعقوب، هارون، اليسع، ذو الكفل، داود، سليمان، زكريا، يحيى، ايوب، إدريس.



ملاحظة: ن = نبي
ر = رسول



شجرة الذكر
الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى (ع) هو التشريع فقط
وقد ورد في الذكر بالنسبة لعيسى ما يلي:
﴿ويعلّمهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ﴾ (آل عمران ٤٨)
١ ٢ ٣ ٤
الكتاب = التشريع، الحكمة الوصايا، التوراة نبوة موسى، الانجيل نبوة عيسى
الكتاب بالمعنى الخاص الذي جاء لمحمد ﷺ هو النبوة والرسالة معاً
١ - ﴿هو الذي أنزل عليك الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأُخرُ متشابهاتٌ فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلمُ تأويلَه إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكّرُ إلا أولو الألباب﴾
(آل عمران ٧) (نوع الآية لا محكم ولا متشابه)
٢ - الكتاب = الذكر من حيث اللفظ للكتاب والذي جاء بلسان عربي مبين وهو الصيغة التعبدية المحددة لأنه بلسان انساني يغض النظر عن فهم المضمون وهو الذي تعهد الله بحفظه ﴿إنا نحن نزّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾ (الحجر ٩) ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم محدثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ (الأنبياء ٢) ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكرُكم أفلا تعقلون﴾ (الأنبياء ١٠) هنا ﴿ذكركم﴾ تعني صيغته الصوتية اللغوية في اللسان العربي
تصنيف الكتاب من حيث الآيات والمواضيع حسب المصطلحات الواردة
في الكتاب نفسه
(الذكر)
النبـــوة
الرســالـــة
بينات متشابهات
﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم﴾ (الحجر ٨٧)
القرآن العظيم، القرآن الحكيم ﴿يس * والقرآنِ الحكيم﴾ (يس ١، ٢)
هو الآيات البينات ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدّله﴾ (يونس ١٥)
وهو الحق ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قال الذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم هذا سحرٌ مبين﴾ (الأحقاف ٧)
وهو الحديث ﴿فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾ (المرسلات ٥٠)
جاء مصطلح القرآن من أنه فرق لوح محفوظ مع امام مبين أي فرق العام مع الخاص
(تصديق الذي بين يديه) (أي تصديق الرسالة)
﴿وما كان هذا القرآنُ أن يُفترى من دون الله ولكن تصديقَ الذي بين يديه﴾ (يونس ٣٧)
أوحي من إمام مبين ولوح محفوظ وتلازم الانزال والجعل وافترق في التنزيل ولا يوجد ناسخ ومنسوخ
قرآن مجيد في لوح محفوظ الجزء الثابت
(إمام مبين الجزء المتغير) ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما
آيات لا محكمات ولا متشابهات وردت تحت مصطلح (تفصيل الكتاب) ﴿وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه من ربّ العالمين﴾ (يونس ٣٧)
أوحيت من الله مباشرة تلازم فيها الانزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل ولا ناسخ ومنسوخ وقد يوجد فيها أسباب نزول مثل ﴿ويسألونك عن الروحِ قلِ الروحُ من أمرِ ربّي وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلاً﴾ (الاسراء ٨٥) فيها مفاتيح وأسس فصل المحكم عن المتشابه وشرح الانزال والتنزيل والتعريف بمحتويات الكتاب
الآيات المحكمات وردت تحت مصطلح أم الكتاب بالنسبة لمحمد ﷺ وهي الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى (ماعدا الفرقان (الوصايا العشر) بالنسبة لموسى والحكمة بالنسبة لعيسى)
﴿منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب﴾
﴿الذي بين يديه﴾
فيه
- تشريع تحت مصطلح يا أيها الرسول
- تعليم وحالات خاصة بالنسبة للنبي تحت مصطلح يا أيها النبي
أوحيت من الله مباشرة وليس من لوح محفوظ أو إمام مبين بل من عرش الله (أمره المباشر) فيها أسباب نزول وناسخ ومنسوخ خضعت للتطور
(مفصل من متشابه) أحسن الحديث، من مفاتيح الغيب لا يوجد فيها أسباب نزول ولا ناسخ ولا منسوخ أوحيت من الله مباشرة تلازم الانزال

أَسْرَارُ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ

الدكتور
جعفر دك الباب

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

سورة الشعراء (١٩٢ - ١٩٥)

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

سورة العلق (١ - ٥)

صدق الله العليّ العظيم



الفهرس

المقدمة

أحرر هذا «**المختصر**» المكثف في حدود سبعين صفحة تقريباً بناء على طلب الصديق الدكتور المهندس محمد شحرور، وأعطيه عنوان «**أسرار اللسان العربي** يتضمن «المختصر» نتائج أبحاثي اللغوية خلال أكثر من عشرين عاماً كرستها للدرس والعمل من أجل خدمة اللغة العربية الشريفة، ويستهدف الكشف عن خصائص بنية العربية باستخدام منهج علمي يأخذ بآخر ما وصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة وينبع في الوقت نفسه من تراثنا اللغوي العربي.

وسأجعل «المختصر» في **ثلاثة فصول وخاتمة وما بعد الخاتمة**.

الفصل الأول: اللسان العربي المبين.

الفصل الثاني: في تاريخ النحو والبلاغة.

الفصل الثالث: في النحو العربي.

الخاتمة: أشير فيها إلى بعض النقاط المعروضة في الفصول ثم أجمل أسرار بنية اللسان العربي.

ما بعد الخاتمة: تشتمل على «**الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللسان العربي المبين**».

الدكتور جعفر دك الباب

الجمعة في ١٥/١١/١٤١٠هـ، ٨/٦/١٩٩٠م.



الفصل الأول
اللسان العربي المبين

١ ـ النص الصريح في القرآن بأنه عربي وبلسان عربي مبين.
٢ ـ الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف».
٣ ـ جمع عثمان القرآن.
٤ ـ مناقشة الرأي القائل بأن القرآن أنزل بلغة قريش.
٥ ـ ما هي اللغة العربية الفصحى؟
٦ ـ ما هو اللسان العربي المبين؟
٧ ـ لغة القرآن الكريم شاهد تاريخي يقيني على أصالة اللسان العربي.



أولاً ـ النص الصريح في القران بأنه عربي وبلسان عربي مبين.

يشير الدكتور جواد علي الى ان «كل لغات العرب هي نغات عربية وان اختلفت وتباينت. وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم إلا لغة واحدة من تلك اللغات، ميزت من غيرها واكتسبت شرف التقدم والتصدر بفضل الإسلام وبفضل نزول الكتاب بها فصارت «اللغة العربية الفصحى» ولغة العرب أجمعين. وحكمنا هذا ينطبق على النبط أيضاً وعلى من كان على شاكلتهم، وان عدهم علماء النسب والتاريخ واللغة والأخبار من غير العرب وأبعدوهم عن العرب والعربية..»[1].

لابد هنا من الإشارة إلى أن لفظة «لغة» كانت تستعمل بمعنى «لهجة»، فيقال لغات قريش وهذيل وثقيف.. ويقصد بذلك لهجاتها. واني أرى أن لغة القرآن الكريم ليست واحدة من لغات «لهجات» العرب، لأن وصف القرآن في التنزيل بأنه «عربي» يعني أنه أنزل بلسان جميع العرب، وأن لغة القرآن الكريم قد عكست بالضرورة مراحل متفاوتة من التطور اللغوي للعربية. ويؤيد ما ذهبنا اليه أن القرآن، حين نص صراحة على أنه «بلسان عربي مبين» و«لسان عربي»، استخدم لفظة «لسان» بدلاً من «لغة» للتأكيد أن لغته ليست واحدة من لغات «لهجات» العرب بل هي لسان جميع العرب.

آ ـ نص القرآن الكريم صراحة على أنه «قرآن عربي» في الآيات التالية:

- ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (الزخرف ٣).
- ﴿وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربياً﴾. (الشورى ٧).
- ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾. (يوسف ٢).
- ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد﴾ (طه ١١٣).
- ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون﴾. (فصلت ٣).
- ﴿قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾. (الزمر ٢٨).

ب ـ ونص صراحة كذلك على أنه «بلسان عربي مبين» في قوله تعالى:

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾. (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥).

ج ـ كما نص على أنه «بلسان النبي الكريم» في قوله تعالى :

﴿فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ . (الدخان ٥٨) .

د ـ ونص على أن «لسان الكتاب عربي» في قوله تعالى :

﴿ . . . وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً . . . ﴾ . (الأحقاف ١٢) .

هـ ـ كما نص في موضع آخر على أنه «لسان عربي مبين» في قوله تعالى :

﴿ . . . وهذا لسان عربي مبين . . . . ﴾ . (النحل ١٠٣) .

ثانياً ـ الحديث الشريف «انزل القرآن على سبعة احرف» .

لم يقر جميع العرب بأن لغة القرآن الكريم في أعلى درجة من البيان ، ولم يعتبروها قمة في الفصاحة والبلاغة إلا لأنها اللسان العربي الواحد لجميع العرب . ومن الطبيعي أنّ يشتمل هذا اللسان العربي الواحد على أشكال متنوعة للقراءة كانت تعكس في الأصل أوجه التغاير بين اللهجات «اللغات» العربية من حيث اللفظ أو المعنى . **وقد ورد في الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف»** . وسرد أبو شامة المقدسي في «كتاب المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»[٢] جميع الروايات الصحيحة لهذا الحديث .

من الروايات الصحيحة «اقرأني جبريل عليه السلام على حرف واحد فراجعته ، فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» . ومنها «ان هذا القران أنزل على سبعة أحرف فاقرؤ وا ما تيسر منه» .

ونقل أبو شامة قول ابن العربي في كتاب شرح الموطأ : «ولم تتعين هذه السبعة بنص من النبي ﷺ ولا باجماع من الصحابة ، وقد اختلفت فيها الأقوال ، فقال ابن عباس : اللغات سبع والسموات سبع والأرضون سبع ، وعدد السبعات ، وكأن معناه أنه نزل بلغة العرب كلها»[٣] . وأورد السيوطي في «الاتقان في علوم القرآن»[٤] الأقوال المختلفة في معنى هذا الحديث وأشار إلى أنها بلغت أربعين قولاً . وذكر الأستاذ مناع القطان في كتابه «مباحث في علوم القرآن»[٥] ان أكثر العلماء ذهبوا إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات «أي لهجات» من لغات العرب في المعنى الواحد .

اننا نرفض التفسير الذي يرى أن معنى «انزال القرآن على سبعة أحرف» هو أن

«القرآن أنزل بسبع لغات مع اشتراط أن يكون ذلك في المعنى الواحد»، لأن هذا التفسير يؤدي إلى القول بأن القرآن لم ينزل باللسان العربي الذي هو لسان جميع العرب، ويؤدي بالتالي إلى القول بأن القرآن ليس عربياً «أي ليس لجميع العرب»، بل هو قرآن لسبع قبائل فقط من العرب.

أورد السيوطي القول الخامس في معنى الأحرف السبعة وهو التالي: «إن المراد بها الأوجه التي يقع بها التغاير، ذكره ابن قتيبة قال: فأولها ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل «ولا يضار كاتب» بالفتح والرفع. وثانيها ما يتغير بالفعل مثل «بعد وباعد» بلفظ الطلب والماضي. وثالثها ما يتغير باللفظ مثل «ننشرها وننشزها». ورابعها ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل «طلح منضود، وطلع». وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل «وجاءت سكرة الموت بالحق، وسكرة الحق بالموت». وسادسها ما يتغير بزيادة أونقصان مثل «والذكر والأنثى، وما خلق الذكر والانثى». وسابعها ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل «كالعهن المنفوش، وكالصوف المنفوش». وتعقب هذا قاسم بن ثابت بأن الرخصة وقعت وأكثرهم يومئذ لا يكتب ولا يعرف الرسم وانما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها. وأجيب بأنه لا يلزم من ذلك توهين ما قاله ابن قتيبة لاحتمال أن يكون الانحصار المذكور في ذلك وقع اتفاقاً وانما اطلع عليه بالاستقراء»[1].

يظهر من كلام السيوطي أنه يؤيد رأي ابن قتيبة الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه يقع بها التغاير. وكان الإمام السكاكي قد وصف في «مفتاح العلوم» قول ابن قتيبة بهذا الصدد بأنه «أقرب الأقوال إلى الصواب».

وأكد السكاكي أن المراد بسبعة الأحرف سبعة أنحاء من الاعتبار متفرقة في القرآن ترد إلى اللفظ والمعنى دون صورة الكتابة، لأن النبي عليه السلام كان أمياً ما عرف الكتابة ولا صور الكلم. وصنف السكاكي الأنحاء السبعة التي تقع فيها أوجه التغاير[2] في ثلاث مجموعات:

آ ـ **المجموعة الأولى**: إثبات كلمة «لفظة» وإسقاطها. وتشتمل على حالتين:

١ ـ **الحالة الأولى**: لا يتفاوت المعنى. مثل قراءة «وما عملت أيديهم» في موضع «وما عملته» فالتغاير يظهر هنا في إثبات لفظ الضمير العائد «الهاء» وفي إسقاط في قوله تعالى: ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾.

(يس ٣٥).

٢ - الحالة الثانية: يتفاوت المعنى. مثل زيادة «من نفسي» في قراءة قوله تعالى: ﴿إنَّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾. (طه ١٥)، كما في قراءة بعضهم «إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي».

ب - المجموعة الثانية: تغيير الكلمة (اللفظة) نفسها. وتشتمل على ثلاث حالات:

١ - الحالة الأولى: تتغير اللفظتان والمعنى واحد: مثل قراءة «البُخل» و«البَخَل» في قوله تعالى: ﴿ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾. (النساء ٣٧). وقوله تعالى: ﴿ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغني الحميد﴾. (الحديد ٢٤). ومثل قراءة «زقية» في موضع «صيحة» في قوله تعالى: ﴿إنْ كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾. (يس ٢٩).

٢ - الحالة الثانية: تتغير اللفظتان وتتضاد المعنى. مثل قراءة «أُخفيها» بمعنى أكتمها و«أَخفيها» بمعنى أظهرها في قوله تعالى: ﴿إنَّ الساعة آتية أكاد أخفيها﴾. (طه ١٥).

٣ - الحالة الثالثة: تتغير اللفظتان ويختلف المعنى. مثل قراءة «الصوف» في موضع «العهن» في قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾. (القارعة ٥). ومثل قراءة «طلع» في موضع «طلح» في قوله تعالى: ﴿وطلح منضود﴾. (الواقعة ٢٩).

ج - المجموعة الثالثة: أمر عارض للفظ. وتشتمل على حالتين:

١ - الحالة الأولى: الموضع. مثل قراءة «سكرة الحق بالموت» في موضع «سكرة الموت بالحق» في قوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾. (ق ١٩).

٢ - الحالة الثانية الإعراب. مثل قراءة «أطهرُ» و«أطهرَ» في قوله تعالى: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله..﴾. (هود ٧٨).

إنني أرى أن الامام السكاكي قدم تفسيرا علمياً يحل مشكلة «إنزال القرآن على سبعة أحرف» حين أكد أن المراد بسبعة الأحرف سبعة أنحاء من الاعتبار متفرقة في القرآن ترد إلى اللفظ والمعنى دون صورة الكتابة، لأنه اعتمد المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. وبفضل ذلك المنهج استطاع تحديد الأنحاء

السبعة التي تقع فيها أوجه التغاير على الشكل التالي :

١ ـ اثبات لفظة واسقاطها دون أن يتفاوت المعنى .
٢ ـ اثبات لفظة واسقاطها مع تفاوت المعنى .
٣ ـ تغيير اللفظتين والمعنى واحد .
٤ ـ تغيير اللفظتين والمعنى متضاد .
٥ ـ تغيير اللفظتين والمعنى مختلف .
٦ ـ تقديم لفظة وتأخير أخرى .
٧ ـ تغيير الوصف الاعرابي للفظة .

وأرى ان هذا التفسير العلمي الذي قدمه السكاكي لمعنى الأحرف السبعة صحيح من الناحيتين اللسانية والتاريخية .

فمن الناحية اللسانية . كان اللسان العربي الواحد لجميع العرب يشتمل في لهجاته «لغاته» المختلفة على أوجه تغاير في اللفظ قد تؤدي إلى تغاير في المعنى . وإلى جانب وجود اختلاف بين لهجات «لغات» اللسان العربي في طريقة لفظ الكلمات المفردة، كانت توجد بينها أوجه اختلاف في التراكيب تتركز في الأمور التالية :

١ ـ اثبات كلمة واسقاطها .
٢ ـ تغيير الكلمة نفسها .
٣ ـ تغيير ترتيب الكلمات .
٤ ـ تغيير أوجه الاعراب .

وهذا أمر طبيعي تقره قوانين اللسانيات العامة الحديثة .

ومن الناحية التاريخية ، كان العرب المسلمون يقرؤون القرآن الكريم على سبعة أحرف كما علمهم الرسول الكريم . واستمر الحال كذلك في عهد أبي بكر وعمر . ثم اقتضت الظروف الموضوعية في عهد الخليفة عثمان تثبيت نص واحد مكتوب للقرآن الكريم . فقام عثمان بجمع القرآن في المصحف الذي عرف باسمه «مصحف عثمان»[٨] .

ثالثاً ـ جمع عثمان للقرآن.

كتب السيوطي عن جمع عثمان للقرآن ما يلي: «اختُلِف هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة. فذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى غير ذلك، وبنوا عليه أنه لا يجوز على الأمة ان تهمل نقل شيء منها. وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك. وذهب العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفاً منها. قال ابن الجزري وهذا هو الذي يظهر صوابه. ويجاب عن الأول بما ذكره ابن جرير أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة وإنما كان جائزاً لهم ومرخصاً لهم فيه، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد أجمعوا على ذلك اجماعاً شائعاً وهم معصومون من الضلالة ولم يكن في ذلك ترك واجب ولا فعل حرام[9]».

إن استخدام المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية ـ لدى دراسة لغة القرآن الكريم التي دوّنها مصحف عثمان في صورة من الكتابة واحدة ـ يؤكد أن جمع عثمان للقرآن الكريم لم يكن على حرف واحد. ولما كانت الكتابة العربية في عهد عثمان لا تعرف الإعجام والشكل، فقد استمر العرب والمسلمون في قراءة القرآن وفق ما تسمح به الاحتمالات الممكنة للنص القرآني المكتوب من الأحرف السبعة.

وقد أفرد أبو شامة المقدسي في «المرشد الوجيز» فصلاً[10] لمناقشة هذه المسألة. فذكر أن القاضي أبا بكر يميل إلى أن المجموع في المصحف هو جميع الأحرف السبعة، بينما يرى الطبري والأكثرون من بعده أنه حرف منها. ونقل قول أبي العباس أحمد بن عمار المقرىء في «شرح الهداية» من أن «هذه القراءات التي نقرؤها، هي بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، استعملت لموافقتها المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة وترك ما سواها من الحروف السبعة لمخالفته لمرسوم خط المصحف». وعقب أبو شامة على ذلك قائلاً «لأن خط المصحف نفى

ما كان يقرأ به من ألفاظ الزيادة والنقصان والمرادفة والتقديم والتأخير».

ويعني ذلك أنه بعد جمع عثمان للقرآن بقيت القراءات مختلفة. إلا أن نطاق اختلافها تقلص إلى حدود الاحتمالات الممكنة فقط لنص مصحف عثمان. ثم صنف العلماء المتأخرون في المئة الثالثة للهجرة سبع قراءات على أنها مذاهب أئمة في القراءات. وأضاف آخرون إليها ثلاث قراءات حتى بلغت عشر قراءات. وانني أرى أن القراءات السبع «أو العشر» تعكس في الأصل أوجه التغاير بين اللهجات «اللغات» العربية نتيجة التفاوت في مراحل التطور التاريخي للسان العربي بلهجاته «لغاته» المختلفة.

رابعاً ـ مناقشة الرأي السائد القائل بأن القرآن الكريم أنزل بلغة قريش

ونطرح الآن السؤال التالي: **ماهو سند أصحاب الرأي السائد القائل بأن القرآن الكريم أنزل بلغة قريش؟**

من المعلوم أن الخليفة عثمان رضي الله عنه كلف أربعة نفر: ثلاثة من قريش «هم: عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص» ورجلاً من الأنصار «هو زيد بن ثابت» بنسخ القرآن. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم. وفي رواية أخرى أنه قال لهم: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه على ما تقولون أنتم، فان القرآن أنزل على لسان قريش.

يرى أبو شامة المقدسي أن «معنى قول عثمان (ان القرآن أنزل بلسان قريش) أي معظمه بلسانهم، فإذا وقع الاختلاف في كلمة فوضعها على موافقة لسان قريش أولى من لسان غيرهم. أو المراد: نزل في الابتداء بلسانهم، ثم أبيح بعد ذلك أن يقرأ بسبعة أحرف»[11].

انني أرى أن قول الخليفة عثمان المشار اليه لا يعدو أن يكون توجيهات ادارية لأعضاء لجنة نسخ القرآن التي شكلها. ولا يجب أن نحمله على محمل قول الصحابي الملزم في الأمور الفقهية، لأن قول الصحابي يكون ملزماً فقط حين لا يتعارض مع صريح نص القرآن الكريم وصريح نص الحديث الشريف. واستغرب

كيف ترد على لسان الصحابي الجليل عثمان عبارة «لسان قريش» بدلاً من «لغة قريش»، لأنه يوجد لسان عربي واحد مشترك بين جميع العرب وتوجد إلى جانبه لغات «أي لهجات» لمختلف القبائل. لذا ذكر محقق «المرشد الوجيز» أن المقصود من قول عثمان هو التالي: «اذا اختلفتم في رسم كتابته فاكتبوه بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها من نحو همز وغيره، فإنه نزل بها»[٦٦].

وهكذا يتبين أن القول إن «القرآن أنزل بلغة قريش» لا يمكن قبوله ولا يستند إلى أساس فقهي لمعارضته ما نص عليه القرآن والحديث. وما دام الأمر كذلك، فما هو السبب في أن الرأي بأن «القرآن أنزل بلغة قريش» هو السائد؟

صحيح أن النبي الكريم من قريش ولغته قرشية، لكن القرآن الكريم تنزيل من العلي الحكيم، وهو عربي وبلسان عربي. وقد يظن بعضهم أن عبارة «بلسانك» في قوله تعالى: «فإنما يسّرناه بلسانك» تفيد «بلسان قريش» لأن لسان النبي قرشي. والجواب عليه أن لغة النبي الكريم «أي لهجته» قرشية، ولكن لسانه هو اللسان العربي الواحد لجميع العرب. وعليه يكون معنى الآية «يسّرناه باللسان العربي». ولعل التأكيد أن لغة القرآن قرشية هو أحد التأثيرات الاسرائيلية في التراث العربي الإسلامي، ويهدف إلى نزع صفة التنزيل عن القرآن الكريم والزعم بأن القرآن هو كلام محمد، لذا فالقرآن بالضرورة بلغة محمد القرشية.

وبما أن جميع العرب أقروا بأن لغة القرآن هي في أعلى درجة من البيان واعتبروها قمة في الفصاحة والبلاغة، فإن أصحاب الرأي القائل إن «القرآن أنزل بلغة قريش» نادوا بأن لغة قريش هي العربية الفصحى، وأنها لذلك سادت وابتلعت اللغات الأخرى. وبما أن لغة قريش من اللهجات الشمالية، زعم بعض المستشرقين أن لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الإسلام ذات سلطان قوي ونفوذ واسع وابتلعت اللهجات الجنوبية واحدة تلو الأخرى. ولكن هؤلاء المستشرقين لم يشرحوا الأسباب اللغوية التي جعلت لهجات الشمال تبتلع لهجات الجنوب.

تلازم فيها الانزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ (الرعد ٣٧) ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ (غافر ٢)

- الآيات المبينات: هي من أم الكتاب وهي آيات شارحة لأحكام ظرفية كأحكام الزنا.
- الفرقان العام: هو الوصايا العشر وهو الصراط المستقيم الذي جاء إلى موسى وبه أنعم الله على بني اسرائيل وهو الحكمة بالنسبة لعيسى (آتاني الكتاب والحكمة) وهو التعاليم المشتركة (التوحيد والأخلاق) بين الأديان السماوية الثلاثة وسمي الفرقان لأنه جاء إلى موسى مفرقاً عن الكتاب ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ (البقرة ٥٣) وهناك فرقان خاص جاء الى محمد ﷺ

أم الكتاب هي رسالة النبي ﷺ نقلها الى الناس وطبقها حسب الظروف الموضوعية التاريخية للعرب في القرن السابع وحولها الى سنة والتزم بالحدود والعبادات فقط وهذا ما يسمى بالسنة (الأسوة الحسنة للرسول).

الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ (الزمر ٢٣).

ليست لغة انسانية وإنما أصوات مقطعة وأعداد مجردة.

أحسن القصص (الكتاب المبين) ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين﴾ (يوسف ١) ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (يوسف ٣)

﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ فيها نموذج متكامل لخط سير التاريخ الانساني والتطور الانساني في المعرفة والتشريع وتفاعل هذا التاريخ مع القوانين العامة والخاصة للوجود وظواهره وهو القاسم المشترك بين المعرفة والتشريع معاً أي أعطى خط تطور التفاعل الانساني مع التشريع (الكتاب. أم الكتاب) ومع المعرفة بفرعيها القانون العام (كلام الله) والقانون الخاص ظواهر الطبيعة (آيات الله) فيها التشابه منسوب الى تطور المعرفة الانسانية بخط سير التاريخ الانساني. فكلما زادت المعرفة الانسانية بالتاريخ والطبيعة تغير تأويل آيات القصص.

كتاب مبين (آيات الله) فيه قوانين تصريف أحداث الطبيعة الجزئية وتسجيل هذه الأحداث بعد وقوعها (ظواهر الطبيعة) مثل تصريف الرياح واختلاف الليل والنهار واختلاف الألسن والألوان والتي تسمى (آيات الله) وهي قابلة للتصريف وهي مناط الدعاء الانساني وذلك بأن يتدخل الله فيها وتعمل لمصلحتنا أو ضدنا مثل (الأعمار تطول وتنقص) دون الغاء ظاهرة الموت. والأرزاق تضيق وتتسع ومثل هبة الله للناس الذكور ،الإناث أو الاثنين معاً وهي غير مكتوبة سلفاً على أحد ولكنها لا تخرج عن القانون العام ولا تبدله (لا مبدل لكلماته) وهي مناط المعرفة الانسانية والتصرف الانساني ومناط العلوم كلها ما عدا التاريخ والفلسفة حيث أن القصص مناط التاريخ والفلسفة مناط كلام الله وهي التي ينطبق عليها التدخل الشرطي لله في قوله ﴿سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ وتقوم على جدل الأضداد (الرحمانيات) والتشابه فيها منسوب إلى تطور المعرفة الانسانية بظواهر الطبيعة

محفوظ وهي لا يمكن تبديلها من أجل أحد وهي ليست مناط الدعاء هذه القوانين ابتداء من خلق الكون الانفجار الكوني الأول وخط سير تطور الكون كقانون النفي ونفي النفي (التطور) الحتمي حتى انفجار الكون الحالي (الساعة) التغير الأول في صيرورة الكون، النفخة الأولى في الصور وقيام كون آخر على أنقاضه بقوانين جديدة تنتهي بالبعث والحساب والجنة والنار، هذا القانون العام يقوم على قانون التسبيح في هذا الكون (صراع المتناقضات) الموت حق وعلى قانون جدل المتناقضات في الشيء الواحد (كل شيء هالك إلا وجهه). وجدل الأزواج ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات ٤٩) والتشابه فيه منسوب الى تطور المعرفة الانسانية بالقوانين العامة للوجود (الفلسفة) أم العلوم.

﴿كتاب فصلت آياته قرآ
عربياً لقوم يعلمو
(فصلت ٣).

﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾

ليس لها سنة وإنما أعطى النبي ﷺ تعاليم عامة لها.
لو كان القرآن فقط أعجمياً لأصبح الكتاب يحوي لغتين:
اللغة الأولى عربية وهي لأم الكتاب وتفصيل الكتاب
واللغة الثانية أعجمية للقرآن ولتبين وجوب الفصل بين الآيات العربية والآيات الأعجمية وهذا ما ورد بالضبط في سورة فصلت في الآية (٤٤) في قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾



خامساً ـ ماهي اللغة العربية الفصحى؟

اننا ننطلق في تحديد مفهوم الفصاحة والبلاغة من نظرية الامام عبد القاهر الجرجاني اللغوية التي اشتمل عليها كتابه «دلائل الاعجاز»[13].

تتضمن نظرية الجرجاني اللغوية المبادىء التالية:

١ ـ الألفاظ أوعية للمعاني وخادمة لها، وتكون الفصاحة في المعنى.

٢ ـ تحدث الفصاحة في الكلم بعد التأليف أي بعد ضم بعضها إلى بعض في الجملة. واللفظة قد تكون في غاية الفصاحة في موضع، بينما لا يكون فيها بعينها من الفصاحة قليل أو كثير في مواضع عديدة.

٣ ـ معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الابانة عن المعنى. وحين توصف الألفاظ المفردة بالفصاحة، فالمقصود بذلك أنها في اللغة أثبت وفي استعمال الفصحاء أكثر، أو أنها أجرى على مقاييس اللغة وقوانينها.

٤ ـ لا نظم ولا ترتيب للكلم حتى يتعلق بعضها ببعض. ولا بد في النظم من أن تتلاقى معاني الكلمات على الوجه الذي يقتضيه العقل.

٥ ـ يجب أن يتم النظم وفق قوانين النحو. ومعاني النحو هي المعاني ذات الدلالات العقلية. والمهم معرفة مدلولات النحو وليس العبارات أنفسها.

واستناداً إلى نظرية الجرجاني اللغوية، يمكن تعريف اللغة الفصحى بأنها اللغة التي تشتمل على نظام لربط الكلمات بعضها ببعض، وفقاً لمقتضيات دلالاتها العقلية التي تتضمنها قواعد النحو، يمكّنها بالشكل الأيسر والأفضل من التعبير عن المعاني.

وتشتمل نظرية الجرجاني اللغوية أيضاً على المبادىء التالية:

١ ـ الكلام خبر وأمر ونهي واستفهام وتعجب.

٢ ـ الخبر وجميع معاني الكلام توصف بأنها مقاصد وأغراض وأعظمها شأناً الخبر.

٣ ـ يتحدد معنى الخبر بتأثير عاملين:

آ ـ السياق الكلامي الفعلي الذي يدخل الخبر فيه.

ب ـ الموقف أو الحال الذي يقال الخبر فيه.

ويظهر ارتباط الخبر بالسياق الكلامي الفعلي في مبدأين أساسيين حددتهما

قواعد النحو التي تم وضعها نتيجة للدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية، وهما:

١ ـ حين يكون المخبر به اسماً يجب أن يكون من حيث المبدأ منوناً «زيد منطلق»، لأنه لم يذكر في السياق الكلامي من قبل.

٢ ـ أما الاسم ـ المبتدأ المخبر عنه فيجب أن يكون من حيث المبدأ معرفاً بأل «المنطلق زيد» لأنه قد ذكر من قبل في السياق الكلامي.

ويعني ذلك أن الاسم الذي يشتمل على أداة التعريف هو «في الأصل» الاسم الذي ذكر سابقاً في السياق الكلامي الفعلي. أما الاسم الذي يشتمل على التنوين فهو «في الأصل» الاسم الذي لم يذكر سابقاً في السياق الكلامي الفعلي.

ويتجلى ارتباط الخبر بالموقف أو الحال في المبادىء التي حددتها الدراسة في مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة، وهي التالية:

١ ـ ان الاسم المخبر به يمكن أن يكون معرفاً بأل، اذا ذكر من قبل في السياق الكلامي، وذلك اذا كان السامع في الموقف الكلامي الراهن يحتاج إلى اسناده إلى مسند اليه معين معلوم بالنسبة له «زيد المنطلق».

٢ ـ ان الاسم المخبر به يمكن أن يكون معرفاً بأل، على الرغم من أنه لم يذكر في السياق الكلامي من قبل، وذلك حين يفيد التعريف معنى الجنسية «زيد هو الشجاع».

٣ ـ ان الاسم المبتدأ المخبر عنه باسم يمكن أن يكون معرفاً بأل، على الرغم من أنه لم يذكر من قبل في السياق الكلامي، وذلك حين يفيد التعريف معنى الجنسية «الشجاع موقى».

٤ ـ ان الاسم المبتدأ المخبر عنه بفعل يمكن أن يكون منوناً، لأنه لم يذكر من قبل في السياق الكلامي، وذلك حين يفيد التنوين معنى الجنسية «رجل جاءني».

ويعني ذلك أن اللغة الفصحى يجب أن تتمتع بخواص بنوية في مجال «التعريف والتنكير» تمكّنها بالشكل الأيسر والأفضل من أن تعكس ارتباط الأسماء بالسياق الكلامي الفعلي من ناحية، وبالموقف أو الحال من ناحية أخرى، أي من أداء وظيفة الإبلاغ.

ترى اللسانيات الحديثة ان بنية اللغة تتألف من مستويات متدرجة هي:

مستوى البنية الصوتية ومستوى البنية الصرفية ومستوى البنية النحوية ومستوى معجم مفردات اللغة. وتشكل هذه البنى مجتمعة كلاً واحداً هو عبارة عن نظام كامل للأصوات والدلالات. وتحتل البنية القواعدية «الصرفية والنحوية» المكانة المركزية في البنية اللغوية، لذا فان القواعد تحدد نمط بنية اللغة.

ولا بد من التأكيد هنا أن كل لغة ـ بغض النظر عن نمط بنيتها ـ تعتبر وسيلة مكتملة لنقل الأفكار وأداء وظيفة الابلاغ. ويعني ذلك أن جميع أنماط اللغات هي أنظمة لغوية مكتملة وقادرة على أن تكون وسيلة للابلاغ والتعبير عن الأفكار. لذا فاننا نرفض بشكل جازم تصنيف بعض اللغات على أنها راقية وأخرى على أنها منحطة.

كنا قد حددنا، بالاستناد إلى نظرية الامام الجرجاني اللغوية، أن اللغة «اللهجة» الفصحى يجب أن تشتمل على:

ـ نظام لربط الكلمات بعضها ببعض، وفقاً لمقتضيات دلالاتها العقلية التي تتضمنها قواعد النحو، يمكّنها بالشكل الأيسر والأفضل من التعبير عن المعاني «أي الأفكار».

٢ ـ خواص بنوية في مجال التعريف والتنكير تمكّنها بالشكل الأيسر والأفضل من أداء وظيفة الإبلاغ.

ونضيف الآن أن علم اللهجات العام في اللسانيات الحديثة يرى أن الاختلافات بين لهجات «لغات» اللسان الواحد في طور واحد من مراحل تطوره التاريخي لا تكون إلا في اطار نمط واحد من البنية القواعدية «الصرفية والنحوية». ويعني ذلك أنه اذا كانت لهجة «لغة» من لسان ما تشتمل على نمط معين من البنية القواعدية «الصرفية والنحوية» يقوم مثلاً على التعبير صرفياً بالأداة عن التعريف والتنكير وعلى وجود ظاهرة الاعراب، وكانت لهجة أو لهجات أخرى من اللسان نفسه تشتمل على نمط آخر من البنية القواعدية يتم فيه مثلاً التعبير عن التعريف والتنكير صرفياً بالأداة ولكن بطريقة مغايرة ولا يعرف ظاهرة الاعراب، فان هذا الاختلاف يعكس بالضرورة اختلافاً في مراحل تطور ذلك اللسان.

ونستنتج من ذلك أنه لا يمكن الحديث عن لغة «لهجة» فصيحة واخرى أقل فصاحة في طور واحد من أطوار لسان ما. ويمكن الحديث فقط عن لسان فصيح أو مبين يشتمل على مجموعة من اللغات «اللهجات» في طور ما بالمقارنة مع لسان أقل

فصاحة أو ابانة منه يشتمل على مجموعة من اللغات «اللهجات» في طور آخر من مراحل تطور اللسان نفسه.

وعليه فانه لا يمكن القول إنه كانت توجد لغة «لهجة» واحدة عربية فصيحة بالمقارنة مع بقية اللغات «اللهجات» العربية، بل كانت هناك بالضرورة مجموعة من اللغات «اللهجات» العربية الفصيحة، بالمقارنة مع مجموعة أومجموعات أخرى من اللغات «اللهجات» العربية. ونستطيع في ضوء ذلك أن نفهم السبب في اعتراف العرب بوجود أكثر من لغة فصيحة، أي بوجود عدة لغات فصيحة. وقد نقل عن أبي عمرو بن العلاء قوله: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم[١٤]. ولهذا السبب اضطر الأستاذ محمد الأنطاكي أن يكتب عن العربية الفصحى ما يلي: «هذه الفصحى ليست لهجة قبيلة عربية معينة وان سميت في بعض الأحيان بالقرشية، بل هي مزيج لطيف من اختيار أنيق لخصائص لهجات عربية كثير أهمها القرشية والتميمية»[١٥].

لقد قال الدكتور جواد علي بأن «كل لغات العرب هي لغات عربية وان اختلفت وتباينت». وفي ضوء النتائج التي توصلنا اليها نعلن تأييدنا الشديد لهذا القول. وأضاف ان «اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ليست سوى واحدة من اللغات العربية ميزت من غيرها واكتسبت شرف التقدم والتصدر بفضل ذلك فصارت اللغة العربية الفصحى ولغة العرب أجمعين». ونعقّب عليه بأن «وصف القرآن في التنزيل بأنه عربي يعني أنه أنزل بلسان جميع العرب، لا بواحدة من اللغات العربية». وبعد أن ظهر لنا أنه لم يكن يوجد في اللسان العربي لغة «لهجة» واحدة فصيحة، بل كانت توجد فيه في أحد أطواره التاريخية مجموعة من اللغات «اللهجات» الفصيحة يمكن أن يطلق عليها تسمية اللسان العربي الفصيح أو المبين، نرى أنه صار بامكاننا الانتقال إلى تحديد مزايا اللسان الذي أنزل القرآن الكريم به.

ان معرفة مزايا اللسان العربي المبين الذي أنزل القرآن به، ستحلّ - برأينا - اللغز وتكشف الأسباب التي جعلت جميع العرب يقرون بأن القرآن في أعلى درجة من البيان.

سادساً ـ ما هو اللسان العربي المبين؟

كتب الأستاذ محمد الأنطاكي ما يلي: «حين يتحدث المستشرقون عن اللهجات الجنوبية «المعينية والسبئية وغيرهما»، وعن بعض اللهجات الشمالية «الثمودية واللحيانية والصفوية» يوهمون القارىء ـ عن قصد أوعن غير قصد ـ أن هذه اللهجات ليست من اللسان العربي في شيء، وأنها ألسن سامية مستقلة ليس بينها وبين اللسان العربي المعروف من وجوه الشبه أكثر مما يوجد بين الألسن السامية كلها. . ويقيم هؤلاء المستشرقون دعواهم على أسس: منها أن لغة النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية فيها تأثيرات آرامية كثيرة فهي إلى الآرامية اقرب منها إلى العربية. ومنها ان لغة النقوش المعينية والسبئية تختلف عن اللسان العربي في أمور كثيرة تتعلق بالألفاظ والتراكيب وقواعد التصريف»[16]

إننا نرفض فرض وجود لغة سامية ـ أم، ونرفض القول بوجود الشعب السامي انطلاقاً من ذلك الفرض فقط من دون الاستناد إلى شواهد تاريخية علمية تؤيده. ونرى أن المادة اللغوية للعربية نفسها تعتبر ـ برأينا ـ أفضل الشواهد التاريخية ودليلاً علمياً هاماً. هذا وإن التمسك بالمنهج العلمي لدى دراسة المادة اللغوية العربية، يدعونا إلى تركيز الاهتمام على الخصائص البنوية المميزة للنظام اللغوي للعربية، لأنها تشكل نقاط علام يمكن ان ترشدنا إلى التاريخ الحقيقي للسان العربي. لذا فإننا نؤكد الأهمية العلمية الكبيرة لاقتراح الدكتور جواد علي بتقسيم العربيات إلى ثلاث مجموعات حسب أداة التعريف[17] المستخدمة فيها:

١ ـ مجموعة «ال» وتشمل ما اصطلح على تسميته العربية الشمالية «أداة التعريف في أول الاسم».

٢ ـ مجموعة «ن» أو «ان» وتشمل ما اصطلح على تسميته العربية الجنوبية «أداة التعريف في آخر الاسم».

٣ ـ مجموعة «هـ» أو «ها» وتشمل ما اصطلح على تسميته اللحيانية والثمودية والصفوية «أداة التعريف في أول الاسم».

إننا نرى أن الدكتور جواد علي قد أحسن صنعاً حين ميَّز العربيات حسب أداة التعريف المستخدمة فيها، لأن النظريات اللسانية الحديثة في دراسة «الساميات»

متفقة جميعها على وجود أداة للتعريف، لكنها مختلفة حول وجود أداة للتنكير. وقد عرض المستشرق السوفيتي الأستاذ غراتشيا غابوتشان تلك النظريات المختلفة في كتابه «نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي»[18]، وذكر فيه ان نظام الأداة حسب نظرية ي. كوريلوفيتش يفترض وجود معارضة أساسية يتم التعبير عنها بصيغتين: اسم مع أداة التعريف، واسم من دون أداة التعريف.

يدخل اللسان العربي المبين الذي أنزل القرآن الكريم به في مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ال» في أول الاسم ـ مجموعة «ال». وسنعمد ادناه إلى الموازنة بين مجموعة «ال» وبين مجموعتي «ن» و«هـ»، مستندين إلى نظرية الأمام الجرجاني اللغوية في تحديد اللغات «اللهجات» الفصيحة.

ـ **المجموعة الأولى**: مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ن» في آخر الاسم ـ مجموعة «ن».

١ ـ تتميز بوجود أداة التعريف «ن» التي تثبت كتابياً في آخر الاسم، وبوجود أداة التنكير «م» التي تثبت كتابياً في آخر الاسم.

٢ ـ تتألف أبجدية المسند الذي تكتب به من حروف تشير إلى الأصوات الصامتة وليس فيها رموز تشير إلى الحركات أو ضبط أواخر الكلمات، ولا علامة للسكون أو التشديد فيها. لذا لا ندري كيف كانوا يحركون أواخر الكلم. ويتوقف على معرفة هذه الحركات التأكد من وجود الاعراب أو عدمه في لغات «لهجات» هذه المجموعة.

ـ **المجموعة الثانية**: مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «هـ» في أول الاسم ـ مجموعة «هـ».

١ ـ تتميز بوجود أداة التعريف «هـ» في أول الاسم. ولا تثبت فيها كتابياً أداة خاصة للتنكير.

٢ ـ لا نستطيع أن نجزم بوجود الاعراب في لغات «لهجات» هذه المجموعة، لأن الأقلام الصفوية والثمودية واللحيانية خالية ـ مثل القلم المسند ـ من الشكل ومن الرموز أو الحروف التي تشير إلى المد أو التشديد أو الاشباع أو الامالة.

ـ **المجموعة الثالثة**: مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة

التعريف «ال» في أول الاسم ـ مجموعة «ال».

١ ـ تتميز بوجود أداة التعريف «ال» التي تثبت كتابياً في أول الاسم، وبوجود أداة التنكير «ن» في آخر الاسم ولكنها في الأصل لا تثبت كتابياً.

٢ ـ تتألف أبجديتها من حروف تشير إلى الأصوات الصامتة. وبعد أن تطورت أصبحت تشتمل على رموز تشير إلى الحركات والسكون والتشديد والتنوين.

ويلاحظ أن هذه المجموعة معربة وتشتمل على حركات الاعراب. كما يلاحظ انها تعمد الى نطق أداة التعريف في بداية الاسم لتشير بذلك إلى أن الاسم الذي يليها قد ذكر في السياق الكلامي السابق، وتعمد إلى نطق أداة التنكير في آخر الاسم لتشير بذلك إلى أن هذا الاسم الذي سبقها في النطق لم يذكر في السياق الكلامي من قبل.

وبعد الموازنة بين المجموعات الثلاث نرى ان مجموعة «ال» تتفوق على مجموعتي «ن» و«هـ» من حيث الفصاحة والابانة عن الأفكار واداء وظيفة الابلاغ بالشكل الأيسر والأفضل، وذلك بما يلي:

١ ـ مجموعة «ال» معربة وتشتمل على حركات الاعراب، بينما لا نستطيع بمعلوماتنا الراهنة أن نجزم بوجود الاعراب في مجموعتي «ن» و«هـ»، لأننا لا نعرف كيف تلفظ الكلمات المنقوشة بأحرف تمثل الصوامت فقط. ولكن الموقف سيتغير بالتأكيد حين نعيد دراسة مجموعتي «ن» و«هـ» على اعتبار أنهما تمثلان لغات «لهجات» من اللسان العربي الواحد، وانطلاقاً من الخصائص المميزة للنظام الصوتي لهذا اللسان العربي الواحد. وبعد أن نتأكد في ضوء ذلك من أن اللغات «اللهجات» التي تدخل في مجموعتي «ن» و«هـ» غير معربة، سنتمكن من اكتشاف نظامها الذي يتم بواسطته التعبير عن ربط الكلمات في الجملة.

٢ ـ مجموعة «ال» تشتمل على أداة التعريف «ال» في أول الاسم وتثبتها في الكتابة كما تشتمل على التنوين في آخر الاسم ولا تثبته في الكتابة، ويفيد التنوين التنكير بالنسبة لغير أسماء العلم. أما مجموعة «ن» فتشتمل على أداة التعريف «ن» في آخر الاسم وتثبتها كتابياً، وعلى أداة التنكير «م» في آخر الاسم وتثبتها كتابياً.

وكنا قد بيّنا أعلاه أن الاسم الذي يشتمل على أداة التعريف هو ـ في الأصل ـ

الاسم الـذي ذكـر سابقاً في السياق الكلامي الفعلي ، وأن الاسم الذي يشتمل على أداة التنكيـر هو ـ في الأصـل ـ الاسم الـذي لم يذكـر سابقـاً في السيـاق الكـلامي الفعلي . وعليـه فان وجـود أداة التعـريف في المـوضـع السابق للاسم ينبه أنه قد ذكر سابقـاً فهـو بالتـالي معلوم بالنسبة إلى السامع ، وهذا ما أخذت به مجموعة «ال» . في حين أن عدم وجـود أداة للتعـريف في المـوضـع السابق للاسم يشير إلى أنه لم يذكر سابقـاً ، فتأتي أداة التنكيـر في المـوضـع اللاحق للإسم لتؤكد انه لم يذكر سابقاً فهو بالتـالي غيـر معلوم بالنسبـة إلى السـامـع اذا لم يكن اسم علم ، وهـذا ما أخـذت به مجموعة «ال» .

أمـا مجمـوعة «ن» فتركت الموضع السابق للاسم خالياً ووضعت أداة التعريف «ن» وأداة التنكيـر «م» في المـوضـع الـلاحق للاسم ، فكانت بذلك أقل افصاحاً من مجموعة «ال» في التعبير عن ارتباط الاسم بالسياق الكلامي . وقد خصصت مجموعة «هـ» المـوضـع السـابق للاسم لأداة التعـريف «هـ» ، ولكنـا لا نعـرف هل يشتمـل الموضع اللاحق للاسم على أداة تنكير أم لا ، وماهي تلك الأداة؟ لذا تعتبر مجموعة «هـ» اقـل افصـاحـاً من مجموعة «ال» في التعبير عن ارتباط الاسم بالسياق الكلامي من ناحية ، وأكثر افصاحاً من مجموعة «ن» في ذلك من ناحية أخرى . ويعني ذلك أن مجمـوعـة «هـ» تمثل في مسار التطور التاريخي للسان العربي مرحلة انتقال من نمط للبنيـة القـواعـديـة «الصـرفية والنحوية» أقل افصاحاً وابانة عن ارتباط الاسم بالسياق الكلامي إلى نمط آخر أكثر افصاحاً وابانة عنه .

ونخلص من الموازنة بين مجموعات «ن» و «هـ» و «ال» إلى النتائج التالية :

١ ـ توجد اختلافات في نمط البنية القواعدية «الصرفية والنحوية» لهذه المجموعات اللغوية الثلاث من اللسان العربي .

٢ ـ تعكس هذه الاختلافات بالضرورة أطواراً مختلفة في مسار تطور اللسان العربي . ويعني ذلك أن مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ن» في آخـر الاسم والتي اصطلح على تسميتهـا «العربية الجنوبية» ، ومجموعة اللغـات «اللهجـات» العـربيـة التي تستخـدم أداة التعريف «هـ» في أول الاسم والتي اصطلح على تسميتهـا «اللحيانية والثمودية والصفوية» ، ومجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ال» في أول الاسم التي اصطلح

على تسميتها «العربية الشمالية» تمثل أطواراً مختلفة في مسار التطور التاريخي للسان العربي الواحد تعكس حالاته في أحقاب زمنية متباعدة.

٣ ـ إن مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ن» في آخر الاسم تمثل الطور القديم الأول من أطوار اللسان العربي. في حين أن مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «هـ» في أول الاسم تمثل الطور الثاني من أطوار اللسان العربي الذي يعتبر من حيث الفصاحة والابانة أعلى من الطور الأول للسان العربي. أما مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم اداة التعريف «ال» في أول الاسم فتمثل الطور الثالث الحديث من أطوار اللسان العربي الذي يعتبر من حيث الفصاحة والابانة أعلى من الطورين الأوسط «الثاني» والقديم «الأول» للسان العربي.

٤ ـ وهكذا يظهر ان سبب تسمية لغة القرآن الكريم «اللسان العربي المبين» يرجع إلى أن لغة القرآن ليست في الواقع لغة «لهجة» عربية واحدة، بل هي عبارة عن مجموعة اللغات «اللهجات» العربية التي تستخدم أداة التعريف «ال» في بداية الاسم. وبما ان مجموعة اللغات العربية «ال» تمثل طوراً حديثاً من اللسان العربي أعلى من الطورين السابقين «الأوسط والقديم» من حيث الفصاحة والابانة، فقد سميت أحرف القرآن السبعة «اللسان العربي المبين».

لقد كان اللسان العربي المبين «الذي أنزل القرآن به» عاملاً في التوحيد اللغوي لجميع العرب، لأن القانون اللساني العام يقضي بحتمية انتصار خصائص الطور الحديث للسان على خصائص الطورين الأوسط والقديم، لأن خصائص الطور الحديث تمتاز بأنها من حيث الفصاحة والابانة أيسر وأفضل في التعبير عن الأفكار واداء وظيفة الابلاغ. ويعني ذلك ان انتصار مزايا اللسان العربي المبين قد أدى إلى انحسار خصائص الطورين القديم والأوسط للسان العربي، وأصبح العرب على اختلاف مناطقهم وقبائلهم يتكلمون بلسان القرآن الكريم. وبعبارة أخرى صار اللسان العربي المبين لسان العرب أجمعين، دون أن تبتلع لغة «لهجة» عربية لغة «لهجة» عربية أخرى كما يدعي نفر من المستشرقين ومن يتابعهم من الباحثين العرب. ويصح بهذا المعنى وصف القرآن بأنه «عربي»، لأنه أنزل باللسان العربي المبين الذي صار اللسان العربي الواحد المشترك بين جميع العرب، وصار يطلق عليه فيما بعد تسمية «اللغة العربية الفصحى».

ولعل من المناسب أن نتوقف الآن عند قول عمرو بن العلاء «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»[19]. إننا نرى، في ضوء ما عرضناه أعلاه، أن المقصود بعبارة «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا» أن «لسانهم أقل افصاحاً وابانة»، لأنه يعكس ـ كما رأينا ـ طوراً قديماً من أطوار اللسان العربي، بينما (لساننا هو اللسان المبين) لأنه يعكس طوراً حديثاً من أطوار اللسان العربي. ونلاحظ أن ابن العلاء استخدم تعبير «لسان» مضافاً إلى «حمير وأقاصي اليمن» للإشارة إلى مجموعة من اللغات «اللهجات» العربية. ونرى أن المقصود بعبارة «ولا عربيتهم بعربيتنا» ان «ذلك اللسان العربي يبدو مغايراً لعربيتنا المبينة».

ثم ننتقل إلى ما ذكره ابن جني في الخصائص: «وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابني نزار»[20]. ونعقب عليه بأن ابن جني حين تحدث عن بعد لغة حمير عن لغة ابني نزار، اكد بعد نحوها ايضاً. ونرى أن السبب في ذلك يرجع إلى ان لغة «لهجة» حمير تدخل في طور قديم للسان العربي يختلف نمط البنية القواعدية «الصرفية والنحوية» فيه عن نمط البنية القواعدية في طور اللسان العربي الحديث «المبين» الذي تدخل فيه لغة ابني نزار. ويعني ذلك ان «لغة حمير تختلف عن لغة ابني نزار، لأن الأولى تدخل في طور قديم من أطوار اللسان العربي، بينما تدخل الثانية في طور حديث من أطوار اللسان العربي».

سابعاً ـ لغة القرآن الكريم شاهد تاريخي يقيني على أصالة اللسان العربي.

كنا قد ذكرنا أعلاه أن «التمسك بالمنهج العلمي لدى دراسة المادة اللغوية للعربية يدعونا إلى تركيز الاهتمام على الخصائص البنوية المميزة للنظام اللغوي للعربية، لأنها تشكل نقاط علام يمكن أن ترشدنا إلى التاريخ الحقيقي للسان العربي». وبفضل استخدام المنهج العلمي اكتشفنا أن التاريخ الحقيقي للسان العربي هو التالي: مرّ اللسان العربي في مسار تطوره التاريخي بثلاثة أطوار هي: الطور القديم والطور الأوسط والطور الحديث. ونستنتج من ذلك أن تاريخ اللسان العربي يشير إلى أن اللسان العربي لسان أصيل.

وحين نصف لساناً ما بالأصالة نقصد أنه يتوافر فيه عنصران هما: **الايغال في القدم** من ناحية، والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى. وعليه فإن بنية اللسان الأصيل بهذا المعنى يجب أن تتمتع بجملة خصائص من حيث المفردات والأصوات والصرف والنحو تشير إلى إيغاله في القدم. وأول قرينة على ايغال لسان ما في القدم هي وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان والطبيعة، لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة، ويؤكد بالتالي بدائية نشأة ذلك اللسان.

ولدى دراسة البينة الصوتية للسان العربي في طوره الحديث، يظهر لنا أنها تتمتع بخاصة مميزة تتمثل في «عدم وجود صوت صائت منفصلاً عن صوت صامت يلفظ قبله». وقد انعكست هذه الخاصة المميزة للبنية الصوتية في نظام المعجم العربي القائم على أن الأصل في المعجم يتألف من الصوامت فقط. ونرى أن تلك الخاصة المميزة للبنية الصوتية تعكس طور محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة، وتؤكد بالتالي بدائية نشأة اللسان العربي. لذا طرحنا السؤال التالي: هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي ببداية تشكل الكلام الإنساني؟

للإجابة عن هذا السؤال قدمنا نظرة جديدة إلى فقه اللغة[21] عرضنا فيها رأينا في نشأة الكلام الإنساني، وأشرنا إلى ضرورة التمييز بين الأصل في المعجم والأصل في الاشتقاق، وطرحنا نظرة صوتية إلى المعجم العربي. وقد كشفت تلك النظرة الصوتية أن النظام اللغوي للعربية يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الكلام الإنساني. ويعني ذلك أن المادة اللغوية للعربية المتوافرة حتى يومنا الراهن والتي حفظها لنا نظام المعجم العربي تقدم شواهد تاريخية علمية تثبت بشكل قاطع أن اللغة العربية أصل قائم بذاته. ويترتب على هذه الحقيقة العلمية الجديدة النتائج التالية:

١ ـ العرب هم عرب منذ ظهور الحياة الإنسانية في وطنهم.

٢ ـ اللغة العربية هي اللغة الأصلية للشعب العربي منذ بداية وجوده.

٣ ـ كشف زيف فرضية «أسرة اللغات السامية» و«الشعب السامي».

هوامش الفصل الأول

١ ـ «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ج١ /ص ٣٣ ـ ٣٤
٢ ـ حققه طيار آلتي قولاج ـ دار الصياد ـ بيروت ١٩٧٥
٣ ـ «المرشد الوجيز» ص ٩٧
٤ ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت ١٩٧٣ ـ «المسألة الثالثة» ص ٤٥ ـ ٥٠
٥ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثامنة ـ ١٩٨١ /ص ١٥٦ ـ ١٦٩
٦ ـ «الاتقان» ـ الجزء الأول /ص ٤٦
٧ ـ «مفتاح العلوم» مطبعة البابي الحلبي، بمصر، ط ١ ـ ١٩٣٧ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢
٨ ـ للتوسع في الموضوع ارجع إلى كتاب «الجمع الصوتي الأول للقرآن» تأليف. د. لبيب السعيد ـ دار المعارف بمصر.
٩ ـ «الاتقان» ـ الجزء الأول/ ص ٤٩ ـ ٥٠
١٠ ـ ص ١٣٨ ـ ١٤٥
١١ ـ «المرشد الوجيز» ص ٦٩
١٢ ـ ص ٥٠ / الحاشية رقم ٥
١٣ ـ ارجع إلى كتابنا «الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني» ـ مطبعة الجليل ـ دمشق ١٩٨٠، الذي بلورنا فيه نظرية الجرجاني اللغوية.
١٤ ـ ذكر في «المرشد الوجيز»، ص ٩٣
١٥ ـ «الوجيز في فقه اللغة» ـ مكتبة دار الشرق ـ بيروت، ص ١٠٩
١٦ ـ «الوجيز في فقه اللغة»، ص ١١٣ ـ ١١٤
١٧ ـ «المفصل» جـ ٨/ ص ٦٧٣
١٨ ـ «نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي» تأليف غراتشيا غابوتشان، ترجمة د. جعفر دك الباب ـ اصدار وزارة التعليم العالي ـ دمشق ـ مطابع الوحدة ١٩٨٠. «فصل ـ دراسة الأداة في علم الاستعراب الأوربي».
١٩ ـ ذكره د. وافي نقلاً عن «طبقات الشعراء» لابن سلام، وذلك في كتابه «فقه اللغة» ـ دار نهضة مصر ـ ط ٨، ص ٨٦.
٢٠ ـ «الخصائص» لابن جني ـ حققه محمد علي النجار ـ دار الهدى ـ بيروت ـ جـ١، ص ٣٨٦
٢١ ـ ارجع إلى كتابنا «نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة» ـ الأهالي ـ دمشق ١٩٨٩

الفصل الثاني
في تاريخ النحو والبلاغة

١ ـ المراحل التي مرت بها دراسة العربية .
٢ ـ آراء في أسباب الخلاف النحوي .
٣ ـ تأكيد الوظيفة الابلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو.



أولاً ـ المراحل التي مرت بها دراسة العربية .

من المعروف أنه بعد توسع حدود الدولة العربية وازدياد اختلاط العرب بالأعاجم شاع اللحن، وجرى على ألسنة العجم المستعربين أولاً ثم على ألسنة العرب المتحضرين فيما بعد . وقد هال أولي الأمر أن يكون له خطر وأن يؤثر شيوعه على اللسان العربي وعلى الدين الإسلامي . وكان طبيعياً، والحال كذلك، التفكير في وضع ضوابط ومبادىء عامة يهتدي بها العرب والمستعربون في ضبط الكلام العربي . وهكذا فإن تلك الغاية «وضع ضوابط لقواعد العربية لتجنب تفشي اللحن» حددت أسلوب الوصول إليها «القيام بدراسة وصفية تحليلية شاملة للمادة اللغوية للعربية يمكن نتيجة لها استنباط قواعد عامة للعربية» . لذا تم وضع صرف العربية ونحوها بعد القيام بدراسة وصفية تحليلية شاملة للغة العربية .

وفي ضوء هذا يتبين أن ذلك الأسلوب الذي سلكه علماء العربية مكنهم من الوصول بنجاح إلى تلك الغاية التي وضعوها نصب أعينهم، فحافظوا بذلك على سلامة اللغة العربية ونقاوتها وجنبوها خطر تفشي اللحن فيها .

ونرى أن دراسة تاريخ علوم اللغة العربية في ضوء اللسانيات الحديثة تكشف أن دراسة العربية مرت بثلاث مراحل هي التالية :

١ ـ مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية .

٢ ـ مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة .

٣ ـ مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو .

ويظهر من هذا المسار التاريخي أن الدراسة الوصفية التحليلية للمادة اللغوية للعربية قد سبقت بلورة مقولات لسانية عامة . ونتيجة لذلك جاءت الآراء اللسانية العربية منذ المرحلة الأولى تحمل طابع الأصالة، لأنها عكست خصائص بنية العربية ولم تطرح نتيجة اقتباس آراء فلسفية أو لسانية أجنبية . لقد استهدفت دراسة العربية في المرحلة الأولى اكتشاف القوانين التي تحكم اللغة العربية كنظام كامل . واستوجب ذلك الانطلاق من الوحدة التي لا تنفصم بين الشكل والمضمون، لأن البنية اللغوية لا تستقل عن وظيفة الإبلاغ التي تؤديها اللغة . فاستخدم علماء

العربية في دراستهم للعربية منهجاً وصفياً وظيفياً أي منهجاً يصف البنية اللغوية ويبين وظيفتها الإبلاغية. وادى ذلك إلى أن جاءت الضوابط والقواعد التي تمخضت عن الدراسة في المرحلة الأولى عامة وشاملة لجميع جوانب النشاط اللغوي. فلم تقتصر القواعد الموضوعة على موضوعات الصرف والنحو، بل تعدتها إلى موضوعات الأصوات والقراءات والتجويد والعروض والبلاغة.

اختتم كتاب سيبويه مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية، لذا جاءت قواعد العربية بصيغتها المكتملة فيه عامة تغطي جميع جوانب النشاط اللغوي. فإذا رجعنا إلى كتاب سيبويه نجد فيه «اشارات كثيرة مما دخل فيما بعد تحت اسم البلاغة، وان كانت شهرة سيبويه في النحو قد صرفت الناس عن البحث عن الجوانب الأخرى من «الكتاب». على أن النحو الذي نعرفه اليوم لم يكن في عصر سيبويه مستقلاً عن سائر علوم العربية، وانما كان جزءاً منها. و «الكتاب» ليس كتاب نحو فقط، وانما هو كتاب في علوم العربية، فيه اللغة والنصوص وفيه النحو والصرف، وفيه البلاغة والعروض، وفيه القراءات والتجويد. كما ان النحو نفسه لم يكن عند سيبويه وأمثاله مقصوراً على الاعراب والبناء، وعلى الجزئيات الفرعية التي نعنى بها اليوم، وإنما كان علماً يؤدي إلى فهم كلام العرب، وعدم اللحن فيه، والتأليف على سمته، ولذلك فنحن نجد في «الكتاب» باب اللفظ للمعاني وباب ما يكون في اللفظ من الأعراض وباب الاستقامة والكلام والاحالة...»(1)

ولكن بعض المؤلفين المعاصرين نظروا إلى كتاب سيبويه على أنه كتاب نحو فقط، لذا رأوا فيه أبواباً دخيلة على النحو! «وكتاب سيبويه ـ وإن كان مؤلفاً نحوياً ـ نجد فيه بعض أبواب دخيلة على النحو، وإن كانت تفيد دارس الآداب العربية والتراث اللغوي، من ذلك ما سبق أن ذكرناه من حديث عن الألفاظ ومعانيها، وحديث عن الكلام الحسن والقبيح.. الخ مما يتصل بعلم اللغة، وبلاغة الكلام، وحديث عن ضرورات الشعر مما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، وحذف ما لا يحذف، ومد ما لا يمد، وفك ما أصله الادغام.. إلى آخر ما ذكره مما يتصل بالنقد الأدبي أكثر من اتصاله بالنحو، على الرغم مما فيه من مساس بضبط الكلمة وبنيتها.. وهذا الاتساع في الاسناد باللجوء إلى المجاز، وهذا الحذف

للاختصار ليس موضعهما كتب النحو ولكنه كتب البلاغة . . . فهذه كلها من غير شك أحاديث بلاغية ، تتصل بقوة التعبير عن المعنى اكثر مما تتصل بحركات الكلمات ، او بنية الكلمة ، ولذا كان موضعها الملائم غير كتب النحو. وحديثه عن مخارج الحروف مهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها ، حديث في علم الأصوات وفن التجويد ، أكثر منه حديث نحو، فموضعه كذلك في غير هذا الكتاب»[٢] .

وما أن بدأت المرحلة الثانية ـ مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة ـ حتى بدأت تبرز خلافات في وجهات نظر الباحثين اللغويين . وأخذت تتبلور ملامح مذاهب أو مدارس نحوية مختلفة ـ أهمها مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . ولا يوجد اتفاق بين العلماء حول وجود مدرسة بغدادية متميزة . ولكنهم يتفقون على أن اتجاهاً جديداً ـ مهما كانت تسميته ـ قد بدأ مع أبي علي الفارسي .

لا بد ـ برأينا ـ من ربط نشأة الخلاف النحوي وتعمقه بالمسار التاريخي لتطور الآراء اللسانية العربية ، للكشف عن الظروف الموضوعية التي أدت إلى بلورة الاتجاه الجديد الذي مكن بنجاح من الخروج من الوضع الذي آلت اليه الدراسة النحوية المتخصصة . لقد ظهر مع أبي علي الفارسي اتجاه جديد انطلق من مفهوم منظومي للغة وسعى إلى اكتشاف القوانين اللغوية . ثم تابع تلميذه ابن جني هذا الخط وعمقه ، وشعر بضرورة اكتشاف النظام العام للغة العربية . لذا أخذ في كتابه «الخصائص» يبحث عن الأصول العامة للنحو، فبحث في نشأة اللغات وأصوات العربية وعلاقة معاني الكلم في العربية بأصواتها . وتابع عبد القاهر الجرجاني بعد ذلك السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة العربية . فتصدى بحزم للتيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى ، وهاجم بشدة الدعوة إلى اهمال الشعر والانصراف عن النحو. واكد خلال ذلك على الوظيفة الإبلاغية التي تؤديها اللغة ، ودعا إلى عدم فصل البلاغة عن النحو. فكان كتابه «دلائل الاعجاز»[٣] بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الابلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو. واشتمل «دلائل الاعجاز» على نظرية عامة في اللغة ووظائفها[٤] .

ثانياً ـ آراء في أسباب الخلاف النحوي.

نقتصر في هذا «المختصر» على عرض رأيين في الخلاف النحوي وأسبابه لباحثين معاصرين هما الدكتور شوقي ضيف والدكتور محمد خير الحلواني. وننتقل بعد ذلك إلى بيان رأينا في الموضوع.

آ ـ **رأي الدكتور شوقي ضيف المعروض في كتابه «المدارس النحوية»**:(٥)

١ ـ الأخفش الأوسط ـ وهو أكبر أئمة البصريين ـ هو الذي فتح أبواب الخلاف على أستاذه سيبويه في كثير من المسائل. وحمل عنه الكوفيون ومضوا يتوسعون فيه فتكونت مدرستهم.

٢ ـ كان الكسائي واحداً من القراء الذين أخذت عنهم القراءات السبع. وقد دفعه سعيه أن يفسح في العربية للغات الشاذة النادرة إلى أن يقف موقفه من نحو سيبويه والخليل. وتجدر الإشارة إلى أنه كانت تجري في قراءته حروف تشذ على قواعد النحو البصري. لذا رأى أنه يجب التوسع في قواعد النحو والصرف حتى تشمل القراءات جميعها. فاعتمد أسساً ثلاثة هي:

آ ـ الاتساع في الرواية.

ب ـ الاتساع في القياس.

ج ـ الاتساع في مخالفة البصريين ولو أدى ذلك إلى آراء لا تسندها الشواهد اللغوية.

٣ ـ تلميذه الفراء «وهو معتزلي» قد أعطى النحو الكوفي صورته النهائية. وخالف البصريين في أربع مسائل هي:

آ ـ عدم التفرقة في ألقاب الاعراب والبناء «ألقاب الاعراب يتبعها التنوين وألقاب البناء لا يتبعها التنوين».

ب ـ المصدر مشتق من الفعل.

ج ـ اعراب الأفعال وأنه أصل فيها كالأسماء.

د ـ مسألة الأفعال وأقسامها. الفعل عند البصريين: ماض ومضارع وأمر، والفعل عند الكوفيين: ماض ومضارع «والأمر مقتطع من المضارع المجزوم بلام الأمر» ودائم «وهو اسم الفاعل».

٤ ـ تبلورت مدرسة ثالثة هي البغدادية. اتبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري نهجاً جديداً في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً.

ب ـ رأي الدكتور محمد خير الحلواني المعروض في كتابه «الخلاف النحوي»[1]

بالنسبة لمراحل تعمق الخلاف النحوي وبلورة مذاهب نحوية:

١ ـ حتى أوائل القرن الثالث «أي حتى وفاة الفراء والأخفش» كانت العصبية فردية يتعلق فيها التلميذ بأستاذه. ولم يكن الخلاف النحوي خلافاً مذهبياً واضحاً. والخلاف يمكن أن يوجد بين أصحاب المذهب من الطرفين.

٢ ـ ثم تبدل النزاع النحوي فاستحال في أذهان المتأخرين خلافاً بين طرفين ينتمي كل منهما إلى بلد.

٣ ـ كان ثعلب أول من ألح على عرض رأي المذهبين بعضهما بجانب بعض. ثم جاء تلامذته وتلامذة المبرد فأخذوا عنه وزادوا فيها.

٤ ـ في عصر السيرافي والرماني والفارسي وابن جني يزداد الالحاح على المفاضلة. وهيمن «الكتاب» عليهم هيمنة تامة. ومثلوا مذهب البصريين تمثيلاً جديداً.

٥ ـ ابن الشجري والزمخشري وابن الدهان والمتأخرون غيرهم يأخذون عن ممثلي البصرة الجديدة ويعتمدون نقولهم في نسبة الآراء الكوفية والبصرية. ونجد أن الفروق الفردية بين ممثلي المذهب الواحد تنطمس معالمها.

وبالنسبة لأسباب الخلاف النحوي:

١ ـ الرقعة المكانية المتسعة أدت إلى الاضطراب في تحديد اللهجة الفصيحة، كما أدت إلى اختلاف المادة اللغوية المعتمدة وتشتتها.

٢ ـ عدم التفريق بين لغة الشعر ولغة النثر.

٣ ـ انصراف النحاة عن العامل الزمني «واكتفى سيبويه بنعت لغة الحجاز بالقدم». فلم يقسموا لغة الشعر تقسيماً زمنياً واكتفوا بتقسيمها تقسيماً مكانياً، فوضعوا لغة جرير والفرزدق مع لغة زهير والأعشى. وقد فرقوا بين لغات القبائل بحسب قربها من نجد وبعدها عنها.

ويلاحظ الدكتور الحلواني أن العربية كانت غير مستقرة الوضع في الجاهلية لأن التطور في أصواتها وصيغها لم يكن قد تم بعد. وحمل التطور

اللغـوي صيغـاً وكلمـات تحجـرت مع الزمن، فهي تمثل مرحلة تطورية قديمة. وحـار النحـاة فيهـا لأنها لا تطرد مع قواعدهم: كأسماء الأفعال وأسماء الأصوات والأفعال الجامدة من نحو «نعم وبئس وحبذا...».

ج ـ رأينا في أسباب الخلاف النحوي وتطور الآراء اللسانية العربية.

١ ـ تميـزت شبـه جزيـرة العـرب باشتمـالهـا على منـاطق جغـرافية مختلفة تتوسطها الصحـراء. وقـد ساعـدت طبيعة الأرض العربية على احتفاظ الحياة الاجتماعية العـربيـة بسمـات قبليـة في كثيـر من جوانبهـا، على الـرغم من وجود نمط حياة الاستقـرار والاشتغـال بالـزراعـة والعمـران في اليمن وبقية المناطق الساحلية أو القـريبـة من السـاحـل التي عرفت الحيـاة المدنية والاشتغال بالتجارة. ولم تكن تلك المجتمعـات العـربيـة ذات درجـة واحدة من التطور الاجتماعي، بل كانت متفـاوتـة بنتيجـة عوامـل مختلفـة. وقد انعكس ذلك التفاوت في درجات التطور الاجتمـاعي على الـوضـع اللغـوي للعـربيـة، فكانت اللغة العربية والحالة هذه بدرجات متباينة من التطور حسب القبائل أو المناطق.

٢ ـ لم ينزل القرآن الكريم بلهجة قريش وإنما أنزل بلسان عربي مبين، فكان لذلك قرآناً عربياً وعاملاً في التوحيد اللغوي لجميع العرب. ولما كان القرآن عربياً فقد جاءت لغتـه تعكس مراحـل متفـاوتـة من التطـور اللغوي للعربية. وقد أقر جميع العرب بأن لغة القرآن هي في أعلى درجة من البيان واعتبروها قمة في الفصاحة، وصـاروا يقيسـون درجـة فصـاحة اللغة بمدى قربها من لغة القرآن الكريم. ومن المعـروف أن أسلوب القـرآن تميـز عن لغـة النثـر كما تميز عن لغة الشعر، فكان أسلوبه متميزاً عما عهده العرب من قبل.

٣ ـ وبسبب تلك الخصـائص المميـزة للغـة القـرآن الكـريم وأسلوبـه، فإن الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية لم يكن بامكانها أن تنطلق من التمييز بين لغة حديثة ولغة قديمة، أو بين لغة الشعر ولغة النثر. ولذا فإن القواعد التي تم استنبـاطهـا بنتيجـة تلك الـدراسـة لم تستطع أن تغطي جميع اللهجات العـربيـة وجميـع حروف القـراءات المعتمـدة للقـرآن الكـريم. فبقيت هنـاك بالضرورة بعض الشواذ التي لا تنظمها تلك القواعد.

٤ ـ لذا ما أن ظهـرت قواعـد العـربيـة بصيغتهـا المكتملة في كتاب سيبويه حتى بدأ

الأخفش الأوسط ـ وهو أول من قام بتدريس الكتاب ـ باعلان مخالفته لبعض تعليلات سيبويه، وبدأت بذلك مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة. وفتح الأخفش الباب أمام الكسائي ليحاول وضع قواعد شاملة تنتظم جميع اللغات «اللهجات» وجميع القراءات. وقام تلميذه الفراء ـ وهو معتزلي ـ باستكمال ما بدأه الكسائي عن طريق وضع الأطر العلمية لأصول المذهب الجديد وبلورة مصطلحاته الأساسية.

٥ ـ ازداد عدد المسائل الصرفية والنحوية التي تطرق إليها الخلاف في الرأي وظهرت فيها آراء عديدة. وتشعبت المسائل المختلف فيها كثيراً، وطرح في كل واحدة منها آراء عديدة. واستفحل الأمر وأغرقت بعض التخريجات كثيراً في الافتراضات التي ابتعدت باللغة عن وظيفتها الأساسية كوسيلة للإبلاغ.

٦ ـ وأدت تلك الظروف الموضوعية إلى بروز حاجة ماسة للخروج من هذا الوضع الذي آلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة. فعمد السيرافي ـ وهو معتزلي ـ إلى شرح «الكتاب» مؤكداً على جانب الوظيفة الإبلاغية للغة. وظهر مع أبي علي الفارسي ـ وهو معتزلي ـ اتجاه جديد أخذ يستعرض الآراء في كل مسألة ويأخذ بما يراه صواباً منها من دون التقيد المسبق بآراء مدرسة معينة. وتابع تلميذه ابن جني ـ وهو معتزلي ـ هذا الخط وعمقه. وشعر ابن جني بأنه من أجل الخروج من هذا الوضع الذي وصلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة يجب اكتشاف النظام العام للغة. وراح في سبيل ذلك يبحث في كتابه «الخصائص» عن الأصول العامة للنحو.

٧ ـ أما الامام عبد القاهر الجرجاني ـ وهو متكلم على مذهب الأشعري ـ فقد تابع السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة. وتصدى بحزم للتيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى. وأكد على الوظيفة الابلاغية التي تؤديها اللغة، ودعا إلى عدم فصل البلاغة عن النحو. فكان كتابه «دلائل الاعجاز» بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة.

٨ ـ وتابع الزمخشري ـ وهو معتزلي ـ جهود عبد القاهر في تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة، فكان كتابه «المفصل في علم

العـربيـة»[٧] الـذي شرحـه ابن يعيش[٨] خيـر نمـوذج لربـط النحو بالبلاغة وتأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة.

٩ - ثم سار السكـاكي - وهـو معتـزلي - في اتجاه تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة ورفض فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض، وجاء كتابه «مفتاح العلوم» تتويجاً مبوّباً لتأكيـد الـوظيفة الإبلاغية للغة. لكن التطور اللاحق للآراء اللسانية العربية أخذ منحى تكـريس فصـل النحـو والبـلاغـة بعضهمـا عن بعض. وابتـدأ ذلـك مع القـزويني في كتـابـه «الايضـاح»[٩] حيث تخلى فيـه عن تعـريف السكاكي لعلم المعـاني الـذي يقـوم على ربط البلاغة بالنحو، وقدم تعريفاً بديلاً لعلم المعاني يقوم على فصل البلاغة عن النحو.

ثالثاً - تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو.

لقـد بدأ عبـد القـاهر الجرجاني مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربـط البـلاغـة بالنحو. ويطول الحديث عن عبد القاهر مهما حاولنا الايجاز، وطبيعة هذا «المختصـر» لا تسمـح بمـزيـد من الحديث عن عبد القاهر ونظريته. لذا نكتفي باحالة القارىء إلى كتابنا «الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني»[١٠].

يؤكـد كثيـر من المؤلفين في تاريـخ البـلاغـة العربية أن الذين جاؤوا بعد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري انما كان عملهم في الغالب تلخيصاً أو شرحاً.

ونأخـذ على سبيـل المثـال بعض ما جاء بهـذا الصـدد في كتـاب «في تاريـخ البلاغة العربية» تأليف الدكتور عبد العزيز عتيق[١١].

«وهكـذا بمنهـاج عبـد القـاهـر وبطريقته التعليمية الواضحة، وكذلك بتطبيق الـزمخشـري لآراء عبد القاهر البلاغية في تفسيره «الكشـاف»، وبالاضافات الجديدة التي استكمـل بهـا قواعده - بكل ذلك استطاع الرجلان أن يضعا ويكملا قواعد علم المعـاني وعلم البيـان. وكـل ما هنـالـك أنـه بقي من يستقصي هذه القواعد البلاغية عندهما وينظمها في كتاب يجمع متفرقها ويضم منثورها. وكان ذلك العمل على يد السكاكي الذي دخلت البلاغة به في طور انتهى إلى الغموض والتعقيد والجمود»[١٢].

«فالبلاغيون من بعد عبد القاهر، وقد وقفوا مبهورين أمام بلاغته، ظنوا أنه لم يترك فيها موضعاً لمستزيد، ولهذا وقفوا أنفسهم على بلاغته يشرحونها أو يلخصونها أو يختصرونها في أساليب تشيع في أكثرها الصيغ والتعابير الفلسفية والمنطقية المعقدة. . وبذلك أخذنا نرى البلاغة تفقد صلتها بالأدب شيئاً فشيئاً حتى صار بينهما كمال الانقطاع، كما رأيناها تتحول إلى قواعد جافة عقيمة، قواعد مصبوبة في قوالب جافة من المنطق»[١٣].

«والسكاكي معدود من أعيان رجال البلاغة في القرن السابع وله مؤلفات شتى منها كتاب «مفتاح العلوم» الذي يعد أهم كتبه. وقد قسمه ثلاثة أقسام رئيسية: خص الأول منها بعلم الصرف والاشتقاق بأنواعه، والثاني بعلم النحو، وخص القسم الثالث بعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثاً عن البلاغة والفصاحة وآخر عن فنون البديع اللفظي والمعنوي. وشهرة السكاكي العلمية ترجع في الواقع إلى هذا القسم من كتابه الذي أعطى فيه للمعاني والبيان والفصاحة والبلاغة والبديع الصيغة النهائية»[١٤]. «وبهذا خرج بمباحث البيان من جو البلاغة الواضحة السمحاء إلى ميدان المنطق المعقد الجاف. ومع ذلك فقد نال القسم الخاص بالبلاغة في كتابه شهرة فائقة لدى من جاء بعده من رجال البلاغة، فقد فتنوا به إلى الحد الذي جعلهم ينسون معه أنفسهم وينكرون ملكاتهم. ولهذا ظلوا قرابة خمسة قرون متتالية ابتداء من أوائل القرن السابع الهجري عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصه، وكأنه لم يؤلف في البلاغة العربية غير هذا الكتاب الذي استأثر باهتمامهم وعنايتهم»[١٥].

وان تعقيبنا على مثل هذا العرض لتاريخ البلاغة العربية هو التالي:

١ - لم يشرح مؤرخو البلاغة العربية الأسباب الموضوعية التي جعلت القسم الخاص بالبلاغة في «مفتاح العلوم» للسكاكي ينال تلك الشهرة الفائقة لدى من جاء بعده من رجال البلاغة بحيث ظلوا خمسة قرون متتالية عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصه!!

٢ - لم يقدم هؤلاء المؤرخون المبررات العلمية التي أدت إلى اهمال القسمين الأول والثاني من كتاب «مفتاح العلوم»!!

٣ - في ضوء ملاحظاتنا الأولية على بنية كتاب «مفتاح العلوم» التي سنعرضها أدناه ندعو إلى نظرة جديدة في تأريخ البلاغة العربية تستند إلى فهم المنهج العلمي

لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية التي يمثلها برأينا ابن جني وعبد القاهر الجرجاني ثم الزمخشري والسكاكي.

مهد الامام السكاكي لكتابه «مفتاح العلوم» بمقدمة أشار فيها إلى أن الغرض الأقدم من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب. وذكر أنه ضمّن الكتاب من أنواع الأدب دون اللغة ما رأى أنه لا بد منه، وهي عدة أنواع متآخذة هي التالية: علم الصرف بتمامه ولا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة. علم النحو بتمامه وتمامه بعلمي المعاني والبيان. ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، لم ير السكاكي بدا من بحثهما في الكتاب. وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر تطرق السكاكي في الكتاب إلى علمي العروض والقوافي.

ثم قال: «وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا الا بعد ما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب.. **صنفت هذا وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية**، وسميته «مفتاح العلوم». وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، والقسم الثاني في علم النحو، والقسم الثالث في علمي المعاني والبيان».

هذا وتجدر الاشارة إلى أن السكاكي **استهل القسم الأول من الكتاب بالتنبيه على أنواع الحروف التسعة والعشرين ومخارجها وقدم رسماً توضيحياً لها**. وختم السكاكي الكتاب بفصل أخير هو «**خاتمة مفتاح العلوم في ارشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة علت كلمته من جهات جهالاتهم**». عرض السكاكي في الخاتمة ضلالهم على سبيل الاطلاق فيما يوردون من المطاعن في القرآن، ثم انتقل بعد ذلك إلى التفصيل في دفع المطاعن في القرآن: من حيث اللفظ ومن حيث الاعراب ومن جهة المعنى بأنحاء مختلفة.

وأعرض فيما يلي **ملاحظاتي الأولية على بنية كتاب «مفتاح العلوم»**:

١ - يؤلف الكتاب بأقسامه الثلاثة بنية واحدة لا تتجزأ، ويمكن أن تميز ضمن هذه البنية الواحدة مستويات متدرجة: تبتدىء من البحث في الأصوات، لتنتقل إلى البحث في الكلمة المفردة، ثم تتابع البحث في التراكيب من حيث علاقاتها النحوية والمنطقية أولاً، ثم من حيث علاقاتها المرتبطة بالسياق الكلامي

والمقام.

٢ - اني أرى أن منهج السكاكي في «مفتاح العلوم» هو المنهج العلمي المتطور لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. وقد مكنه هذا المنهج العلمي المتطور من ادخال تطوير هام في التأليف اللساني العربي تجلى في دراسة علم الصرف قبل دراسة علم النحو. وقد ذكر السكاكي في مقدمة الكتاب ما يلي: «... لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد والتأليف وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم به، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع اليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع اليهما في المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير. ولما كان علم الصرف هو المرجوع اليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف وطبق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف، لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعاً لنؤثر ترتباً استحقه طبعاً».

٣ - ان المنهج العلمي المتطور للسكاكي في «مفتاح العلوم» كشف خصائص بنية اللسان العربي في مستوياتها المتدرجة، وظهرت ثقة السكاكي المطلقة بهذا المنهج في تأكيده في مقدمة الكتاب أنه يضمن لمن يتقن ما صنفه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية التي تمكنه أولاً من الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب والتي تمكنه ثانياً من فهم اعجاز القرآن الكريم ودفع جميع المطاعن في القرآن من حيث اللفظ ومن حيث الاعراب ومن جهة المعنى.

٤ - عنوان الكتاب «مفتاح العلوم» يشتمل على لفظة «مفتاح» في صيغة المفرد ولفظة «العلوم» في صيغة الجمع. وأرى أن صيغية المفرد «مفتاح» تؤكد على البنية الواحدة للكتاب التي لا تتجزأ، وأن صيغة الجمع «العلوم» تؤكد على المستويات المتميزة ضمن البنية الواحدة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: **لماذا اشتهر القسم الثالث من «مفتاح العلوم» الخاص بعلمي المعاني والبيان وأهمل القسم الأول «الخاص بعلم الصرف» والقسم الثاني «الخاص بعلم النحو»**؟ السبب واضح برأينا، تم ذلك لأن المنهج السائد في التأليف اللساني العربي ماقبل السكاكي كان يقضي بدراسة علم النحو أولاً وتليها دراسة

علم الصرف. وقد أدخل السكاكي تطويراً هاماً حين جعل دراسة علم الصرف سابقة لعلم النحو. وعندما أخذ شراح بلاغة «المفتاح» تقسيم السكاكي لعلوم البلاغة إلى «المعاني والبيان والبديع» تخلوا عن تعريف السكاكي لعلم المعاني «وهو تتبُّع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره»[١٦]. وعلم المعاني وفق هذا التعريف دراسة تطبيقية تتجلى في تتبع كيفية ارتباط الاسناد بالافادة عن طريق دراسة الجملة في السياقات المختلفة. وقدم القزويني في «الايضاح» تعريفاً بديلاً لعلم المعاني «وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[١٧]. فأسقط القزويني بذلك الجانب التطبيقي الذي أكده السكاكي والمتمثل في تتبع كيفية ارتباط الاسناد بالافادة. وقد ساد تعريف القزويني لعلم المعاني إلى يومنا، وتكرس بسبب ذلك فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض.

هوامش الفصل الثاني

١ ـ «الموجز في تاريخ البلاغة» للدكتور مازن المبارك ـ دار الفكر/ص ٥٠ ـ ٥١/.

٢ ـ «مدرسة البصرة النحوية» للدكتور عبد الرحمن السيد ـ توزيع دار المعارف بمصر /ص ٥٥١ ـ ٥٥٣/.

٣ ـ «دلائل الإعجاز» صحح أصله محمد عبده ـ اصدار مكتبة القاهرة ١٩٦١

٤ ـ بلورنا نظرية الامام الجرجاني اللغوية وحددنا موقعها في علم اللغة العام الحديث في كتابنا «الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني» المشار إليه أعلاه.

٥ ـ اصدار دار المعارف بمصر ـ ط ٣.

٦ ـ اصدار دار القلم العربي بحلب.

٧ ـ ««المفصل في علم العربية» للإمام المخشري ـ مطبعة التقدم بمصر ـ ط ١، ١٣٢٣هـ.

٨ ـ «شرح المفصل» لابن يعيش ـ عالم الكتب ـ بيروت، مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

٩ ـ «الإيضاح» تأليف الخطيب القزويني ـ الجزء الأول في علم المعاني ـ أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد.

١٠ ـ المشار إليه أعلاه.

١١ ـ دار النهضة العربية بيروت.

١٢ ـ ص ٢٦٥

١٣ ـ ص ٢٦٨

١٤ ـ ص ٢٧١

١٥ ـ ص ٢٧٨

١٦ ـ «مفتاح العلوم» ص ٧٧

١٧ ـ «الايضاح» ص ١٢

الفصل الثالث

في النحو العربي

١ ـ الكلمات في العربية ثلاث : اسم وفعل وحرف .
٢ ـ الخصائص البنوية للفعل العربي .
٣ ـ الخصائص البنوية للاسم العربي .
٤ ـ الاعراب والعوامل في النحو العربي .
٥ ـ الجملة والكلام .
٦ ـ المشكلة اللغوية العربية المعاصرة .
٧ ـ نمطا الجملة العربية .

أولاً ـ الكلمات في العربية ثلاث: اسم وفعل وحرف.

عرف السكاكي الكلمة بأنها «اللفظة الموضوعة لمعنى مفرد. والمراد بالافراد أنها بمجموعها وضعت لذلك المعنى دفعة واحدة. ثم إذا كان معناها مستقلاً بنفسه وغير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة مثل «علْم وجهْل» سميت اسماً، واذا اقترنت مثل «علِم وجهِل» سميت فعلاً، وإذا كان معناها لا يستقل بنفسه مثل «مِن وعن» سميت حرفاً»[1].

بنتيجة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية العربية قام علماء العربية الأوائل بتوحيد الكلمات في مجموعات كبيرة وصنفوها إلى اسم وفعل وحرف. ولم يتم هذا التقسيم الثلاثي بالاعتماد على معنى الكلمات المفردة فقط، بل تم بالاستناد كذلك إلى وظيفتها في الجملة. ويعني ذلك أن مصطلح «الكلمة» في علم العربية يشتمل على جانبين مترابطين بعضهما مع بعض: الجانب الأول ـ الكلمة ذات المعنى الدلالي الخاص والبنية المتميزة، والجانب الثاني ـ الكلمة كجزء في التركيب الاسنادي أي الجملة. وفي ضوء ذلك نفهم قولهم أن الكلمات ثلاث: كلمة يصح الاخبار عنها وبها «أي يصح ان تكون في الجملة مسنداً إليه ومسنداً» تلقب اسماً، وكلمة يخبر بها ولا يصح الاخبار عنها «أي لا تكون في الجملة إلا مسنداً» تلقب فعلاً، وكلمة لا يخبر بها ولا عنها «أي لا تكون في الجملة لا مسنداً ولا مسنداً إليه» تلقب حرفاً[2].

وهكذا يظهر أن التقسيم الثلاثي للكلم إلى اسم وفعل وحرف قد عكس خصائص النظام اللغوي للعربية في مستوى بنية الكلمة المفردة وفي مستوى بنية الجملة في آن واحد. وتتميز العربية في مستوى بنية الكلمات المفردة بوجود طريقة اندماج «أو اتصال» الكلمات التي تتجلى في الضمائر المتصلة. والاندماج هو اتصال الكلمات بعضها ببعض في لفظة واحدة توحدها. ويكون لدينا بنتيجة الاندماج تركيب نحوي متحد في وحدة متصلة تبدو في الظاهر وكأنها كلمة واحدة، كما في «ضربته» و «كتابك».

ويعني ذلك أن مصطلح «الكلمة» في علم العربية يتميز عن مصطلح «الكلمة» في علم اللغات الأوربية بأنه قد يفيد أصغر جزء ذي معنى من اللفظة فيقابل حينئذ

مصطلح «مورفيم morpheme» . فصيغة «أكتب» كلمة واحدة تتألف من مورفيمين : الأول «الهمزة» يفيد معنى المتكلم المفرد اضافة إلى معنى المضارعة، والثاني «كْتب» يفيد معنى الحدث «الكتابة» . وصيغة «كتبنا» كلمتان : «كتبْ» كلمة و«نا» كلمة أخرى هي ضمير متصل . ونستنتج من ذلك وجود نوعين من الكلمات في العربية : **كلمات منفصلة** مثل «أكتب» **وكلمات متصلة** هي الضمائر المتصلة . ونرى أن وجود الضمائر المتصلة يعني أن الكلمات التي تتصل بها هذه الضمائر هي بالتالي كلمات متصلة، وعليه فإن صيغة «كتبنا» تتألف من كلمتين متصلتين «كتبْ» و«نا» . وهكذا يظهر أنه يوجد في النظام اللغوي للعربية **نمطان للكلمة** :

١ ـ **كلمة متصلة صرفيا** : هي اللفظة الموضوعة لمعنى مفرد وينطق بها متصلة بلفظة أخرى أو أكثر في لفظة مركبة تبدو في الظاهر كلمة واحدة، كما في «ضربته» و «كتابك» .

٢ ـ **كلمة منفصلة صرفياً** : هي اللفظة الموضوعة لمعنى مفرد وينطق بها منفصلة عن لفظة أخرى، كما في «ضرب» .

وقد ارتبط بوجود طريقة اندماج الكلمات في العربية أن كلاً من الفعل والاسم يتمتع بخصائص بنوية مميزة .

ثانياً ـ الخصائص البنوية للفعل العربي .

يوجب النظام اللغوي للعربية أن يلي المسند إليه «الفاعل بالنسبة للفعل المبني للمعلوم» الفعل . لهذا فإن العلامة التي تشير إلى المسند إليه الملفوظة في آخر صيغة الفعل العربي اعتبرت فاعلاً ونظر إليها بالتالي على أنها ضمير متصل، كما في «كتبتُ، كتبنا» . أما العلامة التي تشير إلى المسند إليه الملفوظة في بداية صيغة الفعل فلم تعتبر فاعلاً ولم ينظر إليها بالتالي على أنها ضمير متصل، كما في «أكتب، نكتب» . وتقرر أن مثل هذه الصيغة تشتمل في آخرها على ضمير الرفع «أي المسند إليه» المستتر الذي تحدده العلامة الملفوظة في بداية تلك الصيغة أي حرف المضارعة : أكتب «أنا»، نكتب «نحن» .

ولدى دراسة علماء العربية للفعل صنفوه حين **يؤلف كلمة منفصلة صرفياً**

حسب بنيته في ثلاثة أمثلة هي: **المفتوح الآخر** «وسموه الفعل الماضي لدلالته على الزمن الماضي» **والموقوف الآخر** «وسموه فعل الأمر لدلالته على الأمر» **والمتغير الآخر** (وسموه الفعل المضارع لمضارعته أي مشابهته الاسم في تغير آخره». ويظهر من ذلك أن دراسة تصرف الفعل العربي في الماضي والمضارع والأمر أمر اقتضته بنيته حين يؤلف كلمة منفصلة صرفياً.

ويتميز الفعل في العربية بأنه يكون دائماً في صيغة شخصية مصرفة أي في صيغة مسندة حتماً إلى مسند إليه. لذا لا حاجة إلى أن يلفظ قبل صيغة الفعل المصرفة «في الماضي أو المضارع أو الأمر» ضمير منفصل لبيان المسند إليه، لأن الصيغة المصرفة نفسها تشتمل في آخرها بالضرورة على المسند إليه الذي قد يكون ضميراً بارزاً متصلاً أو ضميراً مستتراً. ويعني ذلك أنه يوجد **نوعان من صيغ الفعل المصرفة في الماضي أو المضارع أو الأمر**: النوع الأول - **صيغة الفعل المصرفة كلمة منفصلة صرفياً ويستكن في آخرها ضمير المسند إليه**، فتكون تلك الصيغة من نمط **جملة من كلمة منفصلة يستكن في آخرها ضمير**، كما في: قُمْ «أنت»، نكتب «نحن». والنوع **الثاني - صيغة الفعل المصرفة كلمتان متصلتان صرفياً** بعضهما ببعض، فتكون تلك الصيغة من نمط **جملة من كلمتين متصلتين**، كما في «كتبنا».

ويعني ذلك أن جميع صيغ الفعل العربي المصرفة في الماضي والمضارع والأمر هي من نمط «جملة من كلمة منفصلة يستكن في آخرها ضمير» أو «جملة من كلمتين متصلتين». ويستثنى من ذلك **أربع صيغ فعلية مسندة إلى الشخص الثالث «غير المتكلم وغير المخاطب» حين تكون مستخدمة في بداية سياق كلامي**، فلا يتصل بآخرها حينئذ ضمير المسند إليه البارز المتصل ولا يستكن في آخرها ضمير مستتر. ونسمي هذه الصيغ **فارغة لأنها لا تشتمل في آخرها على ضمير المسند إليه لا البارز المتصل ولا المستتر. وبذا تؤلف هذه الصيغ نوعاً ثالثاً من صيغ الفعل المصرفة** تتميز بأنها **كلمة منفصلة صرفياً لا يستكن في آخرها ضمير**. لذا فإنها لا تدخل في نمط جملة - كلمة منفصلة لأنها فارغة. وسنشير بالرمز (O) إلى الصيغة الفارغة أي الخالية من الضمير المستتر.

ومن بين الصيغ الأربع الفارغة تختص اثنتان بالزمن الماضي: كتب O وكتبتْ O

وتختص اثنتان بالزمن غير الماضي - الحاضر والمستقبل: يكتب 0 وتكتب 0
وتتميز هذه الصيغ الأربع الفارغة أنها ليست من نمط جملة من كلمة منفصلة يستكن في آخرها ضمير، **لذا تستوجب أن يذكر بعدها اسم ظاهر مرفوع هو المسند إليه**.
وفي ضوء ذلك نفهم ما قصده علماء العربية حين أكدوا أن «الفعل يعمل الرفع في الفاعل» وأن «الفاعل يتنزل من الفعل منزلة الجزء».

ونشير إلى أن الصيغ الأربع المسندة إلى الشخص الثالث حين لا تكون مستخدمة في بداية سياق كلامي «أي حين تكون مستخدمة بعد سياق كلامي سابق» فإنها لاتكون فارغة، لأنها تشتمل حينئذ على ضمير مستكن في آخرها وتكون بالتالي من نمط جملة من كلمة يستكن في اخرها ضمير، كما في: الولد جاء «هو».

ونخلص إلى أنه **توجد ثلاثة أنواع من صيغ الفعل العربي المصرفة** هي التالية*: النوع الأول: **صيغة الفعل المصرفة كلمة منفصلة صرفياً يستكن في آخرها**

---

* **الرموز المستخدمة هي الآتية:**

ك - كلمة
«من» - منفصلة
«مت» - متصلة
ك «من» - كلمة منفصلة
ك «مت» - كلمة متصلة
0 - فارغة أي خالية من الضمير.
ك «من» 0 - كلمة منفصلة فارغة.
← : تستوجب أن يليها
ك «من» 0 ← : كلمة منفصلة فارغة تستوجب أن يليها.
ض - ضمير
«مس» - مستتر
ض «مس» - ضمير مستتر
س - اسم
«ظ» - ظاهر
«مر» - مرفوع
س «ظ مر» - اسم ظاهر مرفوع.

ضمير لذا تؤلف جملة من نمط: ك «من» + ض «مس».
نحو: قم «أنت»، نكتب «نحن»، الولد جاء «هو».
النوع الثاني: صيغة الفعل المصرفة كلمتان متصلتان صرفياً بعضهما ببعض تؤلفان جملة من نمط: ك «مت» + ك «مت».
نحو: كتبنا
النوع الثالث: صيغة الفعل المصرفة تصريفاً خاصاً بالشخص الثالث فقط من دون تحديد عدده حين تكون في بداية سياق كلامي. **هي كلمة منفصلة صرفياً ولا يستكن في آخرها ضمير أي أنها كلمة منفصلة فارغة ك «من» 0. لذا فإنها لا تشكل بمفردها جملة. بل تستوجب أن يذكر بعدها اسم ظاهر مرفوع هو المسند إليه.**
وتؤلف معه بالتالي جملة من النمط التالي: ك «من» 0 ← س «ظ مر».
نحو: جاء 0 الولدُ
جاء 0 الولدان
جاء 0 الأولادُ

ثالثاً ـ الخصائص البنوية للاسم العربي.

بعد تقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف عمد علماء العربية **إلى تقسيم الأسماء إلى نوعين: الأول ـ أسماء غير متمكنة**: تتضمن معنى حرف أو تشبهه أو تقع موقع مبني، **والثاني ـ أسماء متمكنة**: لا تتضمن معنى حرف ولا تشبهه ولا تقع موقع مبني ويكون الاعراب فيها. **والاعراب** في اصطلاح النحاة أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمات المعربة. **أما البناء** في اصطلاحهم فهو ثبوت آخر الكلمة على حالة واحدة على اختلاف العوامل المؤثرة فيها وموقعها من الاعراب. ويظهر من ذلك أن **للإعراب والبناء صلة بالعوامل**. فالمعرب هو الذي يتأثر بالعوامل فتتغير حركة آخره نحو «زيد» من قولنا «جاء زيد، ورأيت زيداً، ومررت بزيد». والمبني هو الذي يتأثر موضعه بالعوامل ولكن آخره لا يتغير بل يكون اعرابه محلياً. ويعني ذلك **أن العامل النحوي هو الذي يعمل في غيره فيؤثر في حركة آخره إن كان معرباً وفي محله إن كان مبنياً.**

والمعرب من الكلمات في العربية نوعان :

١ ـ الاسم ، وقد يشبه الحرف فيبنى .

٢ ـ الفعل المضارع إذا لم تتصل به نون النسوة أو تباشره احدى نوني التوكيد .

والمبني من الكلمات في العربية ثلاثة أنواع :

١ ـ الحرف .

٢ ـ الفعل الماضي والأمر والمضارع إذا اتصلت به نون النسوة أو باشرته إحدى نوني التوكيد .

٣ ـ الاسم الذي يخرج عن تمكنه من باب الاسمية فيبنى .

وقد ميز النحاة **ثلاثة أنواع للإسم :**

١ ـ **الاسم المتمكن الأمكن** ، وهو الاسم الأصيل في باب الاسمية المتمكن منه ، لم يعرض له ما يضعف من هذا التمكن ولذا يعرب بالحركات ويقبل تنوين التمكين . ومثاله أكثر أسماء العربية المعربة .

٢ ـ **الاسم المتمكن غير الأمكن** ، وهو ما يعرب بالحركات غير أنه لا ينون ويجر بالفتحة نيابة عن الكسرة . واصطلح النحاة على تسميته **الممنوع من الصرف** أو الممنوع من التنوين .

٣ ـ **الاسم غير المتمكن** ، وهو ماأشبه الحرف بوجه مافقد تمكنه من باب الاسمية فبني كالحروف .

وعقد النحاة بين الاسم والحرف أنواعاً من الشبه أخرجت الاسم عن تمكنه من باب الاسمية وجعلته مبنياً . وأنواع الشبه هي :

١ ـ الشبه الوضعي ، وذلك إذا وضع الاسم على حرف واحد «كالضمائر : التاء والكاف والهاء» أو على حرفين «كالضمير : نا» فالاسم يشبه بذلك باء الجر ولامه أو يشبه من وعن وفي من الحروف . **والأصل في الاسم أن يكون ثلاثة أحرف فأكثر** .

٢ ـ الشبه المعنوي ، وذلك إذا تضمن الاسم معنى حرف من الحروف كأسماء الشرط المتضمنة معنى الحرف «إنْ» وأسماء الاستفهام المتضمنة معنى الحرف «الهمزة» .

٣ ـ الشبه الاستعمالي ، وذلك إذا استعمل الاسم كما يستعمل الحرف في كونه يؤثر

ولا يتأثر، أي يعمل في غيره ولا يعمل فيه شيء كأسماء الأفعال.

وأشار ابن يعيش إلى أن «المراد بالتمكن في الأسماء تعاقب التعريف والتنكير بالعلامة عليه»[٣]. هذا **ويتميز الاسم المتمكن في العربية من الناحية البنوية بأنه يكون: إما محلى بأل أو منوناً أو غير محلى بأل وغير منون**. وذكر ابن الخشاب أن «من علامات الاسم اللفظية التي تلحقه من أوله الألف واللام اللتين للتعريف كقولك: رجلٌ والرجلُ وغلامٌ والغلامُ.. وأما ما يلحقه آخراً التنوين في قولك: رجلٌ وفرسٌ. والتنوين نون ساكنة تلحق آخر الاسم المتمكن علامة لخفته»[٤].

وينقسم الاسم إلى معرفة ونكرة. وذكر الجرجاني في «باب المعرفة والنكرة» ما يلي: «المعرفة خمسة: المضمر نحو «أنت» والتاء في «ضربت» والكاف في «غلامك». والثاني العلم نحو زيد وعمرو.. والثالث ما فيه الألف واللام نحو الرجل والفرس، ولام التعريف يكون للعهد كقولك: فعل الرجل كذا، تريد واحداً بعينه وقد عهده المخاطَب والمخاطِب وعرفه بأمر، وللجنس كقولك: الرجل خير من المرأة. والرابع المبهم وهو نوعان: أحدهما أسماء الاشارة نحو هذا وهؤلاء وذا، وكذلك كل اسم شارة، النوع الثاني الموصولات وهي الذي والتي وتثنيتهما وجمعهما ومن وما إذا كانا بمعنى الذي.. والخامس من المعرفة المضاف إلى كل واحد من هذه الأربعة نحو غلام زيد وغلامك فكل مضاف إلى معرفة معرفة. وما عدا هذه الخمسة نكرة»[٥].

وفي ضوء ما ذكره الجرجاني وابن الخشاب وابن يعيش حول التعريف والتنكير، نعود لتفصيل القول في **الحالات البنوية الثلاث للاسم المتمكن**[٦]، **وذلك انطلاقاً من وجود أو عدم وجود الأداة «الألف واللام» في الموضع السابق للاسم ومن وجود أو عدم وجود الأداة «التنوين: النون الساكنة» في الموضع اللاحق للاسم. وسنستخدم الرمز** ∅ للإشارة إلى فراغ الموضع أي خلوه من الأداة*.

---

* والرموز الجديدة المستخدمة هي الآتية:

(الـ) ـ الأداة أل

(ن) ـ التنوين

(جر) ـ جر

(مج) ـ مجرور

وننبه أن ← : تستوجب أن يليها

الحالة الأولى: الاسم محلى بأل وغير منون، نحو «الكتابُ». وتتمثل هذه الحالة بالصورة التالية: «الـ» /كتاب/ ∅ أو «الـ»/ اسم ظاهر/ ∅، ويكون هذا الاسم من **نمط الكلمة المنفصلة صرفياً ودلالياً**.

الحالة الثانية: الاسم غير محلى بأل ولكنه منون، نحو «كتابٌ». وتتمثل هذه الحالة بالصورة التالية: ∅ /كتاب/ «ن» أو ∅ / اسم ظاهر/«ن» ويكون هذا الاسم من **نمط الكلمة المنفصلة صرفياً ودلالياً**.

الحالة الثالثة: الاسم غير محلى بأل وغير منون، نحو «كتابُ». وتتمثل هذه الحالة بالصورة التالية: ∅ / كتاب/ ∅ أو ∅ /اسم ظاهر/ ∅، وتتحق هذه الحالة في **صيغتين للإضافة**:

الصيغة الأولى: الاضافة إلى ضمير متصل، نحو «كتابك». فيكون الاسم «غير المحلى بأل وغير المنون» المضاف إلى المضير المتصل **كلمة متصلة صرفياً ودلالياً بالضميتر المتصل للجر. ويؤلف الاسم والضمير المتضايفان تركيباً نحوياً اندماجياً غير اسنادي من النمط التالي**: ∅ /س «ظ»/ ∅ + ض «مت جر».

الصيغة الثانية: الاضافة إلى اسم محلى بأل أو اسم منون، نحو «كتاب الطالب» أو «كتاب طالبٍ». فيكون الاسم «غير المحلى بأل وغير المنون» المضاف إلى الاسم الظاهر كلمة منفصلة **صرفياً فقط ولكنها غير منفصلة دلالياً، لذا فإنها تفتقر الى ذكر اسم ظاهر يليها وتستوجب أن يكون ذلك الاسم المضاف إليه في حالة الجر. ويشكل الاسمان المتضايفان تركيباً نحوياً غير اندماجي وغير اسنادي يؤلف وحدة ستكاملة دلالياً من النمط التالي**: ∅ / س «ظ»/ ∅ ← س «ظ مج».

ويتحقق هذا النمط في صيغتين:

الأولى: ∅ /س «ظ»/ ∅ ← «الـ»/س «ظ مج»/ ∅.

الثانية: ∅ / س «ظ» / ∅ ← ∅ / س «ظ مج» /ن.

رابعاً ـ الاعراب والعوامل في النحو العربي.

تتميز اللغة العربية بأنها لغة معربة، لذا فإن علامات الاعراب في أواخر الكلم المعربة فيها تشير إلى نوع ارتباط الكلمات بعضها ببعض في

التركيب. ويؤدي اجتماع كلمتين أو أكثر إلى ظهور التركيب. والتركيب بهذا المعنى نوعان: تركيب اسنادي يشتمل على مسند ومسند إليه، وتركيب غير اسنادي لا يشتمل على مسند ومسند إليه. وقد ميز النحويون نوعين من العلاقة بين الكلمات في التركيب:

١ - علاقة مؤثر ومتأثر. وسموا المؤثر الذي يغير حركة أواخر الكلمات المتأثرة عاملاً. كما سموا الكلمة المتأثرة معمولة. وبحثوا هذه العلاقة في نظرية **العوامل.**

٢ - **علاقة تابع ومتبوع. وبحثوا هذه العلاقة في نظرية التوابع.**

ومنذ أواخر القرن السادس الهجري **هاجم ابن مضاء القرطبي نظرية العوامل في كتابه «الرد على النحاة»[٧]. كما هاجم عدد من الباحثين العرب المعاصرين نظرية العوامل في النحو العربي ودعوا إلى رفضها وتحرير النحو العربي منها. ولا نؤيد تلك الدعوة لأننا نرى أن نظرية العوامل ترتبط بالخصائص المميزة للنظام اللغوي للعربية ولا يمكن بالتالي اهمالها.**

وقسم علماء العربية **العوامل إلى لفظية ومعنوية.** وأشار ابن جني في «الخصائص»[٨] إلى أن تقسيم العوامل إلى لفظية ومعنوية هو تقسيم شكلي لأن العمل في حقيقته هو للمتكلم نفسه. وخصص عبد القاهر الجرجاني لبحث العوامل كتاباً سماه «العوامل المئة». وفي كتابه «الجمل» ذكر الجرجاني أن **الكلمات المعربة على** ضربين[٩]: **ما ليس له عامل ظاهر لفظي** وهو «المبتدأ والخبر والفعل المضارع في حالة الرفع» **وما كان له عامل ظاهر لفظي** كالمجرور بالباء في «بزيد» والمجزوم في «لم يضرب» بلم. **وكل ما رفع أو جر أو نصب أو جزم يسمى عاملاً. ثم صنف العوامل في ثلاثة أنواع: عوامل من الأفعال وعوامل من الحروف وعوامل من الأسماء.**

وحول معاني الكلام ذكر الجرجاني ما يلي: «اعلم أن **الكلام مداره على ثلاثة معان: الفاعلية والمفعولية والاضافة. فالرفع للفاعل والنصب للمفعول والجر للمضاف إليه.** وما خرج من هذه الأقسام فمحمول عليها وليس بأصل»[١٠]. ونقل ابن يعيش رأي سيبويه فقال: «وذهب سيبويه وابن السراج إلى أن المبتدأ والخبر هما الأول والأصل في استحقاق الرفع وغيرهما من المرفوعات محمول عليهما»[١١]. وذكر

ابن يعيش ذلك بعد أن شرح رأي الزمخشري المتمثل في أن الرفع علم الفاعلية والنصب علم المفعولية والجر علم الاضافة.

يقول ابن الخشاب: «**حد الاعراب أنه تغير يلحق آخر الكلمة المعربة بحركة أو سكون لفظاً أو تقديراً بتغير العوامل في أولها. وفائدته أنه يفرق بين المعاني المختلفة** التي لو لم يدخل الاعراب الكلمة التي تتعاقب عليها تلك المعاني التبست»[١٢]. وأشار ابن يعيش إلى أن «الاسم إذا كان وحده مفرداً من غير ضميمة إليه لم يستحق الاعراب، لأن الاعراب إنما يؤتى به للفرق بين المعاني. فإذا كان وحده كان كصوت تصوت به، فإن ركبته مع غيره تركيباً تحصل به الفائدة نحو قولك «زيد منطلق» و «قام بكر» فحينئذ يستحق الاعراب لاخبارك عنه»[١٣].

ويقول ابن يعيش: «**والاعراب الابانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها**. ألا ترى أنك لو قلت «ضرب زيد عمرو» بالسكون من غير اعراب لم يعلم الفاعل من المفعول. ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الاعراب. ألا ترى أنك تقول «ضرب زيداً عمرو» و «أكرم أخاك أبوك» فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر»[١٤].

إننا نرى أن العوامل ألفاظ تستوجب حالات اعراب معينة في الألفاظ المعمولة لها وذلك لبيان ارتباط الكلمة المعمولة بالكلمة العاملة فيها ضمن التركيب، وللتفريق بالتالي بين معاني الكلام التي هي الفاعلية والمفعولية والاضافة.

وبذا نكون في تعريفنا للعوامل قد أخرجنا ما سماه علماء العربية العوامل المعنوية «وهي ثلاثة: رفع المبتدأ ورفع الخبر ورفع الفعل المضارع». لأننا نرى أن رفع المبتدأ رفع مطلق بمعنى أنه ليس لطلب الفرق بين المعاني «الفاعلية والمفعولية والاضافة»، وذلك **بخلاف** رفع الفاعل **الذي يؤدي وظيفة الفرق بين المعاني ويكون في ذلك مقيداً بوجود صيغة الفعل الخالية من الضمير أي الفارغة قبله، ويكون بالتالي معمولاً لها**. كما نرى أن **رفع الخبر مطلق أيضاً** لأنه ليس لطلب الفرق بين المعاني، **أما رفع الفعل المضارع فهو مطلق كذلك** لأن اعراب الفعل ليس بأصل فيه ولا حقيقي ورفعه لا تستوجبه لفظة تسبقه.

وقد أجمل عبد القاهر أصول النحو في مقدمة كتابه «دلائل الاعجاز» التي

استهلها بقوله «هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة وكل ما به يكون النظم دفعة». وجاء فيها ما يلي: «**معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف. وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام ـ تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما**»[١٥]. ثم فصل ذلك كما يلي:

فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه، أو تابعاً له صفة أو تأكيداً أو عطف بيان أو بدلاً أو عطفاً بحرف، أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني، أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول وذلك في اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة والمصدر، أو بأن يكون تمييزاً قد جلاه منتصباً عن تمام الاسم «ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه ما يمنع من الاضافة».

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً فيكون مصدراً قد انتصب به كقولك «ضربت ضرباً» ويقال له المفعول المطلق أو مفعولاً به كقولك «ضربت زيداً» أو ظرفاً مفعولاً فيه زماناً أو مكاناً كقولك «خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك» أو مفعولاً معه كقولنا «جاء البرد والطيالسة» أو مفعولاً له كقولنا «جئت اكراماً لك»، أو بأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان وأخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام «مثل: طاب زيد نفساً وحسن وجهاً وكرم أصلاً» ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك «جاءني القوم إلا زيداً» لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام.

وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب: أحدها ـ أن يتوسط بين الفعل والاسم، فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الأفعال إلى ما لا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء، مثل أن تقول «مررت» فلا يصل إلى نحو زيد وعمرو، فإذا قلت «مررت بزيد أو على زيد» وجدته قد وصل بالباء أو على. وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى «مع» في قولنا «لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها» بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم وايصاله إليه، إلا أن الفرق أنها لا تعمل بنفسها شيئاً لكنها تعين الفعل على عمله النصب. وكذلك حكم «إلا» في الاستثناء فإنها عندهم بمنزلة هذه الواو بمعنى «مع» في التوسط، وعمل النصب المستثنى

للفعل ولكن بوساطتها وعون منها.

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطف، وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول كقولنا «جاءني زيد وعمرو، ورأيت زيداً وعمراً، ومررت بزيد وعمرو». **والضرب الثالث تعلق بمجموع الجملة، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه. ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لا بد من مسند ومسند إليه**، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة كإن وأخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت «كأن» يقتضي مشبهاً ومشبهاً به كقولك «كأن زيداً الأسد». وكذلك إذا قلت «لو» و «لولا» وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جواباً للأولى.

وختم الجرجاني تمهيده في أصول النحو بقوله: «وجملة الأمر أنه **لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً، ولا من حرف واسم إلا في النداء نحو** «يا عبد الله» وذلك أيضاً إذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو «أعني وأريد وأدعو» و«يا» دليل عليه وعلى قيامه في النفس. **فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض. وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه. وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من أحكامه. ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركاً بينهم**».

فما هو علم النحو؟

قال السكاكي: «**علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً، بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية. واعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذلك، وبالكلم نوعيها المفردة وماهي في حكمها**»[٦٦].

ونعيد صياغة التعريف على الشكل التالي: علم النحو هو علم التركيب وفقاً لقوانين خاصة ببنية العربية، يحدد ترتيب الكلمات المفردة أو ما في حكمها «أي مجموعة الكلمات ضمن التراكيب غير الاسنادية» وذلك مع التقيد بنظام الاعراب، لتأدية الفائدة.

خامساً ـ الجملة والكلام.

ذكر الجرجاني ما يلي : «اعلم أن الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى الكلمة. فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا نحو «خرج زيد» سمي كلاماً وسمي جملة. والائتلاف يكون بين الاسم والفعل كما ذكرنا، وبين الاسمين كقولك «زيد منطلق»، وبين الاسم والحرف في النداء خاصة نحو «يا زيد»»[١٧].

وشرح ذلك ابن الخشاب قائلاً : «اعلم أن الكلم الثلاث إذا ألف بعضها مع بعض حصل من ذلك ستة تآليف : اثنان منها مفيدان افادة مطردة، وآخر منها مفيد افادة مخصوصة بموضع واحد مقصورة عليه، وثلاثة مطرحة لأنها لا تفيد. والقسمان الأولان : الاسم مع الاسم كقولك «زيد منطلق» و «الله إلهنا» والفعل مع الاسم كقولك «قام زيد» و«انطلق بشر». والثالث المخصوص هو الحرف مع الاسمَ في النداء خاصة كقولك «يا زيد». والثلاثة المطرحة هي الفعل مع الفعل والحرف مع الفعل والحرف مع الحرف. فإذا وقعت الفائدة بالتآليف على ما ذكرنا سمي ذلك المؤتلف كلاماً. فالكلام اسم للمفيد من القول عند النحويين»[١٨].

لقد سمى الجرجاني المؤتلف من الكلمات كلاماً وجملة. وقد يفهم من ذلك للوهلة الأولى أن مصطلحي الجملة والكلام مترادفان. ولكن فهم منهج الجرجاني في الدراسة اللغوية «الذي يعتمد على دراسة البنية النحوية في ارتباطها بالوظيفة الإبلاغية» يكشف لنا أن الجرجاني ميز مستويين في بنية الجملة هما : مستوى البنية النحوية الساكنة للجملة وهو الذي يشترط فيه توافر الاسناد، ومستوى البنية الابلاغية للجملة المتغيرة حسب حال السامع وهو الذي يشترط فيه توافر الفائدة. ونفهم في ضوء ذلك أن الأصل في الجملة أن تشتمل بنيتها في مستواها النحوي على الاسناد وفي مستواها الإبلاغي على الفائدة. لذا أشار ابن الخشاب إلى أن الكلام اسم للمفيد من القول عند النحويين.

وذكر الزمخشري أن «الكلام هو المركب من كلمتين أسندت احداهما إلى الأخرى وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك «زيد أخوك» و «بشر صاحبك» أو في فعل واسم نحو قولك «ضرب زيد» و «انطلق بشر» ويسمى جملة»[١٩].

وقد انتقد ابن هشام قول الزمخشري بأن «الكلام يسمى جملة» زاعماً أن

الـزمخشـري لم يفـرق بين الكـلام والجملة . وجـوابنـا أن الـزمخشري حين أكد أن «الكـلام يسمى الجملة» انطلق في ذلـك ـ كمـا فعل الجرجاني قبله ـ من أن الأصل في الجملة أن تشتمـل على الاسنـاد في بنيتهـا النحـويـة وعلى الفـائـدة في بنيتهـا الإبـلاغيـة . وقـد وضـح ذلـك ابن يعيش في شرحه لمفصل الزمخشري . وعليه فإن جملة مثـل «السمـاء فوقنـا» أو «الأرض تحتنـا» تشتمـل على الاسنـاد ولا فائـدة فيها للسـامـع لأنهـا لا تعلمه شيئاً جديداً . وقد تكون مفيدة فتكون كلاماً في عملية تعليم التلاميذ أو تعليم العربية لغير العرب .

ولا بد من الاشارة بهذا الصدد إلى الجملة البسيطة التي تدخل في بنية جملة مركبـة ، حيث تشتمـل تلك الجملة البسيطـة على الاسنـاد من دون أن تشتمـل على الفـائـدة ومثـال ذلك جملة «إن قام زيد خرج محمد» . وقد أشار ابن يعيش إلى ذلك قائـلاً : « . . . «قـام زيـد» «خـرج محمد» هاتان جملتان متباينتان لا تعلق لاحداهما بالأخـــرى . فإذا أتيت بإن الشـــرطيـــة فقلت : «ان قام زيـــد خرج محمـد» ارتبطت الجملتان وتعلقت احداهما بالأخرى ، حتى لو ذكرت احدى الجملتين منفردة لم تفد ولم تكن كلاماً»[٢٠] .

سادساً ـ المشكلة اللغوية العربية المعاصرة [٢١] .

صحيـح أن الـدراسـات التي تبحث في اللغـة العربية يجب أن تتوخى الحذر الشـديـد ، لأن العـربيـة لغة القرآن الكريم من ناحية ، ولأنها من المقومات الأساسية للأمة العربية من ناحية ثانية . ولكني أرى أن الحرص على صيانة لغة القرآن الكريم وعلى التمسـك بلغتنـا القـوميـة يجب أن يكـون دافعـاً لنـا للذود عن اللغـة العـربيـة الفصحى والبحث عن الحلول النـاجعـة من أجل الخروج من المشكلة اللغوية التي يعاني منها المجتمع العربي المعاصر .

إني أعترف بوجود مشكلة لغوية عربية معاصرة . وأرى أنها تتجلى من ناحية في الازدواجيـة اللغـويـة التي أقصـد بها العلاقة غير الطبيعية بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها العامية المختلفة في المجتمع العربي المعاصر ، وفي الشكوى من الطرائق القديمة في دراسة اللغة العربية الفصحى من ناحية ثانية . كما أرى ضرورة التأكيد أن

مشكلة الازدواجية اللغوية في العربية تحتل جانباً غير كبير من المشكلة اللغوية العربية المعاصرة، على الرغم من أن اللغة العربية الفصحى لا تؤدي عملياً في العصر الحاضر وظيفة الاتصال التي يفترض في أي لغة أن تؤديها في جميع مجالات الحياة. ولكن الجانب الأكبر من المشكلة اللغوية العربية المعاصرة يحتله أمر آخر هو استفحال الشكوى من الطرائق القديمة في دراسة اللغة العربية الفصحى والتذمر الشديد منها. وأرى أن السبب الرئيسي للشكوى والتذمر يرجع إلى عدم فهم كثير من أبناء العربية المعاصرين خصائص بنية العربية، بسبب استمرار عصور الانحطاط العربي في الدراسات اللسانية. لقد بدأ الانحطاط اللساني حين فصل العرب علوم البلاغة عن صرف العربية ونحوها. وأدى ذلك الفصل إلى اعاقة قيام اللغة العربية الفصحى بوظيفة الاتصال في جميع مجالات الحياة، كما انعكس سلبياً على فهم العرب لخصائص بنية العربية. لذا وجهت انتقادات كثيرة إلى الطرائق القديمة في دراسة اللغة العربية الفصحى. وتركزت الانتقادات خاصة على النحو العربي فوصفته بالتعقيد ودعت إلى تبسيطه.

من أجل حل المشكلة اللغوية العربية المعاصرة ظهرت آراء عديدة تناولت جانبي المشكلة اللغوية «الازدواجية وطرائق الدراسة». فللتخلص من الازدواجية اللغوية برزت مثلاً دعوات إلى التخلي عن اللغة العربية الفصحى. وللتخلص من الصعوبات التي تتصف بها الطرائق القديمة في دراسة اللغة العربية، طرحت دعوات مختلفة تناولت مختلف وجوه الدراسة. فبحث بعض الدعوات في اصلاح نظام الكتابة العربية، وخاضت دعوات أخرى في اصلاح نظام المعجم العربي. ولكن معظم الدعوات انصب على اصلاح قواعد النحو العربي.

ويمكن تصنيف الدعوات المختلفة التي ظهرت لمحاولة الخروج من المشكلة اللغوية العربية المعاصرة في ست مجموعات هي التالية:

١ ـ التخلي عن اللغة العربية الفصحى.

٢ ـ التخلي عن الحروف العربية.

٣ ـ التخلي عن المبدأ الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي.

٤ ـ تعريب النحو وتخليصه من العجمة.

٥ ـ وضع نحو جديد يقوم على التخلي عن نظرية العامل.

٦ ـ تيسير النحو العربي .

لقد أشرنا أعلاه إلى أن عدداً من الباحثين العرب المعاصرين هاجموا نظرية العوامل في النحو العربي ودعوا إلى رفضها وتحرير النحو العربي منها عن طريق وضع نحو جديد . وقلنا إننا لا نؤيد تلك الدعوة لأننا نرى أن نظرية العوامل ترتبط بالخصائص المميزة للنظام اللغوي للعربية . ونكتفي في هذا «المختصر» بالتطرق السريع إلى الدعوات إلى تيسير النحو العربي .

للتخلص من مصادر الشكوى من النحو العربي ، يرى عدد من علماء العربية المعاصرين ضرورة تيسير النحو العربي . وظهرت آراء مختلفة بشأن تيسير النحو العربي ، ولكنها تلتقي جميعها حول ضرورة عدم اجراء أي تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة ، أي أنها تنطلق من الاقرار بأن قواعد النحو العربي القديم تعكس بشكل صحيح خصائص بنية العربية . وقد تبنت مثل هذا الموقف لجنة وزارة المعارف المصرية المؤلفة عام **١٩٣٨** للبحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة [٢٢] .

الواقع أن هذه الدعوات ليست في جوهرها دعوات لتيسير النحو العربي ، بل هي دعوات لتيسير طرائق تعليم النحو العربي لتلاميذ المدارس .

ولا بد لنا حين نبحث موضوع تيسير قواعد اللغة العربية من أن نأخذ بعين الاعتبار قبل كل شيء الخصائص المميزة للبنية اللغوية العربية . وأي إغفال لتلك الخصائص سيؤدي بنا حتماً إلى الوقوع في أخطاء ينتج عنها بالضرورة تبني الدعوة إلى وضع قواعد جديدة للعربية مقتبسة من قواعد اللغات الأوربية ، وتكون بالتالي غريبة عن النظام اللغوي للعربية .

ومن المفارقات أن واحداً من دعاة القومية العربية هو الأستاذ ساطع الحصري قد اضطر نتيجة لاغفاله الخصائص المميزة للبنية اللغوية للعربية إلى تبني مثل تلك الدعوة في كتابه «آراء واحاديث في اللغة والأدب» [٢٣] . وتم ذلك على الرغم من أن الأستاذ الحصري قد ادعى ان ملاحظاته الانتقادية على قواعد اللغة العربية تقوم بحملة على «قواعد الصرف والنحو المدونة» وتطلب اصلاحها إصلاحاً جوهرياً . . . دون أن تتجاهل «الخصائص» التي تختص بها اللغة العربية ، ودون ان تدعو إلى اهمال تلك الخصائص او الخروج عليها [٢٤] .

ونثبت فيما يلي اهم «النظرات الانتقادية» على قواعد اللغة العربية التي أوردها الأستاذ ساطع الحصري. يبدأ الأستاذ الحصري بانتقاد تقسيم الكلمات إلى اسم وفعل وحرف فيقول: «من المعلوم ان الكلمات تقسم ـ في قواعد اللغة العربية ـ إلى ثلاثة أنواع: اسم وفعل وحرف. في حين أنها تقسم في سائر لغات العالم إلى أنواع كثيرة يبلغ عددها ثلاثة أمثال ذلك. فيجدر بنا أن نتساءل ـ تجاه هذا الفرق العظيم ـ فيما إذا كانت هناك مبررات فعلية وأسباب حقيقية تستوجب التباعد إلى هذا الحد بين العربية وبين سائر اللغات من وجهة تصنيف الكلمات.

وإذا أنعمنا النظر في المعاني التي يقصدها اللغويون من كلمتي «الاسم والفعل» وجدنا أن علماء العربية يضيقون «مفهوم الفعل» بعض التضييق، غير انهم يوسعون «مفهوم الاسم» توسيعاً كبيراً».

ويدعو الأستاذ الحصري بعد ذلك إلى ترك ذلك التقسيم وتكثير أنواع الكلمات قائلاً: «فليس من المعقول إذن أن نبقى متمسكين بهذا التقسيم القديم بل من الأوفق ان نعيد النظر فيه على أساس تكثير أنواع الكلمات أسوة بما يفعله لغويو العالم. . ولا شك في أن ذلك يكون أقرب إلى مقتضيات العقل والمنطق، وأضمن لتسهيل التفهيم والتعليم.

أنا لا أحاول وضع خطة تفصيلية لهذا التقسيم الجديد، بل أكتفي ببيان الحاجة إليه».

ثم ينتقل الأستاذ الحصري إلى انتقاد تقسيم الجملة حسب ابتدائها بفعل أو اسم فيقول: «من المعلوم أن الجملة تنقسم إلى قسمين: فعلية واسمية ولكنا عندما ننظر إلى الأمور نظرة منطقية، يجب أن نفهم من تعبير «جملة فعلية» الجملة التي تحتوي على فعل، وبتعبير آخر: الجملة التي تعلمنا ما حدث وما يحدث، كما يجب أن نفهم من تعبير «جملة اسمية» الجملة التي لا تحتوي على فعل، وبتعبير آخر: الجملة التي تخبرنا عن أوصاف اسم من الأسماء وحالاته.

غير ان قواعد اللغة العربية لا تلتزم هذه التعريفات والمفهومات المنطقية، بل تخالفها كلية: فإنها تعتبر الجملة «فعلية» عندما تبتدىء بفعل، و«اسمية» عندما تبتدىء باسم. ومعنى ذلك أنها لا تصنف الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتألف منها، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدىء بها دون أن تلتفت إلى بقية

كلماتها».

ويتابع الأستاذ ساطع الحصري ملاحظاته باتهام علماء اللغة في عصور التدوين الأولى بالوقوع في خطأ منطقي، ويقول: «ونظراً لهذه القواعد الرسمية فإن عبارة «نام الولد» يجب أن تعتبر جملة فعلية، في حين أن عبارة «الولد نام» يجب أن تعتبر جملة اسمية، مع ان كلتيهما تتألفان من نفس الكلمتين، وتؤديان إلى نفس المعنى. إنني أعتقد أن تفسير الجملة على هذا النمط الغريب نتيجة خطأ منطقي، وقع فيه علماء اللغة ـ في عصور التدوين الأولى ـ بسبب اهتمامهم بالأوصاف الظاهرة أكثر من تفكيرهم بالمعاني المفهومة.. كما شرحنا ذلك آنفاً.

وأما استمرار المؤلفين المعاصرين على التزام هذه الخطة العجيبة، فلم أجد سبيلاً إلى تعليله إلا بتأثير «الإلفة المخدرة» ونزعة التفادي من الخروج على التعاريف والتصانيف القديمة».

ثم يتابع الأستاذ الحصري هجومه على علماء العربية وابتعادهم عن المنطق في القواعد التي وضعوها، فيقول: «ومما يجب ان نلاحظه في هذا الباب أن هناك أمراً آخر يزيد في غرابة هذين التعريفين، ويوسع المسافة بين المنطق والقواعد.

فقد عرف علماء اللغة «الفاعل» ـ تحت تأثير النزعة التي ذكرناها آنفاً ـ بقولهم «اسم مرفوع يتقدمه فعل».. فإذا تقدم الاسم على الفعل لا يترتب على ذلك ـ في عرفهم ـ تحول الجملة من فعلية إلى اسمية فحسب، بل يترتب على ذلك خروج الإسم من الفاعلية ايضاً. فعندما يقال «الولد نام» لا يرون مسوِّغاً لاعتبار كلمة «الولد» فاعلاً، نظراً لمخالفة ذلك للتعريفات التي وضعوها.. وبما أن هناك «فعلاً» يتطلب فاعلاً، فإنهم يلتجئون إلى طرق التأويل الملتوية، فيقولون إن الفاعل لهذا الفعل ضمير مستتر، وأما «الولد» فما هو إلا مرجع هذا الضمير المستتر. وبتعبير آخر: يدعون أن الفاعل ليس «الولد» المذكور صراحة، وإنما هو ضمير مستتر يعود إلى الاسم المذكور..

إنني أعتقد بأن الإنسان لو قصد التعقيد والتشويش لغرض من الأغراض، لما استطاع أن يجد طريقة تصنيف وتفسير أكثر اعوجاجاً وأشد غرابة من تلك.. أفلم يحن بعد وقت الإقدام على التخلص من هذه المسالك الملتوية والرجوع إلى طريق المنطق والصواب؟»

هذه هي نظرات الأستاذ الحصري الانتقادية. وأرى أنها تصلح أن تكون نموذجاً لعدم فهم كثير من أبناء العربية المعاصرين لخصائص بنية العربية، وذلك بسبب استمرار عصور الانحطاط العربي في مجال الدراسات اللسانية الذي دخلناه منذ تم فصل علوم البلاغة عن صرف العربية ونحوها. وقد انعكس ذلك الفصل سلبياً على فهم العرب لخصائص بنية لغتهم. وان مثل هذه الآراء تؤكد الحاجة الماسة إلى الاستفادة من معطيات اللسانيات الحديثة في فهم التراث اللساني العربي.

سابعاً - نمطا الجملة العربية.

يقول الأستاذ ب. غرانده في كتابه «القواعد العربية في عرض تاريخي مقارن» [٢٥]. إن صيغة الفعل تعبر حتماً عن الشخص المتكلم والشخص الذي يوجه إليه الكلام والشخص الذي يتم الحديث عنه. والعلاقة التي تعبر عن الفاعل توجد دائماً في صيغة الفعل لأن الفاعل جزء لا يمكن فصله عن الفعل. ويظهر ذلك بجلاء خاصة لدى المقارنة بالتعبير عن المفعول به، حيث أن ما يشير إلى المفعول به يمكن أن يوجد في صيغة الفعل أو أن لا يوجد.

وتعتبر الجملة في اللغة العربية التي يكون الخبر فيها فعلاً مصرفاً مع ضمير الفاعل جملة فعلية. وتعتبر جميع الكلمات الباقية في الجملة بما فيها ذكر الفاعل توضيحاً لما يعبر عنه الفعل.

ويشير الأستاذ ب. غرانده إلى أن علماء القواعد العرب يعرّفون الفرق الأساسي بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية على الشكل التالي: الجملة الاسمية هي الجملة التي تبدأ باسم، والجملة الفعلية هي الجملة التي تبدأ بفعل. ثم يعقب الأستاذ ب. غرانده عى ذلك قائلاً: ان هذا التعريف، وإن كان شكلياً يقوم على ترتيب تسلسل أجزاء الجملة، يتطابق تماماً مع المميزات الداخلية لكل نموذج من نموذجي الجملة العربية.

وذكر الأستاذ غ. ميلنيكوف في مقالة بعنوان «التأثير المتبادل لبنية المستويات اللغوية في اللغات السامية» [٢٦]. ان المفردات السامية تقسم إلى:

آ - كلمات لم تفقد بعد علاقاتها بديناميكية الحدث ولذلك تحتاج إلى مطابقة مع

الفاعل، وهي الكلمات المصرفة أي الأفعال.

ب ـ كلمات تفهم عن طريق الحديث ولكنها فقدت علاقتها بديناميكية الحدث وهي الأسماء.

جـ ـ بقية الكلمات المساعدة التي لا ترجع إلى جذر الفعل، وهي الأحرف.

وأشار الأستاذ غ. ميلنيكوف إلى أن هذا التقسيم للكلمات يعتبر أساس وصف قواعد اللغات السامية.

أما الأستاذ م. برافمان، فإنه حين يتطرق في كتابه «دراسات في النحو العربي والعام»[٢٧] إلى طبيعة الجملة الفعلية بالمفهوم العربي، أي الجملة التي تبتدىء بفعل «ضَرب زيد»، يؤكد أن المسند إليه والمسند «والمفعول به في حال كون الفعل متعدياً» يؤلفان وحدة متحدة بعكس الحال في الجملة الاسمية حيث يتميز المسند إليه والمسند كوحدتين مستقلتين بعضهما عن بعض. ويضيف برافمان أنه بهذا المعنى فقط يمكن فهم النظرية العربية التي ترى أن الفعل في الجمل الفعلية يعمل في المسند إليه «الفاعل» كما يعمل في المفعول به. فالفعل يعتبر «عاملاً» أما المسند إليه «الفاعل» والمفعول به فيعتبران تكملة للأساس الضروري للجملة الفعلية أي للفعل الذي يعبر عن الحدث.

وهكذا نجد أن دراسات الاستشراق الحديثة قد أكدت أن اللغات السامية «والعربية واحدة منها» تقسم الكلمات فيها إلى فعل واسم وحرف لأن طبيعتها تستوجب مثل ذلك التقسيم. كما أكدت أن الفعل في العربية يتمتع بخاصة مميزة تجعل الذات «المتمثلة بالفاعل» متصلة بتركيبه الأصلي. وهذا يعني أن الأستاذ ساطع الحصري غير محق حين قال: «ليس من المعقول أن نبقى متمسكين بهذا التقسيم القديم».

هذا وحين يتطرق الأستاذ م. برافمان إلى جملة «زيد ضَرب» التي تنشأ نتيجة لتغيير ترتيب الكلمات في جملة «ضَرب زيد»، يشير إلى أن وحدة المسند إليه والمسند في الجملة الفعلية البسيطة تختل ويصبح جزآ الجملة الجديدة وحدتين مستقلتين بعضهما عن بعض. وتتحول الجملة الفعلية البسيطة إلى جملة اسمية مركبة. ولدى وصف الجملة الاسمية المركبة «زيد جاء» يستخدم م. برافمان التعبير الذي استعمله قبله المستشرق ريكيندورف فيسميها الجملة ذات المنسد إليه

الطبيعي المنفصل. ويقترح برافمان فهم علاقة :

المسند إليه الطبيعي المنفصل (isolated natural Subject) + المسند الطبيعي (Natural predicate) .

على أنها علاقة :

مسند إليه نفسي أو منطقي (Psychological-logical Subject) + مسند نفسي أو منطقي (Psychological-logical Predicate) .

يرى م. برافمان أن النظرية العربية للجملة الاسمية تعكس البنية النفسية الحقيقية الموجودة في أساس الظواهر النحوية المختلفة في ذهن المتكلم. ويشير إلى أن عنصري الجملة الاسمية المركبة «المسند اليه الطبيعي المنفصل + المسند الطبيعي» لهما منذ البداية وظائف مختلفة ويعبران عن العلاقة المتبادلة بين السؤال والجواب.

فالاسم الذي يؤدي وظيفة ما يسمى بالمسند إليه الطبيعي المنفصل يعتبر العنصر الوحيد في الفكرة وكل ما هو معلوم بالنسبة للمتكلم في بداية الكلام. ولذلك فانه يعتبر اساساً للجملة أي المسند إليه الطبيعي فيها. أما الجزء الباقي من الجملة أي ما يسند إلى المسند إليه ويؤدي وظيفة مسند طبيعي، فإنه يعتبر لفترة من الزمن خافياً عن وعي المتكلم، بعكس الحال في الجملة البسيطة العادية حيث تكون أجزاؤها كلها متصلة بعضها ببعض في تسلسل متصل لا يتخلله أي توقف أو انقطاع.

إن عدم وجود جزء اسنادي يربط بين المسند إليه والمسند في الجملة ذات المسند إليه الطبيعي المنفصل يستدعي بالضرورة سؤالاً، حيث ان المتكلم يضطر إلى السؤال عن العناصر اللازمة أي عن المسند الطبيعي. والرغبة في معرفة ما هو خاف يتم التعبير عنها في تنغيم خاص. والجواب عن هذا السؤال الذي يوجهه المتكلم إلى نفسه يتألف من جملة تعبر عن عملية فكرية معينة، جملة يضيفها المتكلم إلى المسند إليه الطبيعي المنفصل بعد توقف يستمر الحد الأدنى الممكن زمنياً.

ويضيف الأستاذ م. برافمان أن السؤال الذي يستدعيه المسند إليه الطبيعي المنفصل يعتبر نموذجاً خاصاً من السؤال يتميز عن النماذج العادية للسؤال. وهذا

صحيح برأينا، إلا أن هذا السؤال لا يوجهه المتكلم إلى نفسه ثم يجيب عنه، بل يقدر المتكلم أن حاجة السامع تستوجب طرح مثل هذا السؤال، لذا يعمد المتكلم إلى الاجابة عن ذلك السؤال المفترض.

أما الأستاذ أ. بيستون فانه يؤكد في كتابه «اللغة العربية اليوم»(٢٨) ان التحليل البنوي الشكلي لا يعطي دوماً نفس النتائج التي يعطيها التحليل المنطقي. ويستخدم اصطلاحي «الموضوع ـ Theme» و«المسند ـ Predicate» إلا انه يستخدمهما بمعنى «المسند اليه المنطقي ـ Logical subject» و«المسند المنطقي Logical predicate».

ويميز أ. بيستون بنيتين للجملة العربية: «البنية ذات الموضوع في بدايتها» و «البنية الفعلية ذات الفعل في بدايتها». ويقول إن «الموضوع» في هذين النموذجين للجملة يؤدي وظيفة منطقية واحدة.

ويشير أ. بيستون إلى أنه من المهم جداً المقارنة بين بنية الجملة ذات الموضوع في البداية وبنية ا‍ا‍ لة الفعلية التي يكون في بدايتها الفعل المسند. ويقول إن الفرق بين هاتين الجملتين (مثلاً: The King died- الملك مات و Died-the king, مات الملك» يوجد فقط في ذهن المتكلم. ان أ. بيستون يؤكد ان كلمة «the king- الملك» تؤدي وظيفة منطقية واحدة في كلا الشكلين للجملة على الرغم من الاختلاف في بنيتيهما. ويمكن ان يعكس ذلك بعض الاختلاف في علاقة المتكلم النفسية تجاه الأمر الذي يتم إثباته. ولكنه اضطر نظراً لوجود اختلاف بين البنيتين إلى استعمال اصطلاح خاص « «agent ـ فاعل» للاشارة إلى الوحدة التي تعتبر الموضوع منطقياً ولكنها تدخل في بنية الجملة ذات الفعل المسند في بدايتها. أي أن أ. بيستون يقر بضرورة التمييز بين بنيتين للجملة العربية تبعاً لابتدائها بفعل أو اسم. وعلى الرغم من أن كلمة «الملك» هي من الناحية المنطقية مسند إليه في البنيتين إلا أنها تكون بعد الفعل فاعلاً، وتكون قبل الفعل موضوعاً للكلام أي مبتدأ.

وبعد استعراض آراء بعض المستشرقين في بنية الجملة العربية تبين لنا ان الخصائص البنوية للغة العربية تستوجب تمييز نوعين من الجملة تبعاً للكلمة الأولى فيها «فعل ام اسم». فالأمر إذن ليس خطيئة منطقية وقع فيها علماء العربية في عصور التدوين الأولى، كما توهم الأستاذ ساطع الحصري، حين ميزوا نوعين من الجملة: جملة الفعل والفاعل وجملة المبتدأ والخبر. ان التمييز بين بنيتين «الجملة التي

تبتـدىء بفعـل والجملة التي تبتـدىء باسم» ينطلق من التمييز بين مفهومين قواعديين هما «الفاعل» و«المبتدأ».

ولا يعني ذلك مطلقاً أن علماء العربية قد ارتكبوا خطأ منطقياً. فهم جميعاً منذ سيبـويـه قالـوا إن الفعـل «قام» في جملتي «قام زيد» و«زيد قام» هو «مسند» لأنه خبر منطقي أومعنوي، كما قالوا إن الاسم «زيد» في هاتين الجملتين هو «مسند إليه» لأنه فاعـل منطقي أومعنـوي. وهكذا يتضح أن تمييز علماء العربية بين مفهومين نحويين هما «الفاعل» و«المبتدأ» لم يقم على أساس منطقي، بل انطلق من أساس آخر.

لقـد عرف الزمخشري المبتدأ والخبر قائلاً: «هما الاسمان المجردان للاسناد نحـو قولـك «زيـد منطلق». والمـراد بالتجـريـد اخـلاؤ همـا من العوامل» [٢٩]. وذكر الجـرجـاني أنـه «لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوي اسناده إليه» [٣٠]. وحـول الفـرق بين رفـع المبتـدأ ورفع الفاعل يقول ابن الخشاب: «فالمحمول على الفـاعـل «الـذي هو أصـل في استحقـاق الـرفع» المبتدأ وخبره، لأن المبتدأ لم يدخله الـرفـع دون غيـره من ضروب الاعراب للفرق بينه وبين غيره كما دخل الفاعل للفـرق بينـه وبين المفعـول؛ فالـرفع في الفاعل لموجب أوجبه له وهو طلب الفرق، والـرفـع في المبتـدأ لا للفـرق، فبان أنه محمول على غيره. وليس هناك شيء يشبهه المبتدأ، فيحمل عليه سوى الفاعل، وشبهه به أنه أحد ركني الجملة المبتدئية، كما أن الفاعل أحد ركني الجملة الفاعلية، ثم إنه الركن المسند إليه غيره كما أن الفاعل ايضاً كذلك؛ ولما كان الخبر في الأصل هو المبتدأ في المعنى كان أيضاً كذلك فرعاً على الفاعل فلو قلت: إن الخبر محمول على المحمول على الفاعل وهو المبتدأ لما أبعدت» [٣١].

وكنـا قد ذكـرنـا أعلاه أننا نرى أن رفع المبتدأ رفع مطلق بمعنى أنه ليس لطلب الفـرق بين المعـاني، وأن رفـع الفـاعـل رفـع مقيـد بعمـل الفعل الذي يسبقه وذلك للتفريق بين الفاعل والمفعول، وأن رفع الخبر مطلق أيضاً لأنه ليس لطلب الفرق بين المعاني.

وعرف الزمحشري الفاعل بأنه «ما كان المسند إليه من فعل أو شبهه مقدماً عليه ابـداً كقـولك ضَرب زيد وزيد ضارب غلامه وحسن وجهه وحقه الرفع ورافعه ما أسند إليـه. والأصـل فيه أن يلي الفعل لأنه كالجزء منه» [٣٢]. وعن الفاعل يقول ابن يعيش

«. . . خبر الفاعل الذي هو الفعل لم يتقدم لمجرد كونه خبراً إذ لو كان الأمر كذلك لوجب تقديم كل خبر من نحو زيد قائم وعبد الله ذاهب فلما لم يجب ذلك في كل خبر علم انه إنما وجب تقديم خبر الفاعل لأمر وراء كونه خبراً وهو كونه عاملاً فيه ورتبة العامل أن يكون قبل المعمول وكونه عاملاً فيه سبب أوجب تقديمه فاعرفه، وفي الجملة الفاعل في عرف هذه الصنعة أمر لفظي يدل على ذلك تسميتهم إياه فاعلاً في الصور المختلفة من النفي والإيجاب والمستقبل والاستفهام ما دام مقدماً عليه . . ويؤيد إعراضهم عن المعنى عندك وضوحاً أنك لو قدمت الفاعل فقلت «زيد قام» لم يبق عندك فاعلاً وإنما يكون مبتدأ وخبر معرضاً للعوامل اللفظية»[٣٣].

من ذلك كله نستنتج ما يلي:

١ ـ المبتدأ والخبر اسمان مرفوعان رفعاً مطلقاً ويربط بينهما الاسناد الذهني. ولكي يكون الاسم مرفوعاً رفعاً مطلقاً «أي رفعاً ليس لطلب الفرق بين معاني الفاعلية والمفعولية والاضافة» ينبغي أن يكون كلمة منفصلة صرفياً ودلالياً في آن واحد. ويتحقق ذلك في الاسم المتمكن المجرد من العوامل.وفي الضمير المنفصل الخاص بالرفع. لذا فإن المبتدأ والخبر ركنا الجملة المبتدئية «حسب قول ابن الخشاب الذي نؤيده ونأخذ به» المؤلفة من جزأين منفصلين صرفياً ودلالياً بعضهما عن بعض ويربط بينهما الاسناد الذهني الذي يتجلى في ضرورة مطابقة الخبر «المسند» مع المبتدأ «المسند إليه» في الافراد والتثنية والجمع وفي التأنيث والتذكير، فنقول:

الطالب مجتهد	والطالبة مجتهدة
الطالبان مجتهدان	والطالبتان مجتهدتان
الطلاب مجتهدون	والطالبات مجتهدات

٢ ـ الفاعل المعبر عنه باسم ظاهر مرفوع يلي الفعل ليس جزءاً منفصلاً عن الفعل الذي يسبقه، وذلك لأن الفعل في الموضع الأول في الجملة «أي في بداية السياق» يكون في صيغة فارغة لا تشتمل على ضمير المسند إليه، لذا فإن هذا الفعل كلمة منفصلة صرفياً ولكنها غير منفصلة دلالياً عن المسند إليه المعبر عنه باسم ظاهر مرفوع تستوجب أن يليها. وعليه فإن الفعل والفاعل ركنا الجملة الفاعلية «حسب قول ابن الخشاب الذي نؤيده ونأخذ به» المؤلفة من جزأين

منفصلين صرفياً وغير منفصلين دلالياً بعضهما عن بعض. ويتجلى عدم انفصال الفعل والفاعل بعضهما عن بعض في عدم مطابقة المسند «الفعل» مع المسند إليه «الفاعل» في الافراد والتثنية والجمع، وتكون المطابقة واجبة فقط في حالة التأنيث الحقيقي للفاعل، فنقول:

جاء الطالب	وجاءت الطالبة
جاء الطالبان	وجاءت الطالبتان
جاء الطلاب	وجاءت الطالبات

٣ ـ الخبر في الجملة المبتدئية يمكن أن يكون مفرداً أو جملة. ولما كانت بنية الجملة المبتدئية مؤلفة من جزأين منفصلين بعضهما عن بعض، كان لا بد في الجملة الواقعة خبراً من عائد يربطها بالمبتدأ. وقد أشار الزمخشري إلى ذلك حين قال: «الخبر على نوعين مفرد وجملة.. والجملة على أربعة أضرب فعلية واسمية وشرطية وظرفية وذلك «زيد ذهب أخوه» و«عمرو أبوه منطلق» و«بكر إن تعطه يشكرك» و«خالد في الدار». ولا بد في الجملة الواقعة خبراً من ذكر يرجع إلى المبتدأ»[٣٤]. وحين قال أيضاً: «وتقول «زيد ضرب» فتنوي في «ضرب» فاعلاً وهو ضمير يرجع إلى «زيد» شبيه بالتاء الراجعة إلى «أنا» و«أنت» في «أنا ضربت» و«أنت ضربت»»[٣٥].

٤ ـ لقد استخدم علماء العربية قبل السكاكي تعبير «جملة فعلية» و«جملة اسمية» لدى وصف الجملة التي تكون خبراً لمبتدأ. واستخدم السكاكي في «مفتاح العلوم» تعبير «الجملة الفعلية» و«الجملة الاسمية» بشكل عام حين ذكر أن «الاسناد هو تركيب الكلمتين أو ما جرى مجراهما على وجه يفيد السامع كنحو عرف زيد ويسمى هذا جملة فعلية أو زيد عارف أو زيد أبوه عارف ويسمى هذا جملة اسمية»[٣٦].

وواضح ان السكاكي قد استخدم تعبير «الجملة الفعلية» للإشارة إلى جملة الفعل والفاعل «عرف زيد»، وتعبير «الجملة الاسمية» للإشارة إلى جملة المبتدأ والخبر المفرد «زيد عارف» وللإشارة أيضاً إلى الجملة المركبة من المبتدأ والخبر غير المفرد حين يكون الخبر جملة اسمية «زيد ابوه عارف». ولم يذكر السكاكي تسمية للجملة المركبة من المبتدأ والخبر غير المفرد حين يكون الخبر

جملة فعليــة كمـا في «زيـد قام» او «زيـد قام أبـوه» . فظن بعض من جاء بعـد السكـاكي ان مثـل هذه الجملة اسميـة لأن الجزء الأول منها اسم . والحقيقة أن جملة «زيـد قام» أو «زيـد قام ابـوه» ليست جملة اسميـة بل هي جملة مركبـة من مبتدأ وخبر غير مفرد هو جملة فعلية .

هوامش الفصل الثالث

١ ـ «مفتاح العلوم» ، ص ٤
٢ ـ «المرتجل» لابن الخشاب ـ تحقيق علي حيدر ـ منشورات دار الحكمة بدمشق ١٩٧٢ ، ص ٥
٣ ـ «شرح المفصل» لابن يعيش ـ جـ ٣/ص ٨٠
٤ ـ «المرتجل»، ص ٨ ـ ٩
٥ ـ «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق علي حيدر ـ منشورات دار الحكمة بدمشق ١٩٧٢ ، ص ٣١
٦ ـ للتوسع في الموضوع ارجع إلى كتاب «نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي» المشار إليه أعلاه.
٧ ـ «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي ـ تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة، مقدمة المحقق، وارجع إلى ما كتبه د. شوقي ضيف حول الموضوع في كتاب «المدارس النحوية» المشار إليه أعلاه.
٨ ـ «الخصائص» جـ١/ص ١٠٩ ـ ١١٠
٩ ـ «الجمل»، ص ١١ ـ ١٢
١٠ ـ «الجمل»، ص ٣٦
١١ ـ «شرح المفصل» لابن يعيش ـ جـ ١/ص ٧٣
١٢ ـ «المرتجل»، ص ٣٤
١٣ ـ «شرح المفصل» لابن يعيش ـ جـ ١/ص٤٩
١٤ ـ «شرح المفصل» لابن يعيش ـ جـ ١/ص ٧٢
١٥ ـ «دلائل الاعجاز» لعبد القاهر الجرجاني، مقدمة المؤلف، الصفحة ن
١٦ ـ «مفتاح العلوم» ص ٣٧
١٧ ـ «الجمل» ، ص ٤٠
١٨ ـ «المرتجل»، ص ٢٧
١٩ ـ «المفصل في علم العربية»، ص ٦
٢٠ ـ «شرح المفصل» جـ ٩٥/١
٢١ ـ للتوسع في الموضوع ارجع إلى كتابنا «نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة» المشار إليه أعلاه/ التمهيد.
٢٢ ـ انظر «تحرير النحو العربي» ـ قواعد النحو مع التيسير الذي قرره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ألفه الأساتذة ابراهيم مصطفى وإخوانه ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٨

٢٣ ـ ساطع الحصري «آراء وأحاديث في اللغة والأدب» ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط١، ١٩٥٨

٢٤ ـ «آراء وأحاديث» ص ٨٦

٢٥ ـ ب . م . غرانده «القواعد العربية في عرض تاريخي مقارن» ـ صدر بالروسية عن دار الآداب الشرقية ـ موسكو ١٩٦٣ .

٢٦ ـ غ . ب . ميلنيكوف «التأثير المتبادل لبنية المستويات اللغوية في اللغات السامية» ضمن مجلد «اللغات السامية» ـ صدر بالروسية عن دار «العلم» ـ موسكو ١٩٦٥ .

٢٧ ـ م . برافمان «دراسات في النحو العربي والعام» ـ صدر بالإنكليزية عن مطبعة معهد الآثار الفرنسي للاستشراق ـ القاهرة ١٩٥٣ .

٢٨ ـ أ . بيستون «اللغة العربية اليوم» ـ صدر بالانكليزية عن مكتبة جامعة هوتشيسون ـ لندن ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠

٢٩ ـ «المفصل»، ص ٢٣

٣٠ ـ «دلائل الإعجاز»، ص ٨٧ ـ ٨٨

٣١ ـ «المرتجل»، ص ٣١٣ ـ ٣١٤

٣٢ ـ «المفصل»، ص ١٨

٣٣ ـ «شرح المفصل»، جـ١/ص٧٤

٣٤ ـ «المفصل»، ص ٢٤ ـ ٢٥

٣٥ ـ «المفصل»، ص ١٨

٣٦ ـ «مفتاح العلوم»، ص ٤٢

الخاتمة

سنذكر في البدء بعض النقاط الهامة التي بحثناها في فصول هذا «المختصر»، وذلك تمهيداً للإشارة السريعة إلى بعض أسرار بنية اللسان العربي.

الفصل الأول «اللسان العربي المبين».

لقد حفزني النص الصريح في القرآن الكريم بأنه عربي وبلسان عربي مبين إلى طرح عدة تساؤلات منها: ما هو اللسان العربي المبين؟ وما هي اللغة العربية الفصحى؟ ولماذا أحجمنا عن استخدام المصطلح القرآني «اللسان العربي المبين»؟! وبنتيجة البحث المتواصل خلال أكثر من عشرين عاماً في دراسة الخصائص البنوية المميزة للنظام اللغوي للعربية توصلت إلى النتائج التالية:

١ ـ لغة القرآن الكريم شاهد تاريخي يقيني على أصالة اللسان العربي.
٢ ـ خصائص البنية الصوتية للعربية تعكس محاكاة الإنسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة وتؤكد بدائية نشأة اللسان العربي.
٣ ـ المادة اللغوية للعربية المتوافرة حتى يومنا الراهن والتي حفظها لنا نظام المعجم العربي تقدم شواهد تاريخية علمية تكشف زيف فرضية أسرة اللغات السامية والشعب السامي.

الفصل الثاني «في تاريخ النحو والبلاغة».

لدى دراسة تاريخ علوم اللغة العربية في ضوء اللسانيات الحديثة، ظهر لنا أن دراسة العربية مرت بثلاث مراحل هي:

١ - **مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية**. وقد اختتمها سيبويه بكتابه الذي اشتمل على قواعد العربية بصيغتها المكتملة. واستخدم العلماء فيها **منهجاً وصفياً وظيفياً يصف البنية اللغوية ويبين وظيفتها الإبلاغية**.

٢ - **مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة** التي بدأت مع تدريس كتاب سيبويه وأدت إلى ظهور الخلاف النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة. ويرى بعض الباحثين أنه ظهرت فيما بعد مدرسة ثالثة هي المدرسة البغدادية. ونرى أنه قد ظهر مع أبي علي الفارسي اتجاه جديد سميناه **مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية**. سار في هذا الاتجاه وبلوره **ابن جني** في «الخصائص» **وعبد القاهر الجرجاني** في «دلائل الإعجاز» في نظريتين لغويتين متتامتين.

٣ - **مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو**. وقد بدأ **عبد القاهر الجرجاني** هذه المرحلة وبلور ملامحها خاصة في كتابه «**دلائل الإعجاز**». ثم سار **الزمخشري** في هذا الاتجاه وعمقه خاصة في كتاب «**المفصل** في علم العربية» الذي اشتهر شرح ابن يعيش له. وجاء السكاكي فتبنى هذا الاتجاه وطوره في كتابه «**مفتاح العلوم**»، حيث بين أن علم المعاني هو دراسة تطبيقية تتجلى في تتبع كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة عن طريق دراسة الجملة في السياقات المختلفة. ولكن **القزويني في** «**الإيضاح**» قدم تعريفاً بديلاً لعلم المعاني أسقط منه الجانب التطبيقي الذي أكده السكاكي، وكرس القزويني بذلك **فصل النحو والبلاغة** بعضهما عن بعض. ولا يزال هذا الاتجاه سائداً إلى اليوم.

الفصل الثالث «في النحو العربي».

لدى دراسة بعض الأبواب في النحو العربي، استخدمنا منهجاً علمياً

يأخذ بآخر ما وصلت إليه اللسانيات الحديثة وينبع في الوقت نفسه من تراث
اللغوي العربي. فبحثنا في الكلمة في العربية وأقسامها، وفي الخصائص
البنوية للفعل والاسم، وفي نمطي الجملة العربية.

ونجمل بعض أسرار بنية اللسان العربي في النقاط التالية:

١ - يوجد في العربية نمطان للكلمة: كلمة متصلة صرفياً وكلمة منفصلة صرفياً.

٢ - يتميز الفعل في العربية بأنه يكون دائماً في صيغة شخصية مصرفة. وللفعل العربي ثلاث صيغ مختلفة من حيث البنية هي التالية:

آ - صيغة الفعل جملة تتألف من كلمة منفصلة صرفياً ودلالياً لأنه يستكن في آخرها ضمير المسند إليه، نحو: قم «أنت»، نكتب «نحن»، الولد جاء «هو».

ب - صيغة الفعل جملة تتألف من كلمتين متصلتين صرفياً ودلالياً، نحو: كتبنا.

جـ - صيغة الفعل ليست جملة، بل كلمة منفصلة صرفياً وغير منفصلة دلالياً لأنها فارغة لا تشتمل في آخرها على ضمير المسند إليه، ويقتصر ذلك على أربع صيغ خاصة بالشخص الثالث من دون تحديد عدده والمستخدمة في بداية السياق الكلامي «أي في الموضع الأول في الجملة». لذا فإن صيغة الفعل الفارغة تستوجب أن يليها اسم ظاهر مرفوع هو المسند إليه، نحو: جاء ∅ الولد.

٣ - قسم العلماء الاسم العربي إلى نوعين: متمكن هو الاسم الظاهر المعرب، وغير متمكن هو الاسم المبني. وقررنا أن للإسم المتمكن أربع صيغ مختلفة من حيث البنية هي:

آ - صيغة الاسم المحلى بأل، وهي كلمة منفصلة صرفياً ودلالياً.

ب - صيغة الاسم المنون، وهي كلمة منفصلة صرفياً ودلالياً.

جـ - صيغة الاسم المضاف إلى ضمير متصل، وهي كلمة متصلة صرفياً ودلالياً.

د - صيغة الاسم المضاف إلى اسم محلى بأل أو منون، وهي كلمة منفصلة صرفياً وغير منفصلة دلالياً.

٤ - انعكست الخصائص البنوية للفعل والاسم في العربية على خصائص بنية

الجملة العربية. لذا يميز نمطان للجملة مختلفان من حيث البنية هما:

آ - جملة الفعل والفاعل «الجملة الفاعلية». تتألف بنيتها من جزأين منفصلين صرفياً وغير منفصلين دلالياً بعضهما عن بعض هما الفعل وفاعله الذي يليه. ويتجلى عدم انفصالهما في عدم مطابقة المسند «الفعل» مع المسند إليه «الفاعل» في الإفراد والتثنية والجمع.

ب - جملة المبتدأ والخبر «الجملة المبتدئية». تتألف بنيتها من جزأين منفصلين صرفياً ودلالياً بعضهما عن بعض ويربط بينهما الإسناد الذهني الذي يتجلى في ضرورة مطابقة المسند «الخبر» مع المسند إليه «المبتدأ» في الإفراد والتثنية والجمع وفي التذكير والتأنيث.

ونصل أخيراً إلى الحديث عن المنهج الذي أعاننا على كشف أسرار بنية اللسان العربي. وبما أننا تعمقنا في دراسة الخصائص البنوية المميزة للنظام اللغوي للعربية، من خلال سعينا إلى فهم المقولة القرآنية «القرآن عربي وبلسان عربي مبين»، رأينا أن نعطي التعريف الموجز بالمنهج الذي أوصلنا إلى النتائج المعروضة في هذا «المختصر» العنوان التالي: «الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللسان العربي المبين»، ونثبته بعد هذه الخاتمة.

ما بعد الخاتمة

الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللسان العربي المبين.

أشرنا أعلاه إلى أن علماء العربية استخدموا منذ المرحلة الأولى التي مرت بها دراسة العربية «مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية» منهجاً وصفياً وظيفياً «يصف البنية اللغوية ويبين وظيفتها الإبلاغية». وبفضل هذا المنهج **تمكن علماء العربية الأوائل من الكشف الصحيح عن الخصائص البنوية المميزة للنظام اللغوي للعربية، ووضعوا قواعد النحو والصرف العلمية الدقيقة الملائمة لتلك الخصائص البنوية للعربية**. وفي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو، كانت مؤلفات عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن يعيش والسكاكي أمثلة تطبيقية رائعة للمنهج الوصفي الوظيفي، واشتملت على قواعد الصرف والنحو والبلاغة معروضة بشكل علمي لا يفصل البنية اللغوية عن الوظيفة الإبلاغية التي تؤديها.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء العربية، **بعد كشفهم الصحيح عن خصائص بنية الكلمة والجملة في العربية** بفضل استخدام المنهج الوصفي الوظيفي، **حاولوا تقديم تفسيرات لأسباب تمتع العربية بخصائصها البنوية المميزة عن طريق بحثهم فيما سموه «الأصل والفرع»**. ونكتفي في هذا «المختصر» باستعراض رأي علماء العربية في مسألة أصل الاشتقاق.

اعتمد علماء البصرة في مسألة أصل الاشتقاق مبدأ «التجرد والزيادة» في البنية الدلالية للكلمة. فصيغة الكلمة التي تقتصر بنيتها الدلالية على المعنى المشترك بين جميع المشتقات «وهو الحدث» هي الأصل، أما بقية الصيغ التي تشتمل بناها الدلالية على زيادات على ذلك المعنى المشترك فهي فروع للأصل أي بنى مشتقة منه. لذا قرر البصريون أن المصدر هو الأصل في الاشتقاق والفعل الماضي مشتق منه. **واعتمد علماء الكوفة في مسألة أصل الاشتقاق مبدأ «التجرد والزيادة» في البنية الصرفية للكلمة**. فصيغة الكلمة التي تكون بنيتها الصرفية أكثر تجرداً «وهي الماضي المجرد المسند إلى المفرد الغائب نحو ضرب» هي الأصل، أما بقية الصيغ التي تشتمل بناها الصرفية على زيادات على البنية الأصلية فهي فروع لها أي بنى مشتقة منها. لذا قرر الكوفيون أن الفعل الماضي هو الأصل في الاشتقاق والمصدر مشتق منه.

ونتساءل: **هل نجحت نظرية علماء العربية حول الأصل والفرع في تقديم التفسيرات العلمية لأسباب تمتع العربية بخصائصها البنوية المميزة؟**

انطلق دوسوسور[1] من أن اللغة تتضمن في كل لحظة نظاماً قائماً وتطوراً في آن واحد، وهي في كل لحظة مؤسسة راهنة ونتاج للماضي. ومن هذا الفهم تنبع فكرة التزامن (SYNCHRONIE) والتعاقب (DIACHRONIE). فالتزامن يعني تقدير الأشياء من وجهة نظر محددة بنقطة زمنية معينة. والمنهج المتزامن في الدراسة اللسانية يعني العكوف على دراسة اللغة أو احدى ظواهرها في حيز زمني محدد بصرف النظر عن حالة اللغة أو الظاهرة قبل وصولها إلى الحالة المدروسة وبصرف النظر أيضاً عن حالتها بعدها. ومفهوم التزامن يقابله مفهوم التعاقب أو التطور، وهو في علم اللسان المنهج الذي تدرس به ظاهرة لغوية ما عبر تطورها التاريخي. وكان دوسوسور يرى أن التزامن والتعاقب في اللغة يجب أن يدرسا في علمين منفصلين، لأن التزامن يرتبط بالنظام ولكنه مفصول عن علاقات الزمن، بينما يرتبط التعاقب بالزمن ولكنه مفصول عن علاقات النظام.

ونشير بصدد التزامن والتعاقب إلى تأكيد ليفي - ستروس في كتابه «الأنثروبولوجيا البنوية» أن المقابلة بين التزامن والتعاقب في دراسة اللغة وهمية جداً، ولا يمكن أن تكون مقبولة إلا في مراحل الدراسة التمهيدية. ونذكر بملاحظة

جاكوبسون «في إحدى مقالاته» أن المقطع السكوني وهم لأنه عبارة عن طريقة علمية مساعدة وليس شكلاً من أشكال الوجود.

ويعني ذلك أنه من **أجل فهم النظام اللغوي وخصائصه البنوية المميزة يجب دراسة ظواهر اللغة في علاقاتها بعضها ببعض «دراسة تزامنية» وفي تطورها «دراسة تطورية» في آن واحد**. وفي ضوء ضرورة عدم فصل الدراسة التطورية عن الدراسة التزامنية، سنناقش نظرية علماء العربية حول الأصل والفرع.

إن مفهوم تحديد الأصل والفرع عند علماء العربية اعتمد مبدأ «التجرد والزيادة» في البنية الدلالية للكلمة أو في بنيتها الصرفية، ولم يأخذ بالحسبان عامل الأسبقية في الزمان. وقد أشار ابن جني إلى ذلك لدى عرض رأي استاذه أبي علي الفارسي في مسألة التقدم بين الاسم والفعل [٢] بقوله: «وإنما يعني القوم بقولهم إن الإسم أسبق من الفعل أنه أقوى في النفس وأسبق في الاعتقاد من الفعل لا في الزمان. فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل في الوضع قبل الاسم، وكذلك الحرف».

إننا نرى أن **تحديد الأصل والفرع لا يمكن أن يتم البحث فيه خارج محور الزمان، لأن الأصل هو بالضرورة الأسبق في الزمان والفرع هو التالي له في الزمان. والمنهج القادر على تحديد الأصل والفرع على محور الزمان هو المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية**. وينبع المنهج التاريخي العلمي الذي نتبناه في الدراسة اللغوية من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني «في الخصائص» وعبد القاهر الجرجاني «في دلائل الإعجاز» في نظريتين لغويتين متتامتين [٣]. **ويقوم المنهج التاريخي العلمي على المبادىء التالية**:

١ ـ **التلازم بين النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني. وكان إدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه البداية الأولى في تكون التفكير الإنساني. وقد نطق الإنسان الأصوات بشكل واع ليستخدمها وسيلة لنقل أغراضه للآخرين وفهم أغراضهم**.

٢ ـ لم ينشأ التفكير الإنساني مكتملاً طفرة واحدة، وانطلق خط السير العام لتطوره من ادراك المشخص المحسوس واكتمل بالانتقال إلى المجرد. كما أن النظام اللغوي لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، بل نشأ واكتمل تدريجياً بشكل مواز لنشأة

التفكير الإنساني واكتماله.

٣ ـ إنكار الترادف الذي قد يظنه بعضهم سبباً لتميز لغة ما بثراء مفرداتها وسعة التعبير فيها. والنظر إلى ما يعد من الترادف في لغة ما على أنه يعكس مرحلة تاريخية قديمة كانت فيها ألفاظ تلك اللغة تعبر عن التفكير القائم على إدراك المشخص ولم تكن فيها التسميات الحسية قد استكملت بعد تركيزها في تجريدات.

٤ ـ يؤلف النظام اللغوي كلاً واحداً توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه في علاقة تأثير متبادل فيما بينها. ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى.

٥ ـ يجب علينا لدى دراسة النظام اللغوي أن نهتم بما هو عام ومطرد من دون أن نهمل الاستثناءات، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد. وبذا نتمكن من دراسة النظام اللغوي في وضعه الراهن «المتزامن» وفي تطوره في آن واحد.

وباستخدام المنهج التاريخي العلمي في دراسة المادة اللغوية للعربية، تأكد لنا تمايز الأصل في المعجم العربي عن أصل الاشتقاق في العربية. فقررنا أن **الأصل في المعجم** رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية أخرى. **والأصل في الاشتقاق** هو الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى على محور الزمان. فما هي تلك الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى؟! إنها برأينا صيغة الأمر «أو الطلب» للمواجه «الشخص الثاني»[١].

إن المنهج التاريخي العلمي يبين أن الأصل في الاشتقاق لا يمكن أن يكون المصدر «كما يقول البصريون» لأن المصدر يعبر عن الحدث مجرداً من الزمان وهو بذلك في أعلى درجات التجريد، والأصل الأول كان بالضرورة مرتبطاً بالتعبير القائم على التفكير المشخص. كما يبين المنهج التاريخي العلمي أن **الأصل في الاشتقاق** لا يمكن أن يكون الفعل الماضي المسند للشخص الغائب «كما يقول الكوفيون» لأن صيغة هذا الفعل تفيد إخباراً عن فعل قام به غائب، ولا يمكن أن يكون الأصل الأول مما يفيد الإخبار لأن وظيفة الإخبار لا يمكن أن تكون الوظيفة الإبلاغية الأولى

التي تؤديها اللغة. ويؤكد المنهج التاريخي العلمي أن الأصل في الاشتقاق هو صيغة الأمر «الطلب» للمواجه لأن مثل هذه الصيغة تعبر عن الرغبة في التعاون المشترك بين الناس وتكون بداية للتخاطب الإنساني اللساني: فالطلب يستوجب جواباً للطلب في صيغة الإخبار.

وتبقى كلمة أخيرة نختم بها «الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللسان العربي المبين» وهي التالية: القرآن عربي وأنزل بلسان عربي مبين. ومن أجل فهم أسرار إعجازه البلاغي لا بد من التعمق في فهم المنهج الوصفي الوظيفي، مع تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو على غرار ما فعله الجرجاني والزمخشري والسكاكي. ومن أجل فهم أسرار إعجازه العلمي لا بد من التعمق في فهم المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، مع تأكيد إنكار ظاهرة الترادف والبحث عن الفروق الدقيقة بين ما يظن أنه من المترادفات.

والله ولي التوفيق

هوامش الخاتمة

١ ـ ارجع إلى «محاضرات في الألسنية العامة» ـ ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ـ المؤسسة الجزائرية للطباعة ـ ١٩٨٦

٢ ـ «الخصائص» لابن جني، باب في هذه اللغة: أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط؟

٣ ـ ارجع إلى كتابنا «نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة»، ص ٣٨ ـ ٤١

٤ ـ للتوسع في الموضوع إرجع إلى بحثنا «نظرية جديدة في دراسة بنية اللسان العربي» المنشور في كتاب أشغال الملتقى الرابع للسانيات «اللسانيات العربية والإعلامية» بتونس/ نوفمبر ١٩٨٧، الصادر عن مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية في الجامعة التونسية ـ سلسلة اللسانيات رقم ٧ ـ تونس ١٩٨٩

وارجع كذلك إلى بحثنا «نظرية جديدة في دراسة بنية اللسان العربي/ القسم الأول ـ تصريف الأفعال» المنشور في «اللسان العربي» بالرباط ـ العدد ٣٢ لعام ١٩٨٩

الكتاب والقرآن

قدم المؤلف في هذا الكتاب قراءة معاصرة، ونظرة جديدة للإسلام، تنطلق من خصائص اللسان العربي، ووقوفاً على الأرضية الفلسفية والمعرفية للقرن العشرين. وقد عرض وجهة نظر جديدة إلى الوجود والمعرفة والتشريع والأخلاق والجمال والاقتصاد والتاريخ، استنتجها حصراً من آيات الذكر الحكيم، آخذاً بعين الاعتبار شمولية الإسلام، التي جاءت من حنيفيته بالتشابه وبالحدود.

لقد تبين للمؤلف أن العمود الفقري للعقيدة الإسلامية، هو قانون تغير الصيرورة (التطور)، حيث تكمن عقيدة التوحيد، وقانون تغير الأشياء وانطلاقاً من هذه النظرة، وضع المؤلف تعريفاً للإسلام وفقاً للآية الكريمة ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، وتوصل إلى وضع منهج جديد في أصول التشريع الإسلامي القائم على البينات المادية، وإجماع أكثرية الناس، وإن حرية التعبير عن الرأي وحرية الاختيار، هما أساس الحياة الإنسانية في الإسلام.

السعر ٥٠٠ ل.س